المنظمة العربية للترجمة

إريكْ هوبْزْباوْم

كيفية تغيير العالم

حكايات عن ماركس والماركسية

ترجمة
حيدر حاج اسماعيل

بدعم من مؤسسة عبد الحميد شومان

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

المنظمة العربية للترجمة

إريكْ هوبْزْباوْم

كيفية تغيير العالم

حكايات عن ماركس والماركسية

ترجمة

حيدر حاج اسماعيل

مراجعة

هيثم غالب الناهي

الفهرسة أثناء النشر إعداد المنظمة العربية للترجمة
هوبْزْباوْم، إريكْ
كيفية تغيير العالم: حكايات عن ماركس والماركسية/ إريكْ هوبْزْباوْم؛
ترجمة حيدر حاج اسماعيل؛ مراجعة هيثم غالب الناهي.
461 ص. - (علوم إنسانية واجتماعية)
يشتمل على فهرس.

ISBN 978-614-434-063-9

1. السياسة. 2. الاقتصاد. أ. العنوان. ب. حاج اسماعيل، حيدر (مترجم).
ج. الناهي، هيثم غالب (مراجع). د. السلسلة.
335

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات تتبناها المنظمة العربية للترجمة»

Hobsbawm, Eric
How to Change the World: Reflections on Marx and Marxism

المنظمة العربية للترجمة

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996-113
الحمراء - بيروت 2090 1103 - لبنان
هاتف: 753031 - 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - Web Site: http://www.aot.org.lb

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 - 113
الحمراء - بيروت 2407 2034 - لبنان
تلفون: 750084 - 750085 - 750086 (9611)
برقياً: «مرعربي» - بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، آذار (مارس) 2015

المحتويات

مقدمة المترجم

هذا الكتاب الذي قمنا بترجمته جامع مانع. هو جامعٌ ثلاث مرات نسبة لثلاثة اعتبارات. فهو جامع نسبةً إلى موضوعه الذي تركَّز إلى كيفية تغيير العالم وفقاً لما دعاه «النظرية الماركسية»، التي تشتمل أفكار كارل ماركس ورفيقه فريدريك إنجلز، ثم ما لحقها من تأويلات وتعدّدية مذهبية.

وهو جامع نسبة إلى محتوياته. فيكفي إلقاء نظرة على محتويات الكتاب وقبل المباشرة بقراءته، من قِبَل القارئ، حتى يتبيّن له صحة ما نقول. فالكتاب يتألف من 16 فصلاً، وكل فصل يصلح بموضوعه وبما ورد فيه أن يكون كتاباً، في حدّ ذاته، بعد مقدار مناسب من التوسيع.

وهو جامع لأنه غطى مسافة زمنية تعادل القرن والنصف تقريباً، بدءاً من النصف الأخير من القرن التاسع عشر إلى يومنا تقريباً.

غير أن السؤال المهم، وقد طرحه مؤلف الكتاب إرِيك هوبْزْباوْم (Eric Hobsbawm) هو: هل نجحت الماركسية، بفضل جهاد أتباعها، في تغيير العالم؟ والسؤال في محله، فالماركسية زعمت أنها قادرة على التغيير الجذري عبر القضاء على نمط الإنتاج الرأسمالي الاستغلالي لملايين العمال في طول العالم وعرضه، وبأسلوب الصراع الطبقي العنفي. ورأى واضعاها (ماركس وإنجلز) ووافقهم أتباعهم أن

التاريخ كله، من أوله إلى آخره هو تاريخ صراع طبقي، ابتدأ بصراع العبيد ضد الأسياد وتبعه صراع الفلاحين ضد الإقطاعيين، واليوم هو صراع طبقة العمال (البروليتاريا) ضد طبقة الرأسماليين.

أما الجواب على السؤال، فكان أجوبة عرضها المؤلف بمقدار لا يستهان به من الموضوعية والتحليل المتوازن. فذكر مما ذكر أن العالم تغيّر فعلاً وأن الماركسية ذاتها تغيرت معه!

وفي مجال التغيرات التي طرأت على الفكر الماركسي يذكر المؤلف ظواهر لم تكن لتخطر على بال أحد إلا النفر القليل من المفكرين المتابعين والاختصاصيين. فقد أصاب الماركسية انشقاقات وتحولت جماعتها إلى شيع وغير ذلك من الظواهر التي تذكرنا بما حلّ بالعقائد الدينية في الماضي.

أما وصفنا للكتاب بأنه مانع، فقد قصدنا وباختصار أسلوب المؤلف الموضوعي الذي لم يكن منحازاً، واكتفى بالقيام بدور المراقب الذي يشاهد ويسجل ملاحظاته بأمانة ودقة ولا ينحاز.

ومن ملاحظاته الكثيرة نذكر أن الماركسية التي كانت أممية في صيغتها الأولى والأصلية التي عبّرت عنها عبارات من قبيل: يا عمال **العالم** اتحدوا، تحوّلت إلى ماركسيات محلية وصفت بالقول، إنها حركات تحرر وطني، وباللغة الإنجليزية حركات تحرر قومي! (National Liberati Movements)

وأخيراً أختم بالقول إنني عندما كنت أدرِّس في الولايات المتحدة الأميركية (Ohio State University) اتصلت بي جامعة جون كارولس (John Carols University) في مدينة كليفلاند (Cleveland) وهي جامعة يسوعية، وطلبت مني أن أدرِّس كارل ماركس (بوصفي مختصاً) وعند سألت مستغرباً، كان الجواب: ماركس جزء لا يتجزأ من الثقافة الغربية خاصة، والعالمية عامة. أذكر ذلك لأقول للقراء الأعزاء المؤمنين بالعقائد الدينية: لا خوف على المؤمنين ولا هم يحزنون، فالضدّ يظهر حسنه الضدُّ.

الآن أتقدم للكلام في ثلاث مسائل بغية تعريف القارئ مزيداً من حقيقة الماركسية وما انتهت إليه وما يزال قائماً لجهة علاقتها بالعلم أو بالفلسفة، وظاهرة ما صار يعرف بالشيوعية الأوروبية (Euro-Communism).

المسألة الأولى: ماركس وجوهر الماركسية

نبدأ بتعريف ماركس نفسه لماركسيته، فنذكر أنه في رسالته إلى جوزيف فايديماير (Joseph Weydemeyer)، في آذار/ مارس، 1852، يقول ماركس ما يأتي، وهو في سبيل تحديده جديده:

1. إن وجود الطبقات مرتبط، فقط، بمراحل تاريخية محدّدة في تطور الإنتاج.
2. وسيؤدي الصراع الطبقي، حتمًا، إلى دكتاتورية البروليتاريا.
3. وهذه الدكتاتورية ذاتها تؤلف فقط انتقالاً إلى إلغاء الطبقات وإلى مجتمع لا طبقي(*)

وقبل تحديده لأفكاره هو، يذكر، وفي نفس الرسالة، أنه ليس له فضلٌ في المعرفة بوجود الطبقات. فقد سبقه إليها مفكرون غيره. وأن إنجازه انحصر في فكرة تاريخيّة ظاهرة الطبقات، وفي فكرة حتمية القضاء عليها عبر الصراع الطبقي العنفي، وصولاً إلى مجتمع الشيوعية المتقدمة، مجتمع العدالة والحرية والتقدم.

غير أن أهمية ماركس ليست محصورة، في ما ذكرنا، أي في ماديّته التاريخيّة والتنبؤ، من جهته، بظهور المجتمع الشيوعي، بل تمتد أهميته لتشمل تحديده للاستغلال الطبقي ومحلّه. ولشرح ما فعل في هذا المجال نتقدم الآن.

علاقات الإنتاج الاجتماعية في المجتمع الطبقي

العلاقات الاجتماعية متعددة ومتنوعة في المجتمع: فهناك الحفلة الراقصة، والاحتفال بعرس، وهناك الحزب السياسي، والحلقة الدينية، وجلسة المحكمة، ومباراة كرة القدم، وهناك السوق، والمعمل، وغيرها كثير.

غير أن ما تجب ملاحظته هو أن العلاقات الاجتماعية ليست جميعها علاقات إنتاج اجتماعية. والفرق الحاسم الذي يشكل الفصل النوعي للأخيرة هو أننا نكتشفها في عملية الإنتاج. من هنا يبدو لنا أن البداية لتعريف تلك العلاقات الاجتماعية يجب أن تكون بتعريف الإنتاج. فما هو الإنتاج الذي ظهر لنا أن له مثل تلك الأهمية؟ وعلى سبيل المثال، وبصورة خاصة، نسأل: ما هو الإنتاج في نمط الإنتاج الرأسمالي؟

(*) Karl Marx and Friedrich Engels, *Selected Correspondence* (Moscow: Progress Publishers, 1955), p. 69.

نعرف الإنتاج، بصورة عامة، بقولنا، إنه حركة العمل (Labour Process) الخاضعة لنظام مجتمع ما. أما حركة العمل فنعرفها بالقول: إنها عملية تحويلية (Trans-formation) تحصل لشيء (مادة خام) ويكون حاصلها بضاعة ما. وعناصر العملية التحويلية تلك هي: الفعل الإنساني أي قوة العمل، والمادة الخام، والأدوات أو وسائل الإنتاج. وإذا ما نظر إليها من نهايتها تبدو حركة العمل حركة تكون نتيجتها قيماً استعمالية لإشباع حاجات إنسانية(*) وتجدر الملاحظة أن حركة العمل قد تكون غير منتجة. غير أنها من وجهة نظر الرأسمالي تكون حركة عمل منتجة.

ولكي نشرح باختصار كيف تكون حركة العمل منتجة، نشير إلى أن العامل في يوم العمل يعمل عدداً من الساعات لإعادة إنتاج ما خسره من قوة. ويسمي ماركس هذا القسم من يوم العمل بوقت العمل «الضروري»، ويسمى العمل المبذول خلاله «بالعمل الضروري»(**).

إذا استمر العامل في العمل بعد ذلك الحدّ، فإن ساعات العمل الإضافية يسميها ماركس «وقت العمل الفائض» الذي يصرف العامل خلاله عملاً فائضاً. من هنا نعرف حركة العمل المنتجة بقولنا، إنها تلك التي تنتهي بحصول عمل فائض أو قيمة فائضة. هذا هو جوهر الإنتاج في النمط الرأسمالي. وماركس يسمي النسبة بين العمل الفائض (ف) والعمل الضروري (ض) درجة الاستغلال للعامل (غ) في الرأسمالية، أي:

غ = ف/ ض.

بالنسبة إلى مصدر القيمة الفائضة نجد أن ماركس يرده إلى المعمل أو مكان العمل. هذا ما يقوله في هذا الصدد:

«القيمة الفائضة هي، بصورة عامة، القيمة التي تزيد على المعادل». ويعرف ماركس «المعادل» بقوله: «وهو مطابقة القيمة لنفسها» ثم ينتهي إلى النتيجة الآتية، وهي: «لذلك فإن القيمة الفائضة لا تنشأ من المعادل إطلاقاً ولا من التبادل في السوق. إنها تنشأ من حركة إنتاج الرأسمال ذاتها».

(*) Karl Marx, *Capital*, trans. S. Moore and E. Aveling (Moscow: Progress Publishers, 1974), p. 174.

(**) المصدر نفسه، ص 167، 209.

السؤال الممكن الآن، هو: كيف نتصور حركة عمل غير منتجة؟ الجواب نقع عليه في مناقشة ماركس لنظرية آدم سميث (Adam Smith) في العمل. في كتابه: **نظريات القيمة الفائضة** (*Theories of Surplus-Value*). ينظر ماركس في التمييز الذي أقامه سميث بين العمل المنتج والعمل غير المنتج. ويشير إلى أنه قد قدم تعريفين للعمل المنتج هما:

1. العمل المنتج هو الذي ينتج قيمة فائضة.
2. العمل يكون منتجاً إذا كان ينتج قيمة بصورة عامة[*]

يوافق ماركس على التحديد الأول على أساس أنه صحيح، ويرفض التحديد الثاني باعتباره خطأً. ثم يقول ماركس في مجرى تحليله لنظرية سميث، إن التمييز بين نوعي العمل يكون مفهوماً من وجهة نظر الرأسمالي وليس من وجهة نظر العامل. فالرأسمالي لا يهمه استرجاع ماله فقط بل يهمه أن يحصل على مقدار من وقت العمل أكبر من ذلك المقدار الذي يساوي ما دفعه للعامل على صورة أجرة (أسبوعية)[**] (Wages). ويضرب ماركس أمثلة توضيحية ننتقي منها ما يأتي: الطاهي في فندق عام يعتبر عاملاً منتجاً بالمقدار الذي يتحول فيه عمله إلى رأسمال لمالك الفندق. والعامل نفسه لا يعتبر منتجاً لنفس المالك إذا كان الأخير لا يصنع رأسمال من خدمات العامل، كالحالة التي يقدِّم فيها العامل لسيده وجبات طعام خاصة. في مثل هذه الحالة الأخيرة التبادل يجري بين عمل العامل ودخله (Revenue) وليس بينه وبين الرأسمال[***]

إن التمييز بين العمل المنتج والعمل غير المنتج، يعتبره ماركس اعتباراً جدّياً، لدرجة أنه يعتقد أن ذلك التمييز يظل الأساس العلمي للاقتصاد السياسي البورجوازي. ويرى أن الإنتاج الرأسمالي ليس مجرد إنتاج بضائع بل هو، جوهرياً، إنتاج للقيمة الفائضة، وأن العامل لا ينتج لنفسه بل للرأسمال.

خلاصة ما تقدم هي أن تحديد الإنتاج الرأسمالي بالمنتوجات إنْ هو إلا تحصيل حاصل (Tautology). الواقع خلاف ذلك، وهو أن الإنتاج الرأسمالي جوهره إنتاج

(*) Karl Marx, *Theories of Surplus-Value* (Moscow: Progress Publishers, 1978), vol. 1, pp. 153-162.

(**) المصدر نفسه، ص 156-158.

(***) المصدر نفسه، ص 159.

العمل الفائض أو القيمة الفائضة. والحق يقال، إن ماركس يخصص الإنتاج الرأسمالي بالميزتين الآتيتين:

منتوجاته بضائع.

ب. وهو إنتاج للقيمة الفائضة.

الإنتاج ككل (Production As Totality)

في كتابه: **غروندريسّه** (*Grundrisse*)، وفي مواضع أخرى، يؤكد ماركس على فكرة أن الإنتاج منظوراً إليه بكليته، هو نقطة البداية للفهم الوافي لأي نمط إنتاج، خاصةً نمط الإنتاج الرأسمالي(*)

لننظر، بادئ ذي بدء: وباختصار، في علاقة كل من الاستهلاك والتبادل (البضاعي) والتوزيع بالإنتاج.

الإنتاج من حيث الاستهلاك (Production As Consumption)

يذكر ماركس الأفكار الآتية عن علاقة الإنتاج بالاستهلاك، يقول: هو الإنتاج الذي يوفر للاستهلاك موضوعه (مواده). فالاستهلاك الذي لا يستهلك مواداً ليس استهلاكاً. ومنه النتيجة الآتية: يبدو الاستهلاك، من وجهة نظر موضوعه، ناتجاً عن الإنتاج. هذا بصورة عامة(**) وبصورة خاصة، يمكن القول، إن الإنتاج يضفي على الاستهلاك طابعه وخصوصيته: فالموضوع الذي يوفره الإنتاج للاستهلاك هو مادة معينة كما أن استهلاكه يكون بطريقة معينة. يقول ماركس:

«الجوع يظل جوعاً» ولكن الجوع الذي يشبع بلحم مطبوخ وبسكين وشوكة هو جوع مختلف عن جوع الذي يلتهم لحماً نيئاً بمساعدة اليد والظفر والأسنان(***) من ذلك نستنتج أن الإنتاج من حيث كونه يحدد طريقة الاستهلاك، ينتج المستهلك أيضاً.

يضاف إلى كل ما تقدم، حقيقة أخرى، وهو أن الإنتاج ينتج الدافع إلى الاستهلاك. إن الحاجة التي يشعر بها المستهلك للبضاعة تخلقها ملاحظتها والمعرفة بها. والمثل الذي

(*) Karl Marx, *Grundrisse*, Trans. by Martin Nicolaus (London: Penguin Books, 1974), p. 89; p. 94; p. 99.

(**) المصدر نفسه، ص 92.

(***) المصدر نفسه، ص 92.

يضربه ماركس على ذلك هو من الفن. يقول إن الموضوع الفني يخلق جمهوره الذي يتمتع به. كذلك كل بضاعة. من هنا قولنا، إن الإنتاج الذي ينتج بضاعة لمستهلك هو ذاته الذي ينتج مستهلكاً لبضاعة. بكلمة أخرى، الإنتاج ينتج حاجة للمنتوج(*)

والخلاصة تكون: إن استهلاك المنتج المنتوج معناه عودته إلى حالة المنتج من جديد. لذلك كنا قلنا في بداية كلامنا عن الاستهلاك ونسبته إلى الإنتاج، إن الإنتاج هو المنطلق والاستهلاك مجرد عنصر (Moment) من عناصره أو لحظة من لحظاته.

الإنتاج من حيث التوزيع:

يصف ماركس التوزيع بقوله، إنه من صنع الإنتاج لجهة موضوعه وصورته المحددة. فمن الواضح أن المنتوجات (حاصل الإنتاج) هي وحدها التي توصف بأنها قابلة للتوزيع. ثم هناك حقيقة أخرى، هي أن نوع المشاركة في الإنتاج هو الذي يحدد نوع المشاركة في مجال التوزيع. على سبيل المثال، نذكر، الرأسمالي الذي حصته الفائدة والربح الماليان والعامل الذي حصته الأجرة الأسبوعية والإقطاعي الذي ينال الأجرة على استعمال أرضه.

غير أن الكلام على توزيع المنتوجات، هو في نظر ماركس، أضعف الكلام الذي يتضمن أكثر التصورات سطحية عن التوزيع. لأن الحقيقة هي أن ثمة توزيعاً «داخلياً» (Internal) يسبق توزيع المنتوجات، هو توزيع وسائل الإنتاج، وتوزيع أفراد المجتمع على ميادين الإنتاج المختلفة. بكلام آخر، نقول، إن توزيع حاصل الإنتاج يتحدد بالتوزيع «الداخلي» القائم في دائرة الإنتاج الذي هو ذاته عنصر (أو لحظة) من عناصر الإنتاج.

الإنتاج من حيث التبادل (Exchange) أو الدورة (Circulation):

إن تبادل القدرات وتبادل المنتوجات في دائرة الإنتاج (لهدف صيرورتها صالحة للاستهلاك) ينتميان إلى الإنتاج. كذلك التبادل بين المنتجين (أصحاب المعامل والأموال) يتحدد بالإنتاج. والمبادلة البضاعية لهدف استهلاكي، يحددها تقسيم العمل. المبادلة الخاصة ينتجها الإنتاج الخاص. ويمكننا القول، إن شدّة ومدى طريقة التبادل (أو المبادلة) هي نتيجة بنية الإنتاج وتطوره. لذلك كله نقول، إن التبادل هو عنصر (أو لحظة) من عناصر الإنتاج(**)

النتيجة الأخيرة التي يصل إليها ماركس في مسألة الإنتاج ونسبة الاستهلاك

(*) المصدر نفسه، ص 92 وص 96.

(**) المصدر نفسه، ص 98-99.

والتوزيع والتبادل هي في قوله: إن الإنتاج والاستهلاك والتوزيع والتبادل تؤلف كلاً (Totality) نسميه الإنتاج بكليّته. الاستهلاك والتوزيع والتبادل ليست إلا عناصر متميزة داخل وحدة يقوم فيها الإنتاج بدور التحديد.

ملاحظات على مناقشة ماركس للإنتاج من حيث هو كلّ:

كان شرحنا لمنهدم الإنتاج ككل محصوراً بما قاله ماركس حول هذا المفهوم في كتابه: **غروندريسّه**. نذكر بأننا قلنا، إن ماركس اعتقد بأن الإنتاج كلٌّ مؤلف من عناصر (أو لحظات). وإذا كان لهذه العناصر تأثير على الإنتاج فإن حركة الإنتاج بكل عناصرها تظل في النهاية محدَّدةً بالإنتاج.

والحق يقال، إن ماركس يقبل بتبادل التأثير بين عناصر الإنتاج، فتوسيع التبادل في السوق يزيد الإنتاج كما يزداد تقسيم العمل بين مختلف دوائره عمقاً. كذلك، عندما يصيب التوزيع تغييراً فإننا نلاحظ أن تغييراً في الإنتاج يتبعه، وعلى سبيل المثال، هذا ما يحصل عندما يتمركز الرأسمال. ثم لا ننسى كيف أن حاجات الاستهلاك تقدر أن تحدد الإنتاج(*)

الأسئلة التي تنشأ الآن، تختص بمناقشة ماركس لجهة قوة كلامه الإقناعية على وجه التحديد. نسأل هل الإنتاج هو حقاً العنصر الوحيد القادر على التحديد؟ وهل الإنتاج هو مبدأ فهمنا للاستهلاك والتبادل والتوزيع؟ ألا يمكننا أن نعتبر أي عنصر آخر قادراً على أداء الدور الذي حدده ماركس للإنتاج؟ وإذا ما قبلنا تصور ماركس للإنتاج هل توجد حجج أخرى غير التي ساقها تدعم ذلك التصور؟ هذه الأسئلة وقريناتها تتوارد إلى الذهن، عندما نكتشف أن ماركس ذاته يقبل فكرة تبادل التأثير بين عناصر الإنتاج (أو لحظاته) خاصة عندما يقول بوضوح: «إن الإنتاج نفسه محدَّد بالعناصر الأخرى»(**)

لنبدأ مناقشتنا بامتحان القوة المنطقية لإحدى حجج ماركس. فهو عندما يقول، إن الإنتاج يصنع موضوع (مادة) الاستهلاك الذي بدونه لا يعود الاستهلاك استهلاكاً، نتساءل فيما إذا كنا نقدر أن نقول نفس الكلام عن الاستهلاك، أي، إن الاستهلاك يقدم

(*) المصدر نفسه، ص 99-100.

(**) المصدر نفسه، ص 99.

للإنتاج موضوعه، وحصراً، يقدم المادة الأساسية للإنتاج التي هي قوة العمل (La-bor–Power) التي بدونها تتوقف عجلة الإنتاج توقفاً تاماً. بطريقة أخرى، نقول، إن العامل المنتج ذاته، هو كذلك، لأنه يستهلك قوة عمله. نفس الحقيقة نجدها منطبقة على وسائل الإنتاج التي هي كذلك عند الاستهلاك. ماركس يقول: إن البيت الذي لا يسكنه أحد (غير المستعمل) ليس بيتاً حقيقياً، والثوب ليس ثوباً إذا لم يُلْبَسْ. بصورة عامة: «المنتوج يصبح منتوجاً حقيقياً بعد استهلاكه فقط»(*). من جهة أخرى، يقول ماركس: «إن الاستهلاك يخلق الحاجة إلى الإنتاج»(**)

والواقع أن ماركس نفسه يوفر لنا في كتاباته كثيراً من الأفكار والاقتراحات تجعل مناقشتة للإنتاج غير ذات القوة المنطقية التي أريدت لها. نقف عند هذا الحد مكتفين بما حصل تجنباً للتكرار.

الظلم الاجتماعي والعدالة

عبّرت نانسي هولمستورم (Nancy Holmstorm) عن مفهوم ماركس للاستغلال أفضل تعبير عندما قالت، إنّه يشمل «العمل غير المأجور، الفائض والمنتزع بالقوة، وإنتاجه ليس تحت سيطرة المنتجين»(***)

وماركس نفسه يصف، بل يحدّد الاستغلال كميّاً بالنسبة بين مقدار العمل الضروري والفائض وهي في النسبة التي ذكرناها: غ = ف

ض

حيث غ، ف، ض ترمز على التوالي، إلى الاستغلال، والعمل الفائض، والعمل الضروري. على سبيل المثال: إذا كان العمل الضروري خمس ساعات والعمل الفائض عشر ساعات، تكون نسبة الاستغلال:

غ = ف = 10 = 2 = 100 x 2 = 200٪!

غ = 10 = 2 = 100 X 2 = 200٪

(*) المصدر نفسه، ص 91.

(**) المصدر نفسه، ص 49.

(***) Nancy Holmstrom, "Exploitation," *Canadian Journal of Philosophy*, vol. 7, no. 2 (1977), pp. 358-359.

وقضية الاستغلال الطبقي، عند ماركس، ليست محصورةً في نمط الإنتاج الرأسمالي – العمالي، بل هي قضية التاريخ كله: فبعد الشيوعية البدائية كان نمط الإنتاج السيدي – العبدي، وتلاه نمط الإنتاج الإقطاعي – الفلاحي، ثم نمط الإنتاج الرأسمالي – العاملي الذي كنا بصدده، وهو الذي توقع ماركس أن يخلفه ما سماه دولة دكتاتورية العمل (الاشتراكية) التي ستكون لفترة انتقالية تنتهي بنشوء الشيوعية المتقدمة، أي نشوء المجتمع الذي لا طبقات فيه (فلا استغلال)، ولا دولة له (فلا اضطهاد) بسبب زوال الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج مرة وإلى الأبد. ويقول ماركس، إن عملية الانتقال من نمط إنتاج إلى آخر كانت تتم عنفيّاً عن طريق الصراع الطبقي أو الثورة. كل ذلك معناه أن تاريخ البشر إن هو إلا تاريخ أنماط إنتاج طبقية استغلالية ودول طبقية دكتاتورية. كل دولة تاريخية حتى لو سميت ديمقراطية هي دكتاتورية.

المصوّر الآتي يصف تصور ماركس للتاريخ أو، نقول، ماديّته التاريخية:

مصوَّر الماديّة التاريخيّة أو التاريخ المادي للمجتمع المدني

الشيوعية ا ائية ← { مجتمع طبقي الأسياد والعبيد أو نمط الإنتاج العبودي } صراع طبقي ← { مجتمع طبقي الإقطاعيين والفلاحين أو نمط الإنتاج الإقطاعي } صراع طبقي ← { مجتمع طبقي الرأسماليين والعمال أو نمط الإنتاج الرأسمالي } صراع طبقي ← { راكية رز طبقة العمال (البرو ريا) } ← الشيوعية المتقدّمة

وتجدر الإشارة إلى أن مبدأ العدالة في المرحلة الاشتراكية هو: من كلٍّ بحسب قدرته إلى كلٍّ بحسب عمله(*) وفي المرحلة الشيوعية المتقدمة يصير المبدأ: من كلٍّ بحسب قدرته إلى كلٍّ بحسب حاجته(**) وليس بخافٍ أن هذين المبدأين أخلاقيان. وفي تاريخ الأحزاب الشيوعية الذي امتدَّ ما يقارب تسعة عقود من الزمان، أوجبا نضالاً، أو نقول، صراعاً طبقياً، لإثباتها. ونحن نقول ذلك، تجنباً لوصف المادية التاريخية بالحتميّة.

(*) Karl Marx, *Selected Writings*, Edited by David McLellan (London: Oxford University Press, 1977): Critique of the Gotha Program, pp. 568-569.

(**) المصدر نفسه، ص 569.

المسألة الثانية: المادية التاريخية علم أم فلسفة؟ دراسة تخطيطية

«قُدِّمت مخطوطة عمر فريدريك إنجلز (Frederick Engels): **ديالكتيك الطبيعة** (*Dialectic of Nature*) إلى عالم الفيزياء البارز إينشتاين (Einstein) لتقييمها تقييماً علمياً، فقال، إن «المضمون ليس فيه ما يهم، من وجهة نظر علم الفيزياء القائم أو تاريخ الفيزياء، لكن قد يستحق النشر من حيث كونها إسهاماً لافتاً في عملية إلقاء ضوء على أهمية إنجلز الفكرية».

(Marx-Engels Archiv, Band II (Erlangen, 1971), pp. 140-141 (Eric Hobsbawm), *How to change the World*, Little Brown, Britain, 2010, p. 289).

يقسم الماركسي الفرنسي الدكتور لويس ألتوسير (Louis Althusser) النظرية الماركسية إلى دائرتين هما دائرة العلم الماركسي ودائرة الفلسفة الماركسية. غير أنه عندما يسأل سؤالاً مباشراً عن موجبات إنشائه تمييزاً بين هاتين الدائرتين في النظرية الماركسية يقدم لنا جواباً تمثيلياً، قائلاً: كما أن طاليس اليوناني اكتشف قارة علم الرياضيات وجاليليو الإيطالي اكتشف قارة علم الفيزياء كذلك كارل ماركس هو مكتشف قارة علم التاريخ(*) ثم يؤكد القانون الآتي: الفلسفة ترتبط دائماً بالعلوم. ويعني بذلك أن الفلسفة تقوم بالعلوم التي تسبقها وأن عدم العلوم هو عدم الفلسفة(**)

أما العلم الماركسي فيسميه ألتوسير المادية التاريخية في حين يسمي الفلسفة الماركسية بالمادية الديالكتيكية وجوهرها السياسة(***)

وإذا لم تكن الفلسفة صراعاً سياسياً كما فهمها لينين وشرحها في رسالته إلى جوركي في السابع من شباط/ فبراير عام 1908 فإنها ستكون فلسفة أيديولوجية أو بتعبير آخر مجرد أيديولوجيا، بلا تاريخ. وهذه الأفكار يمكن الوقوع عليها في الأطروحة الحادية عشرة حول فويرباخ التي وضعها ماركس في معرض نقده لفلسفته وهذا نصها: «كل ما فعله الفلاسفة حتى الآن كان مجرد تفسير العالم بطرق مختلفة، في حين أن المهم هو

(*) Louis Althusser, *Lenin and Philosophy* (London: NLB, 1971).

(**) المصدر نفسه، ص 18، ص 21.

(***) المصدر نفسه، ص 15.

تغييره». وعملية التغيير سيجعلها الصراع الطبقي صراعاً سياسياً(*) غير أن كل هذه الشروح لا تشفي غليلنا ونحن بصدد التعرف إلى العلم الماركسي على وجه الحقيقة؟ ألتوسير نفسه يفيد بما يأتي: إن العلم هو الواقع ذاته الذي يعرف عن طريق العمل الذي يكشف الغطاء عنه بتدمير الأيديولوجيا التي تخفيه وعلى رأسها الفلسفة(**)، لذلك فإن المادية التاريخية هي علم التاريخ الماركسي أي علم الواقع المادي المتغير.

لا نستطيع بسهولة أن نوافق ألتوسير على أن ما قدمه يصلح أن يكون تعريفاً دقيقاً للعلم الماركسي وإن كنا نوافقه مبدئياً على إمكانية التمييز بين العلوم والفلسفة والعلاقة بينهما. وإذا كان القصد الذي رمى إليه ألتوسير هو إطلاعنا على فكرة أن كارل ماركس قد وجه الأنظار إلى عالم جديد (قارة جديدة) تستحق أن ينصب عليها الدرس العلمي هو عالم الواقع المادي التاريخي فإننا نرحب بالقصد ونعلن أنه قد بلغنا.

مع ذلك، يجب أن لا ينفد صبرنا. هذا هو ألتوسير يحاول وهو في معرض التمييز بين الفلسفة والعلم أن يفيدنا شيئاً، يقول: «الفلسفة لا قضية لها. وإذا كان التاريخ لا تقع حوادثه في ميدان الفلسفة فذلك مرده لأن ذلك الميدان خالٍ من قضية. في العلم نجد الحال مختلفة تماماً. لكل علم قضية (أو موضوع يخصه) ومعرفتنا بهذه القضية تزداد مع الزمن فإن للعلم تاريخاً. إن للعلم واقعاً حقيقياً في حين أن واقع الفلاسفة هو عدم الواقع. وحقيقة الفلسفة هي عدم الحقيقة. هل يكفي أن نؤكد أن العلم الماركسي هو كذلك لمجرد أنه يعالج الواقع المادي؟ وهل قدم لنا ماركس نفسه نظرية في العلمية تتفق مع ما تقدم.

في كتاب **رأس المال** (*Capital III*)، مجلده الثالث، يكتب ماركس ما يأتي: «كل علم يتحول إلى معرفة تافهة لو أن المظهر الخارجي للأشياء وجوهرها تطابَقا تطابقاً مباشراً»(***)

ويكتب في المجلد الأول ما يأتي:

«إن الأشياء تبدو لنا مقلوبةً في مظاهرها، وهذه حقيقة معروفة في كل العلوم ما

(*) Karl Marx and Frederick Engels, *The German Ideology* (London: Lawrence & Wishart, 1965).

(**) Althusser, *Lenin and Philosophy*, p. 41.

(***) Karl Marx, *Capital* (Moscow: Progress Publishers, 1971), vol. III, p. 817.

خلا علم الاقتصاد السياسي»(*). هل نفهم من ذلك أن ماركس يعتبر العلمية ماثلةً حيثما أمكن الغوص وراء المظاهر الخارجية للأشياء والكشف عن جوهرها الخبيء وراء تلك المظاهر، فمجرد الأخذ بالمظاهر هو معرفة معكوسة عن الأشياء، هو أيديلوجيتها أو فلسفة أيديولوجية، ولكن الإمساك بالواقع المادي بعد إزاحة القشور الأيديولوجية عنه هو الذي يشكل العلم الصحيح؟

الجواب أن كارل ماركس اعتقد ذلك. وقد ابتكر تعبيراً، لكي يفصل فصلاً حاسماً بين المعرفة العلمية والمعارف الأخرى غير العلمية هو الميستيفيكا (Mystification) وهو تعبير ليس من السهل ترجمته بكلام قليل. غير أننا نشير إلى أهم الأفكار التي ينطوي عليها وهي: التمويه، والألغاز، والستر، والإيهام، والتضليل، والتزييف، والتحوير، وما شابه.

نضرب على ذلك مثلًا نمط الإنتاج الرأسمالي: في المجتمع الذي يسود نمط الإنتاج الرأسمالي تتخذ العلاقات الاجتماعية للإنتاج مظهر علاقات بين أشياء، علاقات بين البضائع وتتخذ العلاقات البضاعية التي هي علاقة بين الأشياء مظهر علاقات اجتماعية. هذا النوع من المسيتيفيكا يسميه ماركس الفيتيشيزم(**) (Fitishism). ومثال آخر مما يحصل في نمط الإنتاج الرأسمالي هو أن علاقة الاستغلال (اللامساواة الاقتصادية) الواقع المادي للإنتاج تظهر علاقة مساواة في القانون. فالمعرفة العلمية في مثل هذه الحال الأخيرة هي التي يمكنها أن تمسك بالجوهر رغم المظهر فتكشف الاستغلال الطبقي وراء مظهر المساواة القانونية.

غير أن ما قيل الآن لا يمكن عده تعريفاً للعلم الماركسي أكثر من اعتباره داخلاً في باب الشروط المنهجية لكل علم: فكل علم يجب أن تكون له قضية (أو موضوع الدرس)، وكل علم يجب أن لا تخدعه المظاهر الخارجية. لذلك فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى إنشاء السؤال حول جسم العلم الماركسي على وجه الحصر، أي جملة المعارف التي اشتمل عليها، وذلك لكي تدخل مباشرة في حقيقة ذلك العلم. فما هي المعارف الماركسية التي يمكن اعتبارها مؤلفة ما يسمى بالعلم الماركسي؟ بكلمةٍ أخرى، ما هو علم التاريخ عند كارل ماركس، أو ما هي المادية التاريخية نفسها؟

(*) المصدر نفسه.

(**) المصدر نفسه، ص 77.

يعرف ماركس التاريخ بقوله أنه تعاقب أنماط للإنتاج مختلفة، أو هو مجتمعات متتالية ساد كل منها نمط إنتاج معين، فبعد الشيوعية البدائية نشأ مجتمع طبقتي الأسياد والعبيد، وبعده جاء مجتمع طبقتي الإقطاعيين والفلاحين، وأعقبه مجتمع طبقتي الرأسماليين والعمال، الذي سيتلوه الاشتراكية العمالية الانتقالية التي سقبها المجتمع الشيوعي المتقدم.

هذا هو تعريف علم التاريخ عند ماركس. سلسلة حلقات مؤلفة من أنماط إنتاج حيث كل نمط إنتاج يتألف من علاقات إنتاج وقوى إنتاج هي علاقة طبقية جوهرها الصراع الطبقي الذي هو محرك التاريخ(*)

لا بد أن نسأل في هذه المرحلة من بحثنا عن العلاقة بين مجتمع ومجتمع أو نمط إنتاج ونمط الإنتاج الذي يخلفه. غير أن ماركس لا يقدم لنا جواباً. مما اضطر بعض المفكرين الماركسيين مثل الرفيق الماركسي الفرنسي الدكتور إتيان باليبار (Étienne Balibar) (تلميذ الدكتور ألتوسير) وزميله ورفيقه باليبار للقيام بمحاولة لسدّ هذه الثغرة في النظرية الماركسية التي إذا بقيت فإنها تضعف الاعتبار العلمي لتلك النظرية. ماذا قدم الدكتور باليبار؟

لقد ابتدع فكرة سماها «نمط الإنتاج الانتقالي» فأضاف إلى أنماط الإنتاج التي عددها ماركس أنماط إنتاج جديدة وسطية مهمتها الوصل بين نمط إنتاج ماركسي واحد والذي يأتي بعده، غير أنه بعمله هذا صار مضطراً من الناحية النظرية إلى تعريف نمط الإنتاج الانتقالي بعلاقات إنتاج انتقالية تعريفاً نظرياً وإلى تحديد أنماط الإنتاج الانتقالية تحديداً تاريخياً(**)

وقد جاءه الاعتراض من رفيقيه باري هينِدس (Barry Hindess) وبول ك. هيرست(***) (Paul Q. Hirst).

لن أخوض في تفاصيل تلك المحاولة والردود عليها لكن سأقتصر فقط على الإشارة إلى الثغرة العلمية الموجودة في صلب علم التاريخ الماركسي، نعني أن ذلك العلم لم يشرح لنا العلاقة بين أنماط الإنتاج، ولم يجبنا عن كيفية نشوء نمط إنتاج جديد من رحم نمط

(*) Marx and Engels, *The German Ideology*, pp. 50 and 163.

(**) Louis Althusser and Étienne Balibar, *Reading Capital* (London: NLB, 1975), chap. 4, pp. 273-308.

(***) Barry Hindess and Paul Q. Hirst, *Pre-Capitalist Modes of Production* (London: Routledge & Kegan Paul, 1975), chap. 6, pp. 260-266.

إنتاج سابق، خاصةً أن أهم خاصيةٍ لنمط الإنتاج هي خاصة التكرار (Reproduction). مثلًا نمط الإنتاج الرأسمالي يعيد ذاته، وينتج علاقاته وقواه، فطبقة الرأسماليين إذ استهلك طبقة العمال تنتجها باستمرار والعكس بالعكس. فليس هناك ما يسمح في التصور النظري بغير الكلام عن أبدية نمط الإنتاج ما دام الإنتاج في جوهره إعادة إنتاج علاقاته وقواه.

في مثل هذه الحال كيف يمكن الانتقال من نمط إنتاجي إلى نمط إيجابي آخر؟ النظرية الماركسية العلمية لم توفر لنا جواباً.

لنتقدم خطوة جديدة في امتحان المعارف التي اشتمل عليها العلم الماركسي للتاريخ. ما هو تصور العلم الماركسي للمجتمع؟ الجواب: المجتمع، هو مجتمع طبقي. كل مجتمع هو علاقات إنتاج طبقية. علاقات الإنتاج تشكل الأساس المادي أو البنية التحتية (Struc-ture) للمجتمع تقوم فوقها بنية فوقية (Super Structure) مؤلفة من الدولة والقوانين والأيديولوجيات المختلفة: الفلسفية والدينية والأخلاقية... إلخ.

نسأل: هل هذا التصور للمجتمع تصور علمي؟ أليس هو مجرد استعارة (أو تشبيه) والاستعارة استمدت من علم الهندسة المعمارية؟ أليست الاستعارة والتشبيه فنين من فنون الأدب ولا ينتميان إلى دائرة العلوم؟ ثم ماذا يقول ماركس عن العلاقة بين البنية التحتية والبنية الفوقية؟ إنها علاقة سببية. فالبنية التحتية بعلاقتها الإنتاجية هي التي تنتج كل أشكال البنية الفوقية: هي سبب الأخلاق والشرائع والدين والفلسفة والدولة.

إن كارل ماركس واضح جداً في هذه المسألة. فهو يشرح البنية الفوقية بواسطة البنية التحتية شرح النتائج بالأسباب. هي البنية التحتية (علاقات الإنتاج) التي تسبب وتقرر وتحدد ما يعرف من أفكار وأيديولوجيات شتى.

لنقرأ هذا الكلام الواضح:

«يدخل الناس وهم في الإنتاج الاجتماعي لحياتهم في علاقات محددة ضرورية بإرادتهم. هذه العلاقات الإنتاجية تطابق مرحلة معينة من تطور قوتهم الإنتاجية المادية. إن مجموع علاقات الإنتاج هذه يشكل البنية الاقتصادية للمجتمع، وهي الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه بنية فوقية قانونية وسياسية»(*)

(*) Karl Marx, *A Contribution to the Critique of Political Economy* (New York: The International Library Publishing, 1972), pp. 20-21.

إننا نعتقد أن شرح العلاقة بين البنية التحتية والبنية الفوقية باعتماد مبدأ السببية (بأي شكل كان) هو شرح يضع المعرفة الماركسية التاريخية في دائرة الفلسفة مخرجاً إياها من دائرة العلم.

العلوم لا تهتم بدرس الأشياء والظواهر. العلوم تنصب على الأشياء ذاتها فتدرس سلوك هذه الأشياء لتستخرج قوانين سلوك هذه الأشياء. إنها تبحث عن كيفية الأشياء وليس عن لَمذية الأشياء (من لماذا) أو أسبابها.

إن نظرية المعرفة التي تقول بأن العلم بالشيء يكون بالعلم بأسباب الشيء هي نظرية أرسطوطاليسية، لفظها العلم نهائياً من دوائره. ولم تعد صالحة إلا في دوائر الفلسفة بما في ذلك فلسفات العلوم، واللاهوت وأدبهما.

ولمبدأ السببية تاريخ ومصير قد يفيدنا أن نلم بهما باختصار شديد:

عندما هاجم ديفيد هيوم (David Hume) البريطاني بتجريبيّته الحسيّة مبدأ السببية قائلاً: إننا عندما نراقب ظاهرتين أو شيئين (س) و(ص) متعاقبين فإننا نستطيع أن نلاحظ الظاهرة س والظاهرة ص، ولكننا لا نلاحظ العلاقة السببية بينهما، لذلك لا يوجد علاقة سببية في الواقع. وإننا عندما نستعمل لغة سببية فنقول أن الظاهرة الأولى س هي سبب، والظاهرة التي تتبعها ص هي نتيجة إنما نقصد أننا تعودنا أن نرى الظاهرتين متعاقبتين. فالسببية في حقيقتها هي وصف لإحدى عاداتنا التي نجد أصلها في تكرار تعاقب هاتين الظاهرتين.

وقد روع هذا النقد القوى لمبدأ السببية الفيلسوف الألماني كَنْتْ (Kant) الذي وجد أن القضاء على مبدأ السببية يساوي القضاء على كل معرفة. فما كان منه إنقاذاً للمعرفة إلا أن يفترض أن مبدأ السببية لا يبحث عنه في الإحساس أو الواقع الحسي (أو التجربة) حيث يكون الفيلسوف هيوم محقاً (لأنه لم يلاحظه هناك) وإنما مبدأ السببية مقولة عقلية محض، إنه من مبادئ العقل الثابتة، الذي يطبقه العقل على الأشياء لتنظيمها ثم معرفتها.

غير أن أطرف ما قيل عن مبدأ السببية هو قول الفيلسوف الألماني نيتشه. اعتقد هذا المفكر الكبير أن مبدأ السببية هو أغلوطة، أصلها أننا نفسر الحادث أنه فعل لذلك لا بد من فاعل (أو سبب فاعل). فليس هناك أسباب في نظره. دائماً هناك إرادتنا وقوتنا ورغبتنا تنظيم الحوادث بشكل مألوف لدينا، ذلك لأننا أساساً نخشى الحوادث غير المألوفة. والحقيقة أن مبدأ السببية هو الركن الأساسي في المعارف الفلسفية وأخصها

بالذكر المعرفة الميتافيزيقية والمعرفة الدينية. ففي هاتين الدائرتين يكون الاهتمام دائراً حول الأسباب الأولى للأشياء أو خالق الأشياء وباريها. والحق يقال إننا لا نستطيع أن نتصور فلسفة وليس مبدأ السببية أصلاً فيها ولغتها الجوهرية. ويمكننا اعتبار مبدأ السببية (أو لغتها) المعيار الذي يحد لنا نوع المعارف التي نمتحن حتى إذا اشتملت المعارف على مبدأ السببية عددناها معارف فلسفية وليست معارف علمية.

من هنا حكمنا على أن العلم الماركسي الذي يشرح العلاقة بين علاقات الإنتاج (البنية التحتية) والدولة والفكر والقانون والأخلاق والأيديولوجيا (البنية الفوقية) بالإشارة إلى مبدأ السبب والنتيجة ليس علماً وإنما هو شكل من أشكال الفلسفة، أو الأدب الفلسفي.

لو أن كارل ماركس أجابنا عن السؤال الآتي وهو:

كيف هي البنية الفوقية؟ كيف سلوك البنية الفوقية؟ وكان جوابه مشتملاً على قوانين تصف البنية الفوقية في سلوكها. لو أنه فعل نفس الشيء بالنسبة للبنية التحتية فكشف لنا عن قوانين سلوكها ولم يكتفِ بالأحكام التعميمية كمثل قوله، أفكار الطبقة الحاكمة هي الأفكار الحاكمة أو قوله، إن الدين أفيون الشعوب أو قوله، إن الأيديولوجيا تقلب الواقع رأساً على عقب من دون أن يشرح لنا كيف ذلك وكيف هو ذاك، لو أنه فعل ذلك لكنا وجدنا أنفسنا أمام علم ماركسي حقيقي وليس مجرد جملة من المعارف الفلسفية التي لن نناقشها الآن.

لكي نبين حجم صعوبة استخدام مبدأ السببية في العلم الماركسي يكفي أن نذكر العناء الذي تكبده إنجلز بعد موت رفيقه ماركس لمجابهة جمهور السائلين عن علاقة البنية التحتية بالبنية الفوقية للمجتمع. مثلاً يقول إنجلز في رسالته الموجهة مارك بلوخ (Marc Bloch) المؤرخة في 21-22 أيلول/ سبتمبر 1980 ما يأتي:

«إن اللوم يقع عليَّ وعلى ماركس جزئياً لأن الشبان يُلحّون على الجانب الاقتصادي إلحاحاً أكثر مما يستحق. لقد كان علينا أن نؤكد المبدأ الرئيسي (يعني الاقتصادي) ضد دعوى خصومنا الذين أنكروه لذلك لم يتيسر لنا في كل الأوقات المناسبة والوقت والمكان لكي نعطي العناصر الأخرى (يعني العناصر غير الاقتصادية) حقها في عملية التفاعل»(*)

في هذا التوضيح يتجنب إنجلز التفسير الميكانيكي الأحادي لمبدأ السببية بإشارته

(*) Marx and Engels, *Selected Correspondence*, pp. 418-419.

إلى أن العناصر الاجتماعية والاقتصادية والأيديولوجية والسياسية تدخل في عملية تأثير متبادل. غير أنه بالرغم من إدخاله مفهوم السببية الدياليكتيكية بدل السببية الميكانيكية إلى العلم الماركسي ظل يعتبر البنية الاقتصادية هي السبب الأول في حين خصص للعوامل الأخرى دوراً ثانياً. وهذا واضح في رسالته إلى شميدت (Schmidt) المؤرخة في 5 آب/ أغسطس 1890[*]. ولم ينقطع سيل الأسئلة الاستيضاحية الموجهة إلى إنجلز ولم تنقطع رسائله المجيبة على تلك الأسئلة حول مبدأ السببية في العلم الماركسي (انظر رسالته الجوابية إلى فرانز ميهرينغ (Franz Mehring) 14 تموز/ يوليو، 1893 ورسالته الجوابية على ستاركنبرغ ((Starkenburg) كانون الثاني/ يناير 1894)[**]، وتكون نهاية المطاف لكل تلك الشروح أن مبدأ السببية لم يزل غارزاً في جسم المعارف الماركسية الذي يؤلف العلم الماركسي للتاريخ. ومهما كانت الصورة التي ترسم لمبدأ السببية فإنه يظل مبدأ فلسفياً وليس بالمبدأ العلمي المقبول في دائرة العلوم.

ويبدو أن ألتوسير لم يكن مقتنعاً بمحاولة الرفيق إنجلز البائسة لإنقاذ العلم الماركسي من صعوبة مبدأ السببية ومن الغموض الذي اكتنف صورته بعد أن كثرت الشروح حوله. لذلك فقد شمرَّ هذا الرفيق الماركسي عن ساعد المهمة ليحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه فوضع لنا نظرية طريفة في السببية هي ما عرف فيما بعد بالسببية البنيوية. ولشرح نظريته الجديدة ابتدع ألتوسير مصطلحاً جديداً هو أكثر المصطلحات الماركسية المعاصرة تعقيداً وغموضاً وهو (Overdetermination) الذي يصعب كثيراً إيجاد تعبير مفرد مقابل له في لغتنا العربية. لكننا نكتفي بأن نفيد بأن هذا المصطلح هو عبارة عن استعارة من علم النفس الجنسي لفرويد (Freud). وفكرته العامة هي الآتية: مثل علاقة اللاوعي بالوعي حيث يقال بأن حشداً من الغرائز الجنسية في البنية التحتية للنفس تتدافع لتولد ظواهر الوعي أو لتتخذ صوراً واعية تحويرية للميول الجنسية الحقيقية، كذلك فإن المجتمع الذي لم يعد عند ألتوسير مؤلفاً من مجرد بنيتين تحتية وفوقية بل من عدة بنى (نعد منها البنية الاقتصادية والبنية السياسية والبنية الأيديولوجية... إلخ). تؤلف كلاً واحداً تؤدي فيه البنية الاقتصادية دور السببية (الألتوسيرية). في دفع إحدى البنى الأخرى لكي تقوم بدور السيطرة.

ولألتوسير محاولة أخرى ليست بعيدة عن نتائج محاولته الفرويدية الأولى اعتمدت

(*) المصدر نفسه.

(**) المصدر نفسه.

على فلسفة سبينوزا(*)، غير أن المحاولات الألتوسيرية بقيت أسيرة فكرة السببية ولم تخرج عنها إطلاقاً إذ ظلت العلاقة بين البنى الاجتماعية علاقة سببية، فرويدية أو سبينوزية. وهكذا ظل العلم الماركسي واقعاً في شباك الفلسفة.

المسألة الثالثة: الشيوعية الأوروبية كاريّو

المسلمة الأولى عند سانتياغو كاريّو (Santiago Carillo)، هي في قوله، إن الدولة الرأسمالية واقع. وإن المنطلق السليم، والتفكير العلمي، كليهما يجب أن ينطلقا من ذلك الواقع. يجب أن تدرس الدولة الرأسمالية، درساً جدياً، **وتدرس أيضاً، كل الوسائل الديمقراطية لتطويرها (لا تدميرها)، لتصبح آلتها آلة ديمقراطية، يمكن استخدامها فيما بعد، من أجل التحول نحو الاشتراكية**(**) وبلغة أخرى، يقول إنه يجب تبني الدولة الرأسمالية، والعمل من ضمنها تطويراً وتحويلاً بأساليب ديمقراطية لا عنيفة. إن فكرة القضاء العنفي على الدولة الرأسمالية أصبحت فكرة غريبة عن الظروف الموضوعية المعاصرة، التي تحيط بنمط الإنتاج الرأسمالي(***) الدولة الرأسمالية المعاصرة، أصبحت أكثر تركيباً، مما كانت عليه أيام ماركس وإنجلز ولينين. إنها لم تعد عبارة عن جيش، وشرطة، ومحاكم، وجامعي ضرائب، وبيروقراطية تقليدية، بل صارت تشمل، بالإضافة إلى كل ما ذكرنا، مئات الألوف من المدرسين، والإداريين، والفنيين، ورجال الإعلام. بنيتها الداخلية تحولت تحولاً لا يستهان به، ولا يمكن إغفاله، وعلاقتها بالمجتمع، تحولت ولم تعد علاقةً بسيطةً.

إن الدولة الرأسمالية الحديثة، لم تعد أداة لسيطرة طبقية، بالمعنى التقليدي للكلمة. إنها ترزح تحت شبكة ثقيلة من التناقضات، بسبب ما أصاب بنيتها من تحولات. ومن الأمثلة، على تناقضات الدولة الرأسمالية الحديثة، يذكر كاريّو فضيحة ووترغيت (Watergate Scandal) الأميركية، حيث اصطدمت آلة أيديولوجية، من آلات المجتمع (الصحافة)، بآلة قمعية من آلات الدولة (رئاسة الجمهورية). ومع أن الصدام كان محدوداً، إلا أنه يقدم لنا مثلاً، لم نكن نقع عليه، في الدولة الرأسمالية

(*) Althusser and Balibar, *Reading Capital*, pp. 186-189.

(**) Santiago Carrillo, *Eurocommunism and the State* (London: Lawrence & Wishart, 1978), p. 13.

(***) المصدر نفسه، ص 16 وص 22.

القديمة(*) ومما قال كاريّو، وهو بصدد إعطاء فكرة عن الدولة الرأسمالية المعاصرة، إن هذه الدولة، بدأت تؤدي دور المدير الموجه في كل الحقول. وإن هذه الدولة، في عصر الاحتكارات الكبرى، لم تعد متناقضة مع طبقة العمال المتقدمة، بل مع طبقات وشرائح اجتماعية أخرى واسعة، فيها بعض البورجوازيين الذين لم يتمكنوا من اللحاق بقطار الاحتكار(**)

ومن مسلّمات فكر كاريّو، اعتقاده أن الطريق إلى الاشتراكية متعددة، وليست الطريق السوفيتية الطريق الوحيدة التي يجب الالتزام بها. ويستشهد كاريّو، بكلام للينين كان استشهد به خروتشيف (Khrushchev)، في تقريره الذي قدمه للمؤتمر العشرين، للحزب الشيوعي السوفيتي، هذا كلام لينين: «**كل الأمم ستصل إلى الاشتراكية. هذا أمر لا مفرّ منه. ولكن الأمم لن تفعل ذلك بطريقة واحدة**»(***)

وكان تعليق خروتشيف، الذي يستفيد منه كاريّو، هو الآتي: «من المحتمل، أن تظهر أشكال أخرى للانتقال نحو الاشتراكية. وزيادة على ذلك، إن تحقيق هذه الأشكال، ليس من الضروري، أن يقترن بحرب أهلية، تحت كل الظروف... ليس صحيحاً أننا نعتبر العنف، والحرب الأهلية، الطريق الوحيدة لإعادة صنع المجتمع».

ويتابع خروتشيف تقريره، ليقول كلاماً تخصيصياً، نرى أنه من المفيد أن نذكره. هذا هو: «وبهذا الخصوص، ينشأ السؤال حول إمكانية بلوغ الاشتراكية، باستخدام وسائل برلمانية... وفي نفس الوقت، يوفر الوضع الحاضر في عدد من البلدان الرأسمالية، فرصةً حقيقيةً للطبقة العاملة، لكي توحد الأكثرية الساحقة من الشعب، تحت لواء قيادتها، فتؤمن تحويل وسائل الإنتاج الرئيسية لأيدي الشعب». ثم بعد أن يصف خروتشيف حالة الضعف والإفلاس، التي تلفّ الأحزاب اليمينية، والحكومات البورجوازية، يقول، إن الطبقة العاملة، هي في وضع، يمكنها من دحر القوى الرجعية المعاكسة لمصالح الشعب، والقبض على أكثرية مستقرة في البرلمان، وتحويله من آلة من آلات الديمقراطية البورجوازية، إلى آلة تعبر عن إرادة الشعب. وعندما يحصل كل ذلك، تنشأ الشروط الضرورية، لتأمين تحولات اجتماعية أساسية.

(*) المصدر نفسه، ص 24.

(**) المصدر نفسه، ص 25.

(***) المصدر نفسه، ص 105.

ومسلّمة أخرى، من مسلّمات فكر كاريّو، هي في اعتقاده، أن الطريق إلى الاشتراكية، لن يكون، إلا طريق الديمقراطية، وجوهرها الانتخابات. يقول بالحرف الواحد: «**إن الشيء الوحيد، الذي يجب نفيه من المجتمع الديمقراطي، هو الإرهاب والعنف الفيزيائي، كأداة للعمل السياسي**...». وفي مكان آخر، يقول: «على الاشتراكية... أن تحتفظ لنفسها، بالقيم الليبرالية، والديمقراطية، وبالدفاع عن حقوق الإنسان، وباحترام الأقليات المتحررة».

ومن منطلق الروح الديمقراطية، لا يعتبر كاريّو، الحزب الشيوعي الممثل الوحيد للطبقة العاملة، والشعب العامل، والقوى المثقفة. إنه يقرّ نظرياً وعملياً، بأن أحزاباً أخرى، ذات اتجاهات اشتراكية يمكنها أن تكون ممثلةً قطاعاتٍ من الشعب العامل، بالرغم من أن فلسفاتها، وتركيبها الداخلي، يختلفان عن الفلسفة والتركيب الداخلي، للحزب الشيوعي.

والحزب الشيوعي الإسباني، يسمح بحرية التفكير، فالأعضاء أحرار في أن يتّخذوا المواقف النظرية التي يشاؤون، بكل ما يتعلق بالفنون، والثقافة، والعلوم، وحتى العلوم الإنسانية منها. الحزب يسمح بتعدد النظريات، والأفكار، ومشابهتها بعضها ببعضها الآخر. والحزب لا يكون له حكم، سوى على ما يختص بمسائل الاستراتيجية والتكتيك.

ويؤكد كاريّو، وهو بصدد الرد على تهمة التكتيك أن أفكار الحزب الشيوعي الإسباني، خصوصاً، وأفكار ما يسمى بالشيوعية الأوروبية عموماً، ليست مناورة تكتيكية من جهة موسكو، وإنما تشكل استراتيجيةً مستقلّةً. ويقول، إن قصد الماركسيين الأوروبيين، هو أوروبا مستقلة عن الاتحاد السوفيتي، وعن الولايات المتحدة الأميركية. أوروبا مؤلفة من الشعوب المتجهة إلى الاشتراكية، بطرقها الخاصة.

ويلخص كاريّو استراتيجية حزبه، بالكلام الصريح الواضح الآتي، الذي تغيب عنه كل آثار الماركسية الكلاسيكية. يقول:

«... **إني مقتنع، أن دكتاتورية البروليتاريا، ليست الطريق للنجاح في تأسيس وتثبيت سيادة قوى الشعب العامل**، في البلدان الديمقراطية للرأسمالية المتقدمة... أنا مقتنع أن الاشتراكية في هذه البلدان، ليست فقط القوى التي تعمق وتطور الديمقراطية، وإنها النقيض لأي تصور كلّي (توتاليتاري) للمجتمع، وإنما أنا مقتنع أن الطريق إلى الاشتراكية، هو طريق الديمقراطية، مع كل ما يترتب على ذلك من نتائج»(*)

(*) المصدر نفسه، ص 105.

ثم يناقش كاريّو، إلحاح لينين على فكرة دكتاتورية البروليتاريا، فيوافقه في ناحية، ويخالفه في ناحية أخرى. أما الناحية التي يوافقه عليها، فهي قول لينين، إن الانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية، يحصل بأشكال سياسية متنوعة. وأما الناحية التي يخالفه فيها، فهي قول لينين، إن جوهر كل تلك الأشكال السياسية المتنوعة، يظل بالضرورة جوهراً واحداً، ألا وهو دكتاتورية البروليتاريا(*) وحجة كاريّو، أن الجوهر، في كل الأشكال السياسية الاشتراكية التي عرفناها، حتى الآن، كان سيادة الشعب العامل، أو الديمقراطية الشعبية، وليس دكتاتورية البروليتاريا.

إذن الاستراتيجية عند كاريّو، مبنية على رفض دكتاتورية البروليتاريا، واعتماد الطريق الديمقراطية نحو الاشتراكية. الأصل هو تحقيق الاشتراكية، حتى إذا لم يعد ممكناً تحقيقها بالعنف الطبقي ودكتاتورية البروليتاريا، يكون السعي لتحقيقها، بواسطة تطوير الدولة الرأسمالية ديمقراطياً.

والمنطلق الديمقراطي، يعني أيضاً، استقلال الأحزاب الماركسية، وحريتها في العمل، لتحقيق الهدف الاشتراكي، لذلك، يلح كاريّو على ضرورة أن يعمل كل شعب، باستقلال، وحرية، في سبيل الاشتراكية، **ويجب أن لا تضيع هويته القومية**، وهو يناضل في ذلك السبيل(**)

الاستراتيجية إذن، لها وجهان عند كاريّو: وجه داخلي، وهو العمل داخل مؤسسات الدولة الرأسمالية المعاصرة، ووجه خارجي، وهو المحافظة على استقلالية الطريق القومي نحو الاشتراكية، ورفض التبعية أو الانفعال بالقوى الدولية الكبرى.

مارشيه

الحزب الشيوعي الفرنسي: لا، للهتلرية والستالينية، ونعم، للطريق الفرنسي نحو الاشتراكية:

في تقريره الذي قدمه الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي، جورج مارشيه (George Marchais)، للمؤتمر الثاني والعشرين لذلك الحزب، الذي عقد في 4 شباط/ فبراير 1976، **يعلن بوضوح إلغاء فكرة دكتاتورية البروليتاريا**، ذلك لأن

(*) المصدر نفسه، ص 154.

(**) المصدر نفسه، ص 154-155، ص 169.

الدكتاتورية، تثير فكرة الأنظمة الفاشية لهتلر، وموسوليني، وسالازار، وهي لذلك، نقيض الديمقراطية. وفي تعليقه التحليلي، للمنجزات الفكرية للمؤتمر الثاني والعشرين، يسجل الدكتور الفيلسوف لويس ألتوسير، (الذي سبق أن شرحنا أفكاره) وهو عضو بارز في الحزب الشيوعي الفرنسي، الملاحظة الآتية:

«إن قادة التخلي عن فكرة دكتاتورية البروليتاريا، قالوا: دكتاتورية، تساوي هتلر، وموسوليني... إلخ. غير أنهم في الواقع، عنوا ستالين، والاشتراكية السوفيتية. الواقع أنهم عنوا ما يأتي: نرفض رفضاً قاطعاً أن يكون لنا أية علاقة بذلك النوع من الاشتراكية»(*)

ولم يكن الرفيق جورج مارشيه، بعيداً عن هذه الملاحظة الألتوسيريّة، عندما أعلن أمام المؤتمر، أن الشروط الموضوعية المستجدة، تسمح للحزب الشيوعي الفرنسي، وتتطلب منه أن يفكر بطرق أخرى، نحو الاشتراكية في فرنسا، غير الطرق التي اتبعتها الشعوب التي حققت الاشتراكية، في بلدان أخرى(**)

لقد تغيّر العالم تغيراً واسعاً، وعظيماً، فلا يمكن والحال هذه، أن نغفل الواقع. لذلك، يقول مارشيه بالحرف الواحد: «لقد تمت قناعتنا أن الاشتراكية في بلادنا، يجب مطابقتها (وإلاّ نظل كلاميّن) بمبدأ الدفاع عن الإنجازات الديمقراطية وتعميمها، تلك الإنجازات التي أمكن تحقيقها، بفضل الصراع العظيم والدؤوب لشعبنا»(***)

لذلك، ولأننا في الطريق الفرنسي للديمقراطية نحو الاشتراكية، لم نضعْ، يقول مارشيه، عبارة دكتاتورية البروليتاريا، في مسودة وثيقة المؤتمر. ولذلك يجب التخلي عنها (تصفيق من المؤتمرين).

والنتيجة، كانت أن استراتيجية الحزب الشيوعي الفرنسي، منذئذ، تحولت إلى استراتيجية ديمقراطية سلمية، كما وصفها ألتوسير، فيما بعد. **وبكلمة أخرى، قال ألتوسير: «إن الشعب الفرنسي، لن يحقق الانتقال للاشتراكية بالقوة، بل ديمقراطياً، عن طريق الانتخابات**، في جو من الحرية التامة». ومما قاله، وله علاقة بتقرير الأمين

(*) Etienne Balibar, *On the Dictatorship of the Proletariat*, Trans. Grahame Lock (London: NLB, 1977), p. 184.

(**) المصدر نفسه، ص 199.

(***) المصدر نفسه، ص 186-199.

العام، إن التغير الذي أصاب العالم، يجب أن يصيب الحزب الشيوعي أيضاً. فإذا ما تغيرت الأشياء، وجب أن يتغير الحزب أيضاً(*) ومن مقررات المؤتمر الثاني والعشرين، التي تستحق الذكر، كان تبني شعار اتحاد **الشعب الفرنسي**، الذي يختلف عن شعار اتحاد اليسار(**)

بيرلنغور

والحزب الشيوعي الإيطالي منذ المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي الإيطالي، الذي عقد في 10 كانون الأول/ ديسمبر 1974، ضمَّن الأمين العام للحزب، إنريكو بيرلنغور (Enrico Berlinguer)، في ذلك الزمان، تقريره المقدم للجنة الحزب المركزية، أفكاراً مشابهةً تماماً، لما ظهر في أوساط الحزبين الشيوعيين في إسبانيا وفرنسا. فهناك الإلحاح على الطريق الإيطالي، نحو الاشتراكية، وهناك الإلحاح على الوسائل الديمقراطية، والإلحاح على فكرة الشعب، والمصلحة القومية، والاستعداد للتعاون تعاوناً جدياً مع الأحزاب الإيطالية الأخرى، الاشتراكية، والكاثوليكية(***) وقد عرفت تلك الخطوات الجديدة، باسم «التسوية التاريخية».

وفي عام 1976 (30-29 حزيران/ يونيو)، لخّص بيرلنغور في خطابه الذي وجهه لأحزاب العمال في أوروبا، في مدينة برلين، وجهة نظره الجديدة، فقال، بوجوب استقلال كل حزب داخلياً وخارجياً، سياسياً وفكرياً(****)

وقال: إن حزبه يناضل من أجل خلق مجتمع اشتراكي، يجد أساسه في تأكيد مبدأ قيمة حرية الفرد والجماعات، وضمانة هذه الحرية، وعلى مبدأ علمانية الدولة وديمقراطيتها، وعلى مبدأ تعددية الأحزاب السياسية، وتناوب الحكم، وفقاً للأكثرية، عبر الانتخابات الحرة، وعلى مبدأ استقلالية النقابات، ومبدأ الحرية الدينية، ومبدأ حرية التعبير في الثقافة، والفنون، والعلوم، وعلى مبدأ تطور الإنتاج العمالي، باستخدام وسائل ديمقراطية في التخطيط، تستخدم مشاريع عامةً وخاصة، تكون غايتها تسديد حاجات الإنسان، والأمة.

(*) المصدر نفسه، ص 196.

(**) المصدر نفسه، ص 197-199.

(***) المصدر نفسه، ص 76-79، وص 199.

(****) Don Sassoon, ed., *The Italian Communists Speak for Themselves*, European Socialist Thought Series; no. 11 (Nottingham: Spokesman Books, 1978), pp. 143-148.

ويفيد بيرلنغور، بأن هذا الاتجاه الديمقراطي الفاعل في الأحزاب الماركسية في أوروبا الغربية، قد تمّ الإعلان عنه، في بيانات وقعتها أحزاب إسبانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وبريطانيا، وهو هذا الاتجاه الذي **يجمع بين الديمقراطية والاشتراكية**، هو ما سماه بعض الكتاب، **بالشيوعية الأوروبية**.

والحق يقال، إن فكرة استقلالية الأحزاب الماركسية في التفكير والنضال، والسعي لإيجاد طريق قومي نحو الاشتراكية، لم تكن فكرة مختصة بأحزاب أوروبا الغربية، فالتجربة اليوغسلافية التيتوية التي نجحت، والتجربة التشكيوسلوفاكية الروبيكية التي أخفقت، والتجربة الصينية، كلها عبرت، بشكل أو بآخر، عن روح استقلالية، وأظهرت مفاهيم جديدة للتحول الاشتراكي. وإننا لم نعد، في الواقع وفي الدساتير، نقع على فكرة الطبقة، ودكتاتورية البروليتاريا في البلدان التي تحققت فيها الاشتراكية. فذلك دستور «الاتحاد السوفيتي»، نصّ في المادة الأولى من نظامه السياسي، على أن «اتحاد الجمهوريات الاشتراكية، هو دولة اشتراكية للشعب بأسره تعبر عن إرادة ومصالح العمال، والفلاحين، والمثقفين، شغيلة جميع أمم البلد وأقوامه». وفي المادة العاشرة، نقرأ النص الآتي: «الملكية الاشتراكية لوسائل الإنتاج، بشكل ملكية الدولة (ملكية الشعب بأسره)، وبشكل الملكية الكولخوزية التعاونية، هي أساس النظام الاقتصادي للاتحاد السوفيتي»(*) وأثناء المؤتمر الأخير للحزب الشيوعي الياباني، الذي انعقد في عام 1976، في طوكيو، طلب الأمين العام الرفيق فوا، إلغاء عبارة دكتاتورية البروليتاريا.

من كل ما تقدم، نحصل النتيجة الهامة الآتية:

إن الأحزاب الماركسية المعاصرة، لفظت نهائياً الفكرة المركزية للماركسية الكلاسيكية، ألا وهي «دكتاتورية طبقة البروليتاريا». وهي اليوم تلحّ على فكرة الديمقراطية الشعبية، والدولة الديمقراطية الشعبية الاشتراكية. فإذا كان هذا هو الفكر المتواجد في دوائر المعرفة الماركسية المعاصرة، فماذا يمكننا القول بعد ذلك، سوى الغياب المطلق للماركسية الكلاسيكية أو موتها.

حيدر حاج اسماعيل

(*) دستور اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية (القانون الأساسي)، «الاتحاد السوفيتي» ملحق للعدد الأول ص 254.

المقدِّمة

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة مؤلفة من كتابات عديدة في هذا الميدان، منذ عام 1956 ولغاية عام 2009، وهو بصورة جوهرية دراسة في تطوّر وَقْع فكر كارل ماركس (وفريدرك إنجلز الذي لا ينفصل عنه). فهو ليس تاريخاً للماركسية بالمعنى التقليدي، بالرغم من أن جوهره يشتمل على ستة فصول كنت قد كتبتها لعملٍ متعدِّد المجلّدات وطموحٍ هو: **قصة الماركسية** (*Storia del Marxismo*) الذي نشرته دار إينودي (Ein-audi) باللغة الإيطالية (1978 – 1982) وكنت مشاركاً في تخطيطه وفي تحريره. وتشكّل تلك الفصول، بعد أن تمَّت مراجعتها، وأعيدت كتابتها أحياناً، وأكملت بفصل تناول فترة التراجع الماركسي منذ عام 1983، ما يفوق عن نصف محتويات الكتاب. علاوةً على ذلك، يحتوي الكتاب على بعض الأبحاث الإضافية، وهو ما يدعى بلغة العلماء والمثقفين «قبول ماركس والماركسية»، ومقالة عن الماركسية والحركات العمالية منذ تسعينات عام 1890، ونسخة أولية معدّلة لما ألقي كمحاضرة باللغة الألمانية في مؤتمر مؤرخي العمال الدولي في لينز (Linz)، وثلاث مقدِّمات لكتب مفردة، هي كتاب إنجلر، **حالة الطبقة العاملة** (*Condition of the Working Class*)، **البيان الشيوعي** (*The communist Manifesto*)، ووجهات نظر ماركس حول التشكيلات الاجتماعية التي سبقت الرأسمالية في المجموعة المهمة لمخطوطات عام 1850 المعروفة بـ **غروندوسّه** في شكلها المنشور. والماركسي الوحيد الذي جاء بعد ماركس وإنجلز وتمَّ درسه في هذا الكتاب هو أنطونيو غرامشي.

ثلثا هذه النصوص لم ينشر في اللغة الإنجليزية إطلاقاً. فالفصل الأول هو إسهام

موسع لكتابة معادة في محادثة دارت حول ماركس وتمّت برعاية أسبوع مؤسسة الكتاب اليهودي (The Jewish Book Week)، في عام 2007. ومثله الفصل الثالث عشر. أما الفصل الخامس عشر فقد نشر من قبل.

مَنْ هم القراء الذين داروا في خَلَدي عندما كتبت هذه الدراسات، التي جمعتها، الآن مع بعضها؟ في بعض الحالات (أعني الفصول 1، 4، 5، 16، وربما 12) فكرت بالرجال والنساء المهتمين بمعرفة إضافية عن الموضوع. على أية حال، إن معظم الفصول استهدفت القراء ذوي الاهتمام الخاص بماركس، والماركسية والتفاعل بين السياق التاريخي وتطور الأفكار وتأثيرها. وما حاولت أن أوفّره للفريقين هو ما يفيد أن دراسة ماركس والماركسية لا يمكن حصرهما في جدل لصالح جهة أو ضدها، ولا في البيئة السياسية والأيديولوجية التي تخص الأصناف المتغيرة من الماركسيين ومنازعيهم. فالماركسية كانت في المئة والثلاثين سنة الماضية الموضوع الرئيسي في الموسيقى الفكرية للعالم الجديد، وعبر قدرتها على تحريك القوى الاجتماعية كان لها وجود حاسم وفاصل في بعض الفترات الزمنية، وفي تاريخ القرن العشرين. وأملي أن يساعد كتابي القراء في التفكير المِلِي في مسألة ما يكون عليه مستقبلها ومستقبل الإنسانية في القرن الحادي والعشرين.

إرِيكْ هوبْزْباوْم

لندن، كانون الثاني/ يناير 2011

القسم الأول

ماركس وإنجلز

الفصل الأول

ماركس اليوم

I

في عام 2007، كانت مناسبة أسبوع مؤسسة الكتاب اليهودي وذلك قبل أقل من أسبوعين للذكرى السنوية لوفاة كارل مركس (14 آذار/ مارس)، وعلى بعد مسافة قصيرة من المكان الذي ارتبط به ارتباطاً وثيقاً في لندن، أعني، غرفة المطالعة المستديرة في المتحف البريطاني، التي قد وجد فيها اشتراكيان مختلفان هما: جاك أتّالي (Jacques Attali) وأنا للتعبير عن احترامنا له بعد موته. ومع ذلك إنك عندما تفكر في المناسبة والتاريخ، فسيبدو لك أن ذلك لم يكن متوقعاً مرتين. الأولى تفيد أن الإنسان لا يستطيع أن يقول، إن ماركس ماتَ فاشلاً في عام 1883، لأن كتاباته بدأت تترك أثراً في ألمانيا، خاصة في أوساط المفكرين في روسيا، كما كانت هناك حركة قادها تلاميذه، وهي في طريقها للسيطرة على الحركة العمالية الألمانية. غير أن الذي كان في عام 1883 هو وجود القليل الذي يبيّن أعمال حياته الكتابية. فقد كان قد كتب كراسات ذكية لم تنجز من عمله الرئيسي غير المكتمل، أعني كتاب: **رأس المال** (*Das Kapital*)، وهو الكتاب الذي لم يقدم في العقد الأخير من حياته. وعندما كان يسأله زائر عن كتاباته، كان هو يسأله بحرارة: «أي كتابات؟» ومحاولته السياسية الرئيسية، منذ فشل ثورة عام 1848، المدعوّة الأممية الأولى (First International) لعام 1864 – 1873، وقد أخفقت أيّما إخفاق. وهو لم يؤسس وضعاً ذا أهمية في الحياة السياسية أو الفكرية لبريطانيا، حيث قضى ما يزيد على نصف حياته، منفياً.

ومع ذلك، ما الذي نجح فيه أيما نجاح عظيم بعد وفاته! ففي غضون خمس وعشرين سنة منذ وفاته، حصلت الأحزاب السياسة الأدبية الخاصة بطبقة العمال التي تأسست باسمه، أو التي أقرّت بوحيه، على ما بين 15٪ و 47٪ من الأصوات في أقطار ذات انتخابات ديمقراطية – وكانت بريطانيا الاستثناء الوحيد. وبعد عام 1918 صار معظمها أحزاباً في الحكم لا في المعارضة فحسب، وظلّت كذلك بعد نهاية الفاشية، لكن معظمها عندئذٍ صار توّاقاً للتنصل من وحيها الأصلي. وجميعها ما يزال موجوداً. وفي ذات الوقت أقام تلاميذ ماركس مجموعات ثورية في الأقطار اللاديمقراطية وأقطار العالم الثالث. فبعد سبعين سنة من وفاة ماركس، عاش ثلث البشر في ظل أنظمة تحكمها أحزاب شيوعية ادّعت أنها مثّلت أفكاره وحققت وحيه. وما يزال 20٪ منها كذلك، بالرغم من أن أحزابهم الحاكمة غيرّت بصورة دراماتيكية سياساتها، باستثناءات ضئيلة. وباختصار نقول، إذا كان هناك مفكر واحد ترك علاقة في القرن العشرين لا يمكن محوها، فإنه هو. حاولْ أن تمشي في مقبرة هايغيت (High-gate) حيث دفن كارل ماركس وهيربرت سبِنسِر (Herbert Spencer) اللذان عاشا في القرن التاسع عشر – نعني كارل ماركس وهيربرت سبِنسِر – تجدْ أن اللافت هو أن قبريهما في منظور واحد. وعندما كانا على قيد الحياة، عرف هيربرت بأنه أرسطو العصر، وكان ماركس مجرد شخص عاش على المنحدرات السفلى لهامبستيد (Hampstead) عالةً على مال صديقه. أما اليوم، لا يوجد من يعرف أن سبِنسِر مدفون هناك، بينما السائحون من كبار السن الوافدون من اليابان والهند يزورون قبر كارل ماركس، كما أن الشيوعيين الإيرانيين والعراقيين يصرّون على أن يدفنوا في ظلّه.

وصل عصر الأنظمة الشيوعية والأحزاب الشيوعية الكبيرة إلى نهايته بسقوط الاتحاد السوفيتي (USSR)، وحيث ظل بعضها، كما في الصين والهند، فإنه من الوجهة العملية تخلّى عن المشروع الماركسي اللينيني القديم. وعندما حدث ذلك السقوط، لم يعد ماركس موجوداً في بلاد مسكونة. وكانت الشيوعية قد زعمت أنها وريثته الحقيقية الوحيدة، وأفكاره كانت تتشبه بها، وبمقدار كبير. وذلك لأنه، حتى الميول الماركسية أو الماركسية – اللينينية التي أقامت قواعد هنا وهناك، بعد أن ندّد خروتشيف بستالين في عام 1956، كانت ظواهر انفصال خارجين عن الشيوعية. لذا، صار ماركس في معظم العشرين سنة الأولى بعد الذكرى المئوية لوفاته رجل الماضي، وبمعنى دقيق لم يعد يشغل بال أحد. وقد رأى أحد الصحفيين أن هذا البحث في هذه الليلة يحاول إنقاذه من «مزابل التاريخ» (The dust bins of history). مع ذلك، نؤكد على أن ماركس، هو من جديد المفكر الحقيقي للقرن الحادي والعشرين.

أنا لا أفكر كثيراً بنتيجة التصويت الذي أجرته مؤسسة بي بي سي (BBC) التي أظهرت أن مستمعي الراديو البريطاني يشكلون عدّوه الأعظم بين الفلاسفة، ولكن إذا طبعت اسمه في غوغل (Google) ستجد أن له 32,4 مليون مرجع (31 تشرين أول/ أكتوبر، عام 2008)، وهو الرقم الأكبر بين الموجودين من المفكرين الكبار، ولم يتقدَّم عليه إلاّ داروين (Darwin) وإينشتاين، لكنه كان متقدِّماً كثيراً على فرويد (28 مليوناً) تاركاً فريدريك فون هايك (Friedrich von Hayek)، وذا الأفول السريع آدم سميث (7,5 مليون) متخلِّفاً كثيراً وراءه.

وفي نظري يوجد سببان لذلك. السبب الأول يتمثَّل في أن نهاية الماركسية الرسمية للاتحاد السوفيتي حرَّرت ماركس من التطابق المشاع والشهير مع اللينينية نظرياً، ومع الأنظمة اللينينية في الممارسة. فصار واضحاً وجود أسباب مسوِّغة كثيرة لحسبان ما كان على ماركس قوله عن العالم - وهذا هو السبب الثاني - بشكل لافت، لأن العالم الرأسمالي العالمي الذي ظهر في تسعينات القرن الماضي كان من نواحٍ ممتازة وحاسمة مثل العالم الذي توقَّعه ماركس في **البيان الشيوعي**. وقد صار هذا واضحاً في ردّ الفعل الشعبي بمناسبة الذكرى السنوية المئة والخمسين لتلك الكراسة الصغيرة المدهشة، في عام 1998 التي اتُّفق بصورة عفوية على أن تكون سنة الثوران الدراماتيكي للاقتصاد العالمي. وتمثَّلت المفارقة في أن الرأسماليين لا الاشتراكيين هذه المرة، هم الذين اكتشفوه من جديد، أعني: حين كان الاشتراكيون فاقدي الهمّة ومحبطين، ولم يستفيدوا من تلك الذكرى السنوية. وأتذكّر اندهاشي عندما قابلني محرِّر مجلة رحلات الطيران الداخلية لشركة خطوط الجوّ المتَّحدة (United Airlines)، وأعلمني أن 80٪ من قرّاء المجلة كانوا من رجال الأعمال الأميركيين المسافرين.

وقد كتبت قطعة صغيرة عن **البيان الشيوعي**، لاعتقاده بأن قراءه سيكونون مهتمين بنقاش يدور حول **البيان الشيوعي**، وسألني، إذا كان يمكنه أن يستعمل بعضاً من تلك القطعة؟ وازداد اندهاشي، عندما كنت وقت الغذاء جالساً مع جورج سوروس (George Soros)، حوالي نهاية القرن، وسألني عن رأيي في ماركس. ولمعرفتي باتساع الفرق بين نظريتنا، أردت أن أتجنَّب الجدل، لذا قدمت جواباً غامضاً. غير أن سوروس قال: «ذلك الإنسان» اكتشف شيئاً عن الرأسمالية منذ 150 عاماً علينا أن نلحظه، والحق أنه قام بذلك. ولم يمضِ وقت طويل، حتى بدأ كتّاب لم يكونوا شيوعيين إطلاقاً - بحسب معرفتي - بالنظر إليه من جديد، نظرة جدّية كما حصل في ما كتبه جاك أتّالي عن حياة ماركس ودراسته عنه. ورأى أتّالي أنه ظل عند كارل

ماركس الكثير ليقوله للمريدين. أن يكون العالم مجتمعاً مختلفاً عن المجتمع الذي لدينا الآن، وأفضل منه. لذا من المفيد أن تذكِّر أننا نحتاج، حتى من وجهة النظر هذه، أن نحسب حساب ماركس اليوم.

وفي شهر تشرين أول/ أكتوبر عام 2008، وبعدما نشرت مجلة **فاينانْشِل تايمز** (*Financial Times*) مقال بعنوان: الرأسمالية في اضطراب عنيف (Capitalism Convulsion)، لم يبق هناك أي شك في أن ماركس عاد إلى المشهد العام. وعندما كانت الرأسمالية العالمية تخضع لأعظم حالة من التمزّق والأزمة منذ أوائل ثلاثينات عام 1930، لم يكن ماركس خارجها. من جهة أخرى، إن ماركس القرن الحادي والعشرين سوف يكون مختلفاً عن ماركس القرن العشرين.

فما كان يعتقده الناس عن ماركس في القرن الماضي، هيمن عليه حقائق واقعية. الحقيقة الأولى الانقسام بين الأقطار، ففي برنامج بعضها توجد ثورة وفي بعضها الآخر لا يوجد مثل ذلك – وبكلام عام جداً –، أعني الأقطار الواقعة في شمال المحيط الأطلسي والمحيط الهادي والبقية. والحقيقة الواقعية الثانية تنتج من الأولى، أعني أن إرث ماركس تفرّع إلى فرعين، هما: إرث ديمقراطي اجتماعي إصلاحي، وإرث ثوري سيطرت عليه الثورة الروسية بلا منازع. وأصبح هذا واضحاً بعد عام 1917، بداعي الحقيقة الواقعية الثالثة، وهي: انهيار رأسمالية القرن التاسع عشر ومجتمع القرن التاسع عشر البورجوازي إلى ما كنت قد دعوته «عصر الكارثة» (Age of Catastrophe) ما بين عام 1914 وأربعينات القرن العشرين. وبلغت تلك الأزمة درجة من القساوة جعلت الكثيرين يرتابون بإمكانية شفاء الرأسمالية. فهل مصيرها متمثِّل في استبدالها باقتصاد اشتراكي، كما تنبأ جوزيف شومبيتر (Joseph Schumpeter) البعيد عن الماركسية، في أربعينات القرن العشرين. غير أن الذي حصل، واقعياً، هو أن الرأسمالية استعادت عافيتها، لكن بشكل غير شكلها القديم. وفي نفس الوقت، ظهر في الاتحاد السوفيتي بديلٌ اشتراكي حصين من الانهيار. وبين عام 1929 وعام 1960، لم يَبْدُ أمراً غير معقول، الاعتقادُ بأن الرأسمالية ضعفت، وأن الاتحاد السوفيتي كان يبرهن على إمكانية عدم إنتاجها، وتجلّى ذلك الاعتقاد عند الكثيرين من غير الاشتراكيين الذين لم يوافقوا على الناحية السياسية لتلك الأنظمة. وفي عام سبوتنِكْ (Sputnik) لم يكن ذلك مُحالاً عقلياً. وصيرورته محالاً تجلَّت بعد عام 1960.

تعود تلك الأحداث وأثر نتائجها في السياسة والنظرية إلى الفترة الزمنية التي

أعقبت وفاة ماركس وإنجلز. فقد كانوا يكذبون ليغدوا خارج مجال خبرة ماركس وتقييماته. لذا، فإن حكمنا على ماركسية القرن العشرين غير مبنيٍّ على تفكير ماركس نفسه، وإنما على تفسيرات كتابته أو مراجعاتها. وأقصى ما نقدر عليه هو أن نزعم أنه في أواخر ثمانينات القرن العشرين، وخلال الأزمة الفكرية الأولى للماركسية، بدأ الجيل الأول من الماركسيين، أعني الذين كانوا على اتصال شخصي بماركس والأكثر احتمالاً فريدرك إنجلز، بمناقشة بعض المسائل التي صار لها صلة في القرن العشرين أبرزها: التعديلية (Revisionism)، والإمبريالية (Imperialism)، والقومية (Nationalism). ومقدار كبير من النقاش الماركسي يخص القرن العشرين، ولا نجده في كتابات كارل ماركس، خاصة الجدل حول ما يقدر أن يكون عليه شكل الاقتصاد الاشتراكي، أو ما يجب أن يكون عليه شكله، وهو الجدل الذي نشأ بمقدار كبير من تجربة اقتصاديات حرب 1914 – 1918، وأزمة ما بعد الحرب شبه الثورية أو الثورية.

وهكذا فإن الزعم بأن الاشتراكية أعلى من الرأسمالية وأسمى منها، كطريقة تؤمِّن التطور الأسرع لقوى الإنتاج، لم يكن من إنشاء ماركس. فهو يخص العصر الذي واجهت فيه الأزمة الرأسمالية التي حدثت في حرب الاتحاد السوفيتي بخططه الخمس السنوية. فما رآه ماركس، فعلياً لم يكن مفيداً أن الرأسمالية قد بلغت نهايات طاقتها لدعم قوى الإنتاج، بل رأى أن الإيقاع المرتجّ للنمو الرأسمالي أنتج أزمات دوريّة لزيادة الإنتاج ستكون عاجلاً أو آجلاً غير منسجمة مع الطريقة الرأسمالية الخاصة بإدارة الاقتصاد وتوليد نزاعات اجتماعية لا تقدر أن تتغلَّب عليها. فالرأسمالية بطبيعتها عاجزة عن صياغة الاقتصاد اللاحق الخاص بالاقتصاد الاجتماعي. وقد رأى أن ذلك لا بدَّ من أن يكون اشتراكياً.

لذا، لا يبدو مفاجئاً أن تكون «الاشتراكية» (Socialism) في صميم نقاشات القرن العشرين وتقييماته لكارل ماركس. ولا يعود هذا إلى كون مشروع الاقتصاد الاشتراكي هو مشروع ماركسي تحديداً، – وهو ليس كذلك – وإنما لأن الأحزاب ذات الوحي الماركسي شاركت بهذا المشروع، وزعمت الأحزاب الشيوعية منها أنها أدخلته فعلياً وبشكله الخاص بالقرن العشرين، فإن ذلك المشروع قضى. «فالاشتراكية» كما طُبِّقت في الاتحاد السوفيتي، و«الأنظمة الاقتصادية ذات الخطط المركزية»، أعني الأنظمة الاقتصادية التي هي من الوجهة النظرية أنظمة عديمة السوق، ومملوكة من الدولة وخاضعة لسلطة ضابطة، قد ولَّت ولن تعاد إلى الحياة. فالمطامح الديمقراطية الاجتماعية الرامية إلى إشادة أنظمة اقتصادية اشتراكية، كانت، وعلى الدوام، مُثُلاً عليا

مستقبلية، لكنها هُجرت، حتى بوضعها مطامح صورية في نهاية القرن. فكم هو عدد النموذج الاشتراكي الموجود في عقول الاجتماعيين الديمقراطيين (Social-Demo-cratic)، وفي الاشتراكية التي أقامتها الأنظمة الشيوعية، كان ماركسياً؟ وفي هذا المقام يبدو مهماً وحاسماً أن يكون ماركس نفسه، وبشكل متعمَّد، قد امتنع عن ذكر أقوال محدَّدة عن الأنظمة الاقتصادية الاشتراكية وعن مؤسساتها الاقتصادية، ولم ينبس ببنت شفة تتعلق بالشكل المادي للمجتمع الشيوعي، باستثناء القول، إنه لا يمكن بناؤه أو برمجته، لكنه سينشأ من مجتمع اشتراكي. ومثل هذه الملاحظات العامة التي ذكرها عن الموضوع، كما حصل في كتابته عن **نقد برنامج غوتا** (*Critique of the Gotha Programme*) للديمقراطيين الاجتماعيين الألمان، حيث لم يقدِّم إرشاداً خاصاً، وتلك الملاحظات العامة لم تقدم فكرة جدّية عما اعتبروا أنه سيكون مشكلة أكاديمية أو تمريناً طوباوياً خيالياً إلى زمن ما بعد الثورة. فقد كانت تكفي المعرفة بأنه سيكون مبنيّاً – وهنا نستشهد بـ «المادة رقم 4 المشهورة في دستور حزب العمال – على «المعرفة المتعلقة بالملكية العامة لوسائل الإنتاج»، التي كان يفهم بأنها تتحقق عبر تأميم الصناعات الوطنية.

الغريب اللافت حقاً، هو أن النظرية الأولى الخاصة بالاقتصاد الاشتراكي المركزي لم يصغها الاشتراكيون، بل صاغها اقتصادي إيطالي لا اشتراكي هو إنريكو بارون (Enrico Barone)، في عام 1908. ولم يفكر بها أحدٌ آخر قبل أن تصبح مسألة تأميم الصناعات الخاصة على جدول أعمال السياسة العملية، في نهاية الحرب العالمية الأولى. وفي تلك المرحلة، واجه الاشتراكيون مسائلهم من غير استعداد لها، ومن دون إرشاد من الماضي، أو من أي إنسان آخر.

والتخطيط، متضمَّن في أي نوعٍ من الاقتصاد المدار اجتماعياً، إلاّ أن ماركس لم يذكر شيئاً محدَّداً عنه، وعندما جُرِّبَ في روسيا السوفيتية بعد الثورة، كان لا بدَّ من حصول ارتجال له. ومن الوجهة النظرية، حصل ذلك عبر ابتداع مفاهيم (مثل تحليل الوارد والصادر الذي اقترحه ليونتييف (Leontiev)) وتوفير الإحصائيات ذات الصلة. وقد اعتُمدت هذه الوسائل بشكل واسع مؤخراً في الأنظمة الاقتصادية غير الاشتراكية. وفي الممارسة حصل ذلك عن طريق اتّباع اقتصاديات الحرب المرتجلة أيضاً، خاصة في الحرب العالمية الأولى، ولاسيما الاقتصاد الألماني، مع انتباه خاص للصناعة الكهربائية التي عرف لينين عنها عن طريق متعاطفين سياسيين عاملين في الإدارات التنفيذية للشركات الكهربائية الألمانية والأميركية. فظل الاقتصاد الحربي النموذج الأساسي لاقتصاد التخطيط السوفيتي، أي الاقتصاد الذي يحدِّد أهدافاً معينة بطريقة

قبليّة – مثل تصنيع ذي سرعة متطرفة، وربح الحرب وصنع قنبلة ذرّية أو إيصال بشر إلى القمر – ثم يخطط لتحقيقها بتحديد وتوزيع الموارد مهما كلّف الوقت القصير. فليس هناك أي مظهر اشتراكي حصري لذلك. فالعمل لإصابة أهداف معدَّة مسبقاً يمكن إنجازه بأي مقدار من الثقافة المصقولة، لكن الاقتصاد السوفيتي لم يتعدَّ ذلك في واقع الأمر. ومع أنه حاول بدءاً من عام 1960 وما أعقبه، فإنه لم يستطع أن يتخلَّص من الخديعة (Catch – 22) المتضمَّنة في محاولة إدخال أسواق في بنية إدارة بيروقراطية.

الديمقراطية الاجتماعية عدّلت الماركسية بطريقة مختلفة، إمّا عبر تأجيل بناء الاقتصاد الاشتراكي، أو بشكل إيجابي أكبر، عبر ابتداع أشكال مختلفة من الاقتصاد المختلط (Mixed Economy). وما دامت الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية ملتزمةً بخلق اقتصاد اشتراكي كامل، فإن هذا يتضمن بعض التفكير في الموضوع. والتفكير اللافت أكثر من سواه صدر عن المفكرين غير الماركسيين، مثل فابيانس سيدني (Fa-bians Sidney)، وبياتريس وِبْ (Beatrice Webb)، اللذين تصوّرا تحوّلاً تدريجياً للرأسمالية إلى الاشتراكية عبر مجموعة من الإصلاحات الثابتة والتراكمية، واللذين، تبعاً لذلك فكرا بالشكل المؤسسّي للاشتراكية، لا لعملياتها الاقتصادية. أما «التعديلي» (Revisionist) الماركسي الرئيسي، إدوارد بيرنشتاين (Edward Bernstein) فقد صفى المسألة بإصراره على أن الحركة الإصلاحية هي كل شيء، وأن الهدف الأخير ليس له حقيقة عملية. والواقع هو أن معظم الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية التي صارت أحزاباً في الحكم، بعد الحرب العالمية الأولى قامت على سياسة تعديلية مقرَّرة، وكان الحاصل ترك الاقتصاد الرأسمالي يعمل ويلبي بعض مطالب العمال. **والشاهد الكلاسيكي** (Locus Classicus) على هذا الموقف كان كتاب أنطوني كروسلاند (Anthony Crosland): **مستقبل الاشتراكية** (*The Future of Socialism*) (1956) الذي ناقش الفكرة المفيدة أن حلّ رأسمالية ما بعد عام 1945 مسألة إنتاج مجتمع وفرة ومشاريع عامة (على الشكل الكلاسيكي للتأميم أو خلافه) لم يكن ضرورياً، وأن مهمة الاشتراكيين الوحيدة هي تأمين التوزيع المتساوي للثروة القومية. كل ذلك كان بعيداً عن فكر ماركس، وعن الأهداف التقليدية لاشتركيي المذهب الاشتراكي بوصفها تعني بصورة جوهرية مجتمعاً لا سوق فيه، وهو ما شارك في اعتباره ماركس، أيضاً.

لنضف أيضاً القول، إن النقاش الأخير بين الليبراليين – المتجددين الاقتصاديين ونقّادهم عن دور الدولة والمشاريع ذات الملكية العامة، ليس نقاشاً ماركسياً ولا نقاشاً اشتراكياً، من الوجهة المبدأية. فقد قام على محاولة منذ سبعينات عام القرن الماضي،

لترجمة التفسخ المرضي لمبدأ دعه - يعمل (Laissez-Faire) إلى واقع اقتصادي عبر التراجع المنظّم للدول عن أي تنظيم أو إشراف على نشاطات المشاريع التي تستهدف الربح. هذه المحاولة لنقل المجتمع الإنساني إلى السوق ذي الإشراف الذاتي (كما يُدّعى) والثروة - أو للسوق الرامي إلى زيادة الرعاية والمملوء (كما يُدّعى) بفاعلين ساعين سعياً عقلياً وراء مصالحهم، هي محاولة لا سابقة لها في أي مرحلة سابقة للتطور الرأسمالي في أي اقتصاد متطور، ولا في الولايات المتحدة أيضاً. إنه بمنزلة برهان بالخُلْف (reductio ad absurdum) على ما يجده الأيديولوجيون في قراءتهم لآدم سميث مثلما وجد البلاشفة (Bolsheviks) المتطرفون والمقابلون لهم 100٪ من الاقتصاد المخطط والمدار من دولة الاتحاد السوفيتي في قراءتهم لماركس. ولم يكن مستغرباً فشل تلك «الأصولية السوقية» (Market Fundamentalism) الأقرب إلى اللاهوت من الواقع الاقتصادي.

وقد أزال اختفاء اقتصاد الدولة المخطَّط مركزياً والاختفاء الفعلي للمجتمع الذي تحوَّل تحوّلًا أساسياً من ساحة مطامح الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية المشوَّشة، الكثير من نقاشات القرن العشرين حول الاشتراكية. فقد كانت بعيدة بمقدار عن تفكير كارل ماركس، بالرغم من أنها ظلَّت تستوحيه، وتتصرف باسمه. ومن جهة أخرى، ومن نواحٍ ثلاث بقيت كتابات ماركس قوة هائلة، أعني: كمفكر اقتصادي، وكمفكر تاريخي وكمحلِّل، وكأبٍ مؤسس معترف به [مع دوركهايم (Durkheim) وماكس فيبر (Max Weber)] من ذوي التفكير الحديث الخاص بالمجتمع. وأنا لست مؤهَّلاً لتقديم رأي به كفيلسوف استناداً إلى أهميته المستمرة الخطرة الواضحة. ولا شك في أن العلاقة بالعصر الحاضر التي لم تفقد أبداً، تمثَّلت في رؤية ماركس للرأسمالية بوصفها نمطاً تاريخياً مؤقتاً للاقتصاد الإنساني، وتحليله لطريقة عمله (Modus operandi) التوسعية والتركيزية، الخالقة للأزمات والمتحولة ذاتياً.

II

ما علاقة ماركس في القرن الحادي والعشرين؟ النموذج السوفيتي للاشتراكية لم يعد موجوداً - وهو المحاولة الوحيدة لإقامة اقتصاد اشتراكي إلى الآن. من جهة أخرى، حصل تقدم هائل ومتسارع للعولمة، وكذلك للقدرة الإنسانية الصرفة المولِّدة للثروة. وهذا قلَّل من سلطة الدول القومية ومداها في العمل الاقتصادي والاجتماعي، وفي السياسات الكلاسيكية للحركات الديمقراطية الاجتماعية، التي كانت تعتمد أصلاً على فرض الإصلاحات على الحكومات القومية. وبالنسبة إلى شهرة الأصولية السوقية، ولّدت العولمة أيضاً ظاهرة عدم مساواة اقتصادية متطرفة داخل الأقطار وبين

الأقاليم، وأعادت عنصر الكارثة إلى الإيقاع الدوري الأساسي للاقتصاد الرأسمالي، بما في ذلك ما صار أزمته العالمية الخطرة منذ ثلاثينات عام 1930.

مكَّنت طاقتنا الإنتاجية على الأقل من حيث الإمكانية، معظم البشر من الانتقال من عالم الضرورة إلى عالم الوفرة، والتربية والتعليم وخيارات حياتية لم تكن تخطر في خيال معظم سكان العالم بالرغم من أنهم لم يدخلوه بعد. ومع ذلك أقول، إن معظم الحركات الاشتراكية والأنظمة في القرن العشرين لا تزال تعمل في عالم الضرورة ذاك، وفي أقطار الغرب الغنية أيضاً ظهر مجتمع ذو وفرة عامة في السنوات التي أعقبت عام 1945. على كل حال، لم يعد برنامج عالم الوفرة كافياً عند الاشتراكيين بالرغم من لزومه، وهو البرنامج الذي كان هدفه توفير الطعام الكافي، والملبس، والسكن، والوظائف للحصول على دخل، ونظام رعاية لحماية الناس من مخاطر الحياة.

التطور الثالث هو تطور سلبي. فبما أن التوسع المذهل للاقتصاد العالمي قد دمَّر البيئة، فإن الحاجة لضبط النمو الاقتصادي غير المحدود صار أمراً ملحّاً بشكل متزايد. فهناك صراع واضح بين الحاجة إلى عمل مضاد، أو على الأقل، ضبط وقع اقتصادنا على الحياة والكائنات الحيّة (Bios Sphere)، وقواعد السوق الرأسمالي، وتتلخص في: التزايد المستمر والمتصاعد في البحث عن الربح. وهو عقب أخيل (Achilles Heel) في الرأسمالية. وفي الوقت الحاضر لا نقدر أن نعرف السهم الذي سيكون قاتله.

كيف يجب أن ننظر إلى كارل ماركس اليوم؟ هل نعتبره مفكراً للإنسانية كلها وليس لقسم منها فحسب؟ لا شك في ذلك. كفيلسوف؟ وكمحلِّل اقتصادي؟ وكأب مؤسس لعلم الاجتماع الحديث ومرشد لفهم التاريخ الإنساني؟ بلى، لكن الرأي فيه الذي أكَّده أتّالي وكان محقًّا، هو الذي أفاد الشمولية العالمية بفكره. وشموليته ليست من نوع «ترابط الأنظمة». فكما كتب أتّالي: «لقد فكر الفلاسفة قبله في الإنسان ككل لكنه كان الأول الذي فهم العالم ككل من الناحية السياسية والاقتصادية والعلمية والفلسفية، في وقت واحد».

الأمر الواضح وضوحاً تاماً، أن الكثير مما كتبه صار قديماً، وبعضه لم يعد مقبولاً والواضح أيضاً هو أن كتاباته لا تؤلف مجموعة مكتملة، لكنها مثل كل فكر يستحق الاسم، لأنه عمل لا متناهٍ، ومستمر. فلم يعد هناك ما يتحوّل إلى عقيدة جامدة، باستثناء الأرثوذكسية المدعَّمة بمؤسسات. هذا بلا ريب يمكن أن يصدم ماركس نفسه. غير أنه علينا أن نرفض أيضاً الفكرة المفيدة بوجود فرق حاد بين ماركسية «صائبة» و«غير

صائبة». فنمط المساواة عنده قد يؤدي إلى نتائج ونظرات فلسفية مختلفة. والواقع هو أن ذلك ما حصل مع ماركس نفسه، الذي تصوَّر حصول انتقال سلمي ممكن إلى السلطة في بريطانيا وهولندا، والتطور الممكن لمجتمع القرية الروسي إلى الاشتراكية. يمكن اعتبار مثل كارل كوتسكي (Karl Kautsky) وحتى بيرنشتاين من ورثة ماركس بمقدار ما هو بليخانوف (Plekhanov) ولينين (Lenin) (أو أقل من ذلك، إن أحببت).

لهذا السبب تجدني مشككاً بتمييز أتّالي بين ماركس الحقيقي ومجموعة من التبسيطيين أو المزيفين لفكره - إنجلز، وكوتسكي، ولينين. فقد كان ما فعله الروس مشروعاً، وهم القراء الأوائل الذين اهتموا بكتاب: **رأس المال** (*Capital*)، حيث حسبوا نظريته طريقاً لانتقال الأقطار مثل بلادهم من التخلّف إلى الحداثة عبر التطور الاقتصادي من النمط الغربي، كما كان على ماركس نفسه أن يفكر فيما إذا كان الانتقال المباشر إلى الاشتراكية لا يمكن أن يحصل على أساس العامة في القرية الروسية. ومن المحتمل أن يكون ذلك منسجماً مع الاتجاه السائد لفكر كارل ماركس. فالقضية ضد التجربة السوفيتية ليست في القول، إن الاشتراكية لا يمكن إقامتها إلّا بعد أن يختبر العالم الرأسمالية، وهو الأمر الذي لم يقله ماركس، أو الزعم بأنه اعتقد به زعماً ثابتاً. فالذي حصل كان تجريبياً. فقد كانت روسيا على درجة بالغة من التخلّف، ولا يمكنها أن تنتج أي شيء يتعدى الصورة الكاريكاتورية للمجتمع الاشتراكي - وكما قال بليخانوف محذِّراً: «إمبراطورية صينية بلون أحمر». ففي عام 1917م أجمع على قبول هذه الحقيقة بشكل غامر كل الماركسيين ومن ضمنهم حتى الماركسيين الروس. ومن جهة أخرى، كانت القضية ضد المدعوين بـ «الماركسيين القانونيين» (Legal Marxists) في تسعينات القرن التاسع عشر، الذين تبنوا وجهة نظر أتّالي المفيدة أن المهمة الرئيسية للماركسيين هي تطوير رأسمالية صناعية مزدهرة في روسيا، تكون تجريبية أيضاً. فروسيا رأسمالية ليبرالية لا يمكن حدوثها في النظام القيصري.

ومع ذلك، فإن عدداً من السِّمات المركزية لتحليل ماركس ظلَّ صحيحاً وذا صلة. وأولها هو تحليل الديناميكية العالمية التي لا يمكن مقاومتها للتطور الاقتصادي الرأسمالي وقدرته على تدمير كل مال جاء قبله، بما في ذلك تلك الأجزاء من إرث الماضي الإنساني، الذي منه استفادت الرأسمالية نفسها، مثل بُنى الأسرة. والسمة الثانية تتمثَّل في تحليل آلية النموّ الرأسمالي عبر خلق «تناقضات داخلية» (Internal Contradic-tions) - فترات لا نهاية لها من التوتّرات وحلول موقتة، نموّ يؤدي إلى أزمة وتغيّر وإنتاج تمركز اقتصادي متزايد في اقتصاد العولمة.

وما حلم به ماركس هو مجتمع دائم التجدّد عبر ثورات لا تتوقف، وقد حقّقت الرأسمالية هذا المشروع بالتغيّر التاريخي، عبر ما دعاه شومبيتر (مقتدياً بماركس) «التدمير الخلاّق» (Creative Destruction) الذي ليس له نهاية. واعتقد ماركس أن هذه العملية ستؤدي في نهاية المطاف - ولا بد من أن تؤدي - إلى اقتصاد متمركز ضخم، وهو ما عناه أتّالي عندما قال في مقابلة حديثة، إن عدد الأفراد الذين سيقررون ما حدث فيه سيكون في مستوى 1,000، أو 10,000، على الأكثر. واعتقد ماركس أن ذلك سيؤدي إلى إبطال الرأسمالية، وهذه نبوءة لا تزال تبدو معقولة عندي، لكن بطريقة مختلفة عن الذي توقعه ماركس.

ومن جهة أخرى، إن نبوءته التي تفيد أن ذلك سيحدث عبر «نزع الملكية من نازعي الملكية، بواسطة طبقة عمال (بروليتاريا) واسعة يؤدي إلى الاشتراكية لم تكن مبنيةً على تحليل لآلية الرأسمالية، بل بنيت على افتراضات قبليّة منفصلة. وفي أحسن الحالات إنها كانت مبنيةً على نبوءة تفيد أن التصنيع سيؤدي إلى وجود بشر موظفين كعمال مأجورين في معظمهم، كما كان يحدث في إنجلترا في ذلك الزمن. وهذا يصح كنبوءة تتعلق في المدى الزمني المتوسط، لا على المدى الطويل كما نعرف. كما أن ماركس وإنجلز، بعد أربعينات القرن التاسع عشر لم يتوقعا أن ينتج المجتمع حالة من الإفقار السياسي الراديكالي الذي أَمِلاه. فالذي كان واضحاً عند كليهما هو أن أقسام واسعة من العمال (البروليتاريا) لن يزداد فقرها بأي معنى مطلق. وقد ذكر مراقب أميركي حضر أحد مؤتمرات الحزب الديمقراطي الألماني في سنوات العقد الأول من القرن العشرين أنه لاحظ أن الرفقاء هناك بدوا «رغيفاً أو رغيفين فوق خط الفقر». ومن جهة ثانية، إن النمو الواضح لحالة عدم المساواة بين الأقسام المختلفة من العالم وبين الطبقات لا ينتج بالضرورة، ظاهرة «نزع الملكية من منتزعيها». وباختصار أقول، إن آمالاً مستقبلية يمكن قراءتها في تحليله، لكن لا تستمد منها.

السِّمة المركزية الثالثة يمكن الوقوع عليها في كلمات السير جون هِكسْ (Sir John Hicks) الحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد. فقد كتب قائلاً: «إن معظم الراغبين في وضع مجرى تاريخي عام في موضعه سيوظِّفون المقولات الماركسية أو نسخة معدَّلة عنها، إذ لا يوجد سوى النزر القليل من النسخ البديلة التي يمكن الحصول عليه». ونحن عاجزون عن التنبؤ بحلول للمسائل التي تواجه العالم، في القرن الحادي والعشرين، لكن إذا قدِّر لها النجاح، فلا بد لها من طرح الأسئلة للتي طرحها ماركس، حتى لو لم تكن راغبةً بقبول أجوبة تلاميذه المختلفة.

الفصل الثاني

ماركس، إنجلز واشتراكية ما قبل الماركسية

I

كان ماركس وإنجلز وافديْن متأخرين إلى الشيوعية. فإنجلز أعلن عن نفسه أنه شيوعي في أواخر عام 1842، وماركس في الجزء الأخير من عام 1843، وذلك بعد أن أجرى تصفية حساب طويلة ومعقَّدة مع الليبرالية وفلسفة هيغل. وفي ألمانيا التي كانت مكاناً منعزلاً في الوراء لم يكونا الأوَّلين أيضاً. فالرحّالة الألمان من مساعدي الحرفيين (Handwerksgesellen) الذين عملوا في الخارج اتصلوا بالحركات الشيوعية الألمانية، ومن بينهم ظهر أول منظِّر شيوعي ألماني من سكان البلاد هو الخيّاط ويلهلم ويتلنغ (Wilhelm Weitling) الذي نشر أول كتاب له في عام 1838: **البشرية كما هي وكما يجب أن تكون** (*Die Menschheit, wie sie ise und wie sie sein sollte*). وكان في عداد المفكرين موسِسْ هِسْ (Moses Hess) الذي سبق سواه، وزعم أنه حوَّل الشاب فريدريك إنجلز. ومهما يكن من أمر، فإن مسألة الأسبقية في الشيوعية الألمانية ليست بالمسألة المهمة. في أوائل أربعينات القرن التاسع عشر، وجدت حركة اشتراكية وشيوعية مزدهرة نظرياً وعملياً لبعض الوقت في فرنسا، وبريطانيا والولايات المتحدة. فما هو مقدار معرفة ماركس الشاب عن تلك الحركات؟ وما هو دَيْنهم لها؟ وما هي علاقة اشتراكيتهما الخاصة بإشتراكية أسلافهم ومعاصريهم؟ هذه الأسئلة سوف تناقش في هذا الفصل.

وقبل أن نقوم بذلك يمكننا أن نصرف النظر لفترة وجيزة عن الشخصيات التي تقدَّمت النظرية الشيوعية، مع أن مؤرخي الاشتراكية اعتادوا على تقديرها، والثوريون أيضاً أحبوا أن يكون لهم أجداد. فالاشتراكية الحديثة لم تُستمدّ من أفلاطون (Plato) أو من توماس مور (Thomas More)، أو من كامبانيلاّ (Campanella) أيضاً، بالرغم من أن ماركس الشاب كان قد أعجب كثيراً بكتابه! **مدينة الشمس** (*City of the sun*) إلى الحدّ الذي دفعه إلى أن يخطط مع إنجلز وهِس لإدخاله في المكتبة التي أجهضت: «مكتبة أفضل الكتاب الاشتراكيين الأجانب»، في عام 1845»[1]. مثل تلك الكتابات أفادت القراء في القرن التاسع عشر، لأن إحدى الصعوبات الرئيسية في النظرية الشيوعية لدى المثقفين في المدن تمثّلت في أن العمليات الواقعية للمجتمع الشيوعي لا سابق لها، وكانت يصعب تعقلّها. والحق يُقال، إن اسم كتاب مور صار المصطلح الذي يُوظّف لوصف أي محاولة لتخطيط مجتمع المستقبل المثالي، الذي عنى في القرن التاسع عشر المجتمع الشيوعي رئيسياً أي المدينة الخيالية الفاضلة (Utopia).

ونسبة لوجود شيوعي واحد خيالي هو إتيان كابيه (Etienne Cabet) (1788 1856) كان معجباً بشخصية مور، فإن اختيار ذلك الاسم للمدينة لم يكن سيئاً. ومع ذلك، فإن الإجراء العادي المألوف الذي يمكن أن يعتمده الاشتراكيون والشيوعيون الطليعيون، في أوائل القرن التاسع عشر، لو انصرفوا إلى البحث، كان العمل على اكتشاف، أو تركيز الانتباه على علاقة مهندس نظري سابق لأنظمة الحكم المثالية، عندما يكونون على وشك إنشاء نقدهم الخاص للمجتمع أو المدينة الخيالية الفاضلة، وعندئذٍ استعماله ومديحه، لا أن يعملوا على اشتقاق أفكارهم من مؤلف ناءٍ آخر. فنمط الأدب الخيالي المثالي في القرن الثامن عشر جعل تلك الكتابات – التي لم تكن شيوعية، بالضرورة – مألوفة.

كذلك لم تكن الأمثلة التاريخية العديدة للمؤسسات الشيوعية المسيحية، بالرغم من درجات مألوفيتها المختلفة، في عداد الجهات الموحية بالأفكار الاشتراكية والشيوعية الحديثة. فإلى أي مدى كان الأقدمون (مثل المتحدِّرين، في القرن السادس عشر من طائفة تجديد التعميد (Anabaptists) معروفين بشكل واسع، أمر غير واضح. ولا شك في أن إنجلز الشاب، الذي استشهد بالعديد من مثل تلك المجتمعات كبرهان على الشيوعية وكانت قابلة للتطبيق العملي، حصر نفسه في أمثلة حديثة نسبياً، أعني: الاشتراكيين الهزازين (Shakers) (الذين اعتبرهم «أول شعب أقام مجتمعاً على أساس الملكية المشتركة للسلع... في العالم»)[2]، والربابيين (Rappites) والانفصاليين رافضي

الدولة. ولأن تلك المجتمعات معروفة، فقد برهنت بشكل أوّلي على وجود رغبة في الشيوعية تتعدّى ما فكروا فيه وحياً.

لا يمكن صرف النظر بخفّة عن التقاليد الدينية والفلسفية القديمة التي اكتسبت أو تكشفت مع ظهور الرأسمالية الحديثة، وعن إمكانية جديدة للنقد الاجتماعي، أو أكدت على إمكانية قائمة، وذلك لأن النموذج الثوري للمجتمع الليبرالي – الاقتصادي للمذهب الفردي غير المقيَّد يتعارض مع القيم الاجتماعية لكل مجتمع معروف من الرجال والنساء. وبالنسبة إلى الأقلية المثقّفة التي ينتمي إليها عملياً جميع الاشتراكيين، وكذلك أي منظِّر اجتماعي آخر فإنهم موجودون في سلسلة أو شبكة من المفكرين الفلسفيين، وأبرز ما يكون ذلك في تقليد القانون الطبيعي الذي يعود إلى الزمن القديم الكلاسيكي. مع أن بعض فلاسفة القرن الثامن عشر عملوا على تعديل مثل تلك التقاليد لتتلاءم مع المطامح الجديدة للمجتمع الليبرالي – الفردي، فإن الفلسفة حملت معه من الماضي إرثاً قوياً من الكوميونالية، أو في حالات عدة الاعتقاد بأن المجتمع من غير ملكية خاصة هو بمعنى ما «طبيعي» أكثر من المجتمع ذي الملكية الخاصة، أو أسبق منه وجوداً في التاريخ. وهذه الحقيقة تتجلّى كثيراً في اللاهوت المسيحي. فليس أسهل من اعتبار مسيح الخطبة على الجبل «الاشتراكي الأول» (First Socialist) أو الشيوعي الأول، ومع أن أكثرية المنظِّرين الاشتراكيين الأوائل لم يكونوا مسيحيين، فإن الكثيرين من الأعضاء المتأخرين في الحركات الاشتراكية وجدوا ذلك التفكير مفيداً. ولما كانت هذه الأفكار موجودةً في سلسلة متعاقبة من الكتابات، ومعلَّقاً عليها، ومضافاً إليها، وتنتقد الذين تقدَّموها، وهي جزء من الثقافة الرسمية أو غير الرسمية للمنظِّرين الاجتماعيين، فإن فكرة «المجتمع الصالح» (Good Society)، خاصة المجتمع غير المشاد على الملكية الفردية، شكّلت على الأقل جزءاً هامشياً من إرثهم الفكري. ويسهل الجزء من كابيه الذي وضع قائمة بمجموعة كبيرة من المفكرين، بدءاً من كونفوشيوس (Confucius) إلى سيسموندي (Sismondi) مروراً بلايكورغوس (Lycurgus)، وبيثاغوراس (Pythagoras)، وسقراط (Socrates)، وأفلاطون، وبلوتارك (Plutarch)، وبوسيّه (Bossuet)، ولوك (Locke)، وهيلفيشَسْ (Helve-tius)، وراينال (Raynal)، وبنيامين فرانكلن (Benjamin Franklin) قائلاً إنهم عرفوا أن تحقيق أفكارهم الأساسية هو في شيوعيته – والواقع هو أن ماركس وإنجلز سخِرا من ذلك الأصل الفكري في كتاب: **الأيديولوجيا الألمانية**[3] (*The German Ideol-ogy*). ومع ذلك، فإنها تمثِّل عنصراً حقيقياً من الاستمرارية بين النقد التقليدي لِما كان

خاطئاً في المجتمع، والنقد الجديد لِما كان خاطئاً في المجتمع البورجوازي، بالنسبة إلى المثقَّف، على الأقل.

وما دامت تلك النصوص القديمة تجسدت في مفاهيم اشتراكية، فإنها تعكس عناصر قوية في المجتمعات الأوروبية الريفية بشكل رئيسي السابقة للفترة الصناعية، وتعكس أيضاً عناصر في المجتمعات الغربية التي احتكَّ بها الأوروبيون منذ القرن السادس عشر، وإن دراسة مثل تلك المجتمعات «البدائية» الغربية أدَّت دوراً لافتاً في تشكيل النقد الاجتماعي الغربي، خاصة في القرن الثامن عشر، كما يشهد على ذلك الميلُ إلى رفعها إلى مستوى المثال الأعلى مقابل «المجتمع المتمدن» (Civilised Society، سواء أكان ذلك على صورة «المتوحش النبيل»(Noble Savage)، الفلاّح السويسري الحرّ أم فلاح كورسيكا الحرّ، أم غير ذلك. ففي أقل الحالات توحي تلك الدراسة كما هو الحال عند روستو ومفكرين آخرين في القرن الثامن عشر، أن الحضارة تتضمن أيضاً دمار دولة البشر السابقة، والأعدل كحالة إنسانية من بعض النواحي المساواتية والخيِّرة. وقد توحي أيضاً أن مثل تلك المجتمعات السابقة لظهور الملكية الفردية (الشيوعية البدائية) (Primitive Communism) قدَّمت نماذج عن ما يجب أن تطمح إليه مجتمعات المستقبل من جديد، وبرهاناً على أن ذلك ليس بالأمر غير العملي. ومن المؤكَّد أن هذا الخط من التفكير كان موجوداً في اشتراكية القرن التاسع عشر، وليس بأقل من ذلك في الماركسية، لكن المفارقة هي أنه ظهر بقوة في نهاية القرن بصورة أعظم منها في العقود الأولى منه – وقد يكون ذلك له علاقة بمعرفة ماركس وإنجلز المتزايدة بالمؤسسات الشيوعية البدائية، وانشغالهما بدرسها[4]. وباستثناء شارل فورييه (Charles Fourier)، لم يُظهر الاشتراكيون والشيوعيون الأوائل أي ميلٍ للنظر إلى الوراء، ولو من طرف عيونهم، نحو «سعادة بدائية» (Primitive Happiness) يمكن أن تفيد كنموذج لسعادة البشرية في المستقبل، وكان هذا بالرغم من الحقيقة الواقعية المفيدة أن النموذج المألوف أكثر من سواه لإقامة مجتمعات كاملة حصل تأملها منذ القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر. وكان في القصة الخيالية (Utopian) التي رمت إلى سرد ما واجهه المسافر في مجرى بعض رحلاته إلى أنحاء نائية من الكرة الأرضية. وفي الصراع بين التقليد والتقدّم، وبين البدائي والحضاري، كان الالتزام الثابت لا يتزعزع بجهة واحدة. وفورييه نفسه أيضاً الذي شبّه الحالة البدائية للإنسان بجنة عدن (Eden) كان يعتقد بالتقدم الذي لا يمكن تجنّبه ولا منع حصوله.

كلمة «تقدم» (Progress) تؤدي بنا إلى ما سبق إن كان المصفوفة الفكرية لأشكال

نقد المجتمعات الاشتراكية والشيوعية الحديثة المبكرة، أي إلى القرن الثامن عشر، الذي يعرف بعصر التنوير (خاصة في فرنسا). وعلى الأقل، كان ذلك الرأي الثابت لفريدريك إنجلز[5]. وكان قد أكّده قبل أي شيء فيه هو العقلانية المنظمة لذلك النقد. فالعقل وفر الأساس لكل أعمال البشر وتشكيل المجتمع، والمعيار الذي به يقاس «جميع الأشكال السابقة للمجتمع والحكم، وجميع الأفكار القديمة التي وصلت عن طريق التقليد، واستناداً إليه يجب رفضها». ومن الآن فصاعداً، يجب إبطال الخرافة، والظلم، والامتيازات والاضطهاد بواسطة الحقيقة الأبدية، والعدالة الأبدية والمساواة القائمة على الطبيعة وحقوق الإنسان التي لا تُحوَّل[6]، وعقلانية عصر التنوير تضمنت مقاربة نقدية أساسية للمجتمع، وشملت منطقياً المجتمع البورجوازي. ومع ذلك، إن مدارس عصر التنوير الفكرية وتياراته المختلفة وفرَّت أكثر من مجرد براءة حقوق تجيز النقد الاجتماعي والتغيير الثوري. فقد وفرَّ الاعتقاد بقدرة الإنسان على تحسين أحواله – بحسب تورغو (Turgot) وكوندروسيه (Condorcet) – وكماله، والاعتقاد بأن التاريخ الإنساني هو تقدم إنساني نحو ما لا بدَّ من أن يكون في نهاية المطاف المجتمع الأفضل، وفرَّ كل ذلك، معايير مادية أكثر من العقل يمكن بها الحكم على المجتمعات. فليست حقوق الإنسان الطبيعية ممثَّلةً في مجرد الحياة والحرية فقط، وإنما هي أيضاً في «السعي وراء السعادة» (The Pursuit of Happiness)، وهي التي أدرك الثوريون بحقٍ جدَّتها التاريخية [(القديس – العادل) (Saint – Just)]، وحوّلوها إلى اعتقاد بأن «السعادة هي هدف المجتمع، الوحيد»[7]. وأقول، إنه حتى أكثر الأشكال بورجوازيةً وفردية أسهمت في مثل تلك المقاربات الثورية في تشجيع النقد الاشتراكي للمجتمع عندما كان الزمن ملائمًا. وعندما، لم يكن بالإمكان اعتبار جيريمي بنتام (Jeremy Bentham) اشتراكياً من أي نوع. ومع ذلك، فإن ماركس وإنجلز الشابين (وربما كان الثاني أكثر من الأول) اعتبرا بنتام صلةً بين ماديّة هيلفيشَسْ وروبرت أوين (Robert Owen)، الذي «انطلق من نظام بنتام الفكري لكي يؤسس الشيوعية الإنجليزية»، بينما «البروليتاريون والاشتراكيون فقط... هم الذين نجحوا في تطوير تعاليمه لخطوة إلى الأمام»[8]. والواقع هو أن كليهما ذهبا إلى حدّ التفكير بإدخال بنتام في مشروعهم المعروف بـ«مشروع مكتبة أفضل الكتّاب الاشتراكيين الأجانب» – ولو كان ذلك كنتيجة لكتاب وليام غودوِنْ (William Godwin): **العدالة السياسية**[9] (*Political Justice*).

دين ماركس المحدَّد للمدارس الفكرية التي نشأت في عصر التنوير – مثلاً في ميدان الاقتصاد السياسي والفلسفة – لا داعي لبحثه في هذا المقام. فالحقيقة تظل، وهي

التي تفيد أن تلك المدارس اعتبرت بحق «الذين تقدموها من الاشتراكيين والشيوعيين الخياليين» منتمين للتنوير. وفي تتبعّهم للتقليد الاشتراكي إلى ما وراء الثورة الفرنسية، لم يبق إلاّ الماديان الفلسفيان هولباخ (Holbach) وهيلفيشسْ، والشيوعيان المتنوِّران موريلّي (Morelly) ومابلي (Mably) وهي الأسماء الوحيدة في تلك الحقبة الزمنية [باستثناء كامبانيلاّ] التي ظهرت في مشروع مكتبها.

ومع أن جان - جاك روسّو (Jean-Jacques Rousseau) لم يكن له تأثير مباشر وعظيم في ماركس وإنجلز، فإن دور هذا المفكر في تشكيل النظرية الاشتراكية اللاحقة يجب اعتباره وتقديره. يعسر وصف روسّو بأنه اشتراكي، فبالرغم من أنه أنشأ ما صار النسخة الشعبية للحجة المفيدة أن الملكية الخاصة هي المصدر لكل الظلم الاجتماعي المتمثِّل في عدم المساواة، فإنه لم يناقش ليقول، إن المجتمع الصالح عليه أن يحوِّل الملكية إلى ملكية اشتراكية، وكل ما قاله هو وجوب تأمين توزيعها العادل ليس إلاّ وبالرغم من أنه وافق على الفكرة النظرية المفيدة أن «الملكية سرقة»، لكنه لم يطوِّرها بأي تفصيل، وهي الفكرة التي عممَّها بيار - جوزيف برودون (Pierre-Joseph Proud-hon)، لاحقاً - لكنها وكما يشهد تطوير غيروندين بريسّو (Girondin Brissot) لها، لا تتضمن، في ذاتها، اشتراكية[10].

ومع ذلك، لا بدَّ من وضع ملاحظتين حولها. الملاحظة الأولى هي أن النظرة المفيدة أن المساواة الاجتماعية يجب أن تقوم على الملكية العامة للثروة وعلى التنظيم المركزي للعمل الاجتماعي كله، هي توسيع طبيعي لحجة روسّو. والملاحظة الثانية والأهم، هي أن تأثير روسّو السياسي القائل بالمساواة على اليسار اليعقوبي (Jacobin)، الذي منه نشأت الحركات الشيوعية الحديثة، تأثير لا يمكن إنكاره. ففي دفاعه توسَّل بابوف (Babeuf) روسّو[11]. والشيوعية التي عرفها ماركس وإنجلز في بادئ الأمر اعتبرت **المساواة** (Equality) شعارها المركزي[12]، وكان روسّو أكثر المنظرين تأثيراً فيها بالنسبة إلى الاشتراكية والشيوعية. وفي أوائل أربعينات القرن التاسع عشر اللتين كانتا فرنسيتين - بمقدار ما كانتا كذلك، كانتا على نحو كبير - فإن المساواة التي قال بها روسّو كانت أحد المكوِّنات الأصلية. كذلك، يجب عدم نسيان تأثير روسّو على الفلسفة الألمانية الكلاسيكية.

II

كما سبق أن قلنا، بدأ تاريخ الشيوعية المتَّصل كحركة اجتماعية حديثة رحلته على عاتق الجناح اليساري للثورة الفرنسية. فخطٌ مباشرٌ من التحدُّر يربط كتاب بابوف:

مؤامرة **المتساوين** (*Conspiracy of the Equals*)، عبر بيونارّوتي (Buonarroti)، بمجتمعات بلانكي (Blanqui) الثورية لثلاثينات القرن التاسع عشر، وهذه بدورها تتصل عبر «حلف العادلين» (League of the Just) – الذي دُعي بـ «العصبة الشيوعية» (Communist League) لاحقاً – للمنفيين الألمان الذي أوحوا به، بماركس وإنجلز اللذين وضعا مسوَّدة **البيان الشيوعي** من أجله. ومن الطبيعي أن مشروع «مكتبة» ماركس وإنجلز لعام 1845 كان عليه أن يبدأ بفرعين من الأدب «الاشتراكي»، هما: بابوف وبيونارّوتي [اعتماداً على موريلّي ومابلي] اللذين مثّلا الجناح الشيوعي المنفتح، ومع النقّاد في الجناح اليساري للمساواة الصورية للثورة الفرنسية ومع إنراجيه (En-ragé) [«الحلقة الاجتماعية» المؤلفة من هيبر (Hébert)، جاك رو (Jacques Roux)، ولوكليرك (Leclerc)].

ومع ذلك، إن الاهتمام النظري بما كان على إنجلز أن يدعوه «الشيوعية النسكيّة المستمدة من سبارطة (Sparta) (*Werke 20*, p.18)» لم يكن عظيماً. إن الكُتاب الشيوعيين في ثلاثينات القرن التاسع عشر وأربعيناته لم ينالوا إعجاب ماركس وإنجلز كمنظّرين. والواقع هو أن ماركس ناقش قائلاً، إن صفتي الفجاجة وأحادية الجانب اللتين كانتا لتلك الشيوعية المبكرة هما اللتان سمحتا لعقائد اشتراكية أخرى، مثل عقيدتي فورييه وبرودون... إلخ، أن تظهر متميزة عنها بالضرورة ليس بالمصادفة[13]. ومع أن ماركس قرأ كتاباتهم – وحتى كتابات شخصيات أدنى مثل لاهوتيير (Lahautière) (1882–1813) وبيلو (Pillo) (1809 1877) – فإنه لم يكن مديناً لتحليلهم الاجتماعي إلاّ بالنزر الضئيل، الذي كان له أهمية رئيسية في تشكيل الصراع الطبقي بوصفه صراعاً بين «البروليتاريين» ومستغلّيهم.

ومهما يكن من أمر، فإن شيوعية بابوف والشيوعية البابوفية المتجدِّدة كانت مهمة من ناحيتين. إنها لم تكن مثل معظم النظريات الاشتراكية الخيالية، إذ كانت داخلة في السياسة دخولاً عميقاً، لذا فهي ليست نظرية في الثورة فحسب، بل هي عقيدة أيضاً في التطبيق العملي السياسي، والتنظيم، والاستراتيجية والتكتيك رغم محدودية ذلك. وكان ممثِّلوها الرئيسيون في ثلاثينات القرن التاسع عشر – لابونيّريه (Laponneraye) (1808 – 1849)، لاهوتيير، ديزامي (Dézamy)، بيلو، وقبل الجميع بلانكي – ثوريين ناشطين. هذه الحقيقة ومعها حقيقة علاقتهم العضوية بتاريخ الثورة الفرنسية الذي درسه ماركس بعمق، جعل صلتهم بتطور فكره قوية. ومن ناحية ثانية، فإنه، بالرغم من أن الكتَّاب الشيوعيين كانوا مفكرين هامشيين بشكل رئيسي، فإن الحركة الشيوعية

في ثلاثينات القرن التاسع عشر جذبت العمال بصورة مرئيّة. وهذه الحقيقة الواقعية التي أشار إليها ودوّنها لورنز فون ستين (Lorenz von Stein)، أثَّرت في ماركس وإنجلز بشكل واضح، اللذين تذكرّا لاحقاً أن الطابع البروليتاري للحركة الشيوعية في أربعينات القرن التاسع عشر يوصف بأنه متميز عن طابع الطبقة الوسطى الواردة في معظم الاشتراكيات الخيالية[14]. علاوة على ذلك فإنه، من هذه الحركة الفرنسية التي تبنَّت الاسم «شيوعي» حوالي عام[15] 1840، أخذ الشيوعيون الألمان، بمن فيهم ماركس وإنجلز، اسم وجهات نظرهم.

فالشيوعية التي نشأت، في ثلاثينات القرن التاسع عشر، من التقليد البابوفي السياسي والثوري جوهرياً في فرنسا اندمجت بالخبرة الجديدة للبروليتاريا في المجتمع الرأسمالي، وفي الثورة الصناعية المبكرة. وذلكم ما حوَّلها إلى حركة «بروليتارية»، رغم صغرها. وما دامت الأفكار الشيوعية تقوم مباشرةً على مثل تلك الخبرة، فمن المحتمل أن تتأثَّر بالبلاد التي وجدت فيها طبقة عمالية صناعية كظاهرة جمهورية - أعني بريطانيا العظمى.

لذا، فإن أبرز منظِّر شيوعي فرنسي في ذلك الزمن وهو إتيان كابيه (1788 - 1856)، لم يتأثر بوحي البابوفيين الجدد، وإنما استفاد من خبراته في إنجلترا في ثلاثينات القرن التاسع عشر، وتأثر بروبرت أوين خاصةً ، لذا فهو ينتمي للتيار الاشتراكي الخيالي. وبمقدار ما يمكن لأي مفكر أن يحلِّل المجتمع الصناعي البورجوازي الجديد في الأقاليم التي تحوَّلت مباشرة بواسطة مظهر أو آخر من مظاهر «الثورة المزدوجة» (Dual Revolution) للبورجوازية - الثورة الفرنسية والثورة الصناعية (البريطانية) - فإن مثل ذلك التحليل لا يرتبط مباشرة بتجربة التصنيع الفعلية. فهذه حدثت في نفس الوقت بصورة مستقلة في بريطانيا وفرنسا. فذلك التحليل شكَّل أساساً رئيسياً لتطور فكر ماركس وإنجلز اللاحق. وبالمناسبة يمكن ملاحظة أن الشيوعية الماركسية كانت منذ البداية تحت التأثير الفكري البريطاني والفرنسي، وهو أمرٌ تُشكر عليه رابطة إنجلز البريطانية، في حين نجد أن بقية اليسار الألماني الاشتراكي والشيوعي لم تزد معرفتها عن المعرفة بالتطورات الفرنسية إلاّ قليلاً[16].

خلافاً لكلمة «شيوعي» التي عنت دائماً برنامجاً، فإن كلمة «اشتراكي» هي تحليلية ونقدية بصورة رئيسية. فقد كانت توظَّف لوصف من لهم نظرة خاصة للطبيعة البشرية (مثلاً، الأهمية الأساسية «للاجتماع» أو «الفرائز الاجتماعية» (Social Instincts) فيه)، تتضمن نظرة للمجتمع الإنساني، أو لوصف من اعتقدوا إمكانية أو ضرورة نمط خاص

من العمل الاجتماعي، خاصةً في الشؤون العامة (مثلاً، التدخل في عمليات السوق الحرّ). وسرعان ما حصل الإدراك بأن تلك النظرات يمكن أن تتطور قِبلَ الذين آثروا المساواة أو الذين جذبتهم، مثل تلاميذ روسّو، وهي تؤدي إلى التدخل بحقوق الملكية - وهي الفكرة التي رآها الخصوم الإيطاليون لعصر التنوير و«للاشتراكيين»[17] - لكنها لا تشبه مجتمعاً مشاداً على ملكية جمعية كاملة وإدارة لوسائل الإنتاج. وفعلياً لم يحصل تشبيه كامل في الاستعمال العام إلى أن ظهرت الأحزاب السياسية الاشتراكية في أواخر القرن التاسع عشر، ويمكن أن يجادل البعض ويقول، إن الشبيه لم يحصل بصورة كاملة إلى اليوم. لذا، فإن غير الاشتراكيين الواضحين (بالمعنى الحديث) يمكنهم، حتى في أواخر القرن التاسع عشر، أن يصفوا أنفسهم بأنهم «اشتراكيون»، مثل اشتراكية المنصّة (Kathedersozialism) في ألمانيا، أو السياسيين الليبراليين البريطانيين الذين أعلنوا «نحن، جميعاً، اشتراكيون، الآن». هذا الغموض المبرمج توسَّع حتى شمل حركات اعتبرت اشتراكية من قِبلَ الاشتراكيين. فيجب أن لا ننسى أن إحدى المدارس الرئيسية التي دعاها ماركس وإنجلز «الاشتراكية الخيالية»، وهي مدرسة السانت - سيمون (Saint-Simon) الفكرية، «كانت معنيّة بالتنظيم الجمعي للصناعة أكثر من اهتمامها بملكية الثروة التعاونية»[18]. وأتباع أوين الذين كانوا أول من استعمل الكلمة في اللغة الإنجليزية (1826) - لكنهم وصفوا أنفسهم بـ «اشتراكيين» بعد عدة سنوات - وصفوا المجتمع الذي يطمحون إليه بأنه مجتمع التعاون.

ومع ذلك، أقول، إنه في المجتمع الذي يكون فيه المعنى المضاد «للاشتراكية» هو الفردية[19]، وهذه نفسها تتضمن نموذجاً رأسمالياً ليبرالياً خاصاً من اقتصاد السوق التنافسي غير المقيَّد، يبدو طبيعياً أن تحمل «الاشتراكية» معنىً برنامجياً كاسم عام للمطامح الرامية إلى مجتمع عضوي على أساس نموذج اشتراكي أو تعاوني، أي مشاد على ملكية تعاونية لا ملكية فردية. واستمرت الكلمة غير دقيقة، بالرغم من أنها منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر وما بعدها، وارتبطت بشكل رئيسي بإعادة تشكيل المجتمع بذلك المعنى. والمتمسكون به يشملون المصلحين الاجتماعيين والغريبين من ذوي النزوات.

يجب التمييز بين مظهرين للاشتراكية الأولى: المظهر النقدي والمظهر البرنامجي. ويتألف المظهر النقدي من عنصرين هما، نظرية في الطبيعة الإنسانية والمجتمع مستمدة بصورة رئيسية، من تيارات مختلفة لفكر القرن الثامن عشر، وتحليل للمجتمع أنتجته «الثورة المزدوجة»، وأحياناً في إطار نظرة للتطور التاريخي أو «التقدم». ولم يحرز العنصر

الأول اهتماماً عند ماركس وإنجلز، إلاّ بمقدار ما أدّى إلى الاقتصاد السياسي (وفي الفكر البريطاني لا الفرنسي). وسوف ندرس هذا بعد قليل. أما العنصر الثاني، فالواضح هو أنه أثّر فيهما كثيراً. ويتألف المظهر البرنامجي من عنصرين أيضاً هما: مجموعة متنوعة من المقترحات هدفها خلق اقتصاد جديد على أساس التعاون في الحالات المتطرفة، عبر إقامة مجتمعات شيوعية، ومحاولة في التفكير بطبيعة المجتمع المثالي ومميّزاته الذي كان على وشك إقامته. وهنا أيضاً لم يكن لماركس وإنجلز اهتمام بالعنصر الأول فقد اعتبرا إقامة المجتمع الخيالي مهملاً من الوجهة السياسية، وكانا محقّين، وهكذا كان حقاً.

فهو لم يتحوّل إلى حركة ذات أهمية عملية خارج الولايات المتحدة، حيث كان شائعاً بالشكل المدني والشكل الديني. وأفضل فوائده أنه كان مثلاً توضيحياً للإمكانية العملية للشيوعية. أما الأشكال السياسية والمؤثرة أكثر من سواها من الاتحاد والتعاون التي كان لها جاذبية قوية لدى الحرفيين والعمال الماهرين البريطانيين منهم والفرنسيين، فقد تكون معرفتهما بها قليلة في ذلك الزمن (مثلاً، «مقايضات العمال» (Labour Ex-changes) عند أوين في ثلاثينات القرن التاسع عشر) أو تعرَّضت لشكّهما.

واستذكاراً أقول، إن إنجلز شبّه «أسواق العمل» (Labour Bazaars) عند أوين بمقترحات برودون[20]. وفي كتاب لويس بلان (Louis Blanc): **تنظيم العمل** (*Organisation du travail*) (الطبعة العاشرة: 1839 – 1848) لا تعتبر مهمة بمقدار ما هي كذلك، وهما يعارضانها.

ومن جهة أخرى، إن الأفكار التأملية الخيالية المنصبة على طبيعة المجتمع الشيوعي أثَّرت في ماركس وإنجلز تأثيراً جوهرياً، بالرغم من عدواتهم لمسوَّدة تلك النشرات التمهيدية الخاصة بالمستقبل الشيوعي، التي أدّت بمفسِّرين كثيرين لاحقين إلى التقليل من قيمة ذلك التأثير. فكل ما قاله ماركس وإنجلز تقريباً عن الشكل المادي للمجتمع الشيوعي كان مبنيًّا على كتابات خيالية سابقة، مثلاً، إلغاء التمييز بين المدينة والريف (مستمد من فورييه وأوين، طبقاً لإنجلز)[21]، وإلغاء الدولة [مستمد من السانت – سيمون][22]، أو هو مبني على بحث نقدي للأفكار الخيالية.

إن الاشتراكية ما قبل الماركسية موجودة وجوداً عميقاً في كتب ماركس وإنجلز اللاحقة، لكن بصورة مشوَّهة تشوّهاً مزدوجاً. فقد استفادا ممن سبقوهما بطريقة انتقائية جداً، كما أن كتاباتهما الناضجة واللاحقة لا تعكس بالضرورة الوقع الذي أحدثه الاشتراكيون الأوائل عليهما في فترة تكوينهما. وهكذا نجد أن إنجلز الشاب كان

بشكل واضح أقلّ تأثيراً السانت – سيمونيين من إنجلز اللاحق، وكابيه الذي لم يظهر في كتاب: **ضد – دوهرنغ** (*Anti-Dühring*) حيث كانت الإشارة إليه كثيرة في كتاباته قبل عام[23] 1846.

ومهما يكن من أمر فإن ماركس وإنجلز انتقيا منذ البداية ثلاثة مفكرين «خياليين» مهمين بشكل خاص، هم: السانت – سيمون، وفورييه، وروبرت أوين. ومن هذه الناحية كان إنجلز اللاحق قد احتفظ بهذا الرأي الذي يعود إلى أوائل الأربعينات من القرن التاسع عشر[24]. ولأوين مركز منفرد عن الاثنين الآخرين، ويعود ذلك لأن إنجلز قَدَّمه لماركس (الذي لم يكن يعرفه، لأن كتاباته لم تكن قد ترجمت بعد) حيث كان إنجلز على اتصال وثيق بالحركة الأوينيّة في إنجلترا. وبخلاف السانت – سيمون وفورييه، جرت العادة على وصف أوين من قِبلَ ماركس وإنجلز في أوائل أربعينات القرن التاسع عشر، بأنه «شيوعي». فعندئذٍ، فيما بعد، كان إنجلز متأثراً تأثراً خاصاً بالإدراك العادي العملي وبأسلوب رجال الأعمال اللذين صمم لهما أوين مجتمعاته الخيالية («ومن منظور الخبير، لا يوجد ما يقال ضد الترتيبات العملية التفصيلية» – **الأعمال** (*Werke*, 20 p. 245)). وقد جذبته أيضاً عداوة أوين المنفردة للعقبات الكبرى الثلاث في طريق الإصلاح الاجتماعي، وهي: «الملكية الخاصة، الدين والزواج بشكله الحالي» (المرجع السابق).

علاوةً على ذلك، فإن الحقيقة الواقعية المفيدة أن أوين نفسه الذي كان مقاولاً (Entrepreneur) رأسمالياً ومالكاً لمعمل، هو الذي انتقد المجتمع البورجوازي في واقعه الذي كان في الثورة الصناعية، مما أضفى على نقده خصوصية افتقر إليها الاشتراكيون الفرنسيون. (وحقيقة أن أوين اجتذب أيضاً في عشرينات وثلاثينات القرن التاسع عشر (منذ عام 1820)، تأييداً كبيراً من طبقة العمال، لم يقدِّرها إنجلز، الذي لم يكن يعرف سوى الاشتراكيين الأونيين (Owentic Socialists) في أربعينات عام[25] 1840.

ومع ذلك، فإن ماركس لم يكن لديه شك في أن أوين كان من الوجهة النظرية ذا قيمة أدنى لدى الفرنسيين[26]. وكان الاهتمام الرئيسي النظري بكتاباته كما بكتابات اشتراكيين بريطانيين آخرين، درسهم لاحقاً، يَمْثُلُ في الأسلوب الذي استمدت منه نتائج اشتراكية من مقدِّمات الاقتصاد السياسي البورجوازي وحججه.

في كتابات السانت – سيمون نقع على سعة نظرة عبقري، فالشكر له لأن جميع أفكار الاشتراكيين اللاحقين، التي لم تكن اقتصادية بالمعنى الدقيق نجدها في كتاباته

الجنينيّة[27]. ومما لا ريب فيه أن رأي إنجلز اللاحق عَكَس الدَين الكبير جداً التي تدين به الماركسية للمذهب السانت – سيموني، والغريب هو عدم وجود إشارات كثيرة إلى المدرسة السانت – سيمونية (Bazard, Enfantin, etc.) التي حوّلت الحدوس الغامضة والذكية لمعلمها إلى ما يشبه نظاماً اشتراكياً.

إن التأثير الرائع لسانت – سيمون (1759 – 1825) على عدد متنوع من المواهب المهمة الألمعية في أغلب الأحيان، لا في فرنسا وحدها ولكن في خارجها أيضاً (Car-lyle, John Stuart Mill, Heine, Liszt) هو حقيقة من حقائق التاريخ الثقافي الأوروبي في عصر الرومانسية، لا يسهل دائماً تقديرها اليوم من قِبَل الذي قرؤوا كتاباته. وإذا كانت تلك الكتابات تشتمل على عقيدة متماسكة منطقياً، فالإفادة منها هي أن الأهمية المركزية للصناعة الإنتاجية التي يجب أن تجعل العناصر الأصلية المنتجة في المجتمع، هي التي تقوم بالإدارة الاجتماعية والسياسية وتعمل على تشكيل مستقبل المجتمع، أي: نظرية في الثورة الصناعية. «الصناعيون» (وهو تعبير من صياغة السانت – سيمونية) يشكلون أكثرية السكان ويشملون المقاولين الإنتاجيين – والعاملين في المصارف – والعلماء، المجددين التكنولوجيين ومفكرين آخرين والشعب العامل. وما دام الشعب العامل مشمولاً، وهو الذي وظيفته أن يكون المخزون الذي منه يكون مدد الآخرين، فإن مبادئ السانت – سيمون تهاجم الفقر واللامساواة الاجتماعية، في حين أنه يرفض مبدأي الثورة الفرنسية، الحرية والمساواة، بوضعهما فرديين ويؤديان إلى المنافسة والفوضى الاقتصادية. فهدف المؤسسات الاجتماعية هو: «العمل على مساندة المؤسسات الأساسية لزيادة رغد العيش عند البروليتاريا» (Faire concourir les principales institutions à l'accroissement du bien – être des prolétaires)، والمعرَّفة ببساطة، أنها الطبقة الأكثر عدداً ("La classe la plus nombreuse") (*Or-ganisation sociale*), 1825 ومن جهة أخرى، إنه ما دام «الصناعيون» هم المقاولون والمخططون التكنوقراطيون فهم لا يعارضون الطبقات الحاكمة الخاملة والعالة على غيرها كالطفيليات فقط، بل أيضاً فوضى الرأسمالية الليبرالية البورجوازية التي سبق أن قدَّم نقداً مبكراً لها. وفي كتابته ما يتضمن الإدراك بأن التصنيع لا يتَّسق، جوهرياً، مع المجتمع غير المخطَّط.

ظهور «الطبقة الصناعية» (Industrial Class) نتيجة من نتائج التاريخ. فما هو مقدار نظرات السانت – سيمون من إنشائه، وما هو مقدار تأثره بسكرتيره (1817–1814)، المؤرخ أوغسطين تييرّي (Augustin Thierry)، سؤالان لا داعي للانشغال

بهما. ومهما يكن من أمر، فإن الأنظمة الاجتماعية يحدِّدها نمط تنظيم الملكية، والتطور التاريخي المؤثر في تطور نظام الإنتاج، وقوة البورجوازيين الماثلة في ملكيتهم وسائل الإنتاج. ويبدو أن نظرته بسيطة للتاريخ الفرنسي بوصفه تاريخ صراع طبقي، يعود إلى غزو الغوليين (Gauls) من قِبَل الفرانك (Franks)، الذي أتقن أتباعه بسطه في تاريخ خاص للطبقات المستغلَّة استبق تنفيذ أفكار ماركس، أي: العبيد تبعهم أرقّاء، والأرض وتبع أرقاء الأرض البروليتاريون الأحرار اسمياً، والذين لا يملكون. وعلى كل حال، كان السانت - سيمون، نسبة لتاريخ زمانه، أكثر تحديداً. وكما لاحظ إنجلز، لاحقاً، وبإعجاب قائلًا، إنه رأى الثورة الفرنسية صراعاً طبقياً بين النبلاء والبورجوازيين والجماهير التي لا تملك شيئاً (وقد وسَّع أتباعه الفكرة بالقول، إن الثورة حرَّرت البورجوازية، لكن الوقت حان الآن لتحرير البروليتاريا).

وبمعزلٍ عن التاريخ، كان على إنجلز أن يؤكدِّ رؤيتين رئيسيتين آخريين هما: إخضاع السياسة للاقتصاد، والواقع هو امتصاص السياسة من قِبَل الاقتصاد، وفي النتيجة إبطال وجود الدولة في مجتمع المستقبل، أي: «إدارة الأشياء» (Administra-tion of Things) بدلاً من «حكم البشر» (Government of Men). وسواء أوجدت أم لم توجد تلك العبارة السانت - سيمونية في كتابات المؤسس فهي مسألة لا تهم، إذ يكفي أن المفهوم هناك. ومع ذلك فإن عدداً من المفاهيم التي صارت جزءاً من الماركسية، ومن جميع الاشتراكيات اللاحقة، يمكن إرجاعه إلى المدرسة السانت - سيمونية، وإن لم يكن إرجاعه إلى السانت - سيمون نفسه بشكل واضح. فالقول «استغلال الإنسان من قِبَل الإنسان» عبارة السانت - سيمونية، كذلك هي الصيغة التي غيّرها ماركس بمقدار ضئيل لوصف يبدأ التوزيع في المرحلة الأولى من الشيوعية، وهو: «من كل واحد بحسب قدراته، إلى كل قدرة بحسب عملها»، وكذلك العبارة التي أبرزها ماركس في كتابه: **الأيديولوجيا الألمانية** التي تقول: «يجب أن يضمن الناس جميعاً التطور الحرّ لقدراتهم الطبيعية».

وباختصار، إن الماركسية بشكل واضح مدينة للسانت - سيمون، بالرغم من أن الطبيعة الدقيقة للمديونية المالية يصعب تحديدها، إذ لا يمكن تمييز الإسهام السانت - سيموني، دائماً عن إسهامات معاصرة أخرى. لذا، فإن اكتشاف الصراع الطبقي في التاريخ ميسَّر لكل من درس أو عاش في الثورة الفرنسية. والحق يُقال إن ماركس نسبه إلى المؤرخين البورجوازيين في زمن إعادة النظام الملكي الفرنسي، وفي ذات الوقت كان أهم هؤلاء (من وجهة نظر ماركس)، هو أوغسطين تييرّي الذي كان كما رأينا ذا علاقة

وثيقة مع السانت – سيمون، في إحدى فترات حياته. فمهما عرّفنا التأثير، فهو سيظل أكيداً وليس موضوع شك. وإن معاملة إنجلز المفضلة المنتظمة للسانت – سيمون، الذي ذكر «إنه بشكل إيجابي كان يعاني من وفرة في الأفكار الزائدة»، والذي شبَّهه بهيغل بقوله، إنه «أكثر عقل موسوعي في عصره»، فإن كل ذلك كافٍ[28].

لقد امتدح إنجلز الناضج شارل فورييه (1772-1837)، استناداً إلى ثلاثة أسس، هي: ناقد لامع، وذكي، وقاسٍ بنقده للمجتمع البورجوازي أو الأحرى للسلوك البورجوازي[29]، ولدفاعه عن تحرر المرأة، وجوهرياً لمفهومه الديالكتيكي للتاريخ (ويبدو أن النقطة الأخيرة تخص إنجلز أكثر مما تخص فورييه). ومع ذلك أقول، إن الوقع الأول عليه من فكر فورييه، هو الذي ترك أعمق الآثار في الاشتراكية الماركسية إذ كان ذلك يمثل تحليله للعمل. وإن إسهام فورييه في التقليد الاشتراكي كان خاصاً. فخلافاً للاشتراكيين الآخرين كان يرتاب بالتقدّم. وشارك في اعتقاد روسّو المفيد أن الإنسانية قد اتَّخذت منعطفاً خاطئاً بتبنيّها الحضارة. وكان يرتاب بالصناعة والتقدم التقني، بالرغم من أنه كان مستعداً لقبولها واستعمالها، كما كان مقتنعاً أن عجلة التاريخ لا يمكن إرجاعها إلى الوراء. وكان أيضاً – من هذه الناحية مثل الخياليين – شاكًا بالسيادة الشعبية والديمقراطية اليعقوبيتين. ومن الوجهة الفلسفية، كان فردياً فعالياً هدفه الأسمى للإنسانية هو إشباع جميع دوافع الأفراد النفسية، وحصول الفرد على أعظم المتع، لأن – وهنا نستشهد بإنطباعات إنجلز الأولى المسجَّلة عنه[30] – «كل فرد له ميلٌ أو تفضيل لنوع خاص من العمل، ويجب أن يؤلف مجموع ميول الفرد على العموم قوةً كافيةً لإشباع حاجات الجميع. ويتبع هذا المبدأ القول: «إذا سمح لجميع الأفراد أن يفعلوا وأن لا يفعلوا ما يطابق ميولهم الشخصية، فإن حاجات الجميع ستشبع، وأثبتُ أن... اللافعالية المطلقة لغوٌ». ولم تكن أبداً ولا يمكن أن تكون أبداً... وبالإضافة إلى ذلك برهن على أن العمل والمتعة متماثلان، وأن لامعقولية النظام الاجتماعي الحالي هي التي فصلت الاثنين». وإن إصرار فورييه على تحرير النساء، مع النتيجة الواضحة التي تفيد التحرر الجنسي الراديكالي، هو توسيع منطقي – وربما جوهر – لخياله المتعلق بتحرير جميع الغرائز والدوافع الشخصية. ولا شك في أن فورييه لم يكن الوحيد الذي دافع عن حقوق المرأة بين الاشتراكيين الأوائل، لكن التزامه العاطفي القويّ جعله الأقوى، ويمكن معرفة تأثيره في الانعطافة الراديكالية للسانت – سيمونيين في ذلك الاتجاه.

قد يكون ماركس نفسه أكثر وعياً من إنجلز بالصراع الممكن بين نظرة فورييه

للعمل، بوصفه الإشباع الجوهري للغريزة الإنسانية الذي يشبه اللعب، والتطوير الكامل للقدرات الإنسانية كلها، وهو ما اعتقد أن الشيوعية ستؤمنه بالرغم من أن إبطال تقسيم العمل (أي، التخصص الوظيفي الدائم). إذ يمكن أن ينتج نتائج يمكن تفسيرها استناداً إلى خطوط تفكير فورييه («الصيد، عموماً في الصباح، وصيد الأسماك في فترة بعد الظهر، وتربية الماشية في المساء، والنقد بعد العشاء»)[31]. والحق يُقال، إنه رفض، فيما بعد، مفهوم فورييه للعمل تحديداً، بوصفه «مجرد هزل، ومجرد تسلية»[32]. وبفعله هذا رفض ضمنياً مساواة فورييه بين التحقيق الذاتي والتحرير الغريزي. فأفراد البشر الشيوعيون الذين أرادهم فورييه كانوا رجالاً ونساءً، كما أوجدتهم الطبيعة، متحررين من كل قمع، أما الأفراد الشيوعيون عند ماركس رجالاً ونساءً فكانوا أكثر من ذلك. ومع هذا، فإن حقيقة ماركس الناضج أعادت النظر بشكل خاص بفورييه في أهم بحث له خاص بالعمل كنشاط إنساني، حيث أفاد في بحثه أهمية ذلك الكاتب عنده. أما بالنسبة إلى إنجلز، فإن إشاراته الإطرائية المستمرة إلى فورييه [مثلاً، في كتاب: **أصل الأسرة** (*The Origin of the Family*)] تشهد على تأثيره المستمر، وتعاطفه الدائم والمستمر مع الكاتب الاشتراكي الخيالي الوحيد الذي لا يزال يُقرأ بالشعور ذاته من المتعة والاستنارة - والغضب - كما كان الحال في أوائل أربعينات القرن التاسع عشر.

إن الاشتراكيين الخياليين وفروا نقداً للمجتمع البورجوازي وأشكالاً مختصرة من النظرية التاريخية. كما أن هناك ثقة بأن الاشتراكية ليست ممكنة التحقيق فحسب، بل مطلوبة في هذه المرحلة التاريخية، كما وفرّوا كمّاً كبيراً من التفكير عما يمكن أن تشبه الترتيبات الإنسانية في مثل ذلك المجتمع (بما في ذلك السلوك الإنساني الفردي). ومع ذلك، كان لديهم نواقص نظرية وعملية لافتة. فكان عندهم ضعفٌ عملي من النوع الصغير والنوع الكبير. وبكلام ملطّف كانوا مشوَّشين بأنواع مختلفة من الشذوذ الرومانتيكي يتراوح ما بين الرؤيوي النفّاذ إلى المشوّش نفسياً، ومن الاضطراب العقلي الناجم عن تدفق الأفكار، الذي يمكن تسويغه دائماً بأديان غريبة وطوائف شبه دينية ممجَّدة. وباختصار، جعل أتباعهم من أنفسهم موضع سخرية، وكما قال إنجلز عن السانت - سيمونيين: «إذا صار شيء موضع سخرية، فإنه يخسر الثقة في فرنسا»[33]، وفي حين اعتبر ماركس وإنجلز العناصر الخيالية في الكتابات الخيالية العظمى بمنزلة الثمن الذي لا بدّ منه لعبقريتهم أو لأصالتهم الاشتراكية العملية، فهم لم يتصوَّروا أن يكون هناك دور عملي في عملية التحول الاشتراكي للعالم تقوم به مجموعات من المهووسين المتزايد شذوذها والمتزايد انعزالها.

ثانياً هذه المسالة في صميم الموضوع، وهي أنهم كانوا غير سياسيين بصورة جوهرية، لذا لم يوفرّوا حتى على مستوى النظرية أي وسيلة فعّالة يمكن بها تحقيق مثل ذلك التحوّل. فليس من المحتمل أن ينتج الخروج إلى المجتمعات الشيوعية النتائج المرغوبة أكثر من مناشدات السانت - سيمون الأولى لنابوليون، والقيصر ألكسندر (Tsar Alexander)، أو رجال المصارف الكبرى في باريس. فالخياليون (باستثناء السانت - سيمونيين، الذين تمثَّلت أداتهم المختارة في المقاولين الرأسماليين الديناميكيين، أبعدتهم عن الاشتراكية) لم يميزوا أي طبقة أو مجموعة خاصة على أنها أداة نقل أفكارهم، وحتى عندما لجؤوا إلى العمال [كما أدرك ذلك إنجلز فيما بعد في حال أوين]، فإن البروليتاريا لم تقم بدورٍ مميّزٍ في خططهم، التي توجهت إلى جميع الذين عليهم أن يدركوا الحقيقة الواضحة التي اكتشفوها هم وحدهم - لكنهم أخفقوا بصورة عامة. ومع ذلك، فإن الدعاية العقيدية، والتعليم خاصةً في الشكل المجرَّد الذي انتقد إنجلز الشاب وجودهما لدى أتباع أوين البريطانيين، لا يمكن أن ينجحا وحدهما. وباختصارٍ، إن «الاشتراكية» كما عرفها بشكل واضح في خبرته البريطانية، التي تتعدّى الشيوعية الفرنسية في أساسها، وفي نشوئها وتطورها، متخلِّفة عنها. فعليها أن تعود للحظة إلى وجهة النظر الفرنسية، لكي تتعدّاها بعد ذلك[34]. فوجهة النظر الفرنسية تمثَّلت في صراع البروليتاريا الطبقي الثوري - والسياسي. وكما سوف نرى كان ماركس وإنجلز أكثر نقداً للتطورات اللاخيالية في الاشتراكية المبكرة وتحوّلها إلى أنواع مختلفة من التعاونية والتبادلية.

وفي عداد نقاط الضعف النظرية العديدة في الاشتراكية الخيالية، هناك واحدة ذات بروز دراماتيكي، وهي: افتقارها لتحليل اقتصادي للملكية الخاصة التي «لم يقتصر الاشتراكيون والشيوعيون الفرنسيون... على نقدها بطرق مختلفة فحسب، بل «ألغوها» [Aufgehoben] بطريقة خيالية»[35]، لكنهم لم يعملوا على تحليلها تحليلاً منظَّماً. بوصفها أساس النظام الرأسمالي والاستغلال. وماركس نفسه، وبحافزٍ من كتاب إنجلز المبكر: **موجز نقد الاقتصاد السياسي** (*Outline of a Critique of Political Economy*) (1843-1844)[36]، توصَّل إلى الاستنتاج أن مثل ذلك التحليل يجب أن يكون جوهر النظرية الشيوعية، وكما صاغ ذلك لاحقاً فإنه قال: عندما تصف عملية تطوره الفكري، فإن الاقتصاد السياسي هو «تشريح المجتمع المدني» [المقدمة لكتاب: **نقد الاقتصاد السياسي** (*Critique of Political Economy*) وهو لا يمكن الوقوع عليه في كتابات الاشتراكيين «الخياليين» الفرنسيين. ومن هنا كان إعجابه ودفاعه

الطويل [في كتاب: **الأسرة المقدَّسة** (*The Holy Family*)، 1845] عن برودون 1865) (1809- الذي كان قد قرأ كتابه: **ما الملكية؟** (*What is Property?*) (1840) حوالي نهاية عام 1842، ومن أجله خرج عن أسلوبه في المديح عندما وصفه بأنه «أكثر كاتب اشتراكي اتّساقاً منطقياً وذكاءً»[37]. فالقول، إن برودون «أثَّر في ماركس أو أسهم في تشكيل فكره مبالغٌ فيه. ففي عام 1844، حتى في هذا العام، شبَّهه كمنظرٍ من بعض النواحي بطريقة سلبية بالشيوعي الخياط ويلهلم ويتلنغ[38] الذي تمثَّلت قيمته الواقعية الوحيدة في أنه كان (مثل برودون نفسه) عاملاً. ومع ذلك، بالرغم من اعتبار برودون أنه ذو عقل أدنى من عقل كل من السانت – سيمون وفورييه، فإنه قرَّر التقدم الذي أضفاه عليهما، وشبهه أنه لاحقاً بتأثير **ولودفيغ فيورباخ** (Ludwig Feuerbach) على هيغل، وبالرغم من عداوته اللاحقة لبرودون وأتباعه التي كانت مرّةً ومتزايدة، فإنه لم يجرِ تعديلاً على نظرته»[39]. ولم يكن ذلك للمزايا الاقتصادية لكتاباته، لأنه «في تاريخ الاقتصاد السياسي الدقيق، لا تستحق الكتابات ذكراً». والحق يُقال، إن برودون لم يكن، ولم يصبح اقتصادياً من النوع الخطر. وهو امتدح برودون، لا لأنه تعلَّم منه أي شيء، وإنما لأنه اعتبره مهَّد السبيل إلى «نقد الاقتصاد السياسي»، الذي عرف أنه المهمّة النظرية المركزية، وفعل ذلك بكرم، لأن برودون كان عاملاً واقعياً وعقلاً أصلياً حقاً. ولم يكن على ماركس أن يتقدم كثيراً من أبحاثه الاقتصادية قبل أن تصدمه نقائص نظرية برودون بقوة أكثر من تأثير مزاياها: وهي ستُنتقد بقسوة في كتاب: **فقر الفلسفة** (*The Poverty of Philosophy*) (1847). ولا يوجد أحد من الاشتراكيين الفرنسيين الآخرين كان له تأثير ذو مغزى في تشكيل فكر ماركس.

III

الأصل الثلاثي للاشتراكية الماركسية في الاشتراكية الفرنسية، والفلسفة الألمانية والاقتصاد السياسي البريطاني معروف: فقد لاحظ ماركس في أوائل عام 1844 مثل ذلك الانقسام الدولي للعمل الفكري، في «البروليتاريا الأوروبية»[40] (European Proletaria). يُعنى هذا الفصل بأصول الفكر الماركسي لجهة وجوده في الفكر الاشتراكي أو العمالي ما قبل الماركسي، وبالتالي هو يعالج الأفكار الماركسية الاقتصادية، لجهة كونها مستمدةً أصلاً من ذلك الفكر أو وسيطة له، أو من حيث إن ماركس اكتشف توقّعات لتحليله فيه.. والآن فإن الاشتراكية البريطانية من الوجهة الفكرية مستمدة من الاقتصاد السياسي البريطاني بطريقين، هما: عبر أوين بدءاً من مذهب المنفعة البنتامي وقبل كل شيء، عبر ما يُدعى «بالاشتراكيين الريكارديين

(Ricardian Socialist)»، [وكان بعضهم من أتباع مذهب المنفعة (Utilitarians)، أصلاً]، وأبرزهم: وليام تومبسون (William Thompson) (1775-1833)، جون غري (John Gray) (1799 – 1883)، جون فرانسيس براي (John Francis Bray) (1809–1897) وتوماس هودجسكن (Thomas Hodgskin) (1787–1869). وكان لهؤلاء الكتاب اعتبار، لم يكن محصوراً في توظيفهم نظرية قيمة العمل عند ديفيد ريكاردو (David Ricardo) لكي يبتدعوا نظرية في الاستغلال الاقتصادي للعمال، بل أيضاً لعلاقتهم النشطة بالحركات الاشتراكية (الأوينية) وحركات طبقة العمال. والواقع، أنه لا يوجد دليل يفيد أن إنجلز عرف الكثير من تلك الكتابات في أوائل أربعينات القرن التاسع عشر، وما لا ريب فيه أن ماركس لم يقرأ هودجسكن، وهو «الاشتراكي الأكثر إقناعاً بين الكتّاب ما قبل الماركسيين»[41]، إلى عام 1851، وبعد ذلك عبَّر عن تقديره لضميره العلمي[42]. والقول، إن هؤلاء الكتّاب قد أسهموا في أبحاث ماركس الاقتصادية معروف بشكل أفضل من الإسهام البريطاني الراديكالي لا الاشتراكي – في نظرية الأزمة الاقتصادية الماركسية – فقد حصل إنجلز منذ أوائل 1843 – 1844 على النظرة – يبدو أنه حصل عليها من كتاب جون ويد (John Wade): **تاريخ الطبقات الوسطى والعاملة** (*History of the Middle and Working Classes*)[43] (1835) – المفيدة أن الأزمات الدورية المنتظمة هي مظهر متكامل لعمليات الاقتصاد الرأسمالي، واستخدام هذه الحقيقة لنقد «قانون سي» (Say's Law).

بالمقارنة مع هذه الروابط بالاقتصاديين البريطانيين اليساريين، فإن دين ماركس لاقتصاديي القارة أقلّ. ولجهة القول، إن للاشتراكية الفرنسية نظرية اقتصادية، فإنها تطورت بعلاقتها مع السانت – سيمونيين، وقد يكون ذلك حصل بتأثير من الاقتصادي السويسري الهرطقي (1773-1842)، خاصة عبر كونستانتين بيكور (Constantin Pecqueur) (1801-1887) الذي وُصِفَ بأنه كان «صلة بين السانت – سيمونية والماركسية» [جورج لختايم (George Lichtheim)]. فكلاهما كانا في عداد الاقتصاديين الأوائل الذين درسهم ماركس درساً جدّياً (1844). فغالباً ما كان يستشهد بسيسموندي، ويُناقش بيكور في كتاب: **رأس المال III**. ولم يرد أي منهما في كتاب: **نظريات القيمة الفائضة**، بالرغم من أن ماركس تساءل، في موضع ما، حول إدخال سيسموندي. ومن جهة أخرى، فإن الاشتراكيين الرايكارديين

البريطانيين كانوا: وكان ماركس، في نهاية المطاف، آخر اشتراكي ريكاردي وأعظم الريكارديين، على نحو ساحق.

ومع ذلك، إذا كنا قد مررنا باختصار بما وافق عليه أو طوَّره في اقتصاديات الجناح اليساري في زمنه، فعلينا أيضاً أن ننظر باختصار في ما رفض، فقد رفض ما اعتبره «بورجوازياً» [**البيان الشيوعي**]، ولاحقاً «البورجوازية الصغيرة»، أو المحاولات غير الرشيدة للتعامل مع مشكلات الرأسمالية بواسطة وسائل من قبيل، إصلاح التسليف، والتلاعب بالعملة، وإصلاح الأجور، وتدابير للحؤول دون تركز الرأسمال عبر إلغاء الوراثة أو بوسائل أخرى، حتى لو قُصِد منها أن لا تفيد المالكين الأفراد الصغار، وإنما جمعيات العمال العاملة في داخل الرأسمالية، والمصمَّمة للحلول محلها في نهاية المطاف. مثل هذه المقترحات كان شائعاً في اليسار، بما في ذلك أقسام من الحركة الاشتراكية. فعداوة ماركس لسيموندي، الذي احترمه كاقتصادي، ولبرودون الذي لم يحترمه، وكذلك نقده لجون غري، كل ذلك كان بسبب تلك النظرة. وفي الوقت الذي شكَّل فيه، هو وإنجلز نظراتهم الشيوعية الخاصة، فإن نقاط الضعف تلك في نظرية الجناح اليساري المعاصرة لم تشكل عائقاً لهما. وعلى كل حال، إنه بدءاً من منتصف أربعينات القرن التاسع عشر وما بعده، وجدا نفسيهما مضطرين لتوجيه انتباهٍ نقدي أعظم إليها في ممارستهما السياسية، وفي النظرية في نهاية الأمر.

IV

ما هو الإسهام الألماني في تشكيل فكرهما؟ فإذا رجعنا إلى الوراء حين كان ماركس شاباً فسنجد أن ألمانيا، من الوجهتين الاقتصادية والسياسية، لم يكن فيها اشتراكيون يمكنهم أن يتعلَّما منهم أي شيء ذي أهمية. والواقع هو أنه إلى زمن تحوّل ماركس وإنجلز إلى الشيوعية فعلياً وإلى ما بعد عام 1848 يكون الكلام عن وجود يسار اشتراكي أو شيوعي متميز عن الميول الديمقراطية واليعقوبية كلاماً مضلِّلاً، وتلك هي التي شكّلت المعارضة الراديكالية للرجعية وللحكم الأميري المطلق في البلاد. وكما أبرز **البيان الشيوعي**، لم يكن للشيوعيين في ألمانيا (غير فرنسا وبريطانيا).

فلم يكن هنا خيار إلا السير مع البورجوازيين ضد الملكية المطلقة، وملكية الأرض الإقطاعية وأحوال البورجوازية الصغيرة[44] (Die kleinbürgerei). وفي نفس الوقت، تشجيع العمال ليصيروا واعين وعياً واضحاً لتفادهم مع البورجوازيين. فمن الناحيتين السياسية والأيديولوجية كان اليسار الراديكالي الألماني يتطلع إلى الغرب.

فمنذ اليعقوبيين في تسعينات القرن الثامن عشر، قدَّمت فرنسا النموذج، ومكان اللجوء للاجئين السياسيين والفكريين، ومصدر المعلومات عن الميول التقدمية، أي: في أوائل أربعينات القرن التاسع عشر، نجد أن فحص لورنز فون ستين للاشتراكية والشيوعية هناك، كان له فائدة رئيسية، بالرغم من قصد المؤلف الذي تمثَّل في نقد تلك العقائد. وفي نفس الوقت، كانت هناك مجموعة تألفت رئيسياً من حرفيين جوّالين ألمان عملوا في باريس، وانفصلت عن اللاجئين الليبراليين بعد القرن التاسع عشر في فرنسا بغية لتكييف اللغة الفرنسية الشيوعية للطبقة العاملة لأغراضهم الخاصة. لذا، فإن أول نسخة ألمانية واضحة عن الشيوعية كانت ثوريةً وبروليتارية، بطريقة بدائية[45]. وسواء أكان المفكرون الشبّان الراديكاليون في اليسار الهيغلي راغبين بالتوقف عند الديمقراطية أم التقدم سياسياً واجتماعياً إلى ما وراءها، فإن فرنسا هي التي وفَّرت النماذج الفكرية والمحفِّزات لأفكارهم.

فمن بين هؤلاء الحرفيين الجوّالين، كان موسِس هِس (1812-1875) بارزاً بمعناه، لا لمزاياه الفكرية – لأنه كان أبعد ما يكون عن المفكر الواضح – لأنه صار اشتراكياً، قبل البقية، ونجح في تحويل جيل كامل من الثوّار الشبّان المفكرين. وكان تأثيره على ماركس وإنجلز حاسماً في الأعوام 1842 – 1845، بالرغم من أنهما سرعان ما توقَّفا عن النظر إليه نظرة جدّية. فليس مقصود من صنفه من «الاشتراكية الحقيقية» (True Socialism) (وهو، وبشكل رئيسي كان نوعاً من السانت – سيمونية مترجماً إلى لغة فويرباخية (Feuer-bachian)) أن يكون ذا أهمية كبيرة. وتذكّره يعود بشكل رئيسي لكونه ورد في نقود ماركس وإنجلز العنيفة ضدّه [في **البيان الشيوعي**]، وكانت تلك النقود موجهة رئيسياً ضد كارل غرون (Karl Grün) (1817-1887) التي لولاها لصار منسيّاً وكان نسيانه ممكناً. وهِسْ، الذي تقاطع تطوره الفكري لفترة، مع فكر ماركس إلى الحدّ الذي يمكن أن يعتبر نفسه تابعاً لماركس في عام 1848، كان يعاني من عدم كفايته كمفكر وكسياسي، وعليه أن يكون قانعاً بدور البشير الأبدي: للماركسية، وللحركة العمالية الألمانية، وأخيراً للصهيونية.

على كل حال أقول، إذا لم تكن الاشتراكية الألمانية ما قبل الماركسية مهمة في تكوين الأفكار الماركسية – باستثناء قيمتها المرجعية – فلا بدَّ من كلمة تُقال عن النقد الألماني اللااشتراكي للمذهب الليبرالي، الذي وضع ملاحظات يمكن تصنيفها «اشتراكية»، بالمعنى الغامض للكلمة في القرن التاسع عشر الغامض.

لقد احتوى التقليد الفكري الألماني على مكوِّنٍ قوي معادٍ لأي شكل من أشكال «التنوير» في القرن الثامن عشر [وبالتالي لليبرالية، والفردية، والعقلنة والتجريد – مثلًا، لأي شكل من حجج بنتام أو ريكاردو]، فكان مكرَّساً لمفهوم عضوي للتاريخ وللمجتمع، ووجد تعبيراً عنه في الرومانسية الألمانية، وكان في أول الأمر حركة رجعية مناضلة رغم كونه فلسفة هيغلية من بعض النواحي، ووفَّر نوعاً من التركيب جمع نظرة التنوير والنظرة الرومانطيقية. وقد سادت الممارسة السياسية الألمانية، وبالتالي النظرية التطبيقية الألمانية نشاطات إدارة الدولة الشاملة والبورجوازية الألمانية – التي تطورت، مؤخراً، إلى طبقة مقاولين – لم تطلب سيادة سياسية أو ليبرالية اقتصادية غير مقيَّدة، وتألف قسم كبير من أعضائها الناخبين من موظفي الدولة، بشكل أو بآخر. فلم يجنح الليبراليون الألمان، لا بوصفهم موظفين مدنيين (وفيهم أساتذة الجامعات)، ولا كمقاولين، لأن يكون لهم معتقد ثابت بالسوق الحرّ غير المقيَّد. فخلافاً لفرنسا وبريطانيا، ربّت البلاد كُتّاباً أملوا بإمكانية تجنّب التطور الكامل للاقتصاد الرأسمالي، كما سبق أن لوحظ في بريطانيا، ومعه تجنّب مشاكل الفقر الجماهيري، عبر جمع بين تخطيط الدولة والإصلاح الاجتماعي. وقد تقترب نظريات مثل هؤلاء الرجال من نوعٍ من الاشتراكية، كما في حالة جوهان كارل رودبيرتوس – جاغيتزوْ (Johann Karl Rodbertus-Jagetzow (1805-1875)، وهو ملكي محافظ (وكان لمدة وجيزة وزيراً بروسيّاً في عام 1848) كتب في أربعينات القرن التاسع عشر نقداً للرأسمالية تناول الاستهلاك الثانوي وعقيدة عن «اشتراكية الدولة» (State Socialism) مشادة على نظرية قيمة العمل. وقد وظف ذلك لأغراض دعائية في عهد بسمارك (Bismarck) كبرهان على أن ألمانيا الإمبريالية كانت «اشتراكية»، مثل أي حكم اجتماعي ديمقراطي، ناهيك عن كونه برهاناً على أن ماركس نفسه قد انتحل أفكار مفكر محافظ مستقيم. هذا الاتهام غير معقول، وذلك لأن ماركس لم يقرأ روبرتَسْ إلاّ حوالى عام 1860 بعد أن اكتمل تشكل وجهات نظره، ولكان استطاع روبرتس «على الأقل، أن يُعلم ماركس أن لا يقوم بما قام به من عمل، وكيف يتجنّب أعظم الأخطاء»[46]. هذا النزاع الجدلي تمَّ نسيانه منذ زمن طويل. ومن جهة أخرى، يمكن النقاش حول نمط الموقف والحجة اللذين مثَّلهما روبرتَسْ، إذ كان لهما تأثير في نوع الدول الاشتراكية الذي قال به لاسّال (Lassalle) (وهذان الرجلان كانا متزاملين لفترة من الزمن).

لا حاجة للقول، إن تلك النسخ الاشتراكية المضادّة للرأسمالية لم تؤدِ دوراً في تشكيل الاشتراكية الماركسية فحسب[47]، بل هوجمت هجوماً نشطاً من قِبَلَ

اليسار الشبابي الألماني، استناداً إلى روابطها المحافظة الواضحة. وما يُدعى النظرية «الرومانطيقية» لا يعود إلى التاريخ السابق للماركسية إلاّ بأقل أشكاله السياسية، أي، شكل «الفلسفة الطبيعية» (Natural Philosophy) التي أبقى إنجلز لها عنده بصورة دائمة مقداراً من الولع [انظر مقدمته لكتاب: **ضد - دوهرنغ** (1885)]، ومن حيث إدخالها في الفلسفة الألمانية الكلاسيكية بشكلها الهيغلي. وإن التقليد المحافظ والليبرالي تقليد تدخّل الدولة في الاقتصاد، بما في ذلك ملكية الدولة وإدارة المصانع موكَّدٌ في النظرة المفيدة أن تأميم الصناعة، في حدّ ذاته، ليس اشتراكياً.

لذا أقول: لا الخبرة الألمانية الاقتصادية والاجتماعية أو السياسية، ولا الكتابات المصمَّمة خصيصاً لمعالجة مشاكلها قد أسهما بأي شيء ذي قيمة كبيرة في الفكر الماركسي. والحق يُقال إنه يصعب أن يكون خلاف ذلك. وكما كنا قد لاحظنا، إن المسائل التي ظهرت في فرنسا وإنجلترا بشكل مادي وسياسي واقتصادي بالنسبة إلى ماركس وإنجلز على الأقل، في شبابهما، فقد بدت في ثوب بحث فلسفي مجردٍ ليس إلاّ، وعكس ذلك صحيح، ولا يوجد شك في السبب، أعني أن تطور الفلسفة الألمانية في تلك الحقبة الزمنية كان مؤثِّراً بروعته أكثر مما كان في الأقطار الأخرى. وإذا كان ذلك قد حرمها من التماسّ بالحقائق المادية للمجتمع، فإنه قد وفّر قدرة على التعميم، والنفوذ وراء الوقائع المباشرة - وتجدر الإشارة إلى عدم وجود إشارة فعلية في كتابات ماركس إلى «الطبقة التي لا تملك» (Property Less Class) التي مشاكلها «تصرخ عالياً في اتجاه السماء في مانشستر (Manchester) وليونز (Lyons)» قبل خريف عام[48] 1842. وبغية تحقيق طاقتها الكاملة على التفكير التأملي عليها أن تتحول إلى وسائل تأثير في العالم؛ كما أنه على التعميم الفلسفي الفكري أن يتحد مع البحث المادي والتحليلي للعالم الواقعي للمجتمع البورجوازي. فمن غير هذا الاتحاد، فإن الاشتراكية الألمانية الناشئة من التطرف السياسي للتطور الفلسفي، والهيغلية بصورة رئيسية، قد ينتجان ذلك النوع الألماني من الاشتراكية أو الاشتراكية «الحقيقة» التي هجاها وسخر منها ماركس، وإنجلز في **البيان الشيوعي**.

اتَّخذت الخطى الأولية لذلك التطرّف الفلسفي صورة نقدٍ للدين، والدولة بعد ذلك (لأن الموضوع كان ذا حساسية سياسية)، والاثنان كانا المسألتين «السياسيتين» الرئيسيتين اللتين اهتمت بهما الفلسفة على نحوٍ مباشر... والحدثان الكبيران السابقان للماركسية والدالان على ذلك التطرّف، هما: كتاب ليفي ستراوس (Lévi Strauss): **حياة يسوع** (*Life of Jesus*) (1835)، وخاصة كتاب فويرباخ الذي كان مادّياً: **جوهر**

المسيحية (*Wesen des Christenthums*) (1841). وإن الأهمية الحاسمة لفويرباخ كمرحلة متوسطة بين هيغل وماركس معروفة ومألوفة، مع أن الدور المركزي المستمر الذي أداه نقد الدين في التفكير الناضج لماركس ولإنجلز، لم يحصل تقدير واضح له دائماً. ومهما يكن من أمر فإنه في تلك المرحلة الحاسمة من مراحل التطرف، عمد الثوّار من الفلاسفة السياسيين الألمان إلى أن يستمدّوا مباشرة من التقليد الراديكالي والاشتراكي، أيضاً، وذلك لأن أكثر مدرسة مادية فلسفية مألوفة ومتَّسقة، تلك التي كانت في فرنسا القرن الثامن عشر، ولم تكن ذات صلةٍ بالثورة الفرنسية فحسب، بل بالشيوعية الفرنسية المبكرة، أيضاً - هولباخ وهيلفيشَسْ، موريلّي وما يلي. بذلك المقدار أسهم التطوّر الفرنسي في تطوّر تفكير ماركس، أو في تشجيعه على الأقل كما فعل التقليد الفلسفي البريطاني عبر مفكري القرنين السابع عشر والثامن عشر مباشرة، أو من خلال الاقتصاد السياسي. على كل حال، إن العملية التي بها وضع ماركس الشاب «هيغل في الوضع الصحيح» ليكون غير قائم على رأسه، حدثت في داخل الفلسفة الألمانية الكلاسيكية، ودَيْنها محدود للتقاليد الثورية والاشتراكية القبل الماركسية، ما خلا الحسّ بالاتجاه الذي يجب أن تتحرك فيه.

V

السياسة، والاقتصاد والفلسفة، والتجربة الفرنسية والبريطانية والألمانية، والاشتراكية «الخيالية» والشيوعية، كانت كلها متمازجة وتحوَّلت وتجاوزت حالها في التركيب الماركسي خلال أربعينات القرن التاسع عشر. ويقيناً أقول إن ذلك التحوّل كان لا بدَّ من أن يحصل في تلك اللحظة التاريخية، ولم يكن بالأمر العارض.

ونحو عام 1840، اكتسب التاريخ الأوروبي بعداً جديداً هو: «المسألة الاجتماعية» (Social Problem)، أو (منظوراً إليها من وجهة نظر أخرى) الثورة الاجتماعية الكامنة، وحصل التعبير عن كليهما بشكلٍ نموذجي في ظاهرة «البروليتاريا»، فصار الكُتّاب البورجوازيون واعين بشكل منظَّم، بالبروليتاريا بوصفها مسألة تجريبية وسياسية، وطبقة وحركة - وفي التحليل الأخير كانت قوة لقلب المجتمع. وقد وجد ذلك الوعي في جانب منه تعبيراً عنه في الأبحاث المنظَّمة، التي كانت دراسات مقارنة في أغلب الأحيان عن أحوال تلك الطبقة ((Villermé) من أجل فرنسا في عام 1840، بوريه (Buret) من أجل فرنسا وبريطانيا في عام 1840، ودوكبتيو (Ducpétiaux) لأقطار مختلفة في عام 1843، وفي جانب آخر في التعميمات التاريخية المتبقية في ذكريات الحجة الماركسية:

«غير أن هذا هو محتوى التاريخ أي: لا يختفي نزاعٌ تاريخي كبير أو يزول ما لم ينشأ نزاع جديد. لذا، نجد أن النزاع العام بين الأغنياء والفقراء قد أخذ شكل الاستقطاب المتمثلِّ في التوتّر بين الرأسماليين ومستأجري العمال في جهة، والعمال الصناعيين من كل نوع في جهة أخرى، وينشأ من هذا التوتّر تضاد يزداد تهديد أبعاده مع النمو المتناسب للسكان الصناعيين» [مقالة «الثورة» (Revolution) في كتاب روتِكْ (Rotteck) وويكر (Wecker): **معجم علوم الدولة**[49] [*Lexicon der Staatswissen schaften,* (*XIII*, 1842)].

لقد سبق لنا أن رأينا أن الحركة الشيوعية البروليتارية الواعية والثورية ظهرت في فرنسا في ذلك الوقت، وأن كلمتي «شيوعي» (Communist) و«شيوعية» (Com-munism) دخلتا في التداول عام 1840 لوصفها. وفي نفس الوقت لاحظ إنجلز عن كثب حركةً طبقية بروليتارية واسعة بلغت ذروتها في بريطانيا، هي الحركة الوثيقية (Chartism). وقبلها، تراجعت أشكال من الاشتراكية «الخيالية»، في أوروبا الغربية إلى هوامش الحياة العامة، باستثناء الفوريبريّة (Fourierism)، التي ازدهرت قليلاً، لكن باستمرار في التربية البروليتارية[50].

وصار الدمج الجديد والمنيع للتجربة الشيوعية الثورية اليعقوبية ونظريتها مع التجربة الاشتراكية الاتحادية ونظريتها ممكناً على أساس طبقة عاملة متحركة وذات نموّ ملحوظ. وماركس الهيغلي الذي كان يبحث عن قوة تحوُّل المجتمع عبر نفيها المجتمع القائم، وجدها في البروليتاريا، ولأنه لا يملك معرفة مادية بها (إلاّ عبر إنجلز) ولم يفكر بعمليات الاقتصاد الرأسمالي والسياسي ملياً، فقد بدأ يدرسهما على التوّ. وإنه لخطأ افتراضي أنه لم يركِّز عقله تركيزاً جدّياً على الاقتصاد قبل أوائل خمسينات القرن التاسع عشر. فقد بدأ أبحاثه الجدّية في وقت لا يتعدّى أواخر عام 1844.

الذي عجَّل ذلك الدمج بين النظرية الاجتماعية والحركة الاجتماعية تمَّثل في اجتماع النصر والأزمة في المجتمعات البورجوازية المتطوِّرة والنموذجية في فرنسا وبريطانيا خلال تلك الحقبة الزمنية. ومن الناحية السياسية عملت الثورات في عام 1830، والإصلاحات البريطانية الموازية في أعوام 1832 – 1835 على تأسيس أنظمة خدمت بشكل واضح مصالح القسم السائد في البرجوزاية الليبرالية لكنها قصَّرت في تحقيق الديمقراطية السياسية بشكل لافت. أما من الوجهة الاقتصادية فإن التصنيع الذي سبق أن ساد في بريطانيا كان يتقدم بصورة مرئية في أجزاء من القارة – لكن في

جوّ من أزمة وعدم يقين ظهر لكثيرين أنه وضع مستقبل الرأسمالية كله كنظام موضع الشك. وكما وصف الحال لورنز فون ستين وهو أول من ألقى نظرة على الاشتراكية والشيوعية عام (1842)، قائلاً الآتي:

«لم يعد هناك أي شك في أن أهم جزء من الإصلاح السياسي الأوروبي والثورة هما في نهايتهما، فالثورة الاجتماعية قد حلّت محلهما واحتلّت أبراجهما، قبل أي ثورة أخرى من ثورات الشعوب بقوتها المروِّعة وريبيّاتها. وقبل سنوات قليلة فقط بدا ما يواجهنا الآن مجرد ظل فارغ. أما الآن، فالثورة الاجتماعية تواجه كل قانون مواجهة العدوّ للعدوّ، وكل المحاولات الساعية لإعادتها إلى عدميّتها السابقة عبثيّة»[51].

أو كما وصف ماركس إنجلز الحال بعد سنوات قليلة: هناك «شبح ينتاب أوروبا شبح الشيوعية». لذا، فإن التحوّل الاشتراكي الماركسي لم يكن ممكناً، من الوجهة التاريخية قبل أربعينات القرن التاسع عشر، كما لم يكن ممكناً داخل الأقطار البورجوازية الرئيسية نفسها، حيث إن الحركات السياسية الراديكالية وحركات الطبقة العمالية، والنظرية الراديكالية الاجتماعية والسياسية التي كانت موجودة وجوداً عميقاً في تاريخ طويل، وتقاليد، وممارسات، وجدت تحرّرها منه أمراً صعباً. وكما بيّن لنا التاريخ اللاحق، كان اليسار الفرنسي مقاوماً للماركسية ولمدة طويلة، بالرغم من – والواقع لسبب – قوة التقاليد الثورية وتقاليد الاتحادات الأصلية في البلاد. وظلّت الحركة العمالية البريطانية غير محتفية بالماركسية لمدة أطول، بالرغم من – والواقع لسبب – نجاحها المحلّي في تطوير حركة طبقية واعية، ونقد الاستغلال. فلولا الإسهام الفرنسي والبريطاني لكان التركيب الماركسي مستحيلاً، وكما سبق أن قلنا، إن السيرة الحياتية لماركس المفيدة أن ماركس كان شريكاً لإنجلز شراكة حياة طويلة، ومع خبرة إنجلز الفريدة ببريطانيا [وأقلها كرأسمالي ممارس في مانشستر]، كانت مهمة من دون شك. ومع ذلك، إنه قد يكون الواجب تطوير الطور الجديد للاشتراكية على هامش المجتمع البورجوازي الألماني، لا في مركزه، وعبر إعادة بناء هندسة الفلسفة الألمانية التأملية الشاملة.

التطور الفعلي للاشتراكية الماركسية سيكون موضوع الفصول اللاحقة. أما الآن فما نحن بحاجة إليه هو مجرد التذكّر أنها اختلفت عن سابقاتها من نواحٍ ثلاث. **الأولى** استبدلت النقد الجزئي للمجتمع الرأسمالي بنقد شامل مبنيٍّ على تحليل العلاقة الأساسية المحدِّدة لذلك المجتمع (وهي الاقتصاد في هذه الحالة). ثم هناك الحقيقة المفيدة أنه من

الوجهة التحليلية، نَفَذَ إلى أعمق مما تضمنته الظاهرة السطحية في النقد التجريبي الحسّي من تحليل «للوعي الزائف» الذي كان عقبة، وتحليل أسبابه (التاريخية). والناحية **الثانية** تمثّلت في وضعها الاشتراكية في إطار تحليل تاريخي تطوّري، شرح سبب ظهورها كنظرية وكحركة عندما ظهرتا، وسبب وجوب أن يولِّد التطور التاريخي للرأسمالية مجتمعاً اشتراكياً في نهاية المطاف. (وخلافاً لما قاله الاشتراكيون الأوائل الذين حسبوا المجتمع الجديد منجزاً، ولم يبق إلاّ وضعه في شكل نهائي، بحسب ما يكون النموذج المفضل في اللحظة الملائمة، رأى ماركس أن مجتمع المستقبل ذاته سيستمر في التطوّر التاريخي، فلا يمكن التنبؤ إلاّ بمبادئه وأشكاله العامة جداً، ناهيك عن تصميمه). والناحية **الثالثة** وضحت نمط الانتقال من المجتمع القديم إلى المجتمع الجديد، أي: أنّ البروليتاريا ستكون هي الرسول الناقل له، عبر حركة طبقية منخرطة في صراع طبقي لا يحقق هدفها إلاّ بالثورة – «نزع الملكية من مالكيها». فلم تعد الاشتراكية خيالية بل صارت «علمية».

الواقع هو أن التحوّل الماركسي لم يحلّ محلّ من سبقوه فقط، بل امتصهم. وبمفردات هيغلية، هو «ألغاهم». ولأغراض مختلفة غير كتابة الأطروحات الأكاديمية، أقول لفّهم النسيان، أو صاروا يشكلون جزءاً من تاريخ ما قبل الماركسية، أو (كما في حالة بقايا من السانت – سيمونية) تطوروا في اتجاهات أيديولوجية لا علاقة لها بالاشتراكية. وفي أحسن الحالات بقوا مثل أوين وفورييه ومثل المنظِّرين التربويين. أما الكاتب الاشتراكي الوحيد في الفترة الما قبل الماركسية الذي احتفظ ببعض الأهمية كمنظِّر في الساحة العامة للحركات الاشتراكية، فهو برودون الذي ظل الفوضويون (Anarchists) يستشهدون به (فضلاً عن اليمين المتطرف الفرنسي، وآخرين من المضادين للماركسين، وذلك من وقت لآخر). وهذا ليس فيه إنصاف، من بعض النواحي، لرجال كانوا دون تنويرات الكتابات الخيالية، مفكرين أصليين ذوي أفكار لو اقترحت اليوم، لنظر إليها غالباً نظرة جدية. ومع ذلك، تبقى الحقيقة وهي أنهم كاشتراكيين اليوم، أصبحوا موضع اهتمام المؤرخين بصورة رئيسية.

هذا الكلام يجب ألاّ يضلِّلنا فنفترض أن الاشتراكية الما قبل الماركسية قضت حالاً، بعد أن طوَّر ماركس نظراته المميّزة. وأقول إنه حتى من الناحية الاسمية، لم تصبح الماركسية مؤثِّرة في الحركات العمالية حتى ثمانينات القرن التاسع عشر الميلادي وسبعيناته. فتاريخ فكر ماركس ومجادلاته السياسية والأيديولوجية لا يمكن أن تُفهم مالم نتذكر أنه، في بقية حياته، كانت الميول التي انتقدها، ونازعها أو اتفق معها في الحركة

العمالية بشكل رئيسي. تلك التي كانت عند اليسار الراديكالي الما قبل الماركسي، أو تلك المشتقة منها. فهي كانت تنتمي إلى أصل في الثورة الفرنسية، سواء أكانت على شكل الديمقراطية الراديكالية، أم الجمهورية اليعقوبية أم الشيوعية البروليتارية الثورية البابوفيّه الجديدة التي بقيت بقيادة بلانكي. (وهذه الأخيرة كانت اتجاهاً وتحالف معها ماركس من وقت لآخر على أسس سياسية). وقد نشأت، أو رشحت على الأقل من نفس الهيغلية اليسارية أو الفويرباخية التي مرَّ بها ماركس نفسه، كما في حالة عددٍ من الثوريين الروس، وأبرزهم باكونين (Bakunin). غير أنهم كانوا بصورة رئيسية ذريّة استمرار الاشتراكية الما قبل الماركسية.

يصح القول، إن الكتّاب الخياليين الأصليين لم يبقوا بعد أربعينات القرن التاسع عشر، لكن عقائدهم وحركاتهم كانت في حالة سبات، في أوائل الأربعينات، باستثناء الفوريبريّة، التي ازدهرت قليلاً إلى أن كانت ثورة عام 1848 التي وجد قائدها فيكتور كونسيدران (Victor Considérant)، نفسه يؤدي فيها دوراً غير متوقَّع وغير ناجح. ومن جهة أخرى استمرت في الازدهار أنواعٌ مختلفة من الاتحادات والنظريات التعاونية المشتقة جزئياً من مصادر خيالية [أوين، بوشيه (Buchez)]، على أساس رسولي أدنى، في أربعينات القرن التاسع عشر [لويس بلان وبرودون]. وأكدَّت، بطريقة غامضة، على مطمح تحويل المجتمع كله على أسس تعاونية وكانت منها قد استمدت في الأصل. وإذا كان هذا قد حصل في بريطانيا نفسها، حيث الحلم بمجتمع خيالي يحرر العمال من استغلال الرأسماليين قد ضعف وتحوّل إلى أصحاب متاجر متفاونين، فإنها كانت حيّة في الأقطار الأخرى، حيث ظلَّ تعاون المنتجين سائداً. وفي حياة ماركس كان ذلك يبدو لمعظم العمال أنه الاشتراكية، أو هو الاشتراكية التي كسبت تأييد الطبقة العاملة، وحتى في ستينات القرن التاسع عشر كان ذلك الذي تصوَّر مجموعات مستقلة من المنتجين من دون رأسماليين، لكنها مموَّلة من المجتمع بما يكفي من الرأسمال، ليبقوا أحياء، ومحميّين، ومشجَّعين من السلطة العامة، لكن مقابل ذلك يكون عليهم واجبات جمعية تجاه الشعب. ومن هنا كانت الأهمية السياسية للبرودونيّة واللاسّاليّة (Lassalleanism). كل ذلك كان طبيعياً في طبقة عمالية تألَّف أعضاؤها الواعون سياسياً وبمقدار كبير من حرفيين أو من القريبين من الخبرة الحِرفيّة. علاوة على ذلك، ظل الحلم بوحدة إنتاجية مستقلة تدير شؤونها الخاصة لا تخص الرجال (ونادراً النساء) الذين ليسوا بروليتاريين بشكل كامل بعد. وهذه الرؤية «النقابية» (Syndicalist) البدائية، عكست من بعض النواحي خبرات البروليتاريين في المعامل في منتصف القرن التاسع عشر.

لذلك فإنه من الخطأ القول إن الاشتراكية الما قبل الماركسية كانت ميتة في زمن ماركس. فقد ظلّت حيّةً في أوساط البرودونيين والباكونينيين، والفوضويين، وعند النقابيين الثوريين اللاحقين وآخرين، حتى عندما تعلم هؤلاء اللاحقين، لحاجتهم لنظرية كافية وافية تخصهم، أن يتبنّوا الكثير من التحليل الماركسي لأغراضهم الخاصة. ومع ذلك منذ منتصف أربعينات القرن التاسع عشر وما بعد ذلك، لم يعد يمكن القول إن ماركس استمد أي شيء من تقاليد الاشتراكية الما قبل الماركسية. وبعد دراسته النقدية المفصَّلة والطويلة لبرودون [كتاب: **فقر الفلسفة** *The Property of Philoso-phy*، 1847]، لم يعد ممكناً القول إن نقد الاشتراكية الما قبل الماركسية أدى دوراً كبيراً في تشكيل فكرة الخاص. فعلى العموم شكَّلت جزءاً من المجادلة السياسية (Political Polemics)، لا من تطوره النظري. وقد يكون الاستثناء الرئيسي هو: **نقد برنامج غوثا** (1875) الذي فيه دفعته احتجاجاته المصدومة بعد التنازلات غير المسوغة التي قدَّمها الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني لأتباع لاسال إلى إصدار بيان نظري، إذا لم يكن جديداً فإنه مع ذلك لم يصدر في صياغة عامة من قبل. ومن الممكن أيضاً أن يكون تطور أفكاره الخاصة بالاعتمادات والمال مدين بشيء إلى الحاجة لنقد الاعتقاد في العملة المتداولة وفي علاجات الاعتمادات التي ظلَّت شائعة في الحركات العمالية من النمط البرودوني. على كل حال، إن ماركس وإنجلز بصورة عامة تعلّما كل ما قدرا عليه من الاشتراكية الما قبل الماركسية. وتمَّ وضع أسس الاشتراكية العلمية.

الفصل الثالث

ماركس، إنجلز والسياسة

يبحث الفصل الحالي في الأفكار والنظريات السياسية عند ماركس وإنجلز، أي نظراتهما للدولة ولمؤسساتها، وللمظاهر السياسية للانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية كالصراع الطبقي، والثورة، ونمط التنظيم، والاستراتيجيا والتكتيك الخاصين بالحركة الاشتراكية، وأمور مماثلة. وتبدو هذه من الوجة التحليلية مسائل ثانوية، بمعنى من المعاني. «فالعلاقات القانونية وكذلك أشكال الدولة لا يمكن فهمهما من ذاتهما... لكنهما متجذِّران في الشروط المادية للحياة»، وفي «المجتمع المدني» الذي يشكل تشريحه الاقتصاد السياسي [المقدِّمة، **نقد الاقتصاد السياسي**]. فالذي يقرّر الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية هو التناقضات الداخلية في التطور الرأسمالي، خاصة أن حقيقة الرأسمالية حفّارة قبرها هي البروليتاريا، أي «طبقة يتزايد عددها باستمرار، وهي منظَّمة موحَّدة ومنظَّمة من عملية الإنتاج الرأسمالي ذاتها» [كتاب: **رأس المال**، المجلّد I: (*Capital I: Hist Law of Capaccu*)]. بالإضافة إلى ذلك، مع أن قوة الدولة ذات أهمية حاسمة للحكم الطبقي، فإن سلطة الرأسماليين على العمال ليست في أيدي حامليها إلاّ كشخصين لشرط أن يكون العمل فوق العامل. فهي ليست في أيديهم لقدرتهم كحكام سياسيين أو ثيوقراطيين بالطريقة ذاتها التي استعملت بها في أنماط إنتاج سابقة [**الأعمال** *Werke I,* iii p.888]. لذا، لا حاجة لإدخال السياسة والدولة ودمجها في التحليل الأساسي، لكن يمكن استحضارها في مرحلة لاحقة[1].

لا ريب في أن المسائل السياسية هي من الوجهة العملية مسائل رئيسية، وليست

ثانوية عند الثوريين الناشطين. لذا، وجدنا مقداراً كبيراً من كتابات ماركس كان حول هذه المسائل. ومع ذلك أقول، إن تلك الكتابات ذات طابع مختلف عن كتاباته الرئيسية. ومع أنه لم يكمل تحليله الاقتصادي الشامل للرأسمالية، فإن آثاره التي لم تنجز موجودة في مخطوطات كبيرة مختلفة استهدفت النشر أو نشرت فعلياً. وخصَّص ماركس أيضاً انتباهاً منظماً لنقد الفلسفة الاجتماعية، وما يمكن أن يُدعى التحليل الفلسفي لطبيعة المجتمع البورجوازي والشيوعية في أربعينات عام 1840. ولا يوجد مسعى نظري منظّم شبيه خاص بالسياسة. فقد كانت كتاباته في هذا الميدان تقريباً، كلها على صورة كتابات صحفية، وتحقيقات أو أبحاث تختص بالماضي السياسي القريب، وإسهامات في نقاشات داخل الحركة ورسائل خاصة. ومع أن كتابات إنجلز حول الموضوع كانت بشكل رئيسي من طبيعة التعليقات على السياسة المعمول بها، فإنه حاول القيام بمعالجات منظمة لتلك المواضيع في كتابه: **ضد - دوهرنغ**، لكن في كتابات مختلفة بعد وفاة ماركس.

لذا، فإن الطبيعة الدقيقة لنظرات ماركس وإنجلز بمقدار أقل، غير واضحة في أغلب الأحيان، خاصة في المسائل التي لم تكن تشغلهما، وقد يكونان قد رغبا في ثني الهمة عنها، لأن «أكثر ما يعمى البشر هو قبل أي شيء، الوهم بوجود تاريخ مستقل لمؤسسات الدولة، والأنظمة القانونية وأشكال التمثيل الأيديولوجي في جميع الميادين الخاصة» [Engels to Mehring, *Werke 39*, pp. 96 ff]. وقد سلّم إنجلز، في آخر حياته فقال، مع أنه هو وماركس كانا محقيّن في التوكيد قبل كل شيء على «اشتقاق المفاهيم السياسية، والقانونية والأيديولوجية الأخرى من الوقائع الاقتصادية الأساسية»، فإنهما أهملا الجانب الرسمي الصوري لتلك العملية وأثره في المحتوى. وهذا لا ينطبق على تحليل المؤسسات السياسية، القانونية والمؤسسات الأخرى كالأيديولوجيا فحسب، بل على الاستقلال النسبي لتلك العناصر فوق اللبنيوية - كما أبرز ذلك في رسائل معروفة فسَّر فيها المفهوم المادي للتاريخ وعلَّق عليه. هناك فجوات كبيرة بين أفكار ماركس وإنجلز المعروفة والمتعلقة بهذه المواضيع، وبالتالي هناك شكوك حول ما كانت، وما يمكن أن تكون قد كانت.

الواضح هو أن تلك الفجوات لم تقلق ماركس أو إنجلز، ولو كانت تلك الفجوات مصدر قلق لهما لكانا عملا على ملئهما، حتى إن كان مثل ذلك التحليل ضرورياً في سياق عملهما السياسي الواقعي. وهكذا، لا نقع على أية إشارة خاصة إلى القانون في كتابات ماركس، لكن إنجلز لم يصعب عليه أن يرتجل نقاشاً حول القانون

[بالتعاون مع كوتسكي]، عندما بدا ذلك مناسبا [2](1887). ولا توجد صعوبة كبيرة في فهم السبب الذي جعل ماركس وإنجلز لا يتجشّمان عناء ملء بعض الفجوات النظرية الواضحة لنا. فالحقبة التاريخية التي كانا فيها وكتبا عنها لم تكن مختلفة عن حقبتنا فحسب، وإنما كانت أيضاً (باستثناء بعض الاتفاق في سنوات إنجلز الأخيرة) مختلفة عن الحقبة التي تطوَّرت فيها الأحزاب الماركسية متحوّلة إلى منظّمات جمهورية، أو إلى قوى سياسية مهمة. فوضع ماركس وإنجلز الفعلي، بوصفهما شيوعيين ناشطين لم يكن يشبه إلى حد ما، وضع أتباعهما الماركسيين الذين قادوا أو كانوا ناشطين سياسياً في تلك الحركة اللاحقة. وبالرغم من أن ماركس أدى دوراً مهماً، أكثر من إنجلز، في السياسة العملية، خاصة خلال ثورة عام 1848، عندما كان محرِّراً في مجلة **الجزيرة الراينانية**[*] **الجديدة** (*Neue Rheinische Zeitung*) وفي الأممية الأولى، فلا هو ولا إنجلز قادا أحزاباً سياسية أو انتميا لأحزاب سياسية، من النوع الذي صار صفة مميّزة للحركة في زمن الأممية الثانية. وأكثر ما قاما به تمثَّل في تقديمهما المشورة لأتباعهما، أما قادة هؤلاء الأتباع [مثلاً، أوغست بيبِلْ (August Bebel)] فلم يكونوا يأخذون بنصحهما دائماً، بالرغم من إعجابهم واحترامهم الكبيرين لماركس وإنجلز. وخبرة ماركس وإنجلز السياسية الوحيدة التي يمكن تشبيهها بالتنظيمات الماركسية اللاحقة كانت قيادتهما للعصبة الشيوعية (1847-1852) التي مال لينين إلى الإشارة إليها منذ عام 1917، ولذلك السبب. وما لا ريب فيه هو أن تفكير ماركس وإنجلز السياسي الخاص تميّز بعلاقته مع الوضع التاريخي المحدَّد الذي واجهاه، بالرغم من القدرة على توسيعه وتطويره لمواجهة أوضاع أخرى.

ومع ذلك، علينا أن نميّز ذلك الجزء من تفكيرهما الذي كان لغرض محدَّد عن الجزء التراكمي، بقدر ما يغوص التحليل إلى طبقته التحتية، وهو الذي يتشكَّل ويتعدَّل ويتفصَّل بطريقة تدريجية في ضوء التجارب التاريخية المتعاقبة. وهذا بارز في حالة مسألتي الدولة والثورة اللتين ربط بينهما لينين ربطاً صحيحاً في مسعاه لتقديم ذلك التحليل بطريقة منظَّمة.

أما تفكير ماركس الخاص بالدولة، فقد انطلق بمحاولةٍ لتصفية الحساب مع النظرية الهيغلية حول الموضوع، وذلك في كتاب: **نقد فلسفة القانون عند هيغل** (*Critique of Hegel's Philosophy of Law*) (1843). وفي تلك المرحلة، كان ماركس

(*) راينائية نسبة إلى نهر الراين المشهور في ألمانيا (المترجم).

ديمقراطياً ولم يكن شيوعياً بعد، لذا فإن مقاربته تشبه بعض الشيء فكر روسّو، بالرغم من أن التلاميذ الذين حاولوا أن يقيموا روابط مباشرة بين المفكرْين قد خُذلوا بسبب الحقيقة الأكيدة والمفيدة أن «ماركس لم يعطِ أي إشارة تدل على أنه كان على وعي [بهذا الدين المزعوم لروسّو]»[3]، والواقع هو أنه أساء تفسير ذلك المفكر. هذا الاختبار فيه توقع لبعض نواحي أفكار ماركس السياسية اللاحقة، وبصورة غامضة أعني تشبيه الدولة بشكل معين من علاقات الإنتاج («الملكية الخاصة»)، والدولة كمخلوق تاريخي، وأن انحلالها الأخير (Auflösung) سيكون مع «المجتمع المدني» (Civil So-ciety) عندما تنهي الديمقراطية الفصل بين الدولة والشعب. على كل حال، ذلك ملحوظ بشكل رئيسي كنقدٍ للنظرية السياسية الأرثوذكسية، وبالتالي يشكل المناسبة الأولى والأخيرة التي عمل فيها تحليل بشكل منظَّم بمفردات المؤسسات، ومسائل التمثيل... إلخ. ونذكر نتيجته المفيدة أن الأشكال الدستورية هي ثانوية بالنسبة إلى المحتوى الاجتماعي - فكل من الولايات المتحدة وبروسيا كانتا قائمتين على نظام اجتماعي مؤلف من الملكية الفردية - وكان نقده للحكم عبر ممثّلين برلمانيين مثلاً، أي عن طريق إدخال الديمقراطية كجزء أساسي في الدولة، لا الإقرار بأنه جوهرها[4]. وقد تصوَّر ماركس نظاماً من الديمقراطية لا يكون فيه الإسهام والتمثيل متميّزين، «ولا يعمل كجسم برلماني»، بحسب الكلمات التي طبقها لاحقاً على كميون[5] (Commune) باريس، بالرغم من أن تفاصيلها الأساسية تركت غامضة في عام 1843 كما هو الحال عليه في عام 1871.

الشكل الشيوعي الأول لنظرية ماركس الخاصة بالدولة رسمت نقاطاً رئيسية أربعاً، هي: جوهر الدولة في السلطة السياسية، التي هي «التعبير الرسمي عن التضاد بين الطبقات داخل المجتمع البورجوازي، ونهايتها عدم الوجود في المجتمع الشيوعي، وهي في النظام الحالي لا تمثِّل المصلحة العامة للمجتمع، وإنما مصلحة الطبقة (الطبقات) الحاكمة، لكن بالانتصار الثوري للبروليتاريا، فإنها لن تتلاشى مباشرة خلال الفترة الانتقالية المتوقعة، بل ستأخذ شكل «البروليتاريا المنظمة كطبقة حاكمة» أو «دكتاتورية البروليتاريا» (بالرغم من أن هذه العبارة لم يستعملها ماركس إلا بعد عام 1848).

ومع أن تلك الأفكار استبقيت كما هي ولم تتغير في بقية حياة ماركس وإنجلز، فقد حصل إتقان كبير لها خاصة من ناحيتين. **الأولى**، تعدَّل مفهوم الدولة كسلطة طبقية، في ضوء بونابارتيّة (Bonapartism) نابليون الثالث في فرنسا، والأنظمة الأخرى التي أعقبت عام 1848، التي لا يمكن وصفها ببساطةٍ بأنها كانت حكم بورجوازية ثورية

(انظر أدناه). والناحية **الثانية** هي أنه بعد عام 1870، بصورة رئيسية، وضع ماركس وإنجلز خطوط نموذج أعمّ للنشوء التاريخي للدولة ولتطورها كنتيجة لتطور المجتمع الطبقي، وصيغ ذلك أكمل صياغة في كتاب: **أصل الأسرة** (1884)، وهو الذي شكّل نقطة الانطلاق للبحث اللاحق الذي قام به لينين. فمع نموّ النزاعات الطبقية التي لا يمكن تسويتها ولا إدارتها في المجتمع صار وجود سلطة فوق المجتمع ضرورياً لهدف تلطيف تلك النزاعات، وإبقائه ضمن حدود «النظام»، أي لمنع الصراع الطبقي من أن يستهلك الطبقتين والمجتمع «في صراع عقيم». وبالرغم من أن الدولة «كقاعدة» تمثّل مصالح الطبقة الأقوى والمسيطرة اقتصادياً، التي بإدارتها وسيطرتها اكتسبت وسائل في إبقاء المقموعين في أسفل المجتمع، لا بدّ من أن نذكر أن إنجلز قَبِلَ الوظيفة الاجتماعية العامة للدولة، سلبياً على الأقل كآليّة تحول دون الانحلال الاجتماعي، كما قَبِلَ عنصر إخفاء السلطة، أو دور التعمية والتمييز أو القبول الظاهري المزعوم المتضمَّن في مظهر وجود الدولة فوق المجتمع. فإن نظرية الدولة الماركسية هي متقنة أكثر من مجرد المعادلة: دولة = سلطة قمعية = حكم طبقي.

ولما كان ماركس وإنجلز قد اعتقدا بالانحلال الأخير للدولة، وبضرورة وجود دولة (بروليتارية) انتقالية، وبضرورة التخطيط الاجتماعي والإدارة حتى المرحلة الأولى من الشيوعية «الاشتراكية» على الأقل، فإن مستقبل السلطة السياسية يطرح مسائل معقَّدة لم يتمكَّن خلفاؤهما من حلّها نظرياً أو عملياً. وبما أن «الدولة» عُرِّفت بأنها الجهاز الحاكم للناس، فإن أجهزة الإدارة التي ستبقى، يمكن قبولها على نحوٍ محصور في «إدارة الأشياء» (The Administration of Things)، لذلك لا تعود هناك دولة[6].

وقد يكون التمييز بين حكم البشر وإدارة الأشياء مأخوذاً من فكر اشتراكي سابق. وقد أشاعه السانت – سيمون خاصة. وقد أصبح التمييز أكثر من مجرد أسلوب سيمانطيقي (Semantic) في افتراضات خيالية فحسب، أو في افتراضات تفاؤلية عالية مثلاً. الاعتقاد بأن «إدارة الأشياء» ستكون أبسط تقنيًّا وأقل تخصّصاً مما كانت عليه، ومن ثمَّ ستكون في نطاق المواطنين غير الاختصاصيين – والمثال الأعلى عند لينين كان في أن يكون كل طبّاخ قادراً على حكم الدولة. ولا شك في أن ماركس شارك في تلك النظرة التفاؤلية[7]. ومهما يكن من أمر، فإن الذي سيحصل خلال الفترة الانتقالية هو أن حكم البشر، أو بعبارة إنجلز الأدق:

«تدخّل سلطة الدولة في العلاقات الاجتماعية» (ضد – دوهرنغ) سيختفي بطريقة

تدريجية فقط. أما متى سيبدأ بالاختفاء عملياً، وكيف سيختفي فإن الإجابة عليهما ظلت في الظلام. ومقطع إنجلز الشهير في كتاب: **ضد - دوهرنغ** أفاد أن ذلك سيحدث «من ذاته» عبر «الذبول» (Withering Away). ولأغراض عملية، لا يمكننا إلاّ أن نقرأ القليل في هذا القول الصوري من نوع تحصيل الحاصل. وهو أن تلك العملية سوف تبدأ «بالدور الأول الذي ستظهر فيه الدولة بأنها الممثِّل الحقيقي للمجتمع كله»، وتحوّل وسائل الإنتاج إلى ملكية اجتماعية، لأن كل ما تقول هو أن الدولة بتمثيلها المجتمع كله لا يعود ممكناً تصنيفها كدولة ليس إلاّ

انشغال ماركس وإنجلز بزوال الدولة لافت ومفيد، وبشكل رئيسي كدليل قوي على آمالهما في مجتمع شيوعي مستقبلي ومفهومهما له، وليس من أجل ما يمكن أن يُقرأ من تكهنات يمكن قراءتها في ذلك الانشغال. والأقوى هو، لأن تنبؤاتهما حول هذه المسألة تتعارض مع نفورهما من التأمل في مستقبل لا يمكن التنبؤ به. فالإرث الذي تركاه لخلفائهم حول هذه المسألة ظلَّ محيّراً ومشكوكاً فيه.

هناك تعقيد إضافي في نظريتهم عن الدولة لا بدّ من ذكره بإيجاز. فما دامت الدولة ليست مجرد جهاز حكم، بل هي قائمة على أرض (**أصل الأسرة، الأعمال** *Werke 21,* p. 165)، فإن للدولة وظيفة في التطور الاقتصادي البورجوازي بوصفها «الأمة»، ووحدة هذا التطور على الأقل على شكل عددٍ من الوحدات الأرضية الكبيرة من هذا النوع (انظر أدناه). وماركس وإنجلز لم يبحثا في مستقبل هذه الوحدات، لكن إصرارهما على الحفاظ على الوحدة القومية بشكل مركزي بعد الثورة أمر لا ريب فيه، لأن ذلك الإصرار طرح مشاكل لاحظها بيرنشتاين وواجهها لينين[8]. وماركس كان دائماً ينكر الفيدرالية.

بدأت أفكار ماركس الخاصة بالثورة بشكل طبيعي بتحليل التجربة الثورية الرئيسية في عصره، أعني ما حدث في فرنسا منذ عام 1789 وما بعده[9]. فقد ظلَّت فرنسا لبقية حياته، المثل «الكلاسيكي» الشارح للصراع الطبقي في صورته الثورية، والمختبر الرئيسي للتجارب التاريخية التي فيها تشكّلت الاستراتيجية والتكتيك الثوريين. على كل حال فمنذ اتصاله بإنجلز تكاملت التجربة الفرنسية مع تجربة الحركة البروليتارية الواسعة، الي كانت بريطانيا زمانئذٍ، وظلّت لعقود عدة المثل الوحيد المهم وذا المغزى.

كان حدث الثورة الفرنسية الحاسم من وجهتي النظر هو العصر اليعقوبي. فقد كانت علاقته بالدولة البورجوازية غامضة[10]، لأن طبيعة تلك الدولة تمثلت في توفير

ميدان حرّ لعمليات المجتمع البورجوازي المدني الفوضوية، بينما سعى زمن الرعب والإرهاب (Terror) ونابوليون، بطريقتيهما المختلفين إلى تحويلها إلى مجتمع/ أمة لها إطار توجيهي من الدولة، والنظرة الأولى قالت عبر إتباعها «بالثورة الدائمة» (Per-manent Revolution) – وأول ما استعمل هذا في هذا المقام، كان ماركس في [**الأسرة المقدَّسة**، ص 130]، والنظرة الثانية قالت، عبر الغزو والحرب. وأول ظهور للمجتمع البورجوازي كان بعد ثيرميدور (Thermidor)، وأخيراً اكتشفت البورجوازية شكله الفعّال، أي «التعبير **الرسمي عن قوته الاستثنائية**، والمعرفة السياسية بمصالحة الخاصة في الدولة البرلمانية الدستورية، والدولة التمثيلية (*Repräsentativstaat*) في ثورة عام 1830 (المرجع السابق، ص 132).

مع ذلك اقترب عام 1848 وحصل تأكيد على مظهر آخر من اليعقوبية. وهو وحده أنجز الدمار الكلي لبقايا الإقطاعية، ولولاه لاستمرت لعقود. والمفارقة تمثَّلت في أن ذلك عاد إلى التدخل في الثورة، من قِبَل «بروليتاريا» لم تكن قد نضجت كفايةً لتكون قادرة على تحقيق أهدافها[11]. وتظل الحجة ذات صلة بالرغم من أننا اليوم لا نعتبر حركة السانسكيولوط[*] (Sansculotte) حركة «بروليتارية»، لأنها طرحت المسألة الحاسمة، مسألة دور الطبقات الشعبية في الثورة البورجوازية، والعلاقة بين البورجوازية والثورة البروليتارية. فهاتان المسألتان شكلتا الموضوعين الرئيسيين في **البيان الشيوعي**، وفي كتابات عام 1848 ونقاشات ما بعد عام 1848. وظلاّ يؤلفان الفكرة الرئيسية في التفكير السياسي عند ماركس وإنجلز، وفي ماركسية القرن العشرين. علاوةً على ذلك، بمقدر ما وفّر مجيء الثورة البورجوازية إمكانية على غرار السابقة اليعقوبية لقيادة الأنظمة التي **تجاوزت** الحكم البورجوازي، فإن اليعقوبية قدَّمت مع المزايا السياسية لمثل تلك الأنظمة مثلاً المركزية ودور السلطة التشريعية.

لذلك، فإن تجربة اليعقوبية ألقت ضوءاً على مسألة الدولة الثورية الانتقالية، بما في ذلك «دكتاتورية البروليتاريا»، وهو التصوّر الذي دار حوله جدل كثير في النقاشات الماركسية اللاحقة. وكان أول دخول لهذا المصطلح في التحليل الماركسي – ولا يهم أن يكون مستمداً من بلانكي أو لا يكون – في أعقاب الهزيمة في 1848 – 1849، أي بعد وضع نسخة جديدة تشبه ثورات عام 1848. وكانت الإشارة إليه قد حصلت بشكل رئيسي نتيجة كوميون باريس، وبعلاقة مع نظرات الحزب الديمقراطي الاجتماعي

(*) السانسكيولوط تعني جمهوري فرنسي متطرف في زمن الثورة الفرنسية (المترجم).

الألماني في تسعينات القرن التاسع عشر. وبالرغم من أنه لم يتوقَّف عن أن يكون عنصراً حاسماً في التحليل الماركسي[12]، إلاّ أن السياق السياسي الذي نوقش فيه تغيّر بشكل عميق. ومن هنا نجد بعض ظواهر الغموض في النقاش الجدلي اللاحق.

لا يبدو أن ماركس استعمل المصطلح «دكتاتورية» لوصف شكل حكم مؤسَّسي خاص، وإنما استعمله دائماً لوصف **محتوى** مجموعة من الحكم الطبقي فحسب. لذا، بدا له أن «دكتاتورية البورجوازية» قد توجد بوجود انتخابات أو من دونها[13]. ومهما يكن من أمر فمن المحتمل في وضع ثوري، وعندما يكون الهدف الرئيسي للنظام البروليتاري الجديد كسب الوقت عبر الاتخاذ الفوري «لتدابير ضرورية لتخويف جمهور البورجوازية تخويفاً كافياً[14]»، أن يكون ذلك الحكم دكتاتورياً، وبشكل صريح وعلني. والنظام الوحيد الذي وصفه ماركس بأنه دكتاتورية البروليتاريا كان كومیون باريس وصفاته السياسية التي كانت مضادّة للحكم الاستبدادي (Dictatorial) (بالمعنى الحرفي). واستشهد إنجلز بـ «الجمهورية الديمقراطية» كأحد أشكالها السياسة الخاصة «كما سبق أن أثبتت ذلك الثورة الفرنسية»[15]، وكذلك كومیون باريس. على كل حال، بما أن ماركس وإنجلز لم يهتما ببناء نموذج قابل للتطبيق الشامل من **شكل** دكتاتورية البروليتاريا، أو للتنبؤ بكل أنواع الأوضاع التي يمكن تطبيقها، فإننا نستطيع أن نقول، إننا لا نقدر أن نستخلص من ملاحظاتهما أكثر من أن تلك الدكتاتورية لا بدَّ من أن تجمع ما بين التحوّل الديمقراطي للحياة السياسية للجماهير مع تدابير تحول دون قيام ثورة مضادة من قِبَل الطبقة الحاكمة المهزومة. ونحن لا نملك مرجعية نصيّة لتفكر بما يمكن أن يكون موقفهما من الأنظمة الما بعد الثورية للقرن العشرين، باستثناء إعطائهما الأولويّة الأول والعظمى لحفظ السلطة البروليتارية ضد مخاطر إسقاطها. فجيش من البروليتاريين هو الشرط القبلي لدكتاتوريتها[16].

كما هو معروف، إن تجربة كوميون باريس أوحت بتوسيعات مهمة لفكر كل من ماركس وإنجلز حول الدولة ودكتاتورية البروليتاريا. فلا يمكن الأخذ بآلية الدولة القديمة، بل يجب إزالتها وهنا يبدو ماركس أنه كان يفكر بشكل رئيسي ببيروقراطية نابوليون الثالثة المتمركزة وجيشه وشرطته. فعلى الطبقة العاملة «أن تؤمّن نفسها ضد ممثّليها وموظفيها» لكي تتجنب «تحويل الدولة وأجهزة الدولة من خّدّمة للشعب إلى أسياده»، كما حصل في جميع الدول السابقة[17]. وبالرغم من أن هذا التعبير فُسِّر في نقاشات ماركسية لاحقة، بشكل رئيسي بأنه حاجة لحماية الثورة ضد أخطار آلية الدولة

القديمة الباقية، فإن الخطر المتصوَّر ينطبق على آليّة أي دولة سمح لها بتأسيس سلطة مستقلة، تشمل فيها تشمل الثورة ذاتها. وقد خضع النظام الناتج الذي ناقشه ماركس وذو الصلة بكوميون باريس، لجدل قوي منذئذٍ. والقليل منه واضح إلا ماخلا أنه يتألف من «خدمة مجتمع (منتخبين) ومسؤولين»، لا «مجلس بلدي فوق المجتمع»[18].

مهما يكن الشكل الدقيق لحكم البروليتاريا للبورجوازية المهزومة، فلا بدّ من الاحتفاظ به خلال فترة الانتقال التي طولها متغيّر ومشكوك به عندما يكون المجتمع الرأسمالي في حالة تحوّل تدريجي إلى مجتمع شيوعي. ويبدو واضحاً أن ماركس توقَّع أن «يذوي» الحكم أو كلفته الاجتماعية خلال تلك الفترة[19]. ومع أنه ميّز بين «الطور الأول للمجتمع الشيوعي كما ينشأ، بعد مشقّات عمالية طويلة من المجتمع الرأسمالي، وطور أعلى» عندما يطبق مبدأ «من كل واحد بحسب قدرته إلى كل واحد بحسب حاجته، لأن دوافع وقيود القدرة البشرية وإنتاجيتها سيتخلّى عنها»[20]، فإنه لا يوجد فصل متصوَّر في تسلسل الأحداث بين الطورين. ولما كان ماركس وإنجلز قد رفضا رفضاً صارماً رسم صور عن المجتمع الشيوعي المستقبلي، فإن أي محاولة لجمع ملاحظاتهما المتناثرة أو العامة حول هذا الموضوع بغيه تأليف صورة، يجب تجنّبها لأنها ستكون مضلِّلة. فتعليقات ماركس الخاصة حول تلك النقاط التي أوحت إليه بها وثيقة غير كافية [**نقد برنامج غوثا**] ليست بشاملة بشكل واضح، فقد كانت محصورة في إعادة ذكر مبادئ عامة بشكل رئيسي.

وطوال المرحلة الما بعد الثورية، عرض المشهد بوصفه عملية تطور طويلة معقَّدة لا خطِّية ولا يمكن التنبؤ بها بصورة جوهرية في الوقت الحاضر. فمطالب البورجوازية الفرنسية، العامة قبل عام 1789 كانت قد تأسست   بعد إجراء جميع التغييرات الضرورية (*Mutatis Mutandis*) مثل المطالب المباشرة للبروليتاريا اليوم كانت قياسية ومعترف بها لدى جميع الأقطار ذات الإنتاج الرأسمالي. على كل حال، لم يوجد قبل الثورة في القرن الثامن عشر أي فرنسي كان لديه أي فكرة قبليّة مهما كانت عن كيفية تنفيذ مطالب البورجوازية الفرنسية[21] وكما كانت ملاحظته في كلامه عن الكوميون، فإنه حتى بعد الثورة لا يكون «استبدال الأحوال الاقتصادية الخاصة بعبيد العمل بأحوال العمل الحرّ والمشترك إلاّ بفعل الوقت التقدمي، ولا يمكن استبدال «العملية العفوية التلقائية الحالية للقوانين الطبيعية للرأسمال وملكية الأرض» إلاّ بعملية عفوية تلقائية لقوانين الاقتصاد الاجتماعي الخاص بالعمل الحرّ والمشترك في سياق عملية

تطور طويلة لأحوال جديدة»[22]، كما حصل في الماضي في اقتصاد العبيد والاقتصاد الإقطاعي. فما تفعله الثورة هو أنها تستهلّ تلك العملية ليس إلاّ

هذا التحذير من تنبؤ المستقبل يعود بمقدار كبير إلى الحقيقة التي تفيد أن الصانع الرئيسي للثورة وقائدها هي البروليتاريا، التي كانت هي نفسها طبقة في عملية تطور. والشكل العام لنظرات ماركس وإنجلز حول التطور، والمبنيّة بصورة رئيسية على خبرة إنجلز البريطانية في أربعينات القرن التاسع عشر، معروض في **البيان الشيوعي**، أي: التقدّم من الثورة الفرديّة إلى الصراع الاقتصادي المحلّي والقطاعي يكون عاماً، ثم يزداد تنظيماً عبر نقابات العمّال متحولاً إلى «صراع قومي واحد بين الطبقات»، لا بدّ من أن يكون هو أيضاً صراعاً سياسياً على السلطة. لذا، يجب أن يكون تنظيم العمال من حيث هم طبقة في حزب سياسي. وقد احتفظ بهذا التحليل جوهرياً في بقية حياة ماركس، بالرغم من تعديله تعديلاً بسيطاً في ضوء استقرار الرأسمال وتوسّعه بعد عام 1884، والاختبار الواقعي لحركات العمل المنظَّمة. وعندما تراجع توقع الأزمات الاقتصادية التي تعجِّل بثورة عمالية مباشرة، صار ماركس وإنجلز أكثر تفاؤلاً بإمكانية نجاح صراع العمال في إطار الرأسمالية بواسطة عمل نقابات العمال أو عبر تحقيق تشريع ملائم[23]، بالرغم من أن النقاش الذي يقول، إن أجور العمال يعتمد بمقدار ما على معيار مألوف أو معيار عيش مكتسب، وعلى قوى السوق، وسبق أن وضع خطوطه إنجلز في عام[24] 1845. وما ينتج عن ذلك ما هو إلا التطور السابق للثورة الخاص بالطبقة العاملة الذي ستكون مدته أطول مما أمل وتوقَّع ماركس وإنجلز قبل عام 1848.

في مناقشة هذه المسائل يصعب تجنّب، بل من الجوهري تجنّب قراءة النزاعات الجدلية الماركسية اللاحقة في نصوص الكتابات الطبقية السابقة. ففي حياة ماركس، كانت المهمة الأساسية، كما رآها إنجلز تتمثَّل في تعميم الحركة العمالية وتحويلها حركة طبقية، والإعلان عن الهدف المتضمَّن في وجودها، الذي هو إحلال الشيوعية محلّ الرأسمالية، وحالاً تحويلها إلى حركة سياسية، أي حزب طبقي عمالي منفصل عن جميع أحزاب الطبقات المالكة، ويستهدف احتلال السلطة السياسية. لذا، من الحيوي للعمال أن لا يحجموا عن العمل السياسي، ولا أن يسمحوا بأي فصل بين «حركتهم الاقتصادية ونشاطهم السياسي»[25]. ومن جهة أخرى، إن طبيعة ذلك الحزب ثانوية ما دام حزباً طبقياً[26]. وهذا يجب ألاّ يُخلط مع مفاهيم لاحقة «للحزب»، ولا توجد نظرية متَّسقة عنها في كتاباتها. والكلمة نفسها كان استعمالها الأولي بالمعنى العام جداً

في منتصف القرن التاسع عشر الذي شمل مؤيدي مجموعة خاصة من الآراء السياسية أو القضية السياسية والأعضاء المنظَّمين لجماعة أساسية. ومع أن ماركس وإنجلز، في خمسينات القرن التاسع عشر أكثرا من استعمال الكلمة لوصف العصبة الشيوعية، وجماعة **الجريدة الرينانية الجديدة** السابقة، أو بقايا الاثنتين، فإنهما أوضحا بعناية، أن العصبة مثل المنظمات الثورية السابقة «مجرد حَدَث في تاريخ الحزب، الذي تشكل عفوياً في كل مكان، وفي تربة المجتمع»، أي، «الحزب بالمعنى التاريخي الأوسع»[27]. وبهذا المعنى، يمكن لإنجلز أن يتكلم عن حزب العمّال كحزب سياسي «سبق وجوده في معظم الأقطار»[28] (1871). والأمر الواضح هو أن ماركس وإنجلز، بدءاً من سبعينات القرن التاسع عشر، أيدّا، حيث أمكن ذلك، تأسيس شكل من أشكال الحزب السياسي **المنظَّم**، ما دام هذا لا يكون طائفة وفي الأحزاب التي شكَّلها أتباعهما أو بتأثيرهما، استدعت مسائل التنظيم الداخلي، والبنية والنظام الحزبيين... إلخ، آراء ملائمة من لندن بشكل طبيعي. وحيث لا يوجد مثل هذه الأحزاب، استمر إنجلز في استعمال كلمة «حزب» لتعني مجموع الكتل السياسية (أي الانتخابية) المعبِّرة عن استقلال الطبقة العاملة، بصرف النظر عن تنظيمها، «لا يهم كيف ما دام حزب عمال منفصل»[29]. فقد أظهرا اهتماماً قليلاً باستثناء حالات عرضية، في مسائل بنية الحزب، وتنظيمه، أو سوسيولوجيا الحزب التي أشغلت المنظِّرين اللاحقين.

والعكس بالعكس، يجب تجنّب «الآداب» الطائفية... فالأهداف والميول العامة للطبقة العاملة تنشأ من الأحوال العامة التي تجد فيها نفسها. لذلك، فإن هذه الأهداف والميول موجودة في الطبقة كلها، بالرغم من أن الحركة موجودة في رأسيهما بأشكال مختلفة، وخيالية وذات صلة بتلك الأحوال. وأفضل من يفهم المعنى الخبيء للصراع الطبقي المتكشف أمام عيوننا – أعني الشيوعيين – هم آخر من يقترف خطأ الموافقة على الطائفية أو توسيعها [30](1870). يجب أن يكون هدف الحزب طبقة منظَّمة، ولم يَحِدْ ماركس ولا إنجلز أبداً عن إعلان **البيان الشيوعي** الذي يفيد بأن المجتمعات لا تؤلف حزباً منفصلًا مضاداً لأحزاب طبقية عمّالية أخرى، ولم يضعا أي مبادئ طائفية خاصة بهما لإضفاء شكل على الحركة البروليتارية وصياغتها.

كانت جميع مجادلات ماركس السياسية في سنواته الأخيرة دفاعاً عن المفهوم الثلاثي الآتي: (أ) حركة طبقية **سياسية** بروليتارية، (ب) ثورة لا تعتبر مجرد انتقال للسلطة مرةً وإلى الأبد، يتبعه مجتمع طائفي خيالي ما، بل كمرحلة حاسمة تبدأ بحقبة زمنية انتقالية معقَّدة ولا يمكن التنبؤ بها، و(ج) وأخيراً، الحفاظ الضروري على نظام

سلطة سياسية، هو شكل انتقالي وثوري للدولة[31]. ومن هنا معارضته المرّة للفوضويين الذي رفضوها كلياً.

لذا فإنه من العبث البحث في ماركس عن توقّع لمثل تلك النزاعات الجدلية كالتي حصلت بين «الإصلاحيين» (Reformists) و«الثوريين» (Revolutionaries)، أو قراءة كتاباته في ضوء نقاشات لاحقة بين اليمين واليسار في الحركات الماركسية. وإن قراءتها بذلك الشكل جزء من تاريخ الماركسية، لكنه ينتمي لكتاب لاحق من تاريخها. فالقضية عند ماركس ليست فيما إذا كانت الأحزاب العمالية إصلاحية أو ثورية، أو ما تتضمنه هذه المصطلحات أيضاً. فهو أدرك عدم وجود نزاع من الناحية المبدأية بين صراع العمال اليومي لتحسين أحوالهم في ظل الرأسمالية وتشكيل وعي سياسي تصوَّر استبدال المجتمع الرأسمالي بمجتمع اشتراكي، أو الأفعال السياسية المؤدية إلى تلك الغاية. فالقضية عنده تمثّلت في كيفية التغلّب على الأنواع المختلفة من عدم النضج التي منعت تطور الأحزاب الطبقية البروليتارية مثلاً، وأبقتها تحت تأثير أنواع مختلفة من الراديكالية الديمقراطية (ولذا تحت تأثير البورجوازية أو البورجوازية الصغيرة). أو عبر محاولة تشبيهها بمختلف أنواع الكيانات الخيالية أو بوصفات طبية مضمونة لتحقيق الاشتراكية، لكن، قبل كل شيء. بإبعادها عن الوحدة الضرورية بين الصراع الاقتصادي والسياسي ستكون مفارقة تاريخية عند تشبيه ماركس بجناح «يميني» أو «يساري»، أو «معتدل» أو «راديكالي» في الحركة العمالية الدولية أو في أيٍ حركة عمالية أخرى. ومن هنا الاستنتاج بأن لا علاقة للحجج - وهي غير صحيحة ومستحيلة - تلك التي تتحدث في أي موضع عن أن ماركس لم يعد ثورياً وصار من القائلين بالتدرّج.

الذي يشكل الانتقال الفعلي للسلطة، وبالتالي التحول اللاحق للمجتمع يعتمد على درجة تطور البروليتاريا وحركتها التي تعكس المرحلة التي توصَّل إليها التطور الرأسمالي وعملية تعلّمه الخاصة ونضجه بالتطبيق. وطبيعياً هو يعتمد على الوضع الاجتماعي - الاقتصادي والسياسي في زمنه. وبما أن ماركس لم يعتزم بشكل واضح أن ينتظر إلى أن تصير البروليتاريا أكثرية عددية كبيرة ويبلغ الاستقطاب الطبقي مرحلةً متقدِّمة، فمن المؤكَّد تصوّر الصراع الطبقي مستمراً بعد الثورة، وإن يكن «بأكثر الأشكال عقلانيةً وإنسانية»[32]. وقبل الثورة ولفترة غير محدَّدة بعدها، على البروليتاريا أن تتوقَّع أن تعمل سياسياً، كقلب للتحالف الطبقي وكقائدة له، وفائدتها تكون شكراً لمركزها التاريخي، «الاعتراف بها بأنها الطبقة الوحيدة القادرة على المبادرة

الاجتماعية»، بالرغم من أنها ما تزال أقلّية. ولا مبالغة في القول، إن ماركس اعتبر «دكتاتورية البروليتاريا» الوحيدة التي قام بتحليلها، كوميون باريس، هي المقدَّر لها، وبصورة مثالية أن تستمر من خلال جبهة شعبية مؤلفة من «جميع طبقات المجتمع التي لا تعيش على عمل الآخرين»، تحت قيادة العمال وهيمنتهم[33]. على كل حال، إن هذه أمور تختص بالتقييم المادي الحسّي. فهي تؤكد، على أن ماركس وإنجلز لم يعتمدا على عملية القوى التاريخية العفوية التلقائية، وإنما على العمل السياسي في حدود الإمكان التاريخي. وفي جميع مراحل حياتهما كانا يحلِّلان الأوضاع بطريقة متَّسقة، والعمل في عقليهما. لذا، لا بدَّ من النظر في تقييم هذه الأوضاع المتغيّرة.

يمكننا أن نميّز ثلاثة أطوار في تطور تحليلهما، هي: منذ منتصف أربعينات القرن التاسع عشر إلى منتصف خمسينات عام 1850، والسنوات الخمس والعشرين التي أعقبت عندما لم يَبْدُ نصر الطبقة العاملة الدائم على جدول الأعمال المباشر، ثم سنوات إنجلز الأخيرة، عندما بدا نشوء الأحزاب البروليتارية الواسعة وكأنه افتتح مشاهد انتقال في الأقطار الرأسمالية المتقدمة. أما في المواضع الأخرى، فقد ظلَّ تعديل التحليلات السابقة صحيحاً. وسوف نبحث في النواحي الدولية لاستراتيجيتهما ناحيةً ناحية أدناه.

مشهد عام (1848) قام على الافتراض الذي ثبتت صحته، والمفيد أن أزمةً ستحل بالأنظمة القديمة، وأنها ستؤدي إلى ثورة اجتماعية واسعة، وعلى الافتراض الذي ثبت بطلانه، والمفيد أن تطور الاقتصاد الرأسمالي قد استمر إلى الحدّ الذي يجعل ممكناً انتصار البروليتاريا، كحاصل لمثل تلك الثورة. ومهما كان تعريف طبقة العمال الواقعية، فإنها كانت في ذلك الوقت أقلية صغيرة من الشعب، باستثناء بريطانيا حيث - بعكس تنبؤ إنجلز - لم تحدث ثورة. علاوة على ذلك، فقد كانت غير ناضجة وغير منظَّمة، لذا فإن توقعات حدوث ثورة بروليتارية قامت على إمكانيتين. إمّا (كما سبق ماركس لينين في توقعاته، مع بعض النواحي - تكون عندما تثبت البورجوازية الألمانية عجزها أو عدم رغبتها للقيام بثورتها، وتأخذ قيادتها بروليتاريا جنينيّة يقودها مفكرون شيوعيون)[34]. أو (كما في فرنسا) يمكن متابعة التحويل الراديكالي للثورة البورجوازية التي ابتدأها اليعاقية.

واضح أن الإمكانية الأولى غير واقعية. أما الثانية، فما تزال ممكنة حتى بعد هزيمة 1848 - 1849. فقد اشتركت البروليتاريا في الثورة كعضو تابع، لكنه مهم في

التحالف الطبقي الممتد يساراً إلى أقسام من البورجوازية الليبرالية. في مثل هذه الثورة تنشأ إمكانيات التحول الراديكالي في مراحل مختلفة، عندما قرَّر المعتدلون أن الثورة تمادت، بينما رغب الراديكاليون في التشديد على المطالب «التي كانت أو بدت على الأقل بصورة جزئية أنها لمصلحة قطاع واسع من الشعب»[35]. في الثورة الفرنسية لم يُجدِ ذلك التحول الراديكالي إلّا في تعزيز انتصار البورجوازية المعتدلة. وعلى كل حال أقول، إن الاستقطاب الممكن للنزاعات الطبقية، في العصر الرأسمالي، كما في فرنسا في 1848 – 1849، بين طبقة بورجوازية رجعية موحَّدة وحاكمة الآن، وجبهة مؤلفة من جميع الطبقات الأخرى، متجمعة حول البروليتاريا، يمكنها لأول مرة، أن تجعل هزيمة البورجوازية مساعدة على جعل البروليتاريا «حكيمة بالهزيمة، وتحوّلها إلى عاملٍ حاسم، هذه الإشارة التاريخية إلى الثورة الفرنسية فقدت الكثير من أهميتها بنصر لويس نابوليون»[36]. ولا شك في أن الكثير – الكثير جداً في الحادث – توقَّف على الديناميكية الخاصة لتطور الثورة السياسي، لأن وراء الطبقات العاملة المستمرة، بما فيها الباريسية، كان تطوّر للاقتصاد الرأسمالي غير كافٍ أبداً.

لذا، فإن المهمة الرئيسية للبروليتاريا تتمثَّل في راديكالية الثورة الآتية، التي بعد أن تتحول البورجوازية إلى «حزب نظام»، فإن «الحزب الديمقراطي» الأكثر راديكالية سيظهر هو المنتصر. وهذا هو «حفظ الثورة دائمة» الذي هو الشعار الرئيسي للعصبة الشيوعية في خمسينات القرن التاسع عشر[37]، والذي صار الأساس لحلف قصير الأمد بين الماركسيين والبلانكيين (Blanquists). وكانت «البورجوازية صغيرة الجمهورية»، عند الديمقراطيين هي الأكثر راديكالية، لذا كانت الأكثر اعتماداً على الدعم البروليتاري. فهي مثّلت الطور التاريخي الذي يجب أن يضع ضغطاً أولياً على البروليتاريا، وأن تحاربه البروليتاريا. ومع ذلك، ظلَّت البروليتاريا أقليّة صغيرة، لذا احتاجت لحلفاء حتى عندما سعت إلى الحلول محلّ ديمقراطيي البورجوازية الصغيرة، كفائدة للحلف الثوري. ويمكننا بصورة عابرة أن نذكر أنه خلال 1848 – 1849، أساء ماركس وإنجلز مثل اليسار تقدير الطاقة الثورية أو الراديكالية للريف، الذي لم يهتما به إلا قليلًا. وبعد الهزيمة، وربما بدافعٍ من إنجلز (الذي كتابه: **حرب الفلاحين** *Peas-ant War*)، 1850 بيّن اهتماماً دقيقاً في الموضوع) راح ماركس يفكر على الأقل بالنسبة لألمانيا، «بنسخة ثانية عن **حرب الفلاحين**» لدعم الثورة البروليتارية (1856). فالتطور الثوري المتصوَّر على ذلك النحو، معقَّد وربما يكون طويلاً. ولم يكن ممكناً التنبؤ بالطور الذي يمكن أن تنشأ فيه «دكتاتورية البروليتاريا». على كل حال، إن النموذج الأساسي

له صورة الانتقال السريع تقريباً من طور ليبرالي أوّلي مروراً بطورٍ ديمقراطي راديكالي إلى طورٍ تقوده البروليتاريا.

وحتى حين الأزمة الرأسمالية العالمية في عام 1857، ظلَّ ماركس وإنجلز يأملان بنسخة جديدة منقَّحة عن عام 1848، والواقع أنهما توقّعا ذلك. وبعد ذلك، ولعقدين من الزمان تقريباً، فقدا الأمل بثورة بروليتارية ناجحة وشيكة، بالرغم من أن إنجلز حافظ على تفاؤله الشبابي الدائم أكثر من ماركس. ومما لا ريب فيه أنهما لم يتوقعا الكثير من كوميون باريس، وكانا حريصين على تجنّب بيانات متفائلة عنها خلال عمرها القصير. ومن جهة أخرى، نرى أن التطور العالمي السريع للاقتصاد الرأسمالي، خاصة ظاهرة التصنيع في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، راح يولِّد، زمانئذٍ، بروليتاريا واسعة في أقطار مختلفة. وقد عقدا آمالهما على القوة المتنامية للوعي الطبقي وعلى تنظيم حركات العمال تلك. غير أنه يجب ألاّ يُفترض أن ذلك بدَّل تبديلاً كثيراً في آرائهما السياسية. فكما كنا قد رأينا، إن الثورة الفعلية بمعنى انتقال السلطة (المفترض أن يكون عنفياً) يمكن أن يحدث في مراحل مختلفة في العملية الطويلة لتطور الطبقة العاملة، ويمكن أن يطلق بدوره عملية طويلة من الانتقال الما بعد الثوري. وإن تأخير الانتقال الفعلي للسلطة إلى طور لاحق للطبقة العاملة والتطور الرأسمالي سوف يؤثر، بلا شك في طبيعة الفترة الانتقالية اللاحقة، وبالرغم من أنها ستكون مخيّبة لأمل الثوار التوّاقين للعمل، فإنها لن تغيّر الطابع الجوهري للعملية المتنبّأة. ومع ذلك أقول إن المسألة الأساسية في هذه الفترة الخاصة بالاستراتيجية السياسية لماركس وإنجلز تمثَّلت في أنهما، بالرغم من رغبتهما في التخطيط لأي احتمال لم يعتبرا الانتقال الناجح للسلطة إلى البروليتاريا وشيكاً أو محتملاً.

إن تقدّم الأحزاب الاشتراكية الكبيرة خاصة بعد عام 1890، خلق لأول مرة إمكانية في بعض الأقطار المتطورة اقتصادياً، لانتقال مباشر إلى الاشتراكية تحت حكومات بروليتارية وصلت مباشرة، إلى السلطة. وقد حدث ذلك التطور بعد وفاة ماركس، لذلك نحن لا نعرف كيف كان يمكن أن يواجهه، بالرغم من وجود بعض الإشارات إلى فعل ذلك بأسلوب أكثر مرونة وأقل أرثوذكسية مما فعل إنجلز[38]. على كل حال، لمّا كان ماركس قد توفي قبل أن يصير الإغراء بتحديد هوية متطابقة مع حزب ماركسي كبير مزدهر خاص بالبروليتاريا الألمانية، فإن ذلك كان مجرد تخمين. وثمَّة بعض الأدلة على أن بيبِلْ هو الذي أقنع إنجلز بأن الانتقال المباشر إلى السلطة صار ممكناً زمانئذٍ عن طريق تجاوز الطور البورجوازي الراديكالي المباشر[39]، الذي كان

يحسب ضرورياً في الأقطار التي أخفقت في القيام بثورة بورجوازية. وفي كل الأحوال بدا منذئذٍ أن الطبقة العاملة لم تعد أقلية، مع وجود خط لها لتكون على رأس حلف ثوري واسع، بل هي طبقة واسعة متنامية لتصير أكثرية ومنظَّمة كحزب للجماهير قادر على حشد حلفاء في طبقات أخرى **حول ذلك الحزب**. وهنا يقع الفرق بين الوضع الجديد والوضع البريطاني (الذي ما يزال فريداً)، حيث شكَّلت البروليتاريا الأكثرية في اقتصاد رأسمالي حاسم، وحقَّقت «درجة معينة من النضج والشمولية»، لكنها أخفقت – لأسباب لم يزعج ماركس نفسه للبحث فيها – في تطوير حركة طبقية سياسية شبيهة[40]. لهذا المشهد الذي يُعرف بمشهد «ثورة الأكثرية» (Revolution of the Majority) التي يمكن تحقيقها عبر أحزاب اشتراكية من الجماهير، كرَّس إنجلز كتاباته الأخيرة، بالرغم من وجوب قراءة تلك الكتابات بمقدارٍ ما بوصفها ردود فعل على وضع (ألماني) خاص في تلك الفترة.

ثمَّة ثلاث مزايا فريدة خاصة بالوضع التاريخي الجديد الذي حاول إنجلز أن يتلاءم معه. ففي الواقع لم يكن هناك سابقة عن وجود أحزاب طبقية عالية اشتراكية واسعة الجمهور، من النوع الجديد، كما لم يوجد حزب من طراز ما صار يُعرف على نموٍ متزايد، بأنه حزب من أحزاب ديمقراطية اجتماعية قومية مفردة ليست متنافسة على اليسار، مثلما كان في ألمانيا. وكانت الأحوال التي سمحت لها بالنشوء والتطوّر، التي ازداد شيوعها بعد عام 1890 هي: الشرعية القانونية، والسياسة الدستورية وتوسيع حق التصويت. ونجم عن ذلك أن تغيّرت جوهرياً عندئذٍ المطامح الثورية، كما كانت تُتَصوَّر تقليدياً (وسوف تبحث التغيرات الدولية أدناه). وعكست النقاشات والنزاعات الجدلية في أوساط الاشتراكيين في عصر الأممية الثانية، المسائل التي نشأت من تلك التغيرات. ولم ينخرط إنجلز إلاّ جزئياً في مراحلها الأولى، ولا شك في أنها صارت حادّة بعد وفاته. والحق يُقال، إنه يمكن النقاش والقول، إنه لم يدرس درساً كاملاً ويستخلص المتضمنات الممكنة في الوضع الجديد. ومع ذلك، فإن آراءه لها صلة واضحة بها، وساعدت على إعطائها شكلاً، وكانت موضوع نقاش نصيّ، للاستحالة الكبيرة بتشبيهها بأي واحد من الاتجاهات المتباعدة.

الذي أثار نزاعاً جدلياً كان إصراره على الإمكانيات الجديدة المتضمَّنة في التصويت العام، وتخلّيه عن آراء العصيان المسلَّح – المصاغة بوضوح في إحدى كتاباته الأخيرة: **تحديث الصراع الطبقي في فرنسا عند ماركس** (*The Aggiornamento of Marx's Class Struggles in France*) (1895). وهو جمع لمسألتين كانتا موضع نزاع جدلي،

أي. القول، إن البورجوازية والحكومة الألمانيتين «تخشيان كثيراً من العمل القانوني أكثر من العمل اللاقانوني لحزب العمال، ومن النجاح في الانتخابات أكثر من الثورة»[41]. ومع ذلك فإنه، بالرغم من بعض الغموض في كتابات إنجلز الأخيرة، فمن المؤكَّد أن قراءته غير ممكنة إذا كانت تفيد موافقته على الأوهام القانونية والانتخابية أو تتضمنها، أعني أوهام الألمان اللاحقين، وديمقراطيين اجتماعيين آخرين.

وهو تخلّى عن الآمال القائمة على العصيان المسلَّح، لا لأسباب تقنية فحسب، بل أيضاً لأن النشوء الواضح للنزاعات الطبقية التي مكَّنت من وجود الأحزاب الجمهورية، هي أيضاً صعَّبت ظواهر العصيان القديمة التي تعاطفت معها جميع طبقات الشعب. وهكذا تستطيع الرجعة، الآن، أن تحشد دعماً من قطاعات أوسع في الطبقات المتوسطة، أي: «الشعب» سيبدو دائماً منقسماً، وبالتالي تختفي رافعة قوية كانت فعّالة في عام 1848[42]. ومع ذلك، رفض – حتى لألمانيا – أن يتخلّى عن الأفكار المتعلقة بالمجابهة المسلَّحة، وتنبّأ بتفاؤله المألوف والمفرط بحدوث ثورة ألمانية في الأعوام 1898 – 1904[43]. والواقع هو أن حجته المباشرة في عام 1895 كانت محاولة لإظهار ما لا يزيد على القول، إنه في الوضع آنذاك كان للأحزاب من طراز الحزب الديمقراطي الاجتماعي الكثير لكسبه عبر الاستفادة من إمكانياتها القانونية. لذا، فإن المجابهة العنفية والمسلَّحة قد يبادر بها جماعة العصيان المسلَّح، لكن ستكون من اليمين ضد الاشتراكيين. وهذا هو استمرار لمجرى حجةٍ سبق أن وضع خطوطها ماركس، في سبعينات القرن التاسع عشر بما يتصل بالأقطار التي لا يوجد فيها عقبة دستورية في طريق انتخاب حكومة قومية اشتراكية. فالفكرة هنا هي أن الصراع الثوري عندئذٍ، (كما حصل في الثورة الفرنسية والحرب الأهلية الأميركية) سيأخذ شكل قتال بين حكم «شرعي» و«ثوّار» ثوريين مضادين. فلا يوجد مسوغ للافتراض أن إنجلز لم يوافق ماركس على نظراته عندئذٍ، التي تقول: «لا وجود لحركة عظيمة ولدت من دون سفك دماء[45] فالواضح هو أن إنجلز لم يعتبر نفسه متخلّياً عن الثورة، وإنما اهتم بتكييف الاستراتيجيا والتكتيك الثوريين مع الوضع المتغيّر، كما فعل هو وماركس طوال حياتهما. إنه الاكتشاف المفيد أن نمو الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية لا يؤدي إلى شكل من أشكال المجابهة، بل إلى شكل من إدماج للحركة في النظام القائم، مما يلقي شكاً بتحليله.

من ناحية أخرى، كان واعياً وعياً دقيقاً بمخاطر الانتهازية – «التضحية بمستقبل الحركة بغية استغلال حاضرها»–[46] وبذل أقصى جهد لحماية الأحزاب من تلك الإغراءات عبر التذكير بالمبادئ الرئيسية والتجارب الخاصة بما صار يدعى «ماركسية»

وتنظيمها، عبر التوكيد على الحاجة «لعلم اجتماعي»[47] وعبر التوكيد على القاعدة البروليتارية الأساسية للتقدم الاجتماعي[48]، خاصة عبر وضع الحدود التي لا يسمح بتجاوزها بالتحالفات السياسية، والتسويات والتنازلات في البرامج سعياً لكسب دعم انتخابي[49]. ومع ذلك، فإن الحقيقة كانت – معاكسة لنيّة إنجلز – إسهاماً في الحزب الألماني في توسيع الفجوة بين النظرية والمبدأ من جهة، والممارسة السياسية الفعلية من جهة أخرى. فالذي حدث كان بمنزلة مأساة في السنوات الأخيرة لحياة إنجلز، كما يمكننا أن نرى أن تعليقاته النيرة والواقعية التي غالباً ما كانت ثاقبة الفكر حول الوضع المادي الحسّي للحركات، لم تستخدم للتأثير في ممارسة الأحزاب، بل لتعزيز مبدأ عام لا علاقة له بها. وقد برهن تنبؤه الذي كان مفرطاً في صحته ليس إلاّ: «ما يمكن أن تكون نتيجة كل هذا، سوى أن الحزب فجأة وفي لحظة القرار لن يعرف ما يفعل، أو أن هناك غموضاً وشكوكاً حول النقاط الأساسية الحاسمة، لأن هذه النقاط لم تبحث أبداً؟»[50].

مهما كانت مطامح حركة طبقة العمال، فإن الأحوال السياسية الملائمة للقبض على السلطة كانت معقَّدة بتحول السياسة البورجوازية غير المتوقَّعة، بعد هزيمة عام 1848م. وفي الأقطار التي قامت فيها ثورات، لم يتحقق نظام البورجوازية السياسي «المثالي»، والدولة البرلمانية الدستورية، أو (كما في فرنسا) حصل التخلّي عنه لبوناپارتيّة جديدة. وباختصار، إن الثورة البرجوزاية أخفقت في عام 1848 أو أدّت إلى أنظمة غير متوقَّعة قد تكون طبيعتها قد أشغلت ماركس أكثر من أي مسألة أخرى تتعلق بالدولة البورجوازية، أي: لدول تخدم بوضوح المصلحة البورجوازية، لكنها لا تمثلها مباشرة، كطبقة[51]. وهذا يطرح السؤال الأوسع، الذي لم تدرس فائدته، المتعلق بالعلاقات بين الطبقة الحاكمة وجهاز الدولة المركزي، التي تطورتها أصلاً الأنظمة الملكية المطلقة، التي قوَّتها الثورية البورجوازية بغية تحقيق «الوحدة البورجوازية للأمة»، التي كانت شرط التطور الرأسمالي، ولم تكن تميل دائماً لتأسيس استقلالها عن جميع الطبقات بما فيها البورجوازية[52]. (وهذه نقطة البداية للحجة التي تقول، إن البروليتاريا المنصرة لا تقدر أن تكتفي بالسيطرة على آلية الدولة، بل عليها أن تعمل على تدميرها). هذه الرؤية التي تقول بجمع الطبقة والدولة، والاقتصاد و«نخبة السلطة» (Power Elite)، عجلَّت بشكل واضح بحدوث الكثير من تطورات القرن العشرين. وهكذا كانت محاولة ماركس توفير البوناپارتيّة الفرنسية بأساس اجتماعي خاص، وفي هذه الحالة شمل الأساس فلاحي البورجوازية الصغيرة الما بعد الثوريين، أي طبقة «عاجزة» عن التأكيد على مصالحها الطبقية باسمها... فأفرادها عاجزون عن تمثيل أنفسهم، فيجب تمثيلهم.

ويجب أن يظهر ممثِّلهم، وفي نفس الوقت، كسيّد لهم، وكسلطة فوقهم، وكسلطة حكومية مطلقة تحميهم من الطبقات الأخرى، وترسل إليهم المطر ونور الشمس من عَلٍ»[53]. وهنا، يكون في هذا توقّع أشكال مختلفة من الشعبوية الدهمائية، والفاشية... إلخ.

أما أسباب شيوع مثل أشكال الحكم تلك، فلم يحلِّلها ماركس وإنجلز. وإن حجة ماركس التي تقول، إن الحكم الديمقراطي البورجوازي قد استنفذ إمكانياته، وإن النظام البونابارتي الذي هو الحصن الأخير في وجه البروليتاريا، سيكون أيضاً آخر شكل للحكم قبل الثورة البروليتارية[54]، التي برهنت على أنها كانت حجة خاطئة بشكل واضح وبصورة أعم. فهناك نظرية «توازن طبقي» (Class-Balance) لأنظمة بونابارتيّة أو مطلقة صاغها إنجلز في نهاية المطاف [ورئيسياً في كتاب: **أصل الأسرة**] مشادة على صياغات مختلفة وضعها ماركس، ومستمدّة من التجربة الفرنسية. وتتراوح تلك ما بين التحليل المصقول في كتاب: **الثامن عشر من بروميرا** (*18th of Brumaire*) عن كيف عملت المخاوف والانقسامات الداخلية في حزب النظام في الأعوام 1849 1851، وعلى «تدمير شروط نظامها الخاص، والنظام البرلماني في سياق صراعه ضد طبقات المجتمع الأخرى»، وإلى بيانات مبسَّطة تفيد أنه استند إلى «إرهاق وعجز الطبقتين المتنازعتين في المجتمع»[55]، ومن ناحية أخرى أقول، إن إنجلز، الذي كان في أغلب الأحيان متواضعاً، من الوجهة النظرية، كان أيضاً تجريبياً حسّياً، واصل الكلام في الفكرة التي تفيد أن البونابارتيّة كانت مقبولة من البورجوازية، لأنها لم تردْ أن تزعج نفسها بها، أو لأنها لا تملك المقدرة على حكمها مباشرة[56]. وبما يتصل بالموضوع أذكر بسمارك الذي سخر من البونابارتيّة عندما وصفها بالقول، إنها «دين البورجوازية»، وقال، إن هذه الطبقة تستطيع (كما حصل في بريطانيا) أن تدع الأقلية الأرستقراطية تقوم بإدارة الحكم الفعلي لمصلحتها هي، أو في حالة عدم وجود مثل تلك الأقلية فإنها تتبنى «بونابارتيّة شبه – دكتاتورية» لتكون شكل الحكم «العادي». هذه التلميحة المثمرة لم توسَّع إلاّ لاحقاً، وذلك بالعلاقة مع خصوصيات التواجد المشترك البورجوازي – الأرستقراطي في بريطانيا[57]، ولكن كملاحظة عرضية ثانوية. وفي ذات الوقت وبعد عام 1870، أبقى ماركس وإنجلز، أو عادا إلى التأكيد على الطابع البرلماني – الدستوري للنظام البورجوازي النموذجي.

غير أن السؤال هو: ما الذي سيحلّ بالمنظور البورجوازي القديم للثورة، الذي ستضفى عليه راديكالية وتتجاوزه «الثورة الدائمة» في الدول حيث هزم عام 1848 وأعيد تأسيس الأنظمة القديمة؟ وبأحد المعاني يمكن القول، إن الحقيقة التي تفيد أن

الثورة حدثت هي ذاتها برهنت على أن المسائل التي طرحتها يجب حلّها، أي: «المهمات الواقعية للثورة [بوصفها تاريخية] ومتميّزة عن الأوهام، تُحلّ دائماً نتيجة لها»[58]. وفي هذا المثل تمَّ حلّها «بواسطة منفِّذيها الأوصياء، بونابارت (Bonaparte)، كافور (Ca-vour) وبسمارك. وبالرغم من أن ماركس وإنجلز أدركا هذه الحقيقة، ورحَّبا بها أيضاً - بمشاعر مختلطة - فإنهما في الحالة البسماركية «التقدّمية من الناحية التاريخية» التي أنجزت الوحدة الألمانية، لم يبحثا في ما تضمنته من نتائج. وهكذا نرى أن دعم خطوة «تقدمية من الوجهة التاريخية» تتخذها قوة رجعية، قد يتناقض ويتنازع مع دعم حلفاء سياسيين في اليسار الذين عارضوها. والواقع يفيد أن ذلك حصل حول موضوع الحرب الفرنسية - الألمانية، التي عارضها لايبكنخت (Leibknecht) وبيبل استناداً إلى أسس مضادة للبسماركية (وكانا مدعومين من أكثرية اليسار الخارج من عام 1848)، في حين أن ماركس وإنجلز مالا لتأييدها بصورة شخصية إلى حدّ ما[59]. ثمّة خطر في دعم «إنجازات تقدمية تاريخية»، من دون اعتبار منفذيها، إلاّ في وقتٍ متأخر (ex post facto) (وقد خلَّصت كراهية ماركس لنابوليون الثالث واحتقاره له من معضلات تقلق بالتوحيد الإيطالي).

على كل حال، إن الأخطر تمثَّل في السؤال عن كيفية تقييم التنازلات الأكيدة التي حصلت من فوق للبورجوازية (مثلاً من قِبَل بسمارك)، التي تُدعى أحيانا «بالثورات من فوق»[60] وبالرغم من أن إنجلز اعتبرها مما لا يمكن اجتنابه من الوجهة التاريخية، فإنه تجنّب النظرة التي تقول إنها مؤقتة - أما ماركس فكتابته عن هذا الموضوع كانت قليلة. فإما اضطر بسمارك للتوجه إلى حلّ بورجوازي، أو البورجوازية الألمانية «اضطرت مرةً أخرى أن تقوم بواجبها السياسي لمعارضة النظام الحالي، فيمكن في الأخير أن يكون هناك بعض التقدم من جديد»[61]. وتاريخياً كان محقّاً، إذ في الخمسة والسبعين عاماً اللاحقة، أزيحت التسوية البسماركية وسلطة جنكر (Junker)، وإن يكن بطرق لم يتنبأها. على كل حال، في المدى القصير - وفي نظريتهما العامة عن الدولة - لم يتفق ماركس وإنجلز مع الحقيقة المفيدة أن حلول التسوية في الأعوام 1849 1871 كانت عند معظم الطبقات البورجوازية الأوروبية تُعادلُ جوهرياً عام 1848، وليست بديلاً ضعيفاً له. فلم تظهر سوى علامات قليلة من الرغبة أو الحاجة لمزيد من السلطة - أو لدولة بورجوازية أكمل - كما ألمح إلى ذلك إنجلز نفسه.

في ظلّ هذه الظروف، استمر القتال «لديمقراطية بورجوازية»، لكن من دون محتواها السابق الشامل ثورة بورجوازية. وبالرغم من أن ذلك القتال كانت إدارته

المتزايدة من قِبلَ قيادة الطبقة العاملة، وكسب حقوقاً يسَّرت كثيراً تحريك وتنظيم أحزاب الطبقة العمّالية الواسعة، لم يوجد دليل على نظرة إنجلز اللاحقة المفيدة أن الجمهورية الديمقراطية، وهي «الشكل (Konsequente) المنطقي للحكم البورجوازي» سيكون هو أيضاً الشكل الذي سيتم فيه استقطاب النزاع بين البورجوازية والبروليتاريا ويُنهى[62]. وإن طابع الصراع الطبقي والعلاقات البورجوازية - البروليتارية في داخل الجمهورية الديمقراطية أو ما يعادلها، ظلَّ غامضاً. وبإيجاز، إنه لا بدَّ من التسليم بأن مسألة البنية السياسية للدولة البورجوازية ووظيفتها في رأسمالية متطوّرة ومستقرّة لم تنلْ بحثاً منظَّماً، في كتابات ماركس وإنجلز في ضوء التجربة التاريخية للأقطار المتطورة بعد عام 1849 وهذه الحقيقة لا تلغي الألمعيّة والعمق في رؤاهما وملاحظاتهما في قضايا عديدة.

على كل حال، إنه للنظر في تحليل ماركس وإنجلز السياسي من دون بعده الدولي هو بمنزلة عطيل (Othello) كما لو أنه يحدث في مدينة فينيسيا. فقد فهما الثورة، وبصورة جوهرية، على أنها ظاهرة دولية، لا مجرد مجموعة من التحوّلات القومية. فكانت استراتيجيتها دولية. فلم يكن خطاب ماركس التدشيني الافتتاحي في الأممية الأولى بلا قصد، لذا نجده قد اشتمل على دعوة الطبقات العمالية للنفوذ في خفايا السياسة الدولية، والاشتراك النشيط فيها.

لم تكن للسياسة والاستراتيجية الدوليتان والاستراتيجية تأثير جوهري في فرص البقاء لأي ثورة لوجود نظام دولة على المستوى العالمي، فحسب، وإنما بشكل أعم لأن تطوّر الرأسمالية العالمية يتقدم عبر تشكيل وحدات اجتماعية - سياسية منفصلة، كما يتضمنه استعمال ماركس التبادلي لمصطلحي «مجتمع» وأمة[63]. والعالم الذي خلقته الرأسمالية وإن يكن في حالة توحّد متزايد، فإنه مؤلف من «أمم ذات اتكال متبادل» (**البيان الشيوعي**). علاوة على ذلك، إن حظوظ الثورة تعتمد على نظام العلاقات الدولية، لأن التاريخ، والجغرافيا، والقوة غير المتساوية والتطوّر غير المتساوي يجعل تطوّره في كل قطر على حساب ما يحصل في مكان آخر، أو يعطيه طنيناً دولياً.

ويجب عدم الخلط بين اعتقاد ماركس وإنجلز بالتطور الرأسمالي عبر عددٍ من الوحدات («القومية») المنفصلة، بالاعتقاد الذي كان دُعى زمانئذٍ «مبدأ القومية»، ويدعى اليوم «القومية». وبالرغم من أنهما وجدا نفسيهما ملتحقين بيسار ديمقراطي - جمهوري قومي بشكل عميق، لأن ذلك كان اليسار الوحيد الفعّال قومياً أو دولياً قبل عام 1848 وخلاله، فإنهما رفضا القومية وحق الأمم في تقرير مصيرها، كغاية في حدّ ذاتها، مثلما رفضا الجمهورية الديمقراطية كغاية في ذاتها[64]. والكثير من أتباعهما أهمل رسم الخط الفاصل

بين الاشتراكيين البروليتاريين والديمقراطيين (القوميين) في البورجوازية الصغيرة. وكون إنجلز لم يفقد بعضاً من القومية الألمانية في شبابه، فإن ما يتصل بها من الانحيازات والأضرار القومية خاصة ضد السلافيين (Slavs)، هي معرفة شائعة[65]. (غير أن ماركس لم يكن متأثراً بمثل تلك المشاعر). ومع ذلك، فإن اعتقاده بالطابع التقدّمي للوحدة الألمانية، أو بتأييد الفوز الألماني في الحروب، لم يكن مبنيّاً على القومية الألمانية، بالرغم من سعادته كألماني. وفي معظم حياتهما اعتبر ماركس وإنجلز فرنسا، وليس وطنهما، هي الفاصلة في الثورة. وموقفهما من روسيا - التي كانت الهدف الرئيسي لهجومهما وإزدرائهما - تبدَّل عندما صارت الثورة الروسية ممكنة.

لذا، يمكن نقدها لتقليلهما من أهمية القوة السياسية للقومية في وطنهما، ولعدم توفيرها تحليلاً وافياً لتلك الظاهرة، وليس لتناقض سياسي أو نظري. فلم يكونا لصالح الأمم بوصفها أمماً، ولا لصالح تقرير المصير لأي من القوميات أو لها بوصفها قوميات. وكما لاحظ إنجلز بواقعيته المعتادة: «لا يوجد قطر في أوروبا لا تخضع فيه قوميات مختلفة للحكم نفسه... والمرجَّح ستكون كذلك، بصورة دائمة»[66]. وقد أدركا بوصفهما محلِّلين أن المجتمع الرأسمالي تطوَّر عن طريق تبعيّة المصالح المحلية والإقليمية لوحدات أكبر - وقد يكونا قد أملا بدءاً من **البيان الشيوعي** وما بعده أن يكون التطور إلى مجتمع عالمي حقيقي في نهاية المطاف. وأدركا في المشهد التاريخي تشكّل عدد من «الأمم» كانت تعمل عبرها تلك العملية والتقدم التاريخيان، ولذلك السبب رفضا المقترحات الفيدرالية الرامية «إلى الحلول محلّ تلك الوحدة الشاملة شعوباً عظيمة، التي أصبحت اليوم عاملاً قوياً من عوامل الإنتاج الاجتماعي. وإن تكن قد تمَّت أصلاً بالقوة»[67]. وفي البداية، عرفا ووافقا على غزو الأمم البورجوازية المتقدمة للمناطق المتخلِّفة في آسيا وأميركا اللاتينية لأسباب شبيهة. وكذلك وافقا على أن أمماً صغيرة عديدة ليس لها مسوغ للوجود المستقل، وأن بعضها يمكن أن يزول كقوميات، هذا بالرغم من أنهما هنا لم يريا بعض العمليات المضادة في ذلك الوقت، كما حصل في أوساط التشيكيين (Czechs). وكما أوضح إنجلز لبيرنشتاين[68]، إن المشاعر الشخصية ثانوية، لكن عندما تتطابق مع الرأي السياسي (كما قال إنجلز عن التشيكيين)، فإنها تترك متَّسعاً واسعاً وغير ملائم للتعبير عن الانحياز القومي، ولما دعاه لينين «شيوفينية القومية العظمى»[*] (Great Nation Chauvinism) - كما سيظهر لاحقاً.

ومن جهة أخرى، إن ماركس وإنجلز، بوصفهما سياسيين ثوريين فضلا تلك

(*) الشوفينية تعني الغلوّ في القومية أو الوطنية (المترجم).

الأمم والقوميات الصغيرة أو الكبيرة، التي ساعدت حركاتها الثورية موضوعياً، وعارضا تلك التي وجدت نفسها موضوعياً في جانب الرجعة، ومبدئياً اتخذا الموقف ذاته من سياسات الدول. لذا، كان الإرث الرئيسي الذي تركاه لمن جاء بعدهم المبدأ الثابت الذي يقول، إن الأمم وحركات التحرّر القومي يجب أن لا يعتبرا غايات في حدّ ذاتها، وإنما في علاقتهما بالثورة العالمية، لجهة عمليتها ومصالحها واستراتيجياتها. وفي معظم النواحي الأخرى، تركا إرثاً من المسائل، ناهيك من عددٍ من الأحكام المنتقصة من قيمتها، التي اضطر الاشتراكيون لتفسيرها في محاولتهم إنشاء حركات في الشعوب وصفها الآباء المؤسسون (ماركس وإنجلز) بأنها لا تاريخية، رجعية أو مَيْتة. وباستثناء المبدأ الأساسي، تُرك الماركسيون اللاحقون ليقوموا بإنشاء نظرية عن «المسألة القومية» مع عددٍ قليل من الكتابات الكلاسيكية. ولا بدَّ من أن يذكر أن ذلك لم يكون عائداً للظروف التاريخية العظيمة والتغيّر في العصر الإمبريالي فحسب، ولكن أيضاً لفشل ماركس وإنجلز في تطوير أوسع من مجرد تحليل جزئي للظاهرة القومية.

لقد حدّد التاريخ المراحل الثلاث الرئيسية لاستراتيجيتها الثورية الدولية، هي: إلى عام 1848 وذلك العام، الأعوام 1848 – 1871، ومنذ عام 1871 إلى وفاة إنجلز.

المرحلة الحاسمة لثورة المستقبل البروليتارية تشمل منطقة الثورة البورجوازية والتطور الرأسمالي المتقدِّم، أي في فرنسا، وبريطانيا، والأراضي الألمانية والولايات المتحدة. ولم يُظهر ماركس وإنجلز سوى الاهتمام القليل والعَرَضي بالأقطار التي لم تكن سياسياً «تقدّمية»، إلى أن استدعى تطوّر الحركات الاشتراكية هناك تعليقات على شؤونها. ففي أربعينات القرن التاسع عشر أمكن توقّع حدوث الثورة في تلك المناطق، وقد حدثت فعلاً، بالرغم من أنها كما أدرك ماركس[69] انتهت بالفشل، لعدم اشتراك بريطانيا فيها. ومن ناحية أخرى، إنه باستثناء بريطانيا لم توجد حركة بروليتارية أو بروليتارية طبقية حقيقية بعد.

في الجيل الذي كان بعد عام 1848، أنتج التصنيع السريع طبقات متنامية وحركات بروليتارية، إلاّ أن توقّع ثورة اجتماعية في المنطقة «التقدمية» ازداد عدم احتماله. وكانت الرأسمالية مستقرة. ولم يكن ماركس وإنجلز في غضون تلك الحقبة الزمنية يأملان إلاّ بحدوث توحيد ما بين توتّر سياسي داخلي ونزاع دولي قد يولِّد وضعاً يمكن للثورة أن تنشأ منه، كما حدث في فرنسا، ما بين 1870 – 1871. وفي الحقبة الأخيرة، التي هي حقبة أزمة رأسمالية أيضاً على المستوى العالمي، تبدَّل الوضع. وفي المقام الأول، إن أحزاب

الطبقة العمالية الواسعة التي كانت تحت التأثير الماركسي، حوَّلت توقّعات التطور الداخلي في الأقطار «المتقدمة». ثانياً، ظهر عنصر جديد للثورة الاجتماعية في أطراف المجتمع الرأسمالي المتطوِّر، في إيرلندا وروسيا. وكان أول وعي ماركس لكليهما حوالي الوقت ذاته، في أواخر ستينات القرن التاسع عشر. (وكانت أول إشارة إلى إمكانيات حدوث ثورة روسية، في عام 1870)[70]. ومع أن إيرلندا لم تعد تقوم بدور كبير في حسابات ماركس، بعد انهيار الفنيانيّة[71] (Fenianism)، وتزايد أهمية روسيا، أي: ثورتها قد «تعطي إشارة للعمال ليقوموا بثورتهم في الغرب، لذا، هما متكاملتان» (1882)[72]. أما الأهمية الرئيسية للثورة الروسية فتَمْثُلُ في تحويلها الوضع في الأقطار المتطورة.

تلك التبدّلات في مشاهد الثورة حدَّدت تغيرّاً رئيسياً في موقف ماركس وإنجلز من الحرب. فلم يعودا سلاميين معارضين للحروب مبدئياً، مثلما لم يكونا ديمقراطيين جمهوريين أو قوميين مبدئياً. وبما أنهما عرفا أن الحرب هي، بحسب نظرية كلوزويتز (Clausewitz) «استمرار للسياسة بوسائل أخرى» فإنهما لم يعتقدا بالسببيّة الاقتصادية الحصرية للحرب، في حياتهما على الأقل[73]. وباختصار ففي المرحلتين الأولى والثانية توقّعا أن تتقدم الحرب بقضيتهما مباشرةً، وأدى الأمل بالحرب دوراً رئيسياً أحياناً في حساباتهما. ومنذ أواخر سبعينات القرن التاسع عشر وما أعقبها، اعتبر الحرب العامة عقبةً في تقدّم الحركة على المدى القصير - أما التحوّل فقد حصل في (1879-1880) [74]. علاوة على ذلك، ازداد إقتناع إنجلز في سنواته الأخيرة بالطابع المرعب للحرب العالمية الجديدة والممكنة التي تنبّأ بها. وتنبّأ أن تكون لها «نتيجة واحدة أكيدة هي: مجازر جماعية غير مسبوقة، واستنفاد لأوروبا لدرجة لم يسمع بها أحد من قبل، وأخيراً انهيار النظام القديم كله» (1886)[75]. وتوقَّع أن تنتهي مثل هذه الحرب بنصر الحزب البروليتاري، لكن بما أن الحرب «لم تعد ضرورية» (1886) لإنجاز الثورة أمل «أننا سوف نتجنَّب هذه المجزرة، كلها» (1885)[76].

ثمَّة سببان رئيسيان يشرحان لماذا كانت الحرب في البداية تشكل جزءاً ضرورياً ولا يتجزأ من الاستراتيجية الثورية، بما في ذلك استراتيجية ماركس وإنجلز. **أولاً**، كان التغلّب على روسيا ضرورياً، التي كانت الحصن الرئيسي للرجعية الأوروبية، والضامن للوضع القائم المحافظ والمجدِّد له. وكانت روسيا نفسها في تلك المرحلة منيعة ضد التدمير الداخلي باستثناء طرفها الغربي في بولندا، التي أدت لذلك السبب، ولزمنٍ طويل دوراً رئيسياً في استراتيجية ماركس وإنجلز الدولية. فالثورة تضيع ما لم تتحوَّل إلى حرب تحرير أوروبية ضد روسيا، ومثل هذه الحرب سيوسع مدى الثورة عبر تفكيك

الإمبراطوريات الأوروبية الشرقية. وقد كتب إنجلز في عام 1851 قائلاً: إن ثورة 1848 امتدَّت إلى وارسو (Warsaw)، وديبرريزن (Debreczen) وبوخارست (Bucharist)، ولا بدَّ من أن تمتد الثورة الآتية إلى بيترزبيرغ (Petersburg) والقسطنطينية (Constan-tinople)[77]. ولا مفرَّ من أن يشمل مثل هذه الثورة إنجلترا، الخصم الدائم لروسيا في الشرق، التي يجب أن تقاوم السيادة الروسية في أوروبا، وفي هذا مصلحة إضافية وحاسمة في تدمير العامود الكبير الآخر للواقع الماثل المتمثّل في بريطانيا الرأسمالية المستقرة المسيطرة على السوق العالمي - وربما وضع الوثيقيين (Chartists to Power) في السلطة[78]. فكانت هزيمة روسيا الشرط الدولي الجوهري للتقدّم. وقد تكون الحملة التي استخوذت على ماركس ضد وزير الخارجية البريطاني بالمرستون (Palmerston) قد لوَّنتها خيبة أمله من رفض بريطانيا تمزيق توازن السلطة الأوروبي تمزيقاً أساسياً عن طريق حرب شاملة، إذ، في حال غياب ثورة أوروبية - وحتى في حال وجودها - تكون الحرب الرئيسية ضد روسيا، من دون إنجلترا، مستحيلة. وعكس ذلك صحيح، فعندما تصير الثورة الروسية ممكنة، فإن مثل تلك الحرب لا تعود شرطاً ضرورياً للثورة في الأقطار المتقدمة، بالرغم من أن فشل الثورة الروسية في الحدوث في حياة إنجلز أغراه من جديد لاعتبار روسيا الحصن الأخير للرجعية.

ثانياً، مثل تلك الحرب كان السبيل الوحيد لتوحيد الثورات الأوروبية وجعلها راديكالية، وهذه عملية وفّرت لها الحروب الثورية الفرنسية في تسعينات القرن الثامن عشر سابقة شبيهة. ففرنسا الثورية العائدة إلى التقاليد اليعقوبية (Jacobinism) هي القائد الواضح لمثل هذا التحالف الحربي ضد القيصرية، وذلك لأن فرنسا هي التي ابتدأت بالثورة الأوروبية ولأنها تملك أقوى جيش ثوري. وقد أصيب هذا الأمل بخيبة في عام 1848، ومع أن فرنسا استمرت في القيام بدور حاسم في حسابات ماركس وإنجلز، فإن فرنسا بدءاً من ستينات القرن التاسع عشر وما بعدها لم تعد تؤدي الدور المركزي الذي خُصِّص لها سابقاً في الثورة الأوروبية - وتجدر الإشارة إلى أن ماركس وإنجلز استخفّا باستفزاز الإمبراطورية الثانية وإنجازاتها، وتوقّعا سقوطها الوشيك.

غير أنه، إذا كان ينظر إلى الحرب في حقبة عام 1848 أنها الحاصل المنطقي للثورة الأوروبية ولامتدادها، وشرط نجاحها أيضاً، فقد وجب أن ينظر إليها في السنوات العشرين اللاحقة أنها أهم أمل لزعزعة الوضع الراهن، وبالتالي إطلاق التوتّرات الداخلية داخل الأقطار. أما الأمل بتحقيق ذلك عبر أزمة إقتصادية فقد ولّى في عام 1857[79]. لذا، فإن ماركس أو إنجلز لم يعقد أي منهما إطلاقاً آمالاً شبيهة وقصيرة

الأمد بصورة جدّية على أي أزمة اقتصادية، ولا حتى في عام 1891 أيضاً[80]. فقد كان حسابهما صحيحاً، أي: كان لحروب تلك الحقبة الزمنية النتيجة المتنبّأ بها، وإن لم يكن بالشكل الذي أمله ماركس وإنجلز، لأنهما لم يجلب أي ثورة في أي قطر أوروبي رئيسي باستثناء فرنسا، التي تغيّر دورها كما رأينا. لذا، فإن ماركس وإنجلز كما قيل سابقاً، كانا عندئذٍ مضطرين اضطراراً متزايداً للدخول في موقع جديد قوامه تطرف السياسات الدولية للقوى الموجودة، وجميعها كان بورجوازياً أو رجعياً.

ولا شك في أن ذلك مسألة أكاديمية، ما دام ماركس وإنجلز ظلاّ عاجزين عن التأثير في سياسات نابوليون الثالث، وبسمارك أو أي رجل دولة آخر، ولم يكن هناك حركات اشتراكية وعمالية على الحكومات أن تحسب حساب موقفها. علاوة على ذلك فبالرغم من أن السياسة «التاريخية التقدمية» هي واضحة أحياناً - يجب مقاومة روسيا ويجب دعم الشمال ضد الجنوب في الحرب الأهلية الأميركية - فإن التعقيدات الأوروبية تركت فسحة غير محدودة للجدل والتأمل العقيمين وليس واضحاً أن ماركس وإنجلز كانا محقين أكثر من لاسّال في موقفهما الذي اتَّخذاه تجاه الحرب الإيطالية في عام 1859[81]، بالرغم من أن المواقف التي اتخذها الطرفان لم تكن بذات أهمية في ذلك الزمن. فعندما توجد أحزاب اشتراكية لها جماهيرها تشعر أنها ملزمة على تقديم دعم لدولة بورجوازية متصارعة مع دولة أخرى، فإن النتائج السياسية لمثل تلك النقاشات الجدلية تصير خطرة.

ولا شك في أن أحد الأسباب الذي جعل إنجلز الأخير (وحتى ماركس الأخير) يبدأ في العدول عن الحسابات المفيدة أن الحرب الدولية قد تكون أداة ثورية، تمثَّل في الاكتشاف بأن ذلك سيؤدي إلى «انفجار جديد للشوفينية وتفشيها في جميع الأقطار»[82] مما يخدم الطبقات الحاكمة ويضعف الحركات النامية زمانئذٍ.

إذا لم تكن التوقعات الثورية في فترة ما بعد عام 1848 متحققة، فإن سبب ذلك يعود إلى أن بريطانيا كانت الحصن الرئيسي للاستقرار الرأسمالي، كما كانت روسيا حصن الرجعية. «فروسيا وإنجلترا هما حجر الزاوية الأساسيان والكبيران للنظام الأوروبي الواقعي»[83]. وفي المدى الطويل، لن يتحرك البريطانيون إلاّ عندما يكون احتكار بلادهم العالمي في نهايته، وقد بدأ هذا يحصل في ثمانينات القرن التاسع عشر، وقد حلَّله إنجلز في مناسبات مختلفة كما رحَّب به. وعندما دمَّر توقع الثورة الروسية أحد حجري الزاوبة للنظام، فإن نهاية احتكار بريطانيا العالمي دمَّر حجر الزاوية الآخر، بالرغم من

أن توقّعات إنجلز الخاصة بالحركة البريطانية، في تسعينات القرن التاسع عشر، ظلّت متواضعة[84]. وأمل ماركس «بتسريع الثورة الاجتماعية في إنجلترا»، واعتبره أهم مهمة للأممية الأولى عبر إيرلندا – وهي ليست غير واقعية، لأنها «البلاد الوحيدة التي فيها تطوَّرت الشروط المادية لثورة (الطبقة العاملة) إلى درجة معينة من النضج»[85]. فقد قسّمت إيرلندا العمال البريطانيين عنصرياً، ووفرت لهم مصلحة مشتركة واضحة تمثَّلت في استغلال شعب آخر وتوفير الأساس الاقتصادي للقلّة الإقطاعية البريطانية، التي يجب أن يكون إسقاطها الخطوة الأولى في مسيرة التقدم البريطاني[86]. وإن الاكتشاف المفيد أن وجود حركة تحرر قومي في مستعمرة زراعية، قد يصير عنصراً حاسماً في تثوير إمبراطورية متقدّمة، هو الذي جعل ماركس يتوقّع التطورات في عهد لينين. وليست بالمسألة العرضية أن يكون ذلك قد ارتبط في عقل ماركس بالاكتشاف الجديد الآخر، وهو إمكانية حدوث ثورة في روسيا الزراعية[87].

في الطور الأخير لاستراتيجية ماركس، وبدقة أكبر أقول، استراتيجية إنجلز، كان الوضع الدولي قد تحوَّل تحوّلاً أساسياً عبر الكساد الاقتصادي الرأسمالي العالمي الطويل، وانحسار احتكار بريطانيا العالمي، والتقدّم الصناعي المستمر لألمانيا والولايات المتحدة، واحتمال حدوث ثورة في روسيا. ووعلاوة على ذلك، ولأول مرة منذ عام 1815، كان اقتراب حرب عالمية مرئياً، وقد لاحظه وحلَّله إنجلز بفطنةٍ نبوئيّة مدهشة ومعرفة عسكرية. ومع ذلك، أقول كما كنا قد قلنا، إن السياسة الدولة للقوى أدّت في ذلك الزمن دوراً أصغر بكثير مما كان، أو أقول دوراً سلبياً، في حساباتهما. فقد نُظر إليها، وبصورة رئيسية، في ضوء تداعياتها على حظوظ الأحزاب الاشتراكية النامية، وبوضعها عقبة، في طريق تقدّمها لا دعماً له.

وبمعنى ما أقول، إن اهتمام إنجلز بالسياسة الدولية كان مركّزاً تركيزاً متزايداً على داخل الحركة العمالية التي كانت منظَّمة كحركة دولية في سنين حياته الأخيرة. وذلك، لأن أفعال كل حركة يمكن أن تعزِّز تقدِّم أو تمنع الحركات الأخرى. وهذا واضح في كتاباته، لكن علينا أن نستخلص كثيراً من قراءة مقارنته العرضية للوضع في تسعينات القرن التاسع عشر مع الوضع السابق لعام 1849[88]. وبالإضافة إلى ذلك، كان من الطبيعي الافتراض أن حظوظ الاشتراكية ستتحدَّد في أوروبا (في غياب حركة قوية في الولايات المتحدة)، واعتماداً على الحركات الموجودة في الدول القارّية الرئيسية، التي تشمل روسيا أيضاً (في غياب حركة قوية في بريطانيا). ورغم الترحيب بالحركات الآتية، فإن إنجلز لم يعمل فكره طويلاً فيها، أعني: الحركات في اسكاندينافيا -Scan)

(dinavia أو في هولندا، ولم يكن أيّ منها في البلقان (Balkans)، عملياً، واعتبر إنجلز الحركات في الأقطار المستعمرة مجرد مشاهد ثانوية لا علاقة لها أو نتائج للتطورات في العواصم. وباستثناء تجديد تأكيده على المبدأ الأول المفيد أن «البروليتاريا المنتصرة لا تستطيع أن تفرض أي نوعٍ من «السعادة» على أي شعب من دون أن تدمر نصرها الخاص ذاته» (المرجع السابق، ص 358)، فإنه لم يبحث مسألة تحرر المستعمرات، بحثاً جدّياً[89]. والحق يُقال، إنه لأمرٌ مذهل ذلك المقدار الضئيل من الانتباه الذي خصَّصه لتلك المسائل التي فرضت نفسها على اليسار الدولي على صورة الجدل الكبير حول الإمبريالية، حالما نُثر رفاته. فقد قال بيرنشتاين في عام 1882: «علينا أن نعمل لتحرير البروليتاريا الأوروبية الغربية، وإلحاق جميع الأهداف الأخرى بهذه الغاية»[90].

في المنطقة المركزية للتقدّم البروليتاري، صارت الحركة الدولية تخص الأحزاب القومية، وكان عليها أن تصير كذلك، خلافاً لما كان قبل عام 1848[91]. فطرحت هذه الحالة مسألة التنسيق في عملياتها وما العمل بالنزاعات التي تنشأ من مطالب قومية خاصة وافتراضات في الحركات المفردة. فبعضها يمكن تأجيله بلباقة إلى مستقبل غير محدود عبر صيغ ملائمة مثل حق تقرير المصير[92]، بالرغم من أن الاشتراكيين في روسيا وهنغاريا النمساوية كانوا أكثر وعياً من إنجلز بقولهم، إن البعض الآخر لا يمكن تأجيله.

لم يمضِ أكثر من عام بعد وفاة إنجلز حتى وجدنا كوتسكي يسلِّم قائلاً بصراحة، إن «موقف ماركس القديم» الخاص بالبولونيين، المسألة الشرقية والتشيكيين لا يمكن استبقاؤه[93]. يضاف إلى ذلك، أوجدت القوة غير المتساوية والأهمية الاستراتيجية للحركات المختلفة صعوبات صغيرة، لكنها مزعجة. وهكذا، نجد أن الفرنسيين أخذوا على عاتقهم تقليدياً القيام «بمهمة تحرير العالم والحق في قيادة» الحركة الدولية[94]. غير أن فرنسا لم تعد في وضعٍ يمكِّنها من الحفاظ على هذا الدور، فكانت الحركة الفرنسية المنقسمة والمضطربة والمخترقة اختراقاً كبيراً من المذهب الجمهوري الراديكالي الخاص بالبورجوازية الصغيرة أو من عناصر مشوَّهة تحريفية أخرى، مخيِّبة للأمل - صحتها منحرفة فلا تتمكن من الإصغاء لما قال ماركس وإنجلز[95]. وكان إنجلز قد اقترح في مرحلة ما، أن تحلّ الحركة النمساوية محلّ الفرنسية «كرائدة طليعية».

مقابل ذلك، نجد أن النمو المدهش للحركة الألمانية، فضلاً عن علاقتها الوثيقة بماركس وإنجلز، جعلها بشكل واضح القوة الرئيسية للتقدّم الاشتراكي الدولي[96]. ومع أن إنجلز لم يعتقد بتبعيّة الحركات الأخرى لحزبٍ قائدٍ، باستثناء لحظة الفعل

المباشر[97]، فقد كان واضحاً أن مصالح الاشتراكية العالمية استخدم أفضل خدمة، بتقدم الحركة الألمانية. ولم تنحصر هذه النظرة في أوساط الاشتراكيين الألمان وحدهم. فهي ما زالت حاضرةً في السنوات الأولى لتاريخ الأممية الثالثة. ومن ناحية أخرى، إن النظرة التي عبَّر عنها إنجلز أيضاً في أوائل تسعينات القرن التاسع عشر، والمفيدة أن انتصار ألمانيا على التحالف الفرنسي - الروسي، في حرب أوروبية، أمر مرغوب[98]، هي نظرة لم تشارك فيها الأقطار الأخرى، بالرغم من أن توقّع نشوء ثورة من الهزيمة، التي نسبها للفرنسيين والروس، فإن المؤكَّد أن لينين سيوافق عليها. وإنه لأمر عديم الجدوى التفكير بما يمكن أن يكون رأيه في عام 1914، لو كان لا يزال حيّاً عندئذٍ ومن غير المشروع الافتراضي أنه كان سيعتقد بوجهات النظر نفسها، كما في تسعينات القرن التاسع عشر. ومن المحتمل، أيضاً، أن تقرر أكثر الأحزاب الاشتراكية دعم حكوماتها، حتى لو كان الحزب الألماني عاجزاً عن توسّل مرجعية إنجلز. ومهما يكن من أمر، فإن الإرث الذي تركه للحركات الدولية والخاص بمسائل العلاقات الدولية خاصة مسألة الحرب والسلم، كان غامضاً.

كيف يمكننا أن نوجز الكلام على الإرث العام من الأفكار الخاصة بالسياسة التي تركها ماركس وإنجلز لحلفائهم؟ في المقام الأول نراها أكدّت على اتباع السياسة بالتطور التاريخي. فنصر الاشتراكية حتمي تاريخياً، بسبب العملية التي لخَّصها ماركس في المقطع الشهير المتعلق بالاتجاه التاريخي للتراكم الرسمالي، في كتابه: (*Capital* I)، الذي ينتهي إلى القول النبوئي، وهو «نزع الملكية من المالكين»[99]. فالمحاولة السياسية الاشتراكية لا تخلق «ثورة الطبقة العاملة»، المتزايد العدد دائماً، والمنضبطة، والموحَّدة، والمنظمة بآلية الإنتاج الرأسمالي ذاتها»، فهي تقوم عليها. وبصورة جوهرية، إن مطامح المحاولة السياسية الاشتراكية تتوقف على المرحلة التي وصل إليها التطوّر الرأسمالي، عالمياً وعلى مستوى الأقطار المفردة، لذا فإن التحليل الماركسي للوضع في هذا الضوء يشكل الأساس الضروري للاستراتيجية السياسية الاشتراكية. فالسياسة موجودة في عمق التاريخ، وقد بيَّن التحليل الماركسي كم يكون ضعيفاً تحقيق غاياتها لو لم تكن مغروسة هناك، ومقابل ذلك كم ستكون حركة الطبقة العاملة حركةً لا تقهر كما كانت.

وفي المقام الثاني، إن السياسة ذات دورٍ حاسم لجهة أن الطبقة العاملة المنتصرة لا بدّ لها من أن تُنظَّم سياسياً وستنظَّم كذلك (أي «كحزب») وتستهدف نقل السلطة السياسية، التي سيتبعها نظام انتقالي قوامه سلطة الدولة بقيادة البروليتاريا. لذا، فإن العمل السياسي هو جوهر الدور البروليتاري في التاريخ، أي: هو في العمل **من خلال**

التاريخ، أي ضمن الحدود التي يضعها التاريخ - الاختيار، والقرار والعمل الواعي. وفي حياة ماركس وإنجلز، وكذلك خلال الأممية الثانية، كانت المعيار الرئيسي الذي ميّز الماركسية عن معظم الاشتراكيين الآخرين، والشيوعيين والفوضويين (ما خلا الموجودين في التقليد اليعقوبي)، وعن نقابات العمال «المحضة» أو الحركات التعاونية، متمثِّلاً في الاعتقاد بالدور الجوهري للسياسة قبل الثورة، وخلالها وبعدها. وقد تكون قد حصلت مبالغة في وصفها، بسبب النزاع الجدلي بين ماركس وأتباع برودون والفوضويين أتباع باكونين، لكن، لا شك في أهميتها الرئيسية. وطوال الحقبة الزمنية الما بعد الثورية، ظلَّت نتائج ذلك الموقف أكاديمية. لأنها شملت في الفترة السابقة للثورة، فكرة أن الحزب البروليتاري سيظل، بالضرورة، وفي جميع أنواع النشاط السياسي محكوماً من الرأسمالية.

وفي المقام الثالث، اعتبرا مثل تلك السياسة، وبصورة جوهرية، صراعاً طبقياً داخل الدول التي مثَّلت الطبقة أو الطبقات الحاكمة باستثناء أوضاع تاريخية خاصة معينة، كالتوازن الطبقي. وكما ناصر ماركس وإنجلز المادية ضد المثالية في الفلسفة، كذلك انتقدا باستمرار النظرة التي تقول، إن الدولة فوق الطبقات، وتمثِّل المصلحة العامة للمجتمع كله (ما عدا الناحية السلبية، كوقاية من الانهيار)، أو تكون حيادية بين الطبقات. الدولة هي ظاهرة تاريخية لمجتمع طبقي، لكن ما بقيت كدولة فإنها تمثِّل حكماً طبقياً - وإن لم يكن، بالضرورة، في صورة مبسطة تهيجية «للجنة تنفيذية للطبقة الحاكمة». وهذا يفرض قيوداً على انشغال الأحزاب البروليتارية في الحياة السياسية للدولة البورجوازية، وعلى ما يمكن توقّعه من التسليم بها. لذا، فإن الحركة البروليتارية عملت داخل حدود السياسة البورجوازية وخارجها. ولمّا كانت السلطة قد عُرِّفت بأنها المحتوى الرئيسي للدولة، فسيسهل الافتراض (بالرغم من ماركس وإنجلز لم يفعلا ذلك) بأن السلطة هي القضية الوحيدة المهمة في السياسة وفي دراسة الدولة، وفي جميع الأوقات.

رابعاً، يجب على الدولة البروليتارية الانتقالية، مهما كانت وظيفتها، أن تزيل الفصل بين الشعب والحكومة بوصفها مجموعة خاصة من الحكام. وقد يرغب واحدنا في القول، إنها يجب أن تكون دولة «ديمقراطية»، إذا لم تكن هذه الكلمة مطابقة في اللغة العامة لنمطٍ من الحكم المؤسّسي الخاص الذي يكون بواسطة مجالس منتخبة دوريّاً، ومؤلفة من ممثلِّين، وهو ما رفضه ماركس. مع ذلك، يظل «ديمقراطياً»، بمعنى غير مطابق لمؤسسات خاصة، لكنه مستبقٍ لنواحٍ معينة من روسّو. وكل هذا أصعب جزء في إرث ماركس لخلفائه - لأسباب تتعدّى النقاش الحالي - وذلك، لأن جميع المحاولات

التي رمت إلى تحقيق الاشتراكية وفقاً للمبادئ الماركسية، إلى الآن، وجدت نفسها معزِّزة فكرة جهاز دولة مستقل (كما في الأنظمة اللاشتراكية)، في حين أن الماركسيين لم يقبلوا التخلّي عن المطمح الذي اعتبره ماركس اعتباراً ثابتاً، والذي يصف الدولة بأنها مظهر جوهري لتطوّر المجتمع الجديد.

أخيراً وبمقدار من التعمدّ، ترك ماركس وإنجلز لخلفائهما فضاءات فارغة أو مملوءة بشكل غامض، في فكرهما السياسي. ولأن الأشكال الواقعية للبنية السياسية والدستورية قبل الثورة كان تعنيهم ما دامت تسهِّل تطوّر الحركة أو تمنعها ليس إلاّ، فإنهما أوليا انتباهاً قليلاً لها، بالرغم من تعليقهما الحرّ على عددٍ متنوّعٍ من الحالات والأوضاع المادية الحسّية. ولمّا رفضا التفكير التأملي بتفاصيل المجتمع الاشتراكي المقبل وترتيباته، وبتفاصيل الفترة الزمنية الانتقالية بعد الثورة، فإنهما لم يتركا لمن جاء بعدهما ما يزيد على النزر القليل من المبادئ العامة لمواجهتها. لذا، لم يوفرا إرشاداً مادياً محدَّداً له فائدة عملية حول تلك المسائل، من قبيل طبيعة تحويل الاقتصاد إلى اقتصاد اشتراكي أو الترتيبات لتخطيطه. علاوة على ذلك، هناك بعض المواضيع التي لم يوفِّرا إرشاداً حولها، وكانت عامة، وغامضة، وعفا عليها الزمان أيضاً، لأنهما لم يشعرا بحاجةٍ للتفكير فيها ودرسها.

مع ذلك، فإن ما يجب التأكيد عليه ليس ما استطاع الماركسيون اللاحقون أو لم يستطيعوا أن يشتقّوه تفصيلياً من إرث المؤسِّسيْن، أو ما رغبا في التفكير به لنفسيهما، وإنما الأصالة الصارمة لذلك الإرث. فما رفضه ماركس وإنجلز دائماً بشدّة وبنقدٍ هجومي عنيف كان مقاربة اليسار الثوري التقليدية في زمانهم بمن فيهم جميع الاشتراكيين الأوائل[100]، تلك المقاربة التي لم تفقد بعد إغراءاتها. لقد رفضا تلك الثنائيات البسيطة عند الذين انشغلوا بإبدال المجتمع الطالح بالصالح، اللاسببية بالسببية، والأسود بالأبيض. رفضا النماذج المبرمجة بصورة قبليّة لأصناف اليسار المختلفة وذكرا ما يفيد أنه، مع أن كل صنف له نموذجه الذي يشمل صوراً عن المجتمع الخيالي، فإن عدداً قليلاً من تلك النماذج كانت متفقة. ورفضا أيضاً الميل إلى ابتداع نماذج عملانية ثابتة - مثلاً، وصف الشكل الدقيق للتغير الثوري، والإعلان عن كل الأشكال الأخرى غير شرعية، ورفض العمل السياسي أو الاعتماد عليه حصرياً... إلخ. ورفضا المذهب الإرادي اللاتاريخي.

وعوضاً عن ذلك، وضعا عمل الحركة بقوة في سياق التطور التاريخي. أما شكل

المستقبل ومهمّات العمل، فلا يمكن رؤيتهما إلاّ باكتشاف عملية التطوّر الاجتماعي التي ستؤدي إليهما، وهذا الاكتشاف ذاته لا يصير ممكناً إلاّ في مرحلةٍ معينة من التطوّر. وإذا كان هذا يحصر رؤية المستقبل في مبادئ بنيوية قليلة عامة، عبر استثناء التكهنات والنبوءات التأملية، فإنه يضفي على الآمال الاشتراكية يقينيّة الحتمية التاريخية. فتقرير ما هو ضروري وما هو ممكن (عالمياً وفي مناطق وأقطار معينة)، يتطلَّب تحليلاً للتطور التاريخي وللأوضاع المادية، كليهما. لذا، فإن القرار السياسي هو في داخل إطار التغيّر التاريخي، الذي لا يعتمد على القرار السياسي. ولا مفرّ من أن يجعل هذا مهمات الشيوعيين السياسية غامضة ومعقَّدة.

هي غامضة، لأن المبادئ العامة للسياسة التحليلية الماركسية أوسع من أن توفِّر إرشاداً سياسياً محدَّداً، إذا كان هذا مطلوباً. وينطبق هذا خاصة على مسألتي الثورة والانتقال اللاحق إلى الاشتراكية. وقد فحصت أجيال من المفسِّرين النصوص بحثاً عن بيان واضح عن شكل «دكتاتورية البروليتاريا»، لكن جهودها ذهبت أدراج الرياح، لأن المؤسسين كانا معنيين بشكل رئيسي في تأسيس الضرورة التاريخية لمثل تلك الفترة. وهي معقّدة، لأن موقف ماركس وإنجلز من **أشكال** العمل والتنظيم السياسيين بوصفها متميّزة عن **محتواها**، ومن المؤسسات الرسمية التي تعمل بينها، كان محدَّداً بمقدار كبير بالوضع المادي الحسّي الموجودة فيه، فلا يمكن اختزالها وردّها إلى أي مجموعة من القواعد **الدائمة**. ففي أي مرحلة وفي أي قطر أو منطقة، يمكن صياغة التحليل السياسي الماركسي كمجموعة من التوصيات السياسية (كما في خطب المجلس العام في عام 1850، مثلاً)، لكنها تعريفياً لا تنطبق على أوضاع مختلفة عن تلك التي لها جمعت وصُنِّفت – كما أشار إلى ذلك إنجلز في أفكارة الأخيرة حول كتاب ماركس: **الصراع الطبقي في فرنسا** (*Class struggle in France*). غير أن الأوضاع الما بعد الماركسية كانت مختلفة حتمياً عن تلك التي كانت في حياة ماركس، وإذا احتوت على ظواهر تشابه، فإن هذه لا يمكن اكتشافها إلاّ بتحليل تاريخي للوضع الذي واجهه ماركس والوضع الذي سعى الماركسيون اللاحقون إلى البحث عن إرشاده. كل ذلك يجعل من المستحيل الاشتقاق من الكتابات الكلاسيكية أي شيء يشبه كتيّباً في التعاليم الاستراتيجية والتكتيكية، ويكون استعمالها خطراً كسوابق، بالرغم من أنها استعملت كذلك. فما يمكن تعلّمه من ماركس هو منهجه المتمثِّل في مواجهة مهمات التحليل والعمل، وليس دروساً جاهزة يمكن اشتقاقها من النصوص الكلاسيكية.

ذلكم بالضبط هو من دون شك ما كان يمكن أن يرغب ماركس من أتباعه أن

يتعلموه. ومع ذلك، فإن ترجمة الأفكار الماركسية إلى وحي للحركات الجمهورية، والأحزاب والمجموعات السياسية المنظَّمة، لا مفرَّ من أن تجلب معها ما دعاه مرةً إي ليدرَرْ (E. Lederer) «التحويل إلى أسلوب مبسَّط، ومختصر ومعروف يبشِّع الفكر، ويجب تعريض كل فكرة عظيمة له، إذا أريد لها أن تحرك الجماهير»[101]. فدليل العمل كان يسمح لنفسه بصورة دائمة أن يحوَّل إلى عقيدة جامدة. ولا يوجد جزء من نظرية ماركس كان فيه مثل ذلك مضرّاً بالنظرية وبالحركة مثلما كان مضرّاً في الميدان السياسي لتفكير ماركس وإنجلز. غير أن ذلك يمثِّل ما صارت عليه الماركسية بشكل حتمي وربما لا فهو يمثِّل اشتقاقاً من ماركس وإنجلز، لأن نصوص المؤسسين اكتسب وضعية كلاسيكية أو قانونية أيضاً. فهي لا تمثِّل فكر ماركس وإنجلز وكتاباتهما، وأحياناً سلوكهما.

الفصل الرابع

حول إنجلز، حالة الطبقة العاملة في إنجلترا

يصعب التذكّر أن عمر فريدريك إنجلز أربع وعشرون سنة عندما كتب: **حالة الطبقة العاملة** فقد كان مؤهَّلاً لهذه المهمة بشكل ممتاز. وكان من سلالة أسرة غنية تمتلك معامل القطن في بارمِن (Barmen)، في أرض الراين (Rhineland). علاوة على ذلك، كان ذا ذكاء كافٍ مكَّنه من تأسيس فرعٍ [إرمن (Ermen) وإنجلز] في مركز اقتصاد الرأسمالية الصناعية في مانشستر نفسها. وكون إنجلز محاطاً بالظواهر المرعبة للرأسمالية الصناعية، وردود فعله ضد التَّقوية الذاتية الضيّقة في وطنه، جعلاه يسير في الطريق المألوف، الذي هو طريق المفكرين من الشبّان الألمان التقدميين في أواخر ثلاثينات القرن التاسع عشر. ومثل معاصره كارل ماركس الذي كان يكبره قليلاً في السن، صار «هيغلياً يسارياً» – كانت فلسفة هيغل في ذلك الزمن مسيطرة على التعليم العالي في العاصمة البروسية، برلين – ثم مال بشكل متزايد نحو الشيوعية، وبدأ يسهم في مجلاّت دوريّة ومنشورات حاول فيها اليسار الألماني أن يصوغ نقداً للمجتمع. وسرعان ما اعتبر نفسه شيوعياً. وليس واضحاً أن قرار الإقامة في إنجلترا لفترة معينة، قد كان قراره أم قرار والده. وقد يكون كلاهما رغبا فيه لأسباب مختلفة، أي: فالأب قصد إبعاد ابنه الثوري من الإثارات الموجودة في ألمانيا وتحويله إلى رجل أعمال كامل، والابن قصد أن يكون في مركز الرأسمالية الحديثة، وبقربٍ من حركات البروليتاريا البريطانية الكبرى التي سبق له أن عرف بأنها هي القوة الثورية الحاسمة في العالم الحديث.

غادر إنجلز إلى إنجلترا في خريف عام 1842، وكان أول اتصال شخصي له بماركس في طريقه إلى هناك، وبقي لفترة قريبة كثيراً من السنتين مراقباً، ودراساً، وصائغاً أفكاره[1]. وفي الأشهر الأولى من عام 1844، كان يشتغل على كتابه مع أن معظم الكتاب أنجز في شتاء 1844 – 1845. وظهر الكتاب بشكله النهائي في مدينة لايبزغ (Leipzig)، في صيف عام 1845، مع مقدّمة وإهداء (باللغة الإنجليزية) «إلى الطبقات العاملة في بريطانيا العظمى»[2]. ونشر في إنجلترا، مع تعديلات طفيفة أجراها المؤلف ومقدّمات أساسية في عام 1887 (الطبعة الأميركية)، وفي عام 1892 (الطبعة البريطانية) وهكذا، نرى أن وصول ذلك الكتاب الرائع إلى القطر الذي شكل موضوعه اقتضى القسم الأكبر من نصف قرن. ومنذئذٍ صار معروفاً من كل مَنْ يدرس الثورة الصناعية، ولو بالاسم.

لم تكن فكرة كتابة كتاب **حالة الطبقات العاملة** أصلية في حدّ ذاتها. فمع حلول ثلاثينات القرن التاسع عشر صار واضحاً عند كل مراقب ذكي أن أجزاء أوروبا المتقدّمة اقتصادياً كانت تواجه مسألة اجتماعية لم تعد مجرد مسألة «الفقراء»، بل مسألة طبقة غير مسبوقة تاريخياً، هي البروليتاريا. لذا، فإن فترة ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر وهي الفترة الحاسمة في تطور الرأسمالية وحركة الطبقة العمالية التي شهدت كتباً، وكرّاسات وأبحاثاً في حالة الطبقات العاملة المتزايدة في أوروبا الغربية كلها. فكان كتاب إنجلز أبرز كتابة من ذلك النوع، بالرغم من أن كتاب لويس رين فيليرمي (Louis Ren Villermé): (*Tableau de l'état physique et moral des ouvriers employés dans les Manufactures de Coton, de Laine et de Soie*) (1840) يستحق الذكر بوصفه نموذجاً مميَّزاً من البحث الاجتماعي. وكان واضحاً أيضاً أن مسألة البروليتاريا لم تكن مجرد مسألة محلية أو قومية، بل هي دولية. وقد قارن بوريه الأحوال البريطانية والفرنسية (*La misère des classes laborieuses en France et en Angleterre*, 1840) وجمع دوكبتيو معطيات عن أحوال العمال الشبان في أوروبا كلها في عام 1843. لذا، فإن كتاب إنجلز لم يكن ظاهرة أدبية منعزلة، وقد أدّت هذه الحقيقة بالمعادين للماركسية إلى اتّهامه دورياً بانتحال أفكار الآخرين، عندما عجزوا عن التفكير بأي شيء أفضل من ذلك[3].

على كل حال، يختلف كتابه عن كتب معاصرة شبيهة من وجوه عدّة. **أولاً**، كما زعم إنجلز نفسه وكان محقاً، كان الكتاب أول كتاب في بريطانيا أو في أي قطر آخر تناول الطبقة ككل، لا بأقسام أو صناعات خاصة. **ثانياً**، والأكثر أهمية، أنه لم يكن مجرد

نظرة عامة لأحوال الطبقة العاملة، بل كان تحليلًا لتطوّر الرأسمالية الصناعية. وعن الوقع الاجتماعي للتضيع ونتائجه السياسية والاجتماعية - بما في ذلك نشوء الحركة العمالية. والحق يُقال، إنه كان أول محاولة كبيرة لتطبيق المنهج الماركسي على الدراسة المادية للمجتمع، وقد يكون أول كتاب اعتبره مؤسسو الماركسية ذا قيمة كافية ليستحق الحفظ الدائم[4]. ومع ذلك، وكما قال إنجلز بوضوح في مقدّمة طبعة عام 1892، إن كتابه لا يمثل الماركسية في حالة نضجها بل «إحدى مراحل تطوّرها الجنيني». وللحصول على تفسير ناضج وذي صياغة كاملة، علينا اللجوء إلى كتاب ماركس: **رأس المال**.

النقاش والتحليل

يبدأ الكتاب بتخطيط وجيز للثورة الصناعية التي حوّلت المجتمع البريطاني وخلقت البروليتاريا، بوصفها منتوجه الرئيسي (Chapters I – II). وهو أول إنجاز طليعي لإنجلز، لأن كتاب: **حالة** (*Condition*) هو أول كتاب كبير قام تحليله بشكل منظَّم على مفهوم الثورة الصناعية التي كان جديداً ومؤقتاً في تلك الفترة، ولم يظهر إلّا في النقاشات الاشتراكية البريطانية والفرنسية خلال عشرينات القرن التاسع عشر. والشرح التاريخي الذي قام به إنجلز لذلك التحوّل لم يدّعِ الأصالة التاريخية. وبالرغم من نفعه، فقد خَلَفه كتابات لاحقة بصورة أكمل.

رأى إنجلز أن التحوّلات التي أحدثتها الثورة الصناعية هي من الوجهة الاجتماعية بمنزلة عملية هائلة من التركيز والاستقطاب، مالت إلى خلق بروليتاريا متنامية، وبورجوازية صغيرة متزايدة من الرأسماليين الكبار المتزايدين، وكلاهما في مجتمع مدينيٍّ متزايد. ونشوء التصنيع الرأسمالي حطَّم منتجي السلع الصغيرة، والفلاحين والبورجوازية الصغيرة، وأفول هذه الطبقات المتوسطة حرم العامل من إمكانية أن يصير سيّداً صغيراً، وحصره في صفوف البروليتاريا التي صارت «طبقة محدَّدة في السكان، بينما لم تكن إلاّ مرحلةً انتقالية في اتجاه الدخول في الطبقات الوسطى». لذا، فإن العمال طوروا وعياً طبقياً - هذا التعبير نفسه لم يستخدمه إنجلز - وحركةً عمالية. وهنا نجد إنجازاً آخر في عداد إنجازات إنجلز الرئيسية. وبكلمات لينينيّة: «كان من بين الأوائل، الذي قال إن البروليتاريا **ليست فقط** طبقة تعاني، وإن وضعها الاقتصادي المعيب هو الذي دفعها إلى الأمام، واضطرها للصراع لتحرير نفسها تحريراً نهائياً[5]».

على أي حال، لم تكن عملية التركيز، والاستقطاب والتمدين قد حدثت عن طريق المصادفة. فالصناعة الميكانيكية الكبيرة تتطلب تنامياً في الاستثمارات الرأسمالية،

وتقسيمها للعمل يتطلَّب تراكم أعداد كبيرة من البروليتاريين. مثل وحدات الإنتاج الكبيرة هذه، حتى إن أقيمت في الريف، جذبت مجتمعات حولها تنتج قوة عمل إضافية فتسقط الأجور، ويكون اجتذاباً لصناعيين آخرين. وهكذا، تنمو القرى الصناعية متحوِّلةً إلى مدن تستمر في التوسّع، بسبب ما توافره من مصالح اقتصادية للصناعيين. وبالرغم من أن الصناعة تميل إلى الهجرة من الأجور المدينية العليا إلى الأجور الريفية الدنيا، فإن ذلك سيعمل بدوره على زرع بذور الظاهرة المدينية في الريف. لذلك، اعتبر إنجلز المدن الكبرى أكثر المواقع النموذجية ملائمة للرأسمالية، فدرسها في الفصل الثالث. فاستغلالها وتنافسها غير المقيّدين يظهران عاريين، أي: «ففي جهة هناك اللامبالاة البربرية والأنانية القاسية، وفي جهة آخرى يوجد البؤس الذي لا يوصف، وفي كل مكان حرب اجتماعية، وبيت كل إنسان تحوَّل إلى حصن، وفي كل مكان نهّابون ينهبون حماية القانون». وفي غمّار هذه الفوضى يهزم الذين لا يملكون وسائل العيش والإنتاج بحماية ويتحولون إلى عمال مقابل علاوة صغيرة أو يموتون سغباً عندما لا يوظَّفون. والأسوأ يُساقون إلى حالة عيش من عدم الأمن عميقة، يكون فيها مستقبل العامل مجهولاً وغير مستقر، كلياً. والواقع، إنها تكون محكومة بقوانين التنافس الرأسمالي التي يبحثها إنجلز في الفصل الرابع.

أجرة العمال تتراوح بين أصغر معدَّل للعيش - بالرغم من هذا ليس بمفهوم صارم عند إنجلز - يحدِّده تنافس العمال فيما بينهم لكنه محدود بعدم قدرتهم على العمل بأقل من مورد للرزق، أعلى معدَّل يحدِّده التنافس بين الرأسماليين في أوقات نقص العمال. والأجر المتوسط يكون أعلى من الأجر الأدنى، أي: مقداره يعتمد على معيار العيش المألوف أو المكتسب للعمال. غير أن بعض أنواع العمل خاصة في الصناعة يتطلَّب عمالاً مؤهلين تأهيلاً أفضل، لذلك فإن مستوى معدَّل أجرهم يكون أعلى من أجور البقية، بالرغم من أن جزءاً من هذا المستوى الأعلى يعكس تكلفة العيش الأعلى في المدن. (مستوى الأجر الأعلى المديني والصناعي يساعد أيضاً في توسيع الطبقة العاملة عن طريق اجتذاب مهاجرين إيرلنديين من الريف ومن الخارج). على كل حال، التنافس بين العمال يخلق «فائضاً سكانياً» (Surplus Population) دائماً - هو ما دعاه ماركس لاحقاً بجيش الاحتياط الصناعي - يبقي معيار الجميع.

ذلكم هو الوضع بالرغم من أن توسّع الاقتصاد كله يعود إلى هبوط أسعار السلع بواسطة التقدّم التكنولوجي، الذي يزيد الطلب ويشغِّل العديد من العمال الذين أزاحهم في صناعات جديدة. وهو عائد أيضاً إلى احتكار بريطانيا الصناعي العالمي.

وتكون النتيجة نمو عدد السكان، وزيادة الإنتاج، وطلب اليد العاملة. ومع ذلك، فإن «الفائض السكاني» يُستبقى، بسبب العصر الدوري المؤلف من ازدهار وأزمة، الذي كان إنجلز أحد الأوائل من عرف أنه جزء لا يتجزأ من الرأسمالية، كما كان أحد الأوائل الذي نسبت إليه دوريّة مضبوطة[6]. وإن الإدراك بأن الجيش الاحتياطي هو جزء جوهري دائم من الرأسمالية والإدراك الخاص بالدورة التجارية، هما فكرتان إضافيتان مهمتان من الريادة النظرية. ولّما كانت الرأسمالية تعمل بتقلّبات، فلا بدّ من أن يكون عندها احتياط دائم من العمال، إلاّ عندما تكون في ذروة الازدهار الاقتصادي. والاحتياط يتألف جزئياً من البروليتاريين. وجزئياً من البروليتاريين المحتملين – ريفيين، ومهاجرين إيرلنديين، وأناس من ذوي الحرف الأقل ديناميكية.

أي نوع من الطبقة العاملة تنتج الرأسمالية؟ وما هي أحوال حياتها، وأي نوعٍ من السلوك الفردي والجمعي تخلق تلك الأحوال المادية؟ لقد خصَّص إنجلز القسمَ الأكبر من كتابه (الفصول 3، 5 – 11) لوصف وتحليل هذه المسائل، ولينتج بفعله هذا أكثر إسهام له في العلم الاجتماعي نضجاً، أي تحليله للوقع الاجتماعي للتصنيع وللتمدين الرأسماليين، وهو الذي لا يزال غير مسبوقٍ من نواحٍ عديدة. فيجب أن يُقرأ ويُدرس بالتفصيل، ويمكن تلخيص الحجة تلخيصاً موجزاً بما يلي: الرأسمالية تذري البروليتاريا Pitch fork الجديدة التي غالباً ما تكون مؤلفةً من مهاجرين قادمين من خلفيّات سابقة للصناعة، وتلقي بها في جحيم اجتماعي فيه تُطحن، وتُستأجر بأجور بخسة، أو تموت سغباً، متروكة للتعفّن في أحياء قذرة مزدحمة السكان، وتكون مهملة، ومحتقرة ومقموعة من البورجوازية كطبقة وليس فقط من قوة التنافس اللاشخصية، وهذه الطبقة تعتبرهم أشياء لا بشراً، فهم «عمل» أو «أيدٍ» في نظرها وليسوا بشراً (الفصل 12)، فالرأسمالي المدعوم من القانون البورجوازي، يفرض نظام معمله ويغرِّمهم، ويتسبَّب بسجنهم، ويفرض عليهم رغباته كما يشاء. فالبورجوازية كطبقة تخلق تمييزاً ضدهم، وتنشئ نظرية سكانية مالثوسية (Malthusian) ضدهم، وتفرض عليهم وحشيّة «قانون الفقراء الجديد» (New Poor Law) لعام 1834. على كل حال، هذا التجريد من الصفات الإنسانية يبقي العمال أيضاً خارج الأيديولوجيا وأوهامها – مثلاً، الأنانية البورجوازية، والدين والأخلاق. فالتضيع والتمدين المتزايدين يفرضان عليهم أن يتعلموا دروساً عن وضعهم الاجتماعي، وأن يتجمعوا، وأن يصيروا واعين بقوتهم. «فكلما ازدادت علاقة العمال بالصناعة، ازداد تقدّمهم». (ولاحظ إنجلز أيضاً التأثير الراديكالي لخيال الطبقات العاملة، كما في أوساط الإيرلنديين).

أما مواجهة العمال لوضعهم فتكون بطرق مختلفة. فبعضهم يخضع له، فيفسد أخلاقه، لكن زيادة السكر، والرذيلة، والجريمة، والإنفاق غير المعقول، كل ذلك ظاهرة اجتماعية، هي خلق الرأسمالية، فلا يجوز شرحها بنسبتها إلى الضعف وكسل الأفراد. وآخرون يستسلمون لمصيرهم. ويعشون كمواطنين ملتزمين بالقانون ومحترمين، لا يهتمون بالشؤون العامة، وبذلك يساعدون الطبقة الوسطى لتشدِّد من الأغلال التي تقيّد العمال. غير أن الإنسانية والكرامة الحقيقتين لا توجدان إلاّ بالقتال ضد البورجوازية، وذلك، في الحركة العمالية التي تنتجها أحوال العمال، بصورة حتمية.

هذه الحركة تمرّ في مراحل مختلفة. وقد تكون الثورة المفردة إحداها – الجريمة –، وتدمير الآلات المرحلة الأخرى، بالرغم من أي منهما لا يكون عالمياً. والنقابية العمالية والإضرابات هي الأشكال الأولى العامة التي ستتخذها الحركة. وأهميتهما لا تَمْثُلُ في فعاليتهما، وإنما في دروس التضامن والوعي الطبقيين التي تعلمانها. والحركة السياسية للوثيقة كانت علامة على مستوى عالٍ من التطور. ورافق هذه الحركات الاشتراكية تطوّر نظريات وضعها مفكرون من الطبقة الوسطى الذين ظلواّ، بحسب إنجلز، خارج الحركة العمالية إلى عام 1844، بالرغم من اجتذابها انتباه أقلية صغيرة من أفضل العمال. غير أن على الحركة أن تتحرك نحو الاشتراكية كلما تقدمت أزمة الرأسمالية.

كما رأى إنجلز الأمر في عام 1844، فإن تلك الأزمة لا مفرّ من تطورها في واحد من طريقين. إما أن تضع المنافسة الأميركية (وربما الألمانية) نهايةً للاحتكار الصناعي البريطاني، وتنتج وضعاً ثورياً أو أن يستمر استقطاب المجتمع إلى أن يدرك العمال، الذين سيشكلون الأكثرية العظمى في الأمة قوتهم ويقبضون على السلطة. (ومن المفيد الملاحظة أن حجة إنجلز لا تؤكد على الإملاق المطلق والطويل المدى للبروليتاريا). على كل حال، بالنظر إلى أحوال العمال التي لا تطاق وأزمة الاقتصاد، فإن وقوع الثورة محتمل قبل أن تجد تلك الميول حلاً لها. وقد توقَّع إنجلز أن تحدث الثورة بين الانكماشيين الاقتصاديين الآتيين، أي بين 1846 – 1847 ومنتصف خمسينات القرن التاسع عشر.

وبالرغم من عدم نضج الكتاب، فإن إنجازات إنجلز العلمية تظل مدهشة. فأخطاؤه كانت بشكل رئيسي لها علاقة بصغر سنه، وبمقدار ما بقصر النظر التاريخي. فهناك تفسير تاريخي معقول لبعض الأخطاء. ففي الوقت الذي كتب فيه إنجلز، كانت الرأسمالية البريطانية في مرحلة حادة جداً للفترة الأولى من الفترات الكبرى للأزمة المدنية، وقد جاء إلى بريطانيا في أسوأ فترة لأسوأ هبوط اقتصادي بلغ مستوى الكارثة

في القرن التاسع عشر، وهو ما كان في 1841 – 1842. فلم يكن من غير الواقعي عندئذٍ، التفكير بأن تكون فترة الأربعينات من عام 1840 بمنزلة النزع الأخير للرأسمالية والمقدِّمة للثورة. فلم يكن إنجلز المراقب الوحيد الذي رآها بذلك الشكل.

والآن، نحن نعرف أن ذلك لم يكون أزمة الرأسمالية النهائية، بل كان مقدّمة لعصرٍ من التوسّع رئيسي قائم جزئياً على التطوّر الواسع لصناعات السلع الرأسمالية – سكك الحديد، الحديد والفولاذ، مقابل النسيج في المرحلة السابقة – وجزئياً على احتلال مناطق أوسع من النشاط الرأسمالي في الأقطار غير النامية، وجزئياً على الفوائد الزراعية المخوَّلة، وجزئياً على اكتشاف طرائق جديدة وفعّالة لاستغلال الطبقات العاملة التي بواسطتها أمكن ارتفاع مداخيلها الحقيقية ارتفاعاً جوهرياً. كما نعرف أن الأزمة الثورية لعام 1848 التي تنبّأ بها إنجلز بدقةٍ كبيرة، لم تؤثر في بريطانيا. وذلك عائد بمقدار كبير لظاهرة التطوّر غير المتساوي، الذي يصعب عليه أن يتنبّأه. وحينما بلغ تطور المرحلة الاقتصادية المقابلة في القارة أزمته القصوى في 1846 – 1848، فإن المرحلة المعادلة في بريطانيا كان قد تمَّ الوصول إليها في 1841 – 1842. وبحلول عام 1848، كانت مدة التوسّع، التي علامتها «ازدهار سكك الحديد» الواسع على قدمٍ وساق، وكان المعادل البريطاني لثورة 1848 إضراب الحركة الوثيقية العام في 1848. والأزمة التي أن ثورات قارّية لم يكن لها أثر في بريطانيا ما خلا إعاقة فترة الإبلال وصادف أن إنجلز لم يكن محظوظاً في الكتابة في وقتٍ لم يكن ذلك واضحاً. وإلى يومنا لا يزال الإحصائيون يتجادلون في مسألة أين يضعون العلامة الحدّية بين عام 1842 وعام 1848، التي تفصل «السنوات العجاف» (Bleak Years) عن الازدهار الفيكتوري الذهبي للرأسمالية البريطانية. فليس لنا أن نلوم إنجلز لعدم رؤيتها بوضوح.

ومع ذلك، يمكن للقارئ غير المعارض أن ينظر إلى نقائص كتاب إنجلز بوصفها عرضية وثانوية ليس إلاّ، وعليه أن يكون معجباً بإنجازاته. وهذه لا تعود إلى موهبة إنجلز الشخصية فحسب، بل إلى شيوعيته أيضاً. وذلكم ما أضفى عليه دقة في التفكير الاقتصادي، والاجتماعي والتاريخي أعلى مما هو موجود عند أنصار الرأسمالية. وكما بيّن إنجلز، إن عالم الاجتماع الجيّد لا يمكن أن يكون إلّا شخصاً متحرّراً من أوهام المجتمع البورجوازي.

وصف إنجلز لإنجلترا في عام 1844

إلى أي مدى يمكن القول، إن وصف إنجلز لطبقة العمال البريطانية، في عام 1844 بأنها موثوقة ويمكن الاعتماد عليها بصورة شاملة؟ ولأي مدى أكد البحث اللاحق أقواله؟

فحكمنا على القيمة التاريخية للكتاب يجب أن يعتمد بمقدار كبير على الأجوبة على هذه الأسئلة. فلطالما انتقد، بدءاً من أربعينات القرن التاسع عشر، عندما فيكتور إيمي هوبر (Victor Aimé Huber) وبرونو هيلدبراند (Bruno Hildebrand) أقرا بالوقائع التي ذكرها، لكنهما وجدا تفسيره غامضاً جداً، حتى عام 1958، عندما ناقش محرروه الحديثون قائلين، إن «المؤرخين لم يعودوا يعتبرون كتاب إنجلز الكتاب المرجع الذي يقدم صورة قيمة لإنجلترا الاجتماعية في أربعينات القرن التاسع عشر[7]. وجهة النظر الأولى يمكن الدفاع عنها، أما الثانية فهي لغوٌ.

بُني شرح إنجلز على ملاحظة مباشرة وعلى مصادر أخرى متاحة. فالواضح أنه عرف لانكاشاير (Lancashire) الصناعية عن كثب، خاصة منطقة مانشستر، وزار المدن الصناعية الرئيسية في يوركشير (Yorkshire) – ليدز برادفورد (Leeds Bradford)، شيفيلد (Shef-field) – كما أمضى بعض الأسابيع في لندن. ولا يوجد من رأى بصورة جدّية أنه شوَّه الحقائق التي شاهدها. فالواضح من الفصول الوصفية أن قسماً كبيراً من الفصول، الثالث، والخامس، والسابع، والتاسع والثاني عشر، بُنيت على ملاحظات مباشرة، فمن الواضح أن مثل هذه المعرفة تنير الفصول الأخرى أيضاً. وعلينا أن لا ننسى أن إنجلز لم يكن (خلافاً لأكثر الزائرين الأجانب الآخرين) مجرد سائح، بل كان رجل أعمال في مانشستر عرف رجال الأعمال الذين عاش في وسطهم، وكان شيوعياً الوثيقيين والاشتراكيين الأوائل وعمل معهم، كما كان رجلاً ذا معرفة مباشرة كبيرة بحياة الطبقة العاملة – وأقلّها عبر علاقاته بصاحبة المعمل الإيرلندية ماري بيرنز (Mary Burns) وأقربائها وأصدقائها. لذا، فإن كتابه مصدر أولي رئيسي مهم لمعرفتنا بإنجلترا الصناعية في ذلك الزمن.

بالنسبة إلى بقية الكتاب، وبغية التأكيد على مشاهداته اعتمد إنجلز على مخبرين آخرين وعلى دليل مكتوب مطبوع أيضاً، سامحاً للانحياز السياسي لمثل ذلك الدليل عبر الاستشهاد حيث أمكن ذلك بمصادر متعاطفة مع الرأسمالية (انظر الفقرة الأخيرة في مقدّمته). وبالرغم من عدم شمولية توثيقه، فقد كان جيداً وكاملاً. وبالرغم من وجود عدد من الهفوات في نسخ التوثيق (وقد صحح بعضها إنجلز لاحقاً) ووجود ميلٍ لاختصار المراجع لا ذكرها حرفياً، فإن اتهامه بأنه كان انتقائياً وشوَّه الاستشهاد بدليله، لا يمكن الدفاع عنه. والمحررون المعادون له عجزوا عن إيجاد ما يزيد على حفنةٍ من الأمثلة التي اعتبروها «تشويها» في مجلَّد كبير، وكان معظم تلك الاتهامات تافهاً أو خاطئاً[8]. وهناك مصادر متاحة لم يستعملها، لكن بعضها يعرض صورة مخدوشة. لذا، فإن كتاب: **حالة** هو بالمعايير المعقول جميعها، كتاب مكتوب بإدراك جيّد للدليل.

الاتهامات من قبيل القول، إنه رسم الأحوال البروليتارية بألوان معتمة وغير لازمة، أو أنه أخفق في تقدير قيمة خيريّة البورجوازية البريطانية، يمكن البرهان على أنها خاطئة. ولن يجد القارئ المتأنّي أساساً للقول النزاعي المفيد أن إنجلز وصف جميع العمال محرومين معوزين أو يتضوَّرون جوعاً حتى الموت، وإن مستوى عيشهم هو مستوى كفاف العيش، وأن البروليتاريا عبارة عن جمهور من الفقراء، كما لن يجد أساساً للعديد من الأقوال المتطرفة الأخرى التي نسبت إليه من قِبَل النقّاد الذي لم يقرؤوا كتابه دائماً. فهو لم ينكر عدم وجود تحسين في أحوال الطبقة العاملة (انظر الملخَّص في نهاية الفصل الثالث). وهو لم يقدِّم البورجوازية كجمهور ذي قلب أسود (انظر الهامش الطويل في نهاية الفصل الثاني عشر). وكراهيته لما كانت البورجوازية تمثِّل، ولما جعلها تسلك ذلك السلوك، لم تكن كراهية ساذجة لأناس ذوي إرادة شريرة مختلفة عن أناس ذوي إرادة خيّرة. لقد كانت جزءاً من نقدٍ لعدم إنسانية الرأسمالية التي حوَّلت المستِّغلين، بصورة أوتوماتيكية وجمعية إلى «طبقة فاسدة الأخلاق بشكل عميق ومصابة بأنانية لا علاج لها ومتآكلة في وجودها ذاته».

اعتراض النقّاد على إنجلز لم يكن في أغلب الأحيان إلاّ لكراهيتهم التسليم بحقائقه. فليس هناك إنسانٌ شيوعياً كان أم غير شيوعي ممن زار إنجلترا قادماً من خارجها في تلك السنوات، لم يكن لدية شعور بالرعب المزلزل، الذي عبَّر عنه كثيرون من الليبراليين البورجوازيين المحترمين بكلمات مثيرة وملهبة ككلمات إنجلز – لكن من دون تحليله.

«الحضارة تصنع عجائبها»، هذا ما كتبه الأميركي هنري كولمان (Henry Col-man)، وأضاف قائلاً: «أشكر السماء لأني لست رجلاً فقيراً مع أسرة في إنجلترا».

وإذا استثنينا ما قال إنجلز، يمكننا أن نقع على الكثير من البيانات التي تصف اللامبالاة النفعية القاسية للصناعيين.

وتبقى الحقيقة المفيدة أن كتاب إنجلز يظل «اليوم» كما كان في عام 1845 أفضل كتاب مفرد عن الطبقة العاملة في ذلك العصر. فقد اعتبره المؤرخون اللاحقون، واستمروا في اعتباره كذلك، ما عدا مجموعة حديثة من النقّاد المدفوعين بكراهية أيديولوجية. وهو ليس الكلمة الأخيرة حول الموضوع، لأن 125 سنة من البحث أضافت إلى معرفتنا بأحوال الطبقة العاملة، خاصة في المناطق التي لم يكن لإنجلز معرفة شخصية وثيقة بها. إنه كتاب عصره ولا يقدر أن يحلّ محلّه شيء في مكتبة كل

مؤرخ للقرن التاسع عشر، وعند كل من له اهتمام بحركة الطبقة العاملة. فهو يظل كتاباً مستقلاً ومَعْلَماً في القتال لتحرير الإنسانية.

الفصل الخامس

حول البيان الشيوعي

I: مقدِّمة

في ربيع عام 1847 وافق ماركس وإنجلز على الالتحاق بما يدعى عصبة الصالحين (Bund der Gerechten)، وهي فرع من عصبة سابقة اسمها عصبة المنبوذين (Bund der Geächteten)، وهذه جمعية سرّية ثورية تشكَّلت في باريس في ثلاثينات القرن التاسع عشر بتأثير من الثوّار الفرنسيين، الذين هم من قِبَل المتجولين الألمان – معظمهم من الخيّاطين والحطّابين – وتألَّفت رئيسياً من راديكاليين حرفيين ومنفيين أو مغتربين. وبعد اقتناع العصبة بـ «شيوعيتهم النقدية» (Critical Communism)، عرضت أن تنشر بياناً قام ماركس وإنجلز بوضع مسوَّدته كوثيقة لسياستها، وأيضاً لتحديث منظمتها وفقاً لمبادئها. والواقع الذي حصل هو إعادة تنظيمها في صيف عام 1847، وجُدِّد اسمها، فصار عصبة الشيوعيين (Bund der Kommunisten)، والتزمت بهدف إسقاط البورجوازية، وبحكم البروليتاريا، ووضع حدّ نهائي للمجتمع القديم القائم على التناقضات الطبقية (Klassengegensätzen)، وتأسيس مجتمع جديد لا طبقي وخالٍ من الملكية الخاصة. وعقد مؤتمر ثانٍ للعصبة في لندن أيضاً، للفترة ما بين شهر تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر، من عام 1847، ووافق رسمياً على الأهداف والنظام الأساسي، ودعا ماركس وإنجلز لوضع مسوَّدة البيان الجديد الذي يشرح أهداف العصبة وسياساتها.

ومع أن كلاً من ماركس وإنجلز قد أعدّا المسوَّدات، إلا أن الوثيقة كانت تمثِّل

بشكل واضح آراءهما المشتركة، ومن المؤكَّد أن النصَّ الأخير كتبه ماركس - بعد تركيز قاسٍ من الهيئة التنفيذية، لأن ماركس عندئذٍ ولاحقاً لم يكمل نصوصه إلاّ بعد تحديد موعد نهائي حازم وضغط ذلك التحديد. وقد يوحي عدم الوجود الفعلي للمسوَّدات الأولى بأنها كتبت بسرعة[1]. والوثيقة التي نتجت والمؤلفة من ثلاث وعشرين صفحة وحملت عنوان: **بيان الحزب الشيوعي** (*Manifesto of the Communist Party*) «نشرت في شهر شباط/ فبراير عام 1848»، وطبعت في مكتب الجمعية الشيوعية لتثقيف العمال (المعروفة باسم: (Communistischer Arbeiterbildungsverein) التي دامت حتى عام 1914) الموجودة في 46 Liverpool Street في مدينة لندن.

ولا شك في أن هذه الكراسة الصغيرة هي أكثر نص سياسي مفرد تأثيراً، منذ إعلان الثورة الفرنسية التي مثلت كونها: **إعلان حول حقوق الإنسان والمواطن**. وقد صادفها الحظ عندما لم توزع في الشوارع إلاّ قبل اندلاع ثورة عام 1848 بأسبوع أو أسبوعين، مما جعل انتشارها يشبه حريق الغابة، بدءاً من باريس وحتى القارة الأوروبية. وبالرغم من أن أفقها كان دولياً، فإن وقعها الأول كان في ألمانيا بشكل استثنائي - وتجدر الإشارة إلى أن الطبعة الأولى أملت بـ - لكن خطأ - بالإعلان عن طباعة وشيكة **للبيان** باللغة الإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والفلمنكية (Flemish) والدنماركية. ومع أن العصبة الشيوعية كانت صغيرة، فقد أدت دوراً كبيراً في الثورة الألمانية، ليس أقلّه عبر **الجريدة الراينانية الجديدة** (1848 - 1849) التي كان ماركس يحرّرها. وقد أعيدت طباعة **البيان** ثلاث مرات في أشهر قليلة ونشر بشكل متسلسل في **الجريدة اللندنية الألمانية** (*Deutsche Londoner Zeitung*)، وأعيد تنضيده وتصحيحه في شهر نيسان/ أبريل عام 1848، فصار يتألف من ثلاثين صفحة، لكنه اختفى عن الأنظار مع فشل ثورة عام 1848. وبعد ذلك استقر ماركس في منفاه طوال عمره في إنجلترا في عام 1849، وقلما فكر ماركس بأن القسم الثالث من **البيان** يستحق إعادة الطباعة [الأدب الاشتراكي والشيوعي "Socialistische und Kommunistische Literatur" في الإصدار الأخير لمجلته اللندنية [**الجريدة الراينانية الجديدة: مجلة سياسية - اقتصادية** (*Neue Rheinische Zeitung, politisch – ökonomische Revue*)] (تشرين الثاني/ نوفمبر، عام 1850) التي نادراً ما يكون لها قرّاء.

وبعدئذٍ لا أحد توقّع مستقبلاً مدهشاً **للبيان** في خمسينات وأوائل ستينات القرن التاسع عشر. فصدرت طبعة جديدة صغيرة في لندن بشكل خاص من قِبَل مهاجر ألماني صاحب مطبعة في لندن في عام 1864، وطبعة أخرى صغيرة في برلين في عام 1866،

والأولى لم تنشر في ألمانيا. وبين عامي 1848 و 1868 لم تحصل ترجمات باستثناء ترجمة سويدية، قد تكون نشرت في أواخر عام 1848، وأخرى إنجليزية في عام 1850، تميّزت بذكر تاريخ مراجع **البيان**، ويبدو أن ذلك لم يكن إلاّ بعد أن قامت المترجمة باستشارة ماركس، [لأنها كانت تعيش في لانكاشاير] والأكثر احتمالاً هو أن تكون استشارت إنجلز والترجمتان غابتا عن البصر بلا أثر. وبحلول منتصف ستينات القرن التاسع عشر، لم يعد أي شيء كتبه ماركس في الماضي يظهر في الطباعة.

إن شهرة ماركس في الجمعية الدولية للعمال (المدعوة بـ «الأممية الأولى») وظهور حزبين طبقيين عماليين مهمين في ألمانيا (كلاهما تأسّسا من قِبَل أعضاء سابقين في العصبة الشيوعية وقد قدّروا ماركس تقديراً عالياً)، كل ذلك أدّى إلى إحياء الاهتمام **بالبيان الشيوعي**، كما في كتاباته الأخرى. خاصة دفاعه البليغ عن كميون باريس في عام 1871 (المعروف باسم: **الحرب الأهلية في فرنسا** (*Civil War in France*)) الذي أضفى عليه شهرة كبيرة في الصحافة بوصفه قائداً خطراً لظاهرة التدمير الدولي، مما كان يخيف الحكومات. وبشكل خاص، كان الذي سبَّب للوثيقة ذيوعاً غير متوقَّع، هو المحاكمة بتهمة الخيانة لقادة الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني ويلهلم ليبكنخت (Wilhelm Liebknecht)، وأوغست بيبِلْ وأدولف هيبنر (Adolf Hepner) في شهر آذار/ مارس، عام 1872. فقد تلا الادّعاء نصّ **البيان** وأدخله في سجلات المحكمة، مما وفَّر للديمقراطيين الاجتماعيين فرصتهم الأولى لنشره بصورة قانونية في عملية طباعية متواصلة كبيرة، كجزء من محاضر جلسات المحكمة. وكان الواضح هو أن تلك الوثيقة، التي نشرت قبل ثورة عام 1848، قد تحتاج بعض التعليقات التحديثية والتوضيحية. فأنتج ماركس وإنجلز أول سلسلة من المقدِّمات التي رافقت منذئذٍ الطبعات الجديدة **للبيان**[2]. ولأسباب قانونية لم يمكن توزيع المقدِّمة توزيعاً واسعاً في ذلك الزمن، لكن الواقع الذي حصل هو أن طبعة عام 1872 (المبنيّة على طبعة عام 1866) صارت الأساس لجميع الطبعات اللاحقة. وفي نفس الوقت بين عام 1871 وعام 1873، ظهرت على الأقل تسع طبعات من **البيان**، في لغات ست.

وفي السنوات الأربعين التي أعقبت إصداره، احتلَّ **البيان** العالم، متقدِّماً عبر نشوء أحزاب عمالية (اشتراكية) جديدة، وازداد فيها بسرعة النفوذ الماركسي في ثمانينات القرن التاسع عشر. ولم يختر أي واحد من تلك الأحزاب بأن يُعرف بأنه حزب شيوعي إلى أن عاد الروس البلاشفة إلى العنوان الأصلي، بعد ثورة شهر تشرين الأول/ أكتوبر، لكن العنوان: **بيان الحزب الشيوعي** ظلَّ كما هو قبل الثورة الروسية في عام 1917،

وصدر في عدة مئات من الطبعات، في ما يقارب الثلاثين لغة، شملت ثلاث طبعات باللغة اليابانية وطبعة واحدة باللغة الصينية. ومع ذلك، فإن المنطقة الرئيسية لنفوذه كانت الحزام المركزي في أوروبا، الممتدّ من فرنسا في الغرب إلى روسيا في الشرق. وليس بالغريب أن يكون عدد الطبعات الأكبر باللغة الروسية (سبعين)، وخمساً وثلاثين طبعة بلغات الإمبراطورية القيصرية، أي: 11 طبعة باللغة البولندية، 7 باللغة اليديشية (Yiddish)، و6 باللغة الفنلندية، و5 باللغة الأوكرانية، و4 باللغة الجورجية و 2 باللغة الأرمينية. وهناك 55 طبعة باللغة الألمانية، ولإمبراطورية هابسبورغ (Habsburg)، هناك تسع طبعات أخرى باللغة الهنغارية، وثمانٌ باللغة التشكيلية (لكن لا يوجد سوى ثلاث طبعات باللغة الكرواتية، وطبعة واحدة باللغة السلوفاكية وواحدة باللغة السلوفينية)، و34 طبعة باللغة الإنجليزية (شاملة الولايات المتحدة الأميركية أيضاً، حيث ظهرت الترجمة الأولى في عام 1871)، و26 طبعة باللغة الفرنسية، و11 طبعة باللغة الإيطالية - ولم تظهر الأولى حتى كان عام 1889[3]. أما وقع **البيان** في أوروبا الجنوبية الغربية فقد كان ضئيلاً، أي: كان هناك طبعات باللغة الإسبانية (وهذه تشمل الطبعات الأميركية اللاتينية)، وطبعة واحدة باللغة البرتغالية. وكذلك كان وقعه في أوروبا الشرقية الجنوبية، أي: كان هناك 7 طبعات باللغة البلغارية، 4 باللغة الصربية، 4 باللغة الرومانية، وطبعة وحيدة باللغة البلغارية، وطبعة واحدة باللغة اللادينوية (Ladino)، والمحتمل أن تكون قد نشرت في سالونيا (Salonica). وأوروبا الشمالية تمثَّلت بست طبعات في الدانمارك، وخمسٍ في السويد واثنتين في النرويج[4].

هذا التوزيع الجغرافي غير المتساوي لم يعكس تطوّر الحركة الاشتراكية غير المتساوي ونفوذ ماركس المتميّز عن الأيديولوجيات الثورية الأخرى مثل الفوضوية. ولا بدّ من أن يذكّرنا بعدم وجود علاقة تضايق قوية بين حجم وقوة الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية والعمالية وانتشار **البيان**. لذا، نجد أنه حتى عام 1905 لم ينشر الحزب الاجتماعي الديمقراطي وفيه مئات ألوف الأعضاء، وله ملايين المصوِّتين طبعات جديدة من **البيان** في سلاسل طباعية متواصلة ما يزيد على 2000 - 3000 نسخة. **وبرنامج إرفورت** (*Erfurt Programme*) لعام 1891 نشر في 120,000 نسخة، بينما لم ينشر أكثر من 16,000 نسخة من **البيان** في السنوات الإحدى عشرة من عام 1895 إلى عام 1905 - عام 1905 كان العالم الذي كان انتشار مجلّته: **الزمن الجديد** (*Die Neue Zeit*) قد بلغ 6400 نسخة[5]. فالعضو العادي في حزب اجتماعي - ديمقراطي ماركسي لم يكن يُتَوقع منه أن ينجح في النظرية. وعكس ذلك حصل، فإن السبعين طبعة روسية

ما قبل الثورة مثَّلت مجموعة من المنظمات غير شرعية في معظم الأوقات، ومجموع أعضائها الإجمالي لم يزد على آلاف قليلة. وبما يشبه ذلك حصل عندما نشرت الأربع والثلاثين طبعة من قِبَل الفئات الماركسية ولها الموجودة في العالم الأنجلوساكسوني، حيث عملت على الصف اليساري للعمال والأحزاب الاشتراكية الموجودة. وكان ذلك هو الوسط الذي فيه «يمكن قياس الوضوح عند الرفيق بعدد التعليقات على **بيانه**»[6]. وباختصار أقول، إن قراء **البيان**، بالرغم من كونهم جزءاً من الأحزاب والحركات العمالية الاشتراكية الجديدة والناشئة، لم يكونوا عيّنةً تمثِّل عضويتهم. فكانوا رجالاً ونساءً لهم اهتمام خاص بالنظرية التي تقع في أساس مثل تلك الحركات. ومن المحتمل أن يظل الحال على ذلك المنوال.

تغيّر هذا الوضع بعد ثورة أكتوبر، وذلك في جميع الأحداث في الأحزاب الشيوعية. وخلافاً للأحزاب الجمهورية في الأممية الثانية (1914 – 1889)، فإن أحزاب (1943 – 1919) توقَّعت من جميع أعضائها أن يفهم النظرية الماركسية، أو يبيّن عن معرفة ما بها. وتلاشى الانقسام الثناني بين القادة السياسيين الفعّالين غير المهتمين بكتابة الكتب و«النظريين»، مثل كارل كوتسكي المعروف والمحترم باعتباره كذلك، وصنّاع القرار السياسي العملي. واقتداءً بلينين، صار من المفترض أن يكون جميع القادة منظِّرين مهمين، لأن جميع القرارات السياسية تُسوَّغ استناداً إلى تحليل ماركسي، أو عبر الإشارة إلى مرجعية نصّية من «الآثار الكلاسيكية الماركسية الممتازة»: آثار ماركس، وإنجلز، ولينين، وفي السياق المناسب ستالين. لذا، فإن نشر كتب ماركس وإنجلز وتوزيعها العام صار شأناً رئيسياً للحركة أكثر مما كان في أيام الأممية الثانية. وهي تشمل سلسلة من الكتابات القصيرة، قد تكون استهلت بكتب الكومونارديّ الأولية (*Elementarbücher des kommuniornus*) خلال جمهورية فايمر (Weimar) وخلاصات وافية لقراءات مختارة، مثل: **مراسلات مختارة لماركس وإنجلز** (*Selected Correspondence of Marx and Engels*) و**كتابات مختارة لماركس وإنجلز** (*Selected Works of Marx and Engels*) في مجلّدين، ولاحقاً، في ثلاثة مجلّدات، والإعداد **للأعمال الكاملة** (*Gesamtausgabe*) – وجميعها مسندة (لتلك الأغراض) بمصادر غير محدودة من الحزب الشيوعي السوفيتي، وغالباً ما كانت تطبع في الاتحاد السوفيتي بلغات أجنبية مختلفة.

استفاد **البيان الشيوعي** من الوضع الجديد بطرق ثلاثة. فلا شك أن تداوله نما، والطبعة الرخيصة التي نشرتها في عام 1932 دور النشر الرسمية للأحزاب الشيوعية

الأميركية والبريطانية كانت تعد «مئات الألوف» من النسخ، وصنفت بأنها «قد تكون أكبر طبعة جمهورية صدرت في إنجلترا»[7]. فلم يعد عنوانه مجرد أثرٍ تاريخي، بل صار مرتبطاً بالسياسة الجارية. ولأن دولة كبرى أعلنت أنها تمثّل الأيدلوجيا الماركسية، فإن مركز **البيان** كنصّ مكتوب قد تعزز في العلم السياسي، فدخل في البرنامج التعليمي للجامعات، واتجه نحو التوسّع السريع بعد الحرب العالمية الثانية، حيث وجدت ماركسية القراء المفكرين جمهورها الحماسي في ستينات وسبعينات القرن العشرين.

لقد خرج الاتحاد السوفيتي من الحرب العالمية الثانية كإحدى أكبر قوتين في العالم، وكان رأس أوسع منطقة من الدول الشيوعية والبلدان التابعة. وخرجت الأحزاب الشيوعية الغربية (باستثناء لافت للحزب الألماني) من الحرب أقوى مما كانت من قبل، أو يحتمل أن تكون. ومع أن الحرب الباردة قد ابتدأت في سنة الذكرى السنوية المئوية له فإن **البيان** لم يعد ينشر من قِبَل محررين شيوعيين أو سواهم، وإنما من قِبَل ناشرين لا سياسيين على شكل سلاسل طباعية متواصلة، وفيها مقدِّمات بأقلام أكاديميين بارزين. وباختصار، لم يعد مجرد وثيقة ماركسية من الطراز الأول فقط، بل أصبح وثيقة كلاسيكية سياسية مختارة، وبكل بساطة أقول ذلك (*tout court*).

وظلّ هو، حتى بعد نهاية الشيوعية السوفيتية، وانحدار الأحزاب والحركات الماركسية في أجزاء عديدة من العالم. وفي الدول التي لا يوجد فيها رقابة على المطبوعات، يستطيع أي إنسان يمكنه الوصول إلى محل جيد لبيع الكتب، ويكون على مقربة من مكتبة جيدة، أن يصل إليه. لذا، فإن الهدف من طبعة جديدة، بمناسبة ذكراه السنوية المئة والخمسين ليس تمكين الوصول إلى نصّ هذه التحفة الرائعة ولا العودة إلى قرنٍ من النقاشات العقيدية التي دارت حول التفسير «الصحيح» لهذه الوثيقة الأساسية للماركسية. الهدف يتمثّل في تذكير أنفسنا أن **البيان** لا يزال ينطوي على الكثير مما يمكن أن يقوله للعالم، في عشيّة القرن الحادي والعشرين.

II

فما الذي عليه أن يقول؟

لا ريب في أنه وثيقة كتبت لمرحلة خاصة في التاريخ. بعضها صار مهجوراً مباشرة لكونه من الطراز القديم – على سبيل المثال، التكتيكات الموصى بها للشيوعيين في ألمانيا، التي لم تكن تلك التي طبقوها خلال ثورة عام 1848، ونتائجها. وتزداد مهجورية

نصوصها مع ازدياد الزمن الفاصل بين القراء وتاريخ كتابتها. فجيزو (Guizot) وميترنخ (Metternich) تقاعدا من قيادة الحكومات في كتب التاريخ، والقيصر (لا البابا) لم يعد موجوداً. وبالنسبة إلى دراسة «الأدب الاشتراكي والشيوعي»، فإن ماركس وإنجلز سلّما في عام 1872، أنها حتى عندئذٍ صارت عتيقة.

علاوة على ذلك، لم تعد لغة البيان الشيوعي، مع مرور الزمن، مثل لغة قرائه. فعلى سبيل المثال، قيل الكثير عن العبارة المفيدة أن تقدم المجتمع البورجوازي قد خلّص «قسماً كبيراً من السكان بلاهة الحياة الريفية». غير أن الحقيقة هي فيما يأتي: مع أنه لا يوجد ريب في أن ماركس، في ذلك الزمن، شارك احتقار إنسان المدينة المألوف للوسط الفلاّحي، وجهله به، فإن العبارة الألمانية الحقيقية، والتي هي [مُقتلع من بلاهة حياة الريف، "*dem idiotismus des landlebens entrissen*"] التي تحليلها لافت لم تشر إلى «البلاهة» (Idiot)، بل إلى «الآفاق الضيقة» (Idiocy)، أو إلى «الانعزال عن المجتمع الأوسع» الذي فيه عاش شعب الريف. فالكلمة هي صدى للمعنى الأصلي لكلمة *Idiot-es* الألمانية، التي منها اشتق المعنى الجاري لكلمة «أبله» أو «بلاهة»، أي «الشخص المهتم فقط بأموره الخاصة فقط، وليس بأمور المجتمع الأوسع». وفي مجرى العقود الزمنية، منذ أربعينات القرن التاسع عشر، وفي الحركات التي لم يكن أعضاؤها مثل ماركس من ذوي الثقافة الكلاسيكية، نجد أن المعنى الأصلي تبخَّر، وأُسيئت قراءة الكلمة.

وأكثر ما يتخلّى ذلك في المعجم السياسي. فمفردات مثل "Stand" («مِلْكية»)، "Demokratie" («ديمقراطية») و«أمة/ قومية»، إمّا لا تطبيق لها في سياسة أواخر القرن العشرين أو لم يعد لها المعاني التي كانت لها في الخطاب السياسي أو الفلسفي في أربعينات القرن التاسع عشر. ولنأخذ مثلاً واضحاً، وهو، أن «الحزب الشيوعي الذي له ذلك البيان، لا علاقة له البتّة بالأحزاب السياسة الديمقراطية الحديثة، أو «بالأحزاب الطليعية» (Vanguard Parties) للشيوعية اللينينية، فضلاً عن أحزاب الدولة من النمط السوفيتي أو الصيني. ولا أحد من هذه الأحزاب كان موجوداً. فلا تزال كلمة «حزب» تعني، جوهرياً اتجاهاً لرأي أو تياراً لرأي أو سياسة، بالرغم من أن ماركس وإنجلز أدركا أنه حالما يجد ذلك تعبيراً في حركات طبقية، فإنه يتطور إلى نوع من التنظيم، وهذا التنظيم للبروليتاريا لكي تصبح طبقة وتصير بالتالي حزباً سياسياً.

("Diese organisation der proletarier zur klasse, und damit zur poli-tischen partei") لذا، كان هناك التمييز في القسم الرابع بين الأحزاب «العمالية»

التي سبق تأسيسها... والوثيقيين في إنجلترا والمصلحين الزراعيين في أميركا الشمالية، والجماعات الأخرى، التي لم تتأسس بعد[8]. وكما أوضح نصّ الوثيقة، لم يكن حزب ماركس وإنجلز الشيوعي في تلك المرحلة نوعاً من التنظيم، كما أنه لم يحاول تأسيس حزب ذي تنظيم، فضلاً عن منظمة ذات برنامج خاص متميّز عن المنظمات الأخرى[9]. وفي هذه المناسبة أقول، إن الكيان الحقيقي الذي كتب **البيان** لأجلها، أعني العصبة الشيوعية، لا ذكر له فيه.

علاوةً على ذلك، الواضح هو أن **البيان الشيوعي** لم يُكتب في وضع تاريخي خاص له، فحسب، بل هو أيضاً يمثّل طوراً واحداً - طوراً غير ناضج نسبياً - من أطوار نظور الفكر الماركسي. وأكثر ما يتجلّى ذلك جوانبه الاقتصادية. ومع أن ماركس شرع في دراسة الاقتصاد السياسي دراسةً جدّية منذ عام 1843، إلاّ أنه ينطلق انطلاقة جدّية لتطوير التحليل الاقتصادي المعروض في كتاب: **رأس المال** حتى وصل إلى مغتربه الإنجليزي بعد ثورة 1848، وتوافر له الوصول إلى كنوز المكتبة المتحفية البريطانية (British Museum Library)، في صيف عام 1850. لذا، فإن التمييز بين بيع البروليتاري **لعمله** للرأسمالي وبيع قوة عمله، هو التمييز الجوهري للنظرية الماركسية الخاصة بفضل القيمة والاستغلال، ولم يكن قد أنشئ بعد في **البيان**. كما لم يكن لماركس الناضج الرأي المفيد أن سعر سلعة «العمل» هو تكلفة إنتاجها، أي تكلفة الحدّ الأدنى الفيزيولوجي الذي يبقى العامل حيّاً. وباختصار، لقد كتب ماركس **البيان الشيوعي** كريكاردي (Ricardian) شيوعي، لا كاقتصادي ماركسي.

مع ذلك، ومع أن ماركس وإنجلز ذكّرا القرّاء أن **البيان الشيوعي** هو وثيقة تاريخية، ولم يعد صالحاً من وجوه عديدة، فإنهما عزّزا وأيّدا نشر نصّ عام 1848 مع تحسينات وتوضيحات طفيفة نسبياً[10]. وأدركا أنه ظلّ بياناً رئيسياً من التحليل ميّز شيوعيتهما عن جميع المشاريع الأخرى الخاصة بخلق مجتمع أفضل. ومن حيث جوهره، فإن ذلك التحليل كان تاريخياً. وجوهره كان البرهان على وجود تطور تاريخي للمجتمعات خاصة المجتمع البورجوازي، الذي حلّ محلّ أسلافه، وثوَّر العالم، وبدوره خلق بشكل حتمي شروط ما سيخلفه بالضرورة. وخلافاً للاقتصاد الماركسي، وجد «المفهوم المادي للتاريخ» الذي يقع في أساس ذلك التحليل صياغته الناضجة في منتصف أربعينات القرن التاسع عشر. وظلّ كما هو جوهرياً ولم يتغير في السنوات اللاحقة[11]. ومن هذا الوجه، كان **البيان** وثيقة تعريفية للماركسية. فهو جسَّد الرؤية التاريخية، بالرغم من أن إطاره العام ظلَّ بحاجة إلى الملء بتحليل أكمل.

III

كيف يمكن أن يلفت **البيان الشيوعي** القارئ الذي يقرؤه لأول مرة؟ والجواب هو أن القارئ لا يمكن أن لا ينجرف بالاعتقاد العاطفي العميق بالإيحاء المركَّز وبالقوة الفكرية والأسلوبية لتلك الكراسة المدهشة. فكأنه كتب في تفجّر خلاّق مزيد بجمل مصقولة متحولة بشكل طبيعي إلى أمثال أو حكم لا تُنسى صارت معرفتها تتجاوز عالم النقاش السياسي: بدءاً من المطلع الافتتاحي: «شبح يتردّد على أوروبا – شبح الشيوعية»، إلى الخاتمة التي تقول: «لن يخسر البروليتاريون شيئاً سوى أغلالهم، فلديهم عالم ليملكوه»[12]. كما كتب أيضاً بلغة الكتابة في القرن التاسع عشر، أي بفقرات قاطعة مؤلفة من سطر إلى خمسة أسطر، وليس إلاّ في حالات خمس من أكثر من مئتي حالة، كانت الفقرة تتألف من 15 سطراً أو أكثر. ومهما يكن، وأي شيء كان، فإن **البيان الشيوعي** بوصفه خطاباً سياسياً كان له قوة الكتاب المقدَّس. وباختصار، يستحيل إنكار قوته الفارضة نفسها، كأثر أدبي[13].

ومهما يكن من أمر، فإن ما سوف يلفت القارئ المعاصر أيضاً هو التشخيص الرائع للطابع الثوري «للمجتمع البورجوازي» ووقعه. فالمسألة ليست ببساطة تفيد أن ماركس عرف وأعلن عن الإنجازات والدينامية الرائعتين لمجتمع كرهه، مما فاجأ أكثر من مدافع لاحق عن الرأسمالية ضد الخطر التهديدي الأحمر. المسألة تمثل في أن العالم تحوَّل بالرأسمالية التي وصفها في عام 1848، بمقاطع بليغة مقتضبة قائمة إلى العالم الذي نعيش فيه، بعد مرور 160 سنة. واللافت بغرابته هو أن التفاؤلية السياسية وغير الواقعية لثوريَّيْن في الثمانية والعشرين وفي الثلاثين سنة أثبتت أنها قوة **البيان** الأقوى والأبقى. لأنه، بالرغم من أن «شبح الشيوعية» (Spectre Communism) قد انتاب أفكار السياسيين، وبالرغم من أن أوروبا كانت تعيش في فترة رئيسية من فترات أزمة اقتصادية واجتماعية كانت على وشك الانفجار في ثورة، على مساحة القارة هي الأعظم في تاريخها، لم يكن هناك بشكل واضح أساس كافٍ لاعتقاد **البيان الشيوعي** المفيد أن لحظة إسقاط الرأسمالية تقترب («الثورة البورجوازية في ألمانيا ليست إلاّ مقدِّمة لثورة بروليتازية آتية حالاً»). على العكس من ذلك كان الذي حصل. فكما نعرف، صارت الرأسمالية مهيأة وجاهزة للدخول في عصرها الأول، عصر التقدم المظفَّر العالمي.

ما يضفي على **البيان الشيوعي** قوته شيئان. الأول يَمْثُلُ في رؤيته التي تفيد أنه، حتى في مطلع المسيرة المظفَّرة للرأسمالية، فإن نمط الإنتاج هذا ليس باقياً، ومستقراً وأنه

«نهاية التاريخ»، بل هو مرحلة مؤقتة في تاريخ البشرية، وهو مثل سابقيه، سيخلفه نوع آخر من المجتمع (إلاّ - عبارة **البيان** لم تلحظ كثيراً - إذا غرق في «الحزب العام للطبقات المنازعة»). والشيء الثاني يتمثَّل في إدراكه الميول التاريخية الضرورية **وطويلة المدى** الخاصة بالتطور الرأسمالي. فالإمكانية الثورية للاقتصاد الرأسمالي كانت واضحةً، ولم يدَّعِ ماركس وإنجلز أنهما الوحيدان اللذان أدركاها. فمنذ الثورة الفرنسية كان لبعض الميول الذي لاحظاه أثر جوهري واضح - مثلاً، أفول «الأقاليم المستقلة وذات الروابط الرخوة مع المصالح المنفصلة والقوانين، والحكومات، وأنظمة الضريبة» أمام الدول القومية «ذات الحكم الواحد، ومجموعة قوانين واحدة، ومصلحة طبقية قومية واحدة، وحدود واحدة وتعرفة جمركية واحدة». ومع ذلك، وبحلول أواخر أربعينات القرن التاسع عشر، كان ما حققته «البورجوازية» أقل بمقدار كبير من العجائب المنسوبة إليها في **البيان الشيوعي**. وإجمالاً كان ما أنتجه العالم في عام 1850 لا يزيد على 71,000 طن من الفولاذ (70٪ منها في بريطانيا تقريباً) وأنشأ أقل من 24,000 ميل من سكك الحديد (ثلثاها في بريطانيا والولايات المتحدة). ولم يجد المؤرخون صعوبة في تبيان أن الثورة الصناعية (والثورية الصناعية تعبير استعمله إنجلز، تحديداً منذ عام 1844 وما بعده)[14]، حتى في بريطانيا، لم تخلق بلاداً صناعية أو بلاداً مدينيّة، بشكل سائد قبل خمسينات القرن التاسع عشر. فلم يصف ماركس وإنجلز العالم الذي حوّلته الرأسمالية في عام 1848، لكنهما تنبّأا كيف أن مصيره سيتحول بها منطقياً.

نحن نعيش الآن في عالم، حصل فيه التحوّل بشكل كبير، بالرغم من أن قراء **البيان** في الألفية الثالثة للتقويم الغربي سيلاحظون بلاشك أنه تقدَّم تقدماً أكبر، منذ عام 1998. ومن بعض النواحي يمكننا أيضاً أن نرى قوة نبوءات **البيان** بوضوح أكبر من رؤية الأجيال الممتدّة بيننا وزمن نشره. لأنه إلى أن كانت الثورة في المواصلات والاتصالات منذ الحرب العالمية الثانية، كانت هناك حدود لعولمة الإنتاج، و«لإضفاء طابع كوزموبوليتاني على الإنتاج والاستهلاك في كل قطر». وإلى سبعينات القرن العشرين، ظل التصنيع محصوراً بصورة غالبة في مناطق منشئه. ويمكن لبعض مدارس الماركسيين أن يناقش ويقول، إن الرأسمالية على الأقل في شكلها الإمبريالي هي أبعد ما يكون عن «إلزام جميع الأمم، على تبنّي نمط الإنتاج الرأسمالي، وإلاّ فإنها ستكون معرضةً للانقراض، هي الرأسمالية بطبيعتها تديم أو تخلق تخلّفاً في ما يدعى العالم الثالث. وعندما يعيش ثلث البشر في أنظمة اقتصادية من النمط الشيوعي السوفيتي، فإن الأمر يبدو وكأن الرأسمالية لن تنجح أبداً في إلزام جميع الأمم «تغيير بورجوازية

هي ذاتها». فهي لن «تخلق عالماً على صورتها». يضاف إلى ذلك، أنه قبل ستينات القرن العشرين، لم يحصل تحقق من صحة إعلان **البيان الشيوعي** المفيد أن الرأسمالية سببت دمار الأسرة، حتى في الأقطار الغربية المتقدمة، حيث نجد اليوم أن نصف الأطفال يولدون لأمهات عزباوات أو يربّون من قبلهن، وأن نصف عدد الأسر في المدن يتألف من أشخاص عُزَّب.

وباختصار أقول، إن الذي لفت القارئ غير الملتزم بأنه خطاب ثوري أو في أفضل الحالات بأنه تنبؤ معقول، يمكن قراءته الآن، بأنه توصيف دقيق للرأسمالية في نهاية القرن العشرين.

فمن أي وثيقة أخرى تعود إلى أربعينات القرن التاسع عشر يمكن قول ذلك؟

IV

على أي حال، إذا كان علينا في نهاية الألفية أن نلتفت إلى دقة رؤية **البيان الشيوعي** للمستقبل الذي كان قصيّاً زمانئذٍ لرأسمالية عالمية واسعة، فإن إخفاق نبوءة أخرى من نبوءاته هي لافتة للنظر أيضاً. فالواضح الآن هو، أن البورجوازية لم تخلق «وقبل أي شيء حفّاري قبرها» في البروليتاريا. «فسقوطها وانتصار البروليتاريا» لم يثبت أنهما «حتميان أيضاً». فالتعارض بين نصفي تحليل **البيان الشيوعي**، في قسمه المتعلق بـ «البورجوازية والبروليتاريين» يستدعي شرحاً توضيحياً أوسع مما كان في وقت الذكرى المئوية لتأسيسه.

المسألة ليست في رؤية ماركس وإنجلز للرأسمالية التي حوّلت تحويلاً ضرورياً، معظم الشعب الذي يعيش أفراده في ذلك الاقتصاد إلى رجال ونساء يعتمدون في عيشهم على تأجير نفوسهم مقابل أجور أسبوعية أو رواتب شهرية. ولا ريب في أنها مالت إلى فعل ذلك، مع أننا اليوم نجد أن مداخيل بعضهم من الموظفين التقنيين له راتب شهري لا يجعلنا نحسبه بروليتارياً، مثل الإداريين التنفيذيين في الشركات. كما أنها لا تَمْثُل جوهرياً في اعتقادهما أن معظم ذلك الشعب العامل سيكون مؤلفاً من قوة عمل مؤلفة من عمال **صناعيين**. وفي حين ظلَّت بريطانيا العظمى استثنائية، كقطر شكل فيه العمال اليدويون ذوو الأجرة الأسبوعية الأكثرية المطلقة من السكان، فإن تطوَّر الإنتاج الصناعي تطلَّب طاقات كبيرة ومتزايدة من العمل اليدوي لما ينوف (ص 287 بدفتر رقم 5) على قرن بعد صدور **البيان الشيوعي**. وما لا شك فيه، أن ذلك لم يعد

الحالة في الإنتاج الحديث الرأسمالي المركَّز وذي التكنولوجيا العالية، وهو تطوّر لم يبحث في **البيان الشيوعي**، بالرغم من أن ماركس تصوَّر في أبحاثه الاقتصادية الأكثر نضجاً، التطور الممكن لاقتصاد لا عمالي متزايد في العصر الما بعد الرأسمالي على الأقل[15]. وحتى في اقتصاد الرأسمالية الصناعي القديم، كانت النسبة المئوية لمن وظفوا في صناعة المعامل مستقرة حتى سبعينات القرن العشرين، باستثناء الولايات المتحدة الأميركية، حيث بدأ الانحدار قبل ذلك بقليل. والواقع هو أن العمال الصناعيين في عام 1970 شكلوا نسبة من مجموع السكان المنشغلين في العالم الصناعي والتصنيعي، بنسبة أكبر من ذي قبل، باستثناءاتٍ قليلةٍ جداً منها بريطانيا، وبلجيكا والولايات المتحدة.

ومهما يكن من أمر، فإن الإطاحة بالرأسمالية التي تصوَّرها **البيان الشيوعي** لا تعتمد على التحوّل القبلي **لأكثرية** السكان المنشغلين إلى بروليتاريين، وإنما تعتمد على الافتراض المفيد أن وضع البروليتاريا، في الاقتصاد الرأسمالي كان بشكل يفيد أنه حالما تُنظَّم كحركة طبقية سياسية، لا بدَّ منها، فإنها ستقود، وتحشد حولها الطبقات الساخطة الأخرى، وبالتالي، تكتسب قوة سياسية بوصفها «الحركة المستقلة ذات الأكثرية الهائلة، وتكون لمصالح الأكثرية الهائلة». وهكذا، فإن البروليتاريا سوف «تنهض لتكون الطبقة القائدة للأمة... وتؤلف هي ذاتها الـ أمة»[16].

وبما أن الرأسمالية لم تحصل الإطاحة بها، فإننا ميّالون لصرف النظر عن هذه النبوءة. ومع ذلك، ومع أنه من غير المحتمل أبداً أن تبدو السياسة كذلك في عام 1848، فإن سياسة معظم الأقطار الرأسمالية الأوروبية كان سيتحول، بنشوء الحركات السياسية المنظمة القائمة على طبقة العمال ذات الوعي الطبقي، التي لم يكن لها ظهور خارج بريطانيا العظمى. فقد ظهرت الأحزاب العمالية والاشتراكية في معظم أجزاء العالم «النامي» في ثمانينات القرن التاسع عشر، وصارت أحزاباً جمهورية في دول ذات امتياز ديمقراطي، وعملت كثيراً لحصوله. وخلال الحرب العالمية الأولى وبعدها، نرى أنه كما عمل فرع من «الأحزاب البروليتارية» على اتّباع الطريق الثوري الذي سلكه البلاشفة، فإن فرعاً آخر أصبح الأعمدة الثابتة لرأسمالية ذات ديمقراطية. ولم يعد الفرع البلشفي ذا أهمية كبيرة في أوروبا، أو تحولت أحزاب من هذا النوع إلى الديمقراطية الاجتماعية. وكانت الديمقراطية الاجتماعية، كما فهمت في أيام بيبل، وكليمنت آتلي (Clement Attlee) أيضاً، تحارب عبر عمل دفاعي تعويقي، في تسعينات القرن العشرين. على كل حال، وفي كتابتنا هذه (1997)، كانت الأحزاب المتحدِّرة من الأحزاب الديقراطية الاجتماعية في الأممية الثانية، التي ظلَّت أحياناً محتفظة بأسمائها الأصلية، هي أحزاب

الحكومات كلها، باستثناء دولتين أوروبيتين غربيتين (إسبانيا وألمانيا)، وفي كليهما صنعت تلك الأحزاب في الماضي حكومات، ومن المحتمل أن تستمر في فعل ذلك من جديد.

باختصار، إن الخطأ لم يكن في نبوءة **البيان الشيوعي** المقلقة بالدور المركزي للحركات السياسية القائمة على الطبقة العاملة (وأحياناً، كانت تحمل اسم الطبقة كما حصل في الأحزاب العمالية البريطانية، والهولندية، والنرويجية والأسترالية). فالافتراض هو أنه «من بين جميع الطبقات التي تجابه البورجوازية اليوم، وحدها البروليتاريا تؤلف الطبقة الثورية الحقيقية، والمقدَّر لها بصورة حتمية ومتضمَّنه في طبيعة وتطور الرأسمالية، هي التي يترتَّب عليها الإطاحة بالبورجوازية: «فسقوطها وانتصار البروليتاريا محتومان، على حدّ سواء».

لا بدّ من الإشارة إلى أنه، حتى في أربعينات المجاعة السيئة السمعة، كانت الآلية التي كان عليها أن تضمن ذلك، أعني إملاق العمال الحتمي[17]، لم تكن معقولة عندئذٍ، إلاّ استناداً إلى الافتراض الذي لم يكن معقولاً عندئذٍ، والمفيد أن الرأسمالية كانت تمر في أزمتها الأخيرة، حيث كانت على وشك السقوط **الفوري**. فقد كانت آلية مزدوجة. فبالإضافة إلى أثر الإملاق على الحركة العمالية، فقد برهنت أن البورجوازية كانت «غير ملائمة للحكم، لأنها عاجزة عن ضمان الوجود لعبدها داخل عبوديته، لأنها لا تقدر أن تسمح له بالتفريق في مثل تلك الحالة، وأن عليها أن تطعمه بدلاً من يطعمها». فعوضاً عن توفير الربح الذي هو الوقود الذي يشغِّل ماكنة الرأسمالية، فإن العمال الآن راحوا يصرِّفونه ويخفِّفونه. غير أن السؤال هو: استناداً إلى الطاقة الاقتصادية الهائلة للرأسمالية المشروحة بشكل دراماتيكي في **البيان الشيوعي**، لماذا يكون المحتوم هو أن الرأسمالية عاجزة عن توفير العيش، مهما كان بائساً، لمعظم الطبقة العاملة، أو عوضاً عن ذلك، توفير نظام رعاية؟ هل، لأن «الإملاق (الدفتر 5 ص 292) [بالمعنى الدقيق] يتطور بسرعة أكثر من سرعة نمو السكان والثروة»؟[18] وإذا كان للرأسمالية حياة طويلة قبله، فكان يجب ألاّ يحدث ذلك، والواقع أنه لم يحدث - كما اتَّضح ذلك سريعاً، بعد عام 1848.

إن رؤية **البيان الشيوعي** للتطور التاريخي «للمجتمع البورجوازي» بما في ذلك الطبقة العاملة التي يولِّدها، لا يؤدي، بالضرورة، إلى النتيجة المفيدة أن البروليتاريا سوف تطيح بالرأسمالية، وبفعلها هذا ستفتح الطريق لتطوّر الرأسمالية وذلك لأن الرؤية والنتيجة لم يُستمدا من التحليل ذاته. فهدف الشيوعية المتبنى قبل أن يصير

ماركس «ماركسياً» لم يكن مستمداً من تحليل طبيعة الرأسمالية وتطورها، وإنما استمد من حجّة فلسفية، بل أجزويّة، تتعلق بالطبيعة البشرية ومصير الإنسان. فالفكرة - الأساسية عند ماركس منذئذٍ، وما بعد - المفيدة أن البروليتاريا طبقة عاجزة عن تحرير نفسها من دون تحرير المجتمع ككل، ظهرت أول ما ظهرت «كاستنتاج فلسفي، وليس نتيجة للملاحظة»[19]. وكما قال جورج لختايم: «كان أول ظهور للبروليتاريا في كتابات ماركس بوصفها قوة اجتماعية مطلوبة لتحقيق أهداف الفلسفة الألمانية»، كما رآها ماركس في [20] 1843-1844.

في ذلك الزمن كانت معرفة ماركس بالبروليتاريا ضئيلة، ولا تزيد عن «أنها لم توجد في ألمانيا إلاّ نتيجة للتطور الصناعي الناهض» وهذا هو بالضبط إمكانيتها كقوة تحريرية مختلفة عن جماهير المجتمع التقليدي الفقيرة، فقد كانت وليد «**انحلال قاس** للمجتمع»، لذا، فإن وجودها "**إعلان عن انحلال النظام العالمي القائم آنذاك**». وكانت معرفته أقل من الحركات العمالية، بالرغم من أنه امتلك معرفة كبيرة بتاريخ الثورة الفرنسية. وقد وجد في إنجلز شريكاً جلب للشراكة مفهوم «الثورة الصناعية»، وفهماً لدينامية الاقتصاد الرأسمالي، كما كان موجوداً في بريطانيا، وبقايا تحليل اقتصادي[21]، كلاهما أدّيا به إلى التنبؤ بثورة اجتماعية مستقبلية تقوم بها طبقة عمالية حقيقية عرف عن عيشها وعملها في بريطانيا مقداراً كبيراً، في أوائل أربعينات القرن التاسع عشر. فكانت مقاربتا ماركس وإنجلز «للبروليتاريا» والشيوعية متكاملتين. وكذلك كان مفهومهما للصراع الطبقي بوصفه محرِّك التاريخ كما هو عند ماركس مستمد بمقدار كبير من درس مرحلة الثورة الفرنسية، وعند إنجلز كان من تجربة الحركات الاجتماعية في بريطانيا الما بعد النابوليونية. فلا غرابة في أنهما وجدا نفسيهما (وبحسب كلمات إنجلز) «متفقين في جميع الميادين النظرية»[22]. فإنجلز جلب لماركس عناصر نموذج برهن على الطبيعة المتقلِّبة، والمزعزعة لعمليات الاقتصاد الرأسمالي - خاصة الإطار العام لنظرية حول الأزمات الاقتصادية-[23] ومادة تجريبية حسّية تتعلق بنهوض حركة الطبقة العمالية البريطانية، والدور الثوري الذي تتمكن من أدائه في بريطانيا.

وفي أربعينات القرن التاسع عشر، كان الاستنتاج، المفيد أن المجتمع على حافة الثورة، معقولًا كما لم تكن غير معقولة النبوءة التي قالت، إن الطبقة العاملة، مهما كانت حالة عدم نضجها، ستقود تلك الثورة. وأخيراً، وخلال أسابيع من نشر **البيان الشيوعي**، تمكنت حركة من عمال باريس من الإطاحة بالملكية الفرنسية، وأعطت إشارة الثورة لنصف أوروبا. ومع ذلك، فإن ميل التطور الرأسمالي لتوليد بروليتاريا

ثورية بالمعنى الجوهري، لا يمكن استنتاجه من تحليل طبيعة التطور الرأسمالي. فهو نتيجة ممكنة واحدة لذلك التطور، لكن لا يمكن تبيان أنه النتيجة الممكنة الوحيدة. كما لا يمكن البرهان على أن الإطاحة الناجحة بالرأسمالية من قِبَل البروليتاريا لا بدَّ لها من أن تفتح الباب وسيعاً للتطور الشيوعي. (والبيان الشيوعي لم يزعم أكثر من أنها ستطلق عندئذٍ، عملية تغيّر تدريجي جداً)[24]. فنبوءة ماركس التي تقول، إن البروليتاريا التي جوهرها ذاته يتمثّل في تحريرها الإنسانية كلها، ووضع نهاية للمجتمع الطبقي عبر إطاحتها بالرأسمالية مثَّلت أملًا يُقرأ في تحليله للرأسمالية، لا نتيجة يفرضها تحليله، بالضرورة.

لا ريب في أن ما يؤدي إليه تحليل البيان الشيوعي للرأسمالية، خاصة عندما يوسّعه تحليل ماركس للتركز الاقتصادي، الذي لم تذكر لمحة عنه في عام 1848، هو عبارة عن نتيجة عامة وليست خاصة عن القوى الذاتية التدمير والموجودة في التطور الرأسمالي. ولا بدَّ من أن يصل إلى مرحلة – واليوم لا يقتصر قبول هذا على الماركسيين – تكون فيها «علاقات الإنتاج والمقايضة البورجوازية، وعلاقات الملكية، والمجتمع البورجوازي الحديث التي استحضرت أرواح مثل وسائل الإنتاج والمقايضة العملاقة، هي مثل ذلك الساحر المشعوذ الذي لم يعد قادراً على ضبط وإدارة قوى العالم التحت الأراضي الذي يناديه... فقد صارت العلاقات البورجوازية أضيق من أن تشتمل الثروة التي تخلقها».

ليس من غير المعقول الاستنتاج أن «التناقضات» الموجودة في صميم نظام السوق ليست قائمة على روابط بين البشر، وغير رابطة المنفعة الذاتية وغير «الأجرة النقدية» (Cash Payment) أي نظام استغلال وتراكم لا نهاية له، هو نظام لا يمكن التغلّب عليه، وأنه في مرحلة من مراحل سلسلة من التحوّلات وإعادة البناء. سيؤدي تطور هذا النظام ذي الزعزعة الذاتية إلى حالة من الأمور لا يعود ممكناً وصفها بالرأسمالية، أو نستشهد بماركس عندما قال «عندما يصل تركّز وسائل الإنتاج واشتراكية العمال يصلان إلى نقطة لا يعودان عندها منسجمين مع غلافهما الرأسمالي»، «يتفجّر ذلك الغلاف إرَباً»[25]. وما سيكون اسم حالة الأمور اللاحقة ليس مهماً. على كل حال، إن الذي يحصل هو، كما برهنت آثار الانفجار الاقتصادي العالمي على البيئة العالمية، فلا بدَّ من أن يكون لها بالضرورة نقلةٌ قوية بعيدة عن الاستيلاء الخاص إلى الإدارة الاجتماعية على مستوى عالمي.

ومن غير المحتمل جداً أن يكون مثل هذا «المجتمع الما بعد الرأسمالي شبيهاً بالنماذج التقليدية للاشتراكية، وللاشتراكيات «التي وجدت وجوداً واقعياً» في العصر السوفيتي. أما الأشكال التي سيتخذها، وبأي مقدار سيجسِّد القيم الإنسانية لشيوعية ماركس وإنجلز، فيعتمدان على العمل السياسي الذي عبره سيكون ذلك التغيّر. لأن هذا، وكما ورد في **البيان الشيوعي**، هو مركزي لتشكيل التغيّر التاريخي.

V

بحسب النظرة الماركسية، ومهما كان وصفنا لتلك المرحلة التاريخية عندما يتفجَّر الغلاف إرَباً، فإن السياسة ستكون عنصراً جوهرياً فيها. لقد قُرأ **البيان الشيوعي** وفهم على أنه بصورة رئيسية وثيقة حتميّة تاريخية، واستمدت قوتها فعلياً بمقدار كبير من الثقة التي ولَّدها لدى قرّائه بأن الرأسمالية محتومة وحتمية لا مهرب من أن تُدفن من قِبَل حفّاري قبرها، وأن الآن وليس في عصر سابق في التاريخ جاءت ساعة التحرير. وخلافاً للافتراضات الشائعة، التي تقول إن **البيان الشيوعي** يعتقد أن التغيّر التاريخي يكون من صنع البشر وهم يصنعون تاريخهم، فإن **البيان** ليس بوثيقة حتمية. فالقبور لا بدَّ من أن يحفرها العمل الإنساني وعبره.

والحق يُقال، إن القراءة الحتمية للحجّة ممكنة. فقد قيل إن إنجلز مال إلى ذلك أكثر من ماركس بشكل طبيعي، مع نتائج مهمة لتطور النظرية الماركسية وحركة العمال الماركسية، بعد وفاة ماركس. وعلى كل حال، بالرغم من الاستشهاد بمسوّدات إنجلز الخاصة الأولى كدليل[26]، فالواقع هو عدم إمكانية قراءته في **البيان الشيوعي** ذاته. فعندما يغادر ميدان التحليل التاريخي ويدخل في الزمن الحاضر، فإنه يكون عبارة عن وثيقة خيارات، وإمكانيات سياسية لا احتمالات، فضلاً عن المسائل اليقينيّة. فبين «الآن» والزمن الذي لا يمكن التنبؤ به، عندما يكون «في مجرى التطوّر» شراكة يكون فيها «التطور الحرّ لكل واحد هو شرط التطور الحر للجميع»، يقع ميدان العمل السياسي.

فالتطبيق الاجتماعي العملي وعبر الفعل الجمعي يؤلفان جوهر التغيّر التاريخي. ورأى **البيان الشيوعي** تطوّر البروليتاريا بوصفها «تنظيم البروليتاريين في طبقة، وبالتالي في حزب سياسي». وإن «احتلال السلطة السياسية من قِبَل البروليتاريا» («الفوز بالديمقراطية») يشكل «الخطوة الأولى في ثورة العمال»، ومستقبل المجتمع يعتمد على الأعمال السياسية اللاحقة التي سيقوم بها النظام الجديد (كيف سُتوظِّف البروليتاريا

سيادتها السياسية) إن الالتزام **بالسياسة** هو الذي ميّز تاريخياً الاشتراكية الماركسية عن الفوضويين، وأسلاف الاشتراكيين الذين شجبوا **البيان الشيوعي**، وبصورة خاصة رفضهم لكل عمل سياسي. وقبل لينين لم تقتصر النظرية الماركسية على وصف «ما يبيّنه التاريخ عما سيحدث» بل شملت أيضاً وصف «ما يجب فعله». وما لا يمكن إنكاره هو أن التجربة السوفيتية في القرن العشرين علَّمتنا أنه من الأفضل عدم القيام «بما يجب فعله» في ظروف تاريخية تجعل النجاح مستحيلاً. غير أن هذا الدرس أيضاً أمكن تعلّمه من النظر في النتائج المتضمَّنة في **البيان الشيوعي**.

غير أن **البيان الشيوعي**، حالتئذٍ، لا يكون وثيقة فيها تصوّر للمستقبل - وهذه ليست أقل صفة من صفاته الرائعة. فقد أمِلَ أن يكون حاصل التطور الرأسمالي «إعادة بناء ثورية للمجتمع ككل»، لكنه، وكما سبق أن رأينا، لم يستثنِ الخيار البديل، ألا وهو: «الخراب المشترك» (Common Ruin).

بعد ذلك بسنوات عديدة، أعاد ماركسيّ آخر صياغة ذلك بالقول، إنه خيار بين الاشتراكية والبربرية. فأي واحد منهما سيفوز ويسود؟، سؤال على القرن الحادي والعشرين أن يجيب عليه.

الفصل السادس

اكتشاف غروندريسّه(*)

موقع **الغروندريسّه** في مجموعة أعمال ماركس موقع متميزٌ من نواحٍ عدة. ففي المقام الأول، كانت الخطوط الأساسية التي اشتمل عليها الكتاب المثلِ الوحيد في المجموعة الرئيسية لكتابات ماركس الناضجة، التي لم تكن معروفة بالكامل عملياً من قبل الماركسيين لما ينوف على نصف قرن بعد وفاة كارل ماركس، والواقع هو أنها لم تكن متاحةً بصورة كاملة إلى ما بعد قرن بعد تركيب المخطوطات التي تمَّ جمعها بهذا الاسم. ومهما يكن الجدل حول أهميتها، فإن كتابات 1857 – 1858، التي هي بشكل واضح جزء من الجهد الفكري الذي بُذِل لإنتاج كتاب: **رأس المال**، مثّلت ماركس في زمن نضجه كاقتصادي على الأقل. وهذا ما يميّز غروندريسّه عن الإضافة الأولى لمجموعة الكتب الماركسية بعد وفاة المؤلف، أي الأعمال المبكِّرة(**) (Fruehschrift-en) وقد حصل جدل كبير محقٌّ أو مخطئ حول الموقع الدقيق لتلك الكتابات الخاصة بأوائل أربعينات القرن التاسع عشر في تطور ماركس النظري، لكن لا وجود لمثل ذلك الخلاف، حول نضج كتابات 1857 – 1858.

من ناحية ثانية، وبصورة لافتة، حصل نشر غروندريسّه في ظلّ ما يمكن اعتباره أقل الأحوال ملائمة لتطور دراسات ماركس والتفكير الماركسي، أي في الاتحاد السوفيتي وجمهورية ألمانيا الديمقراطية، في أوج عهد ستالين. وكما اكتشف المحررون

(*) تعني **الخطوط الأساسية** في اللغة الألمانية (المترجم).

(**) تعني الأعمال المبكّرة في الألمانية. وأبرز ما فيها مخطوطات عام 1848 (المترجم).

المهتمون بالطبعات الأجنبية لكتاباتهما، كان نشر كتب ماركس خاضعاً للحصول على ترخيص من السلطة السياسية، وظل الحال كذلك إلى وقت لاحق. وعدم الوضوح ما زال قائماً في المسائل المتعلقة بكيفية حصول تطهير معهد ماركس وإنجلز وإقصاء مؤسسه ومديره، وقتله بعد ذلك، أو كيف نجا بول ويلّر (Paul Weller) من رعب 1936 – 1938، وهو الذي كان مسؤولاً عن العمل بالمخطوطة من عام 1925 إلى عام 1939. وقد يساعد القول، إن السلطات لم تكن تعرف ما تفعل بهذا النصّ الكبير والصعب. على كل حال، كان لهم شكوكهم حول مرتبته الدقيقة، ولم تكن لأن نظرة ستالين أفادت أن تلك المخطوطات كمسوَّدات كانت أقل أهمية من المجلّدات الثلاثة لكتاب **رأس المال**، التي عكست وضعه الناضج ونظراته المكتملة فحسب. والواقع هو أن غروندريسّه لم ينشر بكامله بترجمة روسية حتى كان 1968 – 1969، ولم تنشر الطبعة الألمانية (موسكو)، طبعة 1939 1941، ولا طبعته المعادة، طبعة 1953 (برلين)، كجزء من عمل كبير ميغا (MEGA) [لكن «على شكل كبير ميغا»]، أو كجزء من **الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز**. وبعكس ما أصاب الأعمال المبكِّرة لعام 1844، التي اختفت من مجموعة ماركس الكاملة والرسمية، بعد ظهورها الأصلي في الميغا (1932)، فإنها نشرت في الاتحاد السوفيتي، وفي أوج العهد الستاليني نفسه.

أما الميزة الخاصة الثالثة فتتمثَّل في الشكوك التي دارت حول مرتبة مخطوطات 1857 – 1858، التي انعكست في الاسم المتغيّر للوثائق في معهد ماركس – إنجلز – لينين في ثلاثينات القرن العشرين. إلى أن اكتسبت عنوانها **غروندريسه** (*Gun-drisse*) قبل طباعتها بقليل. والواقع هو أن الطبيعة الدقيقة لعلاقتها بالمجلدات الثلاثة لكتاب **رأس المال**، كما نشره ماركس، وأعيد بناؤها من قِبَل إنجلز، واستناداً إلى ملاحظات كوتسكي في 1861 – 1863 بوصفها نوعاً من المجلد الرابع [**نظريات القيمة الفائضة**]، فإن تلك الوثائق ظلّت خاضعة للنزاع الجلدلي. فلم يبدُ أن كوتسكي الذي اطلع عليه عرف ما يفعل بها. فقد نشر مقتطفيْن منها في مجلّته **الزمن الجديد** ولا أكثر. فكانت مختصراً لكتاب **باستيات وكاري** (*Bastiat and Carey*) (1904) الذي كان له وقعٌ طفيف، لذا، استدعى مقدِّمة لكتاب: **نقد الاقتصاد السياسي** (1903) لم يكتمل، لذلك لم ينشر مع الكتاب الذي حمل ذات العنوان في عام 1859 وصار الكتاب الأول للراغبين في توسيع التفسير الماركسي ليتعدّى التفسيرات التقليدية السائدة، والماركسيين النمساويين خاصة. وإلى يومنا، قد يكون أكثر أجزاء **الفروندريسّه** الذي نوقش، بالرغم من أن أحد المعلِّقين على الأقل ذكر في فصل مول (Mohl) أسئلة حول

ما إذا كانت تشكل جزءاً منه. أما بقية المخطوطات فقد بقيت من غير نشر. والواقع أنها لم تكن معروفة من قبل المفسرين والمعلقين إلى أن حصل ديفيد ريازانوف (Da-vid Ryazanov) والمتعاونين معه في موسكو على نسخ فوتوغرافية عنها في عام 1923، ونظموها وخططوا لنشرها في الميغا. وإنه لأمر مشوِّق وممتع التفكير بما كان يمكن أن يكون وقعها، لو أنها نشرت في عام 1931. كما كان المخطَّط لها أصلاً. وقد عنى تاريخ نشرها الفعلي - في نهاية عام 1939 وبعد أسبوع من غزو هتلر للاتحاد السوفيتي في عام 1941 - أنها بقيت مجهولة بصورة كلية في الغرب إلى أن كانت إعادة الطباعة في عام 1953 في برلين الشرقية، بالرغم من أن نسخاً نادرة وصلت إلى الولايات المتحدة بدءاً من عام 1948 وما بعده، فإن الكتاب تمَّ تحليله، لكنه لم ينشر قبل 1967 - 1968 من قِبَل الشارح المفسِّر الطليعي الكبير لكتار غروندريسّه، ورومان روسدولسكي (Roman Rosdolsky) (1898 - 1965) الذي وصل حديثاً إلى الولايات المتحدة عبر أوسويتز (Auschwitz) ومعسكرات اعتقال مختلفة أخرى. ويصعب التصديق بأن معظم الطبعة الألمانية الأصلية الذي أُرسل إلى الجبهة كمادة تحريكية ضد الجنود الألمان، ولاحقاً، إلى المعسكرات كمواد دراسية لسجناء الحرب قد حقق أهدافه النظرية والعملية.

أما لماذا إعادة الطباعة الكاملة في 1339/ 1941 التي صارت (*editio princips*) للقبول الدولي بـ **غروندريسّه**، التي نُشرت في ألمانيا الشرقية في عام 1953، قبل نشر **الأعمال الكاملة** لماركس وإنجلز، وكانت بشكل متعمَّد عديمة العلاقة بهذه الأعمال، فإن سبب ذلك لا نعرفه، بالرغم من أن الفصل الذي وضعه مول قدَّم بعض الأفكار. وباستثناء واحد، لم يبدأ ذلك العمل بترك علامة مهمة على الدراسات الماركسية إلى ستينات القرن العشرين. أما ذلك الاستثناء فهو القسم الذي دار حول «الأشكال التي تسبق الإنتاج الرأسمالي»، الذي كان قد نشر على حدة لأول مرة باللغة الروسية في عام 1938 (وقبله كان الفصل المتعلق بالمال)، وترجم إلى اليابانية في عام 1947، وإلى اللغة الألمانية في 1952، وهو نصّ تمَّت ترجمته السريعة إلى اللغة الهنغارية، واليابانية والإيطالية (1953 1954)، ولا ريب في أنه نوقش من قِبَل المؤرخين الماركسيين في العالم الناطق باللغة الإنجليزية. وسرعان ما نشرت الترجمة الإنجليزية مع مقدِّمة توضيحية (1964) بطبعات في الأرجنتين، وإسبانيا في زمن فرانكو (Franco) (1967- 1966). ومن المحتمل أن تكون فائدته للمؤرخين الماركسيين وللأنثروبولوجيين، قد ساعد على شرح التوزيع الواسع لهذا النص، قبل أن تصير **غروندريسّه** الكاملة متاحةً، وأيضاً علاقته الخاصة بالتحليل الماركسي ذي النزاع الجدلي الكبير لمجتمعات العالم

الثالث. فهو ألقى ضوءاً على الجدل حول نمط الإنتاج الآسيوي الذي أعيد إحياؤه نزاعياً في الغرب عبر أعمال، مثل كتاب كارل أوغيست وِتْفوجِلْ (Karl August Wittfogel: **الاستبدال الشرقي** (*Oriental Despotism*) (1957).

مخطوطات تاريخ التلقّي (*Rezeptionsgeschichte*) في عام 1857 – 1858، تبدأ بمحاولة رئيسية بعد أزمة عام 1956 لتحرير الماركسية من قيود الأرثوذكسية السوفيتية، داخل وخارج الأحزاب الشيوعية الكبرى التي لم تعدْ كذلك. ولأن كتابات عام 1844 ومخطوطات 1857 – 1858 ليست من المجموعة الكاملة «الكلاسيكية» المعترف بها والمقبولة، لكنها لماركس تعتبر داخل الأحزاب الشيوعية أساساً لافتتاحِ مشروعٍ لنظريات مغلقة. وقد كان للاكتشاف الدولي في ذات الوقت، لكتابات أنطونيو غرامشي (Antonio Gramsci) الوظيفة عينها – أول نشر لكتاباته في الاتحاد السوفيتي حصل في 1957 – 1959. وإن الاعتقاد أن **غروندريسّه** تنطوي على هرطقة أظهرها ظهور ترجمات طليقة وغير رسمية، مثل ترجمات الإصلاحيين في **طبقات أنثروبوس الفرنسية** (*French Editions Anthropos*) (1968) التي كانت برعاية مارتن نيقولاوس (Martin Nicolaus) في **مجلة استعراض اليسار الجديد** (*New Left Review*) (1971).

كان **للغروندريسّه** خارج الأحزاب الشيوعية وظيفة تسويغ ماركسية غير شيوعية، لكنها بلا ريب ماركسية، غير أن هذا لم يصبح مهماً من الوجهة السياسية حتى كانت ثورات الطلاب في ستينات القرن العشرين، بالرغم من أن أهميتها سبق أن أدركها في خمسينات القرن العشرين باحثون ألمان لهم صلة وثيقة بالتقليد الفرانكفورتي (Frankfurt)، لكنهم لم يكونوا في وسط النشاط السياسي، مثل لختايم وهابرماس (Habermas) الشاب. كما أن تحوّل الطلاب إلى راديكاليين متطرفين في الجامعات المتوسِّعة بسرعة، وفرَّ جمهوراً أكبر من القرّاء لم يكن ممكناً توقّعه في الماضي لنصوص صعبة جداً مثل تلك. غير أن دور نشر تجارية مثل دار بِنغوين للكتب (Penguin Books) لم تكن مستعدة لنشر **غروندريسّه**، ولو كجزء من مكتبة بيلكان الماركسية ("Pelican Marx Library"). وفي ذات الوقت. وعلى مضَضٍ قُبِلَ كجزء من مجموعة كتابات ماركس الكاملة في الاتحاد السوفيتي، مضافٍ إلى الطبعة السابقة لأعمال ماركس وإنجلز في 1968 – 1969، وإن يكن كطبعة أصغر من كتاب: **رأس المال**. وتبع ذلك النشر في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، وفي الصين بعد نهاية ماو.

هكذا، يبدو أنه لم يكن من السهل فصل الجدالات حول **غروندريسّه** عن

الأوضاع السياسية التي حصلت فيها، والتي أثارتها. وفي سبعينات القرن العشرين، عندما كانت الجدالات على أشدّها، عانت من عقبة معيقة ثقافية وجيليّة، أعني خسران معظم جيلٍ طليعي من علماء النصوص الماركسيين (في أوروبا الوسطى والشرقية بشكل رئيسي) وكانوا من ذوي الإخلاص والثقافة البارزين، مثل ديفيد ريازانوف ورومان روسرولسكي. وقد بُذلت جهود جدّية من قِبَل مفكرين من أتباع تروتسكي ليبنوا على التحليلات السابقة الخاصة بمرتبة مخطوطات 1857 - 1858 في تطور تفكير ماركس، خاصة مرتبتها في الخطة العامة لما صار يُدعى الأثر الذي لم ينجز من كتاب **رأس المال**. ومهما يكن من أمر، فقد أمكن إطلاق أشكال من الهجوم النقدي العنيف النظري الماركسي والبارز من قِبَل كتّاب مثل لويس ألتوسير في فرنسا وأنطونيو نيغري (Antonio Negri) في إيطاليا، وكانت بصراحة أشكالاً غير وافية في الأدب الماركسي وقد اعترف بصحتها من قِبَل شبّان وشابات تنقصهم المعرفة بالنصوص، أو القدرة على الحكم على الجدالات النزاعية الماضية التي دارت حولها، ولو لأسباب لغوية فقط. فلا عجب أن يكون ما قلناه في الفصل الخاص بإيطاليا من أن «قبول **غروندريسّه** له طابع خاص» يصحّ على أكثر من قطر.

إن المجلَّد الحالي المجموع يظهر في وقتٍ لم تعد الأحزاب والحركات الماركسية تؤدي دوراً مهماً على المسرح الدولي إلا نادراً، وعندما لم تعد النقاشات حول عقائدها، واستراتيجياتها، ومناهجها وأهدافها تشكل الإطار الضروري للنقاشات حول كتابات ماركس، وإنجلز وأتباعهما. وهو يظهر أيضاً في الوقت الذي فيه بدأ العالم يثبت سهولة ووضوح رؤية ماركس في طريقة العمل الاقتصادي للنظام الرأسمالي. وقد تكون هذه هي اللحظة المناسبة للعودة إلى درس **غروندريسّه** درساً غير مقيَّد بالاعتبارات المؤقتة لسياسة الجناح اليساري بين شجب خروتشيف لستالين وسقوط غورباتشيف (Gor-bachev). فهو نصّ صعب جداً من كل وجه، لكنه نصّ مُجْزٍ جداً أيضاً على الأقل، لأنه يوفِّر الإرشاد الوحيد لسلسلة كاملة للبحث الذي لا يشكل **رأس المال** سوى جزء منه، ويوفِّر مقدِّمة فريدة لمنهجية ماركس الناضجة. فهو يحتوي على تحليلات ورؤىً، مثلًا عن التكنولوجيا تجعل دراسة ماركس للرأسمالية تتعدّى القرن التاسع عشر إلى عصر مجتمع حيث لا يتطلَّب فيه الإنتاج العديد من العمال، وعصر الآلات الميكانيكية والكهربائية، وإمكانية وقت راحة خالٍ من العمل، وتحوّلات الاغتراب في مثل هذه

الظروف. فهو النصّ الوحيد الذي يتجاوز تلميحات ماركس الخاصة للمستقبل في كتاب: **الأيديولوجيا الألمانية**. وباختصار، لقد وصف بحقٍ بأنه «فكر ماركس في أوج غناه».

الفصل السابع

ماركس حول تشكيلات ما قبل الرأسماليّة

I

كان ماركس في 1857 - 1858 يؤلف مخطوطة ضخمة عند إعداده لكتابه: **نقد الاقتصاد السياسي** وكتاب **رأس المال**. وقد نشر بعنوان: **الخطوط العريضة للاقتصاد السياسي** (*Grundrisse der Kritik der Politischen Ökonomie*)، في موسكو 1939 - 1941، بالرغم من أن بعض المقتطفات ظهرت في مجلة **الزمن الجديد** (*Neue Zeit*) في عام 1903. وقد سبَّب زمن النشر ومكانه أن لا يكون الكتاب معروفاً حتى عام 1952، عندما نُشر قسم منه في كرّاسة في برلين، واستمر توزيعها حتى عام 1953، وعندما أعيد نشر **غروندريسّه** الكتاب كله، في المدينة نفسها. وظلّت طبعة عام 1953 الألمانية الوحيدة المتاحة. وأنا لا أعرف وجود ترجمات إلى اللغات الأوروبية الغربية ما خلا اللغة الإيطالية 1956. لذا، فإن **غروندريسّه** تنتمي إلى المجموعة الكبيرة من مخطوطات ماركس وإنجلز التي لم تُنشر أبداً خلال حياة مؤلفيها، ولم تصبح متاحةً للدراسة الوافية إلاّ منذ عام 1930. فمعظمها، مثل **المخطوطات الاقتصادية - الفلسفية** (*Economic-Philosophical Manucripts*) لعام 1844، التي ظهرت كثيراً في النقاشات الحديثة، يعود إلى شباب ماركس وإنجلز. أما **غروندريسّه** فترجع إلى نضجه الكامل. وصارت خطوطها الأساسية حاصل عقدٍ من البحث المكثّف في إنجلترا، ولا شك في أنها تمثِّل مرحلة تفكيره التي سبقت مباشرةً وضع مسوَّدة كتاب **رأس المال** خلال ستينات القرن

التاسع عشر، التي وفرت له كما ذكرنا العمل الأولي. لذا، فإن **غروندريسّه بخطوطها** الأساسية هي آخر الكتابات الرئيسة التي وضعها ماركس الناضج التي وصلت الجمهور.

كان إهمالها في الظروف التي مرّت، وهذا بصدق بصورة خاصة، على الأقسام التي عنوانها: (Formen die der Kapitalistischen Produktion Vorhergehen) التي حاول ماركس فيها التصدّي والعراك مع مسألة التطوّر التاريخي الما قبل الرأسمالي. فهذه لم تكن ملاحظات غير مهمة أو عرضية. **ففورمِن** (*Formen*)، - كما كتب ماركس بفخرٍ إلى لاسّال (12 تشرين الثاني/ نوفمبر، عام 1858) – لا تمثّل مجرد حاصل خمسة عشر عاماً من البحث، أي أفضل سنوات حياته، بل هي تظهر ماركس وهو في ذروة تألّقه وعمق تفكيره، وهي أيضاً من وجوه عديدة الملحق الذي لا بدَّ منه للمقدِّمة الرائعة لكتاب: **نقد الاقتصاد السياسي** الذي كُتِبَ بعد ذلك بقليل وعرض المادية التاريخية بأكثر صورة إبداعية لها. ويمكن القول من دون تردّد، إن أي نقاش تاريخي ماركسي لا يحسب حساب **غروندريسّه** – أعني كل نقاش قبل عام 1941 والكثير منه منذئذٍ (لسوء الحظ) – يجب إعادة النظر فيه في ضوئها.

على كل حال، ثمَّة أسباب واضحة لذلك الإهمال. فكما كتب ماركس إلى لاسّال، كانت **غروندريسّه** عبارة عن «مقالات مفردة، كُتبت في فترات زمنية مختلفة متباعدة لتوضيحي الخاص وليس للنشر». وهي لا تتطلَّب من القارئ أن يكون على مألوفية بلغة تفكير ماركس – أي بتطوره الفكري الإجمالي خاصة بالهيغليّة – بل هي مكتوبة أيضاً بنوع من الإيجاز الفكري الخصوصي لا يمكن اختراقها أحياناً، على صورة ملاحظات مضطربة مرصَّعة بكلام تعليقي جانبي، فمهما كانت واضحة عند ماركس، فإنها تظل غامضة عندنا، في معظم الأحيان. وكل من يحاول أن يترجم المخطوطة أو درسها وتفسيرها أيضاً، سوف يعرف أنه يستحيل أحياناً أن يُبعد معنى بعض المقاطع التكهنيّة عن أي شك معقول.

حتى لو أن ماركس تجشَّم عناء توضيح معانيه، سيظل الأمر بعيداً عن أن يكون سهلاً، لأن تحليله جرى على مستوى عالٍ جداً من التعميم، أي بلغة تجريدية عالية. ففي المقام الأول، كان ماركس مهتماً ومشغولاً – كما في مقدمة كتاب: **نقد** (*Critique*) – بتأسيس الآليّة العامة **لكل** تغير اجتماعي، أي: تشكل علاقات الإنتاج الاجتماعية التي تطابق مرحلة محدَّدة من مراحل تطوّر القوى المادية للإنتاج، والتطور الدوري

للنزاعات بين قوى وعلاقات الإنتاج، و«عهود الثورة الاجتماعية» التي تعود العلاقات لتلائم نفسها من جديد مع مستوى القوى. هذا التحليل العام لا يتضمَّن أي بيان عن فترات زمنية تاريخية خاصة، ولا عن قوى وعلاقات إنتاج، مهما تكن. لذا، فإن كلمة «طبقة» لم تذكر في المقدِّمة، لأن الطبقات هي مجرد حالات خاصة من علاقات الإنتاج الاجتماعية في فترات زمنية من التاريخ – وإن كانت طويلة جداً. والبيان الوحيد الفعلي عن التشكيلات التاريخية والفترات الزمنية تمثَّل في القائمة الموجزة غير المؤيَّدة وغير المشروحة التي شملت «عهود تقدم التشكل الاقتصادي للمجتمع» – أي «الآسيوي القديم الإقطاعي والبورجوازي الحديث». والأخير هو الشكل «النزاعي» الأخير لعملية الإنتاج الاجتماعية.

فمصطلح **الفورمِن** أعمّ وأكثر تخصيصاً من المقدِّمة، مع أنها هي أيضاً ليست «بتاريخ» بالمعنى الدقيق – ومن المهم بمكان ملاحظة ذلك في البداية. ومن ناحية واحدة، تحاول المسوَّدة أن تكشف في تحليل التطور الاجتماعي، خصائص أي نظرية ديالكتيكية أو مقنعة تقلق بأي موضوع مهما يكن. فهي تسعى لأن تحوز، والواقع هو أنها تحوز، على تلك الصفات الخاصة بالاقتصاد الفكري، أي التعميم والمنطق الداخلي المتّصل اللذين يطلق عليهما العلماء «الجمال» أو «الأناقة»، وهي تتابعهما عبر توظيف منهج هيغل الديالكتيكي على أساس مادي لا مثالي.

وهذا يؤدي بنا، حالاً، إلى الناحية الثانية. يسعى **الفورمِن** لصياغة **محتوى** التاريخ بأكثر الأشكال عمومية. وهذا المحتوى هو التقدم. فلا الذين ينفون وجود تقدم تاريخي، ولا أولئك (الذين يعتمدون أساسيّاً على كتابات ماركس غير الناضج) الذين يعتبرون فكر ماركس مجرد مطلب أخلاقي لتحرير الإنسان، سيجدون ما يدعمهم هنا. لأن التقدم عن ماركس ذو تحديد موضوعي، وهو يشير في نفس الوقت لما هو مرغوب. وإن قوة المعتقد الماركسي في فوز التطور الحرّ لجميع البشر، لا تعتمد على قوة أمل ماركس به، وإنما على الصحّة المفترض وجودها في التحليل المفيد أن ذلك هو بلا ريب الذي يقود التطوّر التاريخي البشري إليه في نهاية المطاف.

إن أساس إنسانية ماركس في ذات الوقت أيضاً، هو نظريته الخاصة بالتطور الاجتماعي والاقتصادي التي تمثُّل في تحليله للإنسان ووصفه حيواناً اجتماعياً. فالإنسان، أو الأحرى أن نقول البشر، يقومون **بعمل** هم يخلقون وجودهم ويعيدون

إنتاجه في ممارسة يومية، ويتنفسون ويسعون وراء الحكام، والمأوى والحبّ... إلخ. وهم يفعلون كل ذلك بالعمل في الطبيعة، والأخذ من الطبيعة لهذا الغرض (في نهاية المطاق يغيّرون الطبيعة عن وعي). هذا التفاعل بين البشر والطبيعة هو التطور الاجتماعي، وهو الذي ينتج التطور الاجتماعي. فالأخذ من الطبيعة، أو القرار باستعمال جزء من الطبيعة (بما في ذلك جسم الإنسان) يمكن اعتباره في اللغة العامة بأنه استيلاء على مظهر للعمل أصلاً.

ويعبّر عنه بمفهوم **الملكية** (التي ليست الملكية **الخاصة** التي هي حالة خاصة من الوجهة التاريخية). ويقول ماركس، في البداية «علاقة العامل بالأحوال الموضوعية لعمله هي علاقة ملكية، وهذه هي الوحدة الطبيعية بين العمل وشروطه الموضوعية [(Sachliche)] المادية» (ص 67). ولكونه حيواناً اجتماعياً، يطوِّر الإنسان التعاون **والتقسيم الاجتماعي للعمل**، كليهما (أي تخصّص الوظائف) الذي لا يكون ممكناً عبر إنتاج **الفائض** (Surplus) عن الحاجة للحفاظ على الفرد والمجتمع الذي هو جزء منه فقط، بل يزيد من إمكانيات حدوث ذلك أيضاً. فوجود الفائض وتقسيم العمل يمكنان من **المبادلة**. غير أن الإنتاج والمبادلة كليهما، استهدفا، **الاستعمال** فقط، في البداية - أي الحفاظ على المنتج والمجتمع. هاتان هما الأساسان التحليليان الرئيسيان اللذان أشيدت عليهما النظرية، وكل ما عدا ذلك هو توسيعات أو نتائج للمفهوم الأصلي للإنسان بوصفه حيواناً اجتماعياً، من نوعٍ خاص[1].

التقدّم يمكن ملاحظته في الانعتاق المتزايد للإنسان من الطبيعة، وفي سيطرته المتزايدة على الطبيعة. وهذا الانعتاق - أي من الوضع الذي كان موجوداً كان البشر البدائيين يبحثون عن معاشهم، ومن العلاقات الأصلية والعفوية الطبيعية التي تنشأ من عملية تطور الحيوانات إلى مجموعات بشرية هو الانعتاق الذي لم يؤثر في قوى الإنتاج وحدها، بل على علاقات الإنتاج أيضاً وتجدر الإشارة إلى أن وصف العلاقات بأنها أصلية وعفوية طبيعية تقابل عند ماركس كلمة: على طبيعته -Natur) (wüchsig - أي «كما تنشأ في الطبيعة». والغور في البحث من الناحية الثانية، من جهة أخرى، هو إن العلاقات التي يدخل فيها الناس كنتيجة للتخصص في العمل - خاصة علاقة المبادلة - وتوضحت كثيراً وصارت معدة إلى أن كان ابتداع **النقد المالي وإنتاج السلع** معه، والمبادلة، كل ذلك وفَّر أساساً لإجراءات لم يكن تصوّرها من قبل، بما فيها تراكم الرأسمال. وبالرغم من ذكر هذه العملية في المطلع (ص 67)، فإنها ليست موضوعه الرئيسي. ومن جهة أخرى، العلاقة الثنائية بين العمل والملكية راحت تنحل

مع ابتعاد الإنسان عن طبيعته أو العلاقة مع الطبيعة البدئية وذات النشوء الطبيعي العفوي. فاتَّخذت شكل «فصل العمل الحرّ عن الشروط الموضوعية لتحققه فصلاً متزايداً - عن أدوات العمل [Arbeitsmittel] ومادة العمل... والحاصل قبل أي شيء هو فصل العامل عن الأرض بوصفها مختبره الطبيعي» (ص 67). وتحقق التوضيح النهائي في الرأسمالية، حيث اختزل العامل إلى مجرد قوة عمل، ويمكننا أن نضيف القول، بأنه عكس ذلك حصل عندما صارت الملكية تعني السيطرة على وسائل الإنتاج المفصول كلياً عن العمال، وفي عملية الإنتاج حصل فصل كامل بين الاستعمال (الذي لا علاقة مباشرة له) والتبادل والتراكم (الذي هو الهدف المباشر للإنتاج). تلك كانت العملية التي حاول ماركس تحليلها هنا في تنوّعات أنواعها الممكنة. ومع أن تشكيلات اجتماعية - اقتصادية محدَّدة، وتعبر عن أطوار خاصة في ذلك التطور لها صلة قوية، فإن العملية التي استغرقت قروناً وشملت قارات، هي التي كانت تدور في خَلَده. لذا، فإن إطاره لم يكن مرتَّباً ترتيباً زمنياً إلاّ بالمعنى الواسع، ولم تكن مسائل الانتقال من طورٍ إلى آخر لتهمه بمعنى أوّلي، إلا إذا كانت تلقي ضوءاً على التحوّل بعيد المدى.

غير أنه في نفس الوقت، نرى أن عملية انعتاق الإنسان من شروط الإنتاج الطبيعية الأصلية هي إحدى عملية **الفردانية** (Individualisation) الإنسانية. «الإنسان لم يصر فرداً [Vereinzelt Sich] إلاّ عبر عملية التاريخ. فقد بدا في الأصل ككائن عام، وكائن قَبَلِيّ، وحيوان في قطيع... فكان التبادل ذاته العامل الرئيسي في حصول الفردانية. فقد جعلت من حيوان القطيع شيئاً غير ضروري وأنهته» (ص 96). وهذا بدوره بشكل أوتوماتيكي تضمن تحوّلاً في علاقات الفرد بما كان المجتمع أصلاً، الذي فيه كان يعمل. وتحوَّل المجتمع السابق في حالة الرأسمالية المتطرفة، إلى آلة اجتماعية عديمة الإنسانية خارج الفرد ومعادية له في ذات الوقت الذي فيه تجعل الفردانية ممكنة. ومع ذلك، فإن هذه العملية هي إحدى الإمكانيات الهائلة للإنسانية. وكما ذكر ماركس في مقطع مليء بالأمل والروعة (ص 84 - 85):

«المفهوم القديم الذي يظهر فيه الإنسان، دائماً، (بأي تعريف ضيق، أو قومي، أو ديني أو سياسي) بأنه هدف الإنتاج، ويبدو ممجّداً أكثر مما هو في العالم الحديث، حيث الإنتاج هو هدف الإنسان، والثروة هدف الإنتاج. والواقع هو أنه عندما ينزع الشكل البورجوازي الضيّق، ماذا تكون الثروة إنْ لم تكن هي شمولية الحاجات، والقدرات، والمتع، وقوى الإنتاج... إلخ. للأفراد المنتجين في مبادلات شاملة؟ ما يكون، إن لم يكن التطور الكامل لسيطرة الإنسان على قوى الطبيعة - قوة طبيعته هو، وقوى ما يدعى

«الطبيعة» أيضاً؟ ما يكون إن لم يكن تطوير تصرفاته الخلاّقة، من دون شروط مسبقة تفرض عليها سوى التطور التاريخي السابق الذي يؤلف كل هذا التطور - أي تطوّر جميع القدرات الإنسانية غير المقاسة بأي مقاس **قائم سابق** - هي غاية في ذاتها؟ ما يكون إن لم يكن وضعاً لا يعيد الإنسان إنتاج نفسه بأي شكل محدَّد، لكنه يكون منتجاً كليته؟ وحيث لا يسعى ليبقى شيئاً تشكّل في الماضي، لكنه موجود في الحركة المطلقة للصيرورة؟ في الاقتصاد السياسي البورجوازي - وفي عصر الإنتاج الذي يطابقه - يبدو هذا التطوير الكامل لما هو في داخل الإنسان، يبدو اغتراباً كلياً، وتدميراً لجميع المقاصد الثابتة والأحادية الجانب كتضحية للغاية في ذاتها، من أجل الإكراه الخارجي الكلي».

في هذه الصورة المجردة من الصفات الإنسانية والواضحة التناقض، حتى في هذه يظل المثال الأعلى الإنساني، مثال نشوء وتطور الفرد الحرّ أقرب مما كان في الماضي في جميع أطوار التاريخ السابقة. فهو لا يحتاج شيئاً سوى انتظار العبور من ما دعاه ماركس بلغة أنيقة دقيقة المرحلة الما قبل تاريخية للمجتمع الإنساني - عصر المجتمعات الطبقية، والرأسمالية آخرها - إلى العصر الذي يكون فيه الإنسان مسيطراً على مصيره، عصر الشيوعية.

لذا، فإن رؤية ماركس قوة توحيدية رائعة. فنموذجه الخاص بالتطور الاجتماعي والاقتصادي هو نموذج (مختلف عن نموذج هيغل) يمكن تطبيقه على التاريخ لإنتاج نتائج مثمرة وأصيلة، لا توتولوجيا (تحصيل حاصل)، لكن في نفس الوقت، يمكن عرضه بوصفه تكشّف الإمكانيات المنطقية الكامنة في إفادات قليلة ابتدائية وبدهية عن طبيعة الإنسان، أي تحليل ديالكتيكي لتناقضات العمل/ الملكية، ولتقسيم العمل[2]. فهو نموذج وقائع، لكن، منظوراً إليه من زاوية مختلفة قليلاً، والنموذج ذاته يقدِّم لنا أحكام قيمة. وهي هذه الأبعاد المتعدِّدة لنظرية ماركس التي جعلت ذوي الذكاء المعادي أو المنحاز يحترمون ماركس ويعجبون به كمفكر، حتى عندما لا يتفقون معه. وفي ذات الوقت عندما لا يسلِّم ماركس بمتطلّبات القارئ الخارجي، فإن ذلك يضيف إلى صعوبة النصّ بلا ريب.

هناك مثلٌ واحدٌ عن هذا التعقيد لا بدَّ من ذكره، بشكل خاص: هو رفض ماركس فصل الأنظمة المعرفية الأكاديمية المختلفة. ومن الممكن القيام بذلك عوضاً عنه. لذا، نجد جوزيف شومبيتر الأخير، الذي هو أحد أكثر نقّاد ماركس ذكاءً، حاول التمييز بين ماركس السوسيولوجي وماركس الاقتصادي، ويمكن للإنسان بسهولة

فصل ماركس المؤرخ. غير أن مثل هذه التقسيمات الميكانيكية مضلِّل، وهو مضادّ كلياً لمنهج ماركس. والاقتصاديون الأكاديميون البورجوازيون هم الذين حاولوا رسم خطٍ فاصل بين التحليل السكوني والتحليل الديناميكي، آملين تحويل الواحد إلى الآخر عبر إدخال عنصر «تحريكي» ما في النظام السكوني، كذلك كان الاقتصاديون الأكاديميون هم الذين ما يزالون يصنعون نموذجاً متقناً ودقيقاً «للنمو الاقتصادي» والمفضل أن يكون التعبير عنه بالمعادلات، وإبعاد كل ما لا ينسجم إلى منطقة السوسيولوجيين. وأنشأ السوسيولوجيون الأكاديميون تمييزات على مستوى أدنى من الأهمية العلمية، والمؤرخون فعلوا ما فعلوه على مستوى أدنى. غير أن ذلك لا يمتّ إلى طريقة ماركس بصلة. فعلاقات الإنتاج الاجتماعية (أي التنظيم الاجتماعي بمعناه الواسع) وقوى الإنتاج المادية، التي تتطابق مع مستواها لا يمكن فصلهما. «فالبنية الاقتصادية للمجتمع تتشكَّل بمجموع علاقات الإنتاج تلك» [المقدِّمة، **الأعمال الكاملة** (*Werke*) 13، ص 8]. فالتطور الاقتصادي لا يمكن تبسيطه واختزاله إلى «نمو اقتصادي»، ولا إلى تغيّر عوامل منفصلة مثل الإنتاجية أو معدَّل تراكم الرأسمال، على طريقة الاقتصادي الحديث العادي الذي اعتاد أن يجادل ويقول، إن النمو ينتج عندما يستثمر أكثر من 5 ٪ مثلاً من الدخل القومي[3]. فهو لا يمكن درسه إلاّ بمفردات عهود تاريخية خاصة وبُنى اجتماعية محدَّدة. وإن بحث أنماط الإنتاج الما قبل الرأسمالية المختلفة، في هذه المقالة، هو مثل رائع عن ذلك، وهو يوضح كم هو خاطئ التفكير بأن المادية التاريخية هي تفسير اقتصادي للتاريخ (أو اجتماعي)[4].

ومع ذلك، لو كنا واعين وعياً ثابتاً أن ماركس يجب ألاّ يُقسَّم إلى أقسام طبقاً للاختصاصات الأكاديمية في زماننا، فسيظل من الصعب إدراك وحدة تفكيره، ويعود هذا جزئياً إلى أن مجرد محاولة القيام بعرض منظَّم وشفّاف يؤدي بنا للبحث في نواحيه المختلفة واحداً بعد الآخر (Seriatim)، وليس معاً في ذات الوقت جزئياً، لأن مهمة البحث والتحقق العلميين لا بدّ من أن تؤدي بنا إلى أن نفعل الشيء ذاته. وهنا نقع على سبب إعطائنا بعض كتابات إنجلز، التي هدفها العرض الواضح، انطباعاً يفيد أنه يبالغ في كثافة فكر ماركس أو إضعافه. وبعض الشروح الماركسية اللاحقة، مثل كتاب ستالين: **المادية الديالكتيكية والتاريخية** (*Dialectical and Historical Materialism*)، تمادى في ذلك الاتجاه، وقد يكون التمادي متطرفاً وغير معقول. وفي المقابل، قد تنتج الرغبة في التأكيد على الوحدة الديالكتيكية عند ماركس واستغلاليته مجرد تعميمات مبهمة للديالكتيك وملاحظات من قبيل القول، إن البنية الفوقية لا تحدّدها

البنية التحتية تحديداً ميكانيكياً أو في المدى القصير، بل ترد هذه عليها وقد تسيطر عليها من وقت لآخر. وقد يكون لمثل هذه الإفادات قيمة في علم التدريس، وتفيد كتحذيرات من وجهات النظر التبسيطية المتطرفة للماركسية [وهي كذلك كما ذكر إنجلز في رسالته المشهورة إلى بلوخ]، لكنها لا تتقدم بنا كثيراً. وكما ذكر إنجلز لبلوخ[5]، تلك طريقة واحدة مقنعة من طرق تجنّب تلك الصعوبات. فهي تفيد «التوغّل في درس هذه النظرية من مصادرها الأصلية، وليس بشكل ثانوي». ولهذا السبب تستحق المقالة الحالية التي يمكن للقارئ أن يتتبّع ماركس، **وهو يفكر فعلياً**، مثل هذا الدرس القريب والمدهش.

وسيهتم معظم القراء بناحية واحدة رئيسية من نواحيها، وهي: بحث ماركس لعصور التطور التاريخي الذي يشكل خلفية القائمة المختصرة الموجودة في مقدّمة كتاب: **نقد الاقتصاد السياسي**. وهذا، في حدّ ذاته موضوع معقّد يتطلّب منا أن نعرف شيئاً عن تطوّر تفكير ماركس وإنجلز في التاريخ وفي التطور التاريخي، وحظوظ تقسمهما التاريخي الدوري في الأبحاث الماركسية اللاحقة.

إن الصياغة الكلاسيكية لعصور التقدم الإنساني تلك موجودة في المقدِّمة لكتاب: **نقد الاقتصاد السياسي** الذي مسوَّدته الأولية كانت ال **غروندريسّه**. وهناك، قال ماركس: «أنه يمكن بخطوط عامة أن نصف أنماط الإنتاج الآسيوي القديم، والإقطاعي والبورجوازي، بأنها عصور عديدة في عملية تقدم التشكيل الاقتصادي للمجتمع». والتحليل الذي أدّى به إلى تلك النظرة، والنموذج النظري للتطور الاقتصادي الذي يتضمنه لم يبحثا في المقدِّمة، بالرغم من أن مقاطع مختلفة في كتاب **نقد** (*Critique*) وفي كتاب **رأس المال** (وخاصة المجلد الثالث) تؤلف جزءاً منه، أو يصعب فهمه من دونها. **والفورمِن** (أشكال)، من جهة أخرى، يعالج هذه المسألة، وبشكل كلي، تقريباً. لذلك، فإن قراءتها جوهرية لكل من يرغب في فهم طرق تفكير ماركس عامة، أو فهم مقاربته لمسألة التطور التاريخي والتصنيف خاصة.

ولا يعني هذا أننا ملزمون على القبول بقائمة ماركس الخاصة بالعصور كما وردت في المقدِّمة، أو في **الفورمِن**. وكما سوف نرى، إن أجزاء قليلة من فكر ماركس تمَّت مراجعتها من قِبَل أتباعه الخُلَّص أكثر مما روجعت تلك القائمة – ولم يحصل ذلك بذات التسويغ بالضرورة – ولم يرتح ماركس وإنجلز ولم يظلا راضيين بها طوال ماتبقى من حياتهما. إن القائمة ومقدار كبير من البحث في **الفورمِن** الذي وراءه، لم يكن نتيجة

نظرية بل نتيجة الملاحظة. وما تتطلبه النظرية العامة للمادية التاريخية لا يتعدّى القول، لا بدَّ من أن يكون هناك تتابع لأنماط الإنتاج، وإن لم تكن بالضرورة أنماطاً خاصة، ولا وفق نظام خاص مفروض سلفاً[6]. فبنظرته إلى السجل التاريخي الواقعي، رأى ماركس أنه يستطيع أن يميّز عدداً معيناً من التشكيلات الاجتماعية - الاقتصادية، وتتابعاً معيناً. غير أنه، إذا افترض أنه أخطأ بملاحظاته، أو كانت ملاحظاته مشادةً على معلومات منحازة، لذا فهي مضلِّلة، فإن النظرية العامة للمادية التاريخية ستظل هي هي. والمتفق عليه الآن بصورة عامة، هو أن ملاحظات ماركس وإنجلز الخاصة بالعصور الما قبل الرأسمالية قامت على بحث أقل عمقاً من وصف ماركس وتحليله للرأسمالية. لقد ركَّز ماركس طاقاته على درس الرأسمالية، وبحث في بقية التاريخ بدرجات من التفصيل مختلفة، لكن من حيث علاقتهما، وبشكل رئيسي بأصول الرأسمالية وتطورها. لقد كان هو وإنجلز من حيث علم التاريخ عاديين بشكل استثنائي، وقد مكنتهما عبقريتهما ونظريتهما من الاستفادة القصوى من قراءتهما أكثر مما فعل معاصروها. غير أنهما اعتمدا على الأدب الذي كان متاحاً لهما، وكان ضئيلاً وأقل مما هو موجود في الوقت الحاضر. لذا، فإنه من المفيد إلقاء نظرة عامة ومختصرة على ما عرف ماركس وإنجلز عن التاريخ، وما لم يتمكنا من معرفته. ولا يعني هذا أن معرفتهما كانت **ناقصة**، فما كانت كافية لتطوير وإتقان نظرياتهما عن المجتمعات الما قبل الرأسمالية. وربما كانت كافية. أما مجرد تجميع المجلدات والمقالات فلا يخص سوى نوعاً من العلماء المهنيين. فهي قد تملأ المكتبات ليس إلاّ ومع ذلك، فإن المعرفة بالأساس الحقيقي لتحليل ماركس التاريخين هي بلا ريب مرغوبة لفهمهما.

وإلى الآن، يمكن القول بالنسبة إلى التاريخ القديم الكلاسيكي (اليوناني الروماني)، إن ماركس وإنجلز كانا مجهَّزين به مثل التلميذ الحديث الذي يعتمد على المصادر الأدبية البحت، بالرغم من أن المقدار الكبير من العمل الأركيولوجي(*) وجمع النقوش، اللذين أدخل ثورة في دراسة العصر الكلاسيكي القديم لم يكونا متاحين لهما عندما كتب **الفورمِن**، ولم يكن ورق البرْدي متاحاً أيضاً. [فلم يبدأ سكليمان (Schliemann) حفرياته في مدينة طروادة حتى كان عام 1870، ولم يظهر المجلّد الأول لمومسِن (Mommsen) وهو (*Corpus Jnscriptionum Latinarum*) إلاّ في عام 1863]. وبوصفهما كانا مثقفين بثقافة كلاسيكية فإنهما لم يجدا صعوبة في

(*) أركيولوجيا (Archaeology) تعني علم الآثار (المترجم).

قراءة اللغتين اللاتينية واليونانية، ونحن نعرف أنهما كانا على معرفة بمصادر عويصة مثل جورنانديز (Jornandes)، وأميانوس (Ammianus)، ومارسيلينوس (Marcel-linus)، وكاسيودورس (Cassiodorus) أو أوروسيوس(Orosius) [7]. ومن جهة أخرى، لا الثقافة الكلاسيكية ولا المادة المتاحة آنذاك مكنّتا من المعرفة الجدّية بمصر والشرق الأوسط القديم. والحق يُقال، إن ماركس وإنجلز لم يبحثا في هذه المنطقة في تلك الحقبة الزمنية. وكانت الإشارات العَرَضية إليها، نادرة، وهنا لا يعني أن ماركس وإنجلز[8] تجنّبا مسائلها التاريخية.

أما في ميدان تاريخ المشرق، فقد كان وضعهما مختلفاً. فليس ثمَّة من دليل على أن ماركس أو إنجلز فكر أو قرأ كثيراً عن الموضوع. ومن المحتمل أن تكون معرفتهما بتاريخ المشرق لا تتعدّى ما احتواه كتاب هيغل: **محاضرات حول فلسفة التاريخ** (*Lectures on the Philosophy of History*) (الذي لم يكن منوِّراً)، ومعلومات أخرى كالتي كانت مألوفة لدى الألمان الذين تثقفوا في تلك الحقبة الزمنية، وتم نفيهم إلى إنجلترا خلال التطورات السياسية في خمسينات القرن التاسع عشر، تمكنوا من أن يحولوا معهم المعرفية في أبحاث ماركس الاقتصادية إلى البلد الذي انتقلوا إليه. ولا شك في أن ماركس نفسه استمد بعض المعرفة عن الهند من الاقتصاديين الكلاسيكيين الذي قرأهم أو أعاد قراءتهم في أوائل خمسينات القرن التاسع عشر [مثلاً، كتاب **المبادئ** (*Principles*) لـ جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill) وآدم سميث، وكتاب ريتشارد جونز: **المحاضرة التمهيدية** (*Introductory Lecture*) في عام 1851][9]. وبدأ ينشر مقالات عن الصين (في 14 حزيران/ يونيو) وعن الهند (في 25 حزيران/ يونيو) لمجلة **نيويورك ديلي تريبيون** (*New York Daily Tribunes*) في عام 1853. والواضح أنه في تلك السنة كان هو وإنجلز منشغلين بعمق بمسائل المشرق التاريخية إلى حدّ محاولة إنجلز تعلّم اللغة الفارسية[10]. وفي أوائل صيف عام 1853، أشارت مراسلاتهما إلى كتاب المحترم س. فوستر (C. Foster): **جغرافيا تاريخية للعَربية** (*A Historical Geography of Arabia*)، وإلى كتاب بيرنييه (Bernier): **رحلات** (*Voyages*)، وإلى السير وليام جونز (Sir William Jones) المشرقي، والوثائق البرلمانية عن الهند، وكتاب ستامفورد رافلز (Stamford Raffles): **تاريخ جاوا**[11] (*History of Java*). والمعقول هو الافتراض أن وجهات نظر ماركس الخاصة بالمجتمع الأسيوي نضجت صياغتها، أول ما نضجت في تلك الشهور. وكانت مشادةً، كما سوف يتّضح على ما هو أكثر من مجرد بحث سطحي سريع.

من ناحية أخرى، انطلق بحث ماركس وإنجلز للإقطاع الأوروبي الغربي بأسلوب مختلف. كان ماركس مرافقاً للبحث الجاري في تاريخ الزراعة في القرن الوسطي، الذي عنى بشكل رئيسي كتابات هانسِن (Hanssen)، وميتزن (Meitzen) وجورج فون موريه[12] (Georg von Maurer)، المجلد الأول أيضاً، لكن الواقع هو عدم وجود علاقة تدل على أنه في تلك الفترة الزمنية كان مهتماً على نحوٍ جدّي في مسائل تطور الزراعة أو العبودية الخاصة بالأرض في القرون الوسطى. (وكانت المراجع ذات علاقة بعبودية الأرض الفعلية في أوروبا الشرقية، خاصةً رومانيا). ولم يحصل إلاّ بعد نشر **رأس المال**، المجلَّد الأول (وبعد وضع المسوَّدتين الأساسيتين لمجلّدي كتاب **رأس المال** الثاني والثالث، أيضاً) حتى بدأت المسألة تشغل بشكل واضح الصديقين خاصة بدءاً من عام 1868، عندما شرح ماركس جدّياً درس موريه، الذي اعتبر كتبه، هو وإنجلز أساس معرفتهما بالميدان[13]. على كل حال، بدا أن اهتمام ماركس كان في الضوء الذي ألقاه موريه وآخرون على المجتمع الفلاّحي الأصلي، وليس على عبودية الأرض، مع أن إنجلز بدا، منذ البداية مهتماً بهذه الناحية أيضاً، وبسطها على أساس موريه في شرحه لكتاب: **العلامة** (*The Mark*) (المكتوب في عام 1882). وقد تناول بعض الرسائل الأخيرة المتبادلة بين الاثنين في عام 1882، بالتطور التاريخي لعبودية الأرض[14]. وبدا واضحاً أن اهتمام ماركس بالموضوع نما في نهاية حياته، عندما أشغلته مسائل روسيا بشكل متزايد. وأقسام كتاب **رأس المال**، المجلد الثالث، التي تناولت تحوّلات الأجرة، لا تظهر أي علاقة عن وجود بحث تفصيلي للأدب الذي دار حول الزراعة الإقطاعية الغربية.

كان اهتمام ماركس بالأصول القروسطية(*) للبورجوازية، وبالتجارة والمال في التجارة الإقطاعية – كما هو واضح في كتاب **رأس المال**، المجلد الثالث – كثيفاً وشديداً. فالواضح هو أنه لم يدرس الكتابات العامة عن القرون الوسطى الغربية فحسب، بل درس الأدب الاختصاصي الخاص بالأسعار في القرون الوسطى حيثما كان متاحاً (ثورولد روجرز (Thorold Rogers))، والعمل المصرفي، والنقد المتداول تجاه القرون الوسطى[15]. ولا ريب في أن درس هذه المواضيع كان في طفولته في فترة كان فيها عمل ماركس في ذروة كثافته، وفي خمسينات وستينات القرن التاسع عشر، بحيث يجب اعتبار بعض مصادره المتعلقة بالتاريخ الزراعي والتجاري من النوع الذي عفا عليه الزمان منذ مدة طويلة[16].

(*) قروسطية اختصار للنسبة إلى القرون الوسطى (المترجم).

بصورة عامة، كان اهتمام إنجلز بالقرون الوسطى الغربية خاصة الجرمانية أكثر حيويةً من اهتمام ماركس. فقد قرأ كثيراً، وشملت قراءته مصادر أولية، ومقالات علمية محلية، ومختصرات مسوَّدة تتعلق بالتاريخ الأول الألماني والإيرلندي، وكان واعياً وعياً دقيقاً، لا بالدليل اللغوي فحسب، وإنما بأهمية علم الآثار القديمة [الأركيولوجيا] (خاصة العمل السكاندينا الذي سبق أن اعتبره ماركس مدهشاً في ستينات القرن التاسع عشر)، وكان واعياً وعياً دقيقاً مثل أي عالم حديث بالأهمية الحاسمة لمثل تلك الوثائق الاقتصادية الخاصة بعصور الظلام مثل (Polyptych of Abbot Irmino of St. Germain). على كل حال، لا مفر للإنسان من الحصول على انطباع مفاده أنه مثل ماركس كان اهتمامه الحقيقي ماثلاً في المجتمع الفلاّحي القديم أكثر من تطور المزارع.

بالنسبة إلى المجتمع الشيوعي البدائي، تغيّرت وجهات نظر ماركس وإنجلز التاريخية عبر درسهما مؤلفين: جورج فون موريه، الذي حاول البرهان على وجود الملكية الشيوعية كمرحلة في التاريخ الألماني، وقبل الجميع هناك لويس مورغان (Lewis Morgan)، الذي وفَّر كتابه: **المجتمع القديم** (*Ancient History*) (1877) الأساس لتحليلهما الشيوعية البدائية. وكتاب إنجلز: **العلامة** (1882) مبنى على الأول، وكتابه: **أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة** (*Private Family and the State*) (1884) مدين للكتاب الثاني بكثافة وبشكل صريح وواضح. وقد اعتبرا كتاب موريه (الذي بدأ يؤثر كثيراً في الصديقين في عام 1868، كما رأينا سابقاً)، وبمعنى من المعاني، بمنزلة تحرير للبحث العلمي من القرون الوسطى الرومانطيقية التي كان لها ردّ فعل مضاد للثورة الفرنسية. ويمكن لعدم تعاطفهم مع مثل تلك الرومانطيقية أن يشرح بعضاً من إهمالهما النسبي لتاريخ الإقطاع الغربي، فالتطلّع إلى ما وراء العصور الوسطى إلى الأزمنة البدائية للتاريخ البشري كما فعل موريه، بدا أنه متناغم مع الميل الاشتراكي بالرغم من أن العلماء الألمان الذين فعلوا ذلك لم يكونوا اشتراكيين[17]. أما لويس مورغان فقد ترعرع في جوّ اشتراكي خيالي، وأجمل بوضوح العلاقة بين دراسة المجتمع البدائي والمستقبل. لذا، كان من الطبيعي أن يلاحظ ماركس مباشرةً - الذي اطلع على كتابه بعد نشره - تشابه نتائج الكتاب مع نتائجه هو، وبالترحيب بالكتاب واستعماله، والاعتراف بدينه له عبر الأمانة العلمية الدقيقة التي كان يتصف بها كعالم. والمصدر الثالث الذي استفاد ماركس منه بغزارة في سنواته الأخيرة، كان الكتابات الكاملة المتعلقة بالعلم الروسي خاصة كتابات مكسيم ماكسيموفيتش كوفالفسكي (Maksim Maksimovich Kovalevsky).

لذا، في الوقت الذي كتبت فيه **فورمِن**، كانت معرفة ماركس وإنجلز بالمجتمع البدائي معرفة تخطيطية تمهيدية. فلم تكن مبنيّةً على أي معرفة مهمة بالمجتمعات القبلية، لأن علم الأنثروبولوجيا الحديث كان في طفولته، وبالرغم من كتاب بريسكوت (Prescott) [الذي قرأه ماركس في عام 1851، واستفاد منه في **فورمِن**] كانت معرفتنا تمهيدية بالحضارة التي سبقت الحضارة الكولومبية في الأميركيتين. وإلى أن كان مورغان، كانت معظم نظراتها للمجتمع البدائي مبنيّة جزئياً على كتابات المؤلفين الكلاسيكيين، وجزئياً على مادة أصلية، لكن الاعتماد الرئيسي كان على المادة التي مصدرها أوائل القرون الوسطى الأوروبية، أو دراسة بقايا الاشتراكية في أوروبا. ومن بين البقايا، أدَّت البقايا السلافونية (Slavonic) والأوروبية الشرقية دوراً مهماً لأن قوة تلك البقايا، في تلك الأجزاء كانت قد اجتذبت انتباه العلماء لمدة طويلة. وإن القسمة إلى أنماط أساسية أربعة – المشرقي (الهندي)، اليوناني – الروماني والألماني والسلافوني – يتوافق مع حالة معرفتها في خمسينات عام 1850.

فيما يتعلق بتاريخ التطور الرأسمالي، كان ماركس خبيراً مهماً قبل نهاية خمسينات القرن التاسع عشر، ولم يكن ذلك استناداً إلى ما كتب عن التاريخ الاقتصادي، الذي لم يكن قد وجد بعد، وإنما استناداً إلى المكتوبات الهائلة عن النظرية الاقتصادية، التي كانت معرفته بها عميقة. ومهما يكن من أمر، فإن طبيعة معرفته كانت مألوفة بصورة كافية. وتكفي لمحة على مراجع معظم طبعات كتاب **رأس المال** التي توضح ذلك. ولا شك في أن المعلومات التي كانت مُتاحة في خمسينات وستينات القرن التاسع عشر كانت ناقصة وبمقدار كبير، لكن علينا أن لا نشطبها لذلك السبب، خاصة عندما يكون الذي وظَّفها رجلٌ يتصف بحدّة ذهن من طراز ماركس. وهكذا، يمكن القول، إن معرفتنا بارتفاع الأسعار في القرن السادس عشر، ودور السبائك الذهبية فيه، لم يكن إلاّ استناداً إلى أساس موثَّق منذ حوالي عام 1929، أو بعد ذلك. ويسهل نسيان أن كتاباً أساسياً واحداً على الأقل حول هذا الموضوع كان متاحاً قبل وفاة ماركس[18]، والأسهل نسيان أنه قبل ذلك بزمن طويل كانت هناك معرفة كافية عموماً بالموضوع تسمح بنقاش ذكي له، مثل ذلك الموجود في كتاب ماركس: **نقد الاقتصاد السياسي**[19]. ولا أحتاج أن أضيف أن ماركس وإنجلز ظلاً مترافقين مع الكتابات اللاحقة في ذلك الميدان.

يكفي هذا المقدار من الكلام في الحالة العامة للمعرفة التاريخية عند ماركس وإنجلز. ويمكننا اختصارها بالآتي: كانت [في كل الأحوال في الفترة الزمنية التي وضعت فيها مسوّدة **الفورمِن**] المعرفة ضئيلة بما قبل التاريخ، وبالمجتمعات الشيوعية

البدائية، وبأميركا الما قبل الكولومبية، ومعدومة عن أفريقيا. ولم تكن معرفتهما لافتة بالشرق الأوسط القديم أو القروسطي، لكنها كانت معرفة أفضل بشكل بارز عن أجزاء معينة من آسيا خاصة الهند وليس باليابان. وكانت المعرفة جيّدة بالعصور القديمة، وبالقرون الوسطى الأوروبية، مع أن اهتمام ماركس (بمقدار أقل معرفة إنجلز) بتلك المرحلة الزمنية كان متقطعاً ومتفاوتاً. وكانت جيدة جداً في فترة نشوء الرأسمالية. وكان كلا الرجلين تلميذين وثيقي الصلة بالتاريخ. على كل حال، من المحتمل وجود فترتين زمنيتين في حياة ماركس العملية، انشغل فيهما بشكل خاص بتاريخ المجتمعات الما قبل الصناعية أو غير الأوروبية: فترة خمسينات القرن التاسع عشر، أي الفترة التي سبقت وضع مسوَّدة كتاب: **نقد الاقتصاد السياسي**، وفترة سبعينات عام 1870، بعد نشر كتاب: **رأس المال**، المجلَّد الأول، ووضع المسوَّدتين الرئسيتين لمجلد **رأس المال** الثاني والثالث، عندما عاد ماركس إلى الدراسات التاريخية، خاصة عن أوروبا الشرقية، والمجتمع البدائي، وقد يكون ذلك له علاقة باهتمامه بمسألة إمكانيات الثورة في روسيا.

II

لنتتبّع الآن تطور وجهات نظر ماركس وإنجلز الخاصة بالتدوير (Periodisa-tion) والتطور التاريخيين. وأول مرحلة لذلك تمَّ درسها على أفضل وجه في كتاب **الأيديولوجيا الألمانية في** 1845 – 1846، الذي سبق أن وافق على أن المراحل المختلفة للتقسيم الاجتماعي للعمل تتوافق مع الأشكال المختلفة للملكية (ومعرفة ذلك لم تكن، في ذاتها بالمعرفة الجديدة). وأول المراحل كان المرحلة الشيوعية التي ناظرت «مرحلة الإنتاج غير المتطوِّرة، حيث حافظ الناس على أنفسهم عن طريق الصيد البرّي، وصيد السمك، وتربية المواشي، أو الزراعة، في أفضل الحالات»[20]. في هذه المرحلة قامت البنية الاجتماعية على تطوّر الجماعة ذات القرابة وتعديلها، وعلى تقسيمها الداخلي للعمل. وقد مالت تلك الجماعة ذات القرابة («الأسرة») إلى تطوير داخلها الذي لم يقتصر على التمييز بين شيوخ القبائل والبقيّة، بل شمل العبودية أيضاً التي نشأت مع تزايد السكان والحاجات، وتزايد العلاقات الخارجية، سواء أكانت حربيةً أم عبر المبادلة. وتمثَّل التقدّم الرئيسي في التقسيم الاجتماعي للعمل في فصل العمل الصناعي والتجاري عن العمل الزراعي، مما أدّى إلى التمييز بين المدنية والريف وإلى تضادّهما. وهذا بدوره أدّى إلى المرحلة التاريخية الثانية من مراحل علاقات الملكية،

وهي مرحلة «الملكية الشيوعية وملكية الدولة في العصور القديمة». ورأى ماركس وإنجلز أصولها في تشكّل المدن باتحاد الجماعات القبلية (عبر الاتفاق أو الغزو)، أما العبودية فبقيت. فالملكية الشيوعية في المدينة (بما فيها ملكية المواطنين لعبيد المدينة) هي الشكل الرئيسي للملكية، لكن ترافقت معها الملكية الفردية، بالرغم من أنها في البداية كانت تابعة للملكية الشيوعية. ومع نشوء الملكية الخاصة المتنقلة في أول الأمر، ولاحقاً الثابتة، حيث زال ذلك النظام الاجتماعي، وكذلك وضع «المواطنين الأحرار»، الذين كان وضعهم مقابل العبيد مبنيّاً على منزلتهم الجمعية كرجال قبيلة بدائيين.

كان تقسيم العمل قد تطوّر. ولم يكن تقسيم العمل بين المدينة والريف موجوداً فقط، في وقتٍ كان بين حالات مثَّلت المصالح المدينية والريفية، وإنما وجد أيضاً داخل المدينة بين الصناعة والتجارة الخارجية، وطبعاً بين الأحرار والعبيد. ومثَّل المجتمع الروماني التطوّر الأخير لهذه المرحلة من النشوء[21]. وكانت المدينة قاعدتها، ولم تنجح أبداً في تجاوز حدودها.

شكل الملكية التاريخي الثالث «الملكية الإقطاعية أو ملكية المرتبة»[22]، تبعت تاريخياً بالرغم من أن كتاب **الأيديولوجيا الألمانية** لا يشير إلى رابطة منطقية بينهما، ذكر تعاقب وأثر المزيج المؤلف من انهيار المؤسسات الرومانية وانتصار المؤسسات القبلية (الجرمانية). وبدا أن الإقطاعية هي النشوء **البديل** من الشيوعية البدائية في حالات لم يحصل فيها نشوء لمدن، لأن كثافة السكان كانت منخفضة في منطقة واسعة. وبدا أن مساحة المنطقة كانت ذات أهمية حاسمة، لأن ماركس وإنجلز اعتبرا أن «النشوء الإقطاعي بدأ على منطقة واسعة من منطقة أعدتها الفتوحات الرومانية، وانتشار الزراعة المرتبطة بها»[23]. وفي ظل تلك الظروف، كان الريف لا المدينة، نقطة الانطلاق للتنظيم الاجتماعي. ومن جديد، شكَّلت الملكية الشيوعية أساسه (والملكية الشيوعية) تحوَّلت في النتيجة إلى ملكية جمعية للأسياد الإقطاعيين كمجموعة، مدعومة من التنظيم العسكري للغزاة الفاتحين القبليين الجرمانيين. غير أن الطبقة المستغلَّة التي ضدَّها وضع النبلاء الإقطاعيون نظامهم التراتبي، وحشدوا أتباعهم المسلحين، لم تكن مؤلفة من العبيد بل من عبيد الأرض. وفي ذات الوقت وُجِد تقسيم شبيه في المدن. وكان الشكل الأساسي للملكية هناك، هو العمل الخاص للأفراد لكن عوامل مختلفة - كحاجات الدفاع، والمنافسة، ونفوذ النظام الإقطاعي المحيط الموجود في الريف أنتجت نظاماً اجتماعياً شبيهاً، هو: نقابات أصحاب الحرف أو التجار التي جابهت في ذلك الزمن العمال البارعين وتلاميذ المهن. فملكية الأرض التي عمل فيها عبيد الأرض،

والحرف الصغيرة التي عمل فيها تلاميذها، وكذلك العمال البارعون وصفوا، في تلك المرحلة، بأنهم «الشكل الرئيسي للملكية» في زمن الإقطاع (Haupteigentum). ولم يكن تقسيم العمل قد نشأ بعد، لكن وُجَد تعبير عنه بصورة رئيسية في ظاهرة الفصل الحادّ بين «المراتب» المختلفة – الأمراء، والنبلاء، ورجال الدين، والفلاحون في الريف، والأسياد، والعمّال البارعون، وتلاميذ المهن، وعامة العمال اليوميون في المدن. هذا النظام المكاني اقتضى وحدات سياسية كبيرة نسبياً لصالح نبلاء الأرض والمدن، أي: أنظمة ملكية إقطاعية صارت فيما بعد شاملة.

كان الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية نتاج التطور الإقطاعي[24]. فقد بدأ في المدن، لأن انفصال المدينة عن الريف كان العنصر الأساسي والثابت، منذ بداية الحضارة إلى القرن التاسع عشر في ظاهرة التقسيم الاجتماعي للعمل والتعبير عنها. وداخل المدن التي قامت من جديد في القرون الوسطى، نشأ تقسيم للعمل بين الإنتاج والتجارة حيث لم يكن قد بقي على قيد الحياة منذ العصور القديمة. وهذا وفَّر الأساس للتجارة البعيدة، وتبعه تقسيم للعمل (تخصّص في الإنتاج) بين المدن المختلفة. وقد أنتج دفاع مواطني المدن ضد الإقطاعيين والتفاعل بين المدن **طبقة** من المواطنين خارج مجموعات المواطنين الموجودة في المدن المفردة. «والبورجوازية نفسها تطورت تدريجياً مع تزايد شروط وجودها، وانقسمت إلى زمر مختلفة بعد انقسام العمال أيضاً، وفي نهاية المطاف امتص جميع الطبقات المالكة الموجودة (بينما طوّرت أكثرية غير المالكين وجزءاً من الطبقات التي صارت مالكة، وحولتها إلى طبقة جديدة هي البروليتاريا) إلى درجة تحولَّت عندها كل الملكية الموجودة إلى رأسمال تجار أو صناعيين». وأضاف ماركس الملاحظة الآتية قائلاً: «في البداية، امتصَّت فروع العمال التي تتبع الدولة مباشرة، وبعد ذلك الطبقات الأيديولوجية»[25] (Ideological Estates).

وطالما لم تصبح التجارة عالمية، ولم تقم على صناعة كبيرة، فإن ظواهر التقدم التكنولوجي العائدة إلى تلك التطورات تظل غير آمنة. فقد تكون قائمة على أسس محلية أو على أسس المناطق، أو قد تضيع نتيجة الغزوات البربرية أو الحروب، فلا يحتاج الأمر إلى تعميم ظواهر التقدم المحلي (وبالمناسبة نذكر أن كتاب: **الأيديولوجيا الألمانية** يلامس هنا المسألة المهمة، مسألة التفسّخ والنكوص). لذا، فإن التطور الحاسم في الرأسمالية يَمْثُلُ في تطور السوق العالمي.

أول نتيجة لتقسيم العمل بين المدن تمثَّلت في نشوء الصناعيين أصحاب المعامل

باستقلالٍ عن النقابات، والذي قام [كما في المراكز الطليعية في إيطاليا والفلاندرز -Flan) ders)] على التجارة الخارجية، أو (كما في إنجلترا وفرنسا) على السوق الداخلي. وهذه قامت أيضاً على الكثافة المتزايدة للسكان – خاصة في الريف – والتركّز المتزايد للرأسمال داخل النقابات وخارجها. وأثبتت صناعة النسيج، من بين تلك الحرف الصناعية. أنها الأهم (لأنها اعتمدت على استعمال الآلات رغم بدائيتها). وبدوره، وفر نموّ الصناعيين الوسيلة لفلاّحي الإقطاع للهرب، فبدؤوا حينذاك، بالفرار إلى داخل المدن، لكنهم أبعدو عنها بشكل متزايد بسبب حصرية النقابات للعمل وإقصاء الآخرين. وكان مصدر العمل اتباع خدمة الإقطاع السابقين جزئياً، والجيوش، وكان مصدر الجزء الآخر السكان الذين أزاحهم التحسين الزراعي واستبدال رعاية الماشية بالفلاحة.

ومع نشوء الصناعة، بدأت الأمم بالتنافس، والنزعة التجارية (Mercantilism) (بحروبها التجارية، وتعرفاتها، وقوانين حظرها) نشأت وظهرت على مستوى قومي. وتطورات بين أصحاب المعامل العلاقة بين الرأسمالي والعامل. وهزَّ توسع التجارة وضع الملكية الإقطاعية والطبقة العاملة، وكان ذلك نتيجة اكتشاف الأميركيتين، وفتح الطريق البحري إلى الهند، والاستيراد الواسع لمنتوجات ما وراء البحار، خاصةً سبائك الذهب والفضة. وافتتح التغير الناجم في العلاقات الطبقية، والفتوحات، والاستعمار «وقبل كل شيء، توسع الأسواق لتصير أسواقاً عالمية وهو ما صار ممكناً[26]، الآن، وتزايد حصوله» مرحلةً جديدة من التطور التاريخي.

لا داعي لأن نستطرد في النقاش في هذه المرحلة، فلا نتعدّى الملاحظة المفيدة أن كتاب: **الأيديولوجيا الألمانية** ذكر فترتين إضافيتين للتطور، قبل انتصار الصناعة، حتى منتصف القرن السابع عشر، ومن هناك إلى نهاية القرن الثامن عشر، ذكر أيضاً أن نجاح بريطانيا في التطور الصناعي عائد إلى تركّز التجارة والصناعة في تلك البلاد خلال القرن السابع عشر، مما خلق بصورة تدريجية «سوقاً عالمياً لصالح تلك البلاد، وبالتالي طلباً لمنتوجاتها الصناعية، التي لا يمكن تحقيقه بقوى الإنتاج الصناعي التي كانت موجودة حينئذٍ»[27].

واضح أن هذا التحليل هو أساس الأقسام التاريخية **للبيان الشيوعي** فأساسه التاريخي هزيل – وهو العصور القديمة الكلاسيكية (وأكثرها يتعلق بالعصر الروماني) وأوروبا الوسطى والغربية. وهو لا يعترف إلاّ بثلاثة أشكال للمجتمع الطبقي فحسب، هي: مجتمع العبيد في العصور القديمة، الإقطاع والمجتمع البورجوازي. وذكر أن الأول

والثاني كان طريقين خِياريين في عملية الخروج من المجتمع الشيوعي البدائي، لا تربطهما إلاّ الحقيقة المفيدة أن الثاني قام على دمار الأول. ولم ترسم آلية انهيار الأول، بالرغم من أن إحدى الآليات متضمَّنة في التحليل. وبدوره اعتبر المجتمع البورجوازي ناشئاً من تصدّعات المجتمع الإقطاعي. وحصل تخطيط نموّه تخطيطاً كاملاً – في البداية على الأقل – بأنه يتعلّق بالمدن وداخل المدن، وعلاقته بالإقطاع الزراعي هي بشكل رئيسي علاقة اجتذاب سكانه الأصليين وإمداداته التعزيزية من عبيد الأرض السابقين. ومع ذلك، لم تكن هناك محاولة جدّية للكشف عن مصادر الفائض السكاني الذي يوفِّر قوة العمل للمدن ولأصحاب المعامل، فالإشارات لذلك كانت تخطيطية وعامة، فليس لها وزن تحليلي. لذا، يجب اعتباره فرضية فجّة جداً ومؤقتة في التطور التاريخي، بالرغم من أن بعض الملاحظات العرضية التي احتواها كانت موحية وذكية.

مرحلة فكر ماركس التي مثَّلها **الفورمِن** كانت أكثر إتقاناً وتفكيراً، وقامت بلا ريب على أبحاث تاريخية أوسع وأكثر تنوّعاً، ولم تكن هذه المرة مقتصرة على أوروبا. وكان التجديد الرئيسي في قائمة الفترات الزمنية التاريخية ممثِّلاً في النظام «الآسيوي» أو «المشرقي»، الذي أدخل في المقدِّمة المشهورة لكتاب: **نقد الاقتصاد السياسي**.

وبكلام عام هناك الآن ثلاثة أو أربعة طرق للخروج من النظام الشيوعي البدائي، وكل واحد منها يمثِّل شكلاً من أشكال التقسيم الاجتماعي لعمل موجود أو يكون متضمَّناً فيه: **المشرق، والقديم، والجرماني** (مع أن ماركس لم يحصره في أي شعب واحد)، وشكل سلافوني لم يبحث بتوسّع، لكن له وجوه شبه **بالمشرقي**. والتمييز الواحد المهم بينها يتمثَّل في أن النظام الحاسم تاريخياً، هو الذي يقاوم والأنظمة الأخرى تفضِّل التطور التاريخي. ونموذج 1845 – 1846 لا يمسّ هذه المسألة، بالرغم من أن نظرة ماركس للتطور التاريخي لم تكن، كما رأينا خطيّة، هكذا وببساطة، كما أن ماركس لم يعتبره مجرد سجل تقدّم. ومع ذلك، فإن البحث كان أكثر تقدماً بمقدار كبير بحلول 1857 – 1858.

إن عدم المعرفة **بالفورمِن** جعل بحث النظام المشرقي في الماضي يُشاد بصورة رئيسية على رسائل ماركس وإنجلز الأولى السابقة، وعلى مقالات ماركس عن الهند (وكلاهما في عام 1853)[28]، حيث وصف – انسجاماً مع وجهات نظر مراقبين أجانب سابقين – بأنه «غياب الملكية في الأرض» (The Absence of Property in Land) قد اعتبر ذلك عائداً إلى أحوال خاصة، تتطلَّب تمركزاً استثنائياً، مثلاً، الحاجة إلى أشغال

عامة، ومشاريع ريّ في مناطق لا يمكن حراثتها بشكل ناجح من دونها. وقد اعتقد ماركس بوضوح أن الميزة الأساسية لذلك النظام هي «وحدة الصناعة والزراعة المنيعة» داخل كميون القرية، ولذلك «يحتوي هذا الكميون جميع الشروط اللازمة لإعادة الإنتاج وفضل الإنتاج داخله» (ص 70، 83، 91)، ولذلك قاوم التفكك والتطور الاقتصادي بعناد أكثر من أي نظام آخر (ص 83). لذا، فإن الغياب النظري للملكية في «النظام المطلق المشرقي» أخفى «الملكية القبلية أو الشيوعية» التي هي قاعدته (ص 69 – 71). مثل هذه الأنظمة يمكن مركزتها أو عدم مركزتها، «وجعلها أكثر استبداداً أو أكثر ديمقراطية» من حيث شكلها، كما يمكن تنظيمها بأشكال مختلفة. وحيث وجدت وحدات مجتمعية صغيرة مثل تلك كجزء من وحدة أكبر، فقد تخصص جزءاً من فائض إنتاجها لكي تدفع «نفقات المجتمع (الأكبر)، أي نفقات الحرب، والعبادة الدينية... إلخ». ولتغطية تكاليف العمليات الضرورية اقتصادياً مثل الريّ وصيانة شبكات الطرق التي يقوم بها المجتمع الأكبر، أي «الحكم المطلق الجاثم فوق المجتمعات الصغيرة». وهذا التمويل للملكية فائض الإنتائج هو الذي يحتوي على أصول «سيطرة الأسياد» بالمعنى الأصلي، وإمكانية نشوء الإقطاعي (Villeinage) منها. وإن الطبيعية «المغلقة» للوحدات الشيوعية تعني أن المدن لا تنتمي إلى الاقتصاد إطلاقاً، وأنه لا ينشأ «إلاّ حيث يكون الموقع مرغوباً للتجارة الخارجية خاصة، أو حيث يبادل الحاكم والحكام الثانويون المستبدون مقادير دَخْلهم فائض الإنتاج (Surplus Product) بالعمل، الذي يصرفونه كاعتماد أو ذخير عمل» (ص 71). لذا، فإن النظام الآسيوي ليس بمجتمع طبقي، وإذا افترض أنه مجتمع طبقي، فإنه كان أكثر أشكاله بدائيةً. وبدا أن ماركس حسب المجتمعين المكسيكي والبيرو في من ذلك الجنس، وأيضاً، مجتمعات معينة سلتية(*) (Celtic) رغم تعقيدها – وربما معدّة أصلًا – عبر غزو بعض القبائل والمجتمعات الأخرى (ص 70، 88). وأذكر أن ذلك لا يستبعد النمو الإضافي، لكن كنوع من الترف ليس إلاّ بمقدار ما يتطور استناداً إلى الفائض المقدَّم أو المغتَصَب من الوحدات الاقتصادية الأساسية المحافظة على نفسها والتابعة للقبيلة أو القرية.

«النظام الثاني الذي نشأ من المجتمع البدائي – وهُو نتاج حياة ديناميكية تاريخية» (ص 71) أنتج **المدينة**، وعبرها النمط **القديم**، أي المجتمع المتغيّر الديناميكي والتوسّعي (ص 71 – 77 وفي أكثر الصفحات)، «وشكلّت المدينة مع الأرض التابعة

(*) مجتمعات شمال أميركا التي اكتُشفت عام 1873م، الذين يتحدثون اللغة الإيرلندية القديمة (المراجع).

لها [Landmark] كلاً اقتصادياً» (ص 79). وفي شكلها المتطور - لكن ماركس اهتم بالإلحاح على العملية الطويلة التي تقدمتها، وكذلك على تعقّدها - تميّزت **بالعبودية** المنقولة. غير أن هذا بدوره له قيوده وحدوده الاقتصادية، ويقتضي استبداله بشكل من الاستغلال أكثر مرونة وإنتاجية، وهو اعتماد الأسياد على الفلاّحين، أي **الإقطاع**، الذي مهَّد الطريق إلى الرأسمالية.

الوحدة الأساسية للنمط الثالث لم تكن مجتمع القرية ولا المدينة، وإنما «كل أسرة منزل بمفردها، التي شكلَّت مركزاً مستقلاً للإنتاج (والمعمل ليس إلاّ عمل النساء الفرعي الثانوي المحلي... إلخ). (ص 79)». أما الرابطة بين الأسر المنزلية المنفصلة فهي رخوة (بشرط أن تكون تابعة لنفس القبيلة) وهي تتحد في المناسبات (للحرب، والدين، والفصل في النزاعات القانونية،... إلخ.) (ص 80)، أو للاستعمال - المفرد أو من قِبَل أسر منزلية ذات كفاية ذاتية - للمراعي ولأرض الصيد... إلخ. لذا فإن الوحدة الأساسية أضعف وأكثر «انفراداً مما هو الحال في مجتمع القرية. وهذا ما دعاه ماركس بالنموذج **الجرماني**(*)، ونكرر، أنه لم يحصره بأي شعب»[29]. وبما أن النموذجين، **القديم والجرماني** حصل تمييزهما عن النموذج المشرقي، يمكننا الاستدلال أن ماركس اعتبر النموذج **الجرماني** بأسلوبه ذا طاقة ديناميكية أكبر مما عند النموذج المشرقي، والواقع هو أن هذا محتمل[30]. وملاحظات ماركس على هذا النموذج هي من النوع التخطيطي السطحي والمتردّد، لكننا نعرف أنه هو وإنجلز تركا الطريق مفتوحاً لانتقال مباشر من المجتمع البدائي إلى الإقطاع، كما حصل بين القبائل الجرمانية.

وهكذا، ظلَّ التقسيم إلى مدينة وريف (أو إلى إنتاج زراعي وإنتاج غير زراعي)، وهو التقسيم الذي كان أساسياً، في تحليل ماركس في 1845 - 1846، أساسياً في **الفورمِن**، لكن مع توسع في أساسه وأناقةٍ في صياغته. هذا ما قال: «التاريخ القديم كان تاريخ المدن القائمة على الزراعة وملكية الأرض، وكان التاريخ الآسيوي نوعاً من الوحدة غير المحيّرة بين المدينة والريف (والمدينة الكبيرة يجب بكلام مناسب اعتبارها معسكراً أميرياً مفروضاً على البنية الاقتصادية الواقعية)، وبدأت القرون الوسطى (الحقبة الجرمانية) بالريف بوصفه محل التاريخ، الذي استمر تطوره عبر التضاد بين المدينة والريف، والتاريخ الحديث هو تمدين الريف، وليس ترييف المدينة، كما حصل عند القدماء» (ص 77 - 78).

(*) النموذج الألماني (المراجع).

على كل حال، مع أن الأشكال المختلفة للتقسيم الاجتماعي للعمل هي أشكال خِيارية لتفكك المجتمع الشيوعي، فإنها قُدِّمت كمراحل تاريخية متعاقبة – في مقدمة كتاب. **نقد الاقتصاد السياسي**، وإن لم تكن في **الفورمِن** تحديداً. وهذا بالمعنى الحرفي غير صحيح، وذلك، لأن نمط الإنتاج الآسيوي تواجد مع البقية، وليس مع هذا فحسب، بل لا يوجد ما يفيد في النقاش الموجود في **الفورمِن**، أو في أي مكان آخر أن النمط القديم نشأ منه. لذا، علينا أن لا نفهم ماركس بأنه كان مشيراً إلى تعاقب زمني تاريخي، ولا إلى نشوء نظام من الأنظمة التي تقدمته (بالرغم من أن هذه هي الحالة الواضحة للرأسمالية وللإقطاعية)، بل إلى نشوء بالمعنى العام. وكما قد رأينا سابقاً، «لم يصبح الإنسان فرداً [Vereinzelt sich selbst] إلاّ عبر عملية تاريخية. أما في الأصل، فقد بدا كائناً عاماً، وكائناً قبليّاً، وحيواناً في قطيع». وتلك الأشكال المختلفة لعملية التفردن التدريجي للإنسان التي عنت تفكك الوحدة الأصلية، كانت متطابقة مع مراحل مختلفة من التاريخ. وكل مرحلةٍ مثَّلت خطوة مبتعدة عن «الوحدة الأصلية لشكل خاص للمجتمع (القبلي)، والملكية في الطبيعة ذات الصلة به، أو العلاقة بشروط الإنتاج الموضوعية كما كانت موجودة على نحوٍ طبيعي (Naturdaseins) ص (94). وبكلمات أُخر، هي تمثِّل خطوات في عملية نشوء الملكية الخاصة.

لقد ميّز ماركس أربع مراحل في ذلك النشوء، كانت تحليلية لا زمنية تاريخية. وكانت المرحلة الأولى مرحلة الملكية الشيوعية المباشرة، كما كان الحال في النظام المشرقي، وفي النظام السلافوني، لكن بشكل معدَّل، ولم يشكل أي واحد منهما مجتمعاً طبقياً بالمعنى الكامل. المرحلة الثانية كانت مرحلة الملكية الشيوعية التي استمرت كأساس لما سبق أن كان نطاقاً «متناقضاً»، أي نظاماً طبقياً، كما في الأشكال القديمة والجرمانية. والمرحلة الثالثة لم تنشأ، إذا كان علنياً أن نتتبّع حجة ماركس عبر الإقطاع، بل عبر نشوء صناعة الحرف، حيث مثَّل الحرفي المستقل (المنظَّم في نقابات) شكلاً مستقلاً من السيطرة على وسائل الإنتاج، وعلى الاستهلاك فعلياً مما سمح له أن يعيش وهو ينتج. ويبدو لي أن ما كان يدور في خلد ماركس، هنا، هو نوع من استقلالية قطاع الإنتاج الخاص بالحرف، لأنه استبعد صناعيي العالم القديم، ومن دون تقديم أسباب. المرحلة الرابعة هي مرحلة نشوء البروليتاريا، أي المرحلة التي لم يعد يمارس فيها الاستغلال بالشكل الفجّ المتمثِّل في الاستيلاء على **البشر** – كعبيد أو كعبيد أرض – وإنما تمثَّل في الاستيلاء على «العمل». «فبالنسبة إلى الرأسمال لا يؤلف العامل شرطاً من شروط الإنتاج، بل مجرد عمل ليس إلاّ فإذا أمكن إنجاز العمل بالآلات، أو بالماء

أو الهواء، فليكن ذلك هو المفضل. وما يستولي الرأسمال عليه هو عمل العامل، وليس العامل – وليس مباشرة، بل عبر التبادل» (ص 99).

يبدو أن ذلك التحليل يتفق مع مخطط المراحل التاريخية على النحو الآتي – بالرغم من أن الإنسان لا يمكن أن يكون متأكداً، نظراً لصعوبة فكر ماركس والصفة الموجزة لملاحظاته- الشكلان المشرقي (والسلافوني) هما من الوجهة التاريخية الأقربان لأصول الإنسان، لأنهما حافظا على المجتمع البدائي العامل في وسط بنية فوقية اجتماعية أكثر إتقاناً، وكان لهما نظام طبقي غير متطور كفاية. (وطبعاً يمكننا أن نضيف، أنه في الوقت الذي كتب فيه ماركس لاحظ أن هذين النظامين، كان يتفككان تحت وقع السوق العالمي، لذا فإن طابعهما الخاص كان يتلاشى).

بالرغم من أن النظامين القديم والجرماني كانا بدائيين أيضاً – أي، غير مستمدين من المشرقي – فإنهما مثَّلا شكلًا أكثر إتقاناً من النشوء من الشيوعية البدائية، لكن «النظام الجرماني» لا يشكل تشكيلاً اجتماعياً – اقتصادياً. فهو يشكل التشكيل الاجتماعي – الاقتصادي للإقطاعية مع العلاقة مع المدينة القروسطية (محلّ ظهور الإنتاج الحرفي المستقل). إذن، شكل ذلك التركيب الذي نشأ خلال القرون الوسطى المرحلة الثالثة. كما شكل المجتمع البورجوازي، الذي نشأ من الإقطاع المرحلة الرابعة. لذلك، فالقول إن التشكيلات الآسيوية القديمة والإقطاعية والبورجوازية هي «تقدمية»، لا يتضمن أي وجهة نظر للتاريخ بسيطة وأحادية، ولا نظرة بسيطة مفادها أن كل التاريخ تقدم. فكل ما تقوله أن كل واحد من تلك الأنظمة هو، ومن نواحٍ حاسمة، بعيد كثيراً عن حالة الإنسان البدائية.

III

المرحلة الآتية التي ستُدرس هو مرحلة الديناميكية الداخلية لتلك الأنظمة، أي: ما يجعلها تنشأ وتزول؟ والجواب على ذلك بسيط بالنسبة إلى النظام المشرقي، الذي تجعله خصائصه مقاوماً للتفكك وللتطور الاقتصادي إلى أن تحطمه القوة الخارجية للرأسمالية.

وكان ماركس مقلاً جداً في كلامه في النظام السلافوني في هذه المرحلة، مما لا يسمح لنا بتعليق واسع. من جهة أخرى، كانت وجهات نظره الخاصة بالتناقض الداخلي للنظامين القديم والإقطاعي مركَّبة، وطرحت بعض المسائل الصعبة.

كانت العبودية الميزة الرئيسية للنظام القديم، لكن وجهات نظر ماركس المتعلقة بتناقضه الداخلي الأساسي هو أكثر تعقيداً من النظرة البسيطة المفيدة أن العبودية تفرض قيوداً على مزيد من التطور الاقتصادي، لذا، تنتج انحلالها. وبالمناسبة، تجب الملاحظة أن أساس تحليله كان القسم الروماني الغربي، لا النصف اليوناني من البحر الأبيض المتوسط. فقد بدأت روما كمجتمع مؤلف من الفلاحين، بالرغم من أن تنظيمها كان مدينيّاً. والتاريخ القديم كان «تاريخ مدن مؤسسة على ملكية الأرض والزراعة» (ص 77). فهو لم يكن مجتمع مساواة، لأن التطورات القبلية مع ظواهر الزواج الداخلي والفتوحات أنتجت مجموعات قرابة عليا ودنيا، لكن المواطن الروماني كان بصورة جوهرية مالك أرض، وكان «استمرار الكوميون هو في إعادة إنتاج أعضائه كفلاّحين ذوي اكتفاء ذاتي، أما فائض وقتهم فهو بالضبط للكوميون، وللعمل الحربي (المشترك)،... إلخ.» (ص 74). وذلك، لأن الحرب هي العمل الرئيسي، إذ إن التهديد الوحيد لوجود يصدر عن المجتمعات الأخرى التي تريد أرضه، والسبيل الوحيد لتأمين أرض كل مواطن والمجتمع ماضٍ في التوسّع، يَمْثُلُ في احتلالها بالقوة (ص 71). غير أن الميول الحربية والتوسعية لمثل تلك المجتمعات الفلاّحية لا بدّ من أن يودّيا إلى الصفات الفلاحية التي هي أساسه. وإلى حدّ ما، فإن العبودية تركّز ملكية الأرض، والتبادل، والاقتصاد عبر العُملة، والفتح... إلخ. وكلها متَّسق مع أساس ذلك المجتمع. وبعد تلك المرحلة، لا بدَّ من أن يؤدي إلى انحلاله، ويجعل نشوء المجتمع أو نشوء الفرد مستحيلاً (ص 83 – 84)، لذا، قبل نشوء اقتصاد العبيد، كان الشكل القديم للتنظيم الاجتماعي محدوداً بصورة حاسمة، كما دلَّت على ذلك الحقيقة المفيدة أن معه لم يكن تطوير الإنتاجية هو الانشغال الأساسي، ولا يقدر على ذلك. «وفي وسط القدماء، لا نقع على بحث في أيٍّ من أشكال ملكية الأرض... إلخ. هي الأشكال الأكثر إنتاجية، وتخلق أعظم ثروة...، فالبحث كان دائماً يدور حول أي نوعٍ من الملكية يخلق المواطن الأفضل. فالثروة كغاية في ذاتها لم تظهر إلاّ عند شعوبٍ تجاريةٍ قليلة – محتكرو التجارة المنقولة – عاشت في مسامّ العالم القديم، مثل اليهود في المجتمع القروسي» (ص 84).

إذن، عاملان رئيسيان مالا لتدميره. وتمثّل العامل **الأول** في التفريق داخل المجتمع، الذي لم يوفِّر التوحيد القديم الفريد بين ملكية الأرض الشيوعية والخاصة أي وقاية. **فخسارة** المواطن الفرد لملكيته – أي أساس مواطنيته – كانت ممكنة. وكلما ازدادت سرعة التطور الاقتصادي ازدادت معه تلك الإمكانية: ونجم عن ذلك

الارتياب القديم بالتجارة والصناعة، اللذين تركا للعبيد المعتقين أو الأتباع أو الغرباء، اعتقادهم بمخاطر التعامل مع الأجانب، أن كانت الرغبة بتبادل فائض المنتوجات... إلخ. **ثانياً**، هناك العبودية طبعاً. لأن الضرورة ذاتها التي اقتضت حصر المواطنة (أو ما يعادلها ملكية الأرض) بأعضاء المجتمع المحتلّ، أدّى بشكل طبيعي إلى الاستعباد الكلي أو الأرضي للمغلوبين. «لذا، فإن العبودية الكلية وعبودية الأرض هما ببساطة تطوران إضافيان للملكية القائمة على القبليّة» (ص 91). لذا، فإن «الحفاظ على المجتمع يتضمن تدمير الشروط التي قام عليها، والتحوّل إلى ضده» (ص 93). و«الحكم» الذي كان يمثِّله في البداية جميع المواطنين صار يمثلِّه النبلاء الأرستقراطيون، الذين بقوا الوحيدين من ملاّك الأراضي مقابل من هم أدنى منهم والعبيد، كما صار يمثله المواطنون مقابل غير المواطنين والعبيد. وماركس لم يبحث في التناقضات الاقتصادية الفعلية لاقتصاد العبيد في ذلك السياق إطلاقاً. وفي مستوى عام جداً لتحليله في **فورمِن** اعتبرت مجرد مظهر خاص للتناقض الأساسي للمجتمع القديم. كما أنه لم يبحث في أسباب كون العبودية، في الأزمنة القديمة، لا عبودية الأرض، هي التي نشأت، يمكن للإنسان أن يخمِّن ويقول إن السبب تمثَّل في مستوى قوى الإنتاج وتركيب علاقات الإنتاج الاجتماعية التي سبق بلوغها في مناطق البحر الأبيض المتوسط القديمة.

لذا، فإن انحلال النمط القديم متضمَّنٌ في طابعه الاجتماعي الاقتصادي. ويبدو أنه لا يوجد سبب منطقي يشرح لماذا أدّى بشكل **حتمي** إلى الإقطاع المتميّز عن «أشكال جديدة، ومجموعات عمال» (ص 93)، التي تجعل الإنتاج الأعلى ممكناً. ومن جهة أخرى، يستبعد الانتقال المباشر من النمط القديم إلى الرأسمالية.

عندما تأتي إلى الإقطاع الذي نشأت الرأسمالية منه **فعلياً**، تصير المسألة محيّرة جداً، على الأقل لأن ماركس لم يذكر لنا سوى القليل عنه. فلا يوجد تخطيط لتناقضات الإقطاع الداخلية يشبه تخطيط النمط القديم في **فورمِن**. ولا يوجد بحث حقيقي في عبودية الأرض (يزيد على ما كان عن العبودية). والواقع هو أن هذين الصنفين من علاقات الإنتاج، غالباً ما يقرنان معاً وأحياناً بوصفهما «علاقة سيطرة وتبعيّة»، مقابل لوضع العامل الحرّ[31]. وعنصر المجتمع الإقطاعي الذي نشأت الرأسمالية منه، بدا في 1857 – 1858 كما في 1845 – 1846، أنه **المدينة** – وتحديداً تجار وحرفيّو المدينة (انظر ص 97 – 98، 100). وكان تحرير ملكية وسائل الإنتاج من أساسها الشيوعي، كما حدث في الحِرَف القروسطية، هو الذي وفَّر الأساس لنشوء الرأسمالي، والذي «لم يكن عَرَضياً (Akzident) لملكية الأرض وما هو داخل ضمنها».

دور الإقطاع الزراعي في تلك العملية لم يحصل بحثه فحسب، بل بدا سلبياً. فلا بدَّ من أن يكون ممكناً، في المرحلة المناسبة، لينفصل الفلاّح عن التربة، والتابع عن السيّد، ويتحوّل إلى عامل أجرة. وسواء اتَّخذ ذلك شكل انحلال ظاهرة الفلاح نصف الحرّ في نظام الرقّ (Hörigkeit) للملكية الخاصة أم امتلاك الفلاحين المزارعين أم مستأجري الفلاحين، أم أشكالاً مختلفة من التبعية، فكله لا صلة له. فالمهم هو أنه لا شيء من تلك الأمور يجب أن يكون عائقاً في طريق تحوّل البشر إلى عمال أحرار، وعلى الأقل إلى إمكانية حدوث ذلك.

على كل حال، مع أن ذلك لم يبحث في **فورمِن** (وإنما في كتاب: **رأس المال**، المجلد 3)، فإن عبودية الأرض وعلاقات تبعية شبيهة أخرى، تختلف عن العبودية بنواحٍ اقتصادية مهمة. فعبد الأرض، بالرغم من أنه تحت سيطرة السيّد، هو في الواقع منتجٌ مستقل اقتصادياً، لكن العبد ليس كذلك[32]. وافصل الأسياد عن عبيد الأرض، فإن ما يبقى هو إنتاج سلع صغيرة، افصل المزارع والعبيد، لا يبقى أي نوع من الاقتصاد (إلى أن يقوم العبيد بشيء آخر). «لذا، فإن المطلوب هو شروط الاتكال الشخصي لـ «الحرية الشخصية» بأي صورة، وارتباط البشر بوصفهم ملحقين بالأرض وفلاحين نصف أحرار بالمعنى الصحيح للكلمة (*Capital*, 3 p. 841). ففي شروط عبودية الأرض، لا ينتج عبد الأرض فائض العمل الذي يستولي عليه سيّده، بشكل أو بآخر فحسب، لكن يمكنه أن يراكم أرباحاً لنفسه. وذلك لأنه لأسباب مختلفة، يوجد ميلٌ في الأنظمة البدائية والمتطورة اقتصادياً مثل النظام الإقطاعي، لأن يظل الفائض ثابتاً كمقدار تقليدي، ولأن «استعمال عمل [عبد الأرض] ليس محصوراً بالزراعة، بل يشمل الصناعات الريفية المحلية. فهنا، توجد إمكانية تطور اقتصادي معين (*Capital*, 3, pp. 844-845).

لم يبحث ماركس مظاهر عبودية الأرض تلك أكثر مما بحث تناقضات العبودية الداخلية، لأنه في **فورمِن** لم يكن شغله الشاغل تخطيط «تاريخ اقتصادي» لأي واحد منهما. والواقع هو أنه – بالرغم من كون الأمر هنا بشكل عام – لم يكن مهتماً بالديناميّة الداخلية للأنظمة الما قبل الرأسمالية، إلاّ بمقدار ما تشرح الشروط السابقة للرأسمالية[33]. فهنا كان مهتماً، بسؤالين سلبيين فقط: لماذا عجز «العمل» و«الرأسمال» عن النشوء من التشكيلات الاجتماعية – الاقتصادية الما قبل الرأسمالية غير الإقطاع؟ ولماذ سمح الإقطاع بشكله الزراعي لها أن تنشأ، ولم يفرض عقبات أساسية على نشوئها؟

هذا يوضح وجود فجوات واضحة في بحثه. وكما في 1845 – 1846، لا وجود لبحث في طريقة عمل الزراعة الإقطاعية. ولا يوجد بحث في العلاقة الخاصة بين المدينة الإقطاعية ومنطقة الريف، أو ما سبب إنتاج إحداهما الأخرى. من جهة أخرى، هناك الفكر المتضمَّن الذي يفيد أن الإقطاع الأوروبي فريد نوعه، إذ لا وجود لشكل آخر لهذا النظام أنتج المدينة القروسطية، وهو الحاسم لنظرية ماركس الخاصة بنشوء الرأسمالية. وما دامت الإقطاعية هي نمط إنتاج موجود خارج أوروبا (وربما اليابان، التي لا يدرسها ماركس بالتفصيل، في أي مكان) فلا يوجد شيء عند ماركس يخوِّلنا البحث عن «قانون عام» للتطور يمكنه أن يوضح ميلها إلى التطور نحو الرأسمالية.

فما بُحِثَ في فورمِن هو «النظام الجرماني»، أي فرع مختلف وخاص من الشيوعية البدائية، لذا فهي تميل إلى إنشاء نمط خاص من البنية الاجتماعية. وفكرته الأساسية تتمثَّل في القول بوجود استقرار متناثر في وحدات أسروية ذات اكتفاء ذاتي اقتصادياً، مقابل مدينة القدماء الفلاّحية: «كل أسرة بمفردها تحتوي على اقتصاد كامل، وتشكل مركز إنتاج مستقل (أما الصناعة فهي مجرد عمل فرعي إضافي ومحلّي خاص بالنساء... إلخ). ففي العالم القديم كانت المدينة مع الأرض التابعة لها تشكل الكل الاقتصادي، أما في العالم الجرماني فالاقتصاد كله في الأسرة بمفردها» (ص 79). ووجودها تحميه رابطة مع أسر شبيهة أخرى تنتمي إلى القبيلة ذاتها، ويعبّر عن هذه الرابطة في اجتماع جميع الأسر ظرفياً لغرض الحرب، والدين، وفض النزاعات، وعموماً، للأمن المتبادل (ص 80). والملكية العامة لملكية المراعي، ومناطق الصيد... إلخ. يستعملها كل عضو بوصفه فرداً، وليس كما كان في المجتمع القديم كممثِّلٍ للجماعة. ويمكن تشبيه النظام الاجتماعي الروماني المثالي بكلية من كليات جامعة أكسفورد أو كامبريدج، حيث الأساتذة الزملاء لا يملكون الأرض والأبنية ملكية مشتركة إلاّ إذا شكلوا كياناً من الزملاء، لكنهم لا يستطيعون بوصفهم أفراداً أن «يملكوا» الأرض والأبنية، أو أي جزء منهما. لذا يمكن تشبيه النظام الجرماني بتعاونية منزلية حيث يكون ملء الفرد لشقة. يعتمد على اتحاده وتعاونه المستمر مع الأعضاء الآخرين، ومع ذلك فإن الملكية الفردية توجد في شكل يمكن تحديده. شكل المجتمع الرخو هذا الذي يتضمن إمكانية أعظم للتفردن الاقتصادي، يجعل «النظام الجرماني» (عبر الإقطاع) السلف المباشر للمجتمع البورجوازي.

الجواب على السؤال عن كيفية التحول إلى الإقطاع لم يدرس، بالرغم من أن إمكانيات مختلفة من التفريق الاجتماعي الداخلي والخارجي كانت موجودة (مثلاً، أثر

الحرب والغزو). ويمكن للإنسان أن يجازف فيخمّن أن ماركس علّق أهمية كبيرة على التنظيم العسكري (لأن الحرب في النظام الجرماني مثلها في النظام القديم)، «هي أول المهمات عند جميع المجتمعات البدائية، وذلك للحفاظ على الملكية ولاكتسابها» (ص 89). ولا ريب في أن ذلك كان خط الشرح اللاحق الذي نقع عليه في كتاب إنجلز: **أصل الأسرة**، حيث نشأت القرابة من تحوّل القيادة العسكرية القبلية في أوساط القبائل التوتونية(*) (Teutonic) ولا يوجد مسوغ للافتراض أن ماركس كان سيفكر بطريقة مختلفة.

ماذا كانت تناقضات الإقطاع الداخلية؟ وكيف تطورت إلى الرأسمالية؟ هاتان المسألتان شغلتا بصورة متزايدة المؤرخين الماركسيين، كما حصل في النقاش الدولي القوي الذي نشأ من كتاب موريس دوب (Maurice Dobb): **بحوث في نشوء وتطور الرأسمالية** (*Studies in the Development of Capitalism*)، في أوائل خمسينات القرن العشرين، والجدل الذي تبعه بعد قليل حول «القانون الاقتصادي الأساسي للإقطاع» في الاتحاد السوفيتي. ومهما كانت مزايا أي من النقاشين - ويبدو أن مزايا النقاش الأول أعظم من مزايا النقاش الثاني - فقد أضعف كليهما غيابُ أي إشارة إلى وجهات نظر ماركس الخاصة حول الموضوع. فمن الممكن القول، إن ماركس كان قد يوافق دوب على أن سبب الانهيار الإقطاعي هو «عدم كفاية الإقطاع بوصفه نظام إنتاج» ومقروناً معه حاجات الطبقة الحاكمة لمصدر للدخل، التي صارت متزايدة [**بحوث** (*Studies*)، ص 42]، بالرغم من أن ماركس بدا مؤكداً على عدم المرونة النسبية لمطالب الطبقة الإقطاعية الحاكمة، وميلها لتثبيتها تقليدياً[34]. ومن الممكن أنه كان سيوافق على وجهة نظر ر.هـ. هلتون (R. H. Hilton) المفيدة أن «الصراع للأجرة كان «المحرِّك الأول» Prime Mover في المجتمع الإقطاعي» (*Transition*, p. 70)، مع أنه قد يرفض وجهة نظر بورشنيف (Porshnev) الساذجة التي أفادت أن صراع الجماهير المستغلَّة، البسيط هو المحرِّك الأول. غير أن المسألة هي أن ماركس لم يتوقّع أيًّا من هذه الأنواع من التفكير يقيناً، أن ذلك لم يحصل في **فورمِن**.

وإذا كان أي واحدٍ من الذين أسهموا في تلك النقاشات يمكن إن تابع خطوط تفكيرة، فهو بول م. سويزي (Paul M. Sweezy) الذي قال (متّبعاً ماركس)، إن الإقطاعية نظام إنتاج هدفه الاستعمال[35]، وفي مثل هذه التشكيلات «لا ينشأ ظمأ

(*) التوتون (Touton) شعب جرماني قديم (المترجم).

للعمل الفائض من طبيعة الإنتاج نفسه» (*Capital*، 1، ص 219، الفصل 10، القسم 2)، لذا، فإن عامل التفكك الرئيسي تمثَّل في نموّ التجارة، الناشطة خاصة عبر نتائج النزاع والتفاعل بين الريف الإقطاعي والمدن التي نشأت على هامشه (*Transition*، ص 2، 7 – 12). هذا الخط من النقاش يشبه كثيراً خط النقاش في **فورمِن**.

أما بالنسبة لماركس، فإن اجتماع ثلاث ظواهر ضروري لشرح نشوء الرأسمالية من الإقطاعية، وهي: **أولاً** كما رأينا سابقاً هناك البنية الاجتماعية الريفية التي سمحت «بتحرير» الفلاحين في مرحلة معينة. **ثانياً**، نشوء الحرف في المدينة، التي أنتجت إنتاجاً من السلع اللازراعية الاختصاصية والمستقلة على شكل الحِرَف. **وثالثاً**، تراكمات الثروة المالية المستمدة من التجارة والربا الفاحش (وكان ماركس مطلقاً في هذه النقطة الأخيرة) (ص 107 – 108) وإن تشكل مثل تلك التراكمات المالية «يعود إلى الاقتصاد البورجوازي الما قبل التاريخي» (ص 113)، وهي لم تصر بعد رأسمالاً ومجرد وجودها أو سيطرتها الظاهرة لا ينتجان نشئاً رأسمالياً بصورة أوتوماتيكية، وإلاّ كانت «روما القديمة، بيزنطة (Byzantium)... إلخ. قد أنهت تاريخها بعمل حرّ ورأسمال» (ص 109)، غير أن تلك التراكمات جوهرية.

جوهري أيضاً كان العنصر الحرفي في المدينة. وكانت ملاحظات ماركس على ذلك مقتضبة وغير مباشر، لكن أهميته في تحليله واضحة. وقد أكدَّ قبل أي شيء آخر على عنصر المهارة الحرفية، والكبرياء والتنظيم[36]. وبدا أن الأهمية الرئيسية لتشكيل الحرفة القروسطية تمثَّلت في أنه بنشوء «العمل ذاته كمهارة تحدِّدها الحرفة [صار] ملكية هو نفسه، وليس مجرد مصدر ملكية» (ص 104)، وبالتالي أدخل فصلاً ممكناً بين العمل وشروط الإنتاج الأخرى، عبَّر عن درجة من التفرّد أعلى من الدرجة الشيوعية البدائية، ومكَّن من تشكيل طبقة العامل الحر. وفي ذات الوقت، طوَّر مهارات خاصة وأدواتها. غير أن الذي كان في مرحلة نقابات الحرف هو أن «أداة العمل ظلَّت مندمجة اندماجاً حميماً بالعمل الحيّ، أي أنها لا تتدوال بالمعنى الحقيقي» (ص 108). ومع ذلك، وبالرغم من أنها لا تستطيع، **بذاتها**، أن تنتج سوق العمل، فإن نشوء الإنتاج التبادلي والمال أمكنا من خلق سوق العمل «في شروط **النشاط الحرفي** في المدنية، الذي لم يقم على الرأسمال والعمل المأجور فحسب، وإنما على تنظيم العمال في النقابات... إلخ» (ص 112).

غير أن جميع تلك الأشياء تتطلَّب إمكانية انحلال البنية الريفية. وذلك لأن الرأسمالية لا تنشأ من دون «الاشتمال على الريف كله في عملية إنتاج، ولا القيم

الاستعمالية بل القيم التبادلية (ص 116). وهذا سبب آخر يوضح، لماذا تمكن القدماء الذين كانوا يزدرون الحرف ويرتابون بها، من إنتاج نوع من «النشاط الحرفي في المدينة»، ولم يستطيعوا إنتاج صناعة على نطاق واسع (المرجع السابق)، ولم يذكر لنا بالضبط عما يجعل البنية الريفية للإقطاع ممكنة الانحلال بمعزل عن مزايا «النظام الجرماني، الذي كان الأساس. والواقع هو أنه، ليس من الضروري التوغل في سبر الأمور في سياق حجة ماركس في هذه المرحلة. فهناك عدد من نتائج نموّ اقتصاد التبادل قد ذكر بشكل عرضي» (مثلاً، ص 112 – 113). وقد لوحظ أيضاً أنه «بصورة جزئية، حدثت هذه العملية الفاصلة [للعمل عن الشروط الموضوعية للإنتاج – الطعام، المواد الخام والأدوات] من دون [ثروة مالية]» (ص 113). وأقر ما يكون للشرح العام (ص 114 وما بعدها) يتضمن أن الرأسمال ظهر أول ما ظهر بشكل متقطع أو **محلياً** (التأكيد لماركس) **إلى جانب** (التأكيد لماركس) أنماط الإنتاج القديمة، لكنه في النتيجة حطمها في كل مكان.

نشأت الصناعة، أول ما نشأت للسوق الخارجي على أساس التجارة البعيدة، وفي مراكز تلك التجارة، وليس في الحرف النقابية، ولكنها كانت على صعيد التجارة القليلة المهارة، وذات السيطرة النقابية، مثل الغزل، والنسج، بالرغم من أنها كانت في فروع المدينة المرتبطة مباشرة بالشحن بواسطة السفن، مثل صناعة السفن. ومن ناحية أخرى ظهر الفلاح مستأجر الأرض في الريف، مثل تحوّل الشعب الفلاّحي إلى عمال يوميين أحرار. وتطلبت جميع تلك المعامل وجود سوق واسع مسبق. وانحلال عبودية الأرض ونشوء الصناعيين حوّلا تدريجياً جميع فروع الإنتاج إلى إنتاج رأسمالي، في حين أن الذي حصل في المدن هو نشوء طبقة من العمال اليوميين... إلخ، خارج النقابات وفرّت عنصراً في عملية خلق بروليتاريا، بالمعنى الصحيح (ص 114 – 117)[37].

وقد خلق تحطم التجارات الريفية التكميلية سوقاً **داخلية** للرأسمال قائمة على إحلال المعمل أو الإنتاج الصناعي محلّ التموين الريفي من سلع الاستهلاك. «ونشأت هذه العملية وبصورة أوتوماتيكية [*Von Selbst*] من فصل العمال عن التربة ومن ملكيتهم في شروط الإنتاج (بالرغم من أنها ملكية عبد الأرض فقط)» (ص 118). واستمر تحوّل حرف المدن إلى صناعة لاحقاً، لأنه تطلّب تقدماً كبيراً في طرق الإنتاج، ليكون قادراً على الإنتاج في المعامل. وعند هذه النقطة، تنتهي مخطوطة ماركس التي بحثت تحديداً في التشكيلات الما قبل الرأسمالية. أما مراحل التطور الرأسمالي فلم تبحث.

IV

علينا أن ندرس في الخطوة التالية إلى أي حدّ أدّى تفكير ماركس وإنجلز ودرسهما اللاحقين إلى تعديل توسيع ومتابعة وجهات النظر العامة المعبَّر عنها في **فورمِن**. فمن المؤكد أن اهتمامات ماركس التاريخية الخاصة، بعد نشر كتاب: **رأس المال** (1867) كانت منصبّة بشكل غالب على تلك المرحلة من مراحل التطور الاجتماعي التي وفر لها موريه ومورغان والأدب الروسي الواسع - الذي التهمه منذ عام 1873 وما بعده - أساساً صلباً للدراسة أكثر مما كان متاحاً في 1857 - 1858. وبمعزلٍ عن التوجّه الزراعي لعمله في كتاب: (**رأس المال III**)، يمكن ذكر سببين لتركيز الاهتمامات ذاك. **الأول تمثَّل في** نشوء حركة ثورية روسية مما زاد في تعليق ماركس وإنجلز آمالاً بحدوث ثورة أوروبية في روسيا. (ولا يوجد أغرب من التفسير الذي يفيد، إنه توقّع ثورة بصورة حصرية تنشأ في أقطار الغرب الصناعية المتقدِّمة)[38]. وبما أن وضع المجتمع القروي كان موضع خلاف نظري أساسي في أوساط الثوريين الروس، الذين استشاروا ماركس حوله، فإن الطبيعي هو أن يبحث الموضوع بتوسّع.

واللافت - بشكل غير متوقَّع - هو أن وجهات نظره مالت باتجاه وجهات نظر نارودْنِك (Narodnik)، الذي اعتقد أن مجتمع القرية الروسي يمكنه أن يوفرِّ أساس الانتقال إلى الاشتراكية من غير التفكك عبر النشوء الرأسمالي. وهذه النظرة لا تتبع منطقياً التوجه الطبيعي لفكر ماركس التاريخي الأوَّلي، ولم يقبلها الماركسيون الروس (الذين كانوا في عداد خصوم نارودْنِك حول هذه المسألة) أو من قِبَل الماركسيين اللاحقين، وفي أي حال، تبيّن أنها بلا أساس. وقد تكون الصعوبة التي وجدها ماركس عند وضعه تعليلاً نظرياً لها[39]، هي انعكاس لشعور بالإرباك. فهي تتعارض بقوة مع عودة إنجلز الشفّافة والذكية إلى التقليد الماركسي الرئيسي - ولدعم الماركسيين الروس - عندما بحث الموضوع ذاته بعد سنوات[40]. ومع ذلك، فهو يؤدي بنا إلى السبب الثاني لعودة انشغال ماركس المتزايد بالشيوعية البدائية، أي: كراهيته المتنامية للمجتمع الرأسمالي واحتقاره له. (والنظر المفيد أن ماركس الأكبر سناً فقد بعضاً من حماسته الثورية التي كانت عند ماركس الشاب، وهي نظرة شائعة دائماً في أوساط النقّاد الذين رغبوا في التخلّي عن الممارسة الثورية للماركسية مستبقين حبًّا بنظريته). وقد يكون ماركس، الذي سبق له أن احتفى بوقع الرأسمالية الغربية بوصفها لا إنسانية، لكنها قوة تقدّمية من الوجهة التاريخية على الاقتصاديات الما قبل الرأسمالية الراكدة[41]، التي قد وجد نفسه مرعوباً رعباً متزايداً من تلك اللاإنسانية فيها. ونحن نعرف أنه كان معجباً

بشكل دائم بالقيم الاجتماعية الإيجابية المتجسِّدة في المجتمع البدائي، مهما كان شكله رجعياً. وفي النقاشات الروسية اللاحقة-[42] أكَّد بشكل متزايد على قدرة الكوميون البدائي على البقاء، وعلى قوى مقاومته للتفكك التاريخي، حتى في سياق بحث نارودْنِك ، وعلى قدرته على التطوّر إلى شكل اقتصادي أعلى، من غير دمار قَبْلِيٍّ[43]. وأنا هنا لن أقدِّم شرحاً تفصيلياً لمخطط ماركس التمهيدي الخاص بالتطور البدائي عموماً، كما هو موجود في كتاب إنجلز: **أصل الأسرة** [44]وبالمجتمع الزراعي خاصةً. على كل حال، ثمَّة ملاحظتان عامتان تتعلقان بهذا الكتاب، ولهما صلة هنا. الأولى تفيد أن المجتمع السابق لنشوء الطبقات شكَّل عصراً تاريخياً مركَّباً وكبيراً خاصاً به، وله تاريخه وقوانين تطوره الخاصة، وأنواعه الخاصة من التنظيم الاجتماعي – الاقتصادي، الذي مال ماركس إلى تسميته بصورة جمعية «التشكيل القديم المهجور» أو «النمط»[45]. ويبدو واضحاً أن هذا يشمل الأنواع الأساسية الأربعة للشيوعية البدائية، كما وصفت في **فورمِن**. وقد يشتمل أيضاً على «النمط الأسيوي» (الذي عرفنا أنه أكثر التشكيلات الاجتماعية – الاقتصادية المتطورة بدائيةً)، وقد يشرح لماذا اختفى هذا النمط في بحث إنجلز المنظَّم للموضوع في الكتابين: **ضد – دوهرنغ وأصل الأسرة**[46]. وقد يكون الذي دار في خَلَدي ماركس وإنجلز أيضاً كان نوعاً من مرحلة تاريخية وسيطة من التفكك الشيوعي، التي من الممكن أن تنشأ منه طبقات حاكمة من أنماط مختلفة.

ثانياً، إن تحليل التطور الاجتماعي «القديم البائد» (Archaic) هو متَّسق، من كل وجه مع التحليل المرسوم في كتاب: **الأيديولوجيا الألمانية والفورمِن**. فهو لا يزيد عن التوسع فيهما كما حصل عندما توسَّع في الإشارات الموجزة للأهمية الحاسة للتوالد (الجنسي) وللأسرة في كتاب **الأيديولوجيا**[47] (*Ideology*)، في ضوء مورغان في كتاب: **أصل الأسرة**، أو عند التحليل الموجز للملكية الشيوعية البدائية التي تُملأ وتعدَّل (في ضوء علماء، مثل كوفالفسكي الذي كان هو نفسه متأثراً بماركس) وتدخل في مراحل تفكك المجتمع الزراعي في مسوَّدات زايسولتش (Zasulich).

هناك ميدان ثانٍ تابع فيه مؤسسا الماركسية دراستهما الخاصة، ألا وهو الحقبة الإقطاعية. وكانت المفضَّلة عند إنجلز، لا ماركس[48]. وهناك مقدار كبير من عمله الذي تناول أصول الإقطاع، الذي يتداخل ويتفق مع أبحاث ماركس في الأشكال الشيوعية البدائية. ومع ذلك، كانت اهتمامات إنجلز مختلفة قليلاً عن اهتمامات ماركس. فقد كان منشغلاً بنشوء الإقطاع وأفوله أكثر من بقاء وتفكك المجتمع البدائي. واهتمامه بآليات زراعة عبيد الأرض كانت أبرز من اهتمامات ماركس. وتحليلات هذه المسائل

التي بحوزتنا التي قام بها ماركس في سنوات حياته الأخيرة، نلقاها في الصياغة التي وضعها إنجلز. هذا، علاوة على أن العنصرين السياسي والعسكري أديا دوراً بارزاً في عمل إنجلز. وأخيراً ركَّز كلياً أو تقريباً على ألمانيا القروسطية (مع هامش أو هامشين عن إيرلندا، التي كان له فيها روابط شخصية)، كما لا ريب في أنه أكثر انشغالاً من ماركس بنشوء القومية ووظيفتها في التطور التاريخي. بعض من تلك الفروقات في التأكيد يعود إلى الحقيقة المفيدة أن تحليل إنجلز عمل على مستوى أقل عمومية من مستوى تحليل ماركس، وفي تلك الحقيقة يَمْثُلُ أحد الأسباب التي تشرح ظاهرة كونه في أغلب الأحيان سهلاً ومثيراً للذين يتعرفون على الماركسية لأول مرة. وبعضهم الآخر ليس كذلك. على كل حال، في ضوء معرفتنا أن الرجلين ليسا توأمين سياسيين(*) (Siamese Twins) (كما أقرّ إنجلز) كان ماركس هو المفكر الذي يفوقه، وعلينا أن نحترس من الميل الحديث إلى مقابلة ماركس وإنجلز مقابلة تضرّ بإنجلز. فعندما يتعاون رجلان تعاوناً وثيقاً، كما فعل ماركس وإنجلز لأربعين سنة من دون أي خلاف نظري جوهري، فمن المفترض الاستنتاج أنهما كانا يعرفان ما كان يدور في خلديهما. ولا شك في القول، لو أن ماركس هو الذي كتب: **ضد - دوهرنغ** (الذي نشر في حياته)، لكانت قراءته مختلفة، ولكان احتوى على بعض الأفكار الجديدة العميقة. غير أنه، لا يوجد سبب إطلاقاً للاعتقاد أنه خالف محتوياته. وهذا ينطبق أيضاً على أعمال إنجلز التي سطَّرها بعد وفاة ماركس.

حاول تحليل إنجلز للتطور الإقطاعي (الذي شوهد، بصورة حصرية، بمفردات أوروبية) أن يملأ عدة فجوات بقيت كثيراً في التحليل العالمي في 1857 - 1858. فبادئ ذي بدء أقيمت رابطة منطقية بين أفول النمط القديم ونشوء النمط الإقطاعي، بالرغم من الحقيقة المفيدة أن أحدهما أسسه الغزاة البرابرة الأجانب على أنقاض الآخر. وفي الأزمنة القديمة كان شكل الزراعة الواسعة الوحيد الممكن ممثّلا في العِزبة الكبيرة وعبيدها، لكن إلى حدّ ما بعده يتحول إلى شكل غير اقتصادي، ويفسح المجال من جديد للزراعة الصغيرة بوصفها «الشكل [Lohnende] المربح الوحيد»(49). لذا، فإن الزراعة القديمة كانت في نصف طريقها نحو القرون الوسطى. وكانت الفلاحة على المستوى الصغير هي الشكل السائد في الزراعة الإقطاعية، ولا علاقة بذلك «عملياً» بالحقيقتين المفيدتين بأن بعض الفلاحين كانوا أحراراً، وبعضهم الآخر ترتَّبت عليه

(*) التوأمان السياسيان (Siamese Twins) تعني التوأمين الملتصقين (المترجم).

واجبات نحو الأسياد. ونفس النمط من الإنتاج على المستوى الصغير الذي كان يقوم به المالكون الصغار لوسائل إنتاجهم، الذي ساد المدن[50]. وبالرغم من ذلك كان في ظل الظروف شكلاً اقتصادياً من أشكال الإنتاج، وإن التراجع العام للحياة الاقتصادية في أوائل الحقبة الإقطاعية – سيادة الكفاية الذاتية المحلية، التي تركت مجالاً لبيع فائض هامشي أو تحويله – قد فرض قيوده. ومع أنه وفرَّ الضمان لأي نظام أسياد (ويجب أن يشاد على على إحدى الإدارات أو الكيانات الكبيرة التي لحارثيها)، فلا بدَّ من أن ينتج مالكو أرض حاكمين كثيرين، وفلاحين صغاراً معوزين». وأيضاً، جعل من المستحيل استغلال مثل تلك الممتلكات الواسعة بالطرق القديمة، وطرق العبيد، أو عن طريق زراعة عبيد الأرض الواسعة الحديثة، كما أثبت ذلك فشل فلل إمبراطورية شارلمان (Charlemagne's Imperial Villas). وتمثَّل الاستثناء الوحيد في الأديرة التي كانت «كيانات اجتماعية غير سويّة»، إذ قامت على العزوبة، لذا فإن أداءها الاقتصادي النادر الممتاز يجب أن يظل استثنائياً[51].

مع أن هذا التحليل يقلِّل من قيمة دور الزراعة المنزلية في ذروة القرون الوسطى، فإنه دقيق جداً خاصة في تمييزه بين الممتلكات الواسعة بوصفها وحدة اجتماعية، وسياسية ومالية، وكوحدة **إنتاج**، وفي تأكيده على سيادة الزراعة الفلاّحية لا الزراعة المنزلية في الإقطاعية. على كل حال، نراه يترك أصل ظاهرة الفلاحين نصف الأحرار وظاهرة الأسياد، معَّلقةً في الهواء. وكان شرح إنجلز لهما اجتماعياً، وسياسياً وعسكرياً، وليس اقتصادياً. فالفلاحون التونونيون أُفقروا بسبب الحروب التي لم تتوقَّف و(في ظل ضعف السلطة الملكية) اضطروا لوضع أنفسهم في حماية النبلاء أو رجال الدين[52]. وفي العمق، يعود ذلك لعجز شكلٍ من أشكال التنظيم الاجتماعي مشادٍ على أوامر القربى عن إدارة أو تدبير البنى السياسية الكبيرة التي خلقتها فتوحاته الناجحة، أي: لذا فإن هذه تضمَّنت أوتوماتيكياً أصل الطبقات والدولة[53]. وهذه الفرضية بصيغتها البسيطة ليست مقنعة كثيراً لكن اشتقاق الأصول الطبقية من تناقضات البنية الاجتماعية (لا من الحتمية الاقتصادية البدائية) مهمّ. فهو يتابع خط التفكير في مخطوطات 1857 – 1858، الخاصة بالعبودية على سبيل المثال.

اعتمد أفول الإقطاع، ونقول ذلك من جديد، على نشوء الحرف والتجارة، والانقسام والنزاع بين المدينة والريف. وقد عبَّر عن نفسه بمفردات التطور الزراعي في تزايد طلب لوردات الإقطاع للسلع الاستهلاكية (وللأسلحة أو المعدّات) التي لا يمكن الحصول عليها إلا عن طريق الشراء[54]. وإلى حدّ ما – استناداً إلى الشروط التقنية

الرائدة للزراعة – لا يمكن زيادة الفائض المنتزع من الفلاحين إلاّ عبر التوسّع – مثلاً، بوضع أرض جديدة في مجال الحراثة، وتأسيس قرى جديدة. غير أن هذا يستدعي «اتفاقاً ودّياً مع المستعمرين، سواء أكانوا فلاحين أنصاف أحرار أم كانوا أحراراً». لذا، – وأيضاً، لأن الشكل البدائي للسيّد لا يحتوي على دافع لزيادة الاستغلال، بل على ميل لجعل الأعباء الفلاّحية الثابتة أخفّ مع مرور الزمن – فإن الحرية الفلاّحية مالت إلى الزيادة بشكل لافت خاصة بعد القرن الثالث عشر. (وهنا أيضاً نقع على جهل إنجلز الطبيعي بنشوء زراعة السوق الخاصة بمالكي الأراضي مع البيوت، في ذروة القرون الوسطى وأزمة الإقطاع في القرن الرابع عشر، مما جعل صورة إنجلز تبدو مشوَّهة، ومحرَّفة).

ولكن بدءاً من القرن الخامس عشر ساد الميلُ المضاد، وحول اللوردات الرجال الأحرار إلى عبودية الأرض مرة أخرى، وحوَّلوا أراضي الفلاحين إلى ممتلكاتهم. ولم يكن مردّ ذلك (على الأقل في ألمانيا) عائداً إلى مطالب اللوردات المتنامية التي أمكن تسديدها عبر مبيعات متزايدة من ممتلكاتهم فحسب، لأن سلطة الأمراء المتزايدة حرمت النبلاء من مصادر دخل سابقة أخرى، مثل السلب على الطرقات العامة وحوادث اغتصاب أخرى شبيهة[55]. لذا، فإن الإقطاع انتهى بنشوء زراعة واسعة على أساس عبودية الأرض، وانتزاع ملكية الفلاحين منسجم مع نموّ الرأسمالية – ومستمد منها. فالحقبة الرأسمالية في الريف واكبت فترة زمنية خاصة بالزراعة الوسعة (*Land-wirtschaftlichen Grossbetriebs*)، على أساس خدمات عبودية الأرض».

ليست هذه الصورة عن أفول الإقطاعية مقنعةً، بالرغم من أنها أشارت إلى تقدّم مهم في التحليل الماركسي الأصل للإقطاع – أعني محاولة تأسيس وحسبان حساب ديناميكا الزراعة الإقطاعية خاصة العلاقة بين اللوردات والفلاحين المعوزين. ولا شك في أن هذا يعود إلى إنجلز، لأنه هو الذي [في الرسائل ذات العلاقة بتأليف كتاب: **العلامة** أكَّد على حركات الخدمات العمالية، وأشار فعلياً إلى أن ماركس كان مخطئاً سابقاً في هذه المسألة[56]. فهو يدخل [استناداً إلى موريه بمقدار كبير] خط تحليلٍ في تاريخ الزراعة القروسطية أثبت أنه كان منذئذٍ مثمراً بامتياز. ومن جهة أخرى تَظل الملاحظة جديرة، وهي أن ميدان البحث هذا يبدو هامشياً نسبةً إلى اهتمامات ماركس وإنجلز الرئيسية. فالكتابات، التي بحث فيها المسألة كانت قصيرة ومتعجِّلة، بالمقارنة مع تلك التي بحث فيها أصل المجتمع الإقطاعي[57]. أما الحجّة فلم تُفصَّل. فلا وجود لشرح مباشر وكافٍ لسبب كون الزراعة الواسعة، التي كانت غير اقتصادية في أوائل

القرون الوسطى صارت اقتصادية من جديد على أساس عبودية الأرض (أو غيرهما) في النهاية. وما يبعث على الذهول أكثر من سواه (بالنظر إلى اهتمام إنجلز الشديد بالتطورات التكنولوجية للانتقال من الأزمنة القديمة إلى القرون الوسطى، كما سجَّلها علم الآثار والحفريات[58]، هو أن التغيّرات التكنولوجية في الزراعة لم تُبحث، وهناك عدد من النهايات الرخوة. ولا توجد محاولة لتطبيق التحليل خارج أوروبا الغربية والوسطى، باستثناء ملاحظة موحية جداً تقلق بوجود المجتمع الزراعي البدائي على شكل فلاّحين في حالة من الرقّ، كما كان في روسيا وإيرلندا[59]، وملاحظة – تبدو متقدِّمة على البحث اللاحق في كتاب: **العلامة** – تفيد أن الاستعباد الأرضي الثاني للفلاحين في أوروبا الشرقية يعود إلى نشوء سوق تصدير للإنتاج الزراعي، ونما معه[60]. وإجمالاً، لا يبدو أن إنجلز كانت لديه أي نيّة لتغيير الصورة العامة للانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية التي صاغها هو وماركس قبل سنوات عديدة.

ليس هناك من رحلات رئيسية أخرى في تاريخ «الأشكال التي سبقت الشكل الرأسمالي» حدثت في سنوات ماركس وإنجلز الأخيرة، بالرغم من أن عملاً مهماً على الحقبة الزمنية منذ القرن السادس عشر خاصة التاريخ المعاصر. لذا، لم يبقَ إلاّ البحث المختصر لناحيتين من نواحي أفكارهما اللاحقة حول مسألة مراحل التطور الاجتماعي. فإلى أي حدّ استبقيا قائمة التشكيلات، كما ذكرت في مقدّمة كتاب: **نقد الاقتصاد السياسي**؟ وما هي العوامل الأخرى الخاصة بالتطور الاجتماعي – الاقتصادي التي بحثا فيها أو حدّدا البحث فيها؟

في سنواتهما الأخيرة، مال ماركس وإنجلز كما كنا قد رأينا مسبقاً إلى التمييز أو الإفادة عن أنواع فرعية، ومراحل فرعية، وأشكال انتقالية داخل تصنيفاتهما الاجتماعية الكبرى، خاصة داخل المجتمع الما قبل الطبقي. غير أنه لم يحصل أي تغييرات رئيسية في القائمة العامة، التي تمثل قائمة التشكيلات، إلاّ إذا حسبنا التحويل الشكلي «لنمط الأسيوي» إلى «النمط القديم» للمجتمع. فلا وجود لميل – عند ماركس على الأقل – للتخلّي عن النمط الآسيوي (وحتى ميل لإصلاح النمط «السلافوني»)، ورفض متعمد لتصنيفه نمطاً إقطاعياً.

في نقاش ماركس ضد وجهة نظر كوفالفسكي المفيدة أن ثلاثة من المعايير الأربعة الرئيسية للإقطاع الروماني – الجرماني يمكن الوقوع عليها في الهند، مما يقتضي اعتبارها إقطاعية، بيّن ماركس أن «كوفالفسكي نسي، من بين أشياء أخرى، عبودية الأرض،

التي لم تكن لها أهمية جوهرية في الهند. (وعلاوة على ذلك، كانت مسألة **دور الفرد** من أفراد لوردات الإقطاع، **كحماةٍ** للفلاحين الأحرار وليس لغير الأحرار فقط، ليست بذات أهمية في الهند، باستثناء **الوَقْف** (Wakuf) (أي الممتلكات المخصَّصة لأغراض دينية). كما أننا لا نجد أن «الإحساس الرقيق الشعري بالتربة» الذي كان صفة مميّزة من صفات الإقطاع الجرماني – الروماني (انظر موريه)، موجود في الهند أكثر من وجوده في روما. ففي الهند ليست الأرض **نبيلة**، بمعنى، مثلاً، أن ملكيتها لا تحوّل إلى أعضاء ليسوا من طبقة النبلاء (عاميين))[61]. وبدا إنجلز الذي كان مهتماً أكثر في التركيبات الممكنة بين الأسياد والطبقة السفلية للمجتمع البدائي، غير باتٍّ في رأيه، بالرغم من أنه استثنى المشرق تحديداً من الإقطاع[62]، وكما كنا قد رأينا لم يحاول أن يوسِّع تحليله للإقطاع الزراعي ليشمل ما وراء أوروبا. ولا وجود لأي شيء يوحي بأن ماركس وإنجلز اعتبرا الجمع الخاص بين الإقطاع الزراعي والمدينة القروسطية أي شيء سوى أنه خاص بأوروبا.

من جهة أخرى، هناك بَسْطٌ لمفهوم علاقات الإنتاج الاجتماعية، أوحى به عددٌ من المقاطع في تلك السنوات التي أعقبت. وهنا ومن جديد بدا إنجلز هو الذي أخذ المبادرة. وهكذا، نلقاه يكتب عن عبودية الأرض (إلى ماركس، في (22. 12، 1882) وقد يكون حصل ذلك بعد اقتراح من ماركس)، ويقول: «لا شك في أن عبودية الأرض وظاهرة الفلاحين ذوي نصف الحرية لم يكونا شكلًا إقطاعياً قروسطياً بالتحديد، فهما وجدا في كل مكان، أو في كل مكان تقريباً، أجبر فيه الغزاة الفاتحون السكان الأصليين على حراثة الأرض لهم».

ونعود من جديد إلى عامل الأجرة[63]. نقول، «إنه سبق للرأسماليين الأوائل أن واجهوا العمل بالأجرة، بوصفه شكلاً. غير أنهم حسبوه شيئاً إضافياً مساعداً استثنائياً أو بديلاً أو مرحلة عابرة». هذا التمييز بين أنماط الإنتاج المتَّصفة بعلاقات معينة و«أشكال» مثل هذه العلاقات، التي يمكن أن توجد في عدد مختلف من الفترات الزمنية أو الأوضاع الاجتماعية – الاقتصادية موجود ضمناً في الفكر الماركسي الأولي. وأحياناً يكون صريحاً كما في بحث المال والنشاطات التجارية. فهو له أهمية كبرى، وأهمية لا تُمُثَّل، في أنه يساعدنا على استبعاد مثل تلك النقاشات البدائية، كالتي تنفي جديد الرأسمالية فحسب، لأن التجارة وجدت في مصر القديمة، أو لأن أصحاب المزارع القروسطية دفعوا لعمال الحصاد أجورهم بالمال، وإنما لأنه يوجِّه الانتباه إلى الحقيقة المفيدة أن علاقات الإنتاج الأساسية، التي لا بدَّ من أنها كانت محدودة العدد،

وقد «اخترعت و«أعيد اختراعها» من قِبَل بشر في مناسبات عديدة، وأن جميع أنماط الإنتاج المالية (باستثناء الرأسمالية) هي مركَّبات مؤلفة جميع أنواع الجمع بينها.

V

وأخيراً، يجدر بنا إلقاء نظرة عامة ومختصرة على النقاش الذي دار حول التشكيل الاجتماعي - الاقتصادي بين الماركسيين منذ وفاة ماركس وإنجلز. وكان ذلك النقاش غير مقنع من نواحٍ عدة، بالرغم من أنه كان ذا فائدة تمثَّلت في وجوب عدم اعتبار كتب ماركس وإنجلز مجسِّدة الحقيقة النهاية أبداً. والواقع هو أنها روجعت بشكل واسع وشامل. على كل حال، إن عملية تلك المراجعة كانت بشكل مستغرب غير منظَّمة وغير مخطَّطة، وكان المستوى النظري لمقدار كبير من النقاش مخيِّباً للأمل، والموضوع كان مضطرباً، وإجمالاً، ولم يوضح.

ويمكن ملاحظة اتجاهين. **الأول**، الذي يتضمَّن تبسيطاً كبيراً لفكر كل من ماركس وإنجلز، يختزل التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية الرئيسية إلى سُلَّم وحيد يتسلَّقه جميع المجتمعات الإنسانية درجةً درجةً، لكن بسرع مختلفة بحيث يصل الجميع إلى القمة في نهاية المطاف[64]. ولهذا الاتجاه بعض الفوائد من الناحية السياسية والدبلوماسية، لأنه يزيل التمييز بين المجتمعات التي أظهرت ميلاً داخلياً كبيراً وتلك التي أظهرت ميلاً قليلاً للتطور التاريخي السريع في الماضي، ولأنه يصعِّب ادعاء أقطار معينة أنها استثناءات للقوانين التاريخية[65]، غير أنه لا يملك فوائد علمية واضحة، وهو أيضاً مخالف لوجهات نظر ماركس. وبالإضافة إلى ذلك هو ليس ضرورياً من الوجهة السياسية، لأنه مهما كانت الفروقات في التطور التاريخي السابق فإن نظرة الماركسية الدائمة أفادت أن جميع الشعوب مهما كان عنصرها أو خلفيتها التاريخية تملك قدرة، متساوية على جميع إنجازات الحضارة الحديثة، حالما تكون حرّة الملاحقة.

ويؤدي المنهج الخطي أيضاً إلى البحث عن «القوانين الأساسية» (Fundamental Laws) لكل تشكيل، مما يشرح انتقالها إلى الشكل الأعلى اللاحق. مثل هذه الآليات العامة سبق أن ذكرها ماركس وإنجلز [خاصة في كتاب: **أصل الأسرة**] لوصف الانتقال من المرحلة الشيوعية البدائية الشاملة إلى المجتمع الطبقي، ولوصف تطور الرأسمالية المختلف جداً. حديثاً، جرت عدة محاولات لاكتشاف «قوانين عامة» شبيهة للإقطاعية[66]، ولمرحلة العبودية أيضاً[67]. ولم تكن تلك المحاولات ناجحة جداً، بحسب الرأي العام، وحتى الصيغ التي اقترحت، في الأخير للاتفاق، لم تتعدّ أن تكون

تعريفات. هذا الإخفاق في اكتشاف «قوانين أساسية» مقبولة بصورة عامة، وتنطبق على الإقطاع ومجتمع العبيد، هو في حدّ ذاته مهم وله مغزى.

أما الاتجاه الثاني، فهو يتبع الاتجاه الأول جزئياً، لكنه جزئياً يتعارض معه. فقد أدّى إلى مراجعة أساسية لقائمة ماركس الخاصة بالتشكيلات الاجتماعية - الاقتصادية التي أدَّت إلى حذف «النمط الأسيوي»، وتحديد نطاق «النمط القديم»، لكن مقابل ذلك حصل توسيع للنمط «الإقطاعي». وقد حصل حذف «النمط الأسيوي»، وبكلام عام، بين أواخر عشرينات القرن العشرين وأواخر ثلاثينات القرن العشرين، أي: لم يعد يذكر في كتاب ستالين: **المادية الديالكتيكية والتاريخية** *(Dialectical and Historical Materialism)* (1938)، بالرغم من أن استعماله استمر عند البعض لاحقاً - الماركسيين الناطقين باللغة الإنجليزية بشكل رئيسي[68]. وبما أن الميزة الرئيسية عند ماركس تمثَّلت في مقاومة النشوء التاريخي، فإن حذفها أنتج مخططاً أبسط سمح بالتأويلات العامة الشاملة والخطّية. غير أنه حذف أيضاً خطأ حسبان المجتمعات المشرقية «غير «متغيّرة» أو «لا تاريخية»، بصورة جوهرية. وقد لوحظ أن «ما قاله ماركس نفسه عن الهند لا يمكن أخذه كما هو»، بالرغم من أن «الأساس النظري» (تاريخ الهند) ظل «ماركسياً»[69]. ولم يطرح تقييد نمط الإنتاج القديم مسائل سياسية رئيسية أو (بشكل واضح) عكس جدالات سياسية. وكل ذلك مردّه ببساطة إلى فشل العلماء في اكتشاف مرحلة العبودية في كل مكان، وإيجاد النمط البسيط لاقتصاد العبودية الذي صار كافياً حالياً، حتى لمجتمعات الأزمنة القديمة الكلاسيكية (وهو أبسط من نمط ماركس)[70]. فالعلم السوفيتي الرسمي لم يعد ملتزماً بمرحلة شاملة لمجتمع العبيد[71].

لقد وسَّعت «الإقطاعية» مداها، وحصل ذلك جزئياً لهدف ملء الفجوة التي تركتها تلك التغيرات - فلا واحداً من المجتمعات التي تأثَّرت يمكن إعادة تصنيفه مجتمعاً رأسمالياً أو إعادة تصنيفه شيوعياً - بدائياً أو «قديماً» (ونذكر أن ماركس وإنجلز مالا إلى ذلك)، وجزئياً حصل على حساب المجتمعات التي صُنِّفت منذئذٍ، بأنها شيوعية بدائية، ومن المراحل الأولى للتطور الرأسمالي. فالواضح الآن أن التفريق الطبقي في بعض المجتمعات التي كانت تُدعى سابقاً «قبلية» (مثلاً، في أجزاء عديدة من أفريقيا) أحرز تقدماً كبيراً، وفي الطرف الآخر لمقياس الزمن، حدث ميل لتصنيف جميع المجتمعات بأنها «إقطاعية» إلى أن اندلعت «ثورة بورجوازية» أساسية، وأحرز بعض التقدّم، خاصة في بريطانيا[72]. غير أن «الإقطاع» لم ينشأ ليكون مجرد صنف من نوع الفُضالة. فمنذ الأزمنة الما بعد الماركسية الأولى، كانت هناك محاولات لرؤية إقطاع

بدائي أو أوّلي زمنياً بوصفه الشكل الأول والعام للمجتمع الطبقي الذي نشأ من تفكك الشيوعية البدائية - بالرغم من عدم حدوثه على نحوٍ شامل بالضرورة[73]. (وطبعاً، وفر ماركس وإنجلز ما يفيد عن الانتقال المباشر من الشيوعية البدائية إلى الإقطاع). ومن ذلك الإقطاع الأوّلي، قيل إن تشكيلات مختلفة أخرى نشأت بما فيها الإقطاع المتطور من النمط الأوروبي (والياباني). ومن جهة أخرى، فإن الارتداد أجيز إلى الإقطاع من التشكيلات التي بالرغم من كونها من حيث **الإمكانية** أقل تقدمية لكنها في الواقع أكثر تطوراً - كما حصل من الإمبراطورية الرومانية إلى الممالك التوتونية القبلية. وقد ذهب أوين لاتيمور (Owen Lattimore) إلى حدّ «القول إننا تفكر تجريباً بمفردات الإقطاع المتطور والمنتكس (أو المرتدّ)»، ويطلب منا أن نفكّر بإمكانية تفاعل المجتمعات القبلية التي تحول إلى الإقطاع مع مجتمعات أكثر تطوراً[74].

النتيجة الحاصلة من جميع تلك الاتجاهات المختلفة هي أن نضع في التداول صنفاً واسعاً «للإقطاع» غطى القارات وألفيات الزمان، الذي امتد من إمارات نيجيريا الشمالية إلى فرنسا، في عام 1788، ومن الاتجاهات المرئية في مجتمع الأزتيك(*) (Aztec) عشية الغزو الإسباني إلى روسيا القيصرية في القرن التاسع عشر. والحق يُقال إنه من المحتمل وضع جميع تلك الظواهر في مثل ذلك الصنف العام، وإن لهذا العمل قيمة تحليلية. وفي ذات الوقت، صار واضحاً أنه من دون مقدار كبير من التصنيف إلى فروع، وتحليل الأنماط الفرعية، والمراحل التاريخية المفردة، فإن المفهوم العام يتعرض لخطر صيرورته مفهوماً صعباً وغير عملي. ومثل هذا التضيف التفريعي جُرِّب مثلاً «شبه الإقطاعي»، لكن التوضيح الماركسي للإقطاع لم يحرز تقدّماً كافياً.

إن الجمع بين الاتجاهين المذكورين، هنا، أنتج صعوبةً أو صعوبتين عرضيتين. فالرغبة في تصنيف كل مجتمع أو حقبة زمنية، بشكل قاطع، ووضعها في عين أو أخرى، من عيون الخزانة المقبولة، قد ولّدت نزاعات جدلية حول تعيين الحدود، كما يحصل بشكل طبيعي عندما نُصرُّ على وضع مفاهيم دينامية في مواضع ساكنة. لذا نشأ نقاش كثير في الصين حول تاريخ الانتقال من العبودية إلى الإقطاع، لأن «الصراع كان ذا طبيعة طويلة غطّت قروناً عدة... فوجدت معاً أنماط حياة اجتماعية واقتصادية مختلفة، مؤقتاً على أرض الصين الشاسعة»[75]. وفي الغرب، أدّت صعوبة شبيهة إلى مناقشات عن طابع القرون، بدءاً من القرن الرابع عشر، إلى القرن الثامن عشر[76]. وكان لتلك

(*) الأزتيك شعب متمدِّن حكم المكسيك، قبل أن يتفتحها الإسبان في عام 1519 (المترجم).

المناقشات على الأقل ميزة طرح مسائل عن مزيج «أشكال» مختلفة من علاقات الإنتاج الاجتماعية ووجودها معاً، وفيما عدا ذلك لم تكن لها أهمية عظيمة مثل بعض المناقشات الماركسية الأخرى[77].

ومهما يكن من أمر فإن الذي حصل حديثاً وكان جزئياً بتأثير **الفورمِن**، هو أن النقاش الماركسي بيَّن عن ميلٍ ترحيبي لإعادة إحياء عدة وجهات نظر والتساؤل حولها، وهي التي صارت مقبولة عبر العقود الزمنية القليلة الماضية. وبدا أن تلك الإعادة إلى الحياة قد بدأت بشكل مستقل في عددٍ من الأقطار الاشتراكية واللااشتراكية. وإن فحصاً حديثاً عدَّد إسهامات من فرنسا، وجمهورية ألمانيا الديمقراطية، وهنغاريا، وبريطانيا، والهند، واليابان ومصر[78]. وتتناول هذه بصورة جزئية المسائل العامة الخاصة بالتدوير الزمني التاريخي، مثل الذي بُحث في النقاش الجدلي في كتاب: **الماركسية اليوم** (***Marx-ism Today***) (1962) جزئياً بمسائل التشكيلات الاجتماعية – الاقتصادية الما قبل الرأسمالية، وجزئياً بمسألة «النمط الآسيوي» التي نوقشت مطوَّلاً وأعيد طرحها[79]. ومن المبكِّر أن تفعل شيئاً يزيد على تسجيل استئناف مثل تلك النقاشات.

قد نستنتج أن الحالة الحاضرة للبحث الماركسي في هذا الميدان غير مقنعة. ومقدار كبير من سبب ذلك يعود إلى التطورات التاريخية في الحركة الماركسية الدولية في الجيل الذي سبق منتصف خمسينات القرن العشرين، التي كان لها تأثير سلبي لا شك فيه في مستوى البحث الماركسي في هذا الميدان وفي ميادين عديدة أخرى. وكانت منهجية ماركس الأصلية لمسألة النشوء التاريخي من بعض النواحي مبسَّطةً ومتغيّرة، وكتابات التذكير بعمق وتعقيد طبيعة طرقه، مثل نشر **الفورمِن**، ولم توظَّف لتصويت تلك الاتجاهات. فقائمة ماركس الأصلية الخاصة بالتشكيلات الاجتماعية – الاقتصادية تمَّ تغييرها، لكن لم يوفر محلها بديل مقنع. فبعض الفجوات في بحث ماركس وإنجلز الرائع وغير المكتمل تمَّ اكتشافه، وسدّت الفجوات، لكن بعضاً من أكثر أجزاء تحليلهما إثماراً سمح بأن يغيب عن الأنظار.

هذا ما يدعو إلى الأسف، لأن الثلاثين سنة الماضية أو ما يقارب ذلك كانت من نواحٍ كثيرة، مرحلة نجاح عظيم للمقاربة الماركسية للتاريخ. والحق يُقال إن أحد أكثر الأدلّة إقناعاً على تفوّق المنهج الماركسي هو في القول، إنه حتى في المرحلة التي سمح فيها للماركسية المبدعة بالتحجّر. ظلَّت المادية التاريخية مصدر وحي لكتابات تاريخية ذات قيمّة كثيرة. وكان لها تأثير في مؤرخين ليسوا ماركسيين، أكثر من ذي قبل. واليوم، ثمَّة

كل الأسباب التي توجب القيام بالشرح التوضيحي المطلوب لوجهة النظر الماركسية للنشوء التاريخي خاصة، المراحل الرئيسية للتطور. فالدرس الدقيق للفورمِن – الذي لا يعني القبول الأوتوماتيكي بجميع نتائج ماركس – يساعد في تلك المهمة، والحق يقال إنه جزء منها لا بدّ منه.

الفصل الثامن

حظوظ كتابات ماركس وإنجلز

I

لقد أحرزت كتابات ماركس وإنجلز منزلة الكتابات «الكلاسيكية»(*)، لدى الأحزاب الاشتراكية والشيوعية التي كانت تستمد وحيها منها، وبما في ذلك ما تم من كتابات منذ عام 1917، حيث إن عدداً متنامياً من الدول صارت فيها تلك الكتابات تشكل الأساس للأيديولوجيا الرسمية، وحتى المعادل الدنيوي المدني للاهوت. وهناك مقدار كبير من البحث الماركسي، منذ وفاة إنجلز - وقد يكون معظمه - اتّخذ شكل تفسيرات للنصوص، وتأملات وتأويلات، أو نقاشات جدلية حول قبول وجهات نظر ماركس وإنجلز كما احتوتها نصوص كتاباتهما، أو الرغبة في مراجعتها. ومع ذلك فإن هذه الكتابات لم تشكل في البداية مجموعة كاملة منشورة من كتابات هذين الكلاسيكيين. والواقع أنه لم تجرِ أي محاولة لنشر طبعة كاملة لأعمالهما قبل عشرينات القرن العشرين، عندما ابتدأت **الأعمال الكاملة** الشهيرة [والمعروفة باسم ميغا] في موسكو وكان المشرف على التحرير فيها المدعو ديفيد ريازانوف. وظلّت ناقصة في الألمانية الأصلية، بالرغم من العمل الذي استمر في روسيا، حيث كان بشكلٍ أقل كمالاً مما كانت النيّة، أصلاً. وجرت محاولات مستقلة لنشر طبعة، وكان المقصود منها أن تكون كاملة، حيث كانت في مكان آخر في ذات الوقت خاصة في فرنسا، وقام بتحريرها

(*) الكلاسيكي (Classic) تعني، أصلاً، الأثر الأدبي اليوناني أو الروماني، والمقصود في توظيفها هنا، عبر الاستعارة، هو وصف كتابات ماركس وإنجلز كتابات ممتازة ومن الطراز الأول (المترجم).

ألفرد كوستِس (Alfred Costes). وتمَّ نشر طبعة غير كاملة من أعمال ماركس وإنجلز [عرفت باسم **الأعمال** وصار يستشهد بهذا الاسم] في جمهورية ألمانيا الديمقراطية بدءاً من عام 1956، حيث وفَّرت الأساس لطبعات شبيهة متعددة في لغات أخرى. وكان أكثرها طموحاً (والأكثر امتلاءً) **الأعمال المجموعة** (*Collected Works*) لماركس وإنجلز التي نشرت في خمسين مجلّداً باللغة الإنجليزية من عام 1975 ولغاية عام 2004.

وبعد إعدادٍ طويل، بدأ نشر **الأعمال الكاملة** [عرف باسم ميغا الجديدة]، في عام 1975 برعاية ودعم المعاهد الماركسية - اللينينية في الاتحاد السوفيتي السابق وجمهورية ألمانيا الديمقراطية. وكانت غاية الدولتين تحويل ذلك النشر من نمط أيديولوجي إلى نمط أكاديمي، ونقل المسؤولية عنه إلى مؤسسة وهي المؤسسة الدولية الخاصة بماركس - إنجلز (International Marx-Engles Stiflung) في المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي (The International Institute for Social History) في مدينة أمستردام (Amsterdam)، الذي كان منذ عام 1933 قد احتفظ بالسجلات الحقيقية الخاصة بماركس وإنجلز عملياً، وقد نقلت من بعد ذلك المسؤلية إلى أكاديمية العلوم في برلين وبراندنبورغ (Berlin and Brandenburg Academy of Sciences) وإلى مراكز بحوث في أقطار مختلفة. والخطة التي قُدِّمت لتحسين 120 مجلداً لم تُقدّرْ حق قدرها، إذ كان يجب إدخال مقتطفات للقراءة، وملاحظات هامشية. وقد تمَّ نشر 54 مجلداً في بداية القرن الجديد، والأمل معقود على إكمال النشر بحلول عام 2030.

لذا، فإن النقاش الجدلي في معظم تاريخ الماركسية، كان قائماً على مختارات مختلفة من كتابات ماركس وإنجلز. ولفهم ذلك التاريخ، لا بدَّ من نظرة عامة سريعة إلى حظوظ تلك الكتابات.

إذا حذفنا مقداراً كبيراً من الكتابة الصحفية، وبشكل رئيسي في أربعينات وخمسينات القرن التاسع عشر، فإن المقدار الفصلي من الكتابات التي نشرها ماركس وإنجلز، في حياة ماركس كان بسيطاً نسبياً. وهو يشتمل، قبل ثورة عام 1848، على: **كلام عام** (*Grosso Modo*)، وهي عبارة عن مقالات مهمة مختلفة كتبها ماركس (وبمقدار أقل إنجلز)، قبل البدء بتعاونهما المنظَّم - مثلاً، في الكتب السنوية الألمانية الفرنسية (Deutsch-Franzoesische Jahrbücher) وهو كتاب إنجلز: **حالة الطبقة العاملة** (1845)، وكتاب ماركس وإنجلز: **الأسرة المقدَّسة** (*Die Heilige Familie*) (1845)، وجدلية ماركس العنيفة للبرودون في كتاب: **بؤس الفلسفة** (*Misère de la Philoso-*

phie) (1847)، **والبيان الشيوعي** (1848)، وبعض المحاضرات والمقالات في أواخر أربعينات القرن التاسع عشر. وباستثناء **البيان الشيوعي**، لم يحصل إعادة نشر لكل ذلك في حياة ماركس بشكل سهل المنال ومتقبَّل من الجمهور الواسع. وبعد هزيمة 1848 1849 نشر ماركس التحليلات الشهيرة للثورة، وما تبعها في مجلاّت نقدية خاصة باللاجئين حيث كان تدوالها محصوراً بشكل يدعو إلى الأسى، أعني الكتابات المعروفة، الآن باسم: **الصراعات الطبقية في فرنسا** (*Class Struggles in France*) و – باسم ذلك العنوان الأصلي – كتاب: **الثامن عشر من برومير**، وأعيدت طباعة هذا الكتاب الأخير في عام 1869. وكتاب إنجلز الخاص عن: **حرب الفلاحين الألمان** (*German Peasant War*) (1850)، الذي ظهر أيضاً في صحافة اللجوء – وهو لا يشبه المقالات المعروفة الآن باسم **الثورة والثورة المضادة** (*Revolution and Counterrevolution*) في ألمانيا، والزي ظهر باسم ماركس في **نيويورك تريبيون** (*New York Tribune*) – أعيدت طباعته أيضاً في حياة ماركس. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، انحصرت مؤلفات ماركس بعد حذف الكتابات الصحفية في الشؤون الجارية، والتقيدات السياسية في كتاب: **نقد الاقتصاد السياسي** (1859) الذي أعيدت طباعته، وكتاب **رأس المال** (المجلَّد 1، 1867)، الذي سنشير إلى تاريخه بإيجاز، وعدد من الكتابات كتبت لاتحاد الشغيلة الدوليين (International Workingmen's Association)، وأشهرها كان: **الخطاب التدشيني (الافتتاحي)** (*The Inaugural Address*) (1864) **والحرب الأهلية في فرنسا** (1871) حيث إن الكتاب الأخير أعيدت طباعته في مناسبات مختلفة. ونشر إنجلز كراسات متنوعة، كانت بصورة رئيسية حول مسائل سياسية – عسكرية، لكنه في سبعينات القرن التاسع عشر، بدأ بكتابه: **السيّد أويغن دويرنغ وقلب العلم** (*Herr Eugen Dührings Umwälzung der Wissenschaft*) (1878) **[ضد – دوهرنغ]**، بسلسلة من الكتابات، من خلالها صارت الحركة الاشتراكية الدولية على ألفةٍ بفكر ماركس حول مسائل غير مسائل الاقتصاد السياسي. ومعظم تلك الكتابات ينتمي إلى الفترة التي تبعت وفاة ماركس.

لذا لنقلْ إنه في عام 1875 كانت مجموعة أعمال ماركس وإنجلز المتاحة هزيلة، ذلك لأن الكثير من الكتابات الأولى توقف عن الطباعة لمدة طويلة. وتألف جوهرياً من **البيان الشيوعي**، الذي تحسَّن التعرف به، منذ أوائل سبعينات القرن التاسع عشر وبعده (في 1871 – 1873)، ظهرت بتسع طبعات على الأقل وفي ست لغات، كما كان في السنوات الاثنتين والعشرين السابقة، وكتاب **رأس المال** الذي ترجم إلى اللغتين

الروسية والفرنسية، **والحرب الأهلية في فرنسا**، الذي به أحرز ماركس شهرة كبيرة. ومع ذلك، يمكننا القول إنه بين عام 1868 وعام 1875 صارت مجموعة من كتابات ماركس متاحةً لأول مرة.

حصل تحوّل ثنائي في الفترة الفاصلة بين وفاة ماركس ووفاة إنجلز. ففي المقام الأول، تسارع الاهتمام بأعمال ماركس وإنجلز مع نشوء الحركة الاشتراكية الدولية. ووفقاً لرأي أندرياس (Andréas)، لا يقل في تلك السنوات الاثنتي عشرة عن خمس وسبعين طبعة من **البيان الشيوعي**، ظهرت في خمس عشرة لغة. واللافت أن الطبعات بلغات الإمبراطورية القيصرية فاقت الطبعات باللغة الألمانية الأصلية. وثانياً هناك مجموعة كبيرة من الكتابات الكلاسيكية (الممتازة) أصبحت تنشر بانتظام باللغة الأصلية من قِبَل إنجلز. وذلك تألف من (أ) إعادة نشر أعمال (مع مقدِّمات جديدة عموماً) ظلت خارج الطباعة لمدة طويلة، وأراد إنجلز أن يؤكد على أهميتها الباقية، (ب) نشر جديد لأعمال تركها ماركس غير منشورة وغير كاملة و (ج) كتابات جديدة لإنجلز أدخل فيها أحياناً كتابات مهمة غير منشورة لماركس، مثل **الأطروحات حول فيورباخ** (*Theses on Feuerbach*) حاول فيها أن يوفِّر صورة عن العقيدة الماركسية المتَّسقة والمحكمة. وهكذا أعاد إنجلز في (أ) نشر مقالات ماركس على شكل كراسات، كانت حول: **العمل المأجور والرأسمال** (*Wage Labour and Capital*) (1847-1884)، **وفقر الفلسفة** (1847 1885)، **الثامن عشر من برومير** (1885)، **الحرب الأهلية في فرنسا** (1891)، وأخيراً في (1895) **الصراعات الطبقية في فرنسا**، وكذلك كتابه: **حالة الطبقة العاملة**، وإعادة طبع كتابات مختلفة له من سبعينات القرن التاسع عشر. والأعمال الرئيسية المتاحة في (ب) هي المجلَّدان الثاني والثالث من كتاب: **رأس المال ونقد برنامج غوثا** (1891). والأعمال الرئيسية في (ج)، كانت، بالإضافة إلى **ضد - دوهرنغ، والاشتراكية، الطوباوية والعلمية** (*Socialism, Utopian and Scientific*) الذي تكررت طباعته، وذلك بعد تعديله في العمل الأكبر، **أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة** (*Private Property and the State*) (1884) **ولودفيغ فيورباخ** (1888)، وكذلك إسهامات متعدِّدة في النقاش الجدلي السياسي الذي كان جارياً. وباستثناء كتاب: **الاشتراكية الطوباوية والعلمية**، لم يحصل نشر تلك الأعمال في طبعات كبيرة. ومع ذلك كانت وظلَّت منذئذٍ متاحة بشكل دائم. وهي تشكل معظم ما حسبه إنجلز مجموعة كتاباته وكتابات ماركس، ولو أنه عاش لمدة أطول لكان ربما أضاف كتابات إضافية – مثلًا: **نظريات القيمة الفائضة**، الذي ظهر في الأخير، بتحرير

من كوتسكي، ونسخة منقَّحة عن: **حرب الفلاحين**، الذي أمل هو نفسه في إخراجه.

باستثناء بعض الكتابات، مثل تلك التي نشرت أصلاً باللغة الإنجليزية [وبعضها أعيد إصداره من قِبَل إليانور ماركس (Eleanor Marx)، بعد وفاة إنجلز، بقليل] شكل ذلك المادة المتاحة للحركة الماركسية الدولية في نهاية القرن التاسع عشر، بما في ذلك الترجمة الأجنبية. وتألف من مختارات، وبمقدار ما من مجموعة صنفها إنجلز. لذا، فإن كتاب **رأس المال** لم يصل إلينا كما أراده ماركس، ووفق إنجلز إنه كان عازماً على أن يصل كذلك. وكما هو معروف، فإن المجلدات الثلاثة الأخيرة، جمعها إنجلز - ولاحقاً كوتسكي - من مسوّدات ماركس غير المكتملة. وكذلك، فإن المجلّد الأول أتمَّه إنجلز لا ماركس أيضاً، والطبعة المعيارية (وهي الطبعة الألمانية الرابعة عام 1890)، قام إنجلز بتعديلها في ضوء الطبعة الأخيرة (الثانية) التي راجعها ماركس، والتغييرات الإضافية التي أجراها ماركس لطبعة 1872 - 1875 الفرنسية، وبعض ملاحظات مخطوطة، وبعض الأفكار التقنية الصغيرة. (والواقع هو أن طبعة ماركس الثانية لعام 1872 اشتملت على إعادة كتابة جوهرية لأقسام من الطبعة الأولى لعام 1867). إذن، كانت تلك هي مجموعة الكتابات الكلاسيكية التي كان يمكن أن تقوم عليها الماركسية الأممية الثانية (Second International)، لو لم يكن للكثير من منظِّريها وقادتها خاصة في ألمانيا، اتصال شخصي مباشر بإنجلز في سنواته الأخيرة عبر المحادثة، وعبر المراسلات الكثيرة التي لم تنشر إلاّ بعد الحرب العالمية الأولى. والمسألة التي يجب ملاحظتها تتمثَّل في أن مجموعة الكتابات النظرية «التي تمّت» وأرادها إنجلز، وحاولتها كتاباته أن تملأ الفجوة التي تركها ماركس، وجعل المنشورات السابقة عصرية. لذا، فإن الهدف من شغله التحريري الذي انصبَّ على كتاب **رأس المال** لم يكن (هذا طبيعي) إعادة إنشاء فيض الفكر الاقتصادي الخاص بماركس وتطوره، الذي كان جارياً في زمن وفاته. فمثل إعادة الإنشاء التاريخية الخاصة بتكوين وتطور كتاب **رأس المال** (بما في ذلك التغييرات التي تمَّت بين طبعات المجلَّد المنشور) لم يحصل إنجازها جدّياً إلاّ بعد بعد الحرب العالمية الثانية، وإلى الآن لم تكتمل. فكان هذف إنجلز متمثِّلاً في إنتاج نصّ «نهائي» لكتاب صديقه الرئيسي لا تعود بعده المسوّدات السابقة لازمة.

وملخصاته الوافية والموجزة خاصة الكتاب الناجح جداً: **الاشتراكية، الطوباوية والعلمية**، قُصِدَ منه أن يجعل محتويات تلك المجموعة من النظريات متاحةً لأعضاء الكتلة الجديدة من الأحزاب الاشتراكية. والواقع، هو أنه في غضون تلك الفترة، حصل تكريس مقدار كبير من انتباه منظِّري الحركات الاشتراكية وقادتها لتعميم مثل

تلك الملخصات الوافية لعقيدة ماركس وجعلها شعبية ومحبوبة. وهكذا، وجدنا ديفيّ (Deville) في فرنسا، وكافييرو (Cafiero) في إيطاليا، وأفيلنغ (Aveling) في بريطانيا قد قاموا بإنتاج ملخصات وافية لكتاب **رأس المال**، في حين نجد أن كوتسكي قام بنشر كتابه: **العقائد الاقتصادية لكارل ماركس** (*Economic Doctrines of Karl Marx*). ولا يوجد سوى بعض الكتابات من هذا النمط. والواقع، هو أن الجهد الرئيسي التربوي والدَّعاوي للحركات الاشتراكية بدا أنه تركَّز على إنتاج ونشر أعمال من ذلك النوع، لا على كتابات ماركس وإنجلز نفسيهما. ففي ألمانيا، على سبيل المثال، كان معدَّل النسخ التي طبعت من كل طبعة من طبعات **البيان الشيوعي**، قبل عام 1905 لايزيد على 2000 أو 3000 نسخة في الحدّ الأقصى، بالرغم من أن مقدار نسخ الطباعة بعد ذلك ازداد (هذا المعطى مأخوذ من (SPD *Parteitage*)). وبغية المقارنة نذكر أن كتاب كوتسكي **الثورة الاجتماعية** (*Social Revolution*) (الجزء الأول) طبع بطبعة عدد نسخها 7000 في عام 1903 و21,500 نسخة في عام 1905، وباع كتاب بيبِلْ: (*Christenthum and Sozialismus*) 37,000 نسخة بين عامي 1898 و1902، وتبع ذلك طبعة أخرى تألفت من 20,000 نسخة في عام 1903، كما وُزِّع كتاب الحزب: **برنامج إرفورت** (1891) على مستوى 120,000 نسخة.

لا يعني هذا أن مجموعة الأعمال من الكتابات الكلاسيكية لم يقرأها الاشتراكيون ذوو الميول النظرية. فقد ترجمت بسرعة إلى لغات مختلفة. لذا نجد في إيطاليا، وهي القطر ذو الاهتمام الحي بالماركسية خاصة في أوساط المفكرين خلال تسعينات القرن التاسع عشر، أن كل مجموعة الكتابات كما اختارها إنجلز كانت متوافرة بحلول عام 1900 (باستثناء مجلدات كتاب **رأس المال** اللاحقة وكتاب **كتابات** (*Scritti*) لماركس وإنجلز ولاسّال الذي حرَّره سيكّوتّي (Ciccotti) (منذ 1899))، وقد احتوى أيضاً على عددٍ من الأعمال الإضافية(*) وإلى منتصف ثلاثينات القرن العشرين كانت الإضافة قليلة جداً في اللغة الإنجليزية، إلى مجموعة الكتابات الكلاسيكية التي تمَّت ترجمتها قبل عام 1913 - بالرغم من كونها رديئة، في أغلب الأحيان - وذلك من قِبَل شركة تشارلز هـ. كير (Charles H. Kerr)، وشيكاغو (Chicago)، على نحو رئيسي.

في أوساط ذوي الاهتمامات النظرية - أي في أوساط المفكرين في أوروبا الوسطى

(*) Robert Michels, *Die italienische Literatur über den Marximus* (Archiv f. Sozialwissenschaft 25ii, 190?, pp. 525 – 572).

والشرقية، وجزئياً في إيطاليا حيث احتُفي بالماركسية كثيراً - كان الطلب لبقية كتابات ماركس وإنجلز حيّاً بشكل طبيعي. أما الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني الذي كان يملك ناكلاس (*Nachlass*) الأدبي للمؤلفين، لم يحاول أن ينشر أعمالها الكاملة، وقد يكون اعتبر أنه من غير الملائم نشر أو إعادة نشر بعض ملاحظاتها غير اللبقة أو المسيئة، وكذلك الكتابات السياسية ذات الفائدة السياسية المؤقتة. ومع ذلك، ذهب العلماء الماركسيون خاصةً كوتسكي وفرانز ميهرينغ في ألمانيا، وريازانوف في روسيا، إلى نشر **مجموعة** من كتابات ماركس وإنجلز **المنشورة** أكمل مما اعتبره إنجلز ضرورياً. وهكذا، نجد أن كتاب ميهرنغ: **(مختارات) من مخلّفات ماركس وإنجلز الأدبية** (***Aus*** *dem Literarischen Nachlass von Marx und Engels*)، أعاد نشر كتابات أربعينات القرن التاسع عشر. وأعمال ريازانوف بين 1852 و 1862 في عدة مجلّدات. وقبل عام 1914، حصل تقدم مفاجئ رئيسي واحد على الأقل في مجال المواد غير المنشورة وتمثّل بنشر المراسلات بين ماركس وإنجلز في عام 1913. وسبق لكوتسكي ومن وقت لآخر أن نشر مواد مخطوطة مختارة في مجلة **الزمن الجديد**، وهي المجلة النقدية النظرية للحزب SPD، خاصة (في عام 1902 رسائل ماركس إلى الدكتور كوغيلمان .Dr (Kugelmann، وشذرات قليلة مما صار يعرف الآن بالغروندريسّه، مثل المقدّمة غير الكاملة لكتاب: **نقد الاقتصاد السياسي**. وكتابات ماركس وإنجلز الموجهة إلى مراسلين في أقطار محدَّدة، أو التي نشرت بلغات تلك الأقطار، أو لها إشارة خاصة إليها، نشرت أيضاً من وقت لآخر محلياً بالرغم من أنها في وقتها لم تنشر إلاّ نادراً في لغات أخرى. وأفضل ذكر لإمكانية للوصول إلى الكتابات الكلاسيكية في عام 1914، موجود قائمة المراجع التي ربطها لينين بمقالته الموسوعية عن ماركس، المكتوبة في ذلك العام. وإذا لم يكن كتاب من كتب ماركس وإنجلز معروفاً لدى الماركسيين الروس، وهم أكثر التلاميذ مواظبة ومعرفة بالأعمال الكلاسيكية فيمكن حينذاك الافتراض أنه لم يكن متاحاً للحركة الدولية.

II

حوَّلت الثورة الروسية نشر الأعمال الكلاسيكية وتعميمها بطرق عدة. **أولاً**، نقلت مركز علم النصوص الماركسية إلى جيلٍ من المحرِّرين لم يعد لهم اتصال شخصي بماركس، أو بإنجلز العجوز- كما جرت العادة في معظم الأحيان - أشخاص مثل برنشتاين كوتسكي وميهرنغ. لذا، فإن هذه المجموعة لم تعد متأثرة بشكل مباشر

بآراء إنجلز الشخصية حول الكتابات الكلاسيكية أو بمسائل الذوق واللياقة – في العلاقة مع الأشخاص والسياسة المعاصرة – التي كان لها تأثير لا ريب فيه على المنفِّذين الأدبيين المباشرين لكتابات ماركس وإنجلز. وإن حقيقة صيرورة المركز الرئيسي للنشر الماركسي عندئذٍ هو الحركة الشيوعية الذي يقع في أساس ذلك التحوّل، ذلك لأن المحررين الشيوعيين (خاصة الروس)، مالوا – وأحياناً بحق – إلى تأويل محذوفات وتعديلات النصوص السابقة التي قام بها الحزب الديمقراطي الإشتراكي الألماني وإنها كانت تحريفات «انتهازية». **ثانياً**، وجزئياً لهذا السبب، كان هدفه الماركسيين البلاشفة (الذين كانوا يملكون عندئذٍ، مصادر الدولة السوفيتية) نشر **كل** مجموعة الكتابات الكلاسيكية – وباختصار، **الأعمال الكاملة**.

وهذا يطرح عدداً من المسائل التقنية، يمكن ذكر اثنتين منهما. كتابات ماركس، وبمقدار أقل كتابات إنجلز، تراوحت ما بين كتابات مكتملة نشرت بدرجات مختلفة من العناية عبر مسوَّدات ذات درجات مختلفة من عدم الاكتمال والصفة المؤقتة، ومجرد ملاحظات، والملاحظات الهامشية. أما الخط الفاصل بين «الأعمال» والملاحظات الأولية والمسوَّدات فيصعب رسمه.

ومعهد ماركس وإنجلز الذي تشكل حديثاً، كان بتوجيه من العلاّمة الماركسي القوي ديفيد ريازانوف، الذي استبعد بعض الكتابات من «الأعمال» الواقعية، مع أنه انطلق إلى نشره في دورية متنوعة موازية، هي: **أرشيف ماركس – إنجلز** (*Marx-Engels Archiv*). ولم يحصل إدخاله في مجموعة تشمل **جميع** الكتابات إلى زمن الميغا الجديدة في سبعينات القرن العشرين. علاوة على ذلك فبينما كان المقدار الأكبر من المسوَّدات الفعلية متاحاً في **ناكلاس** ماركس – إنجلز، في حيازة الـ SPD (وبعد عام 1933 تحوَّل إلى المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي (International Institute for Social History) في أمستردام)، فإن التشابه مع الكلاسيكيات كان مبعثراً بشكل كبير لذا فإن طبعة كاملة كانت مستحيلة، ومردّ ذلك على الأقل، يعود إلى أن أمكنة وجود مقدار كبير منها كانت مجهولة. والواقع الذي حصل هو أن سلسلة من رسائل ماركس – إنجلز نشرت منفصلة أحياناً من قِبَل المتلقّي أو منفذيهم الأدبيين بدءاً من عام 1920 فصاعداً، لكن مجموعة كاملة كبيرة ومهمة مثل المراسلة مع لافارغ (Lafargue) لم تنشر إلا في خمسينات القرن العشرين. وبما أن ميغا لم تكتمل، فإن هذه المسائل سرعان ما فقدت إلحاحها، لكن لا بدَّ لنا من ذكرها. وكذلك أيضاً يجب أن يكون الحال مع ماركسيانا (Marxiana) المبنيّة على المراكز القديمة الباقية الخاصة بالمادة الماركسية،

خاصة سجلات SPD. لأنه، إذا أراد معهد موسكو أن يعمل على الحصول على جميع الكتابات الممكنة الكلاسيكية من أجل طبعة كاملة لها - وهي الوحيدة في الإعداد - فإنه لا يتمكن من الحصول إلاّ على نسخٍ مصوَّرة من أكبر مجموعة من السجلات، التي لا تزال أصولها باقية في الغرب.

لذلك، فإن عشرينات القرن العشرين شهدت تفجراً وتعاظماً في نشر الكتابات الكلاسيكية. ولأول مرة، صار صنفان من المواد متاحين عموماً وهي: المخطوطات غير المنشورة ومراسلات ماركس وإنجلز مع أطراف ثالثة. غير أن الذي حصل هو أن الأحداث السياسية سرعان ما وضعت عراقيل في طريق النشر والتأويل لم يخطر في بال أحد قبل عام 1914. فعطَّل انتصار النازيين في عام 1933 المركز الغربي (الألماني) للدراسات الماركسية، وأرجأ مضاعفات التأويلات المبنيّة عليها. لنأخذ، على سبيل المثال، سيرة حياة إنجلز البارزة التي وضعها غوستاف ماير (Gustav Mayer)، وهي عمل يدل على ثقافة لافتة لزم أن تظهر في عام 1934 في طبعة لاجئة هولندية وظلّت مجهولة عند الماركسيين الشبّان في ما بعد عام 1945 في ألمانيا الغربية إلى سبعينات القرن العشرين. وهناك الكثير من منشورات النصوص الماركسية لم يكن مجرد «نوادر ماركسية»[1] بحسب عنوان سلسلة نشرت في عشرينات القرن العشرين، بل **صار** نوادر بصورة محتومة. وفي روسيا عطَّل صعود ستالين معهد ماركس - إنجلز خاصة بعد إبعاد مديره ريازانوف، وإنهاء نشر ميغا في ألمانيا، وإن لم يكن ما حصل لزيادة على التحرير - وكان ذلك، بالرغم من الواقع المأساوي لظواهر التطهير. علاوة على ذلك، هناك مسألة أكثر خطورة من بعض النواحي، ألا وهي نمو ما يمكن أن يُدعى التأويل الستاليني الأرثوذكسي للماركسية، الذي أعلن عنه رسمياً في كتاب: **تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي: مادة دراسية مختصرة** (*History of the CPSU: Short Course*) في عام 1938 أظهر بعضاً من كتابات ماركس بشكل هرطقي، لذا، ولَّد مشاكل تتعلق بنشرها. تلك كانت الحالة خاصة بالنسبة للكتابات أوائل أربعينات القرن التاسع عشر. وأخيراً وصلت الحرب إلى روسيا نفسها، وكان لها نتائج خطرة على أعمال ماركس. فطبعة **غروندريسّه** الرائعة، التي نشرت في موسكو في الأعوام 1939 1941 ظلَّت مجهولة (بالرغم من وصول نسخة أو نسختين إلى الولايات المتحدة) إلى زمن إعادة الطباعة في برلين الشرقية، في عام 1953.

الطريقة **الثالثة** التي عملت على تحويل نشر الكتابات الكلاسيكية، بعد عام 1917 تتعلق بمسألة تعميمها وجعلها في متناول الجمهور. وكما كنا قد ذكرنا، لم تحاول جدّياً

الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية ذات الجماهير قبل عام 1914 أن تحثَّ أعضاءها على قراءة وماركس وإنجلز نفسيهما، باستثناء كتاب: **الاشتراكية، الطوباوية والعلمية،** وربما **البيان الشيوعي**. والواقع هو أن كتاب **رأس المال**، المجلد 1 طبع تكراراً – في ألمانيا، طبع عشر مرات بين عام 1903 وعام 1922 – لكن ثمّة شك في مسألة اجتذابه لجمهور واسع من القراء. وقد يكون الكثيرون ممن ابتاعوه مكتفين بوضعه على الرفّ بوصفه برهاناً حيّاً على أن ماركس قد أثبت حتمية الاشتراكية علمياً. ولا شك في أن الأحزاب الصغيرة، سواء أكانت مؤلفة من مفكرين وكوادر أم من محاربين مخلصين يرغبون في التجمع في شيع ماركسية، قد رتَّبت مطالب كبيرة على أعضائها. لذا، نجد أنه ما بين عام 1848 وعام 1918 تمَّ نشر 34 طبعة من **البيان الشيوعي** في إنجلترا لمجموعات ماركسية وأحزاب صغيرة جداً في العالم الأنجلوساكسوني، مقابل 26 طبعة باللغة الفرنسية و55 للأحزاب الضخمة في الأقطار الناطقة بالألمانية.

من ناحية أخرى، وجهت الحركة الشيوعية الدولية انتباهاً كبيراً لمسألة التربية الماركسية لأعضائها، ولم تعدْ تعتمد بشكل رئيسي على الخلاصات العقيدية لتحقيق ذلك الهدف. ومن هنا صار انتقاء النصوص الكلاسيكية وتعميمها يؤلفان شاغلاً كبيراً. وقد عمل الميل المتزايد لدعم الحجة السياسية برجعية نصّية، وهو الذي كان ميزة بعض أقسام التقليد التعليمي الماركسي – خاصة في روسيا – على تشجيع نشر النصوص الكلاسيكية، وإن يكن الذي حدث بشكل طبيعي داخل الحركة الشيوعية في مجرى الزمن، كان اللجوء النصّي إلى لينين وستالين بصورة متكررة أكثر من اللجوء إلى ماركس وإنجلز، ولا ريب في أن التيسّر الواسع لوجود مثل تلك النصوص قد حوَّل الوضع الخاص بهؤلاء الذين رغبوا في دراسة الماركسية حيثما سمح لهم بالظهور، مع أن مساحة نشر ماركس وإنجلز تقلَّصت كثيراً بين عام 1933 وعام 1944.

ومن بين المخطوطات الرئيسية غير المنشورة، منذئذٍ. نعني مخطوطات أربعينات القرن التاسع عشر، بدأ يكون لها وقعٌ قبل عام 1939. فالكتابان: **الأيديولوجيا الألمانية** وكتاب: **المخطوطات الاقتصادية – السياسية** (*Economic-Political Manuwcripts*) في عام 1844، نشرا في عام 1932، بالرغم من أن ترجمتهما **التفصيلية المسهبة** (*in extenso*) كانت بطيئة. وليس هذا المكان صالحاً للنظر في أهميتهما. ونكتفي، هنا، بملاحظة عابرة مفادها أن مقداراً كبيراً من النقاش الماركسي منذ عام 1945 تركَّز على تأويل تلك الكتابات الأولى، وعكس ذلك هو أن معظم النقاش الماركسي قبل عام 1932 انطلق واستمر عبر الجهل بتلك الأعمال. أما المقدار الكبير الثاني من المخطوطات غير المنشورة،

اختص بالعمل الأوّلي بكتاب **رأس المال**. ومقدار كبير من الكتابة، نعني **الغروندريسّه** للأعوام 1857 – 1858، ظلَّ، كما رأينا مجهولاً لمدة أطول إذ إن نشره الأول الفعّال حصل في عام 1953، وترجماته (غير المرضية) الأولى إلى اللغات الأجنبية لم تنشر إلاّ في أواخر ستينات القرن العشرين. ولم يصبح أساساً رئيسياً للنقاش الجدلي الماركسي الدولي إلا في ستينات القرن العشرين، وحتى عندئذٍ لم يكن ككل في البداية، وإنما، بشكل رئيسي، في علاقته بالقسم التاريخي للمخطوطة، الذي أعيد نشره منفصلاً بعنوان: **أشكال سبقت النظام الرأسمالي** (*Formen, die der kapitalistischen Produktion vorhergehen*) (برلين، 2195)، وترجم في غضون سنوات قليلة (إلى الإيطالية في عام 1956، وإلى الإنجليزية في عام 1964). ومن جديد، فرض ظهور هذا النصّ على أكثرية الماركسيين، الذين كانوا جاهلين به أن يقوموا بإعادة نظر كبرى بكتابات ماركس. ومن بين المقدار الرئيسي من مسوَّدات ماركس التي لها علاقة بكتابة **رأس المال**[2]، التي لم تشتمل عليها الطبعات المنشورة النهائية، تسرَّبت أقسام إلى التداول لاحقاً وتدريجياً – مثلاً، مخطوط القسم السابع من المجلَّد الأول عن **نتائج عملية الإنتاج المباشر** (*Resultate des unmittelbaren Produktions prozesses*)، بالرغم من نشره في **أرشيف ك. ماركسا في ف. إنجلسا** (*Arkhiv K. Marksa i F. Engelsa*) في عام 1933، لم يناقش جدّياً حتى أواخر ستينات القرن العشرين، وترجم إلى اللغة الإنجليزية عام 1976. وبعض تلك المادة ظل بلا نشر.

المخطوطة الثالثة الرئيسية التي لم تنشر كانت كتاب إنجلز: **ديالكتيك الطبيعة**، وكان قد صدر مبكراً مع مسوّدات لإنجلز الأخرى، في: **أرشيف ك. ماركسا في ف. إنجلسا** (1925) ورأى ريازانوف أن عدم إدخالها في عداد المنشورات، أو نشرها في **الأعمال الكاملة**، يعود إلى الحقيقة المفيدة أن الكثير من بحث إنجلز في العلوم الطبيعية، المكتوب في سبعينات القرن التاسع عشر، صار مهجوراً وعفا عليه الزمان. ومع ذلك، فإن ذلك العمل المنسجم مع التوجّه «العلمي» للماركسية المحبَّب في روسيا منذ زمن طويل، تعزَّزت قيمته في الحقبة الستالينية. لذا، فإن كتاب: **ديالكتيك الطبيعة** انتشر بسرعة في ثلاثينات القرن العشرين – فقد نشر في إنجلترا، وبعد ذلك في فرنسا – وقد استشهد به ستالين في كتاب: **مادة دراسية مختصرة** في عام[3] 1938. وكان للكتاب بعض التأثير في أوساط العدد المتزايد والمتسارع من علماء الطبيعة الماركسيين.

من بين مراسلات ماركس – إنجلز مع أطراف ثالثة، والتي تؤلف المقدار الأكبر الوحيد من المادة الماركسية غير المنشورة، غير الملاحظات، لم ينشر إلاّ القليل نسبياً قبل

عام 1914، وكان النشر جزئياً في دوريّات، وجزئياً على شكل مجموعات أو مختارات من الرسائل الموجَّهة إلى مراسلين أفراد، مثل رسائل وملخصات عن رسائل ليوهان فيل، وبكر، وجوزيف ديتزغد، وفريدريك إنجلز، وكارل ماركس وآخرين و لـ ف. أ. سورغه وآخرين. *(Briefe und Auszüge aus Briefen von Joh. Phil. Becker, Jos. Dietzgen. Friedrich Engels, Karl Marx u.A. and F. A. Sorge und Andere* (Stuttgart, 1906)) وهناك عددٌ من المجموعات الشبيهة تمَّ نشره بعد عام 1917 خاصة، الرسائل إلى بيرنشتاين (باللغة الروسية في عام 1924، وباللغة الألمانية في عام 1925)، وتلك التي أرسلت إلى بيبل، وليبكنخت، وكوتسكي وآخرين [بالروسية 1932، والألمانية لينغراد (Leningrad) 1933]، لكن لم يحصل نشر مجموعة كاملة قبل الطبعة الروسية (Sochineniya XXV – XXIX) في 1934 – 1946، أو باللغة الألمانية الأصلية، **الأعمال الكاملة** في 1956 – 1968. وكما سبق لنا أن أشرنا، لم يصبح بعض من المجموعات العالية الأهمية متاحاً حتى أواخر خمسينات القرن العشرين، ومع ذلك يظل عدم اعتبار المراسلات كاملة ممكناً. ومهما يكن من أمر، فإن المجموعة المتاحة لدى معهد موسكو (Moscow Institute) قبل عام 1953 احتوت على مقدار كبير من الرسائل، جرى تعميمها بشكل رئيسي، عبر ترجمات وتعديلات أجنبية **للمراسلات المختارة**، منذ أوائل ثلاثينات القرن العشرين.

على كل حال، لا بدّ من ملاحظة النشر «الرسمي» لتلك الرسائل. فهي لم تعتبر مراسلات (باستثناء ما حصل من تبادل بين ماركس وإنجلز)، وإنما حسبت جزءاً من الكتابات الكلاسيكية. لذا، فإن رسائل الذين راسلوا ماركس وإنجلز لم تدخل في المجموعات الشيوعية الرسمية، بالرغم من أن بعض طبعات من المجموعات الخاصة التي أنتجها مراسلو ماركس وإنجلز أو منفدِّوهم [مثلاً، كوتسكي، وفيكتور أدلِر (Victor Adler)] اشتمل على ما صدر عن طرفي تبادل الرسائل. وقد تكون المراسلة بين إنجلز ولافارغ (1959 – 1956) الأولى التي صدرت برعاية شيوعية واشتملت على رسائل الطرفين، وبذلك فتحت مرحلة جديدة في مجال دراسة هذا الجانب من نصوص ماركس – وإنجلز. علاوة على ذلك، إن ممارسة إبقاء رسائل ماركس – إنجلز ومراسلاتهما مع أطراف ثالثة منفصلةً في طبعات المجموعة المختلفة لأعمالهما حتى سبعينات القرن العشرين، يبقي الدراسة الزمنية التاريخية المتسلسلة الدقيقة للرسائل أمراً غير ملائم.

III

كما رأينا، أنتج نشر وترجمة مجموعة الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز بشكل أكمل بكثير مما كان من قبل تقدماً جوهرياً بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة في الحقبة الما بعد - الستالينية. ويمكن القول إنه بحلول أوائل سبعينات القرن العشرين باستثناء الاكتشافات الإضافية للمسوَّدات والرسائل، صار المقدار الكبير من الأعمال الكاملة مطبوعاً باللغة الأصلية، وإن لم تكن متاحة، بشكل واسع. وهذا، شمل، وبصورة متزايدة المادة الإعدادية غير المكتملة - مثل ملاحظات على القراءات، والهوامش... إلخ. - التي تزايدت العادة في اعتبارها مثل «الأعمال» ونشرها طبقاً لذلك. وما يتصل بموضوعنا أكثر من سواه يتمثَّل في محاولة متزايدة لتحليل وتأويل مثل تلك المواد بغية اكتشاف خطوط تفكير ماركس الخاص - خاصة حول مواضيع لم ينشر عنها شيئاً، وحتى مسودات نصوص - كما في طبعة: **مذكّرات إثنولوجية**(*) *(Ethnologi- cal Notebooks)* لماركس [تحرير ل. كرادِر (L. Krader)، وأسِّن (Assen)، 1972]. ويمكن حسبان هذا بداية لمرحلة جديدة وإعادة في علم النصوص الماركسية. والشيء ذاته ينطبق على دراسة المسوَّدات والمتنوّعات الماركسية، مثل المسوَّدات الإعدادية الخاصة بكتاب: **الحرب الأهلية في فرنسا** والرسالة الشهيرة إلى **فيرا زاسولتش** (Vera Zasulich) في عام 1881. والحق يُقال، إن مثل ذلك التطور لم يكن مفرّ منه، لأن العديد من النصوص الجديدة المهمة، مثل **غروندريسّه** كان مسوّدات، ولم يقصد بها أن تنشر بالشكل الذي بقي. ومهما يكن من أمر فإن دراسة المتنوعات النصّية تقدَّمت أيضاً مع إعادة نشر الفصل الأول الأصلي من كتاب: **رأس المال، المجلّد 1** (طبعة عام 1867) في اليابان، والذي أعاد ماركس كتابته إعادةً جوهرية، لطبعات لاحقة.

ويمكن للمرء أن يقول خاصة منذ ستينات القرن العشرين، إن العلم الماركسي ازداد ميله نحو البحث في ماركس وإنجلز عن **عملية** تطور الفكر، وليس عن مجموعة تحديدية و«نهائية» من النصوص التي تشرح النظرية الماركسية. كما ازداد ميله إلى التخلّي عن وجهة النظر التي تقول، إن أعمال ماركس وإنجلز مكوِّنان لمجموعة الأعمال الماركسية، لا يمكن التمييز بينهما، وراح العلم الماركسي يدرس الفروق أحياناً والافتراقات بين شريكي العمر. والمسألة التي تفيد أن ذلك أدّى أحياناً إلى تأويلات مبالغ بها لتلك الفروق لا تعنينا هنا. وإن الأفول التدريجي للماركسية كنظام عقيدي

(*) الأثنولوجيا (Ethnology) هو علم الجماعات الأثنية أو الأعراق (المترجم).

أساسي منذ منتصف خمسينات القرن العشرين، شجَّع بشكل طبيعي تلك الميول في علم النصوص الماركسية، كما أنه أدّى أيضاً إلى البحث عن مرجعية نصّية لنسخ بديلة وأحياناً عقيدية جامدة، من «الماركسية» في الكتابات الماركسية الأقل مألوفية والمنشورة أو المعمَّمة حديثاً.

IV

أنتج أفول الماركسية الجامدة بعد عام 1956 افتراقاً متزايداً بين الأقطار الخاضعة لحكم ماركسي بعقائدها الماركسية الرسمية المتحجرة وبقية العالم، حيث توجد تعدّدية من الأحزاب، والمجموعات والاتجاهات الماركسية. ومثل ذلك الافتراق لم يكن قبل عام 1956. فالأحزاب الشيوعية التي وجدت قبل الأممية الثانية في عام 1914، وبالرغم من ميلها إلى تطوير تأويل أرثوذكسي للعقيدة ضد تحدّيات «التعديليين» في اليمين وضد النقابيين - الفوضويين في اليسار، فإنها قبلت بتعددية التأويلات، ولم تمنعها لو أنها رغبت. ولم يفكر أحد في حزب SPD الألماني أن يكون الأمر شاذاً، إذا حرَّر القطب التعديلي إدوارد بيرنشتاين مراسلات ماركس وإنجلز في عام 1913، بالرغم من أن لينين اكتشف «انتهازية» (Opportunism) في آرائه التحريرية.

فالديمقراطية الاجتماعية والماركسية الشيوعية تواجدتا معاً في عشرينات القرن العشرين، ومع ذلك، كان الذي حصل بتأسيس معهد ماركس - إنجلز، أن انتقل مركز نشر الكتابات الكلاسيكية إلى الجانب الشيوعي بعملية متزايدة. وبالمناسبة، يمكن ذكر الملاحظة المفيدة أنه بقي هناك. وبالرغم من محاولات حصلت منذ ستينات القرن العشرين، لنشر طبعات منافسة من الأعمال الكلاسيكية [مثلاً، من قِبَل م. روبل (M. Rubel) في فرنسا، وبيندكت كوتسكي في ألمانيا]، فإن الطبعات المعيارية التي من دونها لا يمكن تصوّر أي من الطبعات الأخرى بما فيها ترجمات عديدة ظلَّت تلك المبنيّة على موسكو (ومنذ عام 1945، برلين الشرقية)، و**ميغا** الأولى والثانية **والأعمال الكاملة**. وبعد عام 1933 ولأغراضٍ عملية عمدت الأكثرية الواسعة من الماركسيين في داخل الاتحاد السوفيتي السابق وخارجه إلى الاتحاد مع الأحزاب الشيوعية، لأن الانشقاقات والهرطقات المختلفة في الحركة الشيوعية لم تحرزا عدداً كبيراً ومهماً من المناصرين. فالماركسية في الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية ازداد وَهَنها وازداد نقدها العلني للأرثوذكسية الكلاسيكية بمقدار عدم كينونتها السابق كذلك - نقول ذلك، حتى إذا استثنينا الدمار الفعلي للأحزاب الديمقراطية الاجتماعية الألمانية والنمساوية

بعد 1933 – 1934. بعد عام 1945، وباستثناء عدد قليل، لم تعد تلك الأحزاب تحسب نفسها ماركسية، بسوى المعنى التاريخي. وليس إلاّ عبر استعادة الأحداث وتذكّرها، وفي ضوء التعدّدية الماركسية في ستينات وسبعينات القرن العشرين صار يعترف بالطابع التعدّدي للأدب الماركسي بين الحربين، وجرت محاولات منظّمة خاصة في ألمانيا منذ منتصف ستينات القرن العشرين لنشر أو لطبع كتابات تلك الفترة.

لذلك ولمدة ربع قرن لم يكن هناك فرق جوهري بين ماركسية الأحزاب الشيوعية في الخارج (ما يعني معظم الماركسية بلغة الكم) وماركسية الاتحاد السوفيتي على الأقل نذكر أن مثل ذلك الفرق لم يكن يسمح له بالظهور إلى العلن. تبدَّل ذلك الوضع تدريجياً، لكن بسرعة متزايدة بعد عام 1956. والذي حصل لم يكن مجرد استبدال أرثوذكسية عقيدية واحدة باثنتين على الأقل مع الانقسام بين الاتحاد السوفيتي والصين، بل واجهت الأحزاب الشيوعية غير الحكومية منافسةً متزايدة من مجموعات ماركسية مزاحمة، لها دعم جوهري أكبر على الأقل بين المفكرين – أي قرّاء النصوص الماركسية – في حين نشأت ظاهرة النقاش النظري الداخلي الحرّ وذي القيمة، حول مسائل العقيدة الماركسية على الأقل، وذلك في داخل الأحزاب الشيوعية الغربية المتعدِّدة. لذلك كان هناك افتراق واضح بين الأقطار التي ظلّت فيها الماركسية هي العقيدة الرسمية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحكم، وفي أي لحظة مرتبطة بنسخة وحيدة ملزمة عن «ما تعلمه الماركسية» حول أي موضوع وكل موضوع، والأقطار التي لم تعد تنطبق فيها تلك الحالة. ومقياس ذلك الافتراق المناسب يتمثّل فيها حصل من تعامل ذلك الافتراق المناسب يتمثّل فيما حصل من تعامل مع السيرة الفعلية للمؤسسين. وهذا بقي في المجموعة الأولى من الأقطار على شكل سيرة تقديسية، وإن كانت غير ذلك، فقد تقيّدت بنفور من التعامل مع نواحٍ من حياتهما وأنشطتهما لا تظهرهما في ضوء محبَّب. (وليس هذا التقليد بجديد: فيمكن ملاحظته في المرحلة الأولى لسيرة ماركس الأرثوذكسية في ألمانيا قبل عام 1914، كما هو واضح في سيرة الحياة شبه الرسمية لميهرنغ، المنشورة في عام 1918، وأكثر من ذلك في المحذوفات من مراسلات ماركس – إنجلز الأصلية). في مجموعة الأقطار الثانية تلاءَم الماركسيون وكتّاب سيرة ماركس بشكل علني مع حقائق حياة المؤسسين، حتى عندما لا يظهرون مواضيعهم في ضوء جذّاب. افتراقات من هذا القبيل تميَّز بها بشكل متزايد تاريخ الماركسية، وبما في ذلك النصوص الماركسية منذ عام 1956.

بقي أن نلقي نظرةً مختصرة على مسألة نشر الأعمال الكلاسيكية. وهنا من جديد

من المهم أن نلاحظ الأهمية الرئيسية لفترة الأرثوذكسية الشيوعية «المتحجرة»، التي كانت أيضاً فترة التعميم التبسيطي المنظَّم لكتب المؤسسين الفعلية. وقد اتخذ ذلك التعميم أربعة أشكال هي: نشر أعمال منفصلة لماركس وإنجلز كانت عموماً في شكل سلسلة من كتابات قصيرة أو طويلة، ونشر أعمال مختارة أو مجموعة، ونشر مقتطفات مختارة من مواضع خاصة، وأخيراً جمع خلاصات وافية للنظرية الماركسية مبنيّة على الكتب الكلاسيكية وتحتوي استشهادات بها ومنها. ونادراً ما قيل، إنه خلال تلك الفترة شملت «الكلاسيكيات» لينين، ولاحقاً ستالين، وكذلك ماركس وإنجلز. على كل حال، لا يوجد كاتب ماركسي أبقى نفسه على مستوى دولي برفقة «الكلاسيكيات»، على الأقل بعد عشرينات القرن العشرين، من خلال بليخانوف.

الأعمال التي نشرت منفردةً وفي سلسلة متواضعة وبعناوين مثل (*Les Éléments du Communisme*) أو (*Piccola Biblioteca Marxista*) (وربما على شاكلة (*Elementarbücher des Kommunismus*) الريادي في ألمانيا قبل عام 1933)، وشملت أعمالاً، مثل **البيان الشيوعي، والاشتراكية، والطوباوية والعلمية، والقيمة، السعر والربح، العمل المأجور والرأسمال، والحرب الأهلية في فرنسا**، ومختارات تتعلق بمواضيع مناسبة، مثلاً، نقد ماركس وإنجلز العنيف للفوضويين في ثلاثينات القرن العشرين. والأعمال الطويلة نشرت أيضاً على شكل معياري، وبعناوين من قبيل «المكتبة الماركسية – اللينينية» أو (Classici del Marxismo). وقائمة عن هذه المكتبة في بريطانيا عشية الحرب تشرح محتوى مثل تلك السلسلة. وهي تحتوي (بعد حذف أعمال ماركس وإنجلز) على: *Anti-Dührings, Feuerbach, Letters to Kugelmann, Class Struggles in France, Civil War in France, Germany, Revolution and Counter-revolution, Engels' The Housing Question, Poverty of Philosophy, the Selected Correspondence* of Marx and Engels, *The Critique of the Gotha Programme*, Engels' *Essays on Capital* and a Shortened Edition of *the German Ideology*.

كتاب الرأسمال 1 قد نشر الآن **بالتفصيل** (*in extenso*)، وليس بأشكال مختصرة أو مصنَّفة، كما كان شائعاً في العصر الاجتماعي الاقتصادي. ولم تجر محاولة حتى نهاية ثلاثينات القرن العشرين لإصدار **أعمال مختارة** (*Selected Works*) لماركس وإنجلز، إلاّ أن موسكو أنتجت مثل ذلك في مجلّدين ولاحقاً في ثلاثة مجلَّدات، وُزِّعت بلغات مختلفة بعد الحرب، بشكل رئيسي. ولم تحصل محاولة شيوعية لإنتاج **الأعمال المجموعة**

بلغة غير اللغة الروسية، بعد نهاية الميغا إلى أن ظهرت **الأعمال** (1956 – 1968). ولم تحصل الطبعة الفرنسية حتى ستينات القرن العشرين، والطبعة الإيطالية عام 1972، والطبعة الإنجليزية حتى كان عام 1975، ولا ريب في أن السبب تمثّل في أن عمل الترجمة كان واسعاً وصعباً. وأهمية نشر الكتب الماركسية نزل عليها الحقيقة المفيدة أن رئيس الحزب الشيوعي الإيطالي بالميرو توغلياتي (Palmiro Togliatti) ظهر كأحد المترجمين لعدد من النسخ الإيطالية للأعمال.

صارت المختارات من الكتب الماركسية حول المواضيع المختلفة مسألة شعبية على أساس مختارات ذات أساس روسي وأخرى ذات أساس محلّي، وذلك في غضون ثلاثينات القرن العشرين، مثل: ماركس وإنجلز حول بريطانيا، وماركس وإنجلز حول الفن والأدب، وحول الهند، والصين، وإسبانيا... إلخ. والزمن بين الخلاصات الوافية كان أكثرها موثوقيةً هو القسم الثاني من الفصل الرابع لكتاب: **تاريخ** (*CPSU*) وهو مادة تدريسية مختصرة مرتبطة بستالين نفسه. وصار لهذا العمل تأثير خاصة في الأقطار التي لا تملك إلاّ القليل من طبعات الكتب الكلاسيكية بلغتها المحلية، ولم يكن ذلك بسبب ضغط الشيوعيين لقراءته فحسب، ولكن أيضاً لأن عرضه البسيط والنيّر صيّره كتيباً تعليمياً مؤثراً ورائعاً. ولا يمكن الزيادة بكلمة في وصف وقعه على جيل الماركسيين بين عام 1938 وعام 1956، خاصة في أوروبا الشرقية بعد عام 1945.

وفي ستينات القرن العشرين، خاصة مع ظهور عدد كبير من الطلاب ومفكرين آخرين مهمتين بالماركسية، وظهور حركات ماركسية أو الاشتراكية الماركسية (*Marx-isant*) مختلفة خارج الأحزاب الشيوعية، توقّف نشر النصوص الكلاسيكية عن أن يكون محتكراً من قِبَل الاتحاد السوفيتي، والأحزاب الشيوعية المرتبطة به. فازداد دخول ناشرين تجاريين في ذلك السوق عبر حضٍّ من ماركسيين أو متعاطفين في هيئاتهم الإدارية، أو من دون ذلك. كما أن عدد وتنوّع الناشرين اليساريين و«التقدميين» تضاعف. ولا ريب في أن ذلك حصل بمقدار ما كانعكاسٍ للقبول العام بماركس «ككلاسيكي»، بالمعنى العام وليس بالمعنى السياسي – بوصفه المفكر الذي يجب على القارئ المثقّف ثقافة عادية أن يعرف عنه شيئاً، بغض النظر عن وجهة نظره أو وجهة نظرها الأيديولوجية. ولهذا السبب تمَّ نشر كتاب: **رأس المال في مجموعة** (*Pléiade*) الخاصة بالكلاسيكيات الفرنسية، مثلما نشر ذلك الكتاب لمدة طويلة في مكتبة كل فرد البريطانية (British Everyman's Library). فلم يعد الاهتمام الجديد بالماركسية محصوراً بمجموعة الأعمال التقليدية الخاصة بالأعمال الشعبية. وهكذا نجد أنه في

ستينات القرن العشرين، صارت متاحةً أعمال مثل **نقد فلسفة القانون عند هيغل**، **والأسرة المقدَّسة**، وأطروحة الدكتوراة الخاصة بماركس، ومخطوطات عام 1844، **والأيديولوجيا الألمانية**، في أقطار لم تكن في الطليعة المهتمة بالدراسات الماركسية، مثل إسبانيا. وبعض معيّن من تلك الأعمال لم يعد يترجم أولياً برعاية شيوعية، فعلى سبيل المثال الترجمات الفرنسية، والإسبانية والإنجليزية لكتاب **غروندريسّه** (في الأعوام 1967 – 1968، 1973 و1976 على التوالي، والترجمة الإيطالية ظهرت بين عامي 1967 – 1970).

وأخيراً، لا بدَّ من كلمات قليلة عن التوزيع للأعمال الكلاسيكية الماركسية. بعض النصوص الابتدائية ترجم، بشكل واسع، قبل ثورة أكتوبر. لذا، نجد أنه بين عام 1848 وعام 1918، ظهر **البيان الشيوعي** في ثلاثين لغة وشمل ذلك ثلاث طبعات يابانية وطبعة صينية – مع أن الذي حصل في الممارسة هو أن كتاب كوتسكي: **العقائد الاقتصادية لكارل ماركس**، ظلَّ الأساس الرئيسي للماركسية الصينية. وللاطلاع على تحليل أكمل لحظوظ **البيان الشيوعي**، انظر الفصل الخامس. وفي المقابل نجد أن كتاب: **رأس المال، المجلَّد الأول** قد ترجم إلى معظم اللغات الأدبية الرئيسية في أوروبا قبل وفاة إنجلز، وإن كانت الترجمات بشكل غير كامل إلى الإسبانية (الألمانية، والروسية، والفرنسية، والدنماركية، والإيطالية، والإنجليزية، والهولندية والبولندية). وقبل ثورة أكتوبر ترجم أيضاً إلى اللغات البلغارية (1910)، والتشيكية (1913 – 1915)، والإستونية (1910 – 1914)، والفلندية (1913)، واليِيْدية (Yiddish) (1917). وكوَّن المؤخرة في أوروبا الغربية بعد زمنٍ، فبعضُ المطبوعات الذي انتشر بغير نظام، نعني: باللغة النرويجية (لأنها أليفة اللغة الدانماركية، بوصفها لغة أدبية) في 1930 1931، وأول طبعة برتغالية غير كاملة في عام 1962. وبين الحربين اخترق كتاب: **رأس المال** جنوب شرق أوروبا، وإن يكن بشكل غير كامل بطبعات هنغارية (1921)، ويونانية (1927)، وصربية (1933 – 1934). ولم تحصل محاولة رئيسية لترجمته إلى لغات الاتحاد السوفيتي، باستثناء اللغة الأوكرانية (1925). كما نشرت طبعة محلية في لاتفيا (Lat-via) المستقلة (1920)، وكانت بمنزلة صدى متأخر لتطور الماركسية الرئيسي في الإمبراطورية القيصرية. وفي هذه الحقبة الزمنية، ولأول مرة، اخترق كتاب **رأس المال** العالم اللاأوروبي (خارج الولايات المتحدة) بطبعات باللغة الأرجنتينية (1918)، واليابانية (1920)، والصينية (1930 – 1933) والعربية (1939). ولا نخطئ إذا قلنا إن ذلك الاختراق ارتبط ارتباطاً وثيقاً بنتائج الثورة الروسية.

شهدت الحقبة الزمنية منذ عام 1945 ترجمة واسعة لكتاب **رأس المال** إلى لغات أقطار خاضعة لحكم شيوعي (رومانية في عام 1947، ومقدونية في عام 1953، وسلوفاكية في عام 1955، وكوريّة بين عامي 1955 – 1956، وسلوفينيّة في 1961عام ، وفيتنامية في عام 1961 – 1962، وإسبانية (كوبا) في عام 1962). وما يلفت النظر هو المجهود المنظم لترجمة ذلك الكتاب إلى لغات الاتحاد السوفيتي لم يحصل أن كان عام 1952، وبعده بيلوروسية، وأرمينية، وجورجية، وأوزبكية، وأذرباجانية، وليتوانية، وأوغريه (Ugrian)، وتركمانية وكازاخية (Kazakh)، وكان الامتداد اللغوي الكبير الآخر والوحيد لكتاب **رأس المال** في بلاد الهند المستقلة بطبعات باللغات المارائية (Marathi)، والهندية (Hindi) والبنغالية (Bengali)، في خمسينات وستينات القرن العشرين. على كل حال، إن اتساع رقعة لغات دولية معينة (الإسبانية في أميركا اللاتينية، والعربية في العالم الإسلامي والإنجليزية أو الفرنسية) أخفى الانتشار الجغرافي الفعلي لكتب الماركسية. ومع ذلك، يمكن القول، إنه حتى في أواخر سبعينات القرن العشرين، لم تكن كتابات ماركس وإنجلز متاحةً في اللغات المتكلّمة في جزء كبير جداً من العالم غير الاشتراكي خارج أوروبا، باستثناء أميركا اللاتينية. أمّا، كيف يمكن الحصول على الكتب المتاحة وكم هي منتشرة انتشاراً واسعاً، فهما سؤالان لا يمكن البحث فيهما هنا، مع أنه يمكن القول إنه إذا لم تكن محظورة من قبل الحكومات، فإنه من المحتمل أن تكون ميسَّرة بشكل واسع في المدارس والجامعات ولدى المثقفين أكثر مما كان من قبل، وفي جميع أنحاء العالم. ومدى قراءتها أو مقدار شرائها خارج تلك الدوائر ليسا بالأمرين الواضحين. والإجابة عن هذين السؤالين يتطلّب بحثاً كبيراً، لم يحصل في الوقت الحاضر.

القسم الثاني

الماركسية

الفصل التاسع

الدكتور ماركس والأزمة الفيكتورية

لم تمر سنة تقريباً بعد ظهور الماركسية كقوة فكرية من دون محاولة لتقيدها وأسبوع تقريباً في العالم الأنجلوسكسوني، منذ عام 1945 - حتى صار الأدب الحاصل المؤلف من الانتقاد والدفاع غير ممتع، لأنه صار يكرر نفسه بشكل متزايد. وبالرغم من أن كتابات ماركس ضخمة، إذ هي على شكل مجلَّدات لكن مقدارها محدود، ويستحيل تقنياً وجود أكثر من عدد معين من الانتقادات الأصلية لها، وأكثرها حصل منذ زمن طويل. ومقابل ذلك، نجد أن المدافع عن ماركس وجد نفسه قائلاً بشكل متزايد الأشياء نفسها مرة بعد مرة، وحتى إذا حاول أن يقوم بذلك بمفردات جديدة، فإن محاولته هذه صارت مستحيلة. ولا يمكن أن يكون هناك أثر للتجديد يمكن تحقيقة إلاّ بطريقتين، هما: بالتعليق على ماركسيين لاحقين، وليس على ماركس نفسه، ثم عبر فحص فكر ماركس بالوقائع التي دخلت دائرة النور، منذ أن كتب الناقد الأخير. غير أن الإمكانيات هنا محدودة أيضاً.

فلماذا يستمر النقاش الجدلي بين العلماء   لأن الطبيعي أن يكون الدعائيون في الطرفين، لا تهمهم الأصالة على نحو رئيسي؟ فالأفكار لا تصير قوى إلاّ عندما تمسك بالجماهير، وهذا كما تعرفه وكالات الإعلان، حيث يتطلّب الكثير من التكرار، والتعويذات أيضاً. وهذا ينطبق على من هم منا نحن الذين يرون أن ماركس رجل عظيم، وأن تعاليمه مرغوبة سياسياً، وأولئك الذين لهم وجهة نظر مضادّة. وهناك سبب آخر يتمثَّل في مجرد الجهل. إنه لوهم الذي يدعو إلى الحزن، لدى أولئك الذين يسطرون

كُتُباً ومقالات، ويعتقدون أن الكلمة المطبوعة تبقى حية. وللأسف ذلك لا يحصل إلاّ نادراً. فإن الأكثرية الواسعة من الأعمال المطبوعة تدخل في حالة الحياة المعلّقة في أسابيع أو سنوات قليلة بعد نشرها، ومنها يكون إيقاظها عرضياً. فلفترات زمنية قصيرة، من قِبَل طلاب باحثين، كان الكثير منها يظهر في لغات تتعدّى وصول معظم المعلّقين الإنجليز. وعندما لا يحصل ذلك، فغالباً ما ينسون كما حصل مع النقّاد البورجوازيين الأوائل، في بريطانيا، ومع ذلك فإن عملهم لم يلق ضوءاً على التاريخ الفكري لبلادنا في الفترة الفيكتورية الأخيرة فحسب، بل على التطور العام للنقد الماركسي.

فهم يلفتوننا ويفتنوننا بشكل رئيسي بنبرتهم، التي تختلف كثيراً جداً عما صار مألوفاً منذئذٍ. لذا، نجد أن البروفسور تريفور - روبر (Trevor-Roper)، الذي كتب مقالةً عن: **الماركسية ودراسة التاريخ**[1] (*Marxism and the Study of History*) منذ بعض السنوات، كان أبعد ما يكون من أن يكون غير نموذجي بالنبرة المضادّة للماركسية، في ذلك العقد الزمني المعوَّق. فقد غطّى مساحة كبيرة من الكتاب ليقدم الفكرة غير المعقولة والمفيدة أن ماركس لم يسهم إسهاماً أصيلاً في التاريخ، ما عدا «نقله الأفكار التي سبق أن قدَّمها مفكرون آخرون، وربطها بعقيدة فلسفية فجّة»، وأن تأويله التاريخي لا قيمة له للماضي، وغير موثوق به كأساس للتنبؤ عن المستقبل، ولم يكن له تأثير مهم على المؤرخين الجدّيين، وأن الذي زعموا أنهم ماركسيون، إمّا كتبوا «عما يمكن أن يدعوه ماركس ولينين التاريخ الاجتماعي «البورجوازي»، أو كانوا معلِّقين غامضين منشغلين في التعليق على تعليقات وحواشي واحدهم على الآخر». وباختصار، فإن الرأي الذي قُبِلَ بشكل واسع هو أن سمعة ماركس الفكرية قد ضُخِّمت كثيراً، ومع «إبطال التأويل الماركسي للتاريخ بالاختبارات الفكرية جميعها، فقد بقيت وصارت مسوَّغة تسويغاً لا عقلياً من قِبَل السلطة السوفيتية وحدها».

معظم كتابات النقّاد الماركسيين الفيكتوريين قد نُسي، وفي هذا تحذير لمن ينخرط في هذا النقاش. غير أننا عندما نغوص فيها، نقع على نبرة مختلفة كلياً. ولا شك في أن الكتّاب البريطانيين رأوا أن الاحتفاظ بهدايتهم أمرٌ سهل لكنه شاذ. فلا حركة مضادة للرأسمالية تحدتهم، ولم يكن هناك سوى شكوك قليلة حول بقاء الرأسمالية التي أزعجتهم، وبين عام 1850 وعام 1880 كان يصعب إيجاد مواطن إنجليزي دعا نفسه اشتراكياً بالمعنى الذي نعرفه، فضلاً عن وصفه نفسه بأنه ماركسي. لذا فإن مهمة دحض ماركس لم تكن ملحّة، ولم يكن لها أهمية عملية كبيرة. وكما قال المحترم م. كوفمان (M. Kaufmann) بسعادة، وهو أول «خبير» غير ماركسي بالماركسية: كان ماركس مجرد

منظّر لم يحاول أن يطبق عقائده[2]. وبدا، بالمقاييس الثورية أنه أقل خطراً من الفوضويين، ولذلك كان يُقابل أحياناً بالمشعوذين أكلة النار لصالحه من قِبَل بروديرك[3] (Broder-ick)، ولغير صالحه من قِبَل وليام غراهام (William Graham) من الكلية الملكية في بلفاست (Queens College, Belfast)، الذي ذكر أن للفوضويين «منهج ومنطق... يفتقر إليهما الثوريون المنافسون في مدرسة كارل ماركس والسيد هندمان[4] (Mr. Hyn-dman)». والحاصل هو أن القراء البورجوازيين فهموه بروح هادئة أو بروح الصبر المسيحي – كما في حالة المحترم كوفمان، وهي الروح التي افتقدها جيلنا، أي: «كان ماركس هيغلياً في الفلسفة وخصماً مرّاً لكهنة الدين. غير أن علينا عند تشكيل رأي في كتاباته أن لا نسمح لأنفسنا أن نكون منحازين ضد الرجل»[5]. ولا شك في أن ماركس ردّ على المديح، عندما راجع وصف كوفمان له في كتاب لاحق، وبتحريض من أحد «المعارف المشترك» غير المحدَّدة هويته[6].

وكما ذكّرنا بونار[7] (Bonar) باعتدادٍ بالنفس، أن الأدب الإنجليزي حول الماركسية أظهر روحاً هادئةً وخصبةً، مفقودة في المناقشات الألمانية حول هذا الموضوع. وكانت الهجومات قليلة على دوافع ماركس، وأصالته أو سلامته العلمية. وكان البحث في حياته وكتاباته من النوع التفسيري بشكل رئيسي، وعندما لا يوافق إنسان عليها فلأنَّ المؤلفين لم يقرؤوا أو لم يفهموا كفايةً، وليس لأنهم خلطوا الإدعاء بالشرح. ولا ريب في أن شروحهم غالباً ما كانت ناقصة. وأنا لا أظن بأي شيء وجد وكان مقارباً لموجز لا اشتراكي مفيد عن المعتقدات الرئيسية للماركسية كما نفهم اليوم، فقبل كتاب كيركب (Kirkup): **تاريخ الاشتراكية** (*History of Socialism*) (1900). غير أن القارئ يمكنه أن يتوقع أن يجد شرحاً حقيقياً عن ماركس، واستهدافه.

فيمكنه أن يتوقع أن يجد قبل أي شيء قبولاً عالمياً لمنزلته العالية. فملنر (Mil-ner) عبَّر بوضوح عن إعجابه به في محاضرات وايتشابل[8] (Whitechapel) عام 1882. ورأى بلفور (Balfour) في عام 1885، أنه أمر منافٍ للعقل وسخيف أن تقارن أفكار هنري جورج بأفكاره «سواء من حيث قوتـ(ـها) الفكرية، أم اتّساقـ(ـها)، أم سيطرتـ(ـها) المنطقية عموماً، أم في منطقـ(ـها) الاقتصادي خاصة»[9]. وجون ري (John Rae)، وهو الأذكى في «خبرائنا»[10] الأوائل نظر إليه بجدّية مساوية. وريتشارد إلاي (Richard Ely)، وهو بروفسور أميركي ذو ميول تقدمية غامضة وقد نُشر كتابه: **الاشتراكية الفرنسية والألمانية** (*French and German Socialism*) هنا في عام 1883، وذكر أن القضاة الجيدين اعتبروا كتاب: **رأس المال** «على مستوى ريكاردو» و«حول

قدرة ماركس يوجد إجماع في الرأي حولها» (ص 174). و و. هـ. دوسون[11] (W. H. Dawson) لخّص ما كان رأي الجميع، باستثناء ما قال دوهرنغ (Duehring) البائس الذي حاول نقّاد ماركس الحديثون إعادة إحيائه، وقال: «مهما كانت النظرة إلى تعليمه، لا يوجد من يتجرأ على المجادلة ضد العبقرية السيادية، والفطنة النادرة، والنقاش الوثيق، ولنضف المناظرة الحاسمة، التي عرضت في **رأسمال**»(*)

تلك الجوقة من المديح غير مستغربة عندما نتذكر أن المعلّقين الأوائل كانوا أبعد ما يكون عن الرغبة في رفض ماركس، **بكليته** (*in toto*). وكان ذلك عائداً بصورة جزئية إلى أن بعضهم وجده حليفاً مفيداً في عراكهم مع نظرية دعه – يعمل (Laissez-faire) جزئياً، لأنهم لا يقدِّرون النتائج الثورية لنظريته كلها جزئياً، لكونهم هادئين لا صخّابين، وكانوا مستعدين للنظر إليه بحسب جدارته، حتى إنهم كانوا مستعدين مبدئياً للتعلّم منه. باستثناء شيء واحد، وهو: نظرية قيمة العمل (Labour Theory of Value) أو على نحوٍ أدق، هجومات ماركس على التسويغات الجارية للربح وللفائدة. وقد تكون النار النقدية تركزت ضد هذه، لأن الاتهام الأخلاقي المتضمَّن في العبارة: «العمل هو مصدر كل قيمة» أثَّرت في المؤمنين الواثقين بالرأسمالية أكثر من نبوءة أفول وسقوط الرأسمالية. وإذا كان الأمر كذلك، فإن نقدهم لماركس كان منصباً بالضبط على أقل العناصر «ماركسيةً» في تفكيره، الذي بالرغم من كونه على صورة فجة، فإن الاشتراكيين الذين سبقوا ماركس، ولاسيما ريكاردو، كانوا قد أعلنوه. وفي كل حال، اعتبرت نظرية القيمة أنها «العمود المركزي للاشتراكية الألمانية وجميع الاشتراكيات الحديثة»[12] وحالما تسقط، ينتهي النقد الرئيسي.

ومهما يكن من أمر، أقول، إنه، باستثناء ذلك، كان الواضح هو أن لماركس مقدار جيد للإسهام، خاصة بنظرية عن البطالة التي كانت نقدية لمذهب مالثوس (Malthusianism) الفج، الذي كان لا يزال دارجاً. فآراؤه المتعلقة بالسكان و«جيش العمال الاحتياطي» لم يقتصر عرضها على أنه كان من دون نقدٍ فقط [كما عند ري]، بل كان يُستشهد بها أحياناً مع الموافقة أو التبني الجزئي لها، كما فعل المؤرخ الاقتصادي الطليعي أركديكون كننغهام (Archdeacon Cunningham)[13] – فقد قرأ كتاب: **رأس المال** في أوائل عام 1879 – ووليام سمارت (William Smart) من غلاسكو (Glasgow)،

(*) يمكن للقرّاء أن يقعوا على عدد قليل من هذه الآراء في ملحق دونا تور (Dona Torr) لطبعة **رأس المال** المجلّد الأول في عام 1938، لكن الواضح هو أنها اعتمدت على مقدار قليل من الأدب المتاح.

وهو اقتصادي آخر قامت شهرته على عمله في التاريخ الاقتصادي [**صناعة المعمل والاشتراكية** (Factory Industry and Socialism) غلاسكو، 1887]. وكذلك قوبلت آراء ماركس حول تقسيم العمل والآلات بموافقة عامة، مثلاً من قِبَل مراجع كتاب **رأس المال** في مجلة **أثينايون** (*Athenaeun*) عام 1887. وجوشوا هوبسون (Joshua Hobson) [في كتابه: **تطور الماركسية الحديثة** (*Evolution of Modern Capitalism*)، 1894] كان معجباً بها: فجميع إشاراته إلى ماركس تعلَّقت بهذا الموضوع[14]. وكذلك الكتّاب الأرثوذكسيون والمعادون، مثل: جوزيف شيلر نكلسون (Joseph Shield Nicholson) من إدنبرا[15] (Edinburgh) ذكر رأيه في هذا الموضوع والمواضيع ذات الصفات المشتركة قائلاً «إنها علمية وشاملة، وتستحق القراءة». علاوة على ذلك، فإن نظراته للأجور والتركّز الاقتصادي لا يمكن الاستغناء عنها. والحق يُقال، إن بعض المعلّقين كانوا توّاقين لتجنب رفض كلي لماركس مما جعل وليام سمارت يكتب مراجعته لكتاب **رأس المال** في عام 1887 خصيصاً لتشجيع القرّاء الذين قد نُفِّروا من نقد نظرية القيمة، ومن دراسة الكتاب، الذي اشتمل على الكثير «من القيمة الكبرى للمؤرخ وللاقتصادي كليهما»[16].

هناك كتاب دراسي ابتدائي صُمِّم لتلاميذ جامعيين هنود [وهو كتاب: **الاقتصاد السياسي** (*Political Economy*) لمؤلفه: م. بروثيرو (M. Prothero)، 1895] جمع بشكل معقول ما رآه غير الماركسيين في ماركس، فظهر أنهم جاهلون. لذا، كانوا يعكسون الآراء الجارية، وليس الدراسة الفردية. وقد أبرزت ثلاثة أشياء، هي: نظرية القيمة، ونظرية البطالة، وإنجاز ماركس بوصفه مؤرخاً، وكان أول ما أشير إليه هو أن «البنية الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي الحالي نشأت من البنية الاقتصادية للمجتمع الإقطاعي» (ص 43). والواقع هو أن ماركس كان له أعظم وقع كمؤرخ، وفي أوساط الاقتصاديين عبر مقاربته التاريخية لموضوعهم. (ولم يكن له تأثير في المؤرخين المهنيين غير الاقتصاديين في إنجلترا الذين كانوا لا يزالون غارقين في وتيرة التاريخ الدستوري، والسياسي، والدبلوماسي والعسكري). وبالرغم من الكتّاب الحديثين، فالواقع أنه لا يوجد نزاع بين قرائه، حول مسألة نفوذه. وفوكسوِلْ (Foxwell) الأكاديمي المضاد للماركسية والذي كان مّراً في عدائه كما كان يوجد في ثمانينات القرن التاسع عشر، جاء على ذكره في عداد الاقتصاديين الذين «أثَّروا كثيراً في التلاميذ الجدّيين في هذه البلاد»، وفي عداد الذين أنتجوا تقدّماً ملحوظاً في «الشعور التاريخي» في تلك الفترة[17]. وحتى الذين رفضوا نظرية القيمة الغريبة الخاطئة في رأيي والموجودة في كتاب: **رأس المال** شعروا أن الفصول التاريخية يجب الحكم عليها حكماً مختلفاً[18]. فقليل هم الذين شكروا

حافز ماركس إذ لم يشكر إلا نفرٌ قليل، «بأننا الآن بدأنا نرى الأقسام الكبيرة من التاريخ التي لا بدَّ من إعادة كتابتها في هذا الضوء الجديد»[19]، طبعاً مع تجاهل البرهان الذي قدّمه البروفسور تريفور - روبر والمفيد أن الحافز لم يكن من ماركس، بل كان من آدم سميث، أو هيوم، أو توكوفيّ (Tocqueville) أو فَستل دو كولانج (Fustel de Coulanges). ولم يكن عند بوزانكية[20] (Bosanquet) أي شك بأن «النظرة الاقتصادية أو المادية للتاريخ» «مرتبطة بشكل رئيسي باسم ماركس» بالرغم من «إمكانية شرحها بآراء بَكِلْ (Buckle) ولوبلاي (Le Play) المنازعة». وبونار[21]، بالرغم من أنه ينفي تحديدياً أن يكون ماركس ابتدع المادية التاريخية - ويضرب على ذلك مثلاً هو هارنغتون (Harrington) المفكر في القرن السابع عشر، بوصفه الطليعي[22] - فإنه مع ذلك لم يسمع من قبل بالآراء الماركسية التاريخية الآتية التي تدهشه، وهي: أن «الإصلاح ذاته يعود إلى سبب اقتصادي، **الحملات الصليبية** إلى مجاعات الفلاحين في زمن الإقطاع، ونشوء الأسرة إلى أسباب اقتصادية، وإن وصف ديكارت الحيوانات بأنها آلات يمكن ربطه بنمو «نظام المعامل»[23].

من الطبيعي أن يكون تأثيره ملاحظاً بشكل أكبر في أوساط المؤرخين الاقتصاديين باستثناء ثورولد روجز الذي يمكن اعتباره ضيق الأفق كلياً بوحيه. وكما كنا رأينا، قرأه كتجهام في كامبردج، بتعاطف منذ أواخر سبعينات القرن التاسع عشر. ورجال أكسفورد عرفوه قبل أن يكون هناك مجموعات ماركسية إنجليزية - وقد يكون مردّ ذلك إلى وجود تقليد ألماني أقوى عند الهيغليين المحليين - باستثناء نقد توينبي (Toynbee) الوحيد والعرضي لتاريخه [كتاب: **الثورة الصناعية** *The Industrial Revolution*) والذي كان خاطئاً[24]. وجورج أنِون (George Unwin)، الذي قد يكون أكثر مؤرخ اقتصادي إنجليزي تأثيراً في جيله، بحث في موضوعه عبر ماركس، أو داحض لآراء ماركس عند أي حد. غير أنه لم يخالجه أي شك بأن «ماركس كان يحاول الوصول إلى أنواع التاريخ الصحيحة. فالمؤرخون الأرثوذكسيون تجاهلوا جميع العوامل الأكثر أهمية في عملية التطور الإنساني»[25].

كما لم يكن هناك خلاف حول إنجازه كمؤرخ للرأسمالية. (ووجهات نظر حول الفترات الزمنية السابقة، وجدها المراجع في مجلة **أثينوم** (*Athenaeum*) «غير مقنعة وسطحية»، وجرت العادة على إهمالها، والواقع هو أن معظم aperçus(*) ليست

(*) التعليق أو حرف يشير أو يلقي الضوء على نقطة معينة (المراجع).

متاحة لجمهور واسع بعد». حتى أكثر نقد إنجليزي موسَّع ومعادٍ لفكره - نعني كتاب روبرت فلِنتْ (Robert Flint) **الاشتراكية** (*Socialism*) (1895، والمكتوب بصورة رئيسية ما بين عامي 1890 و1891) يقر بما يأتي: «المكان الذي أبلى فيه ماركس بلاءً لا يُنسى بوصفه مؤرخاً تاريخياً، هو في تحليله للعصر الرأسمالي وتأويله له، وهنا لا بدَّ من التسليم بأنه قدَّم خدمةً بارزةً، حتى من قِبَل الذين اعتبروا تحليله يتصف بالمصقولية أكثر من اتصافه بالصحة، وتأويلاته أكثر عبقريةً من كونها صادقة»[26].

كان فلِنتْ وحيداً، لا في عدم ثقته «بالميل المبالغ في صقل التفكير» (**أثينوم**) 1887، ولا في قبوله بأهليّة ماركس كمؤرخ للرأسمالية، خاصة رأسمالية القرن التاسع عشر. والممارسة الحديثة تلقي ظلالاً من الشك على علمه وعلم إنجلز، وعلى استقامة وأمانة الرجلين واستعمالهما للمصادر [انظر **الرأسمالية والمؤرخون** (*Capitalism and Historians*) والانتقادات الأخيرة لإنجلز من قِبَل و. هـ. تشالونر (W. H. Chaloner) وو. أو. هِندرسون (W. O. Henderson)]، لكن المعاصرين نادراً ما سيروا هذه الجادّة من النقد إذ بدا له واضحاً أن الشرور التي هاجمها ماركس بولغ في وصف حقيقتها ليس إلاّ - وكان كوفمان يتوجّه إلى كثيرين، عندما قال «بالرغم من أنه عرض لنا بشكل ممتاز الجانبَ المرعب للحياة الاجتماعية المعاصرة، فإنه لا يمكن اتهامه بالتحريف المتعمد [**الطوباويات**، ص 225]. أما لويلَن سميث (Liewellun Smith) فقد شعر بأن «ماركس، بالرغم من تلوينه صورته بشكل قاتم، إلا أنه قدَّم خدمة جليلة بتوجيهه الانتباه إلى السِّمات القاتمة للصناعة الحديثة التي لا يجدي نفعاً أن نغلق عيوننا أمامها»[27]. «ورأى شيلد نيكولسون[28] أن بحثه كان مبالغاً فيه من بعض النواحي، لكن بعض الشرور بلغ من الهول أن جعل المبالغة في وصفها تبدو مستحيلة». وحتى أعنف هجوم على **صدقه** (*bona fides*) كعالم لم يتجرأ على القول إن ماركس سوَّد صورة بيضاء أو رماديّة، بل أبقاها سوداء كما كانت الوقائع، واشتملت أحياناً على «خطوط فضية» من الدليل لم يعرها ماركس انتباهاً[29].

هل غابت نبرة القلق الهستيري الحديثة من النقد البورجوازي الأولي لماركس؟ كلا. فمنذ اللحظة التي ظهرت فيها حركة اشتراكية ذات وحي ماركسي في بريطانيا، بدأ بالظهور نقد لماركس ذو طابع حديث، سعى إلى إضعاف الثقة ودحض الماركسية واستبعاد فهمها. وبعضه ظهر في أعمال قاريّة أوروبية ترجمت إلى اللغة الإنجليزية: خاصة منذ أواسط الثمانينات. فالكتابات القاديّة الأوروبية تمَّت ترجمتها، الآن، - كتاب لافيلي (Laveleye): **الاشتراكية اليوم** (*Socialism of Today*) (1885)، وكتاب سكيفل

(Schaeffle): **جوهر الاشتراكية** (*Quintessence of Socialism*) (1889). غير أن نقد الماركسية المزروع في الوطن، بدأ يطل بأوراقه الأولى أيضاً، خاصة في جامعة كامبردج (Cambridge)، التي كانت المركز القيادي للاقتصاد الأكاديمي. وكما رأينا، كان أول هجوم خطر على علم ماركس صدر عن رؤساء الكليات في كامبردج أو المدرسين فيها في عام 1885 [تانر (Tanner) وكاري (Carey)، مع أن لويلَن سميث من جامعة أكسفورد - التي كانت مكاناً أقل «عدائية لماركس» في تلك الأيام - لم ينظرا إلى النقد نظرة مأساوية فاجعة، فقد اكتفيا بملاحظة - بعد سنوات قليلة - أن «استشهادات (ماركس) المستمدة من الكتب الزرقاء(*) (Blue Books) كانت مهمة جداً وتعليمية، وإن لم تكن موثوقةً دائماً»[30]. فنبرة النفي لافتة وليس محتوى ذلك الكتاب، نعني: عبارات من قبيل «التعابير الجبرية (Algebraical)» الهجينة في كتاب: **رأس المال** أو «التهوّر الإجرامي في استعمال المراجع مما يجيز لنا أن ننظر إلى أقسام أخرى من كتابات ماركس بالريبة[31]، كل ذلك يدل - على الأقل في المواضيع الاقتصادية - على ما يزيد على مجرد عدم موافقة علمية - والواقع هو أن ما جعل تانر وكاري يفقدان صوابيهما لم يكن مجرد تناوله الدليل، ولكن «عدم الإنصاف في موقفه كله تجاه رأسمال»[32] - ونذكر أنهما ابتعدا عن «تهمة التحريف المتعمَّد... خاصة أن التحريف غير لازم» (أي، لأن الوقائع سوداء بما يكفي). فالرأسماليون كانوا ألطف من أن يحتاجوا لأن يذكر لهم ماركس فضلاً، فيجب أن تصفه. ذلكم بشكل واسع كان أساس موقف النقّاد.

وفي ذات الوقت، أنشأ فوكسوِلْ من كامبردج خطأً صار مألوفاً، الآن، مفاده أن ماركس كان مزهوّاً بنفسه وذا موهبة الثرثار، الذي لا يمكنه توسّل سوى غير الناضجين من المفكرين خاصة رجل يجب أن يقرن مع هنري جورج (Henry George) - بالرغم من تحذير بلفور، أي: «كتاب **رأس المال** محسوب ليلائم حماس الهواة الذين تربّوا على إدراك حالة الفقراء المؤلمة ليثوروا عليها، وليس للصابرين وأقوياء العقول المدرَّبين على إدراك الخواء الكلي للعلاجات المشعوذة التي تُقدم بخطاب وبفعالية»[33]. فالهادي غير الصبور أو قوي العقل، والخواء الكلي، الشعوذة، والخطابية، أي الحمل العاطفي يتراكم على معجم الناقد. كما أننا مدينون لفوكسوِلْ [عبر مِنجر (Menger) النمساوي] تعميم اللعبة الداخلية الأهلية (Parlour-Game) المفيدة بالهجوم على أصالة ماركس، واعتباره نهّاباً لتومبسون، وهودجسكن، وبرودون، ورودبيرتوس، أو

(*) الكتب الزرقاء: تعني دليلاً أو سجلاً بأسماء الأعلام والمشاهير (المترجم).

أي من الكُتّاب الأوائل الذي قد يخطرون في بال الناقد. وكتاب مارشال (Marshall): المبادئ (*Principles*) (1890) تناول ذلك في هامش مع أن الإشارة البارزة إلى برهان مِنجر عن افتقار ماركس للأصالة التي حذفت بعد الطبعة الرابعة (1898). والنظرة التي تقول إن رودبرتَسْ وماركس – وغالباً ما يقرن الاثنان معاً – قد أجريا «مبالغات أو استدلالات، بشكل رئيسي، من نظريات اقتصاديين أوائل»[34] أو من مفكر آخر سابقٍ قال «أراد ماركس أن يقول عن التاريخ سابقاً وبشكل أفضل كثيراً»، كل ذلك يدخلنا في عالم مألوف – رودبرتَسْ [كتاب إي. س. ك. جونر (E. C. K. Gonner)]: رودبيرتوس، (1899) أو أوغست كونت (Auguste Comte) (فلِنتْ، المرجع نفسه). ومارشال نفسه، الذي كان أعظم الاقتصاديين في جامعة كامبردج، أظهر عن جمعه المألوف لعداوة عاطفية ملحوظة ضد ماركس، وطريقة غير مباشرة واضحة(*) غير أن الذي كان هو جذور وفروع المعادين للماركسية، وبصورة إجمالية، ظلت تمثِّل أقلية في القرن التاسع عشر، وظلَّت منذئذٍ ولجيل كامل تميل إلى اتّباع خط مارشال الذي قوامه السخرية العَرَضية، وليس الهجوم الشامل. وذلك لأن الماركسية فقدت ذلك التأثير الذي يثير النقاش.

والغريب كفايةً هو أن النمط الهادئ للنقد الماركسي برهن عن تأثير أكبر من النمط الهستيري. فهناك عدد قليل من الانتقادات ضد ماركس كان له تأثير أكبر من مقالة فيليب ويكستيد (Philip Wicksteed): **رأسمال – نقد** (*Das Kapital-a Criticism*) التي ظهرت في مجلة **اليوم** (*To – Day*) الاشتراكية، في شهر تشرين الأول/أكتوبر، 1884. فقد كتبت بتعاطف وكياسة، وبتقدير كامل لذلك «الكتاب العظيم»، وذلك «القسم المدهش» الذي بحث فيه ماركس موضوع القيمة، و«ذلك المنطقي العظيم»، وحتى «الإسهامات ذات الأهمية الكبرى» التي رأى ويكستيد أن ماركس وضعها في القسم الأخير من المجلَّد الأول. غير أنه، مهما يكن رأينا في المقاربة الهامشية المحصنة لنظرية القيمة، فإن مقالة ويكستيد أسهمت في خلق الشعور الخاطئ في أوساط الاشتراكيين المفيد بأن نظرية القيمة عند ماركس لم يكن لها صلة بالتسويغ الاقتصادي للاشتراكية أكثر مما خَلَق النقد الساخر العنيف والعاطفي الذي قام به فوكسول أو فلنت («أعظم إخفاق في تاريخ الاقتصاد»). وفي مجموعة هامبستيد البحثية التي ناقش

(*) نوقشت آراؤه بتوسّع في **ملاحظة** خاصة، أدناه (المؤلف).

فيها كتاب: **رأس المال** كلٌّ من ويكستيد، وإدغوورث[*] (Edgeworth) – وهو هامشي آخر تجنَّب العاطفية – وبرنارد شو (Bernard Shaw)، ووِبْ، ووالاس (Wallas)، وأوليفيه (Olivier) وآخرين قيل إن الكثير من **المقالات الفابية** (*Fabian Essays*) كان ناضجاً. وإن كان سدجوك، بعد سنوات قليلة، قد تمكن من الكلام في ماركس واصفاً حالته «بالتشوش الأساسي... التي، كما أظن أن القارئ الإنجليزي لا يحتاج لأن يصرف وقتاً في فحصه لأن أقدر الاشتراكيين الإنجليز وأكثرهم نفوذاً هم الآن مهتمون لوضعه في مرسى واسع»[35]، ولم يكن ما فعلوه عائداً إلى سخريات سدجوك، بل لحجة ويكستيد، وقد نضيف ونقول، ربما كان عائداً إلى عجز الماركسيين البريطانيين عن الدفاع عن الاقتصاد السياسي الماركسي ضد نقّاده. فمازال العمال يؤكدّون على الماركسية، وثاروا ضد WEA السابق، لأنهم لم يدرسوها. وعندما تثبت الأحداث أن ثقة نقّاد ماركس بنظرياتهم هي في غير موضعها أو هي متطرفة، يمكن للماركسية أن تنبعث فيها الحياة من جديد، كقوة أكاديمية. وليس ثمّة احتمال بأن تختفي من المشهد الأكاديمي من جديد.

(*) إدغوورث، الذي لم يكلّف نفسه عناء درس ماركس، بجدية، يبدو أنه شارك في رفض اقتصاديي جامعة كامبردج لماركس وبغضه له (**الأوراق المجموعة**، III (*Collected Papers, III*)، ص 273 وما يليها، في مراجعة مكتوبة في عام 1920). ومهما يكن من أمر، لا وجود لدليل يفيد أنه عبَّر عن هذه النظرة، بشكل عمومي، في القرن الماضي (المؤلف).

ملاحظة

مارشال وماركس

بدا مارشال أنه ابتدأ دون أي آراء حول ماركس. وكانت الإشارة الوحيدة، في كتاب: **اقتصاد الصناعة** (*Economics of Industry*) (1879) محايدة، وفي الطبعة الأولى لكتاب: **المبادئ**، هناك إشارات (ص 138) إلى أن الخطر على الرأسمالية من هنري جورج أقلقه أكثر من الخطر من ماركس. وكانت الإشارات إلى ماركس في كتاب: **المبادئ** كالآتي: **(1)** نقد «لنظريته الاعتباطية» المفيد أن الرأسمال ليس إلاّ ذلك الذي «يعطي مالكيه فرصة نهب الآخرين واستغلالهم» (ص 138) (وبدءاً من الطبعة الثالثة – 1895 – حُوِّل هذا وطُوِّر). **(2)** يجب أن يتجنب الاقتصاديون كلمة «تقشف»، ويختاروا بدلاً منها شيئاً من قبيل «الانتظار» – فعلى الأقل، هكذا أفسِّر إضافة ملاحظة على الهامش حول هذه المسألة – «فكارل ماركس وأتباعه وجدوا تسلية كبيرة مضحكة في تأمل تراكم الثروات الناجم عن تقشف بارون روثتشلد (Baron Rothchild)» (ص 290). (وقد أسقطت هذه الإشارة من فهرس الطبعة الثالثة، وإن لم تسقط من نصّ الكتاب). **(3)** أن روبرتَسْ وماركس لم يكونا أصيلين بنظريتهما اللتين تزعمان أن «دفع الفائدة هو سرقة العمال»، وقد انتقدا بوصف حجتهما بأنها حجة قائمة على الدور (Circular)، بالرغم من كونها واحدة «مغطاة بعبارات هيغلية ملغزة كانت تبهج ماركس (ص 619 – 620)» (وفي الطبعة الثانية جرت محاولة لاستبدال الصورة الكاريكاتورية السابقة لنظرية الاستغلال عند ماركس بملخص عنها (1891)). **(4)** دفاع عن ريكاردو ضد تهمة كونه منظراً لنظرية قيمة العمل، كما جرى الزعم الخاطئ من قِبَل غير ماركسيين من ذوي المعلومات الباطلة، وليس من قِبَل ماركس وحده.

(وقد بسط هذا الدفاع بشكل متزايد في الطبعات اللاحقة). ويمكن التذكّر أن مارشال كان معجباً كثيراً بريكاردو فلا يودّ اعتباره جَداً للمنظِّرين الاشتراكيين، مثل عدد كبير من الاقتصاديين الآخرين - فوكسوِلْ، على سبيل المثال - الذين كانوا مستعدين أن يكونوا كذلك. غير أن مهمة إظهار أن ريكاردو لم يكن منظراً عمالياً معقَّدة، كما يبدو وأنه قدَّر ذلك. لذا، فإننا لا نذكر، أن جميع إشارات مارشال إلى ماركس كانت نقدية أو هجومية عنيفة - إذ كانت الفضيلة الوحيدة التي أجازها له فحسب، لأنه عاش في زمان سابق للفرويدية، وكان وصفه بالقلب الطيّب - لكن أيضاً نقول إن نقده كان قائماً على دراسة تفصيلية قليلة لكتابات ماركس، وأقل مما يتوقع أحدنا أو مما قام به اقتصاديون أكاديميون معاصرون شهيرون.

الفصل العاشر

تأثير الماركسيّة 1880-1914

عرَّف مؤرخو الماركسية بشكل عام موضوعهم عبر أسلوب الاستبعاد. فمنطقتهم حُدِّدت من قِبَل غير الماركسيين، وهذا هو الذي صنف الماركسيين العقيديين واللاماركسيين الملتزمين لجعلها أوسع ما يمكن على أسس أيديولوجية وسياسية. وحتى المؤرخون واسعو الإدراك والعالميون احتفظوا بفصل حادّ بين «الماركسيين» وغير الماركسيين، حاصرين انتباههم بالصنف الأول بالرغم من استعدادهم أن يشملوا عدداً واسعاً منهم بحسب الإمكان. والحق يُقال، إن واجبهم أن يفعلوا ما فعلوا، لأنه، إذا لم يكن هناك مثل ذلك الفصل، فإن تاريخاً خاصاً بالماركسية لا يعود بحاجة لأن يُكتب، وقد لا يمكن كتابته. ومع ذلك، فقد حثَّهم على كتابة تاريخ الماركسية حصرياً بوصفه أنه تاريخ تطور النظرية الماركسية والنقاشات داخلها، وأن يهملوا منطقة الإشعاع الماركسي، وإن لم يكن من السهل تحديدها. وهذا لا يمكن إهماله من قِبَل مؤرخي العالم الحديث المتميّز عن الحركات الماركسية. فتاريخ «الداروينية» لا يمكن حصره بالدارويني أو بأي بيولوجي. فلا يمكنها إلاّ أن تعتبر، ولو هامشياً فقط، استعمال الأفكار الداروينية، والاستعارات، وحتى العبارات التي صارت جزءاً من عالم الناس الفكري الذي لم يسبق لهم أن فكروا بحيوانات جزر جالاباغوس (Gala-pagos)، أو بالتعديلات الدقيقة المطلوبة في نظرية الانتقاء الطبيعي التي أجراها علماء الوراثة الحديثون. ومثل ذلك تجاوز تأثير فرويد بعيداً مدارس التحليل النفسي المتفرقة والمتنازعة، أو تجاوز حتى الذين قرؤوا سطراً كتبه المؤسس. وماركس مثل داروين وفرويد ينتمي إلى صنف المفكرين القليل العدد الذين دخلت أسماؤهم وأفكارهم

بشكل أو بآخر الثقافة العامة للعالم الحديث. هذا التأثير للماركسية في الثقافة العامة بدأ الشعور به في زمن الأممية الثانية، ونقول ذلك بكلام واسع إن الفصل الحالي هو محاولة لتغطيته بنظرة شاملة.

إن التوسّع الدراميتكي لحركات العمال والحركات الاشتراكية المرتبطة باسم كارل ماركس في عام 1800 كان لا بدّ له من نشر تأثير نظرياته (أو ما اعتبر نظرياته) داخل تلك الحركات وخارجها. فداخلها «الماركسية» أصل المصطلح وتطوره يبحثان في مكان آخر - تنافست مع أيديولوجيات أخرى لليسار، وحلّت محلها في أقطار عدة رسمياً على الأقل. وخارجها، عمل وقع «المسألة الاجتماعية» والتحدّى المتنامي للحركات الاشتراكية على جذب الانتباه إلى أفكار المفكّر الذي ازدادت مطابقة اسمه بها، وكانت أصالتها ومنزلتها الفكرية المؤثِّرة الرائعة واضحتين. وبالرغم من المحاولات النقدية العنيفة للبرهان على أن تكذيب ماركس كان سهلاً، وأنه لم يقل ما يزيد على ما قال الاشتراكيون ونقّاد الرأسمالية - أو حتى قيل إنه انتحل أفكارهم - فإن اللاماركسيين الجدّيين لم يقترفوا مثل ذلك الخطأ الابتدائي[1]. وبمقدار ما، وُظِّف تحليله لتكملة التحليلات الماركسية، كما حصل عندما وعى بعض الاقتصاديين البريطانيين، في ثمانينات القرن التاسع عشر نواقص نظرية مالثوس (Malthus) الأرثوذكسية الخاصة بالبطالة، واهتموا اهتماماً إيجابياً عاماً بنظرات ماركس إلى «جيش العمال الاحتياطي»[2]. وطبعاً، لم يكن مثل تلك المقاربة غير العاطفية ممكناً في أقطار حيث لم تكن حركات العمال ذات الوحي الماركسي تافهةً بمثل ما كانت عليه في بريطانيا في ذلك الزمان. وكان ثمّة شعور ملّح بالحاجة إلى تحريك نوع من المدفعية الثقيلة نحو مؤلف المفكرين الأكاديميين لدحضه، أو لفهم طبيعة دعوته في أفول الأحوال. ومن هنا نرى ظهور كتابات ذات معرفة واسعة ووزن كبير، في ألمانيا والنمسا، في منتصف أواخر تسعينات القرن التاسع عشر، مخصَّصة لذلك الغرض، نذكر منها: كتاب بوم بورك (Böhm-Bawerk) **نهاية الأنظمة الماركسية** (*Das Ende des Marxschen Systems*) (1896)، كتاب رودولف ستاملر (Rudolf Stammler): **الاقتصاد والعدالة بحسب فهم المادّية للتاريخ** *Wirtschaft und Recht nach Materialistischer Geschichtsauffassung* وكتاب هنريخ هيركنر (Heinrich Herkner): **المشكلة العمّالية** (*Die Arbeiterfrage*) (1896)[3].

ثمّة شكل آخر من التأثير الماركسي خارج حركات العمال والحركات الاشتراكية، وقد مورست عبر شبه الماركسيين والماركسيين السابقين الذين ازداد عددهم منذ زمن

«أزمة الماركسية» في أواخر تسعينات القرن التاسع عشر. وتلك كانت الحقبة الزمنية عندما كنا نرى مولد الظاهرة المألوفة، ظاهرة الماركسية كمرحلة مؤقتة من مراحل تطور الرجال والنساء السياسي والفكري، وكما نعرف يندر أن لا يكون الذين مرّوا في مثل تلك المرحلة موسومين بتلك الخبرة. وليس على المرء إلاّ أن يذكر أسماء مثل غروشي (Groce) في إيطاليا، وستروف (Struve)، وبيرديابيف (Berdyayev)، توغان - باراناوسكي (Tugan-Baranowsky) في روسيا، وفيرنر سومبارت (Werner Som-bart) وروبرت مايكلز (Robert Michels) في ألمانيا، أو في ميدان أكاديمي أدنى - هناك برنارد شو في بريطانيا، كل ذلك بغية تقدير قيمة وزن ذلك الجيل الأول من الماركسيين السابقين في تلك الحقبة. ولا بدّ للمرء أن يضيف إلى الشيوعيين السابقين العددّ المتزايد من أولئك الذين، رغم عدم رغبتهم في قطع روابطهم بالماركسية، زاد ابتعادهم عما صار، الآن أرثوذكسية محدَّدة تحديداً قوياً، والذين لم يكونوا ماركسيين كانوا كذلك لأنهم بشكل رئيسي وقفوا مع اليسار الاشتراكي المجذوب من بعض نواحي أفكار ماركس.

تلك الأشكال من إشعاع الماركسية وُجدت بمقدار كبير أو قليل، حيث نشأت وتطورت حركات العمال والحركات الاشتراكية في تلك الحقبة الزمنية، نعني في معظم أوروبا وبعض مناطق عبر البحار التي يقيم فيها بشكل رئيسي أو واسع مهاجرون أوروبيون. وخارج مجال مثل تلك الحركات ندر وجود إشعاع الماركسية في تلك الحقبة باستثناء اليابان[4]، وهذا استثناء ممكن لكنه هامشي. ولا يوجد دليل يثبت وجود حركات ثورية قبل عام 1914 في الهند، بالرغم من أن تلك الحركات لم تكن منفتحة فقط للتأثيرات الفكرية البريطانية (وهذا أمر واضح)، وإنما للتأثيرات الروسية أيضاً، هذا بالرغم من أن الجمهور الذي انطلق منه إرهابيو البنغال قبل فترة عام 1914 على سبيل المثال، عبَّر عن نفسه بأنه كان محتفياً بالماركسية بشكلٍ عالٍ. ولم يوجد شيء في العالم الإسلامي، وفي الفرع الإفريقي الصحراوي، باستثناء «المخروط الجنوبي» (Southern Cone) في أميركا اللاتينية. لذا، يمكننا أن نهمل جميع تلك المناطق.

ومن ناحية أخرى نقول، كان إشعاع الماركسية مهماً وعاماً في بعض أقطار أوروبا حيث كان كل التفكير الاجتماعي بغض النظر عن علاقته السياسية بالحركات الاشتراكية والعمالية موسوماً بتأثير ماركس، الذي لم يكن هناك بوصفه متحدّياً للأرثوذكسيات البورجوازية المقبولة (التي لم تكن موجودة)، وإنما بوصفه أحد الآباء المؤسسين الرئيسيين لأي نوع من تحليل المجتمع وتحوّلاته. تلك كانت الحالة في أجزاء من أوروبا الشرقية، خاصة في روسيا القيصرية. وفي تلك الأقطار لم يكن هناك سبيل

لتجنب ماركس، إذ سبق له أن شكل جزءاً من النسيج العام للحياة الفكرية. ولا يعني هذا أن جميع الذي خضعوا لتأثيره، اعتبروا أنفسهم، أو يمكن اعتبارهم، ماركسيين بأي معنى محدَّد.

II

بالرغم من أن الحقبة الزمنية التي تناولها هذا الفصل لا تزيد على ثلاثين سنة، فإنه لا يمكن دراستها كوحدة مفردة. لذا، يمكن تمييز ثلاث فترات فرعية رئيسية. كانت الأولى عند نشوء أحزاب اشتراكية وعمّالية ذات توجّه ماركسي، في أوقات مختلفة، في ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر، خاصة القفزة الواسعة إلى الأمام لتلك الحركات في السنوات الخمس أو الست الأولى للأمميّة. ولم يكن المهم في تلك الفترة قوة تلك الحركات التنظيمية الانتخابية أو النقابية، بالرغم من ظهورها عظيمة جداً في أغلب الأحيان، وإنما وجودها المتزايد المفاجئ في المشهد السياسي لأقطارها، ودولياً (عبر مبادرات مثل الأول من أيار/ مايو)، فضلاً عن الأمل الملفت للنظر في بعض الأحيان الموجه بصورة كوباوية نحو الطبقة العاملة، التي تبدو أنها في تصاعد. وكانت الرأسمالية في أزمة: فنهايتها بدت مرئية، بالرغم من عدم تصوّرها بأي شكل محدَّد دائمًا. فاختراقات الماركسية للحركات العمالية – والحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني صارت رسمياً ملتزماً بها في عام 1891 – وإشعاعها الإيجابي والسلبي الذي تعدّى مجال تلك الحركات صنعاً تقدّماً لافتاً في عددٍ من الأقطار.

وابتدأت الفترة الفرعية الثانية في منتصف عام 1890، عندما صار واضحاً عودة التوسع الرأسمالي العالمي إلى الحياة. وبالرغم من التموّجات، فإن الحركات العمالية الاشتراكية حيثما وجدت استمرت في النمو السريع، والواقع هو أن الحركات الجمهورية أو الحركات ذات التنظيم الثابت نسبياً في بعض الأقطار ظهرت إلى الوجود خلال تلك المرحلة، هذا بالرغم من الوضوح المتزايد في تلك المناطق حيث كانت شرعية، وأن الثورة أو التحوّل الاجتماعي الكلّي لم يكن هدفها المباشر «فالأزمة في الماركسية»[5] التي لاحظها المراقبون منذ عام 1898 لم تكن متمثّلة في الجدل حول ذلك البرهان المفيد أن الرأسمالية ما تزال مزدهرة فحسب، وأثره الدلالي في النظرية الماركسية – وهو الجدل «التعديلي» – ولكنه يعود أيضاً إلى ظهور مجموعات ذات مصالح مختلفة جداً داخل ما ظهر حديثاً بأنه اندفاع وحيد إلى الأمام خاص بالاشتراكية، مثلاً، الانقسامات القومية داخل مثل تلك الحركات، كالنمساوية، والبولندية والروسية. ولا شك في أن ذلك

حوَّل طبيعة النقاشات الجدلية داخل الماركسية والحركات الاشتراكية، ووقع الماركسية خارجها.

قدمت الثورة الروسية الفترة الفرعية الثالثة، التي يمكن القول إنها انتهت في عام 1914. وقد سادتها من جهة انبعاث الأعمال الجمهورية الكبيرة في أعقاب ثورة عام 1905، إذ بعد ذلك جاءت سنوات قليلة من اضطراب العمال الذي ملأ الأعوام الأخيرة قبل الحرب العالمية الأولى، ومن جهة أخرى، سادها الانبعاث المقابل لليسار الثوري داخل الحركات الماركسية وخارجها [النقابيّة (Syndicalism) الثورية]. وفي ذات الوقت، استمر ميزان الحركات العمالية الجمهورية المنظَّمة في الصعود. فبين عام 1905 وعام 1913 تضاعف عدد أعضاء النقابات الديمقراطية الاجتماعية في الأقطار التي كانت تغطيها نقابة أمستردام الدولية، فصعد العدد من أقل من ثلاثة ملايين إلى حوالي ستة ملايين[6]، وكان حزب الديمقراطيين الاجتماعيين الحزب الأكبر الوحيد الذي يحوز على 30٪ و 40٪ من الأصوات في ألمانيا، وفنلندا والسويد.

الانشغال بالماركسية خارج الحركات الاشتراكية زاد بشكل طبيعي. وهكذا نجد أن كتاب ماكس فيبر: **أرشيف العلوم الاجتماعية والسياسية الاجتماعية** (*Archiv für Sozialwissenschaft und Sozialpolitik*) نشر أربع مقالات حول الموضوع بين عام 1900 وعام 1904 فحسب، لكنه نشر خمس عشرة مقالة بين عام 1905 وعام 1908، في حين نجد أن عدد الأطروحات الأكاديمية الألمانية عن الاشتراكية، وطبقة العمال، ومواضيع شبيهة ارتفع من معدّل أطروحتين أو ثلاث في العام في تسعينات القرن التاسع عشر إلى معدّل سنوي بلغ معدل أربع أطروحات في 1900 – 1905، و10,2 في 1905 – 1909 و19,7 في 1909 – 1912[7]. ولّما لم تكن الحركة الثورية في ذلك الوقت متطابقة مع الماركسية – إذ كانت هناك النقابية الثورية وأشكال أخرى للثورة أقل تحديداً وكلها تتنافس مع الماركسية في السنوات الأخيرة التي سبقت الحرب – فإن وقع الماركسية على المتعاطفين الممكنين معها وعلى النقّاد كان معقَّداً ومن الصعب تعريفه. مع ذلك، فقد كان توزّعها واسعاً أكثر من ذي قبل بشكلٍ أو آخر، ولم يكن ذلك عبر كتابات عدد كبير من الماركسيين السابقين فحسب، أو عبر الذين شعروا أن عليهم أن يؤسسوا مركزهم بالنسبة للماركسية.

III

إذا كان علينا أن نتتبع تأثير الماركسية بدقة أكبر، لا بدَّ لنا من النظر في متغيّرين رئيسيين اثنين، بالإضافة إلى مجرد حجم (وبالتالي الحضور السياسي) العمال والأحزاب الاشتراكية، أي: مقدار ما كانت ماركسية هي، ومقدار جذبها للطبقة أكثر من كل ما له علاقة بالنظريات والمفكرين.

فالحركات العمالية كانت متطابقة رسمياً مع الماركسية أو أنها صارت كذلك، أو ارتبطت بأيديولوجيات ثورية أو شبيهة أخرى من النوع الاشتراكي، أو النوع غير الاشتراكي بصورة جوهرية. وبشكل واسع نقول، إن معظم الأحزاب ذات الأعضاء في الأممية الثانية، التي كانت بقيادة (SPD)، كانت من النمط الأول، بالرغم من أن هيمنة الماركسية داخلها عتَّم على وجود تأثيرات أيديولوجية عديدة أخرى. ومع ذلك، وجِدت بعض الأحزاب الفرنسية التي كانت مصبوغة بتقاليد أقدم ووطنية، وبعض لم يكن مشوباً بمسحة من تأثير ماركس. وفي حين كانت هناك أقطار، وُجِدَ فيها اليسار الاشتراكي مثل تلك الأحزاب، وبشكل عام كانت في أقطار أخرى أيديولوجيات وحركات نافستها.

على كل حال، كان للتأثير الماركسي في الأيديولوجيات المنافسة لليسار، باستثناء بعضها الذي كان قومياً بشكل مسيطر، بعض الفرصة للاختراق، ويعود ذلك جزئياً (إلاّ إذا كانت هناك أسباب خاصة مضادة) إلى الارتباط بأعظم مُنظِّرٍ للاشتراكية له قيمة رمزية معينة، في حين أن السبب الرئيسي يعود إلى أن تحليلهم لما كان خطأً في المجتمع كان تحليلاً فقيراً بالمقارنة مع أفكارهم الخاصة بطريقة تحقيق الثورة وأفكارهم عن المستقبل الما بعد الثوري، مع أنها غامضة. وإن الأيديولوجيات الرئيسية التي تعنينا هنا بالإضافة إلى القومية بشكل رئيسي (التي بدورها اخترقت الماركسية)، نذكر الفوضوية والنقابية الثورية التي هي اشتقاق جزئي منها، والميول **النارودنيكية**، وطبعاً التقليد الجاكوبيني والراديكالي خاصة، في شكله الثوري. ومنذ منتصف تسعينات عام 1890 وما بعده، يقتضي توجيه بعض الانتباه أيضاً إلى حركة إصلاحية اشتراكية لا ماركسية كان مركزها الفكري الرئيسي الجمعية الفابية البريطانية (British Fabian Society). وبالرغم من كونها صغيرة، فقد مارست بعض التأثير الدولي، ولم يكن ذلك عبر المقيمين الأجانب المؤقتين الذي تأثروا بها – وأبرزهم إدوارد بيرنشتاين – فحسب، بل أيضاً عبر الروابط الثقافية بين بريطانيا ومناطق مثل هولندا الحالية واسكانديناڤيا.

ومع أن إشعاع المذهب الفابي كان لافتاً، فإن تلك الظاهرة كانت صغيرة جداً، فلا تستدعي تعويقنا[8].

وقد ظل التطرف اليعقوبي التقليدي منيعاً فلم يسمح بأن تخترقه الماركسية، ربما لأن أعضاءها الثوريين كانوا مفرطين في رغبتهم واحترامهم اسمَ ثوريٍ كبيرٍ، ومطابقة نفوسهم مع أسباب مرتبطة به. وظلّت الماركسية غير متطورة في فرنسا بشكل استثنائي. وحتى ثلاثينات القرن العشرين، لم يكن ممكناً وصف الكثير من المفكّرين البارزين في الحزب الشيوعي وصفاً جدّياً بأنهم ماركسيون نظريون، بالرغم من أن الكثير منهم وليس كلهم في ذلك الوقت قد بدؤوا بوصف أنفسهم كذلك. ومجلة **الحزب الفكرية** المؤسسة في عام 1938 ما تزال تحمل العنوان: **مجلة العقلية الجديدة** (*La Pensée*) (*A Review of Modern Rationalism*). وعكس ذلك كانت الفوضوية، التي بالرغم من العداوة المشينة بين ماركس وباكونين قد اقتبست كثيراً من التحليل الماركسي، باستثناء نقاط الخلاف بين الحركتين. ولم يكن ذلك بغريب، فالذي حصل هو أن الفوضويين ظلّوا إلى زمن استعبادهم من الأمية في عام 1896 – وحتى إلى أبعد من ذلك في بعض الأقطار – بلا خطٍ حاسم يفصل بينهم وبين الماركسيين داخل الحركة الثورية، وظلّوا جزءاً من وسط الثورة والأمل.

كانت الانفراقات النظرية بين الماركسية الأرثوذكسية والنقابيّة الثورية أعظم، وذلك، لأن ما رفضه أولئك الثوريون في الماركسية لم يكن مجرد نظرتها إلى التنظيم والدولة، وإنما نظام التحليل التاريخي كله لكوتسكي، الذي حسبوه بمنزلة الحتمية التاريخية – وحتى الجبرية القائلة بالقضاء والقدر – وذلك في النظرية، والإصلاحية في الممارسة، هناك آخرون طالما جلبوا الأيديولوجيات الماركسية المتأثرة معهم إلى العالم الجديد كجزء من متاعهم الفكري إذ يجب أن لا يحصل تقليل من قيمتهم[9]. كما لم تكن حركة مقاومة «للمشاريع التجارية والصناعية» خلال تلك الحقبة الزمنية، حقبة التوتّر الاجتماعي الحادّ والهياج في الولايات المتحدة، مما يجعل عدداً من المفكرين الراديكاليين يحتفي بالنقد الاشتراكي للرأسمالية أو بالاهتمام به.

ولا يكتفي واحدنا بالتفكير بثورستاين فِبْلِنْ (Thorstein Veblen)، بل بمثل بريتشارد إلاي (1854 – 1943) من بين الاقتصاديين المركزيين الذي «أثّر تأثيراً عظيماً في الاقتصاد الأميركي خلال حقبته الزمنية التكوينية الحيوية، أكثر من أي شخص آخر»[10]. لتلك الأسباب نقول، إن الولايات المتحدة، وبالرغم من تطويرها القليل

من التفكير الماركسي المستقل، صارت بشكل ما تدعو إلى الإعجاب، ومركزاً مهماً لنشر الكتابات الماركسية ونفوذها. ولم يقتصر تأثير ذلك على مناطق المحيط الهادي (أستراليا، ونيوزيلندا، واليابان) بل، على بريطانيا أيضاً حيث كانت المجموعات الناشئة من النشطاء العماليين الماركسيين في تسعينات القرن العشرين، تتلقى الكثير من أدبها - الذي لم يشمل ماركس وإنجلز فحسب، بل ديتزجن (Dietzgen) أيضاً - من دار نشر شيكاغو لصاحبها تشارلز هـ. كير[11].

ولمّا لم يظهر أن الحركات العمالية اللااشتراكية كانت تشكل تحدّياً خطراً مهدداً الهيمنة الفكرية للمجموعات المسيطرة، فإن مفكريها لم يكونوا يشعرون بعد بحاجة لمواجهة ذلك التحدّي بصورة ملّحة. فخلال ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر ناقشوا ماركس والاشتراكية أكثر بكثير مما فعلوا خلال تسعينات القرن العشرين. وهكذا كان أوائل القرن العشرين عبارة عن زمنٍ لا سياسي بشكل ملحوظ، وذلك في وسط المجموعة النخبوية من مفكري جامعة كامبردج المرتبطة بنادي النقاش (السرّي) المعروف بـ «الرُّسل» (هـ. سِدوِك (H. Sidwick)، برتراند رسّل (Bertrand Russell، ج. إي. مور (G. E. Moore)، ليتون ستراتشي (Lytton Strachey)، وإي.م. فورستر (E. M. Forster)، وج. م. كينيس (J. M. Keynes)، وروبرت بروكس (Rupert Brooks... إلخ). وفي حين انتقد سدوك ماركس، كتب برتراند رسّل القريب من الغابيين في تسعينات القرن التاسع عشر كتاباً في الديمقراطية الاجتماعية الألمانية (1896)، وآخر جيل تلاميذ ما قبل عام 1914، ج. م. كينيس الذي بدأ بالتحوّل إلى الاشتراكية (وإن يكن بشكل لا ماركسي)، وكان أبرز ناشط اقتصادي سياسي، وقد نشأ في تلك الحلقة، ولم يظهر أي علامة تدل على الاهتمام أو المعرفة بماركس أو بأي من النقاشات الاقتصادية حول ماركس[12].

IV

كان العامل الثاني المتوقَّع لتحديد التأثير الماركسي ممثّلاً في إغراء الماركسية مفكري الطبقة الوسطى كمجموعة، بغض النظر عن حركة الطبقة العمالية المحلية. فقد وُجِدت حركات عمالية قوية لم تشتمل في ذلك الزمن على مفكرين أو تجتذبهم عملياً، كما كان الحال في أوستراليا (حيث كانت حكومة العمال موجودة منذ أوائل عام 1904). وقد يكون مردّ ذلك وجود عدد قليل من المفكرين في تلك القارة.

وكذلك حركة العمال القوية، والفوضوية بشكل رئيسي في إسبانيا لم تجتذب المفكرين الإسبان. ومقابل ذلك أَلِفْنا أن تكون المنظّمات الماركسية محصورة بطلاب الجامعات بشكل جوهري، بالرغم من أنه في زمن قوة وازدهار الأممية الثانية كان مثل تلك الظاهرة أمراً نادراً. وكان واضحاً أن بعض الحركات الاشتراكية مثل الروسية، كان يتألف بشكل غالب، من مفكرين، ولو أن السبب تمثَّل في أن عقبات الظهور الشرعي في طريق الحركات العمالية الواسعة كانت عظيمة. ومثل ذلك حصل في أقطار أخرى حيث كانت جاذبية الاشتراكية للمفكرين والأكاديميين، وعلى الأقل لبعض الوقت كبيرة بشكل جدير بالذكر، كما في إيطاليا.

لا حاجة لنا في هذا المقام أن ننقّب عميقاً في سوسيولوجيا المفكرين بوصفهم مجموعة، أو في مسألة ما إذا كانوا يشكلون طبقة منفصلة [«أهل الفكر» (Intelligen-tsia)]، بالرغم من أن هذه المسألة شَغَلت النقاش الماركسي في أوقات ما. فكل الأقطار احتوت مجموعة من الرجال وعدداً أقل من النساء، الذين حصلوا على نوع من التعليم الأكاديمي العالي، والمسألة هي مسألة اجتذاب الاشتراكية/ الماركسية لهؤلاء. وفي النقاشات الجدلية لـ(SPD)، نقول، إن ما ندعوه اليوم «المفكرين» كان يُشار إليهم بشكل نموذجي واعتيادي بالأكاديميين (*Akademiker*) – أي الذين يحملون شهادة الدبلوم الجامعية. ومهما يكن من أمر فلا بدَّ من ملاحظتين. **أولاً**: يجب في أقطار كثيرة أن يكون هناك تمييز واضح بين الذين يمارسون ما يعبِّر عنه الألمان بكلمة (كل الفنون) (Kunst) وكلمة علم (Wissenschaft) (جميع عالم المعرفة والعلم)، بالرغم من استمداد كليهما من الطبقات الوسطى بمقدار كبير. وهكذا، نجد في فرنسا أن الفوضوية التي اجتذبت «الفنانين» (بالمعنى الواسع لهذا التعبير) بأعداد كبيرة في تسعينات القرن التاسع عشر، لم يكن لها جاذبية عند الجامعيين (Universitaires). ويمكن الإشارة إلى الفرق، لا شرحه في هذا السياق. فالعلاقة بين الماركسية والفنون ستبحث على حدة أدناه. **ثانياً**: يجب إنشاء تمييز بين الأقطار حيث كانت أقلية من المفكرين بارزة في الأحزاب والحركات الاشتراكية، بينما ظلَّت الأكثرية خارجها (كما في ألمانيا وبلجيكا على سبيل التمثيل)، وتلك الأقطار التي كان فيها مصطلحا «مفكر» و «مفكر يساري» قابلين للتبادل تقريباً بين الشبان (كما في روسيا) ولا شك في أن معظم الحركات الاشتراكية كانت توفِّر مركزاً بارزاً للمفكرين في قيادتها [فيكتور أدلِر، وترولسترا (Troelstra)، وتوراتي (Tura-ti)، وجوريس (Jaurès)، وبرانتنغ (Branting)، وفاندرفلد (Vandervelde)، وروزا لوكسمبورغ (Rosa Luxemburg)، وبليخانوف، ولينين... إلخ]. كما كانت تستمد منظِّريها من بينهم بصورة حصرية تقريباً.

لا يوجد لدراسات مقارنة كافية ووافية للموقف السياسي للطلاب والأكاديميين الأوروبيين في تلك الحقبة الزمنية، وأقل من ذلك للطبقات المهنية الأوسع التي كانت ستشمل معظم المفكرين الراشدين. لذا، فإن تقييمنا لجاذبية الاشتراكية/ الماركسية لهم لا بدّ من أن يكون انطباعياً[13]. على كل حال وبصورة إجمالية، إن أسلم قول هو الذي يفيد أن تلك الجاذبية لم تكن عظيمة إلاّ في أقطار قليلة رئيسياً على أطراف المنطقة المتطورة للرأسمالية.

في شبه الجزيرة الإيبيرية(*) بقي الكثير من المفكرين مؤلفاً من ليبراليين مضادين لرجال الدين وراديكاليين. وقد يكون هذا هو سبب عدم ليبرالية وعدم اشتراكية «جيل 98» الذي دعا إلى إعادة تجديد إسبانيا بعد هزائم الحرب - أنامونو (Unamuno)، وباروجا (Baroja)، وميزتو (Maeztu)، وجانيفيه (Ganivet)، وفالّ - إنكلان (Val-le-Inclán)، وماشادو (Machado)... إلخ. وكان في بريطانيا ليبراليون من نوع أو آخر بشكل غالب، ونفر قليل جداً منهم اجتذبته الاشتراكية بالرغم من أن ذلك الاجتذاب شعر به القطاع الهامشي المؤلف من نساء الطبقة الوسطى الشابات المتعلمات، اللواتي شكلن نسبة كبيرة من عضوية الجمعية الفابية ونموذج الصورة الصحفية المبسطة «للمرأة الجديدة لثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر». ولم تبدأ حركة طلابية اشتراكية مهمة إلاّ في الأعوام الأخيرة قبل عام 1914. وجاء معظم المفكرين الذكور في الجمعية الفابية بشكل رئيسي من الطبقة الجديدة، وطبقة المهنيين، الذين بنوا أنفسهم بأنفسهم، من طبقة العمال، ومن خلفية طبقة وسطى دنيا [شو، وِبْ، هـ. ج. ولز (H. G. Wells)، أرنولد بينتْ[14] (Arnold Bennett). هناك مفكر يُعدُ أكثر منظِّرٍ يساري لافتٍ في إنجلترا، وكان عن كثبٍ من الميول في القارة الأوروبية، فتأثر بماركس [في كتابه: **تطور الرأسمالية الحديثة** (*Development of Modern Capitalism*)] وكان له تأثير في الماركسيين عبر كتابه: **الإمبريالية** (*Imperialism*)، وكان بشكل مميّز ليبرالياً تقدمياً لا اشتراكياً فابياً، هذا المفكر هو جوشوا هوبسون. أمّا المفكرون الماركسيون من الطبقة الوسطى الأهلية فيمكن إهمالهم عددياً وفكرياً، باستثناء وليام موريس (Wil-liam Morris)، (انظر أدناه).

لقد مارس التقليد الثوري الفرنسي بشكل طبيعي تأثيراً كبيراً في مفكري تلك البلاد، ولاشتماله على مكوِّن اشتراكي أهلي حدث شعور بتأثير الاشتراكية، وإن لم يتعدَّ

(*) شبه الجزيرة إيبيريا (Iberia) تعني رئيسياً إسبانيا والبرتغال (المترجم).

ذلك أكثر من علامة مؤقتة من الآراء اليسارية. وقد لاحظ مايكلز، بعكس بقاء الولاءات في أقطار أخرى، قائلاً، إن خمسة من ستة نوّاب انتخبوا بوصفهم اشتراكيين في فرنسا في عام 1893، وصاروا في عام 1907 معادين للاشتراكية، لا مجرد غير اشتراكيين[15]. وكذلك، صارت الراديكالية الشابة المتطرفة جزءاً من التقليد البورجوازي. لذا، لا صعوبة في اكتشاف الاشتراكية لدى المفكرين الفرنسيين، وإن مؤسسات معينة ذات اعتبار، مثل مدرسة المساواة العليا (Ecole Normale Supérieure) صارت مواطن تنشئة اشتراكية حقيقية، وهناك مفكرون يقومون بالتحول إلى الاشتراكية بدءاً من تسعينات القرن التاسع عشر خاصة خلال فترة دريفوس (Dreyfus). ومع ذلك منذ أن كان تأثير ماركس قليلاً[16]، لا حاجة لوصف جاذبيته للمفكرين الفرنسيين في تلك الفترة - أو، حتى عن جاذبية الحزب الاشتراكي المدّعي ولاءَه لماركس، نعني الجستدي (Guesdistes). والحق يُقال إنه قبل عام 1914 كانت كتابات ماركس وإنجلز المتاحة باللغة الفرنسية عبارة عن مختارات متواضعة، وبشكل بارز أكثر من تلك المتاحة - إذا أدخلنا في حسابنا الطبعات الأميركية - باللغة الإنجليزية، فضلاً عن اللغات الألمانية والإيطالية والروسية[17].

كان المجتمع الألماني الفكري والأكاديمي مهما كانت ليبراليته في عام 1848 ملتزماً التزاماً عميقاً بإمبراطورية ولهلماين (Wilhelmine Empire) ومعارضاً الاشتراكية معارضة نضالية، وليس منجذباً إليها، وذلك قبل تسعينات القرن التاسع عشر، باستثناء اليهود، ومن بينهم وُجِد ما بين 20 - 30٪ من المفكرين الذين أيّدوا الديمقراطية الاجتماعية[18]، وذلك طبقاً لتقدير مايكلز غير الموثّق في عام 1907. وفي حين أنتجت الجامعات الفرنسية بين عام 1889 وعام 1909 إحدى وثلاثين رسالة دكتوراه في ميدان الاشتراكية العام، والاقتصاد الاجتماعي وماركس، نجد أن المجتمع الأكاديمي الأكبر بكثير لم ينتج سوى إحدى عشرة رسالة دكتوراة حول تلك المواضيع وفي الفترة نفسها[19]. فالماركسية والديمقراطية الاجتماعية كانتا تشغلان بال المفكرين والأكاديمين، أي: لم تجتذبا الكثير منهم. وعلاوة على ذلك، ثمَّة دليل يفيد أن الذين انجذبوا إليهما كانوا في الجناح المعتدل والتعديلي وليس في اليسار، وذلك إلى السنوات الأخيرة لما قبل عام 1914، هذا على الأقل، ولا ريب في أن منظمة الطلاب الاشتراكيين في ألمانيا كانت في عداد المناصرين الأوائل للتعديلية. وطبعاً كان القسم الألماني بروليتارياً بشكل غالب في تركيبه، وقد كان ذلك موجوداً أكثر من وجوده في أحزاب اشتراكية كبيرة أخرى[20]. وحتى ضمن تلك الحدود، فإن جاذبية الماركسية المتواضعة

نسبياً للمفكرين الألمان تُفهم بالحقيقة المفيدة أن الحزب نفسه اضطر لاستيراد العديد من المنظِّرين الماركسيين البارزين من الخارج: مثل روزا لوكسمبورغ من بولندا، وكوتسكي وهلفردنج (Hilferding) من هنغاريا النمساوية و«بارفوس» (Parvus) من روسيا.

في الأقطار الصغرى في شمال غرب أوروبا، طوَّرت بلجيكا والبلدان الاسكاندينافية أحزاباً واسعة من طبقة العمال، وكانت كبيرة وقوية ومتطابقة رسمياً مع الماركسية، بالرغم من أن الذي حصل في بلجيكا هو أن حزب أوفربيه (Parti Ou-vrier) جسَّد أيضاً تقاليد اليسار الأهلية. وأظهر الدانماركيون من بين السكاندنافيين اهتماماً بماركس أشد من اهتمام السويديين والنرويجيين. وباستثناء دكتور أو قسّ عرضي، كانت الشخصيات القائدة في النرويج مؤلفة من العمال بشكل رئيسي. والحركة السويدية مثل بقية الحركات الاسكاندينافية (وبما في ذلك الفنلنديون ذوو التنظيم القوي) لم تنتج منظِّرين ذوي اعتبار، ولم تشارك مشاركة مهمة في نقاشات الأممية. وقد تكون جاذبية الاشتراكية في عالم الآداب (أو الفوضوية) أقوى، لكننا نقول بصورة إجمالية، أن الاشتراكية في وسط المفكرين الاسكاندينافيين كانت نوعاً من الامتداد اليساري للراديكالية الديمقراطية والتقدمية التي تميّز بها ذلك الجزء من أوروبا، مع تأكيد خاص على الإصلاح الثقافي والأخلاقي – الجنسي. وإذا كان هناك من يمثِّل اليسار النظري للمفكرين السويديين في تلك الحقبة، فهو الاقتصادي نوت وكسل (Knut Wicksell) الذي كان جمهورياً راديكالياً ملحداً مدافعاً عن حقوق المرأة، ومن أتباع مالثوس الجدد: وظلَّ بعيداً عن الاشتراكية.

قد يكون دور هولندا وبلجيكا في الثقافة الأوروبية في تلك الحقبة الزمنية أكبر مما كان في أي وقتٍ آخر منذ القرن السابع عشر. فقد أدى المفكرون والأكاديميون في حزب العمال البلجيكي البروليتاري، الذين جاؤوا من الوسط الأكاديمي العقلي في مدينة بروكسل (Brussels)، دوراً بارزاً وجديراً بالذكر، وهم: فاندرفلد، وهوسمانز (Huysmans)، وجول دِستري (Jules Destrée)، وهكتور دينيس (Hector Denis)، وإدموند بيكارد (Edmond Picard)، وفي طرف اليسار نذكر دوبروكير (De Brouck-ère). ومع ذلك، يمكن القول، إن الحزب والمفكرين الناطقين باسمه كانوا يميلون للجناح اليميني للحركة الدولية، ويمكن اعتبارهم ماركسيين[21] تقريبيين فقط، وذلك بالمعايير الدولية. وهناك شك في مسألة أن يكون فاندروفلد قد حسب نفسه ماركسياً، إلاّ نسبة للزمان والمكان. وكما قال ج. د. هـ. كول: «لقد دخل في الحركة الاشتراكية

في وقت كانت فيه الماركسية بصورتها الديمقراطية الاجتماعية الألمانية، هي العامل المحوري في التطور الاشتراكي في أوروبا الغربية، فلم يكن يلزم فحسب، بل كان طبيعياً لأي شتراكي في القارّة الأوروبية يطمح أن يكون في القيادة السياسية، خاصة على المستوى الدولي، أن يقبل البنية الماركسية السائدة، وأن يكيّف تفكيره بحسبه»[22]. خاصة بالنسبة لرجل يمثل الجانب العمالي الواسع في بلد صغير. والمؤكدّ أن تأثير الماركسية في المفكرين البلجيكيين لم يكن بارزاً ، ولا يستحق الذكر.

لم توجد في دول الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا ولكسمبورغ الحالية) أية حركة عمالية قومية ذات وزن سياسي مماثل، للقطر الأوروبي الغربي الوحيد الذي فيه كان تأثير الاشتراكية في أوساط المفكرين حاسماً من الوجهة الثقافية حيث حصل العكس وهو أن دور المفكرين في الحركة كان مشبوهاً بشكل غريب. فقد كان الحزب الديمقراطي الاجتماعي يوصف أحياناً بطريقة تهكمية بالقول، إنه حزب الطلاب، والقسس والمحامين. وقد صار، أخيراً، وكما في كل مكان آخر بمقدار كبير، حزب العمال المهرة اليدويين، غير أن الانقسام السائد والتقليدي في البلاد إلى مجموعات طائفية متحزِّبة (جماعة كالفن، والكاثوليك، والعلمانيين)، وكل مجموعة شكلت كتلة سياسية اخترقت الخطوط الطبقية، كل ذلك لم يترك سوى مجال أقل مما هو في أمكنة أخرى، لتشكيل حزب طبقي. وبدا أن ذلك كان مرتبطاً بتوسيع ملحوظ لقطاع الثقافة العلماني. فقد قام الحزب، بدايةً بشكل كبير على قطاعين غير نموذجيين هما: عمال المزارع في فريسيا (Frisia) والعاملون بالألماس من مدينة أمستردام (وكلاهما كانا هامشيين قطرياً وخاصين محدَّدين قومياً). وفي تلك الحركة الصغيرة، صار مفكر مثل ترولسترا (1860 – 1930)، وهو من فريسيا، قائد الحزب الرئيسي المعتدل، وهرمان غورتر (Herman Gorter)، وهو شخصية أدبية رائدة، صار الشخصية الرئيسية في اليسار الثوري وأدى دوراً ملحوظاً متفاوتاً، وكان معه الشاعرة هنريتا رولاند – هولست (Henriettá Roland – Holst) وعالم الفلك أ. بانيكوك (A. Pannekoek). وما يدهش المرء لا ينحصر في دور المفكرين في الحزب وظهور بعض علماء الاجتماع الماركسيين، مثل عالم الجريمة و. بونجر (W. Bonger) فحسب، وإنما قبل كل شيء، كان ذلك هو البروز الدولي لليسار الفكري المتطرف الناشئ في الوطن. وبالرغم من وجوه الشبه مع روزا لوكسمبور والروابط معها، فقد كان مستقلاً عن التأثير الأوروبي الشرقي. ولقد كان الهولنديون حالة شاذةً في غرب أوروبا، وإن كانت حالة صغيرة.

كان الحزب الديمقراطي الاجتماعي النمساوي القوي قتالياً بشكل بارز،

وبشكل بارز متطابقاً مع الماركسية. ولو عبر الصداقة الشخصية الوثيقة التي كانت بين قائده فيكتور أدلِر (1852 – 1918) وإنجلز العجوز. والحق يُقال، إن النمسا كانت البلاد الوحيدة التي أنتجت مدرسة ماركسية متطابقة تطابقاً خاصاً معها، أي: الماركسية النمساوية. وفي عهد ملكية هابسبورغ ندخل ولأول مرة في منطقية فيها لا يمكن إنكار وجود الماركسية في الثقافة العامة، كما أن جاذبية الديمقراطية الاجتماعية للمفكرين تتعدى كونها هامشية. على كل حال، كانت أيديولوجيتهم موسومة بشكل ثابت وعميق بتلك «المسألة القومية» التي كانت تقرر مصير الملكية. وكان الماركسيون النمساويون – بشكل متميَّز– الأوائل الذين حلَّلوها على نحوٍ منظَّم[23].

فالمفكرون في تلك الأمم التي لم تكن تحوز على استقلالٍ ذاتي مثل التشيكوسلوفاكيين، كانوا ينجذبون بمقدار كبير لقوميتهم اللغوية الخاصة أو إذا كانوا في **منطقة مسلوخة** (*irredenta*) نراهم ينجذبون للدولة التي كانوا يطمحون إلى الانتماء إليها (رومانيا، وإيطاليا). وحتى عندما كانوا يتعرضون لتأثير الاشتراكيين في ظل العنصر القومي الذي هو السائد – كما في حالة اشتراكيي نارودني (Narodni) الذين انشقوا عن الحزب النمساوي في أواخر تسعينات القرن التاسع عشر ليصبح جوهرياً حزباً تشيكوسلوفاكياً راديكالياً للبورجوازية الصغيرة. وبالرغم من أنهم كانوا على وعي دقيق بالماركسية، فإنهم ظلّوا بمقدار كبير منيعين عليها، مثلاً: أحرز اسم المفكر التشيكوسلوفاكي البارز توماس ماسارك (Thomas Masaryk) يبحثه عن روسيا ونقده الماركسية. بقي مفكرو ثقافتين سائدتين هما: الألمانية والمجرية (Mag-yar). غير أنه لا يمكن فهم تأثير الماركسية في الثقافة العامة في الملكية الثنائية من غير النظر في هذه الأقلية الشاذّة.

كان الميل العام للأقليات اليهودية في طبقتها الوسطى في أوروبا الغربية هو الاندماج الثقافي والسياسي، حيثما سمح لهم بذلك، أي: أن يصيروا يهوداً إنجليز، مثل دزراييلي (Disraeli) أو يهوداً فرنسيين، مثل دوركهايم، أو يهوداً إيطاليين، وقبل أي شيء يهوداً ألمانيين. ففي النمسا اعتبر جميع اليهود الناطقين باللغة الألمانية أنفسهم ألمانيين، أي مؤمنين بألمانيا عظمى ليبرالية ومتحدة. غير أن ما جعل ذلك الموقف مستحيلاً تمثَّل في فصل النمسا عن ألمانيا، وظهور النعرة السياسية المعادية للسامية، منذ أواخر سبعينات القرن التاسع عشر، وهجرة اليهود غير المندمجين ثقافياً إلى الغرب بصورة كبيرة ومتزايدة ، ثم حجم المجتمع اليهودي ذاته. وخلافاً لما كان في فرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا وألمانيا حيث لم يكن اليهود يشكلون مكوِّناً صغيراً من السكان،

بل كانوا يؤلفون قطاعاً واسعاً من الطبقات المتوسطة: 8 – 10٪ من عدد السكان في مدينة فيينا (Vienna)، 20 – 25٪ من سكان بودابست (Budapest) (1910 – 1890). فوضع المفكرين اليهود، كان فريداً (*Sui generis*) – ولا شك في أن اليهود كانوا أكثر المستفيدين المتحمسين من النظام التربوي[24].

وفي هنغاريا، استمر الترحيب النشط باندماج اليهود بوصفه جزءاً من خطة التحويل إلى مجريين، التي طبقها اليهود بحماس. ومع ذلك لم يكن دمجهم دمجاً كاملاً. وبمعنى ما كان وضعهم شبيهاً بوضع اليهود في جنوب أفريقيا ولاحقاً في القرن العشرين، أي: مقبولين كجزء من الأمة الحاكمة في مواجهة غير المجريين (أو غير البيض)، لكنهم ممنوعون من الهويّة الكاملة بسبب تركيزهم وتخصّصهم الاجتماعي. وصحيح أن دورهم في الديمقراطية الاجتماعية الهنغارية، التي لم تظهر اهتماماً بالمسائل النظرية وعملت في أحوال من القمع المعتدل لم يكن بارزاً. على كل حال، حدث أن صارت في العقد الأول من القرن العشرين التيارات الثورية الاجتماعية القوية ذات نفوذ، في الحركة الطلابية، مما أدى إلى دور يهودي ملحوظ في وسط اليسار الهنغاري بعد ثورة عام 1917. ومهما يكن من أمر، فإن قضية الماركسية الهنغارية المعروفة في الخارج، مهمة. فجورج لوكاش (Georg Lukacs)، (1885 – 1917) الذي كان اشتراكياً منذ عام 1902 على الأقل كان على اتصال بأروِنْ زابو (Erwin Szabo) (1877 – 1918)، وهو مفكر رائد ماركسي/ فوضوي – نقابي لم يظهر أي علامة تدل على اهتمامات نظرية ماركسية جدّية قبل عام 1914.

وخلافاً لما كان في بلاد المجر التي كان في حوزتها خزان واسع من المفكرين غير اليهود الناطقين باللغة الألمانية، منهم يمكن تعيين موظفين في الخدمة العامة، والجهاز الأكاديمي، وهما منطقتان متداخلتان. أما المدرسة النمساوية، ومدرسة الاقتصاديين التي نشأت بعد عام 1870، فقد كانت تتألف جوهرياً من مثل هؤلاء الرجال، وُجد بينهم [باستثناء الأخوة مايزس (Mises) وعدد قليل من اليهود، وهم: منجِر، ووايزر (Wieser) وبوم بورك وشومبيتر الأصغر وهايك. وعلاوة على ذلك، فإن القومية الألمانية العظمى التي شايعها والتزم بها معظم اليهود ارتبطت بمعاداة السامية بشكل خاص، وإن لم يكن بشكل حصري[25]. وذلك ما ترك اليهود في غير مركز واضح لولاءاتهم وطموحاتهم السياسية. فكانت الاشتراكية أحد الخيارات الممكنة التي اعتنقها فيكتور أدلِر وأقلية فحسب، من معاصريه الأصغر منه سناً. وظلّت الديمقراطية الاجتماعية النمساوية مرتبطة عاطفياً بالوحدة الألمانية العظمى حتى عام 1938 والصهيونية (التي

ابتدعها مفكر من فيينا متطرف) كانت خياراً آخر، بالرغم من جاذبيتها الأقل زمانئذٍ. ولا ريب في أن نشوء حركة عمالية مقاتلة، قوية ومكّرسة نفسها بشكل جدير بالذكر في أوساط العمال الناطقين باللغة الألمانية قد اجتذب المفكرين بمقدار. وكذلك يجب عدم إغفال الحقيقة المفيدة أنه، في مدينة فيينا كما في أمكنة أخرى، كانت الحركة الجمهورية الوحيدة التي قاومت الأحزاب الجمهورية المعادية للسامية السائدة، ومع ذلك فإن أكثريه اليهود النمساويين لم ينجذبوا للاشتراكية، بل لحياة ثقافية وعلاقات شخصية مكثَّفة، وهي بمنزلة تجنّب لا سياسي أو تحليل استبطاني لأزمة حضارتهم. (وكانت جاذبية الاشتراكية للمفكرين المسيحيين أقل بصورة طبيعية). فالأسماء التي تخطر على البال عندما تذكر الثقافة النمساوية (أي ثقافة فيينا بمقدار كبير) في تلك الحقبة، ليست اشتراكية بشكل رئيسي، وهي: فرويد، سنتزلر (Schnitzler)، كارل كراوس (Karl Kraus)، شونبرغ (Schönberg)، ماهلر (Mahler)، رلكي (Rilke) ماخ (Mach)، هوفمانستال (Hafmannsthal)، كليمت (Klimt)، لوس (Loos)، موزل (Musil).

ومن جهة أخرى، نجد أنه في المدن الرئيسية خاصة فيينا وبراغ (Prague)، صارت الديمقراطية الاجتماعية (أي الماركسية وبالمصطلحات الفكرية) جزءاً لا يمكن تجنّبه من خبرة المفكرين الشبّان، كما يمكن ملاحظة ذلك في الصورة الواضحة جداً لوسط الطبقة المتوسطة المثقفة في فيينا (ومعظمها من اليهود) التي رسمها آرثر سنتزلز في روايته: **الطريق إلى الحرية** (*Der Weg ins Freie*) (1908). لذا، ليس مستغرباً أن تصير الديمقراطية الاجتماعية النمساوية موطناً للمفكرين الماركسيين وتطوِّر مجموعة «ماركسية نمسوية»، مثل: كارل رانر (Karl Ranner)، وأوتو بوير (Otto Bauer)، وماكس أدلِر (Max Adler)، وغوستاف إكستاين (Gustav Eckstein)، ورودولف هلفردنغ (Rudolf Hilferding)، وأيضاً مؤسس الأرثوذكسية الماركسية كارل كوتسكي ومجموعة مزدهرة من الأكاديميين الماركسيين. (ولم تميّز الجامعات النمساوية ضدهم تمييزاً منظماً مثل الجامعات الألمانية). وفي عداد هؤلاء، نذكر كارل غروبنرغ (Carl Grünberg)، لودو م. هارتمان (Ludo M. Hartmann) وستيفان بوير (Stefan Bauer) الذين اشتهروا لتأسيسهم، في عام 1893 المجلة التي صارت باسمها الأخير: **الكتاب ربع السنوي للتاريخ الاجتماعي والاقتصادي** (*Vierteljahrschrift für So-zial-und Wirtschaftsgeschichte*) المجلة الرئسية المختصة بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي في عالم اللغة الألمانية، لكن في نهاية المطاف، توقفت عن التعبير عن أصولها الاشتراكية. ومن موقع كرسيّة الأكاديمي في فيينا أسس غرونبرغ سجلات **أرشيف**

لتاريخ الاشتراكية والحركة العمّالية *(Archiv für die Geschichte des Sozialis-mus und der Arbeiterbewegung)* (المعروف بأرشيف غرونبرغ) في عام 1910، الذي مهّد الطريق للبحث الأكاديمي في الحركة الاشتراكية والماركسية خاصة. أما الديمقراطية الاجتماعية النمساوية فقد تميّزت بصحافة بارعة، وبمساحة من الاهتمام الثقافي غير المألوف، نعني: إذا لم تقدِّ شونبرغ، فقد كانت على الأقل إحدى المؤسسات القليلة التي ساعدت الثوار الموسيقيين على البقاء كمديرين لجوقات العمال الموسيقية.

كتب كاتب أميركي في وصفه إيطاليا، قائلاً: «قد لا توجد بلاد أخرى فيها الكثير من الاشتراكيين في أوساط العلماء، والباحثين والكتاب البارزين»[26]. فغالباً ما لوحظ وجود دور بارز وكبير لافت للمفكرين في الحركة الاشتراكية الإيطالية والجاذبية المؤقته للماركسية في أوساطهم – على الأقل، في تسعينات القرن التاسع عشر. فلم يكونوا يشكلون عددياً قسماً كبيراً منها – أقل من 4٪ في عام [27]1904 – ولم يكن هناك شك في أن الاشتراكيين لم يكونوا الأكثرية، حتى بين الشباب والطلاب البورجوازيين (الذكور) في أوائل تسعينات القرن التاسع عشر. ومع ذلك، وخلافاً للطلاب والأساتذة المحافظين بشكل غالب في الجامعات الألمانية والنمساوية انطلقت الاشتراكية الإيطالية غالباً – وكما في مدينة تورين (Turin) – من أوساط الجامعات الإيطالية التقدمية وذات النفوذ الأكاديمي والسياسي (فالاشتراكية الفرنسية الأكاديمية كانت تابعة لا مبتدعة). وخلافاً للاشتراكية اللاماركسية الغالبة في الجامعات في ذلك الزمن، كان المفكرون الأكاديميون الإيطاليون منجذبين بقوة للماركسية، حتى إن مقداراً كبيراً من الماركسية الإيطالية لم تكن أكثر من مجرد توابل ترش على السّلطة الوضعية (Positivist) والتطورية والمضادة لرجال الدين لثقافة الذكور في الطبقة الوسطى الإيطالية. علاوة على ذلك، لم تكن الحركة مجرد حركة ثورة شبابية. فقد شمل المرتدّون إلى الاشتراكية/ الماركسية الإيطالية رجالاً ناضجين وذوي تكوين جيد، نذكر منهم: لابريولا (Lab-riola) الذي ولد في عام 1843، ولومبروسو (Lombroso) في عام 1836، والكاتب دو أميسيس (De Amicis) في عام 1846، بالرغم من أن الجيل النموذجي من قادة الأممية كان من مواليد 1856 – 1866. مهما كان رأينا بنوع الماركسية أو الاشتراكية الماركسية التي شاعت في وسط المفكرين الإيطاليين، فإنه لا يوجد شك بانشغالهم القوي بالماركسية. وحتى المضادون للماركسية وناقدوها بقوة [مثل غروشي، وغيره من الذين كانوا أنفسهم ماركسيين سابقين] شهدوا بذلك: فباريتو (Pareto) نفسه قدم مجلداً احتوى على مقتبسات من كتاب: **رأسمال** انتقاها لافارغ (باريس، 1894).

يمكننا الكلام عن المفكرين الإيطاليين ككل، إذ بالرغم من العقلية المحلية البارزة في البلاد، والفرق بين الشمال والجنوب، فإن المجتمع الفكري كان قومياً حتى في استعداده العام لقبول التأثيرات الفكرية الخارجية (الفرنسية والألمانية). والأقل مشروعية هو التفكير في العلاقات بين اشتراكية المفكرين والحركة العمالية بمفردات قومية، لأن الفروق الأقليمية تقوم بدور كبير في هذه الناحية. ومن بعض الوجوه نقول، إن التفاعل بين المفكرين والحركة العمالية الاشتراكية في الشمال الصناعي – ميلان (Mi-lan) وتورين – يشبه الموجود في بلجيكا والنمسا، على سبيل المثال، لكن ليس الحال كذلك في مدينة نابولي (Naples) أو جزيرة صقلية (Sicily). وفرادة إيطاليا هي في أنها لا تلائم نموذج الديمقراطية الاجتماعية الماركسية الغربية ولا أوروبا الشرقية. فمفكروها لم يكونوا من المفكرين الثوريين المنشقين. ولا تفيد ذلك كثيراً الحقيقة التي تقول، إن موجة حماسهم للماركسية عندما كانت في ذروتها في أوائل تسعينات القرن التاسع عشر، خمدت بسرعة، كما يفيده ويشرحه الانتقال السريع لمعظم مفكري الحزب الاشتراكي إلى جناح مشكلة ومعدّلية، بعد عام 1951 وفشل ذلك الحزب في تطوير معارضة يسارية ماركسية من أي حجم داخله، كما في ألمانيا والنمسا.

تطابق المفكرون الإيطاليون كمجموعةٍ مع النموذج الأوروبي الغربي الأساسي الخاص بتلك الحقبة، أي: كانوا أعضاء ذوي مراكز جيدة في طبقتهم الوسطى القومية، وبعد عام 1898، وقبلوا كجزء من النظام حتى عندما كانوا سياسيين اشتراكيين. فلا يوجد شك في أسباب صيرورة العديد منهم اشتراكيين في تسعينات القرن التاسع عشر، وقد يكون ذلك حصل بداعي التطور السياسي في إيطاليا منذ الحركة التوحيدية (Ri-sorgimento)، والفقر المدقع الذي أصاب العمال والفلاّحين الإيطاليين والثورات الجمهورية الكبيرة، في ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر، فالأسباب كانت أقوى مما كان في بلجيكا. وعزّزها سخاء وثورية الشباب. وفي ذات الوقت نذكر أن مفكري الطبقة الوسطى الاشتراكيين لم يكونوا في حالة ملائمة فلم يتعرضوا لتمييز ضدهم فحسب، وكانت اشتراكيتهم مقبولة بوصفها امتداداً واسعاً للنظرات التقدّمية والجمهورية، باستثناءات قليلة، بل كان نموذج حياتهم وسيرتها غير مختلفين جوهرياً عن حياة وسيرة حياة المفكرين غير الاشتراكيين. فمثلاً، عاش فيليس مومغليانو (Fe-lice Momigliano) (1866 – 1924) حياة مضطربة كمدرِّس في مدرسة ثانوية لسنين قليلة. بعد انتمائه القتالي للحزب الاشتراكي في عام 1893، لكن بعد ذلك لا نرى فرقاً في حياته المهنية كمدرس وكأستاذ في الجامعة أو في نشاطاته الأدبية أيضاً (بصرف النظر

عن المحتويات) يميزه عن الأساتذة غير الاشتراكيين في ليتشي (Licei) فمن لهم خلفية مازيني (Mazzinian)، واهتمامات فكرية قوية. ويمكننا أن نخمِّن فنقول، إنه لو لم يكن اشتراكياً، لأمكن وصوله إلى الجامعة بصورة مبكرة.

باختصار نقول، إن المفكرين الاشتراكيين الغربيين تمتعوا على الأقل بما وصفه ماكس أدلِر (Max Adler) بـ «الحصانة الشخصية» (Personal Immunity)، وإمكانية التطوير الحرّ لاهتماماتهم الروحية[28] (Geistige). هذه الحالة لم تكن حالة أهل الفكر من النمط الروسي، الذين كانوا يُمَيِّزون تمييزاً قوياً عن «طبقات الشعب الغنية» بتعريفهم الثوري الجوهري، بالرغم من أنهم نشؤوا منها أولياً بشكل رئيسي.

أما أفراد الطبقة الأرستقراطية والموظفين الرسميين بأكثريتهم، فلا يمكن تصنيفهم في فئة المفكرين كما أكد بيسيهونوف (Pešehonov)، في عام [29] 1906. مهنتهم ردّ فعل النظام والمجتمع، الذي يعارضونه حال دون حصول نمط الاندماج الغربي، سواء عُرِّف أهل الفكر تعريفاً ذاتياً ومثالياً، كما فعل ناروذْنِك ، أم بوصفهم طبقة اجتماعية منفصلة - وهذه مسألة نوقشت كثيراً في اليسار الروسي، في أوائل تسعينات القرن العشرين، الذي حصل هو أن نموّ البروليتاريا والبورجوازية المتزايدة ثقتها بنفسها في تسعينات القرن العشرين عقَّدت وضعهم. وذلك، لأن حزب أهل الفكر الملحوظ تزايده بدا أنه ينتمي إلى البورجوازية (ففي روسيا أيضاً كما في أوروبا الغربية، انقسم أهل الفكر ووضعت إحدى فئاتها نفسها، وهي الفئة البورجوازية، بتصرّف الطبقة البورجوازية، واندمجت فيها، كما قال تروتسكي)[30]، أما الطبيعة أو الوجود المستقل لتلك الفئة، فلم يعد يتضح. ومهما يكن من أمر، فإن طبيعة تلك النقاشات يدل على الفروق العميقة التي كانت موجودة بين أوروبا الغربية والأقطار التي كانت روسيا مثلها الرئيسي. أما في أوروبا الغربية، فلم يكن ممكناً القول، كما فعل ماتشاجسكي (Machajski) (1898-1906) الثوري الروسي البولندي، وبعض معلِّقية عندما قالوا إن المفكرين مجموعة اجتماعية تسعى عبر الأيديولوجيا الثورية أن تكون بديلاً للبورجوازية وبعونٍ من البروليتاريا، قبل أن يشغلوا البروليتاريا بدورهم[31].

في ضوء الدور المركزي لماركس بوصفه الموحي مبدأ تحليل المجتمع الحديث في روسيا، لا يحتاج انتشار التأثير الماركسي في أوساط أهل الفكر إلى كثير من التعليق. فجميع المواقف اليسارية، مهما كانت طبيعية أطرافها ووحيها، كان لا بدَّ من تعريفها أيضاً نسبة إلى ذلك المبدأ. فقد كان مركزياً حتى إن الحركات القومية تأثرت به. ففي

جورجيا (Georgia)، كان المنشيفكس (Mensheviks) الذين كانوا سيصبحون الحزب «القومي» المحلّي، العصبة (Bund) - وهو الأقرب في ذلك الزمن إلى منظمة اليهود السياسية القومية - ماركسياً، وبمعنى قوي الحركة الصهيونية التي كانت حينئذٍ بسيطة، أظهرت ذلك التأثير. والآباء المؤسسون لدولة إسرائيل الذين وفدوا إلى فلسطين في «المثل المحتذى الثاني» (Second Aliya) من روسيا بعد ثورة عام 1905، جلبوا معهم أيديولوجيات روسيا الثورية أوحت ببنية وأيديولوجيا المجتمع الصهيوني هناك.

وحتى الشعوب التي كانت أقل تأثراً بالماركسية من اليهود برهنوا عن وجود تأثير لها. والذي صار الرائد الرئسي للقومية البولندية كان اسمياً الحزب الاشتراكي البولندي، وحزب الأممية الثانية - وهو وبمقدار ما، حزب العمال الحقيقي - حتى إنه كان على التقليد الماركسي القديم أن يعيد تأسيس نفسه كديمقراطية اجتماعية لمملكة بولندا وليتوانيا (Lithuania) [لوكسمبورغ، (Jogiches)] تكون منافسة، وماركسية حقيقة. وفي أرمينيا حصل انقسام شبيه مع ظهور الداشناق (Dashnaks) (الذين اعتبروا أنفسهم جزءاً من الأممية الثانية). وباختصار نقول، إن الذي حدث في روسيا هو أن المفكرين الذين انشقوا عن تقاليد شعبهم القديمة لم يتمكنوا من الفرار من تأثير الماركسية، بشكل أو بآخر.

لا يعني ذلك أنهم كانوا جميعهم ماركسيين، أو بقوا ماركسيين، أو عندما حسبوا أنفسهم كذلك اتفقوا على التأويل الصحيح للماركسية - وليس الافتراض الأخير خاصة. ففي روسيا، كما في الأمكنة الأخرى، صار تفرق الانقسامات ملحوظاً في القرن الذي تبع ذلك، بعد الموجة العظمى في أوائل تسعينات القرن التاسع عشر، التي شهدت انحداراً حاداً في النارودية (Narodism)، والتقاءً موقتاً بين معظم الأيديولوجيات الثورية والتقدمية في اتجاه ماركسية عامة، وظهر، -لأول مرة - أهل فكر مضادون للماركسية، وكانوا من بعض النواحي لاسياسيين. غير أنهم ظهروا من بوتقةٍ كانوا فيها وبلا ريب على تماس مع الماركسية وخضعوا لتأثيرها.

كانت جاذبية الماركسية للمفكرين في جنوب شرق أوروبا محدودة، ومردّ ذلك رئسياً تمثّل في ندرة أي نوع من المفكرين في بعض الأقطار المتخلِّفة [كما في أجزاء من البلقان]، وذلك: عبر مقاومتهم للتأثيرات الألمانية والروسية - كما في اليونان وبمقدار ما رومانيا، التي كانت تميل للنظر إلى باريس[32]، وعبر إخفاق الحركات العمالية والفلاّحية المهمة في الظهور (كما في رومانيا حيث انهارت بسرعة اشتراكية مجموعة منعزلة من

المفكرين، بعد تسعينات القرن التاسع عشر)، وعبر جاذبية الأيديولوجيات القومية المنافسة، كما حصل في كرواتيا (Croatia). وقد اخترقت الماركسية أجزاء من تلك المنطقة، في أعقاب نفود ناروذْنِك (كما لوحظ في بلغاريا)، وعبر الجامعات السويسرية التي كانت بؤراً للتحريك الثوري، وحيث تجمع الطلاب المنشقون سياسياً، والقادمون من أوروبا الشرقية وتمازجوا. ولم يترجم كتاب: **رأس المال** إلى أي لغة في الجنوب غربي أوروبا، باستثناء اللغة البلغارية قبل عام 1914. والأهم هو أن بعضاً من الماركسية اخترق فعلياً تلك المناطق المتخلّفة – بما في ذلك وديان مقدونية النائية – وليس صحيحاً القول، إن وقعها ظلَّ ضئيلاً نسبياً (خارج بلغاريا المتأثرة بالنفوذ الروسي).

V

إذن، السؤال هو: لماذا كان ذلك تأثير للماركسية على الثقافة التربوية في تلك الحقبة الزمنية، بوجود تلك الاختلافات القومية والأقليمية؟ فقد يكون مفيداً أن نذكر أنفسنا بأن السؤال نفسه منحاز. فما نفكر فيه هو التفاعل بين الماركسية وغير الماركسية (أو غير الاشتراكية)، لا مقدار ما تظهر الثانية من تأثير الأولى. إذ من المستحيل فصل ذلك عن التأثيرات المقابلة للأفكار اللاماركسية داخل الماركسية. وقد أسف الماركسيون المتشدِّدون وأدانوا تلك التأثيرات بوصفها مفسدة، كما شهدت بذلك النقاشات الانتقادية الهجومية التي أجراها لينين ضد التأويل الكنتي (Kantianization) واختراق فلسفة ماخ التي تدعى «النقد التجريبي الحسي» (Empirio-Criticism). ويمكن للمرء أن يفهم ويقدِّر تلك الاعتراضات، أي: لو أن ماركس رغب أن يكون كنتياً لتحول إليه هو نفسه بسهولة.

علاوةً على ذلك لا ريب في توضيح ميل كَنْتْ (Kant) بدلاً من هيغل (Hegel) في الفلسفة الماركسية كان مرتبطاً بالتعديلية أحياناً، وإن لم يكن دائماً. على كل حال نقول: **أولاً**، ليست مهمة المؤرخ في السياق الحالي أن يبتّ في مسألة ما هو صحيح وما هو غير صحيح، أو ماهو نقي أو فاسد من أنواع الماركسية، **وثانياً**: والأهم يَمْثُلُ في ميل الأفكار الماركسية واللاماركسية للاختراق المتبادل الذي هو أحد أقوى الأدلة على وجود الماركسية في ثقافة المتعلمين العامة. وبالضبط عندما تكون الماركسية حاضرة بقوة في المشهد الفكري، فإن الفصل الفج والمتصف بالاستبعاد المتبادل بين الأفكار الماركسية وغير الماركسية يصعب استبقاؤه، ذلك لأن الماركسيين واللاماركسيين يعملان في عالم ثقافي يشتمل على كليهما. وهكذا، نجد أن الميل في ستينات القرن

العشرين، لدى أطراف من اليسار للجمع بين ماركس والبنيوية (Structuralism)، وبالتحليل النفسي، والاقتصاد الأكاديمي... إلخ، وفَّر من بين أشياء أخرى الدليل على الجاذبية القوية للماركسية لدى مفكري الجامعات في ذلك الزمن.

ومقابل ذلك، نجد أن الذي حصل في بريطانيا، حيث كتب الأكاديميون الاقتصاديون في تسعينات القرن العشرين، كما لو أن ماركس لم يوجد، قائلين إن الاقتصاد الماركسي المحصور بمجموعات صغيرة من المناضلين القتاليين منفصل كلياً من دون أي تداخل مع الاقتصاد اللاماركسي.

ولا شك في القول، إن الأحزاب الماركسية الكبرى، أحزاب الأممية، وبالرغم من ميلها لتشكيل عقيدة ماركسية أرثوذكسية مضادة للتعديلية وغيرها من الهرطقات، كانت حريصه على استبعاد التأويلات المبتدعة الهرطقية من مجال النقاش المشروع داخل الحركة الاشتراكية. ولم تكن تلك الأحزاب حريصة بوصفها كيانات سياسية عملية على الحفاظ على وحدة الحزب التي تعطي للأحزاب الجمهورية الواسعة القبول مقداراً كبيراً من الآراء النظرية المتنوعة، لكنها كانت تواجه أيضاً مهمة صياغة تحليلات ماركسية في ميادين، وحول مواضيع لم تقدِّم النصوص الكلاسيكية حولها أي دليل كافٍ، أو أي دليل إطلاقاً، مثلًا حول المسألة القومية وحول الإمبريالية وحول العديد من المسائل الأخرى. فلم يكن هناك رأي قَبْلي حلو «ما علَّمت الماركسية» عن تلك الأمور، وأقل من ذلك إمكانية اللجوء إلى الكتب المرجعية. لذلك، فإن مجال النقاش الماركسي كان واسعاً بشكل يندر مثيله. لذا، فإن الفصل الفجّ وذا الاستبعاد المتبادل للماركسية عن الأفكار غير الماركسية لا يكون ممكناً إلاّ عبر حصر وحشي وقاسٍ جداً للأرثوذكسية الماركسية، والمنع الفعلي للهرطقة من قبل سلطة الدولة أو سلطة الحزب كما أثبتت الأحداث.

الأولى لم تكن متاحة، أما الثانية، فإما لم تُطبَّق أو غير فعّالة نسبياً. لذلك كان التأثير النامي للأفكار الماركسية خارج الحركة مترافقاً مع تأثير بعض الأفكار المستمدة من ثقافة غير ماركسية داخل الحركة. فكانتا بمنزلة وجهين لعملة واحدة.

من دون الحكم على طبيعته أو أهميته السياسية، هل يمكننا تقييم حضور الماركسية في الثقافة التعليمية العامة للحقبة الممتدة بين عام 1880 وعام 1914؟ من المؤكد أن ذلك كان ضئيلاً في ميدان العلوم الطبيعية، بالرغم من أن الماركسية نفسها كانت متأثرة بقوة بتلك العلوم، خاصة بعلم البيولوجيا التطورية (الداروينية). وكتابات ماركس لم

تمس العلوم الطبيعية، أما كتابات إنجلز فكانت مهمة، لتعميمها العلمي المبسَّط وتربية العمال في الحركة العمالية. فكتابه: **ديالكتيك الطبيعة** لم يعتبر منسجماً مع التطورات العلمية منذ عام 1895 حتى إن ريازانوف استبعده من الطبعة التي جمعت أعمال ماركس وإنجلز، لكنه نشره لاحقاً (ولأول مرة) في **أرشيف ماركس - إنجلز**، فحسب. لا شيء يضاهي في زمن الأممية الثانية ذلك الاهتمام الكثيف للعلوم الطبيعية بالماركسية، حينئذٍ في ثلاثينات القرن العشرين. علاوة على ذلك، لا يوجد دليل على وجود راديكالية سياسية كبيرة في وسط علماء الطبيعة في تلك الحقبة فخارج (ألمانيا) هناك علماء علمي الكيمياء والطب الذين كانوا مجموعة قليلة العدد، ولا شك في إمكانية وجود اشتراكي بينهم هنا وهناك في الغرب كما في منتوجات المؤسسات اليسارية، مثل درسة المساواة العليا [مثلاً، الشاب بول لانغيفن (Paul Langevin)] كان العالم العرضي على صلة بالماركسية، مثل الإحصائي البيولوجي كارل بيرسون[33] (Karl Pearson)، الذي اضطر إلى التحرك في اتجاه أيديولوجي مختلف جداً. وكان الماركسيون توّاقين لاكتشاف داروينيين اختصاصيين، لكنهم لم ينجحوا في اكتشاف كثيرين[34]. وكان التوجّه السياسي في وسط البيولوجيين (وأكثرهم أنجلوساكسونيون) وعلماء تحسين النسل من أتباع مالثوس الجدد في ذلك الزمن، معتبراً توجهاً سياسياً يسارياً جزئياً على الأقل، لكنه كان مستقلّا عن الاشتراكية الماركسية هذا إن لم يكن معادياً لها.

إن أقصى ما يمكن أن يقال هو أن العلماء الذين ترعرعوا في أوروبا الشرقية، مثل ماري سكلود كاوسكا - كوري (Marie Sklodkowska-Curie) وربما أولئك الذين تدرّبوا في الجامعات السويسرية أو عملوا فيها - الذين كان أهل الفكر الشرقيين الراديكاليين يسيطرون عليهم- كانوا على بيّنة ومعرفة واضحة بماركس، وبالنقاشات الجدلية حول الماركسية. فإينشتاين المعروف بزواجه من طالبة - زميلة يوغسلافية من مدينة زوريخ (Zürich)، كان على تماس بذلك الوسط. غير أنه، ولأسباب عملية، يجب اعتبار تلك الاتصالات بين العلوم الطبيعية والماركسية نوعاً من السيرة وهامشية، لذا يمكن إهمال الموضوع.

ذلكم كان بشكل طبيعي، أبعد ما يكون عن حالة الفلسفة، وأكثر عن الحالة في العلوم الاجتماعية. إذ ليس بمقدور الماركسية إلاّ أن تطرح أسئلة فلسفية عميقة تستدعي نقاشاً ما. فحيث كان تأثير هيغل قوياً، كما في إيطاليا وروسيا، فإن مثل ذلك النقاش كان كثيفاً وشديداً. (وفي حال غياب حركة ماركسية قوية لم يظهر الهيغليون الفلسفيون البريطانيون، وبشكل رئيسي مجموعة أكسفورد اهتماماً بماركس، بالرغم من

انجذاب العديد منهم للإصلاح الاجتماعي). وألمانيا موطن الفلاسفة كانت بشكل بارز لاهيغلية، ولم يكن ذلك للرابطة الأسروية بين هيغل وماركس فقط[35]. **فمجلّة الزمن الجديد** كان عليها أن تعتمد على روس مثل بليخانوف لنقاشاتها الخاصة بالأفكار الهيغلية، في حال عدم وجود ديمقراطيين اجتماعيين ألمان ذوي معرفة فلسفية واسعة.

ومقابل ذلك نقول، إن المدرسة الكَنْتِيّة المتجددة وذات التأثير الأبعد لم تؤثر كما سبق أن قلنا في الماركسيين الألمان تأثيراً جوهرياً فحسب (مثلاً، في أوساط التعديليين والماركسيين النمساويين)، بل طوَّرت أيضاً بعض الاهتمام المتعاطف مع الديمقراطية الاجتماعية، كما في مثل كتاب فورلاندر (Vorländer): **كَنْتْ والاشتراكية** (*Kant und des Sozialismus*، برلين، 1900. لذا نقول، إن الحضور الماركسي، في وسط الفلاسفة لا يمكن إنكاره.

ومن بين العلوم الاجتماعية ظلَّ علم الاقتصاد المعادي الصلب لماركس، وكان للكلاسيكية – الجديدة للمدارس (النمساوية، والأنجلو – اسكاندينافيه والسويسرية – الإيطالية) نقاط تماس قليلة بنوع اقتصاده السياسي. وفي حين صرف النمساويون وقتاً كثيراً بغية رفضه [نذكر منجِر، وبوم بورك] فإن الاسكاندينافيين – الإنجليز لم يكلِّفو أنفسهم القيام بذلك بعد ثمانينات القرن التاسع عشر، عندما أقنع العديد منهم أنفسهم بأن الاقتصاد السياسي الماركسي خاطئ[36]. ولا يعني هذا أن الحضور الماركسي لم يكن مشعوراً به. فجوزيف شومبيتر الذي كان أذكى الأعضاء الشبّان في المدرسة النمساوية (1883–1950) كان منذ بداية حياته العلمية (1908) منشغلاً بالمصير التاريخي للرأسمالية وبمسألة توفير تأويل بديل للتطور الاقتصادي عند ماركس [انظر كتابه: **نظرية التطوّر الاقتصادي** *Theorie der wirtschaftlichen Entwicklung,* (1912)].

على كل حال، إن التقييد المتعمَّد لميدان الاقتصاد من قبل الأرثوذكسيات الجديدة صعّب عليه الإسهام الذي يمثل المسائل الاقتصادية الضخمة والرئيسية كمسألة النمو والأزمات الاقتصادية. والأمر الغريب واللافت كفايةً، هو أن اهتمام الإيطاليين بالاشتراكية (من وجهة نظر لاماركسية دقيقة أو من وجهة نظر مضادة للماركسية) أدّى إلى البرهان – ضد المايزسيين النمساويين الذين قالوا العكس – بأن الاقتصاد الاشتراكي معقول نظرياً. وكان باريتو قد سبق أن حاجج قائلاً، إن كونه غير عملي لا يمكن إثباته نظرياً، وذلك قبل أن يضع بارون (1908) مقالته البحثية الرئيسية

حول وزارة الإنتاج في الدولة التعاونية 'Il ministro della produzione nello stato collettivo' التي كان لها وقعها على النقاش الاقتصادي، بعد حقبتنا تلك. ويمكن الكشف عن بعض التأثير الماركسي أو الدافع الماركسي في المدرسة «المؤسسية» أو تيار الاقتصاد الأميركي الذي كان محبوباً في الولايات المتحدة الأميركية، حيث كما ذكرنا جعل التعاطف القوي عند كثير من الاقتصاديين مع «التقدمية» والإصلاح الاجتماعي يميلون إلى النظر برضى إلى النظريات الاقتصادية التي نقدت الصناعات الكبرى (ريتشارد إلاي، مدرسة وسكونسن (Wisconsin School)، وقبل أي شيء ثورستاين فِبْلِنْ).

لم يكن للاقتصاد كعلم مستقل عن بقية العلوم الاجتماعية وجود في ألمانيا، حيث كان مسيطراً نفوذُ «المدرسة التاريخية» ومفهوم **علوم الدولة** (*Staatswissenschaften*) الذي أفضل ترجمة له هي «علوم الخطط السياسية» ('Policy Sciences'). أما وقع الماركسية، أي الواقع الواسع للديمقراطية الاجتماعية الألمانية على الاقتصاد، فلا يمكن بحثه بمعزلٍ عن سواه. فلا حاجة للقول، إن العلوم الاجتماعية الرسمية الخاصة بعلوم وهلهاين الألمانية كانت مضادة بقوة للماركسية، بالرغم من أن الليبراليين القدامى الذين كانوا قد انخرطوا في مجادلات عنيفة مع ماركس نفسه [مثل، لوجو برنتانو (Lujo Brentano)، وتشافل (Schäffle)][37]، قد بدوا تواقين للغوص في نزاع جدلي أكثر من تمنّع المدرسة ذات التوجّه البروسي، ومدرسته شمولر (Schmoller): Schmoller's Jahrbuch، عن طباعة أي مقالة عن ماركس قبل عام 1898، في حين نجد أن رد فعل كتاب شافل: **مجلة علوم الدولة بأكملها** (*Zeitschrift für die gesamte Staatswis-senschaft*) على صعود الديمقراطية الاجتماعية تمثَّل في إطلاق وابلٍ من المقالات (سبع منها بين عام 1890 وعام 1894)، قبل السكوت عن الموضوع. وبصورة عامة كما سبق أن قلنا، لقد ازداد قلق علم الاجتماع الألماني من الماركسية مع تزايد قوة الحزب الديمقراطي الاجتماعي (SPD).

إذا كانت العلوم الاجتماعية الألمانية قد نأت بنفسها عن الاقتصاد الاختصاصي، فإنها أيضاً لم تكن تثق بعلم السوسيولوجيا الاختصاصي، الذي ربطته بفرنسا وبريطانيا، وباهتمام متعاطف جداً لدى اليسار[38] - كما هو الحال في أقطار أخرى. والحق يُقال، إن علم السوسيولوجيا بوصفه ميداناً خاصاً، بدأ بالظهور في ألمانيا في السنوات الأخيرة التي تقدمت الحرب العالمية الأولى (1909). ومع ذلك، إذا نظرنا نظرة عامة على الفكر السوسيولوجي، مهما كان اسمه، فإن تأثير ماركس زمانئذٍ ولاحقاً يمكن الشعور

بوجوده. واعتقد غوتين (Gothein) [في المكان نفسه الذي تمَّ الاستشهاد به .Loc. cit]، وبيقين، أن ماركس وإنجلز اللذين كانت منهجيتهما للعلم الاجتماعي مقنعة أكثر من منهجية كويتيليه (Quetelet) وكانت أيضاً «منطقية ومتسقة أكثر» من مقاربة كونت، قد وفَّر الدافع الوحيد الأقوى.

وفي نهاية حقبتنا، نذكر أن قولًا ذكره واحد من أشهر السوسيولوجيين الأميركيين المؤثرين، يمكن أن يدلّ على مركز الماركسية. فقد كتب ألبيون سمول (Albion Small)، في عام 1912، قائلاً: «كان ماركس واحداً من أعظم المفكرين في تاريخ العلم الاجتماعي... وأنا لا أعتقد أن ماركس أضاف للعلم الاجتماعي صيغة واحدة نهائية بالمفردات التي عبَّر عنها. ومع ذلك، أنا واثق من النبوءة المفيدة أن ماركس، وفي الحكم التاريخي الأخير، سيكون له مكانة في العلم الاجتماعي شبيهة بمكانه غاليليو (Gali- leo في العلم الفيزيائي)»[39].

لقد طُوِّر تأثير الماركسية بوضوح من قبل الراديكالية السياسية للعديد من السوسيولوجيين، الذين وجدوا أنفسهم، سواء أكانوا ماركسيين أم لم يكونوا، قريبين من الحركات الديمقراطية الاجتماعية، كما كان الحال في بلجيكا. وهكذا، نجد أن ليون وِنيارسكي (Leon Winiarski)، الذي صارت نظرياته منسيّةً الآن، ولا يمكن وصفه بأنه ماركسي بأي معنى، أسهم بمقالة حول «الاشتراكية في بولندا الروسية» ("Social- ism in Russian Poland")، في مجلة **الزمن الجديد** (1891, 1).

ويمكن توضيح التأثير المباشر لماركس على غير الماركسيين عبر مؤسِّسي الجمعية السوسيولوجية الألمانية التي اشتملت ماكس فيبر وارنست ترولتش (Ernst Ro- eltsch)، وجورج سيمل (Georg Simmel) وفرديناند تونيس (Ferdinand Tönnies) الذي قيل إنه قال: بدا أن الواضح هو أن الكشف المصمم لماركس عن الجانب الأسوأ للمنافسة قد مارس تأثيراً... ليس بعده من تأثير سوى تأثير توماس هوبس[40] (Thom- as Hobbes). وقد يكون أرشيف فيبر، نعني **أرشيف العلوم الاجتماعية والسياسية الاجتماعية** الوسيلة الوحيدة لعلم الاجتماع الألماني التي أفسحت المجال لمشاركة كتّاب قريبين من الاشتراكية متأثرين بها أو متطابقين معها أيضاً.

لا حاجة للحديث عن المزيج من الاقتباسات الانتقائية من ماركس والفلسفة الوضعية والنقد العنيف المضاد للماركسية، في السوسيولوجيا الإيطالية، والروسية، والبولندية، أو النمساوية، أيضاً، سوى أنها أثبتت حضور ماركس، والأقل كان في

الأقطار النائية، حيث كانت السوسيولوجيا والماركسية متطابقين فعلياً، كما حصل في وسط قلّة أصحاب المهن الصربيين. أما الضعف البارز للوجود الماركسي في فرنسا، وإن لم يكن متوقَّعاً، يمكن ذكره كما في مثل دوركهايم. ومع أن الوسط الجمهوري والدريفوسي (Dreyfusard) القوي الذي وجدت فيه السوسيولوجيا الفرنسية جعلها تميل نحو اليسار، وصيرورة العديد من الأعضاء الشبان في مجموعة Année) (sociologique الاشتراكيين، لم يكن هناك تأثير ماركسي إلاّ في حالة (Halbwachs) (1945-1977)، وهو أمر مشكوك قبل عام 1914.

وسواء قرأنا التاريخ الفكري بالعودة إلى الوراء، مفردين المفكرين الذين اعتبروا أجداداً للسوسيولوجيا الحديثة، أم نظرنا إلى ما صار مقبولاً كسوسيولوجيا مؤثِّرة في ثمانينات القرن التاسع عشر – وبداية العقد الأول من القرن العشرين [غمبلاوكيز (Gumplowicz)، وتاتزنهوفر (Tatzenhofer)، ولوريا (Loria)، ونيارسكي... إلخ]. فإن حضور الماركسية كان قوياً ولا يمكن إنكاره. ويصح الكلام ذاته على الميدان الذي يدعى اليوم العلم السياسي. ومع أن النظرية السياسية التقليدية «الدولة» نشأت في تلك الحقبة الزمنية رئيسياً من قبل الفلاسفة والقانونيين، لم تكن ماركسية، فإن التحدي الفلسفي للمادية التاريخية كان محسوساً وله ردود كما سبق أن رأينا. وتأثَّر مباشرةً البحث المادي في كيفية عمل السياسة في الواقع العملي بما في ذلك الموضوعات الجديدة للدراسة، مثل الحركات الاجتماعية والأحزاب السياسية.

لا داعي للقول إن المنظِّرين احتاجوا ماركس لاكتشاف السياسة الديمقراطية والأحزاب الشعبية الواسعة التي جعلت الصراع الطبقي والإدارة السياسية للجماهير (أو مقاومتها مثل تلك الإدارة) من مسائل الاهتمام العملية الحادّة. أستروغورسكي (Ostrogorski) [ويكي (Wiki): 1921–1854] الروسي لم يظهر عليه تأثر بماركس، مثل توكوفيّ – باغهوت (Tocqueville - Bagehot) أو برايس (Bryce). ومع ذلك، فإن عقيدة غمبلاوكيز المفيدة أن الدولة هي، دائماً إدارة الأقلية لإخضاع الأكثرية، التي كان لها بعض الأثر على باريتو وموسكا، كانت متأثرة بماركس جزئياً، كذلك فإن التأثير الماركسي على سوريل (Sorel) ومايكلز واضح. فلا حاجة للكلام في الميدان الذي كان تطوره قليلاً، بالمقارنة مع الفترات الزمنية الحديثة.

وإذا كانت السوسيولوجيا قد تأثَّرت تأثراً واضحاً بماركس، فإن قلعة التاريخ الأكاديمي الرسمي دافعت عن نفسها بعاطفية وحماس ضد أي غارة من قبيل تلك

الغارات خاصة في الغرب. ولم يكن الدفاع ضد الديمقراطية الاجتماعية والثورة، بل كان ضد جميع العلوم الاجتماعية. فقد أنكرت وجود قوانين تاريخية، وأوَّلية القوى غير السياسة والأفكار، والتطور عبر سلسلة من المراحل المحدَّدة، والواقع هو أنها شكَّت بمشروعية أي تعميم تاريخي. وكما قال الشاب أوتو هنتز (Otto Hintze): «الموضوع الأساسي يتمثّل في المسألة النزاعية، ومسألة ما إذا كان للظواهر التاريخية صفة انتظام القانون»[41]، أو، كما قال لابريولا، وبحذر أقل: «التاريخ سيكون نظاماً معرفياً وصفياً، ويجب أن يكون كذلك»[42].

لذا، فإن العدو لم يكن ماركس فحسب، بل أي تعدٍّ من قبل العلماء الاجتماعيين على ميدان المؤرخ. ففي النقاشات الألمانية القاسية في منتصف التسعينات، التي كانت لها أصداء دولية، لم يكن الخصم ماركس، بل كارل لامبريخت (Karl Lamprecht) ذا العقل الجدلي الهجومي، فكل المؤرخين استمدوا وحيهم من كونت، أو - كانت نبرة الشك واضحة - من أي تاريخ اقتصادي مال لاشتقاق التاريخ السياسي من التطور الاجتماعي - الاقتصادي، أو أي تاريخ اقتصادي[43]. ومع ذلك، فإن الذي حصل في ألمانيا على الأقل كان واضحاً ألا وهو، أن الماركسية كانت في عقول الذين هاجموا كل تاريخ «جمعي» بوصفه «مفهوماً مادياً للتاريخ»[44]، وبصورة جوهرية ومقابل ذلك نذكر لامبريخت [مدعوماً من مؤرخين شبان مثل ر. إهرنبرغ (R. Ehrenberg) الذي تعرض كتابه: **عمر الألمان المصرفيون** (*Zeitalter der Fugger*) لهجوم شبيه] ذكر أنه اتهم بالمادية بغية ربطه بالماركسية. وفي حين انتقدته مجلة **الزمن الجديد**، حيث رأت أنه، ومن بين المؤرخين البورجوازيين «كان الأقرب للمادية التاريخية» بينما منكروه لم يكن لديهم ذلك الاعتقاد في وسط الأرثوذكسيين، فألمحوا إلى «أنه تعلَّم من ماركس أكثر مما تسلِّم بذلك مدرسته»[45].

لذلك، من الخطأ البحث عن تأثير الماركسية في وسط المؤرخين الماركسيين الصريحين، الذين هم نفر قليل فحسب، ويمكن استبعاد بعضهم لكونه من الدعائيين غير المؤهل تاريخياً[46]. وكما في ميدان السوسيولوجيا، لا بدّ من البحث عن الكُتاب الذين حاولو الإجابة على أسئلة شبيهة بأسئلة ماركس، سواء توصلوا إلى أجوبة شبيهة أم لم يتوصلوا. ذلكم كان الشعور عند المؤرخين الذي سعوا لتوحيد ميدان التاريخ القصصي، والسياسي، والمؤسسي والثقافي في إطار واسع من التحولات الاجتماعية والاقتصادية. وكان نفرٌ قليل منهم مؤرخين أكاديميين أرثوذكسيين، بالرغم من أي تأثير لامبريخت فقد كان السائد في بلجيكا هنري بيرين (Henri Pirenne) الذي كان

أبعد ما يكون عن أي نوعٍ من الاشتراكية[47] فقد كتب دفاعاً مصمماً عن لامبريخت في مجلة **استعراض تاريخي** (*Revue historique*) [(48)] (1897).

فكان التاريخ الاقتصادي والاجتماعي - والمنفصل عن التاريخ العادي - هو الأرض المتلقية، وبدأ المؤرخون الشبّان الذين أبعدهم الجفاف الرسمي، بالشعور أنهم في موطنهم ومرتاحين في هذا الميدان الاختصاصي. وكما كنا قد رأينا في ألمانيا نفسها كانت مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي مبادرة ماركسية (وهي نمساوية). وكان أبرع مؤرخ اقتصادي في جيله في إنجلترا هو جورج أنوِنْ الذي كتب موضوعه بغية تفنيد ماركس، ومع ذلك، كان مقتنعاً بأن «ماركس كان يحاول أن يتوصل إلى أنواع التاريخ الصحيحة، أي: إن المؤرخين الأرثوذكسيين تجاهلوا جميع العوامل المهمة ذات المعنى في التطور الإنساني»[(49)]، كذلك، يجب عدم التقليل من أهمية تأثير المؤرخين الروس المشرَّبين نارودنيكياً ماركسياً، مثل: كاريف (Kareive) ولاوتسسكي (Loutchisky) في فرنسا، وفينوغرادووف (Vinogradov) في بريطانيا.

الخلاصة هي: كانت الماركسية جزءاً من ميل عام لإدخال التاريخ في العلوم الاجتماعية، وإدماجه فيها خاصة التأكيد على الدور الأساسي للعوامل الاجتماعية والاقتصادية، وحتى في التطورات السياسية والفكرية[(50)]. وبما أنها كانت النظرية الأشمل والأقوى والأكثر اتّساقاً من سواها، وحاولت أن تقوم بذلك، فإن تأثيرها كان جوهرياً بالرغم من أنه غير منفصل عن النظريات الأخرى. وكما وفر ماركس قاعدة لعلم المجتمع أكثر خطورة من ما فعل كونت، مع أنه شمل أيضاً سوسيولوجيا معرفة مارست «تأثيراً عظيماً ومع أنه كان خفياً» على من هم ليسوا بماركسيين مثل ماكس فيبر، فقد سبق أن كان هناك مراقبون عرفوا أن التحدي الحقيقي للتاريخ التقليدي صدر عنه، وليس عن لامبريخت مثلاً.

مع ذلك، فإن التأثير الماركسي الفعلي على الفكر اللاماركسي ليس مما يمكن تحديده أو تعريفه، دائماً. فثمَّة منطقة رمادية واسعة هو موجود فيها بوضوح وبتزايد، ومع ذلك ينكرها الماركسيون وغير الماركسيين استناداً لأسس سياسية. فهل كان النقاد في **المجلة التاريخية** (*Historische Zeitschrift*) ملتقين مع الماركسية عندما زعموا أن لابريولا «اقترب من مفاهيم المؤرخين البورجوازيين أكثر من ممثلين أصغر آخرين للنظرية الاشتراكية»، أو هو « كان كما هو معروف يمثل مادية معتدلة»[(51)]؟ الواضح هو أنهم لم يعتقدوا ذلك، إذ رفضوه كما رفضوا ماركس. ومع ذلك، علينا أن ننظر في تلك

المنطقة الرمادية التي فيها أدرك اللاماركسيون أنهم عاجزون عن الخلاف الكلي مع ما قال الماركسيون للوقوع على معظم التأثير الماركسي عليهم، وعلى ثقافة اللاماركسيين عموماً. ففي زمن وفاة ماركس كان ضئيلاً، وذلك لأن ماركس لم يكن معروفاً ومقروءاً خارج حلقة أهل الفكر في أوروبا الشرقية. وبحلول عام 1914 اتسَّعت ولم يبق سوى نفر قليل من المثقفين حينئذٍ في مناطق واسعة في أوروبا لم يعد عارفاً بوجوده، وبعض جوانب نظريته التي دخلت الساحة الشعبية العامة.

VI

بقي علينا النظر في المسألة الأعم، مسألة العلاقات بين الماركسية والفنون، خاصة مسألة الروّاد الطليعيين الثقافيين التي أدت دوراً مهماً ومتزايداً في مجال الفنون خلال تلك الفترة. فلا وجود لرابطة ضرورية أو منطقية بين الظاهرتين، لأن الافتراض المفيد أن ما هو ثوري في الفنون لا بدَّ من أن يكون ثورياً في السياسة أيضاً، افتراض مشادٌ على اختلاط سيمانطيقي(*) ومن جهة أخرى توجد أو كان توجد رابطة وجودية، في معظم الأحيان، لأن الديمقراطيين الاجتماعيين والروّاد الطليعيين الفنين والثقافيين كانوا بمنزلة الغرباء المعارضين للأرثوذكسية البورجوازية وهذه ضدهم، فضلاً عن الشبّان، غالباً الفقر النسبي لأعضاء كثيرين من الروّاد والبوهيميين (Bohème). وقد اضطر كلاهما للتواجد المشترك معاً ومع منشقين آخرين عن الأخلاق والأنظمة القيمية الخاصة بالمجتمع البورجوازي. والثوريون السياسيون أو الحركات «التقدمية» للأقليات لم تجذب الجماعات ذات الآراء المتطرفة من الهراطقة الثقافيين وأساليب الحياة البديلة - كالنباتيين، الروحانيين والثيوصوفيين (Theosophistes)... إلخ. فحسب بل جذبت أيضاً النساء المستقلات والمتحرّرات، والمتحدين الأرثوذكسية الجنسية، والشباب من الجنسين الذين لم يدخلوا بعد في المجتمع البورجوازي، أو ثاروا ضدَّه بأي طريقة وجدوها مفيدة، أو شعروا أنهم استبعدوا منه. والهرطقات تتداخل وتتطابق جزئياً. ومثل تلك الأوساط يعرفها كل مؤرخ ثقافي. وقد وفَّرت لنا الحركة الاشتراكية الصغيرة البريطانية في ثمانينات القرن التاسع عشر أمثلة عدة. فإليانور ماركس لم تكن مجرد مقاتلة ماركسية، بل كانت امرأة مهنية حرّة رفضت الزواج الرسمي، وترجمت إبْسِن (Ibsen)، كما كانت ممثلة هاوية. وبرنارد شو كان ناشطاً اشتراكياً متأثراً

(*) تعني علم دلالات الألفاظ وتطورها (المترجم).

بالماركسية، وأديباً صنع ذاته ومطرقةً تضرب الأرثوذكسية التقليدية كناقدٍ للموسيقى والمسرح، وأحد الروّاد الضليعيين في الفنون والفكر (إبْسِنْ، فاغنر).

وقد انجذبت حركة الفنون والمهن البارعة [وليام موريس، ووالتر كراين (Wal-ter Crane)] إلى الاشتراكية (الماركسية)، في حين عملت طليعة حركة التحرر الجنسي في نفس الوسط – مثل اللوطي إدوارد كاربنتر ورائد التحرر الجنسي العام هافلوك إِلِسْ (Havelock Ellis) – وبالرغم من أن النشاط السياسي لم يكن ميداناً لأوسكار وايلد (Oscar Wilde) فقد انجذب إلى الاشتراكية، وكتب كتاباً عن الموضوع.

ولحسن حظ ذلك التواجد الذي ضمَّ الحركات الطليعية والماركسية، أن ماركس وإنجلز لم يكتبا إلاّ النزر القليل عن الفنون، وما نشراه كان أقل.

فالماركسيون الأوائل لم يكونوا مكبوحين في أذواقهم من نظرية كلاسيكية: فماركس وإنجلز لم يظهرا أي ولع بأي حركة طليعية معاصرة بعد أربعينات القرن التاسع عشر. وفي ذات الوقت، اضطرهما عدم وجود عقيدة إستطيقية(*) في التراث الكلاسيكي، أن ينشئوا واحدة. وكانت المعايير الواضحة للفنون المعاصرة، والمقبولة من الديمقراطية الاجتماعية هي تلك التي تظهر حقائق المجتمع الرأسمالي بشكل صريح ونقدي، ويفضل أن يكون هناك تأكيد خاص على العمال، والتزام بنضالاتهم (ولم يوجد أي شك بالكلاسيكيات). وهذا لا يعني في حدّ ذاته تفضيلاً للطليعيين. فالكتاب والرسامون التشكيليون التقليديون الذين تأسسوا يمكنهم بسهولة، أن يوسعوا مادتهم أو تعاطفهم الاجتماعي، والواقع هو أن الذي حصل في وسط الرسامين التشكيليين هو أننا صرنا نجد تحوّلاً لرسم المناظر الصناعية، والعمال والفلاحين، وأحياناً مشاهد نضالات عمالية [كما في: إضراب الرسام هـ. هيركومر] نجدها في صور تقدمية، لكنها بعيدة جداً عن الصور الطليعية [(ليبرمان، ليبل)]. على كل حال، لا تتطلب هذه المسائل بحثاً خاصاً.

ذلك النوع من الإستطيقيات الاشتراكية لم يطرح مسائل خاصة ذات صلة بالعلاقات بين الماركسية والطلعيين في ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر، وهي الحقبة التي ساد فيها على الأقل في أدب النثر كتاب واقعيون لهم اهتمامات اجتماعية

(*) الإستطيقا (Aesthestics) تترجم علم الجمال وهو يختص بوصف وتفسير الظواهر الفنية بأنواعها (المترجم).

وسياسية قوية، أو من يمكن تأويلهم بهذه الطريقة. والبعض تأثر كثيراً بصعود العمال، فاهتم اهتماماً خاصاً بهم. ولم يجد الماركسيون صعوبة بالترحيب على تلك الأسس بالروائيين الروس، الذين يعود اكتشافهم في الغرب «للتقدميين» مثل مسرحية إبسن والأدب الاسكانديناڤي [بامسن (Bamsun) ونذكر لذوي العيون الحديثة المذهل ستراندبرغ]، وقبل الجميع، نذكر كتّاب المدارس الموصوفين «بالطبيعيين»، الذين كانوا منشغلين بوضوح بتلك الجوانب من الواقع الرأسمالي الذي ابتعد عنها الفنانون التقليديون (زولا (Zola) وموباسانت (Maupassant) في فرنسا، وهوبتمان (Hauptmann) وسودرمان (Sudermann) في ألمانيا وفيرغا (Verga) في إيطاليا). وإن كون العديد من الطبيعيين مديرين لحملات سياسية واجتماعية، أو مثل هوبتمان منجذبين للديمقراطية الاجتماعية[52]، جعل المذهب الطبيعي ذا مقبولية أوسع. وكان الأيديولوجيون حريصين في التمييز بين الوعي الاشتراكي، ومجرد التشهير عبر نشر الفضائح. وقد رحّب ماهرنغ، بعد فحصه المذهب الطبيعي في 1893-1892 به، بوصفه علامة تفيد أن «الفن بدأ يشعر بالرأسمالية في كيانه ذاته»، فرسم موازاةً لم تكن غير متوقعة حينئذٍ كما هي اليوم بينها والمذهب الانطباعي في الرسم التشكيلي، عندما قال: «الواقع أننا بتلك الطريقة نتمكن من أن نشرح بسهولة اللذة، التي لا تشرح بطريقة أخرى، والتي عندما اتخذ الانطباعيون والطبيعيون موقف الرفض غير النظيف للمجتمع الرأسمالي فهم حينذاك يعيشون ويعملون في وسط مثل تلك النفاية، ويتحركون بغريزة غامضة، ولا يجدون احتجاجاً معذّباً يلقونه في وجوه معذبيهم»[53]. غير أنه قال: كانت أفضل خطوة أولى في اتجاه فن «حقيقي». ومع ذلك، فإن مجلة **الزمن الجديد** التي افتتحت أعمدتها «للحديثين»[54]، راجعت أو نشرت هوبتمان، موباسانت، وكورولنكو (Korolenko)، ودوستويفسكي (Dostoyevsky)، وستراندبيرغ (Strindberg)، وزولا، وإبسن وبجورنسون (Björnson)، وتولستوي (Tolstoi) وغوركي (Gorki). وميهرنغ نفسه لم ينكر أن المذهب الطبيعي الألماني كان منجذباً إلى الديمقراطية الاشتراكية، حتى لو اعتقد أن «الطبيعيين البورجوازيين كانوا ذوي عقل اشتراكي مثلما كان الاشتراكيون الإقطاعيون ذوي عقل بورجوازي وليس إلاّ»[55].

نقطة التماس الثانية والمهمة بين الماركسية والفنون كانت بصرية ومفعمة بالحيوية. فمن جهة، وجد عدد من الفنانين البصريين الواعين الذين اكتشفوا الطبقة العمالية كموضوع، فانجذبوا نحو الحركة العمالية.

هنا، كما في مواضع أخرى في الثقافة الطليعية، نجد أن دور دول الأراضي

المنخفضة، الواقعة عند تقاطع التأثيرات الفرنسية، والبريطانية، والألمانية بمقدار ما، والتي يقيم فيها سكان عاملون مستغلّون، ويعامَلون بوحشية (في بلجيكا) كان مهماً. والحق يُقال، إن الدور الثقافي الدولي لتلك الأقطار - خاصة بلجيكا - كان في تلك الحقبة الزمنية، كما كنا ذكرنا، دوراً مركزياً أكثر مما كان في بعض القرون الماضية، نعني: لا يمكن فهم المذهب الرمزي ولا الفن الجديد، والفن المعماري الحديث، والرسم التشكيلي الطليعي، وبعد الانطباعيين، من دون إسهامها. ونذكر، بصورة خاصة أنه في ثمانينات القرن التاسع عشر، البلجيكي كونستانتين مونييه (Constantin Meunier) (1831-1905)، الذي كان واحداً من مجموعةٍ من الفنانين الوثيقي الصلة بحزب العمال البلجيكي، أبدع ومهَّد الطريق لما صار يدعى لاحقاً أيقنة (Iconography) «العامل» - أي الرجل العامل ذا الصدر العاري والمفتول العضلات، وزوجة البروليتاري وأمه الهزيلتين المعذَّبتين.

ريادات فان غوغ (Van Gogh) في عالم الفقراء لم تعرف إلاّ مؤخراً. والنقّاد الماركسيون، مثل بليخانوف تعاملوا مع ذلك التوسيع لموضوع الرسم التشكيلي ودخوله في عالم ضحايا الرأسمالية بالتحفّظ المألوف، حتى عندما يتعدّى مجرد توثيق الرحمة الاجتماعية أو التعبير عنها. ومع ذلك، فإن هؤلاء الفنانين المهتمين بشكل رئيسي بمواضيعهم، اعتبروا ذلك بمنزلة إقامة جسر بين عالمهم والوسط الذي كانت تناقش فيه الماركسية.

الصلة القوية والمباشرة مع الاشتراكية حصلت عبر الفنون التطبيقية والزخرفية. وكانت الصلة مباشرة وواعية، خاصة في حركة الفنون والمهن البارعة البريطانية التي كان أستاذها وليام موريس (1834-1896)، وصار ماركسياً، وأسهم إسهاماً نظرياً قوياً وعملياً مدهشاً في التحوّل الاجتماعي نحو الفنون. وقد اتخذت فروع الفنون تلك نقطة انطلاقها الحرفي الماهر، لا الفرد والفنان المنعزل. واحتجَّت ضد اختزال الحرفي - العامل الخلاّق إلى مجرد «عامل» عبر الصناعة الرأسمالية، ليس هدفه الرئيسي خلق أعمال فنية فردية قائمة بذاتها، مصمَّمة للتأمل في حالة من الانعزال، بل خلق بنية الحياة اليومية الإنسانية، مثل القرى والمدن، والمنازل، وأثاثها الداخلي. وكما حدث، ولأسباب اقتصادية، كانت السوق الرئيسية لمنتوجاتهم في الأوساط البورجوازية المتصفة بالمغامرة الثقافية والطبقات الوسطى المهنية - وهو المصير ذاته الذي ألفه روّاد مسرح الشعب، ولاحقاً بعده[56]. الواقع هو أن حركات الفنون والمهن البارعة وتطورها، والفن الجديد تقدم ومهّد الطريق لأول أسلوب حياة بورجوازية مريحة في القرن التاسع عشر،

وكذلك نجد أن الكوخ أو الفيلا في الضواحي أو شبه الريفية، والأسلوب بأنواع مختلفة كل ذلك لاقى ترحيباً خاصاً في المجتمعات الشابة أو المجتمعات البورجوازية في المناطق، وذلك، بغية التعبير عن هويّتها الثقافية – في بروكسل، وبرشلونة (Bar-celona)، وغلاسكو، وهلسنكي (Helsinki) وبراغ. ومع ذلك، فإن الطموحات الاجتماعية للمهنيين البارعين من الفنانين ومهندسي العمارة الطليعيين لم تكن محصورة في تلبية حاجات الطبقة الوسطى. فهم تقدموا ومهدّوا الطريق لفن العمارة الحديث، ولتخطيط المدن التي تجلّى فيها العنصر الطوباوي الاجتماعي – وهؤلاء «رواد الحركة الحديثة»، غالباً ما كانوا يغدون من وسط اشتراكي تقدّمي بريطاني، كما في حالة و. ر. لثابي (W. R. Lethaby) (1857-1931)، وباترك غيدس (Patrick Geddes)، وروّاد مدن الحدائق. وقد ارتبط روّادها في القارة ارتباطاً وثيقاً بالديمقراطية الاجتماعية. ففيكتور هورتا (Victor Horta) (1861-1947)، وهو المهندس المعماري في الفن الجديد (Art Nouveau) البلجيكي هو الذي وضع تصميم بيت الشعب (Maison du Peuple) في مدينة بروكسل (1897)، وفي قسم الفن فيه ألقى هـ. فان دو فلْدْ (H. Van de Velde) محاضراته عن وليام موريس، وصار لاحقاً شخصية رئيسية في تطور الحركة الحديثة في ألمانيا. والطليعي الاشتراكي من الهندسة المعمارية الهولندية الحديثة، هـ. ب. بيرلاج (H. P. Berlage) (1856-1934)، هو الذي وضع تصميم مكاتب نقابة العمال الماسيّة في أمستردام (Amsterdam Diamond Worker's Union) (1899).

الحقيقة الحاسمة تمثّلت في أن السياسة الجديدة والفنون الجديدة التقتا في تلك النقطة. والأهم هو أن نواة الفنانين الأصليين (وكانوا بريطانيين بشكل رئيسي) الذين كانوا طليعة تلك الثورة في الفنون التطبيقية، لم تكن متأثرة بالماركسية مثل موريس فحسب، بل أيضاً – مع [والتر كراين] وفرت الكثير من مفردات الأيقنة الدولية الجارية الخاصة بالحركة الديمقراطية الاجتماعية. والواقع هو أن وليام موريس أنشأ تحليلاً قوياً للعلاقات القائمة بين الفن والمجتمع التي اعتبرها ماركسية، بالرغم من أننا نستطيع أن نقع على تأثيرات سابقة لمن تقدموا رافاييل (Raphael) ورسكنْ (Ruskin). والغريب بما فيه الكفاية أن التفكير الماركسي الأرثوذكسي المتعلق بالفنون ظلّ غير متأثر أبداً بتلك التطورات ولم تتمكن كتابات وليام موريس إلى يومنا من أن تدخل في المجرى الرئيسي للنقاشات الإستطيقية الماركسية، بالرغم من أنها أصبحت في السنوات الأخيرة، معروفة بشكل أفضل، وصار لها مناصرون ماركسيون أقوياء[57].

لم توجد روابط واضحة شبيهة قرّبت بين الماركسيين ومجموعات رئيسية أخرى

في ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر الذين يمكن وصفهم بالرمزيين بشكل عام. ومع ذلك، فإن الحقيقة ظلّت تفيد أن معظم الشعراء الرمزيين اتَّصف بتعاطف ثوري أو اشتراكي. وفي فرنسا، كان الانطباعيون، مثل معظم الرسّامين التشكيليين الجدد في تلك الحقبة الزمنية منجذبين رئيسياً، للمذهب الفوضوي، في أوائل ثمانينات القرن التاسع عشر - أما الانطباعيون الأكبر سناً فمثَّلوا الاستثناء، مثل بيسّارو (Pissaro)، حيث كانوا غير سياسيين.

المفترض هو أن تلك الحال لم تكن، لأنهم اعترضوا على ماركس مبدئياً، بل لأن القادة الاشتراكيين الفرنسيين (حتى ظهور جوريس) لم يشكلوا وحياً لهم وتجدر الملاحظة أن «أكثرية الشعراء الشبّان» الذين ارتدّوا إلى مبادئ الثورة كانوا سيرحبون بأي رايةٍ ثورية، سواء أكانوا تابعين لباكونين أم لكارل ماركس[58]. كما لم تجذبهم سفسطة الغويسديين (Guesdists) العالية، في حين أن الفوضويين لم يهتموا كثيراً بالفنون فحسب، بل اشتملوا على رسامين تشكيليين ونقّاد مهمين في وسط مقاتليهم الأوائل، نذكر على سبيل المثال، فيلكس فينيون[59] (Félix Fénéon). ومقابل ذلك، نذكر أنه حزب العمال البلجيكي (Parti Ouvrier Belge) هو الذي اجتذب الرمزيين، ولم يحصل ذلك لأنه احتوى على الثوار الفوضويين فحسب، بل، أيضاً، لأن مجموعة قادته أو الناطقين باسمه، الذين وفدوا من الطبقة الوسطى المثقَّفة، كانوا مهتمين بالفنون، بشكل ملحوظ ونشط. فجول دِستري كتب مطوَّلًا عن الاشتراكية والفن، ونشر قائمة شملت كتابات أوديلون ريدون (Odilon Redon) على الحجر، وفاندرفلد، وتردَّد على الشعراء، وميترلنك ظل مرتبطاً بالحزب إلى عام 1914 تقريباً، وصار فرهيرن (Verhaeren) شاعره الرسمي، كما كان الرسّامان إيكهود (Eekhoud) وخنويف (Khnopff) نشطين في بيت الشعب (Maison du peuple). وصحيح أن المذهب الرمزي ازدهر في الأقطار التي يكون المنظرون الماركسيون فيها المتشوقون لإدانته [مثل بليخانوف] موجودين. لذا نقول، إن العلاقات بين الثورة الفنية والثورة السياسية كانت سلمية وحبيّة بما فيه الكفاية.

والحاصل هو أنه حتى نهاية القرن، وجدت أرضية مشتركة واسعة بين الطليعيين الثقافيين والفنون أعجبت بها الأقليات الحسنة التمييز من جهة، والديمقراطية الاجتماعية المتزايدة والمتأثرة بالماركسية من جهة أخرى. والمفكرون الاشتراكيون الذين صاروا قادة في الأحزاب الجديدة - الذين ولدوا حوالي عام 1860 - كانوا ما يزالون صغاراً، فلم يفقدوا صلتهم بأذواق «المتقدمين»: حتى أكبرهم سناً وهو فيكتور أدلِر

(1852) وكوتسكي (1854)، كانا لا يزالان دون الأربعين في عام 1890. فأدلِر، الذي كان يتردَّد على مقهى غرينستيدل (Café Griensteidl)، وكانت المركز الرئيسي للفنانين والمفكرين من فيينا، لم يكن مشرَّباً بالأدب الكلاسيكي بصورة عميقة فحسب، بل كان أيضاً أحد المتعاطفين والمتحمسين لفاغنر (Wagner) و- مثل بليخانوف وشو- أكدَّ على المعاني الثورية و«الاشتراكية لفاغنز أكثر مما هو حاصل اليوم، كما كان متحمساً لصديقه غوستاف ماهلر، ونصيراً مبكراً لبركنر، ومعجباً مثل جميع الاشتراكيين في ذلك الجيل، بابسن ودوستويفسكي، كما كان من الذين يثيرهم فيرهيرن بشعره، وقد ترجم قصائده»[60]. وفي المقابل، وكما سبق أن رأينا، هناك قسم كبير من الطبيعيين الرمزيين ومدارس «تقدمية» أخرى في ذلك الزمن انجذب للحركة العمالية (خارج فرنسا) وللديمقراطية الاجتماعية. ولم يكن الانجذاب ثابتاً، دائماً:

فالأديب (Littérateur) النمساوي هرمان بار (Hermann Bahr)، الذي صوَّر نفسه ناطقاً باسم «الحديثين» ابتعد عن الماركسية في نهاية ثمانينات القرن التاسع عشر، وهوبتمان الطبيعي العظيم الذي ذهب في اتجاه رمزي أكد على التحفظّات النظرية للمعلِّقين الماركسيين. كذلك، كان للانشقاق بين الاشتراكيين والفوضويين آثاره، إذ من الواضح أن بعضهم (خاصة في الفنون البصرية) كان منجذباً إلى ثورة الفريق الثاني. ومع ذلك شعر «الحديثون» أنهم مرتاحون بجوار الحركات العمالية، والماركسيين، والمفكرين المثقفين على الأقل من بينهم مع «الحديثين».

لأسباب لم تبحث كفاية بعد، انقطعت تلك الروابط لبعض الوقت. ويمكن ذكر بعض الأسباب. **أولاً**، كما برهنت «الأزمة في الماركسية» في أواخر تسعينات القرن التاسع عشر، على أنه لم يعد ممكناً استبقاء الاعتقاد بأن الرأسمالية على حافة الانهيار، والحركة الاشتراكية قاربت النصر الثوري في أوروبا الغربية. فالمفكرون والفنانون الذين انجذبوا إلى حركة عمال معرَّفةٍ تعريفاً واسعاً وغامضاً، عبر جوّ من الأمل العام والثقة، وتوقّعٍ طوباوي أيضاً خلقته حول نفسها، نراهم يواجهون بعدئذٍ حركةً غير واثقة من مطامحها المستقبلية، وممزقة بنزاعات جدلية داخلية وطائفية متزايدة. وقد وجد ذلك التصدّع الأيديولوجي أيضاً في أوروبا الشرقية نعني: إنه لأمر واحد وجود تعاطف مع حركة تتلاقي جميع تيّراتها في اتجاه ماركسي عام، كما كان الحال في أوائل تسعينات القرن التاسع عشر، أو مع اشتراكية بولندية، قبل الانشقاق بين القوميين والمضادين للقومية، ولكنه أمر آخر الاختيار بين أطراف متخاصمة مؤلفة من ثوريين وثوريين سابقين. على كل حال وجدت في الغرب الحقيقة الإضافية المفيدة أن الحركات الجديدة صارت

مؤسسةً بصورة متزايدة ومنخرطة في السياسة اليومية مما لا يثير الفنانين والكتاب ويجتذبهم، فصاروا إصلاحيين في الممارسة، تاركين الثورة المستقبلية لنوع من الحتمية التاريخية. علاوةً على ذلك، فإن الأحزاب الجمهورية التي غالباً ما تنشئ عالمها الثقافي الخاص لم تكن ترغب في الفنون التي لا يفهمها جمهور الطبقة العمالية أو يرتضيها. وصحيح القول إن المشتركين في مكتبات العمال الألمان كانوا يبتعدون بشكل متزايد عن الكتب السياسية ويطلبون الأدب القصصي، وفي نفس الوقت أيضاً لا يقرؤون الشعر إلاّ فيما ندر وكذلك الأدب الكلاسيكي، أمّا كاتبهم المفضَّل فقد كان بلاريب، فريدريك غيرستيكر، مؤلف روايات المغامرة، غير أنه لم يكن موحياً للطليعيين[61]. فليس مستغرباً أن نجد كارل كراوس، في فيينا الذي كان منجذباً كثيراً في أول أمره إلى الديمقراطيين الاجتماعيين عبر ارتداده الثقافي والسياسي الخاص، يبتعد عنهم في تسعينات القرن العشرين. فقد لامهم لأنهم لم ينشئوا ولم يعزِّزوا مستوى ثقافياً جدّياً كافياً في أوساط العمال، كما أنه لم يكن راضياً على حملة الحزب في الانتخابات العامة[62] التي فاز فيها.

اليسار الثوري للديمقراطية الاجتماعية منذ البداية هامشي في الغرب، والميول النقابية أو الفوضوية كان من المحتمل أن تُجتذب الثقافة الطليعية ذات الانعطافة العقلية الراديكالية. وبعد عام 1900، وجد الفوضويون خاصة قاعدتهم الاجتماعية خارج بعض الأقطار اللاتينية في وسط مؤلف من بوهيميين وبعض العمال ذوي التعليم الذاتي، الذين تحولوا إلى قسم من البروليتاريا كان يفتقر للوعي الطبقي – في شبكات المونمارت (Monmartres) المختلفة في العالم الغربي – واستقر في ثقافة ثانوية عامة، ثقافة الذين رفضوا أو لم تستوعبهم أساليب الحياة «البورجوازية» أو الحركات الجمهورية المنظمة[63]. ولم تكن تلك الثورة الفردية والمتناقضة جوهرياً معارضة للثورة الاجتماعية. فغالباً ما كانت تنتظر حركة ملائمة من التمرّد والثورة يمكنها أن تربط نفسها بها، وكانت قد تحركت بشكل واسع ضد الحرب ولصالح الثورة الروسية. وقد يكون سوفيت ميونخ (Munich) في عام 1919م قد وفَّر لها اللحظة الكبرى للجزم السياسي. ومع ذلك فقد تحوَّلت عن موسكو واقعياً ونظرياً، فنيتشه (Nietzsche) الذي كان المفكر الذي لم يكن يعجب الماركسيين أو الديمقراطيين الاجتماعيين الآخرين لأسباب واضحة، صار بالرغم من كراهيته «للبورجوازية» المرشد المميَّز للثوار الفوضويين والمشايعين مذهب «الفوضوية» بوصفهم منشقّين ثقافيين لا سياسيين من الطبقة الوسطى.

ومقابل ذلك، فإن الراديكالية الثقافية لتطورات الطليعيين في القرن الجديد، فصلتهم عن حركات العمال التي ظلَّ أعضاؤها تقليديين بأذواقهم ماداموا (والحركات) مرتبطين باللغات المفهومة ومبادئ الاتصالات الرمزية التي عبّرت عن محتويات الأعمال الفنية. وطليعيو الربع الأخير من القرن لم يقطعوا صلاتهم بتلك اللغات مع أنهم مدّوها. وبقليل من التعديل يمكن إدراك ما «كان يقصد» واغنر والانطباعيون، وحتى العديد من الرمزيين. ومنذ أوائل القرن العشرين، لم يعد الحال كذلك – وقد يكون صالون باريس صالون باريس الخريفي (Paris salon d'Automme) في عام 1905 علامة الانفصال في الفنون البصرية.

علاوة على ذلك، إن القادة الاشتراكيين وحتى الجيل الأصغر سناً الذي وُلد بعد عام 1870، لم يعودوا على صلةٍ. فروزا لوكمسبورغ نافحت عن نفسها ضد اتهامها بأنها لا تحب «الكتّاب الحديثين» ومع أنها كانت معجبة بطليعيي تسعينات القرن التاسع عشر، مثل الشعراء الطبيعيين الألمان، فقد أقرَّت بأنها لم تفهم هوفمانستال، وأنها لم تسمع أبداً بستيفان جورج[64]. وحتى تروتسكي الذي كان يتباهى بقربه من الطرق الثقافية الجديدة - كتب تحليلاً مطوّلاً لفرانك ويدكايند (Frank Wedekind) لمجلة **الزمن الجديد**، في عام 1908، وقام بمراجعة معارض فنية – لم يبد أنه بيَّن عن مألوفية محدَّدة بما اعتبره الشباب المغامر في أعوام 1905 – 1914 طليعياً – باستثناء الأدب الروسي. ومثل روزا لوكمسبورغ سجل ملاحظات على ذاتية الطليعة المتطرفة ولم يوافق عليه – وبمفردات لوكسمبورغ، انتقد قدرته على التعبير عن «حالة عقلية» – ولا شيء سوى ذلك («غير أن المرء لا يقدر أن يطابق البشر بحالات العقل»)[65]. وبعكس لوكسمبورغ، حاول أن ينشئ تأويلاً ماركسياً للاتجاهات الجديدة للثورة الذاتية و «المنطق الإستطيقي المحض» مما حوَّل بشكل طبيعي الثورة ضد المذهب الأكاديمي إلى ثورة شكل فني ذي اكتفاء ذاتي ضد المحتوى معتبرين إياه حقيقة حيادية غير منحازة[66]؛ ونسبه إلى جديد الحياة في بيئة المدينة الحديثة العملاقة تحديداً. كون التعبير عن تلك التجربة حصل من قِبَل مفكرين عاشوا في تلك المدن البابلية الحديثة. ولا ريب في أن لوكسمبوغ وتروتسكي كانا صدى للمفاهيم الاجتماعية القومية السابقة للنظرية الإستطيقية الروسية، لكنهما في العمق عكسا الموقف العام جداً للماركسيين، الشرقيين والغربيين. وقد يطور أحد الناس المهتمين بالفنون والتوّاقين لاستبقاء صلة بالاتجاهات الأخيرة، ميلاً لبعض تلك الابتكارات الجديدة بوصفه فرداً خاصاً، لكن السؤال هو: كيف يجب بالضبط، ربط مثل ذلك الاهتمام بنشاطاته ومعتقداته الاشتراكية أو نشاطاتها ومعتقداتها الاشتراكية؟

لم تكن المسألة، ببساطة مسألة سن، بالرغم من أن قليلاً من الأسماء المعروفة في الأممية، كان دون الثلاثين في عام 1910، وكان أفراد الغالبية في منتصف أعمارهم. فما أخفق الماركسيون في تقديره تمثَّل في أن ما اعتبروه رجوعاً إلى الولوع بالفن والبراعة الفنية، والتجربة (وليس تقدماً كما رآه الطليعيون)، وهجراناً لمحتوى الفنون بما في ذلك محتواهم السياسي والاجتماعي المعروف والمعلن.

فما لم يقبلوه هو اختيارهم مذهباً ذاتياً محضاً يعادل الأنانية المطلقة (Solipsism)، مثل الذي وجده بليخانون عند التكعيبيين[67]. ومما يؤسف له، إن أمكن توضيحه، هو أنه لم يوجد «في عداد الأيديولوجيين البورجوازيين من ذهب إلى جانب البروليتاريا سوى القليل جداً ممن مارس الفنون» [كونستلر (Künstler)]، وفي السنوات التي تقدَّمت عام 1914 كان عدد الذين انجذبوا لحركات العمال أقل، قبل عام 1900. وكانت الحركة الطيليعية للرسامين التشكيليين الفرنسيين[68] ('A l'écart de toute agitation intellectuelle et sociale, confinés dans les conflits de technique) وأكثر من ذلك، ففي عامي 1912 – 1913 ذكر بليخانوف ما اعتبره أمراً واضحاً، وهو أن «غالبية فناني اليوم يرون وجهة النظر البورجوازية، وأنهم منيعون ضد الأفكار العظمى، وأفكار الحرية، في زمننا»[69]. ولم يكن سهلاً في وسط جمهور الفنانين الذين ادعوا أنهم «ضد البورجوازية» أن نجد أكثر من نفر قليل قريب من الحركات الاشتراكية المنظَّمة – والفوضويون أيضاً لم يجدوا من المتحمسين المكرّسين أنفسهم بين الرسامين التشكيليين إلاّ أقلّ مما كان في تسعينات القرن التاسع عشر– والأسهل بكثير. كان اكتشاف الذين تشكّوا من سفسطة العمال، والتحبويين الصريحين، مثل حلقة ستيفان جورج في ألمانيا أو الروس الذين بلغوا الذروة، والباحثين عن رفقة أرستقراطية (والفضل مع النساء) – وفي الأدب – الرجعيين المحتملين والفعليين. علاوة على ذلك، علينا أن لا ننسى أن الطليعيين التجريبيين الجدد لم يثوروا ضد الأكاديمية بقدر ثورتهم، وبالضبط، ضد طليعيي ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر الذين كانوا قريبين نسبياً من الحركات العمالية والاشتراكية في ذلك الزمن.

باختصار نقول، ماذا يمكن أن يرى الماركسيون في الحركات الطليعية الجديدة تلك سوى علامة أخرى عن أزمة الثقافة البورجوازية، وماذا يمكن أن يُرى في الطليعيين في الماركسية، إلاّ برهاناً آخر مفاده أن الماضي لا يستطيع أن يفهم المستقبل؟ ولا ريب في أن بعضاً من بين دزّينات قليلة من الأفراد الذي اعتقد الرساميون التشكيليون الجدد على رعايته ودعمه، كان من المتعاطفين مع الماركسية، أيضاً [مثلاً موروزف (Moro-

zov) وشوشوكن (Shuchukin)] (أما الداعمون، فكانوا من جامعي الآثار الفنية أو تجّارها). ولم يكن هواة الفن الثوري محافظين سياسياً في ذلك الزمن. والمنظِّر الماركسي العرضي [لوناشارسكي (Lunacharski) بوغدانوف (Bogdanov)] قد يسوغ تعاطفه مع المجدِّدين، لكن المحتمل أن يقابل بالمقاومة. لذا، فإن العالم الثقافي للحركات الاشتراكية والعمالية ليس فيها موطئ قدم للطليعيين الجدد، كما أن منظري الماركسية الأرثوذكسيين [وواقعياً (de facto)، كانوا من النوع الأوروبي الأوسطي والشرقي] أدانوهم.

على كل حال، إذا بقي بعض الطليعيين الجدد بعيدين عن الاشتراكية أو أي سياسة أخرى - والبعض اضطر أن يصير رجعياً صريحاً أو فاشياً - فإن قسماً كبيراً من الثوار في الفنون كانوا ينتظرون أزمة تاريخية، فيها يمكن للثورة الفنية والثورة السياسية أن تندمجا من جديد. وقد وجدوها بعد عام 1914 في الحركة المضادّة للحرب وفي الثورة الروسية.

فبعد عام 1917 عاد الرباط من جديد بين الماركسية (بشكل البلشفية اللينينية) والطليعيين في روسيا، وألمانيا، أولاً ورئيسياً. والعصر الذي دعاه النازيون (بلا خطأ) (Kulturbolschewismus) لا يمتّ بصلة لتاريخ الماركسية في زمن الأممية الثانية. ومع ذلك لا بدّ من ذكر التطورات التي تبعت عام 1917، لأنها أدّت إلى تفريع النظرية الإستطيقية الماركسية إلى فرع «الواقعيين» وفرع «الطليعيين» - ونذكر النزاع بين لوكاش وبريخت، وبين المعجبين بتولستوي والمعجبين بجيمس جويس (James Joyce). وكما كنا قد رأينا كان لذلك الانقسام جذوره في فترة ما قبل عام 1914.

إذا نظرنا إلى الوراء، إلى فترة الأممية الثانية، ككل، فلا بدّ لنا من الاستنتاج أن العلاقة بين الماركسية والفنون لم تكن مرتاحة ومشجعة أبداً، وبعد عام 1900 صارت صعبة جداً. والمنظّرون الماركسيون لم يشعروا بسعادة إزاء أيّ من الحركات الحديثة في ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر تاركين دعمها الحماسي للمفكرين الموجودين على أطراف الماركسية (كما في بلجيكا) أو للثوار اللاماركسيين والاشتراكيين. وقد اعتبر النقّاد الماركسيون القياديون أنفسهم معلّقين أو حكاماً لا داعمين أو لاعبين في مباراة كرة القدم الثقافية. ولم يؤذِ ذلك تحليلهم التاريخي للتطورات الفنية كعلامات تآكل المجتمع البورجوازي - وهو تحليل مؤثِّر. ومع ذلك، لا نستطيع إلاّ أن نتأثر بخارجية ملاحظاتهم. فكل مفكر ماركسي اعتبر نفسه أو نفسها مشاركاً في أعمال

الفلسفة والعلوم، ولو كان هاوياً، ولا نجد أياً منهم رأى نفسه مشاركاً في الفنون الخلاّقة. فهم حلّلوا علاقة الفن بالمجتمع والحركة، ووضعوا علامات جيّدة أو قليلة للمدارس، وللفنانين وللأعمال. وفي أفضل الحالات أعزّوا القليل من الفنانين الذين التحقوا بحركاتهم، وأجازوا أوهامهم وأهواءهم وتقلّباتهم الشخصية والأيديولوجية، كما كان يفعل المجتمع البورجوازي. لذا فإن تأثير الماركسية على الفنون كان خارجياً من الأطراف. وحتى المذهب الطبيعي والمذهب الرمزي القريبين من الحركات الاشتراكية في زمانهم كانا سيتطوران كما تطورا فعلياً، لو أن الماركسيين لم يهتموا بهما. والواقع هو أن الماركسيين صعب عليهم أن يروا أي دور للفنان في ظل الرأسمالية إلاّ دور الدعائي، والعرض السوسيولوجي أو «الكلاسيكي». ويغري المرء القول، إن الماركسية الأممية الثانية لم يكن لديها نظرية وافية عن الفنون، ولم تكن مضطرة، بداعي الإلحاح السياسي، لأن تكتشف عدم كفايتها النظرية - بخلاف ما يكون في حالة «المسألة القومية».

غير أننا نجد في داخل ماركسية الأممية الثانية نظرية أصلية عن الفنون في المجتمع، بالرغم من أن الجزء الأساسي للنظرية الماركسية لم تكن على وعي بها، نعني: النظرية التي أنشأها وليام موريس. وإذا كان هناك تأثير رئيسي ودائم في الفنون، فقد جاء من ذلك التيّار الفكري، الذي تجاوز بنية الفنون في العصر البورجوازي («الفنان الفردي») إلى عنصر الخلق الفني في جميع الفنون العمالية و(التقليدية) للحياة الشعبية، كما تجاوز ما يعادل إنتاج السلع في الفن («عمل الفن» الفردي) على محيط الحياة اليومية. وكان ذلك بشكل مميّز، الفرع الوحيد من النظرية الإستطيقية الماركسية الذي اهتم بفن العمارة، واعتبره مبدأ تصدّر الفنون[70]. فإذا كان النقد الماركسي هو دولاب الموازنة للمذهب الطبيعي أو «الواقعية»، فإنه كان ماكنة حركة الفنون والمهن البارعة التي كان وقعها التاريخي على فن العمارة والتصميم الحديث أساسياً، وظل كذلك.

وقد أهمل، لأن موريس الذي كان أحد الماركسيين البريطانيين الأوائل[71]، لم يكن يعتبر إلاّ بوصفه فناناً شهيراً، وسياسياً من الوزن الخفيف، ولأن تقليد التنظير البريطاني الخاص بالفن والمجتمع [المذهب القروسطي، (رسكنْ)] الذي دمجه بالماركسية، لم يكن له صلة بالمجرى الرئيسي للفكر الماركسي. ومع ذلك، فقد نشأ من داخل الفنون، وكان ماركسياً - وهذا ما أعلنه موريس، على الأقل - وحوَّل وأثَّر في ممارسي الفنون المصممين، ومهندسي العمارة، ومخططي المدن، إضافةً إلى منظمي المتاحف والمدارس الفنية في قسم كبير من أوروبا. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يكون ذلك التأثير الماركسي الكبير على الفنون قد جاء من بريطانيا، بالرغم من أن الماركسية في تلك البلاد كانت

أهميتها مهملة. لأن الذي حصل في تلك الحقبة الزمنية هو أن بريطانيا كانت القطر الأوروبي الوحيد الذي حوّلته الرأسمالية بما يكفي من تمكين الإنتاج الصناعي من تحويل الإنتاج المهني البارع. وبعد التفكير المليّ نقول، لم يكن بالأمر المفاجئ أن تنتج البلاد، التي حسبها ماركس المنطقة «الكلاسيكية» للتطورات الرأسمالية، النقد الرئيسي الوحيد لما فعلت الرأسمالية بالفنون. كما لم يكن مفاجئاً أن ينسى العنصر الماركسي في تلك الحركة المهمة داخل الفنون. فقد كان موريس نفسه واقعياً بما يكفي ليعرف أن الفن لا يستطيع أن يصير اشتراكياً[72]، ما بقيت الرأسمالية. وحالما خرجت الرأسمالية من أزمتها لتزدهر وتتوسع، فإنها استحوذت على فنون الثوريين وامتصتها. وتناولتها الطبقة الوسطى المثقفة والمرتاحة مع المصممين الصناعيين. فكان أعظم أعمال مهندس العمارة الاشتراكي الهولندي هـ. ب. بيرلاج هو سوق الأوراق المالية (البورصة) في أمستردام وليس بناء نقابة العمالية الماسيّة. وأنشأ مخططو المدن الموريسيون الأقربون لشعبهم مدناً فيها «ضواحٍ ذات حدائق، وكانت مسكونة من الطبقة الوسطى، ومدناً ذات حدائق بعيدة عن المصانع». وبهذه الطريقة، عبَّرت الفنون عن آمال اشتراكية الأممية الثانية وخيباتها.

الفصل الحادي عشر

في العصر المضادّ للفاشيّة

1929 – 1945

كانت ثلاثينات القرن العشرين هي العقد الزمني الذي صارت فيه الماركسية قوةً خطرةً لا يستهان بها في أوساط مفكري أوروبا الغربية والعالم الناطق باللغة الإنجليزية. وسبق أن كانت لمدة طويلة، مثل تلك القوة في أوروبا الشرقية وأجزاء من أوروبا الوسطى، كما أن الثورة الروسية اجتذبت بشكل طبيعي العديد من الاشتراكيين الغربيين وثوّار وثوريين آخرين. على كل حال، خلافاً للرأي الشائع إنه بعد أن همدت الموجة الثورية، موجة 1917–1920، فإن نمط الماركسية الذي ساد بشكل ساحق – نمط الأممية الشيوعية – لم يظهر أي جاذبية قوية جداً للمفكرين الغربيين، خاصة ذوي الأصل البورجوازي. وذلك، لأن المجموعات الماركسية المنشقّة كانت تجتذبهم أكثر من سواها، خاصة التروتسكية (Trotskyism)، لكن مثل تلك المجموعات كانت مؤلفة من أعداد قليلة، بالمقارنة مع الأحزاب الشيوعية الرئيسية، لذا أُهملت عددياً.

كان معظم الأحزاب الشيوعية في الغرب بروليتارياً بشكل غالب وكان وضع المفكر «البورجوازي»، في داخلها شاذّاً غالباً، وغير مرتاح دائماً[1]. علاوة على ذلك وبعد فترة «البلشفية» خاصةً تأكَّد دور العمال في قيادة تلك الأحزاب بشكل متعمَّد. وخلافاً لما فعلت أحزاب الأممية الثانية، كان هناك القليل من القادة البارزين في الأحزاب الشيوعية من المفكرين باستثناء ما كان في بعض الأقطار غير المتطورة والمستعمرة، كما أن مثل تلك الأحزاب لم تكن تشعر بفخر بأن يكون مفكرون على رأسها، بالرغم من رغبتها في أن يكون بعضهم مرتبطاً بها في مجالات قدرات أخرى.

لذا، كان تدفق المفكرين إلى تلك الأحزاب في ثلاثينات القرن العشرين ظاهرة جديدة: ففي بريطانيا كان 15٪ من المندوبين لكونغرس الحزب الشيوعي، في عام 1938 من الطلاب أو أعضاء مهن بارعة[2].

«لا يوجد اليوم في السياسة من تساوي قيمته ستة بنسات خارج صفوف الليبراليين، ماعدا الشيوعيين المفكرين من جيل ما بعد الحرب ممن أعمارهم دون الخمسة والثلاثين. وأنا أحبهم وأحترمهم أيضاً. وقد يكونون بمشاعرهم وغرائزهم أقرب ما لدينا الآن إلى الرجال الإنجليز النموذجيين/ غير المنسجمين الذين شاركوا في الحروب الصليبية، وقاموا بحركة الإصلاح الديني، وناضلوا في الثورة الكبرى، وأحرزوا لنا حرياتنا المدنية والدينية وأنسنة طبقات العمال في القرن الماضي»[3].

لم يكن اختراق الماركسية الفكرية لتلك الأقطار جديداً فحسب، بل كان أهلياً. وقد لفتت أهمية اللاجئين السياسيين في نشر الاشتراكية خاصة الماركسية في زمن الأممية الثانية[4]، وللأسف كانت ثلاثينات القرن العشرين هي فترة الهجرة السياسية الواسعة. علاوة على ذلك، كان وقع المهاجرين على الحياة الفكرية للأقطار التي استقبلتهم عميقاً في بريطانيا وأكثر عمقاً في أميركا، وإن لم يكن الحال كذلك في فرنسا. أما الوقع على ماركسية الأجيال الأهلية التي تحوّلت إلى ذلك الاتجاه في الغرب، فلم يكن كبيراً.

قد يكون مردّ ذلك إلى الحقيقة المفيدة أن النسخة التي اجتذبتهم اجتذاباً كانت غالباً ما ارتبطت بالأحزاب الشيوعية والاتحاد السوفيتي عبر نشر ترجمة «الكلاسيكيات» (التي تشمل الآن لينين، وستالين وبليخانوف أيضاً). والآن توجد طبعة عن الماركسية الدولية القياسية أكثر ما يمثلها بشكل منظَّم قسمٌ عن «المادية الديالكتيكية والتاريخية»، في كتاب: **تاريخ الحزب الشيوعي السوفيتي**: درس موجز في عام 1938. لذلك، فإن اللاجئين من الشيوعيين الأرثوذكس، لم يحضروا معهم، أو يهتموا بنشر أي شيء عرفوا أنه مختلف عن الطبعة القياسية نشراً عمومياً والماركسيون الهراطقة أو الماركسانتس (Maxisants)، لأنهم كانوا معزولين نسبياً لكونهم جماعة بدع حتى لو كان الاتصال بهم غير محظور عملياً، وعلى الجماعات المخلصة كما كانت الحال بالنسبة لتروتسكي.

كان هناك عاملان أنقصا من تأثير حالة الشَّتات الماركسي. وكان العامل الأول لغوياً. وكانت اللغتان الرئيسيتان للخطاب الماركسي الأول، الألمانية والروسية غير معروفتين في الغرب بشكل واسع، أو كانتا مجهولتين[5]. ولم يوجد خارج الولايات المتحدة الأميركية جمهور كبير من أصل روسي أو ألماني قادر على قراءة أعمال مكتوبة

بتلكما اللغتين، ومهتم بأدب اليسار. لذا، نجد أن الكتّاب المقبولين من الشيوعيين الأرثوذكس حتى هؤلاء لم يكن الوصول إليهم ممكناً إلاّ إذا تُرجموا، وقلّما حصل ذلك. فالمجموعة الأولى لدراسات لوكاش التي نشرت في كتاب باللغة الإنجليزية يعود إلى عام 1950، وحتى كتاب أساسي مثل **الأعمال المبكرة** (*Frühschriften*) لماركس الموجود منذ عام 1932، لم يكن له وقع في فرنسا إلاّ عبر شخصين أو ثلاثة يتمكنون من قراءته باللغة الألمانية، وحتى لو حصل ذلك لا تكون قراءته فورية. ومقابل ذلك نجد طبعاً، أن الترجمة كانت مهمة بصورة غير متناسبة كما يشهد على ذلك الوقع الثوري على العلماء البريطانيين لرسالة بوريس هِسِّن (Boris Hessen) حول نيوتن (انظر أدناه). وهناك أيضاً الانغلاق المتزايد ضد تدفق المهاجرين من قِبَل المجتمعات الأهلية. ولم يُقبل المهاجرون السياسيون ومهاجرون آخرون قدموا من ألمانيا الهتلرية إلاّ على مضض في الغرب وباستثناء جزئي من الولايات المتحدة الأميركية، لم يكن يُرحَّب بهم أو يحصل إدماجهم، إلاّ في حالات خاصة. فظلوا هامشيين، ومجهولين في أغلب الأحيان[6]. لذا، فإن الماركسيين الغربيين نشؤوا باستقلال عن التقليد أو التقاليد الماركسية المركزية. فليس من قبيل المصادفة أن نجد أن الشرح الأول، والأفضل للنظرية الاقتصادية الماركسية، باللغة الإنجليزية، التي جسَّدت مجادلات وتطورات حقبة الأممية الثانية قد نشر في الولايات المتحدة الأميركية، أي، في بلاد حيث الفصل بين الماركسية (أو المعرفة بالماركسية) المهاجرين و«اليسار الجديد» الأهلي في تلك الحقبة، لم يكن مرسوماً[7].

لذلك، فإن اختراق الماركسية مثّل ظاهرة تناقضية. فقد نشأت في الوطن ولم تكن مستوردة، كونها حدثت في كل قطر باستقلال عن التأثير الخارجي، باستثناء الشيوعية الرسمية. وفي ذات الوقت، اتخذت شكلاً متسقاً وقياسياً غالباً للسبب ذاته. ومع ذلك، فإن ذلك الاتساق لا يمكنه أن يخفي ميلاً متميزاً نحو انعزال فكري قومي، مضادّ لحقبة الأممية الثانية والطابع الدولي للماركسية الفكرية منذ حوالي عام 1960. ويعود ذلك جزئياً إلى بنية الأممية الشيوعية المنظَّمة والمتمركزة جداً وللطابع «الرسمي» المتزايد للكتابات التي تدفقت منه ومن الاتحاد السوفيتي، وهي – حتى حوالي عام 1948 كانت تعمل بطريقة انتقائية (انظر أدناه). وكانت المجلاّت الشيوعية الدولية، المنشورة بلغات مختلفة مع بعض التغييرات الإقليمية في المحتويات، مثل: **المراسلات الصفحية الدولية** (*International Press Correspondence*) **والدولي الشيوعي** (*Communist International*)، مهتمة بصورة غالبة بالسياسة الجارية، التي كانت تُكتب بشكل رئيسي من قِبَل القادة السياسيين ومن يمكن دعوتهم كتّاب الهيئة الإدارية الدولية

للحركة. وفي ثلاثينات القرن العشرين، لم يكن هناك ما يعادل مجلة **الزمن الجديد**، في أي لغة[8]. ومقابل ذلك، تركت المجلات النظرية والثقافية الماركسية منها والهرطقية التي بدأت بالظهور في أقطار أوروبية مختلفة في أواخر ثلاثينات القرن العشرين، لمفكرين تنقصهم القوة السياسية المقنعة، وليسوا معروفين معرفة دولية مهمة تتعدّى متكلمي اللغات الأهلية التي كتبوا بها، بالرغم من أن بعضهم تمكن من بناء روابط دولية. لذا، كان هناك بشكل متناقض مجال لتغيير وتطوير محليّين لعدم وجود «خط» دولي على الموضوع، أو لأن «الخط» لم يُعمم، كفايةً ليكون إلزامي. وهكذا، وُجد كما سوف نرى مقدار كبير من التنظير الماركسي المستقل، مثلاً حول العلوم الطبيعية وحول الأدب في بريطانيا بعضه وقع ضحية لغرض أرثوذكسية شاملة في زمن زدانوف (Zhdan-ov). على كل حال، وبشكل أساسي، إن كل قطر أو منطقة ثقافية لم تمنع فيها الماركسية منعاً رسمياً، تكيّف مع النموذج الدولي القياسي بطريقته الخاصة، وفي ضوء الشروط المحلية، والتطور سهَّله تغير الخط الدولي في الكومنترن (Comintern)، بعد عام 1934.

في ميدان واحد يمكننا الكلام عن دولية أصلية غير متمركزة خاصة بمفكري اليسار. وكان ذلك بصورة مميّزة في ميدان الأدب والفنون. ولم يكن هذان موصولين بسياسة اليسار بتأمل نظري، وإنما بالتزام عاطفي من قبل ممارسي النضال في زمانهم والمعجبين به. فقد نشأ بين الفن واليسار روابط قوية جديدة في الحرب العالمية الأولى، وليس عبر النظرية الماركسية الأرثوذكسية. أما في ميدان الثقافة وحده، فنجد مقاومة جوهرية لفرض الأرثوذكسية، حتى في وسط المفكرين الشيوعيين. وتحدّى نفر قليل من الشيوعيين جهاراً «الواقعية الاشتراكية»[9] (Socialist Realism)، التي صارت رسمية في الاتحاد السوفيتي منذ عام 1934، بالرغم من أنه من المهم أن نعرف أن الجدل حول ما يمكن تسميته «الحداثة» لم يتوقف، كما لم يستسلم الجانب اللاأرثوذكسي، أبداً. فبريخت لم يستسلم للوكاش. وجرت محاولات مخلصة للإعجاب بما صدر عن الاتحاد السوفيتي في ثلاثينات القرن العشرين، ولإسكات إنتاجه الذي لا يُعجب (خاصةً إنتاجه في الرسم التشكيلي والنحت)، غير أن معظم الإعجاب الجوهري قد كان بما بقي من الفن والأدب السوفيتيين في عشرينات القرن العشرين. وهناك قلّة مستعدة لأن لا توافق، علناً على النقد الرسمي للشخصيات الدولية الأكثر شهرة في الحركة الفنية «الحديثة»، لكن الأقل من هو مستعد – وإنْ سراً على الأقل – أن يتوقف عن الإعجاب بجويس، وماتيس (Matisse) أو بيكاسو (Picasso)، حتى عندما ينشرون بإخلاص أساليب هي أقرب إلى «الواقعية الاشتراكية». وموسيقى الجاز (Jazz) لم تلق موافقة من

الأرثوذكسية الرسمية، لكن وُجِد في وسط أكثر المعجبين بها من العاطفيين والنشطين والمناصرين والداعمين الفعليين في العالم الأنجلوساكسوني عددٌ كبير من الشيوعيين والمتعاطفين معهم.

لذا، فإن المفكرين الماركسيين الذين لم يكونوا منقطعين عن بقية العالم، ومهما كانت بلادهم الأصلية، مالوا إلى المشاركة في ثقافة دولية يسارية وكانْ بينهم كتّاب وفنانون طابقوا بين أنفسهم والشيوعية أو على الأقل بين أنفسهم والالتزام بالنضال المضادّ للفاشية، وكانوا لحسن الحظ يؤلفون عدداً كبيراً، نذكر منهم: مالرو (Mal-raux)، وسيلون (Silone)، وبريخت (Brecht) (بالمقدار الذي كان يعرف حينئذٍ)، وغارسيا لوركا (García Lorca)، ودوس باسوس (Dos Passos)، وإينشتاين وبيكاسو... إلخ[10]، أما بالنسبة لأعضاء الأحزاب الشيوعية، فيمكن الاشتمال على مجموعة من الكتّاب المعتبرين شيوعيين، رسمياً، أو «تقدّميين»، مثل: باربوس (Bar-busse)، وورولاند (Rolland)، وغوركي (Gorky)، وأندرسن (Andersen)، ونكسو (Nexö)، ودريزر (Dreiser) وآخرين. كما يمكن الاشتمال على أسماء شكلت جزءاً من الشخصيات الدراماتيكية الدولية في الثقافة التعليمية، إلاّ إذا كانوا معروفين بتطابقهم مع الرجعية والفاشية: كتّاب مثل جويس وبروست (Proust) والرسامين التشكيليين في أوائل القرن العشرين (وهم فرنسيون بشكل رئيسي)، ومهندسي العمارة الشهيرين في «الحركة الحديثة» (Modern Movement)، وصانعي الأفلام الروس الشهيرين وتشارلي تشابلن (Charlie Chaplin). وإبداعه (Novelty) في ثلاثينات القرن العشرين لا تكمن في وجود ثقافة دولية، وأسماء أصحابها مستمدّة من مختلف الأقطار – ورئيسياً، في فرنسا، وأميركا، والجزر البريطانية، وروسيا، وألمانيا وإسبانيا – وإنما بعلاقتها الوشيجة بالالتزام السياسية باليسار[11]. فلا ريب أنها لم تكن ثقافة ماركسية تحديدياً، بل إن دور الأقلية من الماركسيين الملتزمين (لأغراض عملية تخص الشيوعيين) في تكوينها كان حاسماً[12].

II

نجد جذور راديكالية المفكرين في ثلاثينات القرن العشرين في الردّ على أزمة الرأسمالية في السنوات الأولى من هذا العقد الزمني. أما الأصول المباشرة، بالنسبة إلى الجيل الشاب على الأقل، فيمكن الوقوع عليها في الكساد الاقتصادي الكبير في الأعوام 1929-1933. وهكذا، يمكن معرفة الإشارات الأولى لنمو الاهتمام بالماركسية

والحزب الشيوعي في أوساط المثقفين في بريطانيا، وفي عام 1931، عندما صارت المادية الديالكتيكية والتاريخية موضوعاً للنقاش لدى عدد صغير من الأكاديميين ومجموعة من الطلاب الشيوعيين بنت نفسها هنا وهناك - مثلاً، في جامعة كامبردج - بعد غياب دام بضعة أعوام. ولم يقتصر تأثير الكارثة العالمية التي حلّت بالاقتصاد الرأسمالي على تلك المجموعات الصغيرة من المفكرين الشيوعيين الفعليين والممكنين، وعلى طبقات واسعة، خاصة بعد أن تمثّلت بشكل دراماتيكي في بطالة واسعة ودمار المخزون الفائض من الحنطة والبنّ، في حين كان الرجال والنساء يصرخون في طلبهما، بل على حصانة الاتحاد السوفيتي الواضحة إزاءها. وتمثّلت تلك المرحلة من العملية في الارتداد اللافت للروّاد القدامى في المذهب الديمقراطي الاجتماعي التدريجي، آباء الفابيّة (Fa-bianism)، وسيدني وبياتريس وِبْ، إلى «النظرية الماركسية الخاصة بالتطور التاريخي للرأسمالية الصانعة الربح»[13]. وبالرغم من أن الوِبس (Webbs) لم يعجبهم الحزب الشيوعي البريطاني، فإنهم قضوا بقية حياتهم للعرض اللافت للاتحاد السوفيتي.

وإذا كانت التضاد بين انهيار الرأسمالية والتصنيع الاشتراكي المخطَّط قد حوَّل بعض المفكرين إلى الماركسية، فإن فوز هتلر الذي كان نتيجة سياسية واضحة للأزمة، حوَّل الكثيرين إلى العداء للفاشية. وبتأسيس النظام القومي الاشتراكي صار العداء للفاشية القضية السياسية المركزية لأسباب رئيسية ثلاثة. **الأول** هو أن الفاشية ذاتها التي كان تعتبر حركةً متطابقةً مع إيطاليا، صارت الوسيلة الدولية الرئيسية عند اليمين السياسي.

فالحركات السياسية الفاشية، أو تلك التي ربطت نفسها بسمعة وقوة الدولتين الأوروبيتين الرئيسيتين والواقعتين تحت الحكم الفاشي، تضاعفت ونمت في عدد من الأقطار. وهناك حركات أخرى رجعية قتالية وجدت نفسها مشتركة مع فاشية أهلية أو أجنبية، أو باحثة عن دعم من فاشية أجنبية، أو معتبرة على الأقل نهوض الفاشية الدولية خاصة الفاشية الألمانية بمنزلة حصنٍ ضد اليسار المحلّي: وكما ورد في العبارة، «هتلر أفضل من ليون بلوم» (Léon Blum). وبشكل طبيعي، كان اليسار ميّالاً إلى تحويل كل مثل تلك الحركات إلى الفاشية، أو إلى المذهب الفاشي الفلسفي، والتوكيد على روابطها ببرلين وروما. ومثل الشيوعية عند اليمين، لم تكن الفاشية عند اليسار، في كل قطر تشكّل مجرد مشكلة للأجانب، بل خطراً أهلياً منذراً بالسوء بطابعها الدولي وبتعاطف ودعم قوتين عظيمتين. فيستحيل فهم موجة الدعم الدولي للجمهورية الإسبانية في عام 1906 من دون ذلك الحسّ المفيد أن المعارك الدائرة في ذلك القطر

الهامشي والمجهول في أوروبا كانت بأفضل معنى تحديدي معارك لمستقبل فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة وإيطاليا... إلخ.

ثانياً، لم يكن تهديد الفاشية مجرد تهديد سياسي. فالقضية المطروحة - ولا أحد كان على وعي بها أكثر من المفكرين - كانت قضية مستقبل الحضارة كلها. فإذا تمكنت الفاشية من شطب ماركس، فإنها تكون في نفس الوقت قد شطبت فولتير (Voltaire) وجون ستيوارت ميل. فقد رفضت الليبرالية بعنادٍ مثل رفضها للاشتراكية والشيوعية. ورفض إرث القرن الثامن عشر كله، وعصر التنوير مع جميع الأنظمة التي نشأت من الثورتين الأميركية والفرنسية، والثورة الروسية أيضاً. وبمواجهة الشيوعيين والليبراليين العدو نفسه والتهديد نفسه الرامي إلى إفنائهم، كان لا محيص لهم من الدخول في معسكر واحد. ويستحيل فهم عدم رغبة الرجال والنساء في اليسار، في النقد، أو القبول لأنفسهم بما كان يحدث في الاتحاد السوفيتي، في تلك السنين، أو عزلة النقّاد اليساريين في الاتحاد السوفيتي من دون المعنى المفيد أنه، في القتال ضد الفاشية كانت الشيوعية والليبرالية بمعنى عميق تقاتلان لقضية واحدة، فضلاً عن الحقيقة الواضحة والمفيدة أن كليهما احتاجا بعضهما في ظروف ثلاثينات القرن العشرين، فما فعله ستالين كان مسألة روسية، مهما كانت مروِّعة، في حين كان الذي فعله هتلر تهديداً لكل مكان. هذا التهديد مالبث أن اتخذ حالاً صورة مسرحية مروِّعة، وذلك عبر إلغاء الحكم الدستوري والديمقراطي، ومعسكرات الاعتقال، وإحراق الكتب والطرد الواسع أو التهجير اللذين شملا المنشقين سياسياً واليهود، بما في ذلك زهرة الحياة الفكرية الألمانية. مما ألمح إليه تاريخ الفاشية الإيطالية منذئذٍ، صار الآن واضحاً ومرئياً حتى لقصيري النظر.

وقد دلَّ على أهمية ذلك الجانب من تهديد الفاشية عجز ألمانيا النازية عن أي استثمار سياسي لنجاحها الاقتصادي السريع الذي لم يكن فيه ريب. ولم ينفع القضاء على بطالة الدعاية الهتلرية، كما لم ينفع الدعاية الموسولينية القول «إن القطارات تتحرك بمواعيدها» في عشرينات القرن العشرين. فالأمر الواضح هو أن الحكم على نظام ألمانيا النازية يجب أن يستند إلى معايير أخرى، غير معيار نجاحها في التعافي من الكساد الاقتصادي.

ثالثاً، والأكثر حسماً هو أن «الفاشية عنت الحرب». فكل عام بعد عام 1933 شهد على ذلك بصورة دراماتيكية مثل محاولة الانقلاب النازية في النمسا (1934)، وتبعتها

الحرب في إثيوبيا (الحبشة) (1935)، وعودة هتلر إلى احتلال أرض الراين والحرب الأهلية الإسبانية (1936)، والغزو الياباني للصين (1937) والاحتلال الألماني للنمسا وميونخ (1938). فعاشت أجيال ما بعد عام 1918 في ظل وفي حالة خوف من حرب عالمية أخرى. ونفر قليل اعتقد بعد عام 1933 أنه يمكن تجنّبها فلا تقع أبداً، ومع ذلك لم يكن هناك سوى الفاشيين من حسبها من دون رعب، وحكوماتهم الفاشية. والخط الفاصل بين المعتدين والمدافعين لم يكن مرسوماً بأوضح أشكاله في أي وقت أكثر مما كان في تلك الحقبة، وكذلك كان الحظ الفاصل بين من كانوا في الأقطار اللافاشية الذين كانوا مستعدين للمقاومة بالسلاح إذا لزم الأمر من لم يكونوا مستعدين للقيام بذلك لأي سبب من الأسباب.

والخط لم يفصل اليمين عن اليسار: فقد وجد مقاومون في أوساط المحافظين والوطنيين التقليديين، كما وُجد مهدئون أو مسالمون في اليسار اللاشيوعي خاصة في فرنسا وبريطانيا، وحتى المقاومون لم يدعوا للحرب، بل اعتقدوا (وبمعقولية حتى إلى ما بعد ميونخ) أن ثمة فرصة جيدة لتجنب الكارثة عبر إنشاء جبهة واسعة وقوية من الدول والشعوب التي تريد مقاومة المعتدين والقادرة على التهويل، لأنها قادرة على سحقهم، إن لزم الأمر. ومع ذلك، كان الذي حصل هو أنه، عندما تقدَّم العدوان ونجح، تزايد وضوح صورة لزوم المقاومة، كما التحق ذوو الرأي الواعي سياسياً بالمعسكر المضاد للفاشية. وفي نهاية المطاف أوضح فريقا الحرب والمقاومة القضية بشكل لا يعتريه شك. وكما صار جليّاً اقتربت الجبهة المضادّة للفاشية اقتراباً متزايداً من الشيوعيين، الذين لم يقتصر عملهم على تمهيد الطريق لسياسة تحالف واسع مضاد للفاشية والمقاومة النظرية فحسب، وإنما أدوا دوراً قيادياً واضحاً في النضال العملي. وطالما ظل الخطر الفاشي لمساحات واسعة من أوروبا، بصورته القاسية، فإن العكس المؤقت وغير المعقول للخطة السياسية الدولية الشيوعية في عام 1939 لم يكن قادراً على وقف ذلك الاتجاه[14].

مع ذلك فإن العملية التي بفضلها انجذب المفكرون وآخرون إلى التضاد مع الفاشية، وفي النتيجة نحو اليسار واليسار الماركسي في أغلب الأحيان، لم تكن خطيّةً متواصلة ولا من غير إشكاليات، كما قد يكون قد بدا من النظرة الأولى. سبق لنا أن ذكرنا تعرّجات وانعطافات سياسة الكومنترن والسوفيت، فلا داعي لأن تؤخرنا لنذكر: التأخر في القضاء على الاستراتيجية الطائفية «للحقبة الثالثة» (Third Period) وحوالى انعطافة 1939 1941. على كل حال، لا بدّ من أن نناقش باختصار بعض العوامل التعقيدية الأخرى.

ونقول: إن أهم تلك العوامل على المستوى العالمي اختص بالأقطار المعتمدة على غيرها والمستعمرة. فلم تكن المسألة المضادة للفاشية هي المهيمنة، إمّا لأن ظاهرة الفاشية الأوروبية كانت نائية، ولم يكن لها أثر على أوضاعها الداخلية، كما في أجزاء واسعة من أميركا اللاتينية أو لأنه لا يمكن مطابقة الفاشية واقعياً بالعدوّ الرئيسي أو الخطر الرئيسي أو بكليهما. وصحيح القول، إن اليمين التقليدي في أميركا اللاتينية (خاصة حيث كان الاعتماد على الكنيسة) كان متعاطفاً مع اليمين الأوروبي الذي ازداد دخوله في حلف مع الفاشية - خاصة، في الحرب الأهلية الإسبانية. كما نشأت أيضاً بعض الحركات اليمينية المتطرفة، على شاكلة النموذج الفاشي هنا وهناك، مثل السناركيين (Synarchists) في المكسيك وجماعة المتكاملين أتباع بلينيو سالغادو (Plinio Salga-do) في البرازيل. وبذلك المقدار طابق اليسار نفسه مع التضاد مع الفاشية هذا إن لم يكن قد سبق أن أغري للقيام بذلك، استناداً إلى أسس أخرى مثل التعاطف مع الاتجاه الماركسي المضاد للإمبريالية، والتأثير الثقافي القوي جداً في المفكرين في أميركا اللاتينية، والخبرة الشخصية بهم. وواضح أن الحرب الأهلية الإسبانية أدَّت دوراً حاسماً هناك، خاصة في المكسيك، وتشيلي وكوبا. ومن ناحية أخرى نقول، كان هناك استعداد في ثلاثينات القرن العشرين، في أجزاء واسعة من أميركا اللاتينية، لتبني أفكار وتعابير من الفاشية، لا يلزم أن يكون لها المفاهيم التي لها في قارّة مصدرها - والفاشية كانت تعتبر حركة بارزة وناجحة ورائجة في أوروبا طالما تطلَّعت أميركا اللاتينية وبحثت عن أزيائها الأيديولوجية. فلم يكن معقولاً أن يكون للسياسيين هناك، أو للضباط الشبّان من ذوي التفكير السياسي وقعٌ كبير على الحياة القومية عبر تحريك الطبقة العاملة على صورة نقابات أو قوة انتخابية (كما في الأرجنتين)، أو الالتحاق بالنقابات للقيام بثورة اجتماعية [كما حصل في بوليفيا (Bolivia)]. وقد لا يكون ذلك قد أثَّر تأثيراً كبيراً في مقدار مفكري القارة، مع ذلك لا بدّ من أن يحذرنا ضد أي تطبيق سطحي وهيّن للانحيازات السياسية الأوروبية في أميركا اللاتينية. علاوة على ذلك نقول إن تلك القارة لم تدخل بشكل فعّال في الحرب العالمية الثانية.

كان الوضع أكثر تعقيداً في آسيا (بقدر ما تحركت سياسياً) وأفريقيا حيث لم يكن هناك فاشية محلية[15] - بالرغم من أن اليابان القوة القتالية المضادة للشيوعية كانت متحالفة مع ألمانيا وإيطاليا - وكانت بريطانيا، وفرنسا ودول الأراضي المنخفضة خصماً رئيسياً واضحاً لمن كانوا ضد الإمبريالية. ولا شك في أن معظم المفكرين العلمانيين كانوا ضد الفاشية الأوروبية في ضوء الموقف العنصري ضد الشعوب ذات البشرة

الصفراء، والبنيّة والسوداء. ويضاف إلى ذلك، أن الحركات في تلك الأقطار كانت في أغلب الأحيان متأثرةً بمن كانوا في المدن، أي بالتقاليد الليبرالية والديمقراطية لأوروبا الغربية خاصة في الكونغرس القومي الهندي. ومع ذلك، فقد كان منطقياً عند مقاومي الإمبريالية أن يتبنّوا وجهة النظر التي طالما كانت للثوّار الإيرلنديين والمفيدة بالآتي: «صعوبة إنجلترا فرصة إيرلندا». والحق يُقال، إن تقليد طلب الدعم من أعداء الاستعماريين المحليين يعود إلى الحرب العالمية الأولى، حيث تطلّع كل من الثوار الإيرلنديين والهنود (بمن فيهم بعض ممن صار ماركسياً لاحقاً) إلى ألمانيا طلباً للمساعدة ضد بريطانيا. لذلك، فإن مقاومة الفاشية القائمة على أولويّة دحر ألمانيا، وإيطاليا واليابان حول مسألة التحرير المباشر من الاستعمار تعارضت مع غرائز مقاومي الإمبريالية المحليين وحسابهم السياسي، ما خلا حالات خاصة مثل إثيوبيا (الحبشة) والصين.

فالمسألة توقّفت عن أن تكون مسألة أكاديمية مع اندلاع الحرب، بالرغم من أنها بدأت في تعقيد الحياة السياسية المحلّية لسنوات سابقة (مثلاً في إندونيسيا). لقد غامر الشيوعيون الأرثوذكسيون[16] الذين وضعوا المقاومة العالمية للفاشية أولاً، فلم ينجزوا سوى العزلة السياسية حالما اقتربت الحرب بما فيه الكفاية - كما حدث في الشرق الأوسط منذ عام 1940، وفي جنوبي وجنوب شرقي آسياً في عام 1942. والمفكرون اليساريون المتطابقون مع مقاومة الفاشية والنظرية، أو مع نوع ما من الماركسية مثل جواهرلال نهرو (Jawaharlal Nehru) ومعظم الكونغرس القومي الهندي، قذفوا أنفسهم مباشرة وبقوة إلى المجابهة مع الإمبريالية البريطانية، أو مثل سبهاس بوس (Subhas Bose) في البنغال الذي نظّم جيشاً هندياً للتحرير بحماية اليابانيين. وليس هناك أي شك في أن الأكثرية الساحقة من مقاومي الإمبريالية في الشرق الأوسط الإسلامي، ومهما كانت أيديولوجيتها كانت مناصرة للألمان. وباختصار نقول، إن العلاقة بين المفكرين والمقاومين للفاشية، خارج أوروبا، لم تكن متطابقة مع النموذج الأوروبي ولم يكن من الممكن لها أن تكون كذلك.

كان لمقاومة الفاشية في أوروبا تعقيداتها الخاصة. ففي المقام الأول، ومع تقدم ثلاثينات القرن العشرين، صار واضحاً بصورة كبيرة ، أن التحالف المضادّ للفاشية، كان عليه أن لا يكتفي بضم المركز السياسي واليسار، بل أي أشخاص أو ميول أو تنظيمات ودول تكون مستعدَّة لأيّ أسباب على مقاومة الفاشية والقوى الفاشية. فمالت الجبهات الشعبية لتصبح «جبهات قومية» (National Fronts)، ولم يكن من

ذلك بدّ. والمعرفة المنطقية بالوضع من قِبَل الشيوعيين صدم حساسيّة اليسار التقليدية والمفكرين، كما رفع توريز (Thorez) يده مؤيداً الكاثوليك، ولجأ الحزب الفرنسي إلى جوان من آرك (Joan of Arc) (هي التي كانت رمزاً لليمين المتطرِّف لمدة طويلة)، وطالب البريطانيون بتحالفٍ مع ونستون تشرشل (Winston Churchill)، وكان رمزاً لكل من كان رجعياً ومعارضاً للحركة العمالية. وقد يكون ذلك قد ولَّد بعض الصعوبة، إلى أن كان التحرير أو النصر، هذا على الأقل. وقد كان خطر ألمانيا النازية من النوع الذي جعل للتحالف مع عدو الأمس والمستقبل ضد خطر ذي معنى أعظم، خاصة عندما لا يتضمن ذلك تقارباً أيديولوجياً معه. واليساريون المتطرفون الذين قاوموا بدعم إثيوبيا (الحبشة) ضد إيطاليا على أساس (صحيح) لأن هيلا سيلاسي (Haile Selassie) كان إمبراطوراً إقطاعياً، لم يحظوا بتأييد كبير. ومن ناحية أخرى، طرحت مسألة ما إذا كان يجب السير في الاستراتيجية العريضة المضادة للفاشية على حساب الثورة الاشتراكية المؤقتة، التي كان هدفهم الحقيقي شكوكاً عميقة. فما هي التضحيات التي يجب أن يقوم بها الثوريون في عملهم للقضية الضرورية، قضية دحر الفاشية؟ ألم يكن مفهوماً أن الفوز على الفاشية سيتحقق - لكن على حساب تأجيل الثورة، أو تعزيز الرأسمالية اللافاشية؟ وما دام الثوريون يتحركون بدافع من تلك الاعتبارات فسيكونون مشاركين لمقاومي الفاشية في العالم الاستعماري وشبه الاستعماري.

غير أن معظم المفكرين الذين بالرغم مما سبَّبته لهم مثل تلك الأسئلة من قلق لم يقلقوا كثيراً بسببها. فهزيمة الفاشية كانت في نهاية المطاف مسألة حياة أو موت، حتى بالنسبة إلى الثوريين الملتزمين. فلا الشيوعيون ولا الماركسيون المنشقّون ادّعوا أنه وجد أي عدم انسجام بين معاداة الفاشية والثورة. وفي نطاق الكومنترن، قيل بطريقة حذرة ومتقطعة لا علنية، إن الجبهة العريضة المقاومة للفاشية قد توفِّر استراتيجيا للتحوّل إلى الاشتراكية. وطبعاً كان هناك تأكيد علني على النواحي الديمقراطية والدفاعية المحدودة للفاشية، بغية عدم إخافة وإبعاد بعض الحكومات البورجوازية غير الاشتراكية والمعادية للفاشية. أما أنواع الغموض الناجمة فسوف تبحث أدناه.

مقابل ذلك، نجد أن العنصر الراديكالي سلك الطريق الطوباوي النافي وجود أي تناقض بين معاداة الفاشية والثورة البروليتارية العاجلة. وحتى هؤلاء - الذين لم يكونوا مثل تروتسكي المضلَّل بالعداوة للكومنترن الستالينية التي كانت الناطق الرئيسي لها لم يرفضوا الجبهة العريضة المقاومة للفاشيّة كلياً بوصفها خيانة غير لازمة للثورة، ودعوا إلى تحويلها إلى عصيان مسلَّح في أي مرحلةٍ ملائمة - 1936 في

فرنسا، 1944 – 1945 في فرنسا وإيطاليا – ورحبوا بها في إسبانيا في عام 1936. وكما سوف نرى، لم يكن في ذلك الزمن لتلك الحجج الطوباوية أي وزن. ويمكن القول، إنها توضح عزلة ونقص تأثير الذين قالوا بها مثل النزوتسكيين ومجموعات ماركسية منشقّة أخرى. والذين قاتلوا وظهورهم إلى الجدار ضد قوى الفاشية المتعدّية، كانت أولويتهم متمثّلة في النضال الفوري. وفي حالة الخسران لن يكون لثورة الغد حظٌّ حتى في إسبانيا، حيث الثورة اليوم.

وكشف منطق النضال، أيضاً عن تعقيد آخر يختص باليسار المقاوم للفاشية، ألا وهو: السلامية وعدم العنف. وبوصف السلامية أيديولوجيا محدَّدة، فقد كانت محصورة بشكل كبير في العالم الأنطلوساكسوني، حيث ازدهرت داخل الحركة العمالية[17]، ووقتياً على الأقل في ثلاثينات القرن العشرين، في وسط مجموعة مهمة من المفكرين الليبراليين وحركة أوسع لصالح النزع العام للسلاح، والفهم الدولي وعصبة الأمم.

وبالرغم من صورتها التي كانت صورة اشمئزاز عاطفي عميق الجذور من الحرب، وخوفٍ آخر من محرقة(*) (Holocaust) أخرى، مثل الحرب العالمية الأولى، أو – كما في الولايات المتحدة الأميركية – ورفضٍ للانخراط في حروب أوروبية كانت واسعة الانتشار. وبطبيعة الأشياء وكراهية الحرب والروح الحربية، كانت السلامية بشكل رئيسي ظاهرة من ظواهر اليسار السياسي. ومع ذلك، فإن الفاشية واجهت الرجال والنساء المؤمنين بتلك المعتقدات بما يشبه المعضلة التي لا يمكن التغلّب عليها إلاّ بالاعتقاد بأن عدم التعاون السلبي وحده يمكن أن يوقف هتلر [وكان ذلك مدعوماً بإشارات إلى غاندي (Gandhi) والمقاومة اللاعنفية في الهند]. ونفر قليل اعتقد بذلك اعتقاداً جدّياً، حتى في أوساط المفكرين. لذا، فإن رفض القتال معناه الاستعداد لرؤية فوز الفاشية، وهناك الكثير من السلاميين العاطفيين في فرنسا، صاروا متعاونيين مع العدو، وبمنطق كافٍ[18]. أما البديل، فكان التخلّي عن السلامية، والاستنتاج أن مقاومة الفاشية تسوغ حمل السلاح. والواقع هو أن ذلك المنطق هو الذي تبنّته مجموعة كبيرة من محبي السلام المضادّين للفاشية، غير الذين كانوا ملتزمين بالسلامية انطلاقاً من دينهم مثل المهتزّون (Quakers). غير أنه بعد شهر حزيران/ يونيو من عام 1940 لبس الثياب العسكرية الرسمية، كثير من المفكرين البريطانيين الشباب الذين سبق أن سجلوا أسماءهم «كمعترضين وجدانيين» (Conscientious Objectors) وقت اندلاع الحرب.

(*) تعني المحرقة أو الإبادة الكاملة عن طريق الإحراق (المترجم).

وباختصار، إن العداء للفاشية انتشر وساد على جميع الاعتبارات الأخرى في اليسار الأوروبي. وتماماً مثلما وجد النضال لعصيان البروليتاريا المسلَّح تعبيره العملي المباشر في ظواهر تجنيد الجمهورية الإسبانية ضد فرانكو، والأنصار المسلحين المقاومين لهتلر وموسوليني، كذلك فإن النضال ضد الحرب أدّى إلى تحريك المفكرين لحرب مقاومة للفاشية. والعلماء البريطانيون تحولوا إلى صنّاع حرب علمية، وكان الكثير منهم قد صار راديكالياً في مجموعة علماء كامبردج المضادة للحرب وعبرها، وأمضى الكثير من ثلاثينات القرن العشرين في تحذير الشعب وتنبيهه إلى عدم وجود حماية فعّالة ضد أهوال الغارات الجوية والغاز السام اللذين لم يغادرا خيال أجيال ما بعد عام 1918. وهناك شخصيات راديكالية وشيوعية - بيرنال (Bernal)، وج. ب. س هالدين (J. B. S. Haldane)، وبلاكِتْ (Blackett) - انخرطت في المجهود الحربي، عبر بحوثهم الأصلية الخاصة بطرق حماية السكان المدنيين من قذائق الغارات الجوية. وكان ذلك بداية اتصالهم بمخططي الحكومة[19].

III

لقد تكلمنا عن «المفكرين» (Intellectuals) بشكل عام، والواقع هو أن تحشيد ما يمكن تسميته «بالمفكرين الشعبيين» (Public Intellectuals) ضد الفاشية كان لافتاً ومدهشاً. وفي معظم الأقطار اللافاشية، كان نفر قليل من الشخصيات المعروفة في عالم الفنون الخلاّقة - خاصة، في الأدب - منجذبين لليمين السياسي وأحياناً للفاشية، مع أن القليل وجد في الفنون البصرية[20]، كما أنه من الصعوبة بمكان إيجاد أحدٍ منهم في العلوم. على كل حال، كان هؤلاء يشكلون أقلّيات صغيرة وغير نموذجية. والواقع أنه في ذلك الزمن وجد بعض ممن كان من المتوقع أن تدفعهم أيديولوجيتهم التقليدية إلى اليمين، مثل أكثر نقّاد الأدب البريطانيين نفوذاً، فرانك ريموند ليفيس (Frank Raymond Leavis)، لكنهم وجدوا أنفسهم محاطين بطلاب مضادّين للفاشية وبعضهم ماركسي، ولم الأمر يقتصر على ذلك، بل نراهم مترددين وعلى حافة التعبير عن تعاطف مع القضية بحذرٍ مشروط قبل انسحابهم من الساحة السياسية[21].

كان الذين حصل تحشيدهم في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة لصالح الجمهورية الإسبانية، ومقاومة الفاشية بشكل عام يؤلفون أكثرية الموهوبين والمفكرين. أما الكتاب الأميركيون الذين أعلنوا دعمهم للجمهوريين الإسبان، فقد اشتملوا على شِرْوود أندرسون (Sherwood Anderson)، وستيفن فنسنت بينيه (Stephen

(Vincent Benét ودوس باسوس، ودريزر، وفولكنر (Faulkner)، وهيمنغواي (Hemingway)، وأركيبالد ماكليش (Archibald MacLeish)، أبتون سنكلير (Upton Sinclair)، وجون ستينبك (John Steinbeck) وثورنتون وايلدر -Thorn) ton Wilder) على سبيل ذكر القليل. وفي العالم الناطق باللغة الإسبانية أيّد الشعراء الجمهورية من دون استثناء. وبما أن قيمة إعلان مثل تلك الأسماء المعروفة واضحة واستغلّت من قبل أشكال مختلفة من التجمعات الجمعية، والبيانات العامة، وبيانات أخرى، فإن ذلك القسم من مقاومة المفكرين للفاشية قد تمَّ تسجيله جيداً بنوع خاص. والواقع هو أن بعض شروح الموضوع كان محصوراً بالنقاش الشعبي، أي بأهل الفكر الأدبي جوهرياً[22].

كانت مقاومة الفاشية عند الأشخاص من ذوي المواهب غير العادية والذكاء والإنجازات الفكرية المتحققة أو المستقبلية ذات مغزى تاريخي، وكذلك كان انجذابهم في تلك الحقبة إلى الماركسية، التي كانت معلماً في أوساط الأجيال التي بلغت النضج في ثلاثينات وأربعينات القرن العشرين. وكانت تلك الظاهرة لافتة، خاصة في أقطار لم يكن للماركسية فيها تقليد فكري مؤسس، كما في بريطانيا والولايات المتحدة. (في الولايات المتحدة اجتذبت الماركسية المنشقة خاصة من النوع التروتسكي عدداً من المفكرين أكبر مما هو في أمكنة أخرى). ذلك التجنيد الانتقائي للموهوبين ذوي المواهب غير عادية في فترات محددة يصعب شرحه بطريقة مقنعة في الوقت الحاضر، إلاّ أن الوقائع لا غبار عليها. على كل حال، إن ذلك لا يستنفد مسألة العداء للفاشية والمفكرين، ويجعل تحليلها أصعب من بعض النواحي عبر إبهام مسألة الهويّة الاجتماعية للمفكرين المعادين للفاشية.

وبكلام اجتماعي نقول - وبتجريد من ظواهر التنوع القومي للحظةٍ - إن المفكرين الغربيين في ثلاثينات القرن العشرين، كانوا بصورة رئيسية أبناء البورجوازية القائمة (التي قد تحتوي أو لا تحتوي طبقة من (Bildungsbürgertum)، التي تدين بمكانتها لتقليد التعليم العالي، أو كانوا يمثّلون طبقة متحركة إلى الأعلى ناشئة من الطبقات الفقيرة. وبمفردات أبسط نقول، كانوا ينتمون إلى أولئك الذين اعتبروا التعليم العالي اللامهني لأولادهم من المسلّمات، أو إلى الذين لم يكن الأمر بالنسبة إليهم كذلك. ولما كانت مؤسسات التعليم القديمة، التي تحثّ من هم في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر، مازالت بمقدار كبير مقتصرة على الصغار في الطبقات العليا القائمة، فقد كان للنموذجين غالباً، تكوينٌ تربوي مختلف وأساس اجتماعي مختلف أيضاً. ولم يكن

هناك تمييز واضح بين المهن التي اتخذوها في النهاية، بالرغم من أن المهن الأقدم والمميزة «للمفكرين التقليديين» (Traditional Intellectuals)، والمهن التقنية العليا الخاصة «بالمفكرين العضويين» (Organic Intellectuals) في البورجوازية، كان التجنيد لها يتمّ من البورجوازية القائمة، التي كان من المحتمل أن يسيطر أعضاؤها على الأجيال الأقدم لتلك المهن. ومن ناحية أخرى، إن مجموعة المفكرين من ذوي الخلفية الفقيرة لم يعودوا محصورين لأغراض عملية، بفروع التعليم الثانوية، والبيروقراطية، ومهنة الكهنوت، بالرغم من أن التوظيف في التعليم والحكومة ما زال يوفِّر أوسع مخرج علماني لهم. وهناك عددٌ من الوظائف غير اليدوية راحت تتوسع، حينئذٍ أمكن أن يجد فيها مفكرو الجيل الأول مستقراً - مثلاً، في ميدان الاتصالات الواسعة والمتنامي تنامياً سريعاً، وكذلك في ميدان موظفي الرواتب أو العمل التقني والتصميمي الثانويين.

أما مقدار حدّة الخط الفاصل بين المجموعتين فقد اعتمد على الأحوال القومية. والأحوال القومية هي أيضاً حدَّدت وبمقدار كبير ظواهر التعاطف السياسي لدى المفكرين عموماً، وفي المهن الخاصة: فكان المدرسون والأكاديميون الفرنسيون بصورة غالبة في اليسار، أما نظراؤهم الألمان فمالوا إلى اليمين بشكل بارز. وهناك تمييز إضافي يجب ملاحظته في معظم الأقطار، بين الذين يعملون في فروع المعرفة الفكرية الدقيقة ومن يعملون في الفنون الخلاّقة أو في ميادين التسلية. فالسلوك السياسي للفريقين لم يكن ذاته. وأخيراً، لا بد من حساب الفروق في السن، والجنس والقومية أو الأصول التاريخية. وبافتراض التساوي في الأمور الأخرى نقول إن صغار السن هم أكثر راديكاليةً من كبار السن، بالرغم من أن هذا لا يجعلهم بالضرورة ملتزمين براديكالية اليسار.

والمحتمل أكثر أن تكون المفكرات من النساء بالتعريف في اليسار، ولا يعود هذا لكون اليمين معادياً بانتظام، لتحرير المرأة فحسب، بل أيضاً لأن المحتمل أن تقدِّم الأسر لبناتها تربية فكرية تنتمي إلى الجناح الليبرالي أو «التقدمي» للبورجوازية القائمة. ويمكن للأصول القومية أن تحدد التمثيل الزائد للمفكرين بصورة عامة أيضاً لأولئك الموجودين في اليسار في جماعات مثل اليهود (الذين لهم تقليد قوي يعزِّز التعليم وخبرة التمييز) أو الولش (Welsh) في بريطانيا (وهم شعب من دون بورجوازية أهلية، لكن لهم نظام مراتب يضع قيمة عليا للإنجازات الفكرية والثقافية - الأدب، والتعليم، والوعظ). ومقابل ذلك، هناك مفكرون قد يكونون ممثَّلين بدرجة أدنى في جماعات معينة مثلاً، نذكر المهاجرين من السلاف (Slavic) والإيطاليين إلى الولايات المتحدة

الأميركية، الذين قدموا من طبقات متخلّفة محصورة بالأعمال اليدوية الثانوية، أو زنوج شمال أميركا المختلفين عن زنوج جزر الهند الغربية.

وأخيراً إن الوضع القومي الخاص أو الوضع السياسي الإقليمي قد يكون حاسماً. وهكذا نجد أن طلاب الجامعات في أوروبا الغربية والوسطى ظلّوا بشكل غالب غير متأثرين بمقاومة الفاشية، وكانوا حقيقة - كما في ألمانيا، والنمسا وفرنسا - ممن يحتمل تحريكهم لجهة اليمين، بينما كان حماسهم للشيوعية في بعض أقطار البلقان (خاصة يوغوسلافيا) مضرب الأمثال. وكان الطلاب البريطانيون والأميركيون لا سياسيين بصورة رئيسية، ولم يكن اليمين المنظَّم بارزاً في أوساطهم، وكان اليسار المنظَّم أقوى من ذي قبل، وكان مسيطراً في بعض الجامعات، وكان الطلاب الهنود ضد الإمبريالية بشكل غالب أما المفكرون القوميون من البنغال فكانوا أقرب إلى اليسار الثوري (أي إلى الماركسية في ثلاثينات القرن العشرين) من الآخرين. لذلك، يستحيل التعميم في مسألة المفكرين ومقاومة الفاشية تعميماً **جامعاً مانعاً** (en bloc).

سياسة مفكري البورجوازية القائمة اجتذبت معظم الانتباه، لأن المشروعية في الأقطار للدخول في المهن الفكرية كانت محصورة بأولاد تلك الطبقة، كما أن الانتقال من النشاطات الفكرية الثانوية إلى الأعلى منها كان عسيراً. فعندما شرع الحزب الشيوعي الإيطالي بجذب جيل جديد من المفكرين بطريقة غير مشروعة، نجد أنهم قدموا من ذلك الوسط. فأمندولا (Amendola)، وسيريني (Sereni) وروسّي دوريا (Rossi-Doria) الذين وفدوا إلى الحزب الشيوعي الإيطالي، في أواخر عشرينات القرن العشرين، عبر جامعة نابولي، قد يكونون قد وفدوا من خلفيّات مميّزة بشكل استثنائي لكن الواضح أن المتعاطفين يمكن إيجادهم أيضاً في وسط الشبّان الموجودين في الطبقة البورجوازية الميلانية العليا، وفي الوسط الطلابي البورجوازي في أمكنة أخرى[23].

وبما يشبه ذلك حصل في بريطانيا، حيث جذب شبان البورجوازية العليا، وكانوا من خريجي ما يدعى «المدارس العامة» (Public Schools) والجامعات القديمة، مقداراً متفاوتاً من الانتباه الشعبي، وذلك حصل جزئياً بداعي الوضوح العالي لثقافتهم [مثلاً مجموعة الشعراء اليساريين، و.هـ. أودين (W. H. Auden)، وستيفن سبندر (Stephen Spender)، وسيسل دي - لويس (Cecil Day-Lewis)... إلخ]. وجزئياً لأن عدداً من المفكرين الشيوعيين الشبّان التزموا ليصيروا عملاء سرّيين للسوفيت في ثلاثينات القرن العشرين [برجس (Burgess)، وماكلين (Maclean)، وفيلبي (Philby)، وبلنتْ

(Blunt)]. ليس هذا هو المكان الملائم للتأمل في أسباب الارتداد إلى الشيوعية من قبل أبناء طبقة حاكمة واثقة بنفسها وثابتة لا تتزعزع مثل الطبقة البريطانية، نقول ذلك بالرغم من أن المرتدّين من الوجهة العددية كانوا نفراً قليلاً. كما أنها لم تدرس بشكل منظَّم، ما عدا ما حصل في السياق غير النموذجي للبحث عن عملاء السوفيت[24]. ومن المحتمل أن يكون معظم الثوّار الشبان «وفدوا من الليبرالية» (مستشهدين بعنوان كتاب وضعه أحدهم)[25]. وثمَّة أمثلة متعددة عن أُسرٍ ليبرالية أو «تقدمية» تقليدياً في أعلى الطبقة الوسطى، صارت أجيالها في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين شيوعية لمدىً طويلة أو قصيرة[26]. على كل حال، كانت هناك انفصالات عن الأسر المحافظة، تقليدياً، والإمبريالية فيلبي[27]. وقد وجدت، أيضاً علامات استقطاب سياسي داخل قسم من الأرستقراطية التقليدية: مثلاً، من بين أولاد اللورد ريدسديل (Lord Redes-dale)، صارت ابنتاه وابنه فاشيين، وصارت ابنته شيوعية تزوجت بابن أخ ونستون تشرشل الذي ذهب للقتال في إسبانيا.

هناك دليل في الولايات المتحدة أيضاً مؤداه أن بعض الأعضاء الشبّان في النخبة الشرقية المليونيرية [مثلاً، لامونتس (Lamonts) وويتني ستريتس (Whit-ney Straights)] اجتذبتهم الشيوعية، وإن بمقدار قليل. وقد يكشف البحث في هذا الجانب من التاريخ الاجتماعي لأقطار أوروبية أخرى – ويساعد على شرح ظواهر شبيهة في أمكنة أخرى. وخارج أوروبا حيث كان التعليم الغربي محصوراً بمقدار كبير بنخبة محدودة جداً، لم يكن بالأمر المذهل، أن نجد أن الشيوعية في ثلاثينات القرن العشرين، مثل الليبرالية الغربية والحركات الرامية إلى تحديث الثقافات المحلية، التي كانت محصورة بمقدار كبير بالطبقات، بل وبالأسر التي أدَّت دوراً قيادياً في الحكم المحلّي والمجتمع العالي مثل موظفي النظام الاستعماري أو غيره. وقد استمدت الكوادر، بأنواعها بسهولة من الخزّان الصغير ذاته.

فالأبناء الأربعة لأسرة هندية واحدة – وجميعهم تعلَّم في إنجلترا، وهم أبناء إيتون (Eton) – صار ثلاثة منهم شيوعيين، واثنان من الثلاثة صار أحدهم وزيراً والآخر رجل أعمال، أما الرابع فصار قائداً للجيش الهندي.

ومع ذلك، يجب ألاّ تعتِّم تجنيدات مثل تلك التحية في الشيوعية على العدد الكبير جداً – ففي بريطانيا والولايات المتحدة، وجدت أكثرية من الطلاب المقاومين للفاشية والشيوعيين، لم يفدوا من «المدارس العامة» البريطانية، أو نخبة «المدارس الإعدادية»

في الولايات المتحدة و«الجامعات الثمان» (Ivy League)، والطلاب الذين لم يفدوا من الجامعات إطلاقاً. وفي تاريخ ثلاثينات القرن العشرين، أدّت المؤسسات الماركسية، مثل مدرسة الاقتصاد في لندن (London School of Economics)، وسيتي كولج (City College) في نيويورك دوراً ساوى بأهميته أو فاق دور أكسفورد وييل (Yale). وفي عداد المؤرخين الماركسيين البريطانيين من جيل ثلاثينات وأربعينات القرن العشرين، كانت الأكثرية التي صارت معروفة فيما بعد، قد وفدت من المدارس الثانوية غالباً من خلفيّات ليبرالية أو عمالية غير متجانسة من المناطق، بالرغم من أن العديد منهم تقارب من النخبة الموجودة في جامعتي أكسفورد وكامبردج القديمتين. أما في فرنسا فقد جلب السّلم الضيق لترقية ذوي الذكاء العالي (Meritocratic) أبناء الموظفين الرسميين من الرتب الدنيا ومدرسي المدارس الابتدائية إلى المستويات العالية لمفكري اليسار وكذلك أبناء الأسر المهنية ذات التقليد الطويل من التعليم الأكاديمي العالي[28]. وباختصار، في الأقطار ذات الديمقراطية الليبرالية المؤسَّسة كانت للفاشية جاذبية قليلة عند الطبقتين الدنيا والوسطى، وكان تجنيد المفكرين المعارضين للفاشية واسعاً.

وأكثر ما تجلّى ذلك بصورة خاصة في عدد كبير من المفكرين غير الجامعيين. فنحن نعرف أن 75٪ من أعضاء نادي الكِتاب اليساري البريطاني (British Left Book Club) (الذي بلغ، في ذروته 57,000 عضواً، وربع مليون من القراء) كانوا من عمال الرواتب، والمهنيين الأدنى، ومفكرين آخرين لا أكاديميين[29]. ولا شك في أن ذلك الجمهور يشبه الجمهور الواسع، جمهور الكتب الورقية الغلاف والرخيصة، الذي اكتشف أيضاً في إنجلترا في أواسط ثلاثينات القرن العشرين، من قبل دار بِنغوين للكتب التي كان يحرِّر سلستها الفكرية أشخاص من اليسار. كذلك، فإن معظم الروّاد المتحمسين للموسيقى الشعبية وللجاز في بريطانيا وأميركا – وقد اشتمل على نسبة مئوية متفاوتة من الشيوعيين الشبان في بريطانيا – وُجدوا على حدود طبقة ماهرة من العاملين، تقنيين ومهنيين ثانويين من الطبقة الوسطى. وبين الطلاب أيضاً[30]، وقد وفَّر الميدان المتنامي للصحافة والإعلان والتسلية وظائف للمفكرين غير الجامعيين، ولمفكرين جامعيين لم يختاروا أن تكون حياتهم في المهن التقليدية العامة أو الخاصة، لاسيما في أقطار مثل بريطانيا والولايات المتحدة، حيث كان الدخول في تلك الميادين الجديدة سهلاً نسبياً. لذا، نشأت مراكز جديدة للنشاط اليساري المنظَّم والمضاد للفاشية في مثل تلك المراكز، ومراكز صناعة الأفلام (التي كانت حينئذٍ الوسط الواسع والرئيسي) مثل هوليوود (Hollywood)، وفي الصحافة الواسعة من النوع اللاسياسي أو غير الرجعي تحديداً[31].

لذلك، لم يكن العداء للفاشية محصوراً في نخبة فكرية. فقد اشتمل على موظفي المكتبات والعمال الاجتماعيين في الولايات المتحدة الذين اجتذبتهم الشيوعية بقوة. كما شمل الذين كانت النخبة تحتقرهم، أي: كاتب المجلة غير الراضي، وموظَّف السيناريو المذنب في هوليوود، ومدرس المدرسة الثانوية الذي لم يُدفع له راتبه، والعالم غير الخبير في السياسة، والكاتب الذكي، وطبيب الأسنان الطموح من الوجهة الثقافية[32]. لذا، فقد عكست صورة عن دمقرطة أهل الفكر.

IV

وبما أن العداء للفاشية كان حركة أوسع من الشيوعية، فإن الأحزاب الشيوعية لم تحاول تحويل المفكرين إلى الماركسية ككل (en masse)، بالرغم أن الأحزاب عبر العداء للفاشية وجدت بشكل طبيعي من يمكن تجنيدهم من المفكرين، وكان هناك من جنِّدوا فعلياً. فقد كانت المهمة الرئيسية متمثِّلةً في حشد العدد الأوسع من المفكرين البارزين منهم خاصةً، وإشراكهم في قضية العداء للفاشية، والسلام بأشكاله. فلم يحصل تأكيد على المعايير الأيديولوجية في الاستغاثة التي وقعتها شخصيات، مثل آراغون (Ara-gon)، وبرنانوس (Bernanos)، وتشامسون (Chamson)، وكوليت (Colette)، وغيهينو (Guéhenno)، ومارلو (Marlaux) وماريتان (Maritain)، ومونترلانت (Montherlant)، وجول رومين (Jules Romain) وشلومبرغر بعد احتلال هتلر لبراغ[33].

وفي الأقطار ذات التقليد طويل الزمن من التزام المفكرين باليسار بمن فيهم الذين التحقوا بالحزب الشيوعي عملياً، لم يطلب منهم تغيير أيديولوجياتهم عملياً خاصة إذا كانت أسماؤهم بارزة بما يكفي لإضفاء شهرة على الحزب. وتلك كانت الحالة في الحزب الشيوعي الفرنسي، حيث كان تقليد الثورة قوياً لكن الماركسية كانت ضعيفة. ولم يحصل - إلا حين كانت سنوات الجبهة الشعبية، وحركة المقاومة، وحركة التحرير- أن تبنّى مفكرو اليسار الفرنسيون الأكاديميون التقليديون غالباً ما كانوا اشتراكيين ومؤمنين «بالخير، والتقدم، والعدالة، والعمل، والصدق... وبطريقة تدريجية وغير متطفِّلة، والولاء الشقيق (للشيوعية)، ولم يكن ذلك لأنهم غيَّروا آراءهم السابقة العقلية، والوضعية بل العكس، لأنهم ظلّوا صادقين مع أنفسهم»[34].

في أربعينات القرن العشرين، وُجد أساتذة جامعات نفوا أنهم ماركسيون، لكنهم التحقوا بالحزب الشيوعي بداعي سجلّه ومآثره في العداء للفاشية والمقاومة. ولا بدَّ

من تميز مفكرين من هذا النوع عن الذين (وكانوا من جيل أصغر سناً بشكل رئيسي) جذبتهم الشيوعية أيضاً لكن عبر النظرية الماركسية، والذين كانوا يعلمون الماركسية داخل الحزب، وفي أطرافه. ويجب ألاّ يُنسى أن ثلاثينات القرن العشرين شهدت أكثر مجهود دوليّ منظَّم، حتى تاريخه لنشر وتعميم ودرس «الكتب الكلاسيكية» الماركسية. وكان الشيوعيون هم ما قاموا به.

ولم يقتصر كل ذلك على تيسير اجتذاب المفكرين المعادين للفاشية، وتقريبهم من الماركسية، فقط، لكنه أيضاً وبشكل بارز أثر في تطور الماركسية نفسها. فقد عزَّز العناصر في داخلها الأقرب إلى تقليد عصر التنوير العقلي والوضعي، والعلمي، واعتقاده بقدرة الإنسان على التقدّم. وبوعي منهم أو من دون وعي، كان الذي حصل هو أنه بتقارب الفريقين مال الماركسيون إلى تعديل نظريتهم بصورة جوهرية أكثر مما فعل اللاماركسيون. ولا شك في أنهم لم يفعلوا ذلك رئيسياً فحسب، لأنهم أرادوا إقامة جبهة مشتركة ضد الفاشية مع المفكرين غير الماركسيين.

فللتغلب على ما دعاه ديمتروف (Dimitrov) «عزل الطليعة الثورية» (The isolation of the revolutionary Vanguard) يتضمن إعادة إنشاء «سياساتنا وتكتيكاتنا طبقاً للوضع المتغيّر»، لكن من دون أي تعديل في النظرية وفي الأيديولوجيا الماركسيتين. والمفارقة تمثّلت في أن التطور الداخلي في الاتحاد السوفيتي أكثر من متطلّبات مقاومة هتلر هو الذي أدّى إلى تعزيز ميول الماركسية التي قرَّبتها من الأيديولوجيا القديمة للتقدم في القرن التاسع عشر. والحق يقال، إنه لا يمكن الفصل بين وقع هتلر ووقع الاتحاد السوفيتي، فصلاً واضحاً، في عصر تجربة معاداة الفاشية.

هكذا، فإن تأويل «المادية الديالكتيكية والتاريخية» التي شاعت في تلك الفترة – وقد صارت عبر سلطة ستالين هي الشريعة عند الشيوعيين – ليست مدينة للحاجة إلى إنشاء جبهة معادية للفاشية، بالرغم من أن هذه سهَّلتها. فقد استمدت من الأرثوذكسية الماركسية في حقبة الأممية الثانية، الذي كان كارل كوتسكي ناطقها الرسمي، وهي بدورها كانت مبنيّةً على المجموعة التي أنجزها إنجلز وقد شملت تعاليمه وتعالم ماركس، نعني: نسخة من الماركسية أضفت عليها مرجعية العلم، ويقينيّة المنهج العلمي ونبوءته، والزعم بتأويل الظواهر في الكون بواسطة المادية الديالكتيكية – فالديالكتيك كان مستمداً من هيغل، والمادية كانت منسجمة مع الفلسفات الفرنسية في القرن الثامن عشر. فكانت تأويلاً [كما في كتاب فويرباخ لإنجلز] مشاداً على زواج

بين العلوم الطبيعية المظفَّرة في القرن التاسع عشر والماركسية - بعد هجر مادية القرن الثامن عشر الميكانيكية السطحية والسكونية (بحسب وجهة نظر إنجلز)، فإن تقدّم تلك العلوم أدى إلى هجرها، نتيجة للاكتشافات الثلاثة الحاسمة، ألا وهي، الخليّة، وتحوّل الطاقة، ونظرية النشوء والتطور الداروينية[35].

لاشيء مفاجئ في ذلك. فالزواج بين «التقدم» و«الثورة»، مادية القرن الثامن عشر والماركسية، جمع يقين العلوم الطبيعية والحتمية التاريخية، كل ذلك كان قد اجتذب حركات الطبقة العاملة وفي هذا الأمر لم تكن الحركة الروسية متميّزة. وبالإضافة إلى ذلك، كان الوضع في روسيا ما بعد الثورة يشجّع على أكثر من التأكيد على المذهب العلمي. وعندما تخفق الثورة في ما اعتبره كلٌّ من ماركس ولينين أهدافها الأولية، أي «تعطي الإشارة لثورة العمال في الغرب، لكي تكمل الثورتين إحداهما الأخرى[36]»، فإن المهمات الرئيسية، والسائدة للبلشفيك، كانت تطوير بلاد متخلِّفة وفقيرة، بغية إقامة شروط الصمود والبقاء ضد هجوم خارجي، ولإقامة الاشتراكية في بلاد منعزلة وواسعة. وبمفردات مادية، يجب إعطاء الأولوية للإنتاج والتكنولوجيا («كهربة»[*] لينين). وبمفردات ثقافية، أعطيت الألوية لتنوير الجماهير باعتبارها تربيةً جمهوريةً ونضالاً ضد الدين والخرافة. ولا شك في أن المعركة ضد التخلّف و«للتطور»، أديرت بطريقة مختلفة عن معارك شبيهة جرت في القرن التاسع عشر. ومع ذلك، فقد كان إدراك أفكار العلم، والعقل والتقدم بوصفها قوى تحرير إدراكاً عظيماً. ولم تستمد «المادية الديالكتيكية» قوتها في مثل ذلك المجتمع ببساطة من التقليد والسلطة فحسب، وإنما أيضاً من فائدتها كسلاح في تلك المعركة، وجاذبيتها لمقاتلي الحزب وكوادره المستقبلية، الذين كانوا هم أنفسهم عمالاً وفلاحين، فأعطتهم الثقة واليقين، والتعليم المفيد ما هو صادق علمياً ومصيره النصر.

وكما سبق أن لاحظنا، كان الجمع بين «أزمة التقدم» (Crisis of Progress)، في المجتمع البورجوازي والتأكيد الجديد الواثق بالقيم التقليدية في الاتحاد السوفيتي هو الذي جذب المفكرين للماركسية. فقد واجهوها بوصفهم حملة بيرق العقل والعلم الذي أسقطه البورجوازيون، وكمدافعين عن قيم عصر التنوير ضد الفاشية التي تكرَّست لدماره.

(*) المقصود بالاستعارة: "كهربة" (Electrification) لينين جاذبية لينين (المترجم).

وبعملهم ذلك، لم يقبلوا «بالمادية الديالكتيكية» فحسب، بل رحبّوا بها وطوّروها، كما هي الآن مصاغة في الفكر السوفيتي والدولي الأرثوذكسين، خاصة إذا كانوا ماركسيين جدداً، وكانت الأكثرية العظمى من المفكرين الماركسيين في تلك الحقبة الزمنية مؤلفةً من ماركسيين جدد وكانت الماركسية نفسها عندهم شيئاً جديداً مثل الجاز، والأفلام الصوتية، وروايات البوليس السرّي.

V

صراع الماركسية في أواخر القرن العشرين، وبالتالي تجربة معظم القرّاء بذلك التاريخ تجربة مختلفةٌ لدرجة تتطلَّب التأكيد على الطابع الخاص بماركسية عصر العداء للفاشية، إذا كان لا بدَّ من تجنّب خلط تواريخ الأحداث والتأويلات الخاطئة. فالماركسيون المفكرون، ومنذ ستينات القرن العشرين كانوا غارقين في طوفان من الأدب والجدل الماركسيين. فقد كان في متناولهم ما يشبه سوقاً كبرى عملاقة من المؤلفات الماركسية والمؤلفين الماركسيين، ولم تمنعهم الحقيقة المفيدة أنه، في أي وقت يتحدَّد اختيار الأكثرية في أي قطر بالتاريخ والوضع السياسي والزيّ، من أن يكونوا واعين بالمجال النظري لاختياراتهم. وهذه الظاهرة واسعة لأن الماركسية ومن جديد نقول، منذ ستينات القرن العشرين، ازداد اندماجها في التعليم الرسمي العالي، وفي العلوم الإنسانية والاجتماعية، وعلى الأقل. فلم يكن بمقدور الماركسيين الجدد، في ثلاثينات القرن العشرين، وفي معظم الأقطار الغربية أن يصلوا إلى أدب قليل نسبياً بعيد عن الثقافة والتعليم الرسميين، إلاّ كهدف لنقدٍ عدواني. وحتى إسهاماتهم في الأدب الماركسي كانت قليلة من حيث مقدارها. وهكذا نجد أنه قبل عام 1946 كان المجموع الكلي للكتابات في التاريخ باللغة الإنجليزية، التي يمكن وصفها بأنها «ماركسية أو قريبة من الماركسية»، نحو ثلاثين كتاباً ودزّينتين من المقالات[37] - بغض النظر عن «المؤلفات الكلاسيكية».

وبالنسبة لوجود التقاليد الماركسية القديمة، كان الماركسيون الجدد منفصلين عنها وبمقدار كبير وذلك لأسباب أربعة. وإن الانشقاق بين الديمقراطية الاجتماعية والشيوعية جعل الاثنتين ترتابان بمعظم الماركسية الديمقراطية الاجتماعية السابقة لعام 1914، وتطوراتها اللاحقة. فكان تشكيل نسخة شيوعية قياسية عن الماركسية (اللينينية) قد دفن تقاليد الماركسية الثورية المحلية، التي كانت حيّةً في الأعوام الأولى للشيوعية (مثلاً، تلك التقاليد المرتبطة بـــ «تحالف عامة الشعب»[38] (Plebs League).

كما أن ذلك التشكيل عمل على تهميش ميول معينة داخل الماركسية الشيوعية، حتى عندما لم تكن تلك الميول مدانة. وإن القضاء على خصوم ستالين و«منحرفين» آخرين أزاح قسماً من الكتابات الماركسية البلشفيّة من التداول الفعّال [مثلاً، بوغدانوف، وفي نهاية المطاف، بوخارين، فضلاً عن تروتسكي].

وإلى هذا الحدّ، لم تكن «بلشفة» ("Bolshevization") أواخر عشرينات القرن العشرين سياسية وتنظيمية، فحسب، بل فكرية. وأخيراً نقول كما سبق أن قلنا، عملت الأسباب التقنية – اللغوية منها والسياسية (مثلاً نتائج انتصار هتلر) – على جعل الكثير من الكتابات الموجودة بعيدة المنال. وهكذا، نجد أن سير حياة إنجلز التذكارية الهامة التي وضعها غوستاف ماير، التي نشرت في طبعة خاصة بالمهاجرين في دول الأراضي المنخفضة في عام 1914، ظلَّت مجهولة في ألمانيا لمدة طويلة بعد الحرب، ولم يمكن الحصول عليها باللغة الإنجليزية إلاّ على صورة ترجمة مختصرة اختصاراً قاسياً.

وكما سبق أن ذكرنا، لم يضيّق الجهل – خاصة الجهل اللغوي – آفاق الماركسية المعاصرة. فقد يكون له أثر مضادّ، حتى في أحوال الأرثوذكسية النظرية المتناغمة، التي فرضت تزايداً على الحركات الشيوعية.

فقد كان الماركسيون الغربيون المعاصرون على جهل واسع بالأرثوذكسية السوفيتية، التي صار تعريفها أوضح، ومحدَّداً، وملزماً في الاتحاد السوفيتي في أوائل ثلاثينات القرن العشرين، حول مجموعة من الأمور المتنوِّعة تتراوح ما بين الأدب والفن من جهة، والنظرية الاقتصادية والتاريخ والفلسفة من جهة أخرى، وصولاً إلى خلق «المادية الديالكتيكية» التي شملت، كما هو واضح الآن تنقيحات رئيسية من ماركس نفسه[39].

على كل حال، كما سبق أن رأينا، إن تلك الأرثوذكسية لم تكن بعد قد فرضت على الشيوعيين خارج الاتحاد السوفيتي. إنه طالما لم يوجد شيوعي على وعي بواجب الشجب المباشر للهرطقات السياسية الموصومة كذلك، (خاصة «التروتسكية»)، فإن فرض أرثوذكسية جديدة، في مسائل بعيدة عن الممارسة السياسية، لم يعلن خارج روسيا، فظلَّت النقاشات الرئيسية (باستثناء ما تعلَّق بالفن والأدب) بلا ترجمة، لذا كانت مجهولة.

لذلك، لم يكن لها تأثير على المجتمعات الغربية. فتابع البريطانيون، والصينيون، والأميركيون وكتّاب آخرون طوال ثلاثينات القرن العشرين – ولاحقاً في الأقطار

الناطقة باللغة الإنجليزية - العمل «بنمط الإنتاج الآسيوي»، بينما حرص الروس على تجنّب ذلك[40]. فهناك كتاب مدرسي فلسفي سوفيتي، تمَّ تعديله للاستعمال البريطاني (ونشره ناشر ليس بشيوعي)، احتوى على أنواع الشجب القياسية لديبورن (Deborin) وليوبول (Luppol)، إلاّ أن كتاباً وضعه ليوبول ظلّ ينشر من قبل دار النشر الرسمية الخاصة بالحزب الشيوعي الفرنسي في عام [41] 1936

أما الماركسيون الذين كانوا يعرفون اللغة الألمانية، وأمكنهم الوصول إلى **الأعمال المبكرة**، فقد جسّدوا بحماس ماركس في مخطوطات باريس في تحليلهم من غير وعي بالتحفظّات السوفيتية حول تلك الكتابات الأولى. والفصل الرابع الشهير حتى هذا من كتاب: **تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي (CPSU): مادة دراسية موجزة،** الذي جسَّد العقيدة الجديدة للمادية الديالكتيكية والتاريخية، لم يكن يقرأ بوصفه دعوة لنقد من انحرفوا عنها، وإنما وفي معظم الحالات بوصفه صياغة قوية وشفّافة للمعتقدات الماركسية. ولو ظلت من الشيوعيين الغربيين فما لا ريب فيه أنهم كانوا سيشجبون أولئك الذين أدينت آراؤهم ضمناً أو صراحةً في النقاشات السوفيتية بنفس الإخلاص والالتزام اللذين بهما شجبوا التروتسكية، لكن لم يطلب منهم ذلك تحديداً إلى هذا الزمن، ونفر قليل كان عارفاً بأن الشيوعيين الروس طلب منهم.

إلى هذا الحدّ، يمكن القول، إن الماركسيين الجدد، ماركسيي ثلاثينات القرن العشرين كانوا بشكل واسع، جاهلين بالتأويلات البديلة للنظرية الماركسية - حتى تلك التأويلات التي دعيت الماركسية الغربية[42]، التي كانت تُشبَّه بالبلشفية، أو كانت متعاطفة معها. علاوة على ذلك وخلافاً لماركسيي أواخر القرن العشرين، لم يكونوا مهتمين اهتماماً خاصاً بالنزاعات الجدلية الماركسية الداخلية، حول النظرية (إلاّ إذا كانت موجودة في مجموعة الكتب المرجعية للينين وستالين، أو كانت إلزامية بقرارات سوفيتية أو بقرارات الكومنترن. وكانت تلك النزاعات الجدلية تظهر في فترات عدم اليقين بالنسبة لصحة التحليل الماركسي الماضي، مثل نهاية القرن التاسع عشر (الأزمة «التنقيحية» للماركسية)، أو في حقبة النصر الرأسمالي العالمي، وما بعد الستالينية. غير أن الماركسيين الجدد، ماركسي ثلاثينات القرن العشرين، لم يروا سبباً للشك بالتكهنات الماركسية المحتملة في أعوام الأزمة الرأسمالية الكبرى كما لم يروا سبباً للتدقيق في النصوص الكلاسيكية بحثاً عن معانٍ بديلة. غير أنهم اعتبروا الماركسية المفتاح لفهم مجالات واسعة من الظواهر ظلّت إلى حينه غامضة ومحيِّرة. وكما وصف الحال عالم رياضيات ومناضل ماركسي: «في وسط الكثير مما لا يزال قيد البحث التفصيلي، لا

يسع الماركسي إلا أن يشعر أنه توجد هنا مناطق فكرية تنتظر فهماً ديالكتيكياً»[43]، فقد اعتبروا عملهم الفكري مختصاً باستكشاف تلك المناطق، والكتابات الكلاسيكية، والماركسيين القدامى، لا كلغزٍ ينتظر توضيحاً فكرياً، وإنما كمخزن جامع من الأفكار المنيرة. وفي أشكال التقدم الضخمة التي أمكن تحقيقها، بدت الفجوات الممكنة والتناقضات الداخلية قليلة الأهمية. وأوضح التقدّم، عند المفكرين، أنه تمثَّل في نقد وجهات النظر اللاماركسية حولهم. وبصورة طبيعية راحوا يركِّزون على ذلك، وليس على نقد ماركسيين آخرين، إلاّ عندما كان التزامهم السياسي يستحضر مثل ذلك النقد معه. ويمكن للمرء أن يفكر فيقول، إنهم لو تركوا لحالهم، لكانوا حسبوا الماركسيين المختلفين معهم، بأنهم لافتون وليسوا شريرين. فهنري لوفيفر (Henri Lefebvre)، اعتبر في تأملاته المهمة في المسألة القومية (1937)، أن تعريف أوتو بوير لما هو قومي مختلفاً عن تعريف ستالين بكونه أقل دقةً، وليس لكونه خاطئاً بشكل خطر[44].

مع ذلك، لا بدَّ من أن نذكر أن الماركسيين الجدد قبلوا التأويل الأرثوذكسي، لكنهم لم يفعلوا ذلك لأنهم لم يكونوا يعرفون سواه، ولأنهم لم يكونوا منزعجين وقلقين من ظواهر التمييزات العقيدية داخل الماركسية فحسب، بل لأنها تلاءمت مع مقاربتهم للماركسية أيضاً. فكتاب كارل كورش: كارل ماركس (المنشور باللغة الإنجليزية، في عام 1938) أهمل وقعه، ولم يكن ذلك فحسب، لأن صاحبه معروفٌ بأنه منشق - فالقليل عرف من يكون، باستثناء عدد من المهاجرين الألمان الذين لم يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة - بل أيضاً لأنه بدا هامشياً بالنسبة لتلك المقاربة.

فالنظرة الرسمية لكتابات ماركس الفلسفية الأولى تمثّلت في اعتبارها حاوية على كتابات ماركس الشاب. فكانت تعكس تطوره من المثالية الهيغلية إلى المادية المتَّسقة[45]. ومع أن هناك ما يكفي من حملة رتبة التأهيل (Agrégé) الفلسفي في الحزب الشيوعي للتعرف إليهم، كما أشار هنري لوفيفر أن ذلك لا يستنفد مسألة علاقة ماركس بهيغل، فإننا لا نجد صدى لماركس الهيغلي، في كتاب جورج بولتزر (Georges Politzer): (*Principes élementaires de la philosophi*e) (المبني على مادة دراسية مؤلفة من محاضرات ألقيت في 1935 - 1936)، أو بالرغم من معرفته وتقديره للملاحظات الفلسفية التي وضعها لينين في الكتاب المعاصر: كتاب **مدرسي حول المادية التارخية** (*Textbook of Dialectical Materialism*) للكاتب الإنجليزي ديفيد غست[46] (David Guest). ولا يمكن حسبان أي من هؤلاء المفكرين المستقلين والمقتدرين مجرد شعبيين تبسيطيين.

أفضل توضيح للطابع الخاص للماركسية الغربية في حقبة المعاداة للفاشية يمثل في الحقيقة المفيدة أن تلك كانت الحقبة الأولى وربما الوحيدة ليومنا، عندما انجذب علماء الطبيعة إلى الماركسية بأعداد كبيرة، وحركوا أهدافاً عدائية للفاشية. ففي ستينات وسبعينات القرن العشرين درجت فكرة التخلّي عن الفكرة المدعية أن الماركسية هي نظرة عالمية شاملة تضم الكون الطبيعي والتاريخ الإنساني، وكانت متتبعة خطوط النقد التي رسمها كارل كورش (Karl Korsch) وآخرون من قبل، غير أنه في ثلاثينات القرن العشرين، كانت فكرة الشمولية الكلية للماركسية هي التي جذبت الماركسيين الجدد وعلماء الطبيعة المسنين منهم والشبّان إلى النظرية كما شرحها إنجلز[47].

وكانت تلك الظاهرة ملحوظة في بريطانيا، والولايات المتحدة وفرنسا، وهي التي كانت المراكز الغربية الرئيسية للبحث في العلوم الطبيعية بعد الكارثة الألمانية. وعلى أعلى مستوى، كان عدد العلماء من ذوي التفوق الحاضر أو المستقبلي، الذين كانوا شيوعيين متعاطفين أو متطابقين مع اليسار الراديكالي، لافتاً جداً ومثيراً للإعجاب. وشمل العدد في بريطانيا وحدها خمسة من الذين نالوا جائزة نوبل في المستقبل، هذا على الأقل. وعلى المستوى الأدنى، كانت راديكالية العلماء في جامعة كامبردج، التي كانت المركز العلمي الأهم في بريطانيا مضرب المثل. وامجموعة العلماء المناوئين للحرب أطلقت نفسها مع حوالي ثمانين عضواً في وسط المشتغلين في البحوث، وكانت في تلك الأيام مجموعة محصورة[48]. وإذا كان النشطاء أقلّية، فإن الأكثرية كانت متعاطفةً مع اليسار سلبياً على الأقل. وأفاد التقدير أنه من أصل 200 من العلماء البريطانيين ممن كانوا دون الأربعين من العمر في عام 1936، وُجد خمسة عشر منتسبٍ للحزب الشيوعي أو متعاطف معه، وخمسون إلى يسار المركز، ومئةٌ من المتعاطفين سلبياً مع اليسار، والبقية حيادية، وخمسة أو ستة في الأجنحة الشاذه لليمين[49].

كان العداء للفاشية طبيعياً في ضوء الطرد الواسع للعلماء وهجرتهم الكبيرة من أقطار الفاشية. ومع ذلك، كان انجذابهم للماركسية طبيعياً دائماً، وذلك بالنظر إلى صعوبة التسوية بين علم القرن العشرين مع نماذج القرن التاسع عشر التي بنى عليها إنجلز وجهات نظره، ودافع عنها لينين فلسفياً[50]. وكان كتاب إنجلز: **ديالكتيك الطبيعة** وكتاب لينين: **المادية ونقد الإمبريالية** (*Materialism and Empiriocriticism*)، متاحين. وكانت مخطوطة إنجلز، وفقاً لما ذكر ريازانوف بأمانة علمية في مقدِّمته له، قد قُدمت في عام 1924 إلى إينشتاين لتقييمها تقييماً علمياً، فقال العالم الكبير إن «المضمون ليس فيه ما يهم من وجهة نظر علم الفيزياء القائم أو تاريخ الفيزياء»، لكن

قد يستحق النشر «من حيث إنه إسهام لافت في عملية إلقاء الضوء على أهمية إنجلز الفكرية»[51].

ومع ذلك، فقد قرئ لا بوصفه إسهاماً في السيرة الفكرية لإنجلز، وإنما من قبل أحد العلماء الشبّان الذي كان معاصراً للمؤلف الحالي في جامعة كامبردج، بوصفه إسهاماً مثيراً في تشكيل أفكارهم حول العلم[52]. كذلك، لا بدّ من القول أيضاً إنه وجد حينئذ أيضاً علماء شيوعيون سلّموا بأن المادية الديالكتيكية ليست بذات علاقة مباشرة ببحوثهم.

وبما أننا في موضع لا يناسب البحث في تاريخ التأويل الماركسي للعلوم الطبيعية، لذا، لا يمكن الحديث هنا عن المحاولات المختلفة التي حصلت لتطبيق الديالكتيك عليها في تلك الفترة[53]. على كل حال، يمكن وضع ثلاث ملاحظات حول جاذبية الماركسية للعلماء الطبيعيين.

أولاها تمثلت في عكسها عدم رضا، أو بله أو استياء العلماء بمادية القرن التاسع عشر الميكانيكية الحتمية، التي أنتجت نتائج يعسر تسويتها مع ذلك المبدأ الشارح. ولم ينتج ذلك مجرد صعوبات مهمة داخل العلم، وإنما ولّد تصدّعاً عاماً في العلم، وتناقضاً متنامياً بين ظواهر التقدم الثورية الخاصة بالمعرفة العلمية والصورة الفوضووية المتزايدة في فوضاها وعدم اتّساقها، وصورة الواقع الكلي التي تريد شرحه. كما قال ماركسي شاب لامع (سريعاً تمَّ قتله في إسبانيا):

«لقد حصل الوصول إلى نقطة، صارت عندها الممارسة في النظرية الاختصاصية في كل دائرة متناقضة مع نظرية العلم ككل المصاغة صياغة عامة، لدرجة جعلت كل الفلسفة الميكانيكية تتفجَّر. فقد وَجَدتْ علوم البيولوجيا، والفيزياء، والنفس، والأنثروبولوجيا والكيمياء أن اكتشافاتها التجريبية، هي مصدر توتّر مفرط لنظرية العلم العامة اللاواعية، فانحلّ العلم إلى شظايا. ويئس العلماء من نظرية عامة للعلم ولجؤوا إلى التجريبية الحسّية حيث يكون التخلّي عن جميع محاولات طلب نظرة عامة للعالم، أو تحوّلوا إلى الانتقائية، حيث تجمع نظريات الاختصاص كلها لتشكيل نظرة إلى العالم مؤلفة من خليط من دون محاولة لتوحيدها، أو تخصيصها حيث يختزل العالم كله إلى نظرية العلم الاختصاصية المحدَّدة التي تعني المنظِّر عملياً وتهمه. وعلى كل حال، لقد انحلّ العلم إلى فوضى ولأول مرة يئس الإنسان من أن يحصل منه على أية معرفة بالواقع»[54].

لذا، نقول لهؤلاء الذين شعروا أن نظرة العلم إلى العالم تصدَّعت بفضل ظواهر التقدم الثوري ذاتها في العقود الأخيرة، سواء أكانت خلال «أزمة علم الفيزياء» (Crisis of Physics) التي كتب عنها كريستوفر كودوِلْ (Christopher Caudwell)، أم في الصعوبات التي خلقها علم الوراثة لنظرية النشوء والتطور الداروينية، التي حاول ج. ب. س هالدين التغلّب عليها[55] وبمفردات عامة، حيث كان للمادّية ثلاثة جوانب جاذبة رئيسية. ففي المقام الأول، ادّعت أنها توحِّد وتجمع جميع ميادين المعرفة، لذا كانت مقاومة لتصدّعها. لذلك ليس بالأمر العرضي أن نجد أن أبرز العلماء الماركسيين البارزين، مثل هالدين، ج. د. بيرنال أو جوزيف نيدهام (Joseph Needham)، كانوا موسوعيين في مدى معرفتهم واهتماماتهم. كما أنها احتفظت بثباتٍ بالاعتقاد بوجود عالمٍ واحدٍ وحيدٍ موجودٍ وجوداً موضوعياً، ويمكن معرفته معرفةً عقلية مقابل عالم غير محددٍ ولا يمكن معرفته، ومقابل اللاأدرية الفلسفية الوضعية أو ألعاب الرياضيات. وبهذا المعنى كانوا إلى جانب «المادية» ضد «المثالية»، ومستعدين أن يغضوا النظر عن نواحي الضعف الفلسفية وسواها الموجودة في مثل تلك الدفاعات عنها مثل كتاب لينين: **نقد الإمبريالية**.

الجاذب الثاني تمثَّل في أن الماركسية، كانت على الدوام تنقد المادية الميكانيكية الحتمية التي كانت الأساس لعلم القرن التاسع عشر، لذا زعمت أنها تقدِّم بديلاً عنها. والواقع هو أن انتساباتها العلمية كانت لا غاليلية ولا نيوتونية وذلك لأن إنجلز نفسه احتفظ طوال عمره بمحبة خاصة «للفلسفة الطبيعية» الألمانية التي لا شك ترعرع فيها الطلاب في شبابه.

فقد تعاطف مع كبلر (Kepler) وليس مع غاليليو. ومن الممكن أن يكون هذا الجانب من التقليد الماركسي قد ساعد على اجتذاب العلماء الذين كان ميدانهم (البيولوجيا) أو الذين تمثَّلت نظرتهم العقلية في نماذج العلم الميكانيكية الاختزالية ونصرها الأعظم في الفيزياء، والمنهج التحليلي الذي يعزل الإنسان القائم بالتجربة عن سياقها («مع بقاء الأمور الأخرى متساوية»)، وجعلهم ذلك التقليد يرون كل ذلك غير سديد. فمثل هؤلاء الرجال [جوزيف نيدهام، وس. هـ. وادنغتون (C. H. Waddington)] كانوا يهتمون بالكلّيات لا بالأجزاء، وبنظرية للأنظمة العامة – لم تكن هذه العبارة مألوفة لدى المجموعات – تجمع في واقع حيّ ظواهر فصلها «المنهج العلمي» (Scientific Method) التقليدي، مثلاً: «رغم سقوط القذائف، ظلّت المدن تعمل» (مستعملين مثلاً توضيحياً لنيدهام ملائماً لعصر العداء للفاشية)[56].

أما الجانب الجاذب الثالث، فيمثُل في أن الماديّة الديالكيتيكة وفرت مخرجاً من تناقضات العلم بتجسيدها مفهوم التناقض في مقاربتها. («فاكتشافات عمال مختلفين تبدو متناقضة تماماً. وهنا تبدو المنهجية الديالكتيكية جوهرية» – ج. ب. س هالدين).

لذا، ما وجده العلماء في الماركسية، لم يكن طريقة أفضل لصياغة الفرضيات العلمية بشكل يمكن تكذيبه، ولا طريقة خصبة موجَّهة خاصة بالنظر لميادينهم. ولم تقلقهم أخطاء كتاب إنجلر: **ديالكتيك الطبيعة** كونه إلى زوال. فقد وجدوا فيها مقاربة شاملة وموحَّدة للعالم وما يحتويه، وكل ذلك حصل في زمنٍ بدا ذلك فيه متصدِّعاً، ولم يبد ما يحلّ محله في حينه. فمن غير البحث عن طريقة جديدة عبر المادية الديالكتيكية لا يمكن فهمه، أعني من غير ذلك الحسّ أن العلم في أوائل ثلاثينات القرن العشرين، كان في حالة فوضى، وكان مقسَّماً (كما في الفيزياء) بين الجيل الجديد [هيزنبرغ (Heisen-berg)، وشرودنجر (Schrödinger)، وديراك (Dirac)] المتقدِّم إلى منطقة جديدة، من غير أن يقلقه اتِّساقها وإينشتاين وبلان... وآخر «الحرس القديم في جبهة الفيزياء النيوتونية الذين مارسوا «نوعاً من الإعاقة» (الدفاع)... عاجزين عن قيادة أي هجوم مضادّ على مواقع العدو»[57] للبحث عن طريقة جديدة من خلال المادية الديالكتيكية غير المفهومة.

على كل حال، لا بدَّ من أن نذكر إسهاماً رئيسياً آخر للماركسية في العلم فتطبيقها على تاريخ العلم أعجب الكثير من العلماء بقوة الإلهام، ومن ذلك نستدل على الأهمية العظمى في تطور ماركسية العلماء الواردة في رسالة بوريس هِسِّن حول «الجذور الاجتماعية والاقتصادية لكتاب نيوتن»: **المبادئ** (*Principia*)، التي قُدمت، لأول مرة في مؤتمر في بريطانيا في عام [58]1931.

وقد جمعت ما بين التقدم العلمي وحركات المجتمع، وبهذا العمل بيَّنت أن «براديغمات» (Paradigm's) الشرح العلمي (مستخدمين مصطلح براديغم الذي ابتدع لاحقاً) ليست مستمدة حصرياً من التقدّم الداخلي للبحث الفكري. وهنا نقول من جديد، لم تكن الصحة الفعلية للتحليلات الماركسية المادية هي المسألة الرئيسية. فرسالة هسِّنْ حينئذٍ أيضاً كانت مفتوحة للنقد ذي التسويغ. فوقعها تمثَّل في جدّتها وخصوبة مقاربتها.

وقد فعلت ذلك لأنها كانت بصورة جزئية مرتبطة بالإسهام الثالث الكبير في عالم العلم، ولم يكن ذلك عائداً للماركسية بقدر ما كان عائداً للعلماء الماركسيين والاتحاد

السوفيتي، نعني: الإلحاح على المغزى الاجتماعي للعلم، والحاجة إلى تخطيط تطوره ودور العلماء وفقاً لذلك. ودخلت أول ما دخلت في نقاشات نادي العلماء البريطاني ذي النفوذ - الذي ضم مفكرين آخرين هم [التوت (Tots) والكوتس (Quots)] - في أوائل عام 1932 على صورة رسالة قدَّمها عالم الرياضيات الماركسي هـ. ليفي (H. Levy) [مدعوماً من هالدين، وهوجبن (Hogben) وبيرنال]، على أساس الحاجة لتخطيط العلم، وفقاً لاتجاهات التطور الاجتماعي»[59]. ولم يكن ذلك في مجتمع مثل المجتمع الفرنسي، حيث كان البحث العلمي يفتقر للدعم المنظَّم، فكان على علماء اليسار أن يكونوا روّاده، وأن تقتنع حكومة الجبهة الشعبية منهم بضرورة ذلك: فالاشتراكية جين بيرين (Jean Perrin)، والمتعاطف مع الشيوعية (والشيوعي، لاحقاً) بول لانغيفن (Paulo Langevin) كانا المحركين الرئيسيين وراء (Caisse nationale de la recherche scientifique) الذي صار فيما بعد (Centre national de la recherche scientifique)، وإيرين جوليو كوري (Irène Joliot-Curie) السكرتيرة الثانية للدولة في العلوم. وبهذا المعنى، قد يكون أهم نشر للعلم الماركسي تأثيراً، هو كتاب ج. د. بيرنال: **وظيفة العلم الاجتماعية** (*The Social Function of Science*) (لندن، 1939)، وذلك لأنه ببساطة كان ماركسياً وفيه صاغ مشاعر وآراء كانت مشتركة عند عدد كبير من العلماء لم يكن لديهم من دونه تعاطف محدَّد مع الماركسية، أي: زعم العلماء بأن يعاملوا «كطبقة» رابعة أو خامسة، ونقد الدول والمجتمعات التي أخفقت في إدراك الدور الأساسي للعلم في الإنتاج (والحرب)، وتخطيط مصادر المجتمع بعونه. وقد لقيت الدعوة استجابة واسعة في ذلك الزمن، لأن العلماء شعروا أنهم وحدهم الذين عرفوا ما تتضمنه الثورة العلمية الجديدة من نتائج نظرية وعملية (مثلاً الفيزياء النووية).

ومن سخرية التاريخ أن يكون أول وأعظم نجاح للعلماء في إقناع الحكومات بلزوم النظرية العلمية الحديثة الخاصة بالمجتمع تحقق خلال الحرب ضد الفاشيّة. وكانت السخرية أعظم وأكثر مأساوية حين كان العلماء المعادون للفاشية هم الذين أقنعوا الحكومة الأميركية بمعقولية وضرورة صنع الأسلحة النووية، التي تمَّ إنشاؤها حينئذٍ من قبل فريق دولي مؤلف من علماء معادين للفاشية بمقدار كبير.

كانت جاذبية الماركسية لعدد من العلماء الطبيعيين قصيرة العمر. ولم يكن من المحتمل أن تدوم حتى لو خاصمت التطورات الداخلية في الاتحاد السوفيتي [خاصة مسألة لايسنكو (Lysenko)] العلماء بصورة عامة، وجعلت وضع الشيوعيين منهم من النوع الذي لا يُطاق بعد عام 1948. كما نسي ذكر تلك الجاذبية في التاريخ الرسمي

وفي البحث الماركسي على الأقل في الفترة التي صارت الطريقة السائدة متمثلّة في إنكار أن يكون لدى ماركس أي شيء ليقوله - أو حتى قصد أن يقول أي شيء - عن العلوم الطبيعية، كما أن كتابات إنجلز حول الموضوع نبذت بوصفها كتابات شخص آخر اعتقد بالمذهب التطوري في القرن التاسع عشر، وهو مجرد هاوٍ للعلوم والفلسفة.

ومع ذلك، ليس من قبيل التذكير أن نقول فحسب، إن علاقات الماركسية بالعلوم الطبيعية لا يمكن نبذها هكذا، وأن الذي حصل هو نبذ عنصر جوهري من عناصر ماركسية المفكرين في عصر العداء للفاشية. فهي عكست الاستمرارية مع تقليد العقلانية والتقدّم السابق للماركسية، والإدراك بأن ذلك التقليد لا يمكن متابعته والتقدم به إلاّ عبر ثورة على صعيدي العمل والنظر. وهي تساعد على توضيح سبب الترحيب الحقيقي والمخلص بالمادية الديالكتيكية والتاريخية الموجودة في النسخة السوفيتية، الذي حصل من قبل المفكرين الماركسيين المعاصرين، ولم يقتصر الأمر على قبولها (بعقلانية)، لكونها صدرت عن الاتحاد السوفيتي.

لقد عنت الماركسية عند الماركسيين الاستمرارية مع تقاليد البورجوازية القديمة (والبروليتاريا بلاريب) المتمثلة في العقل، والعلم والتقدم وتحولاتها الثورية في النظرية والممارسة. أما بالنسبة لغير الماركسيين الذين وجدوا أنفسهم ملتقين مع الشيوعيين، والذين قاتلوا إلى جانبهم ضد عدو مشترك، فلم يكن لها معانٍ ضمنية نظرية رئيسية. فقد وجدوا أنفسهم في الجانب ذاته مثل الماركسيين. وقد أدركوا، أو ظنوا أنهم أدركوا المواقف والمطامح المألوفة حتى عندما كانوا يجدون الحجج غريبة، أو على الأقل لقد أعجبوا واحترموا الأمل، والثقة، والحماسة (élan) والقوة الأخلاقية في معظم الأحيان، والبطولة والتضحية بالذات التي كانت عند المتحمسين المتعصبين، كما فعل ج. م. كينيس الذي لم يكن متعاطفاً مع الماركسية أو الاشتراكية من أي نوع.

وينتمي إلى ذلك الوسط بصورة جوهرية جميع المفكرين المتعاطفين مع الماركسية على تنوّعهم، الذين كتب تاريخهم بأسلوب ارتياب وسخرية[60]. والمصطلح نفسه غامض، إذ عبره سعى العداء للشيوعية في الحرب الباردة إلى دمج الإجماع السياسي الواسع بين المفكرين الليبراليين والشيوعيين، حول الفاشية والضرورات العملية لمعاداة الفاشية مع مجموعة أصغر ممن يمكن الاعتماد عليهم لتزيين المنابر «الواسعة» في المجالس التي كان ينظمها الشيوعيون، للتوقيع على بياناتهم، وحتى مع مجموعة أصغر ممن صاروا مدافعين منتظمين عن سياسات الاتحاد السوفيتي، ومنافحين عنها.

أما الخط الفاصل بين تلك المجموعات فقد كان غامضاً وغير ثابت، ومع ذلك لا بدَّ من وضعه. فموجبات العداء للفاشية ثبَّطت من عزيمة نقد أنشط قواها وأفعلها تماماً، مثلما ثبَّطت موجبات الحرب أي شيء يمكن أن يوهن وحدة القوى المحاربة هتلر ودول المحور غير أن ذلك لم يتضمن «متعاطفين مع الماركسية».

وتوضح ذلك خطوط جورج أورويل (George Orwell) في الأدب البريطاني. فصعوبات هذا الكتاب، الذي نقد الستالينية والسياسة الشيوعية في الحرب الأهلية الإسبانية، وميولاً مختلفة في اليسار البريطاني لم يأتِ من الشيوعيين (الذين لا علاقة له بهم) أو من المتعاطفين معهم، بل من محرِّرين وناشرين غير شيوعيين وغير ماركسيين كانوا بإخلاص غير راغبين بنشر كتابات يمكن أن تساعد وتريح «الطرف الآخر»[61]. والحق يُقال، إن الذي حدث قبل حقبة ما بعد الحرب، التي خلقت لأروِلْ مستمعين كثيرين، هو أن الشعب لم يكن محتفياً بمثل تلك الكتابات. فكتابه: **ثناء لكاتالونيا** (*Homage to Catalonia*) (1938) لم يمكن بيع أكثر من مئات قليلة من نسخه.

أما المفكرون «المتعاطفون» الذين - بمؤهلاتهم المستحقة - استحقوا الاسم، فقد كانوا مجموعة متنوعة جداً وذات أصول فكرية وتعاطف، إلاّ أن خبرتهم بالحرب العالمية الأولى التي مقتوها، من دون استثناء كانت جارحة وحاسمة. فمعظمهم كانوا أو صاروا أشخاصاً في اليسار الليبرالي والعقلي. وسبق لهم أن انجذبوا إلى الماركسية أو إلى الأحزاب الشيوعية.

والواقع هو أن صورتهم العالية عن دور المفكر حالت دون القيام بنشاط ثابت، وخضوع لنظام الحزب. فأشخاص من قبيل رومين رولاند (Romain Rolland)، وهنريخ مان (Heinrich Mann) وليون فوشتوينجر (Lion Feuchtwanger) نرى أنهم عندما كانوا أحياناً [مثل زولا] مستعدين للتدخل في الشؤون العامة كانوا يتوقعون دائماً بأن يُصغَى إليهم بانتباه، ووجدوا أنفسهم بحسب وصف رولاند، واقفين 'au dessus de la mêlée' - فوق المعترك.

لم يكن انجذابهم نمطياً للدراما الروسية أو لأي ثورة أخرى، والواقع هو أنهم مثل رولاند ومان وأرنولد زويج (Arnold Zweig) مغرَّبين من الجوانب القمعية والإرهابية للسياسة السوفيتية الداخلية.

وكانوا قبل انتصار هتلر قد احتجوا ضدَّها[62]. وفي ثلاثينات القرن العشرين، وحدهم العداء للفاشية وقادهم لدعم الاتحاد السوفيتي والدفاع عنه. وكما قال توماس

مان (Thomas Mann)، في عام 1951 «إذا وجد شيء يطلب مني أن أحترم الثورة الروسية، فإنه سيكون مقاومتها الثابتة للفاشية»[63]. ومع ذلك، كان الأساس هو إرث عصر التنوير، وعصر العقل، والعلم والتقدم الذي اعتقدوا أنهم عرفوه موجوداً في الاتحاد السوفيتي.

وفعلوا ما فعلوا في اللحظة ذاتها عندما كان من المتوقَّع أن يقاوم الاتحاد السوفيتي المفكرين الليبراليين الغربيين، أي: في زمن الإرهاب الستاليني ووسط أنهار جليد الثقافة الروسية ذات العصر الجليدي. غير أنها كانت في ذات الوقت أيضاً في زمن زلازل المجتمعات البورجوازية الليبرالية في الغرب، وزمن الخضات الثلاثية المؤلمة، وهي: السقوط المفاجئ، والنصر الفاشي، واقتراب الحرب العالمية. وبدت البربرية التي طالما ارتبطت بروسيا أنها ليست بذات صلة مثل التزامها العام العاطفي المتحمس بقيم ومطامح عصر التنوير وسط فجر الليبرالية في الغرب، وكذلك تضيعها المخطط المضاد دراماتيكياً لأزمة الاقتصاد الليبرالي، إضافة إلى دورها المعادي للفاشية. فالاتحاد السوفيتي في حالة الإعمار (In Construction) (مستعملين العبارة التي صارت عنواناً لنشرة دورية مشروحة شروحاً وافرة للدعاية الخارجية) بدا مجتمعاً مشاداً على صورة العقل، والعلم والتقدم، وهو السليل المباشر لعصر التنوير والثورة الفرنسية الكبرى. وصار المثل الشارح للهندسة الاجتماعية للمقاصد الاجتماعية – وقوة الأمل الإنساني في مجتمع أفضل. تلك كانت المرحلة من التاريخ السوفيتي التي اجتذبت الكتاب الذين لم تحركهم الآمال الطوباوية، والانفجار الاجتماعي للثورة ذاتها، والمزيج من الفقر والأمل الكبير، ومن المثل العليا واللامعقولية وظواهر الاهتياج في عشرينات القرن العشرين.

علاوةً على ذلك نجد أنه في حين كانت روسيا السوفيتية، في مرحلتها الثورية، وكذلك الأحزاب الشيوعية الأولى قد رفضت المذهب الإنساني الليبرالي، فإن مؤسساتها راحت تؤكد على المشترك معه. وقد ناقش جورج لوكاش قائلاً، ضد الطليعيين، إن الذي كان بالضبط هو ظاهرة الكتابات الكلاسيكية البورجوازية والكتابات اللاحقة لأمثال – غوركي، وورولاند والاثنين اللذين حملا اسم مان – الذين لم ينتجوا أفضل الأدب فحسب، بل الأدب الأكثر إيجابية من الوجهة السياسية. ولم يلائم هذا الرأي ذوقه ومبادئه النقدية (إضافةً إلى الميول السياسية التي لم يعد يستطيع التعبير عنها بحرية، منذ «أطروحات بلوم» (Blum Theses) في 1928–1929)، وإنما لاءم مبادئ جبهة واسعة مقاومة للفاشية، هي التي صارت حينئذٍ السياسة الشيوعية الرسمية.

فدستور الاتحاد السوفيتي لعام 1936 كان مقبولا من «الديمقراطيين البورجوازيين» الغربيين أكثر مما كان مقبولاً من أسلافهم.

وإذا ظل حبراً على ورق فإن ذلك الورق مثَّل على الأقل المطامح التي رحبوا بها بإخلاص.

لذا، فإن ما قرَّب بين الماركسيين وغير الماركسيين كان أكثر من الحاجة العملية للاتحاد ضد عدو مشترك. فقد كان شعوراً عميقاً أكده وحفزه الهبوط المفاجئ وانتصار هتلر بالانتماء إلى تقاليد الثورة الفرنسية، وهي العقلية العلمية، والتقدم والقيم الإنسانية. وقد سهَّلت التطابق على الجانبين تلك النسخة من الفلسفة الماركسية التي صارت رسمية في تلك الحقبة، وانتقال مراكز الماركسية الغربية إلى فرنسا وإلى الأقطار الأنجلوساكسونية، التي تشكَّل فيها المفكرون الماركسيون وغير الماركسيين كلاهما داخل ثقافة توجد في عمقها تلك التقاليد.

VI

لم تكن مقاومة الفاشية بشكل رئيسي تمثِّل مدخلاً للنظرية الأكاديمية. فقد كانت في المرحلة الأولى مسألة عمل سياسي، وحكمة عملية واستراتيجية. وباعتبارها كذلك، واجهت المفكرين وغير المفكرين الماركسيين، الذين دخلوا السياسة في فترة مقاومة الفاشية وكانت لهم ذكريات سياسية طويلة، بمسائل ذات تحليل وقرار سياسيين لا يمكن حذفها من هذا الفصل.

ويمكن في الحالة الراهنة للبحث أن نحدِّد مقدار تعبئة المفكرين في قضية مقاومة الفاشية، لكن يمكن القول بإخلاص أنها مثل قضية دريفوس، كان لها جاذبية خاصة عندهم كمجموعة، وأنها حرّكت عدداً غفيراً منهم للعمل السياسي، وقبل كل شيء، وفرت لهم فرصاً لخدمة القضية كمفكرين (As intellectuals) أكبر مما كان مألوفاً في الماضي. فلم يكن بالأمر المستغرب أن يذهب بعضهم للقتال في إسبانيا، بالرغم من عدم وجود محاولة لتشجعهم على القيام بذلك، وفي بريطانيا حصل ضمنياً ما يثني الطلاب عن التطوع[64]. على كل حال، نراهم ملتحقين بالأولوية الدولية كجنود لا كمفكرين. فلم يكن وجوب التحاقهم بحركات المقامة الحربية أيضاً بالأمر المستغرب، ولا التحاقهم الفعلي أيضاً، وصاروا بارزين في صراع المحازبين المسلَّح. ولم يكن أيّ من تلك النشاطات محصوراً بالمفكرين. وكان الجديد في تلك الحقبة – وقد عرفته الحركة

الشيوعية سابقاً أكثر من أي مكان آخر – متمثّلا في مدى الإسهامات المحدَّدة التي قام بها المفكرون في حركة مقاومة الفاشية، أي: ليس من قبل البارزين بوصفهم رموزاً دعائية فحسب، بل بعملهم في الإعلام (النشر، والطباعة، والسينما، والمسرح... إلخ.)، وبوصفهم علماء، أو بطرق أخرى تطلّبت أناساً يتمتعون بمؤهلاتهم. فلا توجد سابقة مثلاً للتعبئة الاختيارية والعفوية للعلماء، بوصفهم علماء ضد الحرب، وأخيراً للحرب.

والواقع هو أن سيرة حياة شخصية مثل ج. روبرت أوبنهايمر (J. Robert Op-penheimer)، العالم الذي كان مسؤولاً بصورة رئيسية عن بناء القنابل الذرية الأولى، لا تُفهم إلاّ في سياق الظروف التاريخية الخاصة التي حدَّدتها. فكان طبيعياً لمفكر من طرازه أن يصير مقاوماً للفاشية، ومنجذباً إلى الشيوعية في ثلاثينات القرن العشرين. وكان العلماء المقاومون للفاشية الوحيدين الذين كان بمقدورهم أن يلفتوا انتباه حكوماتهم إلى إمكانية الأسلحة النووية، وذلك لأن العلماء وحدهم قادرون على معرفة تلك الإمكانية، ولأن العلماء الواعين سياسياً شعروا بالحاجة إلى اكتساب مثل تلك الأسلحة قبل الفاشيين بإلحاح مساوٍ. فكان لا بدَّ من أن يصير مثل هؤلاء الرجال لازمين لحكوماتهم ومطلعين بشكل خصوصي وسري على الأسرار الحيوية للدولة، أي: لا أحد آخر كان بإمكانه أن يكتشف ويبني ما صار سراً بالضرورة، كذلك كان لا مفر من أن يصير وضعهم معقَّداً وصعباً.

ولم يقتصر الأمر على أنهم أنفسهم كانوا يحتلون مراكز أخلاقية وسياسية مخالفة لما كان في أجهزة الدولة التي وظفتهم مفكرين (على الأقل في مسألة الاتصالات العلمية الحرّة)، بل كانت أجهزة الدولة لا تثق بهم عندما صارت روسيا العدو الرئيسي بعد الحرب بوصفهم ذوي ماضٍ معادٍ للفاشية وشيوعيين. والمؤكَّد الذي لا مهرب منه هو أن آراءهم في الأمور العسكرية – التقنية والمسائل الأخلاقية والسياسية، لا يمكن الفصل بينها فصلاً واضحاً. على كل حال، إنه في حين لم يسبِّب ذلك صعوبة عندما كان الصراع ضد الفاشية سائداً في العقول جميعها، فإن مسائل سياسة مابعد الحرب النووية – مثلاً: ما إذا كان يجب بناء القنابل الهيدروجينية – تركت مجالاً لاختلافات أخلاقية وسياسية كثيرة.

صار أوبنهايمر الضحية التي كانت أكثر مشهد إثارة من مشاهد الحرب الباردة، نعني: إن أبرز مستشار علمي رسمي ومؤثر في حكومة الولايات المتحدة، اتُّهم من دون أساس بالتجسس لروسيا وحرم من الوصول إلى معلومات، بوصفه «خَطَراً على

الأمن». مثل تلك الأزمة التي أصابت مثل ذلك الرجل وحكومته لم تكن لتنشأ في أي حرب سابقة لعدم وجود سلاح يعتمد حصرياً على مبادرة وعلم علماء جامعيين حينئذٍ. وليس من المحتمل أن تنشأ مع علماء الأجيال اللاحقة، لأنهم افتقروا للماضي السياسي الملتبس لرؤسائهم، حتى عندما لم يكونوا ينتمون للفرقة المهمة الآن، والمؤلفة من موظفين علميين أو من أناس خدموا قضية التدمير مهنياً بوصفهم خبراء غير سياسيين.

كانت هناك أزمة، بشكل بارز لمفكري حقبة مقاومة الفاشية والحكومات التي وجدت نفسها منخرطة معهم. وهكذا، نجد أن ظاهرة مقاومة الفاشية واجهت المفكرين والماركسيين في عدادهم، بمسائل ذات عمل سياسي وعام، وليس بمهمات وإمكانيات فحسب.

كانت شديدة وقاسية على الشيوعيين والمتعاطفين معهم، بشكل خاص. وليس هذا المكان هو المكان المناسب الذي ندرس فيه رد فعلهم على التطورات بعد هزيمة الفاشية. ولا حاجة لأن نصرف وقتاً كثيراً في الكلام في نتائج التغيرات السياسية الخاصة في الحركة الشيوعية خلال حقبة مقاومة الفاشية، بالرغم من أن بعضها - خاصة عكس السياسة السوفيتية في الأعوام 1941-1939، والانحلال المؤقت لبعض الأحزاب الشيوعية في الأميركيتين («البراودرية» "Browderism") - ولَّد أمواجاً من الخضّات في أوساط الشيوعيين. وبكلام عام نقول، إن الخط الدولي للحركة الشيوعية ظلَّ هو هو من دون تغيير بين عام 1934 وعام 1947، وعاد إلى مجراه الرئيسي بعد تلك الانحرافات الوقتية.

كما لا نحتاج لأن نشغل بالنا كثيراً بظواهر الاحتكاك الخاصة داخل الأحزاب الشيوعية بين القيادة والمفكرين بالرغم من وجودها كما سبق أن ذكرنا. ففي حقبة مقاومة الفاشية كانوا دون شك أكثر من مجرد شعبة، وذلك لتدفق المفكرين إلى داخل الحركة، وتقدير الأحزاب لقيمتهم السياسية (التي يدل عليها تكاثر المجلاّت والرابطات[65] «الواسعة»، والمدى الواسع لنشاطاتهم الاستقلالية). ولا شك في أن الأفراد يميلون إلى ترك الأحزاب، أو قد يطردون منها لأسباب مختلفة، وأوضح نقّاد السياسة الشيوعية والاتحاد السوفيتي كانوا من المفكرين، لكن نقول بصورة إجمالية، بما أنه لم يوجد انشقاقات كبيرة في الحركة الشيوعية في تلك الحقبة الزمنية، ولم توجد انفصالات لمجموعات من المفكرين (باستثناء مقدار معين في الولايات المتحدة الأميركية، وبما أن المجموعات الماركسية المنشقَّة في ذلك الوقت كانت غير مهمة، فإن

التوتر بين الأحزاب التي اعتبرت نفسها تمثل البروليتاريين «المخلصين»، جوهرياً، والمفكرين بوصفهم «بورجوازية صغيرة» و «لا يمكن الركون إليهم»، بصورة أساسية ظل تحت السيطرة إجمالاً

نشأت الصعوبات الكبرى من تبنّي السياسة المقاومة للفاشية ذاتها من قبل الحركة الشيوعية الدولية. أما وقع التغيّر والتحوّل من خط «طبقة-ضد-طبقة» إلى دعم مقاومة الفاشية والجبهات الشعبية فسوف يبحث في مكان آخر، ومع ذلك يستحق التأكيد على التغيّر الدرماتيكي الذي مثَّله في ما تعلَّم الشيوعيون أن يعتقدوه حول السياسة. فقد صيغت معتقداتهم بالضبط بشكل معارض للمذهب الليبرالي وللديمقراطية الاجتماعية بغية حماية البلشفيّة، والتكريس للثورة العالمية، من التلوّث بأي نوعٍ من المذاهب الإصلاحية، والتسوية مع الوضع الراهن (status quo).

الصعوبات التي سببها ذلك كانت نفسية لا نظرية. فلم يكن بالأمر العسير الوقوع على تسويغات وسوابق ماركسية لخط الكونغرس العالمي السابع للكومنترن، وكانت مقنعة لأنها تطابقت مع الإدراك العام بشكل ملحوظ. فما كان صعباً على الشيوعيين الذين ترعرعوا في زمن «البلشفة» و«الطبقة-ضد-الطبقة» هو رؤية الخط الجديد بمفردات أخرى غير تكتيكية، بوصفه تنازلاً مؤقتاً لوضع مؤقت بعده سيكون استئناف للنضالات القديمة، أو كنوع آخر من الخداع. فالكونغرس العالمي السابع يشهد على جادّة الخط الجديد (للشيوعيين)، عبر تأكيده ذاته على أنه لم يكن انفراقاً عن الماضي، وإنما كان ببساطةٍ تكييفاً له في وضع سياسي محدَّد، وكان أيضاً تصويباً «لأخطاء» حصلت في الماضي، ويمكن تجنّبها. وفي ذات الوقت، ألقي نوع من الغموض على النظرات الجديدة عبر العزوف عن مناقشتها بحرية وبوضوح، لأسباب تكتيكية، وكذلك – افتراضياً – بغية عدم إعاقة خيارات سياسة دولة الاتحاد السوفيتي. كما أنه لم يكن واضحاً مقدار وضوح معرفة الشيوعيين (القدامى والجدد)، بما تضمنته من نتائج، وهم الذين ما زالوا ملتزمين بالسلطة السوفيتية بوصفها الشكل الحاسم والوحيد لإسقاط «حكم طبقة المستغلين»[66].

ومع ذلك، ومهما كان صياغة الخط الجديد حذرة ومؤقتة، فالواضح هو أن المقصود منه تعدّى أن يكون فترة تكتيكية مؤقتة. فقد تصوَّر نموذجاً من الانتقال إلى الاشتراكية غير سبيل الإمساك بالسلطة عبر الثورة – وحتى عبر انتقال سلمي بحسب تقرير إركولي (Ercoli). فقد تصوَّر أشكالاً من النظام انتقالية لا تكون متطابقةً مع

«دكتاتورية البروليتاريا»، مثل مفهوم «ديمقراطية جديدة» أو «ديمقراطية الشعب». علاوة على ذلك تضمن وعنى سياسات شيوعية لا تكون جوهرياً امتداداً للصراع الطبقي بين البروليتاريين والرأسماليين مع «تحالفات طبقية» (Class Alliances) بحسب الضرورة والإمكان، تستمد مباشرة من البنية الاقتصادية للرأسمالية. فقد تصوَّرت أو تضمنت سياسة اتصفت بالاستقلالية وبكونها مصمَّمة لتحقيق قيادة الطبقة العاملة، أو الهيمنة على الأمة كلها. ولا ريب في أن الفاشية قُدمت بوصفها النسخة المتطرفة والمنطقية للرأسمالية، بالرغم من أنه لم يذكر بأن جميع الرأسماليين كانوا فاشيين. والأقلية من المتعاطفين مع الفاشية بينهم يمكن تشبيههم «بالرأسماليين الاحتكاريين» (مثل «المئتي أسرة» في فرنسا) الذين يمكن وصفهم بمستغلّي «الفلاحين، والحرفيين وجماهير البورجوازية الصغيرة» والعمال أيضاً. على كل حال، لم يكن محكّ المقاومة للفاشية متمثِّلًا في الوضع الطبقي أو الأيديولوجي، بل كان بصورة حصرية في الاستعداد للاشتراك بالجبهة المقاومة للفاشية، أو الاشتراك في مقاومة الفاشية الألمانية بوصفها المحرِّض الرئيسي للحرب. فقد صودرت أملاك الرأسماليين بعد النصر، ليس لكونهم رأسماليين، وإنما بوصفهم فاشيين وخونة.

ونقول استذكاراً إن النتائج المتضمنة في الخط الجديد هي أوضح مما كانت ترى في ذلك الوقت. فإذا أعدنا قراءة تحليل شيوعي رسمي للحرب الإسبانية الأهلية – كتبه بالميرو توغلياتي في مطلعه تحت العنوان ذي المغزى: **الثورة الإسبانية** (*The Spanish Revolution*) (كانون الأول/ ديسمبر، 1936) – نجد أن مغزاه واضح ولا يعترية لبْس. فكفاح الشعب الإسباني «هو أعظم حدث في نضال جماهير الشعب في الأقطار الرأسمالية لتحرّرها ولا تفوقه إلا ثورة أكتوبر الاشتراكية، في عام 1917». حقاً كانت ثورة. فقد كانت «تقوم بمهمات الثورة البورجوازية – الديمقراطية»، لكنها كانت «تقوم [بها]... بطريقة جديدة تتفق مع أعمق مصالح الجمهور الواسع من الشعب» – أي، هي لم تكن مجرد ثورة بورجوازية – ديمقراطية (وأيضاً لم تكن كما قال توغلياتي، شبيهة بعام 1905 أو عام 1917). وقد قامت بذلك في ظروف صراع مسلَّح جلبته ثورة عسكرية واضطرت أن تصادر أملاك القسم المتمرد من الإقطاعيين والموظفين، وتمكنت من أن تحذو حذو الثورة الروسية لجهة تجربتها، وأخيراً «كانت الطبقة العاملة الإسبانية تناضل لتحقيق دورها القيادي في الثورة وتضفي عليها الطابع البروليتاري عن طريق نضالها وشكلها الشاملين». وفي نفس الوقت، لم يكن الصراع من النوع الكلاسيكي الذي يديره العمال والفلاحون وحدهم، ذلك لأن الجبهة الشعبية الإسبانية كان لها أساس

أوسع. كما أنه لم يكن ممثلًا لما يعادل «دكتاتورية البروليتاريا والفلاحية الديمقراطية» التي تصوَّرها لينين في عام 1905، وذلك، لأنه «تحت ضغط الحرب الأهلية، راح يتبنّى سلسلة من الإجراءات تتعدّى برنامج الدكتاتورية الثورية – الديمقراطية». فقد اضطر أن يتوسع في اتجاه التنظيم الحازم والدقيق للحياة الاقتصادية، كلها في البلاد، بداعي ضرورات الحرب. وفي النتيجة يمكن القول «لو أن الشعب انتصر، فإن هذه الديمقراطية لا يمكن أن تكون إلاّ غريبة عن كل مذهب المحافظة، لأنها كانت تحوز على جميع شروط تقدّمها المعزَّز، وكانت توفر ضمانات لمزيد من الإنجازات الاقتصادية والسياسية، من قبل شعب إسبانيا العامل».

باختصار إن ما عرضه توغلياتي – بوصفه ممثلاً دور ناطق باسم الكومنترن – كان عبارة عن استراتيجية انتقال إلى الاشتراكية ناشئة من الظروف الخاصة بالصراع ضد الفاشية، وفي مثلنا الحالي على صورة حرب أهلية مختلفة عن العملية الثورية الروسية في 1905 – 1917. ويمكن أن يوجد جدل حول أشكال الصراع، أي حول سياسات الحكومة الجمهورية، وأفضل الطرق لكسب الحرب. وقد حصل ذلك وما زال الجدل مستمراً. غير أنه ليس هناك مجال للشك بالنظرات الثورية لذلك التحليل، بالرغم من أنه يجب القول إن البيانات الشيوعية الأخيرة المتعلقة بإسبانيا مالت إلى التقليل من الطابع الثوري للأحداث في تلك البلاد. ومع ذلك، فإن الغموض والإشارات المدروسة في صياغات توغلياتي واضحة، بالرغم من أن نتائجها المتضمنة احتوت بالنسبة للبلاشفة القدامى عنصراً من الغموض المتعمَّد («تجدر الإشارة إلى أن صياغات توغلياتي كانت «طبقاً لأعمق مصالح الجمهور الواسع من الشعب» وتزيد على ذلك، ولجميع شروط تطورها الإضافي»... إلخ.). ولم يكن من الملائم تذكير المقاومين للفاشية اللااشتراكيين أن الشيوعيين اعتبروا «النصر الأخير للجبهة الشعبية على الفاشية» إعداداً لنصر البروليتاريا، أو التعبير الواضح للشيوعيين عن المقدار الكبير من الانفراق عن فرضياتهم المتعلقة بالاستراتيجية الثورية، المتضمَّن في الخط الجديد. فالأفضل، عند كليهما كان التركيز على المهمات المباشرة للنضال ضد الفاشية.

لم يؤثر ذلك في الجمهور الواسع، جمهور الداعمين للجمهورية الإسبانية عاطفياً في الأعوام 1936 – 1939. فقد أحدثت الحرب الإسبانية الأهلية أعظم تعبئة دولية عفوية ضد الفاشية، خاصة في أوساط المفكرين – حتى إنها كانت أعظم من التعبئة لحركات المقاومة في زمن الحرب، لأنها كانت مستقلة عن الحكومات، وغير مفروضة بداعي الردّ على احتلال وطن، ولا منقسمة حول طبيعة العدو الرئيسي. وقسمت

اليمين الدولي، لأن أقساماً منه - حتى في أوساط الكوثوليك - كانت متعاطفة مع الجمهورية أو معادية لأعدائها. ووحّدت اليسار، بدءاً من الديمقراطيين الليبراليين إلى الفوضويين، بالرغم من العداوات المتبادلة بين أقسامها. أما اليسار فلم يوافق على أشياء كثيرة، بما في ذلك مسألة أفضل الطرق لمحاربة فرانكو، لكنه لم يختلف حول ضرورة محاربته. وليس من الخطأ القول إنه بالنسبة لمعظم المتعاطفين الجمهوريين في الخارج، كانت الأولوية متمثِّلةً في دحر فرانكو وليست طبيعة النظام الإسباني الذي سيخلفه. ويمكن التوسع في ذلك بالقول إنه قد رأى معظم المتعاطفين الجمهوريين، مثل معظم الداعمين للمقاومة في زمن الحرب، الأنظمة المابعد الفاشية، التي ستكون، بمعنى غامض بمقدار «جديد» وحتى «ثوري» - مجتمعات حرّة وعادلة، ولا عودة فيها إلى الوضع السابق.

أما بالنسبة للماركسيين، فإن مسألة العلاقة بين العداء للفاشية والاشتراكية، كانت مادية وحادّة، وبالنسبة لما بين الشيوعيين، لم يبدُ أن الضباب الذي لفَّ الجدل حول تلك المسألة، لم ينقشع. وبوصفهم شيوعيين، كانوا واثقين من أن الخط العريض والمقاوم للفاشية سيقرِّبهم من نقل السلطة. وقد قويت الأحزاب الشيوعية بصورة دراماتيكية نتيجة لتطبيقة، وحركات المقاومة - وهي النتاج المنطقي للخط المقاوم للفاشية - حوَّلت فعلياً الصراع السياسي إلى صراع مسلَّح ولم تظهر الأحزاب الشيوعية من حقبة مقاومة الفاشية أقوى مما كانت من قبل- ماخلا إسبانيا وأجزاء من ألمانيا - ومشاركين في حكومات كثيرة ذات وحدة معادية للفاشية فحسب، بل إن السلطة انتقلت إليها في عدد من الأقطار.

لذا، فإن نفراً قليلاً من الماركسيين أقلقهم نقد الماركسيين المنشقين وآخرين ممن جادلوا قائلين، إن تعزيز الوحدة المعادية للفاشية، والصراع الطبقي والثورة قد تعرضت للخيانة، وإن الاتحاد السوفيتي لم يكن مهمّاً بالثورة خارجه (باستثناء تلك الثورات التي فرضها الجيش الأحمر). ولا شك في أن بعضاً من التطبيقات المتطرفة للوحدة القومية والدولية ضد العدو الرئيسي قد صدم المقاتلين، لأنه معاكس لغرائزهم، وتقاليدهم، وخبراتهم أيضاً. ومع ذلك كان الخط الشيوعي بصورة عامة مقنعاً وواقعياً من حيث إنه مثَّل منطق العداء للفاشية. فما هو البديل للسياسة الشيوعية، وسياسة قتال الحرب الأهلية الإسبانية، الذي كان موجوداً؟ والجواب عندئذٍ والآن، لا بدَّ من أن يكون: النفي[67]. وهل أخطأ توريز في عام 1936 عندما أعلن ضد مارسو بيفرتْ (Marceau Pivert)، قائلاً: «الجبهة الشعبية ليست الثورة»؟ وقد تجادل المؤرخون واليساريون

في ذلك، لكن القول بدا في زمانه معقولاً وليس بعنيفٍ ولا شائن. وانتُقدت أحزاب إيطاليا وفرنسا الشيوعية انتقاداً مرّاً، لإخفاقها في اتخاذ سياسة أكثر راديكالية في الأعوام 1943-1945، أو محاولة الإمساك بالسلطة، لكن جمهور أعضائها والمتعاطفين معها كانوا في غالبيتهم من المجندين في حقبة المقاومة والتحرير، وقبلوا خط الأحزاب من دون صعوبة كبيرة. أما بالنسبة إلى الاتحاد السوفيتي، فإن الفكرة ذاتها التي أفادت أنه لا يقدر أن يكون لصالح الاشتراكية خارج حدوده، فقد بدت غير معقولة عند الشيوعيين الذين بنوا تحليلهم السياسي على الافتراض المفيد أنه، مهما كانت تبدّلات سياسة الدولة، والسياسة الدولية الخاصة بالاتحاد السوفيتي، فإن مصالح الدولة الاشتراكية الأولى والوحيدة في العالم ومصالح الذين رغبوا في بناء اشتراكية على غرارها في أمكنة أخرى، لا يمكن إلاّ أن تكون مصالح متطابقة جوهرياً.

والواقع هو أن الجدالات التي دارت حول صحة الخط الشيوعي في مرحلته المقاومة للفاشية، كانت ذات تفاهة نسبية في وقتها، باستثناء ما حصل في الأطراف الماركسية المنشقّة والمعزولة. غير أنها كسبت أنصاراً أكثر لاحقاً، ولم يحصل ذلك مع تصدّع الحركة الشيوعية الموحَّدة التي مركزها موسكو في الفترة التي أعقبت موت ستالين فحسب، وإنما قبل كل شيء مع الاكتشاف الذي أفاد أن الاستراتيجية المقاومة للفاشية بكل انتصاراتها غير العادية لم تحلّ مسألة التقدم نحو الاشتراكية، إلاّ في الأقطار التي أوصلت الحرب فيها الأحزاب الشيوعية إلى السلطة[68]، لسببٍ أو آخر. ومهما يكن من أمر، لا ريب أنّ هناك غموضاً مدروساً أحاط بالنظرات الخفيّة للخط المقاوم للفاشية، هو الذي أجَّل ولم يشجِّع على تحليل واضح لتلك المسألة.

لهذا السبب يصعب البحث في موقف المفكرين الماركسيين (أو أي ماركسيين شيوعيين) منها، وقد يكون مستحيلاً. وهي لم تظهر كمشكلة إلاّ في اللحظة التي بدا الانتصار على الفاشية مؤكداً - لنقلْ حوالي عام 1943 - بالرغم من أن تصوّرها كما سبق أن رأينا حصل في سياق الثورة الإسبانية.

فإلى أن واجهت الفاشية هزيمة واضحة، بدت مسألة ما الذي سيتبعها مسألة أكاديمية بكليتها. وعندما بدا النصر مؤكداً تجلَّى المنظور الجديد لدى الشيوعيين على شكل «ديمقراطية الشعب» أو «الديمقراطية الجديدة»، لكن على خلفية اختفاء الدولية الشيوعية وظروف الحرب فإنهما لم يعلنا رسمياً، كما كان الحال مع مقاومة الفاشية بالنسبة للكونغرس العالمي السابع، ولم ينشرا بشكل منظَّم ويبحثا في الأحزاب الشيوعية. فقد

ظهرا على شكل سلسلة من الوثائق صادرة عن مصادر سوفيتية أو شيوعية مختلفة، أو ظهرا في قرارات حزبية لأغراض خاصة بعضها تمَّ إلغاؤه لاحقاً[69].

لم تفعل الطريقة التي دخلت بها «ديمقراطية الشعب» المسرح السياسي أي شيء لتبديد الغموض الذي أحاط بالمصطلح. فيمكن النظر إليها بمفردات قصيرة الأمد على أنها تنازلٌ ضروري لصالح الحفاظ على أعلى درجة من الوحدة الدولية وداخل كل أمة في وسط القوى المناضلة للنصر ضد دول المحور (Axis). فأي فكرة تفيد أن المجتمعات كانت تعدّ لاستئناف العداوات ضد حلفائها المحليين أو الأجانب، قد يغري هؤلاء الحلفاء بدورهم للإعداد للحرب ضد أعداء المستقبل، فلا يركِّزون بإخلاص على محاربة الأعداء الحاليين. هذا الأمر ولا سواه تضمَّنه بوضوح «الخط الجديد» التي تمَّ إدراكه في الكومنترن، منذ تشرين الأول/ أكتوبر 1942 [70]. فأنظمة الأقطار المحرَّرة ستكون «ديمقراطيات»، لكن المشروع الذي يؤسسها لم يكن «برنامجاً اشتراكياً»، كما ذكر الشيوعيون النمساويون بواقعيته ومهمته المباشرة «لن تكون تحقيق الاشتراكية، ولا إدخال نظام سوفيتي»، كما ذكر ديمتروف، وإنما «اندماج النظام الديمقراطي والبرلماني»[71]. أما الخط الفاصل بين الحكومات المتشابهة رسمياً وذات الوحدة القومية المعادية للفاشية وذات الإسهام الشيوعي في أوروبا الشرقية والغربية بعد تحريرها، فقد ترك ضبابياً.

كما يمكن اعتباره بمنزلة تطور منطقي من نوع الانتقال المشير إلى مخطط الكونغرس العالمي السابع. «فحكومات الجبهة الموحَّدة المقاومة للفاشية» التي توسعت لتصير الجبهة القومية المقاومة للفاشية، يمكن النظر إليها بأنها حوَّلت نفسها إلى أدوات لتحقيق الانتقال التدريجي والسلمي إلى الاشتراكية عبر إنشاء هيمنة طبقية عمالية على تحالف القوى المقاومة للفاشية، وتعود تلك الهيمنة بدورها إلى الإقرار بالدور القيادي للطبقة العاملة في الحرب ضد الفاشية، والمواقع التي اكتسبتها الأحزاب الشيوعية نتيجة لذلك. وبذلك المعنى مثَّل طريقاً بديلًا نحو الاشتراكية عن الطريق الذي سلكته روسيا في عام 1917، وكما وصفه ديمتروف على لسان الناطق باسمه حينئذٍ تشيرفنكوف (Chervenkov) في الاحتفال الافتتاحي بالكومنفورم (Cominform) في أيلول/ سبتمبر عام 1947 بأنه كان بديلًا «للدكتاتورية البروليتاريا»[72]. على كل حال، لأن مناقشته العامة كانت قليلة جداً فقد ظلَّت الظروف السياسية التي سمحت بمثل ذلك الطريق أو حالت دونه في حالة من الغموض، كما حصل من سياسات مسائل الحزب المتعدِّد عبر المسبوق في غضون تلك الحقبة الانتقالية. فهي لم تطرح على العموم

في الحركة الشيوعية إلاّ بعد أن استبعدت رسمياً وواقعياً تلك النظرة في الشرق أو الغرب.

ثالثاً، يمكن أيضاً تأويل المخطَّط الجديد بمفردات العلاقات الدولية المابعد الحربية. فقد حصل تصوّر التحالف الحربي مع الوجود المشترك السلمي للدول الرأسمالية اللافاشية والدول الاشتراكية الذي تضمَّنه. والواقع هو أن موقف ما بعد الحرب قد تمَّت مناقشته العامة بانتظام من قبل الشيوعيين بتلك المفردات خاصة في ضوء مؤتمر طهران الذي جمع ستالين وروزفلت وتشرشل في أواخر عام 1943. وقد خلق مقداراً من الاضطراب والقلق لدى بعض المفكرين الشيوعيين. وفي نفس الوقت الذي لم يستبعد فيه المنظور الطهراني منظور «ديمقراطية الشعب» الخاص بالتحوّل إلى الاشتراكية[73]، فإنه تضمَّن أيضاً أنه وفي بعض الأقطار يجب أن يكون النضال للاشتراكية ملحقاً، وعن عند بمتطلبات التواجد معاً، السلمي الأوسع، ولإمكانيات التقدم في أمكنة أخرى. وبكلام فجٍّ، نقول، «لا بدَّ من إقناع الدوائر الحاكمة البريطانية والأميركية أن حربهما المشتركة مع الاتحاد السوفيتي... لن تكون نتيجتها تمدّد النظام الاشتراكي السوفيتي، إلى أوروبا الغربية بدافع من الجيوش الحمراء المظفّرة»[74]. وكان من المعقول الافتراض في الولايات المتحدة أنه بسبب وجود فرصة واقعية للاشتراكية، فإن الاحتفاظ بالرأسمالية (الرأسمالية المستعدة للتعاون مع الاتحاد السوفيتي) سيكون الأساس للسياسة الشيوعية في تلك البلاد، لكن إعاقة خيارات الجناح اليساري في أمكنة أخرى لن يُرحب بها، وقد يكون ذلك سبب شجب «البراودرية» في فرنسا في عام 1945. ومع ذلك، فإن «المنظور الطهراني» تضمَّن فكرة أن بعض الأحزاب الشيوعية خارج المنطقة المتوقَّعة لنفوذ الاتحاد السوفيتي قد تقبل مستقبلاً رأسمالياً طويلاً في أقطارها، بالرغم من أنها تركت مسألة تعيين أقطارها غامضةً، ومقدار المدة – طويلة كانت أم قصيرة – التي ستتخلّى فيها عن النضال للتحوّل الاشتراكي، أو ما ستكون النظرات المستقبلية لمجتمعاتها في تلك الظروف. وظلَّت تلك الأسئلة من دون أجوبة، لأنها ظلَّت غير مطروحة، باستثناء مرحلة براودر القصيرة في الولايات المتحدة.

تلكم كانت ظواهر عدم اليقين والغموض في الحقبة الزمنية القصيرة والخاصة، عندما كان عصر مقاومة الفاشية في نهايته. ومع ذلك فإنها تلقي ضوءاً على ظواهر الغموض المتضمَّنة في الاستراتيجية المقاومة للفاشية منذ البداية. فقد عنت بحسب قول التروتسكيين ويساريين آخرين، بحق منهجية للنضال لسلطة اشتراكية يصعب تسويتها مع تلك «الثورة الشعبية» كما تصوَّرها منذئذٍ البلاشفة وثوريون اجتماعيون

آخرون. وكانوا محقّين في ذلك، بالرغم من أنهم حكموا على أنفسهم بالانعزال عبر رفضهم سياسات كانت عند معظم المفكرين، الماركسيين منهم وغير الماركسيين ضرورية إذا كان لا بدَّ من دحر الفاشية، ولأنهم أنفسهم لم ينتجوا بديلاً معقولاً ومقبولاً ومع ذلك، فإن تلك الاستراتيجية حامت على طرف الوضوح لأنها لم تُصنعْ بوضوح أبداً. والواقع هو أن النقاشات حول المستقبل المابعد الفاشي، كانت تُصمت ولم تكن تشجع في معظم الحقبة باستثناء الكلام بالمفردات الأكثر غموضاً. وكان ممكناً تماماً لشيوعيين مخلصين – لنقلْ، توغلياتي وتيتو (Tito) – أن يقرؤوا في المخطط المقاوم للفاشية نتائج مختلفة للعمل السياسي ما لم يلغَ الاختيار الممكن بقرار من سلطة أعلى.

لذا، فإن الضباب النظري الذي حوَّم حول المستقبل أقلق معظم المفكرين الشيوعيين أقل مما كان بإمكانه أو مما كان عليه أن يقلق، وكان سبب ذلك بشكل رئيسي متمثِّلًا في أن مهمات الحاضر كانت واضحة، وأن الاستراتيجية الشيوعية، وفرت إلى أن يتأكد النصر على الفاشية دليلاً شفّافاً ومقنعاً لما يجب عمله حينئذٍ – مستبعدين فترات مؤقته مثل 1939-1941.

إذ في التحليل الأخير، كانت الأولوية متمثِّلةً في القتال ضد الفاشية عند معظمهم. فإن كانت خسارة، تصير نقاشات المستقبل مجرد نقاشات أكاديمية. أما بالنسبة للمفكرين الماركسيين كبار السن منهم والشبّان، فلم تكن مقاومة الفاشية بوضوح غاية في ذاتها. فقد سوغت عبر إسهامها في القضاء على الرأسمالية العالمية في نهاية المطاف، أو على الأقل في القضاء على الرأسمالية في قسم كبير من العالم. ومع ذلك نقول بمعنىً واقعي إنها لم تكن لتحتاج مثل ذلك التسويغ. فمهما جلب المستقبل من شر فالفاشية شرٌّ منه ، ومقاومته واجبة. فهناك جيل من المفكرين وفد إلى الماركسية رئيسياً في زمن الصراع ضد الفاشية، وفي غضونه، وفي أوقات هبوط الظلام. والأحياء الباقون منهم شعروا بخيبة أمل في معظم الأحيان. فراحوا ينقِّبون في ماضيهم ليروا إذا كانوا مخطئين، وما هي أخطاؤهم، أو ما الذي أضرَّ بآمالهم العالية. والعديد منهم توقف عن أن يكون ماركسياً. غير أنه يمكن القول، ومن دون خطأ، إن نفراً قليلاً منهم، إن وجد، رفض إسهامه في ذلك القتال ضد الفاشية وهزيمتها. ويصعب إيجاد رجل أو امرأة تندم على دعمها الجمهورية الإسبانية أو إسهامها في الحرب ضد الفاشية، مهما كان ضئيلاً، سواء أكان من بين المدنيين أم الجنود النظاميين أم المقاومين. فهو جزء من ماضيهم الذي ينظرون إليه بفخرٍ متواضع. وبالنسبة للبعض هو يمثِّل الجزء الوحيد من ماضيه السياسي الذي ينظر إليه بعد خمسين سنة برضاً تامٍ يفوق الوصف.

الفصل الثاني عشر
غرامشي

توفي أنطونيو غرامشي في ثلاثينات القرن العشرين. وهو لم يكن معروفاً خلال السنوات العشر الأولى من تلك السنين الأربعين التي مرت بعد وفاته، إلاّ من قبل رفقائه القدامى في عشرينات القرن العشرين، لأن المنشور من كتاباته أو ما يمكن الوصول إليه منها كان قليلًا جداً. ولا يعني هذا نقصاً في نفوذه، لأن بالميرو توغلياتي قاد الحزب الشيوعي الإيطالي وفقاً لمخططات غرامشية، أو وفقاً لتأويله لتلك المخططات على الأقل. ومع ذلك، لم يعنِ غرامشي عند أكثر الناس في أي مكان وإلى نهاية الحرب العالمية الثانية - حتى عند الشيوعيين - أكثر من مجرد اسم. وفي العقد الثاني من تلك السنين الأربعين، صار معروفاً بمقدار كبير في إيطاليا، واكتسب إعجاباً تعدّى الدوائر الشيوعية. فنشرت كتاباته بشكل واسع، من قبل الحزب الشيوعي، وقبل كل شيء من قبل دار إينودي للنشر. ومهما كانت الانتقادات التي حصلت لاحقاً لتلك الطبعات الأولى، فإنها جعلت غرامشي في المتناول الواسع، وسمحت للإيطاليين بالحكم على مكانته بوصفه مفكراً ماركسياً رئيسياً، وبوصفه بشكل أعم شخصية رئيسية في ثقافة القرن العشرين الإيطالية.

اقتصر الأمر على الإيطاليين وحدهم. إذ ظلَّ غرامشي خلال ذلك العقد لأغراض عملية مجهولاً خارج بلاده، لأنه لم يترجم. والواقع هو أن محاولات نشر رسائله الخارجة من السجن في بريطانيا والولايات المتحدة قد أخفقت. وباستثناء حفنة من الناس الذين كانوا على اتصال شخصي في إيطاليا ويستطيعون قراءة اللغة

الإيطالية – ومعظمهم شيوعي – كان من الممكن أن لا يكون معروفاً في ذلك الجانب من جبال الألب.

خلال العقد الثالث من تلك السنين الأربعين لما بعد وفاته، حدثت بدايات جدّية من الاهتمام بغرامشي، في الخارج. ولا ريب أن الذي أثارها تعميم ظاهرة الستالينية الأكثر تمثُّلًا في الموقف المستقل الذي عبره أعلن توغلياتي نفسه الناطق الرسمي بعد عام 1956. وفي هذه الفترة الزمنية، نقع على المختارات الإنجليزية الأولى من كتاباته والنقاشات الأولى لأفكاره، خارج الأحزاب الشيوعية. وكانت الأقطار الناطقة باللغة الإنجليزية خارج إيطاليا أول من أنشأ وطوَّر اهتماماً ثابتاً بغرامشي. والمفارقة في إيطاليا نفسها التي حدثت خلال العقد الزمني ذاته تمثَّلت في أن نقد غرامشي صار مترابطاً ومتسقاً، وأحياناً صارخاً وحادّاً، وأن النقاشات حول تأويل كتابته تطورت من قبل الحزب الشيوعي الإيطالي.

وأخيراً، في العقد الأخير من الأربعين سنة تلك، اكتمل غرامشي. ففي إيطاليا نفسها أقيم نشر كتاباته لأول مرة على أساس علمي مُرضٍ عبر الطبعة الكاملة لكتاب: **رسائل السجن** (*Prison Letters*) (1965)، وحصل نشر كتابات سياسية مختلفة مبكرة، وقبل أي شيء، الآثار العلمية الباقية لـ**غيراتانا** (*Gerratana*)، وطبعة كتاب: **مذكرات السجن** (*Prison Notebooks*) (1975) المنظمة تنظيماً تاريخياً زمنياً. وأصبحت سيرة غرامشي ودوره في تاريخ الحزب الشيوعي أوضح الآن مما كانا، والشكر الكبير للعمل التاريخي المنظَّم الذي قام به الحزب الشيوعي وانصبَّ على سجلاّته الخاصة. واستمر النقاش منذ أواسط ستينات القرن العشرين، لكن ليس هذا هو المكان لإلقاء نظرة على الجدل الذي حصل، أما في الخارج فقد صارت ترجمات كتابات غرامشي لأول مرة متاحةً وبمختارات كافية، خاصة في مجلّدي لورنس وويشارت (Lawrence & Wishart) اللذين حررَّهما هور (Hoare) ونويل سميث (Nowell Smith). كذلك كان الحال بالنسبة لترجمات كتابات ذات أهمية ثانوية، مثل كتاب: **حياة** (*Life*) لفيوري (Fiori) (1970). وهنا يكفي أن نقول من جديد، أنه لا داعي لمحاولة إلقاء نظرة على الأدب المتنامي المتعلق بغرامشي في لغتنا – الذي يمثِّل وجهات نظر مختلفة لكنها ذات احترام عالمي – إذ في الذكرى السنوية الأربعين لوفاته، لا عذر لعدم المعرفة بغرامشي. وما يتعلق بهذه المسألة أكثر من سواه، هو أنه صار معروفاً حتى من قبل أناس لم يقرؤوا كتاباته. فمثل المفردات الغرامشية النموذجية لمصطلح «الهيمنة» نسمعه في النقاشات الماركسية، وحتى اللاماركسية التي تدور حول السياسة والتاريخ بطريقة عرضية

وأحياناً غير دقيقة، مثل المصطلحات الفرويدية في الحروب. حقاً، لقد أصبح غرامشي جزءاً من عالمنا الفكري. فقد حصل القبول العام بمنزلته كمفكر ماركسي أصلي، وهو حسب رأيي أكثر مفكر أصلي أنتجه الغرب منذ عام 1917. فما قاله، ولماذا مايزال مهماً، هما الآن كما هو معروف بشكل واسع مثل الحقيقة البسيطة المفيدة أنه مهم. وهنا سوف أنتقي سبباً واحداً يشرح أهميته، ألا وهو: نظريته السياسية.

ثمة انتباهة ابتدائية في الماركسية مفادها أن المفكرين لا يبتدعون أفكارهم على نحوٍ تجريدي، إذ لا يمكن فهمهما إلاّ في السياق التاريخي والسياسي لأزمنتهم. فإذا كان ماركس يؤكِّد، دائماً، على أن البشر يصنعون تاريخهم – أو إذا أحببت، ينتجون أفكارهم – فهو أيضاً أكَّد أنهم لا يستطيعون ذلك إلاّ في الشروط التي يجدون أنفسهم فيها مباشرة في الشروط القائمة والموروثة (مقتبسين مقطعاً شهيراً من كتاب: **الثامن عشر من برومير**. ففكر غرامشي كان أصلياً. فهو ماركسي لينيني، ولا أفكر في إضاعة أي وقت للدفاع عنه ضد الاتهامات التي صدرت من شيع مختلفة ادعت أنها تعرف بالضبط ما هو ماركسي وما ليس بماركسي، وأنها تملك حق نشر وتأليف نسختهم الخاصة عن الماركسية. ومع ذلك نقول، إن غرامشي بالنسبة إلينا نحن الذين ترعرعنا في التقليد الكلاسيكي للماركسية قبل عام 1914 وبعد عام 1917، ماركسي مدهش. فعلى سبيل المثال هو لم يكتب إلا القليل نسبياً عن التطوّر الاقتصادي، وكتب مقداراً كبيراً عن السياسة بما في ذلك نظريات أمثال كروتشي (Corce)، وسوريل وماكيافيلّي، وبمصطلحاتهم، وهم لا يظهرون كثيراً عادةً، أو لا يظهرون إطلاقاً في الكتابات الكلاسيكية. لذا من الأهمية بمكان أن نكتشف مقدار ما تشرح خلفيته وخبرته السياسية أصالته. ولا حاجة إلى أن أضيف أن ذلك لا يقلِّل بأي شكل من مكانته الفكرية.

عندما دخل غرامشي سجن موسوليني، كان قائد الحزب الشيوعي الإيطالي. وكان لإيطاليا في زمن غرامشي، عدد من الخصائص التاريخية، شجَّعت حصول انفراقات أصلية في التفكير الماركسي. وأنا سأذكر عدداً منها باختصار:

(1) كانت إيطاليا عالماً مصغراً للرأسمالية العالمية، حيث احتوت في قطر واحد على عاصمة ومستعمرات، ومناطق متقدمة وأخرى متخلِّفة. وكانت ساردينيا (Sardin-ia)، وهي المكان الذي جاء منه غرامشي، متخلِّفة تخلفاً نموذجياً، كي لا نقول إنها قدمية ومهجورة، وهي الطرف شبه الاستعماري لإيطاليا. أما مدينة تورين– حيث توجد معامل سيارات فيات (Fiat) – ففيها صار غرامشي قائداً للطبقة العاملة، وكانت

حينئذٍ كما هي الآن تمثِّل أكثر مراحل الرأسمالية الصناعية تقدّماً، والتحوّل الواسع للفلاحين المهاجرين إلى عمال. وبكلام آخر نقول، وُجد ماركسي ذكي في وضع صالح لفهم طبيعة العالم الرأسمالي المتطور و«العالم الثالث» وتفاعلاتهما، وهذه حالة تختلف عن حالة وجود ماركسيين من أقطار تنتمي إلى عالم واحد أو إلى آخر.

(2) وإحدى النتائج المهمة للخصوصية التاريخية لإيطاليا تمثَّلت في أن الحركة العمالية الإيطالية، حتى قبل عام 1914 كانت صناعية وزراعية معاً، وبروليتارية وذات أساس فلاّحي. ومن هذا الوجه، كانت الوحيدة في أوروبا قبل عام 1914، بالرغم من أن هذا المكان ليس هو المكان الذي يمكن فيه الإسهاب في هذه النقطة. ومع ذلك هناك مثلان توضيحيان بسيطان يدلاّن على علاقتها. لم تكن المناطق ذات النفوذ الشيوعي القوي [إيمليا (Emilia)، وتوسكاني (Tusscany)، أومبريا (Umbria)] مناطق صناعية، وكان قائد الحركة النقابية الإيطالية العظيم، وقائد ما بعد الحرب دي فيتوريو (Di Vit-torio) من الجنوب وعاملاً في مزرعة. ولم تكن إيطاليا وحدها في الدور المهم وغير العادي الذي أداه المفكرون في حركتها العمالية – وكان أكثرهم مفكرين من الجنوب المتخلف وشبه المستعمر– ويظل لهذه الظاهرة قيمتها المستحقة، لأنها أدت دوراً مهماً في تفكير غرامشي.

(3) الخاصية الثالثة تتمثَّل في الطابع الخاص لتاريخ إيطاليا بوصفها أمةً ومجتمعاً بورجوازياً. وهنا من جديد أقول، إني لن أخوض في تفاصيل. يكفي أن أذكركم بثلاثة أشياء، هي: (أ) أن إيطاليا كانت رائدة الحضارة الجديدة والرأسمالية، قبل الأقطار الأخرى بقرون عدة، لكنها عجزت عن الاحتفاظ بإنجازها وسقطت في نوع من الركود بين عصر النهضة والحركة التوحيدية (ب) وخلافاً لما حصل في فرنسا، فإن البورجوازية الإيطالية لم تؤسس مجتمعها بثورة مظفَّرة، وخلافاً لألمانيا لم تقبل بتسويةٍ قدمتها لها الطبقة الحاكمة من علٍ. فقد أنجزت ثورة جزئية، أي: تحققت الوحدة الإيطالية جزئياً من الأعلى بواسطة كافور، وجزئياً من الأسفل، بواسطة غاريبالدي (Garibaldi). (ج) لذا، نقول، وبمعنى من المعاني، لقد أخفقت البورجوازية الإيطالية – أو أخفقت جزئياً – في تحقيق مهمتها التاريخية لخلق الأمة الألمانية. فكانت ثورتها ناقصة، لذا، فالاشتراكيون الإيطاليون مثل غرامشي كانوا على وعي خاص بدور حركتهم الممكن، بوصفها القائد المحتمل للأمة، والحاملة للتاريخ القومي.

(4) لم تكن إيطاليا مجرد بلاد كاثوليكية مثل سواها، بل هي بلاد تعتبر الكنيسة فيها

مؤسسةً إيطاليةً تحديداً، ونمطاً من الحفاظ على حكم الطبقات الحاكمة من دون جهاز الدولة، وبمعزل عن جهاز الدولة. وهي بلاد أيضاً سبقت فيها ثقافة النخبة القومية الدولة القومية. لذا فإن الماركسي الإيطالي على وعي أكثر من سواه بما دعاه غرامشي «هيمنة» (Hegemony)، أي الطرق التي تُحتفظ بها السلطة التي لا تكون قائمة على «القوة القمعية» وحدها.

(5) ولأسباب متعدِّدة - وقد ذكرت بعضها قبل قليل - كانت إيطاليا نوعاً من المختبر للتجارب السياسية. فليس من قبيل المصادفة أن تكون للبلاد تقاليد فكرية سياسية قوية، بدءاً من ماكيافيلّي في القرن السادس عشر إلى باريتو وموسكا (Mosca) في أوائل القرن العشرين، وحتى الروّاد الأجانب، روّاد ما ندعوه الآن السوسيولوجيا السياسية أيضاً، كان لهم علاقة بإيطاليا، أو استمدوا أفكارهم من خبرة إيطالية - وهنا يحضرني أمثال سوريل ومايكلز. لذا، ليس بالأمر المستغرب أن يكون الماركسيون الإيطاليون واعين بالنظرية السياسية بوصفها مشكلة.

(6) وأخيراً، ثمَّة حقيقة مهمة جداً. لقد كانت إيطاليا بلاداً وُجدت فيها بعد عام 1917 شروط عدة، موضوعية، وذاتية لثورة اجتماعية بدا أنها ستكون - أكثر من بريطانيا وفرنسا، وحتى ألمانيا ومع ذلك، لم تنطلق تلك الثورة. وعلى العكس من ذلك تسلَّمت الفاشية السلطة. فكان من الطبيعي أن يكون الماركسيون الإيطاليون روّاد التحليل الرامي إلى معرفة سبب إخفاق ثورة أكتوبر الروسية في الانتشار في الأقطار الغربية، ومعرفة الاستراتيجية والتكتيك البديلين للانتقال إلى الاشتراكية في مثل تلك الأقطار. وطبعاً ذلكم كان ما شرع غرامشي بالقيام به.

ذلك يعيدني إلى نقطتي الرئيسية، أعني أن إسهام غرامشي الرئيسي في الماركسية تمثَّل في ريادته نظرية ماركسية في السياسة. ومع أن ماركس وإنجلز كتبا مقداراً كبيراً في السياسية، لكنهما كانا غير راغبين في إنشاء نظرية عامة في ذلك الميدان، بالرغم من أنهما اعتبرا الأهم هو القول «إن العلاقات القانونية، وكذلك أشكال الدولة لا يفهمان من ذاتيهما، بل هما متجذِّران في الشروط المادية للحياة»، كما ذكر إنجلز في رسائل شهيرة لاحقة مفسِّراً المفهوم المادي للتاريخ [مقدمة **لنقد الاقتصاد السياسية**]. لذا، فقد أكدا قبل كل شيء على «اشتقاق ما هو سياسي، وقانوني، والمفاهيم الأيديولوجية الأخرى من الوقائع الاقتصادية الأساسية» [إنجلز إلى ميهرينغ]. لذا، فإن بحث ماركس وإنجلز مثل تلك المسائل كطبيعة الحكم وبنيته، وتركيب الدولة وتنظيمها وطبيعة

الحركات السياسية وتنظيمها، كان في أغلب الأحيان على شكل ملاحظات ناشئة من تعليق جارٍ، وهو ثانوي بالنسبة إلى النقاشات الأخرى عموماً، باستثناء نظريتهما المتعلقة بأصل الدولة وطابعها التاريخي. وقد شعر لينين بالحاجة إلى نظرية للدولة والثورة أكثر تنظيماً، ومنطقية في مسألة الاستيلاء على السلطة، لكن الذي حصل كما نعرف جميعاً، كان حدوث ثورة أكتوبر قبل أن يكملها. وأنا أودّ أن أشير إلى أن النقاش العميق حول بنية وتنظيم وقيادة الحركات الاشتراكية الذي نشأ في حقبة الأممية الثانية دار حول مسائل عملية. وكانت تعميماته النظرية عرضية ولموضوع خاص، إلاّ إذا كانت في ميدان المسألة القومية، حيث كان على خلفاء ماركس وإنجلز عملياً أن يبدؤوا من الصفر. وأنا لا أقصد القول إن ذلك لم يؤدِ إلى تجديدات نظرية مهمة، كما حصل مع لينين بالرغم من أنها كانت براغماتية لا نظرية، وهنا المفارقة، وبالرغم من أنها مدعَّمة بتحليل ماركسي. وإذا قرأنا النقاشات حول مفهوم لينين الجديد للحزب على سبيل المثال، فالمذهل أن لا نجد إلاّ مقداراً قليلاً من النظرية الماركسية داخلاً في النقاش، بالرغم من أن ماركسيين شهيرين مثل كوتسكي، ولوكسمبورغ، وبليخانوف، وتروتسكي، ومارتوف وريازانوف شاركوا في تلك النقاشات. والواقع هو أن نظرية في السياسة كانت متضمَّنة فيها، لكنها لم تظهر إلا جزئياً.

ثمَّة أسباب مختلفة لتلك الثغرة. في أي حال لم يكن ذلك مهماً حتى كانت أوائل عشرينات القرن العشرين. وحينئذٍ أرى أنها شكّلت ضعفاً وخطراً متزايداً. أما خارج روسيا فقد أخفقت الثورة، أو لم تقع أبداً، وصارت إعادة النظر المنظمة لازمة، ولا تشمل استراتيجية الحركة لاكتساب السلطة فحسب، وإنما تشمل أيضاً المسائل التقنيّة الخاصة بالانتقال إلى الاشتراكية، التي لم تبحث بحثاً جدّياً قبل عام 1917، بوصفها مسألة واقعية محدَّدة ومباشرة. وظهرت داخل الاتحاد السوفيتي، مسألة ما يكون ويجب أن يكون عليه المجتمع الاشتراكي بمفردات بنيته ومؤسساته السياسية، وبوصفه «مجتمعاً مدنياً» عندما ظهرت السلطة السوفيتية من صراعاتها اليائسة للحفاظ على نفسها وصارت ثابتة. وتلكم كانت المسألة الجوهرية التي أقلقت الماركسيين في السنوات الأخيرة التي كانت موضوع الجدل بين الشيوعيين السوفيت والماويين و«الشيوعيين الأوروبيين»، فضلًا عن الموجودين خارج الحركة الشيوعية.

وهنا، أؤكد الحقيقة المفيدة أننا نتكلم عن مجموعتين مختلفتين من المسائل السياسية، ألا وهما: الاستراتيجية وطبيعة المجتمعات الاشتراكية. وقد حاول غرامشي أن يفهم كليهما، مع أن بعض المعلِّقين بدا لي أنه ركَّز تركيزاً مفرطاً على مجموعة واحدة منهما

فقط، أعني الاستراتيجية. غير أنه، مهما كانت طبيعة تلك المسائل، فقد تحوَّلت سريعاً، وظلَّت لوقت طويل من النوع الذي يستحيل بحثه مع الحركة الشيوعية. والواقع أنه يمكن للمرء أن يقول أن غرامشي كان قادراً على التعارك مع تلك المسائل في كتاباته فحسب، لأنه كان في السجن معزولاً عن السياسة في الخارج ولم يكتب للحاضر بل للمستقبل.

لا يعني ذلك أنه لم يكتب سياسياً بمفردات الوضع الذي كان في عشرينات وأوائل ثلاثينات القرن العشرين. والحقيقة التي يجب أن تُقال، هي أن إحدى صعوبات فهم كتابته تمثَّلت في أنه اعتبر الأوضاع والنقاشات معروفة، وهي المجهولة الآن لدى أكثرنا أو منسيّة. لذا نجد بيري أندرسون (Perry Anderson) يذكرنا ومن وقت ليس ببعيد، أن بعضاً من فكره المميّز مستمد وناشئ من مواضيع ظهرت في نقاشات الكومنترن، في أوائل عشرينات القرن العشرين. وفي كل الأحوال، توصَّل إلى إنشاء عناصر نظرية سياسية كاملة داخل الماركسية، وقد يكون أول ماركسي يفعل ذلك. ولن أحاول تلخيص أفكاره: فروجر سيمون (Roger Simon) نظر حديثاً في بعضها بصورة مطوَّلة، وذلك في كتاب: **الماركسية اليوم** (*Marxim Today*). وعوضاً عن ذلك سوف أختار خيوطاً قليلة وأوكِّد على أهميتها كما تبدو لي.

غرامشي منظِّر سياسي بقدر ما كان يعتبر السياسة «نشاطاً مستقلاً» [مذكرات السجن، ص 134]، وذلك داخل السياق والحدود التي يحدِّدها التطور التاريخي، ولأنه انهمك في البحث عن «الموضع الذي يشغله العلم السياسي أو عليه أن يشغله في تصوّرٍ للعالم منظَّم (متَّسق ومنطقي) ([**الماركسية** (*Marxism*)، ص 136]. ومع ذلك، نقول، إن ذلك عنى أكثر من أنه أدخل إلى الماركسية ذلك النوع من النقاشات الموجود في كتابات بطله ماكيافيلّي - الرجل الذي لا يظهر كثيراً في كتابات ماركس وإنجلز. فالسياسة عنده هي قلب الاشتراكية ذاتها، وليس استراتيجية انتصار الاشتراكية، فحسب. فهي بالنسبة إليه كما وصف هو ونويل سميث وكانا مصيبين «النشاط الإنساني المركزي، والوسيلة التي بفضلها يجعل الوعي المفرد على اتصال بالعالم الاجتماعي والطبيعي بكل أشكاله» مذكرات السجن، p. xxiii.

وباختصار نقول، إنه أوسع من المصطلح الذي يوظف بشكل عام. وهو أوسع من «علم وفن السياسة» بالمعنى الضيق عند غرامشي، الذي عرَّفه بالقول بأنه «مجموعة من القواعد العملية للبحث في الواقع الفعّال والتحفيز على التبصّر السياسي الدقيق

والنشيط» (المرجع السابق، ص 175-176) وهو متضمَّن جزئياً في مفهوم العمل التطبيقي ذاته، أي: فهم العالم وتغييره مسألة واحدة.

وفي التطبيق، يكون التاريخ الذي يصنعه البشر أنفسهم، بالرغم من أنه يكون في شروط تاريخية مفترضة - ومتطوّرة، هو ما يفعلون، وليس ببساطة الأشكال الأيديولوجية التي يعي الناس فيها تناقضات المجتمع. ومستشهدين بماركس نقول إنه في كيفية «القضاء عليها» من قبل الناس. وباختصار هو ما يمكن تسميته الفعل السياسي. وهو أيضاً بصورة جزئية، إدراك للحقيقة المفيدة أن الفعل السياسي ذاته هو نشاط مستقل، حتى لو كان «مولوداً على أرض و«عضوية» حياة اقتصادية ثانية (ص 139-140).

وينطبق ذلك على بناء الاشتراكية، كما على أي شيء آخر - وربما أكثر من أي شيء آخر. ويمكنك القول، إن أساس الاشتراكية، عند غرامشي، ليس التحول إلى الاشتراكية بالمعنى الاقتصادي - أي الاقتصاد المملوك والمخطط اجتماعياً (بالرغم من أنه أساسه وإطاره) - وإنما التحول إلى الاشتراكية بالمعنى السياسي والسوسيولوجي، أي ما يُدعى عملية تشكيل عادات في الإنسان الجمعي تجعل السلوك الاجتماعي أوتوماتيكياً، وتزيل الحاجة لجهاز خارجي لفرض معايير، ويكون أوتوماتيكياً لكنه واعٍ أيضاً. وعندما يتكلم غرامشي عن دور عملية الإنتاج في الاشتراكية، فهي ليست ببساطة وسيلة لخلق مجتمع ذي وفرة مادية، بالرغم من أنه لم يكن عنده شك بأولوية زيادة الإنتاج (ص 242، ملاحظة). وذلك، لأن موضع الإنسان في عملية الإنتاج مركزي بالنسبة لوعيه في الرأسمالية، ولأن خبرة العمال في المعمل الكبير كانت هي المدرسة الطبيعية لذلك الوعي. وقد مال غرامشي إلى اعتباره، في ضوء خبرته في مدينة تورين، المعمل الكبير الحديث ومدرسة تعلِّم الاشتراكية، لا مكاناً للاغتراب والانسلاب.

غير أن الفكرة كانت تفيد أن الإنتاج في الاشتراكية لن ينظر إليه ببساطةٍ كمسألة منفصلة تقنيّة واقتصادية، فلا بدَّ من التعامل معها في ذات الوقت بحسب وجهة نظره، ورئيسياً كمسألة تربية سياسية وبناء سياسي. ففي المجتمع البورجوازي نفسه، الذي كان تقدّمياً من هذه الوجهة كان مفهوم العمل مركزياً من الناحية التربوية، لأن «الاكتشاف» المفيد أن الأنظمة الاجتماعية والطبيعية يتوسطها العمل، ونشاط الإنسان النظري والعملي يخلق العناصر الأولى لمعرفة حدسية بالعالم بريئة من كل سحر وخرافة. وهو يوفِّر أساساً للتطور اللاحق للمفهوم التاريخي والديالكتيكي للعالم، يفهم الحركة والتغيّر - ويتصوّر العالم المعاصر تركيباً للماضي، وللأجيال السابقة جميعها، ويبرز نفسه

في المستقبل. ذلكم كان الأساس الحقيقي الواقعي للمدرسة الابتدائية (ص 34-35). ويمكننا أن نذكر سريعاً موضوعاً ثابتاً عند غرامشي ألا وهو: المستقبل.

أما الأفكار الرئيسية لنظرية غرامشي السياسية فنقع عليها مجملةً في الرسالة الشهيرة، **رسالة سبتمبر** عام 1931:

«درسي المفكرين مشروع واسع... لقد وسَّعتُ كثيراً فكرة المفكرين لتتعدّى معنى الكلمة المتداول، الذي يشير بصورة رئيسية إلى المفكرين العظام. كما أن هذا الدرس أوصلني إلى تحديدات معينة للدولة. وجرت العادة على فهمها كمجتمع سياسي (أي دكتاتورية جهاز قمعي ترمي إلى جعل مجموع الشعب منسجماً مع نمط الإنتاج والاقتصاد السائد في مرحلة مفترضة) وليس كتوازن بين المجتمع السياسي والمجتمع المدني (أي، هيمنة جماعة اجتماعية على المجتمع القومي برمّته، تمارس عبر ما يُدعى المنظمات الخاصة، مثل، الكنيسة، والنقابات، والمدارس... إلخ). فالمجتمع المدني هو بالضبط الميدان الخاص لعمل المفكرين.

الآن، نقول، إن مفهوم الدولة كتوازنٍ بين مؤسسات قمعية ومؤسسات مهيمنة (وإذا فضلت وحدتها) ليس جديداً في حدّ ذاته على الأقل عند الذين ينظرون إلى العالم بواقعيّة. فالواضح هو أن الطبقة الحاكمة لا تعتمد على القوة القمعية والسلطة فحسب، بل على القبول المستمد من الهيمنة أيضاً، وهو ما يدعوه غرامشي «القيادة الفكرية والأخلاقية» التي تمارسها الجماعة الحاكمة و«الاتجاه العام المفروض على الحياة الاجتماعية من قبل الجماعة الرئيسية المسيطرة»، أما الجديد عند غرامشي فيتمثَّل في الملاحظة المفيدة أن الهيمنة البورجوازية ذاتها ليست أوتوماتيكية، بل تتحقق عبر عمل وتنظيم سياسي واعٍ. فبورجوازية المدينة الإيطالية، في عصر النهضة لم تتمكن من أن تصير مهيمنةً قومياً إلاّ عبر مثل ذلك العمل، كما فكر غرامشي - والواقع عبر نوع من اليعقوبية. فعلى الطبقة أن تتجاوز ما دعاه غرامشي التنظيم «النقابي - الاقتصادي» لتصبر مهيمنة سياسياً، وهذا ما يشرح سبب بقاء النقابية القتالية جزءاً تابعاً للمجتمع الرأسمالي. وينتج من ذلك أن التمييز بين الطبقات «المسيطرة» أو «المهيمنة» و «التابعة» تمييز جوهري. وهو إبداع آخر لغرامشي، ومهم لتفكيره. لأن المسألة الأساسية للثورة تتمثَّل في كيفية جعل طبقة تابعة وثانوية قادرة على الهيمنة، وتؤمن بنفسها كطبقة حاكمة ممكنة، وتكون موثوقة من الطبقات الأخرى.

وهنا تكمن أهمية الحزب عند غرامشي - «الأمير الجديد» (ص 129). فبمعزلٍ

عن الأهمية التاريخية لتطور الحزب عموماً في الحقبة البورجوازية - وعند غرامشي أشياء ذكية ومشرقة ليقولها حول ذلك - أدرك أنه ليس إلاّ عبر حركته وتنظيمه، أي عبر الحزب بحسب رأيه، يمكن للطبقة العاملة أن تطوِّر وعيها وتتجاوز «النقابية الاقتصادية العفوية أو المرحلة النقابية». والواقع هو كما رأينا، أن الاشتراكية حيث انتصرت أدّت إلى تحويل الأحزاب إلى دول وتحققت بذلك. وكان غرامشي لينينياً بمقدار عميق في نظرته العامة لدور الحزب، وإن لم يكن في نظراته الخاصة بما يجب أن يكون تنظيم الحزب في أي وقت، أو حول طبيعة الحياة الحزبية. على كل حال هذا رأيي، الذي كان بحثه في طبيعة الأحزاب ووظائفها متقدِّماً على بحث لينين. وعلى كل حال، وفي ضوء معرفتنا نقول، إن المسائل العملية المهمة تنشأ من الواقعة المفيدة أن الحزب والطبقة، مهما كانا متطابقين تاريخياً، ليسا الشيء ذاته، وقد يختلفان، خاصة في الأقطار الاشتراكية. وكان غرامشي على وعي بهذه الأمور، وكذلك بمخاطر التنظيم البيروقراطي... إلخ.

وكنت أودّ أن أقول إنه قدَّم حلولاً وافيةً لتلك المسائل، لكني لست متأكداً من أنه فعل أكثر من أي إنسان آخر. ومع ذلك، تستحق ملاحظات غرامشي على المركزية البيروقراطية، مع أنها مركزة وصعبة، [مثلاً، في كتاب: **مذكرات السجن**، ص 188-189] دراسةً جدّيةً.

والجديد أيضاً كان إلحاح غرامشي على أن جهاز الحكم، في شكله المهيمن، وبمقدار شكله السلطوي يتألف، جوهرياً من «مفكرين». وهو لا يعرِّف هؤلاء كنخبة خاصة أو كفئة أو فئات اجتماعية خاصة، وإنما كنوع من التخصص الوظيفي في المجتمع لتلك الأغراض وبكلمات أخرى، اعتبر غرامشي كل الناس مفكرين، لكن لا يمارس كل الناس الوظيفة الاجتماعية للمفكرين. وهذه مسألة مهمة بمعنى أنها تؤكد الدور المستقل للبنية الفوقية في العملية الاجتماعية، أو الحقيقة البسيطة المفيدة أن السياسي ذا الأصل الذي يعود إلى الطبقة العاملة، لا يلزم أن يكون مثل العامل على المقعد. على كل حال، بالرغم من أن الملاحظة موجودة في مقاطع تاريخية متألقة في كتابات غرامشي فإني لا أراها مهمة لنظرية غرامشي السياسية، وكما حصل منه بوضوح. وأعتقد بصورة خاصة أن تمييزه بين المفكرين الذين يدعون «تقليديين» والمفكرين «العضويين» الذين تنتجهم الطبقة الجديدة نفسها هو على الأقل في بعض الأقطار، أقل أهمية مما ذكر. وقد يكون أني لم أدرك بالكامل فكره الصعب والمعقَّد هنا، ومن واجبي أن أوكِّد أن المسألة كانت ذات أهمية عظمى لغرامشي نفسه للبتّ فيها بمقدار الفسحة التي خصَّصها لها.

ومن جهة أخرى، لم يكن فكر غرامشي الاستراتيجي مليئاً - كما هو دائماً - برؤى تاريخية بارعة فحسب، بل بمعنى عملي رئيسي. والآن، أظن أن علينا أن نفرِّق بين ثلاثة أشياء في هذا الصدد، هي: تحليل غرامشي العام، وأفكاره المتعلقة بالاستراتيجية الشيوعية في فترات تاريخية محدَّدة، وأخيراً الأفكار الحقيقية للحزب الشيوعي الإيطالي حول الاستراتيجية في وقت ما، وهي التي أوحت بها قراءة توغلياتي لنظرية غرامشي وعبرها قراءة خلفاء توغلياتي. وأنا لا أريد النظر في ثالثها، لأن مثل تلك النقاشات ليست ذات علاقة بأغراض الرسالة الحالية. كما أني لا أبتغي البحث في ثانيها مطوَّلاً، لأن حكمنا على غرامشي لا يعتمد على تقييمه لأوضاع خاصة في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين. فمن الممكن الاعتقاد لنقلْ أن كتاب ماركس: **الثامن عشر من برومير** هو كتاب عميق وأساسي. بالرغم من أن موقف ماركس ذاته من نابوليون الثالث في 1852 - 1870، وتقييمه للاستقرار السياسي لنظامه، كانا غير واقعيين. على كل حال، لا يتضمن ما يفيد أي نقد لاستراتيجية غرامشي أو لاستراتيجية توغلياتي. فكلاهما يمكن الدفاع عنهما. وبمعزلٍ عن هذه الأمور، أودّ أن أختار عناصر ثلاثة في نظرية غرامشي الاستراتيجية.

العنصر الأول لا يفيد أن غرامشي اختار استراتيجية حرب (War of Manoeu-vre) مؤجلة وطويلة أو «موضعية»، في الغرب مقابل ما دعاه «الهجوم المواجه» (Fron-tal Attack) أو حرب المناورات، وإنما يفيد كيفية تحليله لتلك الخيارات، فإذا سلَّمنا أنه لن تكون في إيطاليا ومعظم الغرب ثورة أكتوبر، منذ عشرينات القرن العشرين وما تبعه - وأنه لا يوجد مطمح واقعي لحدوث واحدة - فالواضح هو أنه سيفكر في استراتيجية ذات غنيمة بعيدة. غير أن الواقع هو أنه لم يلزم نفسه مبدئياً بأي حاصلٍ محدَّد «لحرب الموضع» (War of Position) الطويلة التي تنبّأ وأوصى بها. فقد تؤدي مباشرة إلى التحول إلى الاشتراكية، أو إلى مرحلة أخرى لحرب المناورة والهجوم، أو إلى مرحلة استراتيجية أخرى. فالذي سيحدث لا بدَّ من أن يعتمد على التغيّرات في الوضع المادي الواقعي. على كل حال، لقد فكر بإمكانية واحدة، اعتبرها ماركسيون آخرون قلائل واضحة، نعني، أن فشل الثورة في الغرب قد يولِّد إضعافاً خطراً وطويل الأمد لقوى التقدّم عبر ما دعاه «ثورة سلبية». ومن جهة أخرى قد تمنح مطالب معينة بغية إحباط الثورة وتجنّبها، وقد تجد الحركة الثورية نفسها في الممارسة (وليس في النظرية) معترفة بعجزها فتتآكل أو تدمج سياسياً في النظام [انظر **مذكرات السجن**، ص 106 وما بعدها]. وباختصار نقول، إن «حرب الموضع» يجب التفكير بها تفكيراً منظماً بوصفها

استراتيجية قتالية، وليست ببساطة مسألة تختص بالثوريين عندما لا يكون هناك هدف لبناء متاريس. ولا شك في أن غرامشي تعلّم من خبرة الديمقراطية الاجتماعية قبل عام 1914، والمفيد أن الماركسية ليست حتميّة تاريخية. فلا يكفي انتظار التاريخ كي يضع العمال في السلطة بطريقة أوتوماتيكية.

العنصر الثاني تمثّل في إلحاح غرامشي على أن النضال لتحويل الطبقة العاملة إلى طبقة حاكمة والصراع للهيمنة، يجب القيام به قبل انتقال السلطة، وكذلك في غضونها وبعدها. غير أن هذا النضال [وهنا، لا يمكن للإنسان أن يوافق كُتّاباً، مثل بيري أندرسون] ليس مجرد مظهر من مظاهر «حرب الموضع»، بل هو جانب حاسم من جوانب استراتيجية الثوريين في جميع الظروف. ومن الطبيعي أن يكون الفوز بالهيمنة قبل انتقال السلطة ذا أهمية خاصة في أقطار يكون فيها جوهر سلطة الطبقة الحاكمة يمثل في ثانوية الجماهير، وليس في القمع.

تلك هي الحالة، في أكثر الأقطار «الغربية»، مهما يقُلْ اليسار المتطرف، ومهما تكن الحقيقة غير مشكوك بها، وهي أن القمع يجب استعماله هناك في التحليل الأخير. وهذا ما يمكن مشاهدته مثلاً في تشيلي (Chile) والأورغواي (Uruguay)، حيث استعمال القمع للاحتفاظ بالحكم لم يعد متّسقاً مع الانتقاع من الموافقة الواقعية أو الظاهرية، فكان على الحكام أن يختاروا بين الهيمنة والقوة، وبين القُفّاز المخملي الناعم والقبضة الحديدية. فإذا اختاروا القوة، فلن تكون النتائج لصالح حركة الطبقة العاملة. ويمكننا أن نرى أنه حتى في الأقطار التي حصل فيها إطاحة ثورية بالحكام القدامى مثل البرتغال (Portugal)، فإن الثورات ذاتها تغرق في الرمل في حال غياب القوة المهيمنة. فسيظل عليها أن تربح عبر تأييد وقبول طبقات لم تنفصل بعد عن الأنظمة القديمة. المسألة الأساسية في الهيمنة منظوراً إليها استراتيجياً، لا تمثل في كيفية وصول الثوريين إلى السلطة، رغم أهمية هذه المسألة. إنها تمثل في كيفية صيرورتهم مقبولين، لا كحكام ذي وجود سياسي أو وجود لا يمكن تجنّبه فحسب، وإنما كمرشدين وقادة. وهناك ناحيتان لذلك واضحتان، هما: كيفية اكتساب القبول، وما إذا كان الثوريون جاهزين لممارسة القيادة. وهناك أيضاً الوضع السياسي المادي الواقعي، القومي والدولي، الذي قد يسهِّل محاولاتهم وجهودهم أو يصعِّبها. فالشيوعيون البولنديون في عام 1945، لم يكونوا مقبولين كقوة هيمنة، بالرغم من أنهم كانوا جاهزين ليصيروها، لكنهم أقاموا سلطتهم بفضل الوضع الدولي، فشكراً له. والديمقراطيون الاجتماعيون الألمان في عام 1918، كان من المحتمل أن يقبلوا كقوة هيمنة، لكنهم لم يرغبوا أن يتصرفوا كذلك.

وهناك مأساة الثورة الألمانية. والشيوعيون التشيكيون كان بالإمكان قبولهم كقوة هيمنة في عام 1945 وعام 1968، وكانوا جاهزين لأداء ذلك الدور، لكنهم عجزوا عن ذلك. فالنضال للهيمنة قبل الانتقال، خلاله وبعده (مهما تكن طبيعته أو سرعته) ظلَّ مهماً وحاسماً.

أما العنصر الثالث فتمثَّل في أن جوهر استراتيجية غرامشي حركة طبقية منظَّمة على الدوام. وبهذا المعنى، تعود فكرته عن «الحزب» إلى مفهوم ماركس عن الحزب في أواخر حياته على الأقل بوصفه الطبقة المنظَّمة، وبالرغم من أنه خصَّص انتباهاً أكثر من ماركس وإنجلز، ولينين أيضاً إلى أشكال القيادة والبنية السياسيتين، وعلى طبيعة ما دعاه علاقة «عضوية» بين الطبقة والحزب، وليس على التنظيم الشكلي. وفي زمن ثورة أكتوبر/ تشرين الأول، كان أكثر الأحزاب الواسعة لطبقة العمال، ديمقراطياً اجتماعياً.

لقد اضطر معظم المنظِّرين الثوريين، بمن فيهم البلاشفة قبل عام 1917 للتفكير فقط بلغة أحزاب الكوادر أو المجموعات المؤلفة من نشطاء يحركون غير الموافقين العفويين من الجماهير، عندما كانوا يقدرون على ذلك، لأن الحركات الواسعة لم تكن مسموحة، أو كانت إصلاحية. فلم يكن بعد بمقدورهم أن يفكروا بلغة حركات طبقية عمالية باقية، ومتجذِّرة، وفي ذات الوقت ثورية واسعة تؤدي دوراً رئيسياً في المشهد السياسي لأقطارهم. وكانت حركة تورين التي شكل فيها غرامشي أفكاره، استثناءً نادراً. وبالرغم من أن الإنجازات الرئيسية للأممية الشيوعية تمثَّلت في خلق بعض الأحزاب الواسعة الجمهور، فثَّمة إشارات مثلاً في تشيّع ما دعي «الحقبة الثالثة»، أفادت أن القيادة الشيوعية الدولية (المختلفة عن الشيوعيين في بعض الأقطار ذات الحركات العمالية) كانت غريبة عن مسائل الحركات العمالية الواسعة التي نشأت وتطورت بالطريقة القديمة.

وهنا تبرز أهمية إلحاح غرامشي على العلاقة العضوية بين الثوريين والحركات الجمهورية. فالخبرة الإيطالية التاريخية عرَّفته على الأقليات الثورية التي ليس لها مثل تلك العلاقة «العضوية»، لكنها كانت جماعات من «المتطوعين» يتحركون عندما يقدرون «وليست أحزاباً جمهوريةً واسعةً، إطلاقاً... لكنها عبارة عن معادل سياسي لعصابات من الغجر أو البدو» [**مذكرات السجن** (ص 202 – 205)]. وهناك مقدار كبير من السياسة اليسارية، إلى يومنا – خاصة في هذه الأيام – مشادٌ على تلك الطريقة، ولأسباب شبيهة، وليس على الطبقة العاملة بتنظيمها الواسع، بل على طبقة عمالية

وهمية، وعلى نوع من نظرة خارجية إلى الطبقة العاملة أو إلى أي جماعة متحركة. وأصالة غرامشي تمثُل في أنه كان ثورياً لم يخضع لذلك الإغراء. فالطبقة العمالية المنظَّمة كما هي - وليس كما تقتضي النظرية أن تكون - كانت الأساس لتحليله واستراتيجيته.

وكما أكدّت تكراراً، وأعيد القول إن فكر غرامشي السياسي لم يكن مجرد فكر استراتيجي مفيد أو عملي. فلم يكن هدفه النصر ليس إلاّ، وبعده يبدأ نظام مختلف ونمط من التحليل آخر. ومن الملاحظ أنه كان يتناول، مرة بعد مرة، مسألة أو حدثاً تاريخياً كنقطة انطلاق، ثم يقوم بتعميم منه أو منها حول السياسة عامةً، وليس حول سياسة الطبقة الحاكمة أو حول سياسة شبيهة فقط. وذلك لأنه كان على وعيٍ دائم بوجود شيء مشترك بين علاقات البشر السياسية، أو على الأقل في مجموعة واسعة جداً من المجتمعات التاريخية مثلاً الفرق بين القادة والمقودين، كما أحبَّ أن يدعوهم (p. 144). وكان يذكر على الدوام أن المجتمعات هي أكثر من مجرّد بُنىً من السيطرة الاقتصادية والسلطة السياسية، وأنها تتمتع بنوع من التماسك حتى عندما تمزِّقها الصراعات الطبقية (وهي نقطة ذكرها إنجلز منذ مدة طويلة)، وأن التحرر من الاستغلال يوفِّر إمكانية تشكيلها مجتمعات حقيقية مؤلفة من أحرار. ولم ينسَ أبداً، أن مسألة تجشّم مسؤولية مجتمع - واقعي أو ممكن - هي أكثر من البحث عن المصالح المباشرة لطبقة أو لشيعة أو لدولة، لأنها تفترض مثلاً «استمراراً مع الماضي، والتقاليد أو مع المستقبل» (ص 146). ومن هنا نفهم إلحاح غرامشي على الثورة، ليس بوصفها أملاك الذين اغتصبوا أملاك الآخرين فحسب، وإنما أيضاً في إيطاليا بوصفها خلقاً لشعب، وتحقيقاً لأمة - بوصفها نفياً للماضي وتحقيقاً له. والحق يقال، إن كتابة غرامشي طرحت المسألة المهمة جداً - التي نادراً ما كانت تبحث - مسألة ما الذي تمَّ تثويره في ثورة في الماضي، وما بقي ولماذا، وكيف عن الديالكتيك بين الاستمرارية والثورة.

ولا ريب في أن ذلك كان عند غرامشي مهماً لا في ذاته، وإنما كوسيلة للتحريك الشعبي والتحوّل الذاتي للتغيّر الفكري والأخلاقي، وللتطور الجمعي الذاتي بوصفه جزءاً من العملية التي يغيّرها الشعب في نضالاته، ويخضع لقيادة طبقة جديدة مهيمنة وحركتها (انظر ص 133، الفقرة 2). ومع أن غرامشي يشارك بالارتياب الماركسي المألوف، بالتأملات حول المستقبل الاشتراكي، فهو يخالف معظم المرتابين عندما يبحث عن دليل له في طبيعة الحركة ذاتها. فإذا كان يحلِّل طبيعتها، وبنيتها وتطوّرها بوصفها حركة سياسية، وبوصفها حزباً، وبطريقة مفصلة متقنة ومجهرية، وإذا كان يتتبَّع على سبيل المثال نشوء حركة دائمة ومنظَّمة - مختلفة عن «انفجار» سريع وصولاً

إلى عناصرها الدقيقة الرفيعة والجريئة (كما دعاها)، فذلكم لأنه رأى مجتمع المستقبل قائماً على ما وصفه «تشكيل إرادة جمعية»، عبر مثل تلك الحركة، وليس إلاّ عبر تلك الحركة. إذ بتلك الطريقة يمكن لطبقة ثانوية أن تحوِّل نفسها إلى طبقة مهيمنة - وإذا أحببت لنقل تصير مهيأة لبناء الاشتراكية. وليس إلاّ بتلك الطريقة، وعبر حزبها تصير «الأمير الحديث» (Modern Prince)، وآلة التحوّل السياسية وببنائها نفسها، سوف تؤسس، بمعنى من المعاني، بعض الأسس التي سيشاد عليها المجتمع الجديد، كما سيظهر بعض أشكاله فيه وخلاله.

ختاماً، دعوني أسأل، لماذا اخترت في هذا الفصل، أن أركز على غرامشي بوصفه منظِّراً سياسياً؟. لم يكن ذلك ببساطة لأنه كان لافتاً ومثيراً. وليس لأنه كان يملك وصفة من الإجراءات تختص بكيفية تنظيم الأحزاب أو الدول. فهو مثل ماكيافيلّي، منظِّرٌ في كيفية تأسيس المجتمعات أو تحوّلها، وليس في التفاصيل الدستورية، فضلاً عن الأمور التافهة التي تشغل المراسلين في الأروقة. السبب يعود إلى كونه من بين المنظرين الماركسيين المنظِّر الذي قدَّر بوضوح أهمية السياسة بوصفها بُعداً خاصاً في المجتمع، ولأنه أدرك أن السياسة تشتمل على أكثر من السلطة. ولهذه الفكرة أهمية عملية كبرى، للاشتراكيين، على الأقل.

وقد أبدى المجتمع البورجوازي في الأقطار المتطورة على الأقل بصورة دائمة انتباهاً رئيسياً لنظامه السياسي وآلياته، وذلك لأسباب تاريخية ليس هذا محل الخوض فيها. وهذا يفسِّر صيرورة الترتيبات السياسية وسيلةً قوية لتعزيز الهيمنة البورجوازية بحيث صارت الشعارات، مثل الدفاع عن الجمهورية، والدفاع عن الديمقراطية، أو الدفاع عن الحقوق والحريات المدنية تربط الحكام والمحكومين معاً لمصلحة الحكام الرئيسية، لكن ذلك لا يعني أنها ليست بذات صلةٍ بالمحكومين. لذا هي أكثر من مجرد تجميلات على وجه القمع، أو مجرد خداع بسيط.

وركَّزت المجتمعات الاشتراكية على مهمّات أخرى، ولأسباب تاريخية يمكن فهمها أيضاً، خاصة على ما يتعلق بالتخطيط الاقتصادي (وباستثناء مسألة السلطة الحاسمة وفي الأقطار المتعددة القوميات، ومسألة العلاقة بين أممها المكوِّنة)، فقد وجهت انتباهاً أقل بكثير لمؤسساتها السياسية والقانونية الواقعية، ولعملياتها. وقد تركت تلك المؤسسات لتعمل بطريقة غير رسمية، وبقدر ما تستطيع، وأحياناً عبر انتهاك الدساتير أو مراسيم حزبية مقبولة - مثلاً الدعوة المنتظمة للكونغرس - وغالباً ما يحصل ذلك بنوعٍ من الغموض.

وفي الحالات المتطرفة كما الحال في الصين، في السنوات الأخيرة، بدا أن القرارات السياسية الكبرى التي تؤثر في مستقبل البلاد نشأت فجأة من نزاعات مجموعة صغيرة من الحكام في القمة، وطبيعتها غير واضحة لأنها لم تكن تناقش بصورة علنية. ففي مثل هذه الحالات هناك شيء خاطئ بشكل واضح. وبمعزل عن العيوب الأخرى لذلك الإهمال للسياسة، نسأل: أنّى لنا أن نتوقَّع أن نغيِّر الحياة الإنسانية، ونخلق مجتمعاً اشتراكياً (مختلفاً عن اقتصاد مملوك ومدارٍ اجتماعياً)، عندما يكون جمهور الشعب مستبعداً من العملية السياسية، ويمكن أن ينجرف إلى اللاسياسة واللامبالاة بالشؤون العامة؟ وقد صار واضحاً أن إهمال أكثر المجتمعات الاشتراكية لترتيباتها السياسية يؤدي إلى ضعف خطر يجب علاجه. وإن مستقبل الاشتراكية في الأقطار التي لم تصبح اشتراكية بعد، وفي تلك التي صارت اشتراكية يعتمد على الانتباه القوي إليها.

وقد جذب الانتباه غرامشي، بتأكيده على الأهمية الحاسمة للسياسة في ناحية حاسمة من نواحي بناء الاشتراكية، وفوزها أيضاً. فهذا تذكير علينا أن نوليه اهتمامنا، لذا فإن المفكر الماركسي الكبير الذي جعل السياسة جوهر تحليله يستحق القراءة والإبراز والاستيعاب في أيامنا.

الفصل الثالث عشر

قبول غرامشي

غرامشي في أوروبا وأميركا

قد يوافق جميع الذين قرؤوا كتاباً عن الوقع الدولي لغرامشي في عام 1994 على قول، أو نصير إسباني له استشهد به البروفسور فيرنانديز بوى (Fernández Buey): إن غرامشي هو أحد كلاسيكيي الماركسية، أو كان مؤلفاً يقف حذراً كي لا يكون محرِّفاً ولا يكون أبداً أحادي (النظرة) (Gramsci es un claśico, o sea un autor que tiene derecho a no estar de monunca y a ser leído siempre).

ومع ذلك، فإن كل فصل من هذا الكتاب يشهد على المفارقة المفيدة أن الحظوظ الدولية لهذا الكتاب الكلاسيكي الممتاز قد تغيّرت مع تغيرات الطريقة السائدة في اليسار الفكري. لذا، نجد أن شعبية ألتوسير في أميركا اللاتينية، سدَّت الطريق أمام غرامشي، مع أن الذي حصل في فرنسا ذاتها، هو أن شهرة ألتوسير ولّدت ذيوعاً أيضاً للإيطالي غير المعروف في ذلك الوقت، وقد امتدحه ألتوسير وانتقده. وعنصر الزيّ السائد كان واضحاً بقدر ما كان القبول بغرامشي متطابقاً مع ذروة «الفئات اليسارية الجديدة» في ستينات وسبعينات القرن العشرين، التي كانت طاقتها على استيعاب ما دعاه كارلوس نيلسون كاوتنهو (Carlos Nelson Coutinho) الشوربا الانتقائية (Zuppa eclectica) من مكوِّنات فكرية غير متَّسقة، كانت كبيرة وجديرة بالاعتبار. وعنصر الزيّ السائد نجده أوضح ما يكون في تسعينات القرن العشرين عندما تحوَّل اليساريون السابقون إلى ليبراليين جدد غير مبالين بتذكيرهم بأي شيء يستدعي ظواهر الحماس القديم.

كما ذكرت إيرينا غريغور (Irina Grigor) عن روسيا ما بعد عام 1991: تتمّ محاكمة كل التراث الفكري الذي وجد في الماركسية مرجعيته الخاصة به 'si fa il processo a tutto il patrimonio ideae che nel marxismo trova il proprio punto di riferimento'.

لذا، فإن روسيا في عام 1993 ربما كانت البلد الأقل غرامشياتية في العالم (forse il paese meno "gramsciano" del mondo).

والواضح أيضاً أن غرامشي لم يكن من الممكن أن يصبح شخصية رئيسية في المشهد الفكري العالمي لولا مسلسل من الظروف المعقَّدة في الأربعين سنة التي تلت وفاته. ولم يكن ممكناً أن يُعرف إطلاقاً لولا تصميم رفيقه والمعجب به بالميرو توغلياتي على الحفاظ على كتاباته ونشرها ليكون لها مكانةٌ مركزية في الشيوعية الإيطالية، ولم يكن هذا الخيار في ظروف الستالينية محتوماً في ضوء هرطقات غرامشي المعروفة، بالرغم من أن مخطط الكونغرس العالمي السابع للأممية، جعله أقل خطراً. ومهما تكن انتقادات نظرات توغلياتي اللاحقة والقلقة بعد وفاة غرامشي من أن يتجنب تجاوزات الحاضر ويضمن له «حياة الحزب المستقبلية».

'sottrarli alle traversie del presente e garantirli per "la vita avvenire del partito"'[1]

وإلحاحه على مركزية غرامشي منذ لحظة عودته إلى إيطاليا، كانت الأسس لحظوظ غرامشي اللاحقة. وكانت العيوب والسقطات في مجال التحرير في سنوات ما بعد الحرب الأولى الثمن الذي دُفع لجعل غرامشي معروفاً، وبالعودة بالذاكرة نقول، كان الثمن من النوع الذي يستحق دفعه. والشكر لتصميم توغلياتي، وللسمعة الجيدة الجديدة للحزب الشيوعي الإيطالي، فعلى الأقل، نشرت الرسائل في عددٍ من الأقطار، بما في ذلك بعض «الديمقراطيات الشعبية» قبل وفاة ستالين. فحيث أخفقت الأحزاب الشيوعية المحلية في القيام بذلك، فإن سواها لم يخفق. ومع أن ترجمات إنجليزية ممتازة، حصلت مباشرة تقريباً فقد انقضت عقود لكي نجد ناشرين لكتاب: الرسائل في بريطانيا والولايات المتحدة.

باستثناء نفر قليل من الأجانب من ذوي الذكريات الشخصية المتعلقة بالمقاومة الإيطالية والصداقات الشخصية في يسار ما بعد الحرب الإيطالية، فإن تاريخ تلقّي غرامشي بدأ بالكونغرس العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي. وكان لعقدين

من الزمان جزءاً من محاولة الحركة الشيوعية الدولية تحرير نفسها من إرث ستالين والأمية الشيوعية. وقد انعكس ذلك داخل «المعسكر الاشتراكي» (Socialist Camp) في الاعتراف الرسمي الفوري بغرامشي بوصفه مفكراً سياسياً وشهيداً كما يشهد على ذلك نشر ثلاثة مجلَّدات من المختارات من كتاباته في الاتحاد السوفيتي في 1957 - 1959 والحضور السوفيتي في أول اجتماع (Convegno) خاص بغرامشي في عام 1958، والوفد السوفيتي الكبير والإصلاح ضمنياً في الاجتماع الثاني (1967). والواقع هو أنه لم يوجد إلا عددٌ قليل جداً من المؤلفين غير الإيطاليين كَتَبَ عن غرامشي في العشرين سنة التي تلت عام 1956، ولم يكن له نوع ما من ماضٍ أو حاضر ماركسي ملتزم. ويصعب، فعلياً، التفكير بأي أشخاص غير ماركسيين في ذلك الميدان قبل نهاية سبعينات القرن العشرين، باستثناء المؤرخ الأميركي هـ. ستيوارت هيوز (H. Stuart Hughes) (الذي كان له اهتمام خاص بإيطاليا) والمؤرخ البريطاني جيمس جُلْ (James Joll) (الذي تخصَّص في تاريخ اليسار). وفي نهاية المطاف شق غرامشي طريقه ودخل في الأدب الأكاديمي.

وبصورة أكثر دقة نقول، إن غرامشي جذب الانتباه خارج إيطاليا كمفكر شيوعي وبشكل رئيسي قدَّم استراتيجيةً ماركسية لأقطار كان فيها لثورة أكتوبر نوع من الإيحاء، لكنها لم تكن نموذجاً يُحتذى به - نعني لحركات اشتراكية في بيئاتٍ وأوضاع غير ثورية.

إن مقام ونجاح الحزب الشيوعي الإيطالي في الأعوام الممتدة بين مذكرِّة يالطا ووفاة إنريكو بيرلنغور(*) عملا على نشر تأثير مفكّر كان يُعد الموحي لاستراتيجياته. ولا ريب في أن غرامشي بلغ ذروة شهرته الدولية في سنوات «الشيوعية الأوروبية»، في سبعينات القرن العشرين، وتراجعت بمقدار ما في ثمانينات القرن العشرين باستثناء الجمهورية الاتحادية الألمانية، حيث حصل اكتشافه مؤخراً، وبلغ الاهتمام أوجه في النصف الأول من ثمانينات القرن العشرين. فحيث لم يهجر اليسار الأمل بالاستراتيجيات الكلاسيكية، واستراتيجيات العصيان والصراع المسلَّح، فقد فضلت مرشدين فكريين(**) (gurus) آخرين. ومن ذلك نشأ التاريخ الغريب ذو المرحلتين لدخول غرامشي إلى أميركا اللاتينيّة. كجزء من افتتاح ماركسية الحزب الشيوعي بعد

(*) كان زعيم الحزب الشيوعي الإيطالي (المترجم).

(**) في الهندوسية تعني المرشد الديني. وهنا استعملت كاستعارة لتعني المرشد الفكري أو السياسي أو الزعيم الحزبي (المترجم).

1956 – 1960، وبعد انهيار استراتيجيات الصراع المسلَّح في سبعينات القرن العشرين.

بدا النقاش الدولي حول غرامشي منفصلاً بمقدار كبير عن الجدل الإيطالي النشيط حول أعظم مفكر ماركسي في البلاد. ولم تترجم الكتب الرئيسية الإيطالية عن غرامشي إلى اللغة الإنجليزية – ماخلا السيرة التي وضعها فيوري (Fiore) – بالرغم من أن مقدِّمات للأدب الإيطالي موجودة ومتاحة كما في أعمال وتحرير شاوستاك ساسّون (Showstack Sassoon) وموفي (Mouffe). وذلك ليس بالأمر المستغرب. فلا محالة من أن يقرأ الأجانب بعض المفكرين القوميين، مهما كانوا عالميين، وفي ضوء اهتماماته أو اهتماماتها بطريقة مختلفة عن القراء في ثقافته أو في ثقافتها، وعندما يكون المفكر من طراز غرامشي، المهتم اهتماماً عميقاً بواقعه القومي، فإن القراءات الأجنبية والقراءات القومية تتباعدان. وفي أي حال، لم يكن العديد من المسائل التي دار حولها جدل عنيف في إيطاليا على شكل مجادلات حول غرامشي، بقدر ما كانت مجادلات لصالح (في أغلب الأحيان) أو ضد مرحلة ما من سياسة الحزب الشيوعي الإيطالي. وتلك المسائل لم تكن دائماً تهم غير الاختصاصيين في الخارج اهتماماً رئيسياً. ومع ذلك لا بدَّ من أن نذكر أن ما كان يؤثر في القرّاء الأجانب هو نصوص كتابات غرامشي، وليس أدب النقد والتأويل الذي تراكم حولها في بلاده. معنى القول، هو أن غرامشي أصبح العصر المؤثر عندما صارت المختارات الرئيسية الأولى من كتاباته متاحةً باللغات المحلية، أو قبل ذلك عندما ظهر أول غرامشيين محليين مهمين على المشهد الفكري ليقدموا المفكر الذي لم تحصل ترجمة عنه. ويمكننا القول إن قبول غرامشي غير الإيطالي كان قبولاً لغرامشي 1960 – 1967.

لذا، فإن القبول الدولي لغرامشي كان وظلّ خاضعاً للحظوظ المتقلِّبة لليسار السياسي. وسوف يظل، ويجب أن يظل ويستمر كذلك لمدى ما. لأن غرامشي كان فيلسوف التطبيق السياسي العملي بامتياز. فمعظم نجوم ما صار يُدعى «الماركسية الغربية» يمكن قراءتهم، بوصفهم أكاديميين، وكثير منهم كان كذلك أو كان يمكنه أن يكون كذلك، مثل: لوكاش، وكورش، وبنيامين (Benjamin)، وألتوسير، وهيربرت ماركوز (Herbert Marcuse) وآخرون. فقد كتبوا من مسافة أو مسافتين من الوقائع السياسية الماديّة، مثل هنري لوفيفر، وكانوا في وقت أو آخر يغوصون فيها بوصفهم منظِّمين سياسيين. ولا يمكن فصل غرامشي عن تلك الوقائع لأن أوسع تعميماته، تتعلق دائماً باستقصاء الشروط العملية لتحويل العالم بالسياسة في الظروف المحدَّدة التي فيها كتب. فقد كان مثل لينين غير معدٍّ للحياة الأكاديمية، مع أنه كان خلاف لينين

من حيث أنه وُلِدَ مفكراً، ورجلاً تثيره حتى جسدياً جاذبية الأفكار. ولم يكن عبثاً أنه كان المنظِّر الماركسي الأصلي الحقيقي الوحيد، وكان أيضاً زعيماً لحزب ماركسي واسع [إذا استثنينا أوتو بوير الذي كان أقل أصالة منه]. وأحد الأسباب الذي يشرح لماذا وجده المؤرخون الماركسيون وسواهم مجزياً يمثُلُ بالضبط، في رفضه مغادرة أرضية الوقائع التاريخية الاجتماعية والثقافية طلباً للتجريد ولنماذج نظرية اختزالية.

لذلك نقول، إنه من المحتمل أن تستمر قراءة غرامشي بشكل رئيسي، لأن كتاباته ألقت ضوءاً على السياسة، وبلغته هو: «جملة القواعد العملية للبحث وللملاحظات التفصيلية لبعث الاهتمام بالواقع المؤثِّر ولإثارة رؤى سياسية قوية». وأنا لا اعتقد أن أولئك الذين يبحثون عن رؤى لن يجدوها إلاّ في اليسار، مع أن هناك أسباباً واضحة تفيد أن الذين يشاركون غرامشي بأهدافه سيتطلعون إليه طلباً للإرشاد. وكما ذكر جوزيف بتيجيج (Joseph Buttigieg)، الأميركيون غير الشيوعيين قلقون لأن غرامشي ما يزال موحياً لليسار ما بعد السوفيتي، حتى عندما لم يكن بإمكان لينين، وستالين، وتروتسكي وماو فعل ذلك. ومع ذلك، يأمل أحدنا أن يظل غرامشي مرشداً للعمل السياسي الناجح لليسار، ومنطقة السياسة النفعية.

قد يبدو أمراً تافهاً أن يتمكن كتاب مرجعي أنجلوساكسوني – وهنا أنا أقتبس المدخل بكليته – من اختزال غرامشي بكلمة واحدة: في قوله «أنطونيو غرامشي (مفكر سياسي إيطالي، 1891 – 1937) يَرى بعين الهيمنة»[2]. وقد يبدو غريباً أن يعتقد صحفي أميركي استشهد به بتيجيج، أن مفهوم «المجتمع المدني» قد أُدخل في الخطاب السياسي الحديث بواسطة غرامشي وحده. ومع ذلك، إن قبول مفكر كمفكر كلاسيكي ممتاز، غالباً ما يدل عليه بمراجع سطحية من قبل من لا يعرفون عنه معرفة واضحة أكثر من كونه «مهماً».

وبعد وفاة غرامشي بخمسين سنة، صار غرامشي «مهماً» بتلك الطريقة خارج إيطاليا أيضاً، حيث إن مكانته في التاريخ القومي والثقافة القومية كانت معروفة منذ البداية. والآن أصبحت تلك المكانة معروفة في معظم أنحاء المعمورة. والواقع هو أن المدرسة التاريخية المزدهرة «للدراسات الثانوية»، ومركزها كالكوتا (Calcutta)، ذكرت أن نفوذ غرامشي ما يزال يتمدِّد. فقد نجا وبقي بعد الأزمات السياسية التي أضفت عليه شهرة دولية، في أول الأمر. وظل بعد الحركة الشيوعية الأوروبية ذاتها. وأثبت استقلاله عن التقلّبات من الطراز الأيديولوجي. فمن يتوقع الآن رواجاً

لألتوسير أكثر من سبنجلر؟ وقد نجا من الانحباس في الغيتو(*) (ghetto) الأكاديمي الذي كان مصير مفكرين آخرين كثيرين تابعين «للماركسية الغربية». وقد تجنَّب أيضاً أن يصير مذهباً (ism).

ونحن لا نعرف ما ستكون حظوظ كتاباته، المستقبلية. ومهما يكن من أمر، فإن بقاءه مؤكَّد بما فيه الكفاية، ويسوِّغ الدرس التاريخي لقبوله الدولي.

غرامشي في اللغة الإنجليزية

قائمة المؤلفين العالميين الذين يستشهد بأعمالهم تكراراً في الأدب الدولي الخاص بالعلوم الإنسانية والفنون(3) تحتوي على عدد قليل من الإيطاليين، خمسة فقط ولدوا منذ القرن السادس عشر. وهي لا تشتمل على اسم فيكو (Vico) أو ماكيافيلّي. غير أنها شملت اسم أنطونيو غرامشي. فالاستشهاد بالنصوص لا يضمن وجود معرفة، لكنه يدلّ على أن المؤلف الذي استشهد به يتمتَّع بحضور فكري. فحضور غرامشي في العالم بعد خمسين سنة من وفاته، حقيقة لا يمكن إنكارها. وهو حضور ملحوظ بصورة خاصة في أوساط المؤرخين في المناطق الناطقة باللغة الإنجليزية.

لقد صار غرامشي معروفاً في هذا النطاق سريعاً بعد الحرب التي تسبَّبت في مجيء مفكرين كثيرين معادين للفاشية من الناطقين باللغة الإنجليزية إلى إيطاليا. وقد نوقش عمله بتعاطف في **الملحق الأدبي للتايمز** (*Times Literary Supplement*) في أوائل عام 1948، أي بعد نشر **المادية التاريخية** (*IL Materialismo Storico*) بوقت قصير. وقد جمع مؤرخ بريطاني شاب ما يمكن أن يكون أول المختارات من كتاباته، بلغةٍ غير إيطالية. [**الأمير الحديث** (*The Modern Prince*)، لندن، 1956]. وفي مطلع عام 1958 قام مؤرخ أميركي معروف بمناقشته في عنوان هو «غرامشي والمذهب الإنساني الماركسي» (Gramsci and Marxist Humanism) وظلّ كتابه أفضل كتاب معروف في تلك اللغة، وكان حول التاريخ الفكري العام لأوروبا في أوائل القرن العشرين [(**الوعي والمجتمع**) (*Consciousness and Society*)، هـ. ستيوارت هيوز]، وهناك مؤرخ بريطاني آخر وهو غوين أ. وليامز (Gwyn A. Williams) وضع أول بحث «لمفهوم الهيمنة (Egemonia) في فكر أنطونيو غرامشي» في عام 1960 [في **مجلة تاريخ**

(*) يعني، أصلاً، حي اليهود أو الأقليات في المدينة. وقد أورد المؤلف هذه المفردة كاستعارة، ليعني بها الانغلاق (المترجم).

الأفكار (*The Journal of the History of Ideas*)]. وفي ذات الوقت وُضِعت رسالة أميركية للحصول على درجة الدكتوراه من قبل مؤرخ آخر أصبحت بعد سنوات قليلة أول كتاب عن غرامشي خارج إيطاليا، نعني رسالة جون م. كامتْ (John M. Cammett)، **أنطونيو غرامشي وأصول الشيوعية الإيطالية** (*Antonio Gramsci and the Origins of Italian Communism*) [ستانفورد (Stanford)، 1967]. وباختصار نقول، إنه بحلول عام 1960 زادت المعرفة بغرامشي في العالم الناطق باللغة الإنجليزية، أكثر مما هو معروف في أي مكان آخر خارج إيطاليا مع أن ذلك كان غير كافٍ. وقد عزَّزت المختارات المنتقاة بصورة جيدة، والممتازة من كتابات غرامشي التي حرَّرها هور ونويل سميث، بدءاً من عام 1971 وبعده، الفائدة التي تمتَّع بها قراء اللغة الإنجليزية.

كان التأثير الرئيسي لغرامشي بصورة طبيعية على المؤرخين الماركسيين، الذين كان نشاطهم وتأثيرهم من بعض النواحي في العالم الناطق باللغة الإنجليزية أكثر مما هو في مكان آخر في الغرب. ومع ذلك، لا توجد «مدرسة غرامشية» للتاريخ، كما أن تأثير غرامشي على المؤرخين لا يمكن تمييزه تمييزاً واضحاً عن تأثيره في الماركسية عموماً. لقد ساعدت كتابات غرامشي وأمثاله قبل كل شيء على فلق الصدفة القاسية العقيدية التي نبتت حول الجسم الحي للفكر الماركسي، التي أخفت الاستراتيجيات والملاحظات الأصلية مثل التي كانت عند لينين وراء اللجوء إلى أرثوذكسية نصّية.

لقد ساعد غرامشي الماركسيين على تحرير أنفسهم من الماركسية العاميّة الدارجة، وصعَّب على خصوم اليسار أن يرفضوا الماركسية بوصفها نوعاً من المذهب الوضعي الحتمي.

وبهذا المعنى لا تكون الدروس الرئيسية المستفادة من غرامشي غرامشيّة، بل ماركسية. فهي تؤلف مجموعة من التغييرات على فكرة ماركس الأساسية وهي أن «البشر يصنعون تاريخهم، لكنهم لا يصنعونه... في ظروف من اختيارهم، بل في ظروف موجودة، مباشرة قائمة ومنقولة من الماضي» أو كما قال غوين أ. وليامز: «الإدارة الإنسانية مركزية في ماركسية غرامشي، لكنها إرادة تاريخية، موجهة إلى وقائع التاريخ الموضوعية»[4] وإلحاح غرامشي، وهو نادر عند معاصريه الماركسيين على استقلالية منطقتي السياسة والثقافة يمكن اعتباره تذكيراً بماركس، ولم يخفق في ملاحظة ذلك باحث ماركسي ذكي مثل جورج لختايم.

لذلك، كان من الطبيعي أن يرى بحثٌ في التطورات في عالم تاريخ غرامشي

استثنائياً، في ذلك السياق[5]. أو أن يتمكن مؤرخ ماركسي من القول: «إن تأثير غرامشي على التاريخ الماركسي ليس بجديد. وأنا لا أظن أن لغرامشي منهجية خاصة للتاريخ تخالف منهجية ماركس»[6]. غير أن هذا لا يقلّل من أهمية تأثيره. فالمؤرخون الراغبون بالابتعاد عن ظواهر الصرامة الموجودة في التقليد الشيوعي الموروث، وجدوا أنفسهم مشجَّعين، وحاصلين على وحي باكتشافهم أن ذلك «المنظِّر ذا القدرة غير الاعتيادية» كان إلى جانبهم. علاوةً على ذلك، فإن نفراً قليلاً من المنظِّرين الماركسيين الذين ظهروا، أو الذين أعيد اكتشافهم، منذ خمسينات القرن العشرين وبعدها كانوا متعمقين في التاريخ مثله، لذا هناك فائدة من درسه أو قراءته من قبل المؤرخين.

ومع ذلك، هناك، أيضاً تأثير غرامشيٌّ خاص على المؤرخين، وليس مجرد تشجيع غرامشيٌّ للالتفات إلى ماركس (أو للعودة إليه). إذ ليس الأمر محصوراً في كون مفاهيم معينة في أعمال غرامشي النظرية الخصبة جداً، والمضيفة أبعاداً جديدة للتحليل التاريخي فحسب، وإنما هو نفسه كتب بغزارة عن مسائل هي تاريخية وسياسية بصورة جوهرية أيضاً.

فتأملاته في التاريخ الإيطالي، الذي بحث كثيراً في بلاده، لم يكن لها صدى في مكان آخر باستثناء المجتمع الإيطالي المحدود. ومن ناحية أخرى في ميدان محدَّدٍ واحد، أو في مجموعة مركَّبة من الميادين الخاصة بالدراسات التاريخية، كان التأثير المباشر لغرامشي قوياً وسائداً أيضاً. ذلكم هو تاريخ الأيديولوجيا والثقافة بشكل رئيسي عندما يؤثر في «الشعب العادي»، خاصة في المجتمع ما قبل الصناعي. وتأثير غرامشي في ذلك الميدان يرجع إلى زمن طويل. فمنذ وقت طويل حتى عام 1960، ذكر الكاتب الحالي الملاحظة المفيدة أن: «بين المقترحات المحرِّضة الكثيرة الموجودة في أعمال أنطونيو غرامشي، ثمَّة ذلك الاقتراح بأن يكرِّس الاهتمام الأكبر للذهاب إلى دراسة عالم» (**الطبقات الدنيا**، XVI، 3، ص 456).

ومنذئذٍ، أصبح تاريخ ودراسة عالم الطبقات الثانوية التابعة أحد ميادين التاريخ الرسمي النامية والمزدهرة بسرعة. ولم تقتصر ممارسته على الماركسيين وعدد لا يستهان به ممن يوصفون أفضل وصف بأنهم الشعبيّون اليساريون، وإنما شملت مؤرخين ذوي أيديولوجيات أخرى. ولم يكبر الميدان لأن غرامشي دعا لمثل ذلك الدرس، بل لأن كل من يدخله ويكون جدّياً لا يمكنه إلاّ أن يذكر أحد المفكرين النادرين من أي نوع (والواحد الوحيد في الماركسية الغربية، من دون استبعاد ماركس نفسه) الذي فكر

فيه تفكيراً جدّياً. وفي حين يوجد تقليد طويل يمكن أن يدعو إليه مؤرخو الثقافة العالية والأفكار المعبَّر عنها في كتب، فإن المؤرخين في الميدان الجديد الخاص بالثقافة الشعبية كانوا واقعياً من دون إرشاد. لذا، كان الفراغ الفكري في صميم مفاهيم مبتذلة تافهة مثل «تاريخ العقليّات» (Histoire des mentalités). لذلك، كان من الطبيعي أن يجد غير الماركسيين أنفسهم - وهم الذين دخلوا تلك المنطقة، مثل المؤرخ البارز من كامبردج بيتر بيرك (Peter Burke) - منقلبين على كتابات غرامشي ولو عرضياً كما حصل لبيرك في كتابه الذي حوَّل الطريق: **الثقافة الشعبية في أوائل أوروبا الحديثة** (*Popular Culture in Early Modern Europe*) (لندن 1978). والواقع هو أنه يصعب اليوم أو يستحيل بحث مسائل الثقافة الشعبية، أو أي ثقافة، من دون الاقتراب من غرامشي، أو من دون توظيف واضح لأفكاره، كما رأى بيرك أن إدوارد تومبسون (Edward Thompson) وريموند وليامز (Raymond Williams) فعلا ذلك[7].

غير أن قوة انخراط غرامشي الفكري في ذلك الميدان، كما في الميادين الأخرى التي فكر فيها وكتب عنها لم تكن في الحقيقة أكاديمية، فالتطبيق العملي كان المثير والمخصب لنظريته، وكان مبتغاها. وكان سبب كون تأثيره في تلاميذ الأيديولوجيا والثقافة ملحوظاً وبارزاً هو أن الميدان لم يكن أكاديمياً أيضاً عند جميع المعنيين بالثقافة الشعبية. ولم يكن هدف جميع الذين انخرطوا في تلك الأبحاث بصورة رئيسية كتابة أطروحات دكتوراه وكتب. فقد كانوا بحماس معنيين ومهتمين كما كان غرامشي، بالمستقبل وبالماضي أيضاً، وبمستقبل الشعب العادي الذي يشكل معظم الإنسانية، بما في ذلك الطبقة العاملة وحركاتها مع مستقبل الأمم والحضارة. وبعد مرور خمسين سنة على وفاته، نحن نشكر غرامشي ونقر بفضله، لا لإثارته الفكرية فحسب، وإنما لتعليمنا أن محاولة تغيير العالم ليس متّسقةً فحسب مع التفكير التاريخي المفتوح العينين والدقيق والأصلي، بل مستحيلة من دونه.

الفصل الرابع عشر

تأثير الماركسيّة

1983-1945

ليس هناك مفكر عاش بنجاح طبقاً لما يريد: «فالفلاسفة لم يفعلوا سوى تفسير العالم: أما القضية فهي تغييره» [**أطروحات حول فويرباخ**]. لقد صارت أفكار ماركس تؤلف التعاليم الموحية للحركات العمالية والاشتراكية في معظم أوروبا. وعبر لينين والثورة الروسية صارت هي العقيدة الدولية الجوهرية لثورة القرن العشرين الاجتماعية المرحَّب بها من الصين إلى البيرو (Peru). وعبر انتصار الأحزاب والحكومات التي عملت بأفكار تلك العقيدة، فإن نسخاً من تلك الأفكار صارت الأيديولوجيا الرسمية للدول، التي عاش في أوجها نوع من العنصر البشري، إضافةً إلى الحركات السياسية ذات الحجوم والأهمية المختلفين في بقية العالم. والمفكرون الوحيدون الذين يمكن تحديدهم وتشبيههم بصورة فردية، والذين حققوا وضعية شبيهة، هم مؤسسو الأديان الكبرى في الماضي. وباستثناء النبي محمد (ص)، لم ينتصر أحد بمقدار شبيه وبمثل تلك السرعة. ولا يوجد مفكر علماني يمكن تسميته سواه، من هذه الناحية.

فإلى أي حدّ كان يمكن لماركس أن يوافق على ما تمَّ عمله باسمه، وما يمكن أن يكون رأيه بالتعاليم التي غالباً ما كانت تحوَّل إلى معادل علماني لأنواع اللاهوت، التي تقبل رسمياً بوصفها الحقيقة الثابتة، كل ذلك يؤلف مسألة تستحق التأمل الأكاديمي الممتع. وتظل الحقيقة تفيد أنه مهما كانت بعيدة عن أفكاره، فمن حيث ما نقدر أن نوقّيه منها أو نستدله منها نقول إنها مشتقّة منها تاريخياً، ويمكن إثبات الاشتقاق الفكري والعلمي بشكل مباشر. فهي تنتمي إلى تاريخ الماركسية. أما مسألة ما إذا كانت تلك

التطورات متضمَّنة منطقياً في أفكار ماركس، فمسألة مختلفة ومنفصلة. فقد بحثت كثيراً بشكل رئيسي، لأن الأنظمة والحكومات التي تأسست بنجاحٍ باسم ماركس (وعادة مع زعيم ثوري ما، ادّعى أنه تلميذ له - لينين، ستالين، ماو... إلخ) كانت تتشابه تشابه أفراد الأسرة، أو لأنها جميعها تشاركت بالصفة المميّزة السلبية الممثّلة في كونها مختلفة عن الديمقراطية الليبرالية.

ليست الإجابة على ذلك السؤال جزءاً من الفصل الحالي، غير أن ثمة تعليقين يمكن إنشاؤهما. عندما تبقى أي مجموعة من الأفكار حيةً بعد مولِّدها، فإنها لا تعود محصورة في نواياها ومحتواها الأصليين. وما يوجد داخل الحدود الواسعة جداً التي تضعها قدرة الإنسان على التأويل، أو استعداد الإنسان لتأكيد ترابط مع خلفٍ مرغوب أو معزز، يخضع لمجال واسع وغير متوقَّع من التعديلات والتحولات في الممارسة، ولمجال واسع في النظرية. فالأنظمة التي ادّعت أنها مسيحية، واستمدت سلطتها من جملة معينة من النصوص المكتوبة، تراوحت ما بين المملكة الإقطاعية في القدس إلى الهزّازين، ومن إمبراطورية قياصرة الروس إلى الجمهورية الهولندية، ومن جنيف كالفن إلى إنجلترا الجورجيّة. والثيولوجيا المسيحية في أوقات مختلفة تأثرت بأرسطو وماركس. فجميعها يمكنه أن يدعي أنه مشتق من تعاليم يسوع - وذلك لا يرضي المسيحيين الآخرين المقتنعين مثلهم. وكتابنا لا بدَّ من أن يكون قدد أثبت سعة مجال الأفكار والممارسات التي قيل إنها اشتقت من نصوص ماركس وكانت متَّسقة مع هذه النصوص مباشرة أو عبر حلفائه. وإذا كنا لا نعرف أنهم ادعوا ذلك الاشتقاق، فما علينا إلاّ أن نفكر بالفروق بين الكيبوتزيم (Kibbutzim) الصهيوني وبول بوت كامبوتشيا (Pol Pot Kampuchea)، بين هلفردنغ وماو (Mao)، بين ستالين وغرامشي، وبين روزا لوكسمبورغ وكيم إل سِنْ (Kim Il Sen)، وهي فورق أوضح من وجوه الشَّبه. ليس ثمَّة من سبب نظري يشرح لماذا اتخذت الأنظمة الماركسية شكلاً معيناً، مع أن هناك أسباباً تاريخية مفيدة تشرح لماذا تشابهت الأنظمة التي تأسست في مجرى الفترة الزمنية القصيرة تاريخياً منذ عام 1917 عبر ثورات أهلية، ومحاكاة واحتلال في عدد من الأقطار على أطراف العالم الصناعي أو خارجه، وأنشأت وطوَّرت خصائص سلبية أو إيجابية مشتركة[1]. لذا، فإن القول بأن النظرية الماركسية تتضمن وتعني بالضرورة اللينينيّة ولا سواها (أو أي مدرسة فكرية أخرى تدعي الأرثوذكسية الماركسية) تتهاوى إلى الأرض.

على كل حال، إن ما يمكن قوله هو أن أي مجموعة من الأفكار، بما فيها أفكار ماركس، لا مفرَّ من أن تتحوَّل عبر الصيرورة قوة سياسية مهمة تحرِّك الجماهير سواء

أحصل ذلك عن طريق الأحزاب والحركات، والحكومات، أم بطرق أخرى. وكذلك يحصل مع أي جملة من الأفكار فهي تتحول، ولو عبر اتخاذها أشكالاً رسمية، وتثبيتها والتبسيط التعليمي، إذا جرى تعليمها في المدارس الابتدائية والثانوية، وغالباً ما يكفي من التعليم في الجامعات. فمهما يكن تأويل العالم وتغييره مترابطين عضوياً، فإنهما مختلفان وسواء أحدث ذلك عبر تشكيل مجموعة غير رسمية من المعتقدات كالتي تميّز رجال أعمال القرن التاسع عشر وصحفييهم عن كتابات آدم سميث الفعلية التي قصدوا إشادتها عليها، أم – في الحالات المتطرفة – عبر عقائد جامدة رسمية لا يستهان بالخروج عليها. فحقيقة التحوّل تبقى، والحق يقال، إن الكثير من التاريخ الأكاديمي للأفكار الخاصة بالمفكرين السابقين خاصة تاريخ الأفكار السياسية، يمثل في إعادة اكتشاف المعنى الأصلي للمفكرين وقصده من والسياقات والمراجع الأصلية لفكرهم، وراء التأويل الجديد الذي حصل بعد وفاتهم. والكتابات الوحيدة التي نجت من هذا المصير كانت تلك التي لم يعتبرها أحد اعتباراً جديداً، أو تلك المتطابقة مع زمنٍ ومكان محدَّدين يمكن نسيانهما فوراً لاحقاً. فآدم سميث اليوم ليس آدم سميث عام 1776 إلاّ عند حفنة من الباحثين الاختصاصيين والشيء ذاته ينطبق على ماركس بالضرورة ذاتها.

من الوجهة التاريخية، إن وقع الماركسية السياسي هو من غير أدنى شك إنجاز ماركس الأهم. ومع ذلك فإن الوقع الفكري كان مدهشاً مثله تقريباً، بالرغم من عدم إمكان فصله عن الوقع السياسي، فضلاً عن جميع الماركسيين. فلا يوجد مفكرون كثيرون توحي أسماؤهم وحدها بتحولات رئيسية في العالم الإنساني الفكري، بل هم قلّة، وكان ماركس واحداً من تلك القلّة مع نيوتن، وداروين وفرويد. وكما تفيد هذه الأسماء، فإن التحوّلات الفكرية التي تتطابق مع تلك الأسماء ليست متشابهة، إلاّ بمقدار ما تعدّى جميعها صفوف الاختصاصيين في ميادينهم إلى ثقافة تربوية عامة. وليس المقصود القول، إن فرويد، أو داروين كان بمنزلة نيوتن الفكرية. ومع ذلك نقول، إنه مهما كانت قدراتهم وطبيعة إنجازاتهم الفكرية، فإن عدد الأسماء الموجودة في تلك القائمة قليل ولا يمكن الشك بمركز ماركس فيها، لكنه متميّز من ناحيتين. **الأولى**، كما بيّن هذا الكتاب تتمثّل في الأغراض العملية بعد وفاة المفكر. فلم يكن هناك سوى نفرٍ قليل جداً يمكن أن يكون قد توقَّع تلك الشهرة في حياة ماركس. والناحية **الثانية**، تحققت في مواجهة قرنٍ من النقد الثابت الواسع والحماسي والبعيد عن ظروف الإهمال. فالعديد من العقول الكبيرة خصَّصت جهوداً مكثفة للبرهان على أخطاء ماركس ونواقصه، بمن فيهم كثيرون كانوا ماركسيين، وصاروا نقّاداً بعد ذلك.

وليس ذلك بغير شائع في مواجهة المفكرين الذين يعملون على تحويل العالم الفكري. ومع ذلك، كان مجرى الشخصيات الأخرى إجمالاً، أقل عصفاً وانحصر النقد الفكري الخطر بميادينهم الاختصاصية. وفي وقت مئويته بعد وفاته، بقي ماركس رغم قرنٍ من النار المركّزة التي وجِّهت لأفكاره من كل من أمسك بقلم، وآلة كاتبة، وعلا منبراً عاماً – وفي حالات ملائمة – أو من مراقب مطبوعات ذي قلم أزرق وإرساليات من الشرطة. فلم تكن مكانته الفكرية موضع شك خطر. علاوةً على ذلك، ظلَّت أفكاره ذات تأثير حتى في أوساط الذين رفضوا نتائجه والنشاطات العملية لتلاميذه.

ثمَّة ثلاثة أسباب ممكنة توضح ذلك السجل الرائع. فالماركسية كانت تُهاجم دائماً ذلك بعد وفاة ماركس بقليل، لأنها كانت تشبَّه من ناحية أو أخرى بالحركات السياسية القوية التي تهدِّد الوضع الراهن، وشُبهت منذ عام 1917 بالأنظمة الدولية المعتبرة هدّامة، وخطرة ومهدِّدة على المستوى الدولي. وإلى تسعينات القرن العشرين، لم يتوقف اعتبارها ممثِّلةً لقوى سياسية منيعة. علاوة على ذلك ظلَّت دولية في النظرية، لذا سبَّبت لنقّادها خطراً أو خطأً عالمياً ممكناً. ومن هذه الناحية، اختلفت عن العقائد المرتبطة بأمم أو أعراف محدَّدة، لذا، ليس من المحتمل تحويل الآخرين عن عقائدهم أو عن العقائد الشاملة نظرياً، المنحصرة بالممارسة وبمناطق معينة، مثل المسيحية الأرثوذكسية أو الإسلام الشيعي.

بالإضافة إلى ذلك، كانت الماركسية دائماً وما زالت، تشكل نقداً للوضع الراهن مع مطامح فكرية خطرة، وسريعاً جداً تمكنت من تثبيت نفسها كأفعل نقدٍ وأقواه في مجال ظواهر النقد الأخرى. وبحلول سبعينات القرن العشرين، راح جميع خصوم الأوضاع الراهنة الذين رغبوا في استبدالها بمجتمع «جديد» أفضل، وحتى بعض الذين رغبوا في استبدالها بالعودة إلى مجتمع «قديم» مثالي، يصفون هدفهم بأنه «الاشتراكية». غير أن وضع التحليل الماركسي في النظرية الاشتراكية كان يفيد أن نقد الاشتراكية يتضمن بشكل لا مهرب منه نقداً لماركس. وبعد عام من وفاته، ظل تقرير جيد المصادر عن الاشتراكية المعاصرة[2]، مخصصاً واحداً من فصوله التسعة لكارل ماركس، في حين ذكر التسعة لكارل ماركس في حين ذكر اندثار المدارس الفكرية «الطوباوية» أو «التبادلية» الأصلية السابقة للماركسية. وفي النصف الثاني من القرن العشرين مالت النقاشات[3] إلى النظر في جميع أنواع النظريات الاشتراكية جوهرياً بمفردات علاقتها بنظريات ماركس، التي افترض ضمنياً أنها التقليد المركزي للاشتراكية.

وفوق ذلك، كان الذين رغبوا في نقد المجتمع القائم مثل غيرهم منجذبين إلى النظرية التي سادت تلك الانتقادات، ومثل الذين رغبوا في تعريفها، أو كانوا مرتابين بأفكار الثورية، وكانوا مجبرين على نقد ماركس. ولم يكن الحال كذلك في الأنظمة التي كانت العقيدة الماركسية فيها هي الأيديولوجيا الرسمية للوضع القائم ليس إلاّ فيها. وعلى كل حال، إن الدول ذات الأنظمة الماركسية كانت قلّة. وفي أي حال، إنه، باستثناء الاتحاد السوفيتي، لم يكن عمر مثل تلك الدول يزيد عن الثلاثين إلى الأربعين عاماً، واستبقى العنصر الاجتماعي - النقدي في ماركسية الجيل أو الأجيال الأولى مابعد الثورية بعض الأهمية، ولو أنه كان يتلاشى.

ثمّة سبب **ثالث** لمركزية الماركسية والجدل حول الماركسية في العالم الفكري لأواخر القرن العشرين، نعني: جاذبياتها المتفاوتة للمفكرين المقتدرين. ويمكن التسليم بالقول، إن المفكرين كانوا أحياناً منجذبين إلى الماركسية كمجموعة (en masse) فحسب، وحينئذٍ لم يكن معظمهم على نحو ثابت. يُضاف إلى ذلك، كانت هناك أوقات وأمكنة، ومهن فكرية حصينة على الماركسية أو مرفوضة منها. ومع ذلك، ظلّت الحقيقة تفيد أنه من بين جميع الأيديولوجيات المرتبطة بالحركات الاجتماعية الحديثة، كانت الماركسية كنظرية، هي الأكثر الفاتاً وإدهاشاً. لذلك نراها وفرت أوسع مجال للنقاش والتفكير النظري، وليس للالتزام والنشاط السياسيين. وليس من قبيل المصادفة ولا من نوع التأمل ذي الطراز الفكري، أن نجد أن عدد المداخل تحت اسم «ماركس» و«الماركسية» في فهرس **الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية** (*International Encyclopaedia of the Social Sciences*) (1968) يفوق كثيراً عدد المداخل لاسم أي مفكر آخر، حتى لو حذفنا المداخل الإضافية تحت اسم «اللينينيّة».

هناك ثلاث مجموعات مركبة من الأحداث ذات أهمية كبيرة في تشكيل البحث الماركسي في ربع القرن، بعد عام 1945، وهي: التطورات في الاتحاد السوفيتي وفي الأقطار الاشتراكية الأخرى منذ عام 1956، وتلك المرتبطة بما صار يدعى في خمسينات القرن العشرين (وبشكل مضلِّل) «العالم الثالث»، وخاصة أميركا اللاتينية، والانفجار غير المتوقع للراديكالية السياسية خاصة ثوران الطلاب في أقطار الرأسمالية الصناعية في أواخر ستينات القرن العشرين. وكانت تلك المجموعات، بمفردات أهميتها السياسية الفعلية المباشرة أو غير المباشرة، ذات وزن غير متكافئ، وإن لم يكن ذا صلة بوقعها على النقاش الماركسي. كما لا يمكن فصلها بوضوح خاصة، بعد عام 1960.

أثر المركَّب «السوفيتي» في تطورات الماركسية من نواحٍ ثلاث. **الناحية الأولى** تمثَّلت في أن إزالة الستالينية في الاتحاد السوفيتي وفي دول أوروبية شرقية أخرى، كانت لها نتائج عملية ونظرية. فقد أدت إلى الإدراك بأن التنظيم الفعلي لتلك المجتمعات وعملها - فضلاً عن اقتصادياتها - يتطلَّب إصلاحات، وهو الإدراك الذي تجلّى في الأعوام التي تبعت الكونغرس العشرين، وفي أواخر ستينات القرن العشرين. كما أدت إلى تخلٍّ عن التحفظ الفكري مما سمح بإعادة التفكير، وشجَّع أحياناً إعادة فتح المسائل التي أقفل عليها بإحكام في الحقبة الستالينية.

ثانياً، أثَّر في الماركسية انهيار حركة شيوعية دولية وحيدة ومفردة وذات مركز واحد سيطر عليها «طرفٌ قائد» واحد، هو الاتحاد السوفيتي. وقد سبق أن ضعفت تلك الوحدة المفردة بانفصال يوغسلافيا منذ عام 1948، وفعلياً زالت من الوجود بالانشقاق بين الصين والاتحاد السوفيتي، حوالي عام 1960. فجميع الأحزاب الشيوعية، وبالتالي النقاش الماركسي في داخلها تأثر بدرجات مختلفة بذلك الانهيار، أو بطريقة أكثر دقةً تأثر بالإقرار الشرعي (dejure) أو الواقعي بوجود «طرق قومية نحو الاشتراكية» مختلفة، أو هي ممكنة الآن داخل الاشتراكية، وأحياناً مرغوبة. علاوة على ذلك، إن الذين ما يزالون يتوقون لنظرية أرثوذكسية دولية وحيدة حتى لهؤلاء نقول، إن وجود أرثوذكسيات منافسة الآن يطرح مسائل حادة تتعلق بتعديل جديد.

ثالثاً، لقد أثَّر المركب السوفيتي على التطورات داخل الماركسية عبر الأحداث السياسية الدراماتيكية داخل العالم الاشتراكي - أو بطريقة أكثر دقة في الدول داخل عالم التأثير السوفيتي، وفي الصين: هناك ردود الفعل الأوروبية الشرقية الأولى على الكونغرس العشرين، في عام 1956 (بولندا، وهنغاريا)، وأزمات أواخر ستينات القرن العشرين التي كان أكثرها رضَّةً «ربيع براغ» (Prague Spring) في عام 1968، وسلسلة التغيرات العنفية البولونية بين عام 1968 وعام 1981 والزلازل السياسية التي هزَّت الصين في أواخر الخمسينات ومنتصف الستينات («الثورة الثقافية»)، وبعد وفاة ماو.

وأخيراً، إن نموّ الاتصالات المباشرة بين القطاع الاشتراكي للكرة الأرضية والبقية، ولو على شكل الصحافة، والسياحة، والتبادل الثقافي، ونشوء مجموعات كبيرة من المهاجرين من الأقطار الاشتراكية، كل ذلك أثَّر في تطورات الماركسية بقدر ما استوعب جملة المعلومات المتاحة للماركسيين الغربيين، التي لا يمكن تجاوزها إلاّ بصعوبة متزايدة. وإذا كان مثل تلك الأقطار ما يزال يلتفت إلى نماذج بعضها طوباوي أحياناً، مما طمح

إليها الثوريون الغربيون، فذلك يعود بمقدارٍ كبير، إلى الثوريين الغربيين الذين لا يعرفون إلاّ النزر القليل عنها، وكانوا أحياناً في وضع أرادوا فيه أن يتعلموا أكثر أو أن يهتموا أكثر من قبل. وإن النظر إلى «الثورة الثقافية» الصينية بطريقة مثالية من قبل ثوار غربيين لا يمتّ بصلة بالصين، مثل علاقة كتاب مونتسكيو (Montesquieu) (*Lettres Persanes*) بإيران، أو علاقة «المتوحش النبيل» (Noble Savage) في القرن الثامن عشر بتاهيتي. فكلاهما وظّفا ما يفيد أن يكون تجربة بلاد نائية بقصد النقد الاجتماعي لجزء آخر من العالم. ومع ذلك إنه مع نموّ الاتصالات والمعلومات فإن الميل إلى البحث عن مجتمع طوباوي يرفرف فوقه علم دولة أحمر قد زال بصورة بارزة. فالحقبة الزمنية منذ عام 1956 هي الحقبة التي اضطر فيها معظم الشيوعيين للاستنتاج بأن الأنظمة الاشتراكية القائمة، بدءاً من الاتحاد السوفيتي إلى كوبا وفيتنام، كانت أبعد ما تكون عما رغبوا أن يكون عليه المجتمع الاشتراكي أو المجتمع السائر في عملية إنشاء الاشتراكية. فاضطر معظم الماركسيين إلى الارتداد إلى وضع الاشتراكيين في كل مكان قبل عام 1917. وعادوا، من جديد، إلى الدفاع عن الاشتراكية كحلٍّ ضروري للمسائل التي خلقها المجتمع الرأسمالي كأمل مستقبلي، لكنه ليس مدعوماً دعماً كافياً عبر التجربة العملية.

مقابل ذلك، عزَّزت هجرة المنشقين من الأقطار الاشتراكية الإغراء القديم لمطابقة ماركس والماركسية حصرياً مع تلك الأنظمة، خاصة مع الاتحاد السوفيتي. وكانت قد أفادت في الماضي في استبعاد أي واحد لا يقدِّم تأييداً كلياً وغير منقوص لكل ما يصدر من موسكو من المجتمع الماركسي. والآن، تفيد الذين يريدون رفض ماركس كله، لأنهم يزعمون أن الطريق الوحيد الذي انطلق من البيان الشيوعي، أو يمكن أن يؤدي إلى الأمام، هو ذلك الذي انتهى في معسكرات الاعتقال (gulgas) في روسيا الستالينية أو ما يضاهيها في دولة أخرى يحكمها تلاميذ ماركس. ويمكن فهم ردّ الفعل ذاك، بالحالة النفسية السيئة في أوساط الشيوعيين الذين خاب أملهم وهم يتأملون «الإله الذي أخفق». ويمكن أن يكون مفهوماً أكثر في أوساط المنشقين الفكريين في الأقطار الاشتراكية، الذين جاؤوا منها، وكان رفضهم لكل ما له علاقة بالأنظمة الرسمية، كلياً – بدءاً من المفكر الذي لجأت تلك الأقطار إلى نظريته. ومن الناحية الفكرية كان هناك تسويغ مثل الأطروحة التي تقول، إن المسيحية لا بدَّ من أن تؤدي منطقياً وحتمياً إلى الحكم البابوي المطلق، أو تؤدي الداروينية كلها إلى تمجيد المنافسة الرأسمالية الحرّة.

إن مركَّب أحداث «العالم الثالث» أثَّر في تطورات الماركسية من ناحيتين رئيسيتين. ففي المقام الأول، ركَّزت الانتباه على الصراعات التحريرية في آسيا، وأفريقيا وأميركا

اللاتينية، وعلى الحقيقة المفيدة أن العديد من مثل تلك الحركات وبعضاً من الأنظمة الجديدة التي نشأت من زوال الاستعمار انجذبت إلى شعارات ماركسية وإلى بُنى الدول واستراتيجياتها المرتبطة بالماركسية (من قبلها على الأقل). وقد وجدت بعض الحركات والأنظمة ما يوحي في تجارب الأقطار الاشتراكية ويفيد في التخلّص من التخلّف حيث كان معظمها متخلّفاً في أول الأمر. وقد ادّعى عددٌ كبير من الحركات والأنظمة في «العالم الثالث»، من وقت لآخر على الأقل، بأن الاشتراكية هي هدفها (وغالباً ما كانت موصولة كاشتراكية أفريقية، واشتراكية إسلامية... إلخ). وإذا اتخذت تلك الاشتراكيات نموذجاً فإنه سيشتق من الأنظمة التي يحكمها ماركسيون. ومن الطبيعي أن يكون عدد الماركسيين في الأقطار المستعمرة أو شبه المستعمرة سابقاً ازداد بمقدار كبير.

وخلال عقود الازدهار الاقتصادي الرأسمالي العالمي الكبير، بدا أنه يمكن الرجاء في حصول ثورات اجتماعية بدرجة أولية في العالم التابع الذي هو «ناقص النمو». لذا، فإن النقطة الأساسية الثانية التي يجب ذكرها تتمثّل في القول، إن خبرة «العالم الثالث» ركزت انتباه الماركسيين على العلاقات بين الأقطار المسيطرة والنامية على الطابع الخاص والمسائل المحدَّدة للانتقال الممكن إلى الاشتراكية في مثل تلك الأنظمة، وعلى الخصائص الاجتماعية والثقافية التي أثَّرت في تطورها المستقبلي. وقد أقرّت تلك الأمور قضايا تختص بالنظرية الماركسية، وليس بالاستراتيجية السياسية الجارية فحسب. علاوةً على ذلك إن آراء الماركسيين بوصفهم ممتهنين سياسيين (ويغرى المرء أن يقول «بالنتيجة») وكمنظِّرين اختلفت وتباعدت كثيراً. والمثل اللافت لذلك التفاعل بين خبرة «العالم الثالث» والنظرية الماركسية يمكن الوقوع عليه في ميدان التاريخ. فطبيعة الانتقال من الإقطاعية إلى الرأسمالية شغلت طويلاً الباحثين الماركسيين، وبتدخل من السياسيين الماركسيين، وذلك لأنها في روسيا على الأقل أثارت قضايا ذات اهتمام جارٍ. «فإقطاعيتهم» كانت ظاهرة حديثة، و«الحكم المطلق» للقياصرة الذين كانت طبيعة طبقتهم موضع جدال قضي عليه حديثاً ويُضاف إلى ذلك كون المعتقدين بتأويلات مختلفة لتلك القضايا [مثل م. ن. بوكروفسكي (M. N. Pokrovsky)] محسوبين من قبل خصومهم خطأً أو صواباً مع المعارضة السياسية أو مؤيدين لنظريات تشجعها. كما كانت المسألة في اليابان أيضاً مسألة رأي سياسي. ونحن لا نحتاج أن نتعدّى في تتبّعنا تلك النقاشات والحجج ما نشره موريس دوب في محاولة طموحة لتقديم نظرة عامة منظمة إلى المسألة في كتابه المتواضع الاسم: **دراسات في تطور الرأسمالية** (*Studies in the Development of Capitalism*) (1946) وقد أدّى إلى نقاش دولي نشط في خمسينات القرن العشرين[4].

وهناك مسائل عدة للنظر فيها. هل كان هناك تناقض أساسي داخلي في الإقطاع («قانون عام») أدّى إلى تفكّكه وأدى إلى استبداله بالرأسمالية؟ فإذا صحَّ ذلك (وهو اعتقاد معظم الماركسيين الأرثوذكس) فما هو؟ وإذا لم يكن هناك تناقض أساسي داخلي، أي إذا كان الإقطاع نظاماً اقتصادياً ذا تثبيت ذاتي - فكيف يمكن شرح استخلافه بالرأسمالية؟ وإذا كان هناك مثل تلك الآلية، آلية التفكك، فهل نراها تعمل في جميع الأنظمة الإقطاعية، وفي تلك الحالة يجب شرح أسباب فشل الرأسمالية في النشوء والتطور خارج المنطقة الأوروبية، أو في تلك المنطقة الواحدة، وإن الخصائص المحدَّدة التي تميزها عن بقية العالم تتطلّب التحليل؟ وكان جوهر نقد بول م. سويزي لدوب، الذي أطلق النقاش متمثلاً في أنه لم يكن مقتنعاً بمحاولات شرح تفكك الإقطاع بآليات موجودة في داخل «علاقة الإنتاج» الرئيسية الموجودة داخل النظام، أي بين الأسياد والفلاحين عبيد الأرض. فعوضاً عن ذلك، اختار أن يؤكد - أو أن يعيد التأكيد، وذلك لوجود سوابق كثيرة لا ماركسية وماركسية له - على دور التجارة في تدمير الاقتصاد الإقطاعي وتحويله. «نمو التجارة كان العامل الحاسم في انهيار الإقطاع الأوروبي الغربي»، (مرجع سابق، ص 41، هامش).

بالرغم من أن النقاش استمر دون توقف إلى الوقت الحاضر، فإنه همد. على كل حال، حدث في وقت ما في ستينات القرن العشرين أن طرحت، ومن جديد مسألة النشوء التاريخي للاقتصاد الرأسمالي الحديث بطريقة مختلفة تماماً - بالرغم من وضوح اشتقاقها من طرف سويزي في النزاع الجدلي القديم. وقد طرحت الأطروحة الجديدة بشكل جدلي من قبل أ. غندر فرانك (A. Gunder Frank) (الرأسمالية والتخلّف في أميركا اللاتينية *Capitalism and Underdevelopment in Latin America*, (1967، ولاحقاً في شكل أكثر إتقاناً وموثقاً تاريخياً من قبل إيمانويل والرشتاين[5] (Im-manuel Wallerstein) الذي بدأ حياته الأكاديمية كعالم سياسي متخصص في أفريقيا المعاصرة ثم انتقل إلى التاريخ بدءاً من تلك النقطة الابتدائية.

هناك ثلاث قضايا رئيسية شكلت جوهر ذلك التأويل. **الأولى** هي أن الرأسمالية يمكن معادلتها بعلاقات السوق على المستوى الدولي، ونشوء وتطور «نظام عالمي» يتألف من سوق عالمي فيه يفرض عدد من أهم الأقطار المتطورة سيطرته على الأقطار المحيطة ويستغلها. القضية **الثانية** أفادت أن تأسيس «السوق العالمي» الذي يمكن إرجاعه إلى الحقبة الأولى للفتوحات الاستعمارية في القرن السادس عشر خلق عالماً رأسمالياً، بمعنى جوهري يجب تحليله بمفردات الاقتصاد الرأسمالي. أما القضية **الثالثة**

فتمثلت في القول، إن تطور الأقطار الرأسمالية الأهم وذات الحواضر يتم عبر السيطرة على البقية واستغلالها، أنتج «التطور» التقدمي لها و «التخلّف» المتنامي «للعالم الثالث»، أي توسيع الشقّة، التي لا يمكن ردمها في ظل الرأسمالية بين قطاعي العالم.

لقد انتعش الاهتمام بتلك القضايا التاريخية بشكل لافت، في سبعينات القرن العشرين. وهو، في أصوله، كان انعكاساً للنزاعات السياسية المحددة التي كانت على يسار تلك المنطقة من العالم، خاصة في أميركا اللاتينية في خمسينات وستينات القرن العشرين.

كان الموضوع الذي شقَّ اليسار في تلك القارة متمثِّلاً في طبيعة العدو المحلي الرئيسي للثوريين. وكان العدو الدولي واضحاً، وهو «الإمبريالية» وكانت تُرى بشكل رئيسي متمثِّلة في الولايات المتحدة. غير أنه توجّب أن توجَّه النار الرئيسية في الوطن ضد مالكي الأراضي المسيطرين على بقاع واسعة متخلِّفة، والاقتصاديات الزراعية المختصة بالتصدير إلى السوق العالمي مقابل استيراد سلع مصنوعة من العالم الصناعي، أو ضد البورجوازية المحلية، فالمجموعات البورجوازية المحلية المهتمة بالتصنيع (عبر استيراد بديل مدعوم بتأييد الدولة) والأحزاب الشيوعية الأرثوذكسية فضلتا وجهة النظر المفيدة أن مهمة الأميركيين اللاتينيين الرئيسية هي تدمير المصالح الزراعية و«التمويل اللاتيني» (Latin-Fundism) (الذي غالباً ما كان يشبه، وبطريقة غير متشدِّدة، «بالإقطاع» أو بآثاره). وبالنسبة للبورجوازية «القومية» – في قارة مليئة بمفكرين ماركسيين، كان هناك رجال أعمال قبلوا تلك التسمية – عنى ذلك إزاحة العقبة السياسية الرئيسية للتصنيع، مع العقبة الاقتصادية الرئيسية في وجه تشكيل أسواق قومية واسعة لأصحاب المعامل القوميين، واستبعاد الجماهير الفلاحية المهمَّشة عن الاقتصاد الحديث. وعنى ذلك للشيوعيين الأرثوذكس خلق جبهة قومية مشتركة ضد إمبريالية الولايات المتحدة وحكم الأقلية المحلي، وهذا معناه أن الصراع لتحويل اشتراكي فوري في تلك الأقطار لم يكن مدرجاً في جدول الأعمال، وهو لم يكن مدرجاً فعلياً. كما أنه يعني أن الأحزاب الشيوعية سوف تحجم في معظم الحالات عن أشكال دراماتيكية من العصيان المسلَّح والنضال المسلَّح. ومقابل ذلك، كانت السياسة الشيوعية عند اليسار المتطرِّف بمنزلة الخيانة للصراع الطبقي. فقد رأوا أن أميركا اللاتينية لم تكن ذات اقتصاد إقطاعي، ولا مجموعة من اقتصاديات «ثنائية»، بل هي رأسمالية بشكل واضح. فالعدو الرئيسي هو البورجوازية، التي لم تكن مصالحها مضادة للإمبريالية الأميركية، بل كانت متطابقة معها تطابقاً أساسياً، وعملت كعميلة محلية

للرأسمال الاحتكاري الأميركي والدولي. علاوة على ذلك، كانت الشروط الموضوعية لثورة ناجحة موجودة، ولم يكن هدف الاشتراكية المباشر هو المعادل الجاري «للمرحلة الديمقراطية - البورجوازية». وقد اتخذت انشقاقات اليسار صورة دراماتيكية عبر الانشقاق المتزامن تقريباً بين الاتحاد السوفيتي والصين - والظاهر أن الصين في تلك المرحلة انصرفت لثورة الفلاحين التي ستكون نهايتها تطويق المدن واحتلالها - وعبر انتصار فيدل كاسترو (Fidel Castro) في كوبا.

ما تستحقه الحجج عند الطرفين لا يدخل في اهتمامنا هنا. فهي أسقطت السياسة الجارية على التاريخ السابق، فكانت مرتسمات له. فإذا كانت المستعمرات الإسبانية والبرتغالية دائماً جزءاً جوهرياً من الاقتصاد الرأسمالي منذ القرن السادس عشر، فإن تحول الأقطار «الإقطاعية» أو المتخلِّفة إلى مخروطات(*) (Cones) رأسمالية بورجوازية مزدهرة كان بصورة دائمة مسألة انحرافية. وإذا كانت «عقبات التطور»، التي حلِّلت بحماس في خمسينات وستينات القرن العشرين، لا تتألف ممن بقي من الإقطاعيين أو أمثالهم في الوطن، وإنما تألفت من الحقيقة البسيطة المفيدة أن اعتماد الأقطار المستعمرة أو المستعمرة حديثاً على المركز الجوهري الدولي للرأسمالية خلق تخلّفها وعزَّزه، فالنتيجة الحاصلة هي أن النزاعات بين الزراعيين والصناعيين ليست بذات أهمية، ولا تقدر على إنتاج شروط للتخلّص من التخلّفن الذي لا تستطيعه سوى الثورة والاشتراكية.

لا شك في أن طبيعة العلاقة بين العالم الصناعي وبقية العالم ليست مجرد مسألة تاريخية. فقد طرحت مسائل ونوقشت تحت العنوان العالم الذي هو «الإمبريالية»، لكن في سياق تاريخي جديد، كما طرحت مسألة كيفية تعريف قطاعين من العام، أو إعادة تعريفهما. وإن الاختفاء الأخير للمستعمرات الرسمية (أي المناطق التي كانت تحت الإدارة المباشرة لسلطة أجنبية، لذا كانت عاجزة عن اتخاذ قراراتها السياسية الخاصة كحكومات ذات سيادة) شكك بضرورة الربط بين الإمبريالية و«الاستعمار». وإن زوال الاستعمار السياسي، في حد ذاته، لم يغير العلاقات الاقتصادية بين المناطق المعنيّة والأقطار ذات الحواضر، مع أنه قد يؤثر في الوضع الخاص للقطر الذي سبق أن حكم المستعمرة. أما زوال الاستعمار في حد ذاته فلم يؤثر في التحليل الماركسي، ذلك لأن المناطق الموجودة التي كانت واقعياً أجزاء من اقتصاد إمبريالي بالرغم من كونها ذات

(*) المقصود بالمخروطات هنا، الأقطار في أميركا الجنوبية، تلك القارة التي شكلها يشبه المخروط ▽ المقلوب (المترجم).

سيادة لها دول مستقلة اسمياً وتبعت سلطة أجنبية، وهي من المعترف بها لمدة طويلة. ومن ناحية أخرى، إن الأسلوب المعتمد مثل تلك المفردات، مثل «العالم الثالث» دلّ على إعادة تصنيف جديدة شاملة.

لا يوجد سابقة ماركسية لمفهوم «العالم الثالث»، وبالرغم من أن الماركسيين مثل سواهم مالوا إلى توظيف ذلك المصطلح الغامض والملائم، فهو ليس بذي علاقة واضحة بأي تحليل ماركسي. ومع ذلك، لم يقاوم الماركسيون الإغراء باستعماله غالباً، لأنه يلائم النموذج المعدَّل للاستغلال الإمبريالي للعالم المستعمَر أو المستعمر حديثاً الذي استبقي فقيراً وغير صناعي جوهرياً عبر طبيعة عمليات الرأسمالية، ولأن مطامح الثورة الاجتماعية التي بدت نائية جداً في أقطار الرأسمالية المتطورة، ظهرت بأنها لا تبقى إلاّ في آسيا، وأفريقيا وأميركا اللاتينية. وإلى هذا الحدّ، كان الفرق بين العالمين «الثاني» و «الثالث» فرقاً متمثلاً في التسلسل الزمني. فاختتمت الثورة الصينية مرحلةً من التقدم الاشتراكي زاد عدد الدول ذات القيادة الماركسية من واحدة [وربما من اثنتين، إذا حسبت مونغوليا (Mongolia)] إلى إحدى عشرة دولة. والذي حدث هو أن العديد من تلك الدول في البداية على الأقل، كان يتمتع بخصائص أقطار «العالم الثالث» [مثلاً، ألبانيا (Albania) والكثير من يوغسلافيا]. أما الإضافات اللاحقة إلى عدد تلك الدول، فقد كانت من خارج أوروبا، نعني: فيتنام (1954 - 1975)، وكوبا (1959)، والمستعمرات البرتغالية في أفريقيا، وإثيوبيا، وصوماليا، واليمن الجنوبي، وكامبوتشيا، ونيكاراغوا (Nicaragua) في ستينات وسبعينات القرن العشرين. زدْ على ذلك الدول التي أعلنت عن نفسها في حالات عديدة بصورة غير قابلة للتصديق أو بشكل مؤقت أنها اشتراكية أو تستهدف الاشتراكية من دون أن يكون لها بالضرورة قيادة ماركسية أو تقبل قيادة ماركسية، وكل تلك الدول موجودة في منطقة «العالم الثالث». وقد استمرت جميع تلك الدول سواء أكانت ماركسية أم لم تكن في مواجهة مسائل الفقر والتخلّف، وكذلك (حيث هي ماركسية) العداوة الفعّالة للولايات المتحدة الأميركية والدول المصطفة معها. فمن هذه الناحية، بدت الفروق بين الأنظمة السياسية ومطامح أقطار العالم الثالث لا أهمية لها نسبة للموقف المشترك التي وجدت فيه نفسها جميعها.

والواقع إنه في مجرى ستينات وسبعينات القرن العشرين، صار مفهوم عالم ثالث واحد، شامل و«متخلِّف» غير قابل للتصديق بشكل متزايد، وصار مهجوراً بمقدار كبير. ومع ذلك نقول إنه في غضون فترة «العالمية الثالثة»، تأثر الفكر الماركسي كثيراً بها. ولمّا لم تعتمد الحركات في ذلك العالم على الطبقة العاملة - التي لا تكاد توجد في

كثير من تلك الدول - فقد حوّل الماركسيون انتباههم إلى الإمكانيات الثورية، وبالتالي إلى تحليل الطبقات الأخرى خاصة الفلاحين العاملين في الأرض. فخصص مقدار كبير من النظرية الماركسية والنظرية غير الماركسية للمسائل الزراعية والفلاحية، منذ أوائل ستينات القرن العشرين. وقد حفز الأدب الماركسي في ذلك الميدان أيضاً تأملات في خبرة الأقطار الاشتراكية، وإعادة اكتشاف المنظر الروسي نارودْنِك وتشايانوف (Chayanov) وكان ذلك الأدب واسعاً ولافتاً[6]. وقد تكون مصالح «العالم الثالث» أيضاً قد أسهمت في التطور البارز للأنثروبولوجيا الاجتماعية الماركسية خاصة في فرنسا [غودلير (Godelier)، وميلاسوكس (Meillassoux)] في تلك الفترة.

وأخيراً، إن الموجة الراديكالية في أواخر ستينات القرن العشرين أثَّرت في الماركسية بطريقتين رئيسيتين اثنتين. أولاهما، أنها ضاعفت عدد الذين أنتجوا وقرؤوا وابتاعوا كتابات ماركسية، بطريقة لافتة، وبالتالي زاد مقدار النقاش والنظرية الماركسيين. وثاني الطريقتين تمثلت في اتساع مقياسها - في بعض الأقطار على الأقل - وظهورها كان مفاجئاً وغير متوقَّع وطابعها غير مسبوق، فبدت أنها تتطلب إعادة تفكير عميقة في الكثير مما سلَّم به معظم الماركسيين لمدة طويلة. ومثل ثورة عام 1848، التي استدعى بعض نواحيها تفكير عقول ذات الميول التاريخية، وقد هبّت وسقطت بسرعة كبيرة. ومثل ثورة عام 1948 التي تركت خلفها أكثر مما يظهر للنظرة الأولى.

كانت الموجة الراديكالية فريدة من نواحٍ عدة. فقد بدأت كحركة مفكّية من الشباب والشابات، أو بصورة تحديدية من الطلاب والطالبات، الذين تكاثرت أعدادهم بمقدار كبير في سياق ستينات القرن العشرين، في جميع أقطار المعمورة تقريباً، أو بشكل أعم أعداد أبناء وبنات أسر الطبقة المتوسطة. وفي بعض الأقطار، ظل العدد محصوراً في الطلاب أو في الذين سيصيرون طلاباً، لكن في أقطار أخرى، خاصةً في فرنسا وإيطاليا، وفرت الموجة الراديكالية الشرارة للحركات الصناعية لطبقة العمال، وبمقياس لم تمكن مشاهدته لسنين عديدة. فقد وجدت حركة دولية استثنائية رائعة تعدَّت الحدود بين الأقطار النامية والتابعة، وبين المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية: فعام 1968 هو عام تاريخي في تاريخ يوغسلافيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، وكذلك المكسيك وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية. وقد اجتذبت الانتباه بشكل رئيسي، لأنها اندفعت في أقطار شكلت جزءاً من قلب المجتمع الرأسمالي المتطور، وفي أوج ازدهاره الاقتصادي. وأخيراً كان وقعها على النظام السياسي ومؤسساته في عدد من الأقطار التي حدثت فيها، مهما كانت مدتها قصيرة، وقعاً دراماتيكياً متفاوتاً.

بالنسبة إلى الماركسية نقول، لقد أنتجت «يساراً جديداً» تطلّع إلى ما هو أبعد من حدود الماركسية التقليدية، مهما كانت رغبته في ربط نفسه باسم ماركس أو بأي شخصية أخرى في البانثيون(*) (Pantheon) الماركسي. لذا نشاهد ولادة جديدة للميول الفوضوية، كظاهرة وعي ذاتي، أو متنكرة بملصقةٍ ماركسية واضحة (مثلاً، مقدار كبير من «الماركسية الغريبة»)، أو على شكل انشقاق ثقافي لا سياسي، أو مضاد للسياسة.

كما صرنا نلاحظ ظهور مجموعات سياسية لا تخفي حماستها وإعلانها عن علاقتها بماركس وقد اتبعت استراتيجيات وسياسات كان الثوريون الماركسيون قد رفضوها تقليدياً، ولم يثقوا بها. «فأجزاء الجيش الأحمر» (Red Army Fractions) أو «الألوية الحمراء» (Red Brigader) عبارتان تلائمان نموذج الإرهاب النارودنيكي الروسي، ولا تلائم لينين، في حين نجد أن حركات انفصال قومية في أوروبا الغربية، وغالباً ما يكون لها متحدٍ تاريخي في اليمين السياسي، أو في اليمين المتطرِّف، صارت تستعمل الآن مفردات الثورة الماركسية بإخلاص أحياناً. وكان أحد نتائج ذلك التطور انتعاش ملحوظ للنقاش الماركسي حول ما جرت العادة على تسميته «المسألة القومية» في سبعينات وثمانينات القرن العشرين.

يبرز عاملان مترابطان من بين العوامل البعيدة المدى والمؤثرة في تطور الماركسية، منذ خمسينات القرن العشرين، ألا وهما: تغيير في الأساس الاجتماعي للماركسية بوصفها أيديولوجيا سياسية، والتحولات في الرأسمالية العالمية.

فخلافاً لفترات الأمميتين الثانية والثالثة، حدث نموٌّ في الماركسية منذ خمسينات القرن العشرين، بشكل رئيسي، وأحياناً بشكل غالب في أوساط المفكرين الذين صاروا الآن يؤلفون طبقة اجتماعية مهمة وذات حجم متزايد. وقد عكس ذلك راديكالية أجزاء مهمة في تلك الطبقة، وأعضائها الشباب خاصة.

أما في السابق فقد كانت جذورها الاجتماعية بشكل رئيسي وغالباً بشكل كبير في حركات وأحزاب العمال اليدويين. ولا يعني ذلك أن الكثير من الكتب أو الكرّاسات المتعلقة بالنظرية الماركسية، كتبت، وربما قرئت من قبل العمال، بالرغم من أن المقاتلين العمّاليين ذوي الثقافة الذاتية [بريخت لسندر أربيتر] شكلوا قطاعاً مهما من الشعب لمثل

(*) عنت في اليونانية الهيكل المكرَّس لجميع الآلهة، واستعملها المؤلف، هنا، كاستعارة لتفيد عظماء الماركسيين (المترجم).

ذلك الأدب الماركسي، كما كان يدرس في دوائر النقاش، والصفوف التربوية، والمكتبات والمعاهد المرتبطة بالحركة العمالية. لذا، نجد في حقول الفحم في جنوب ويلز (South Wales) شبكة زاد عدد مكتباتها الخاصة بعمال المناجم على المئة، وقد ترعرت بين عام 1890 وثلاثينات القرن العشرين، ومنها اكتسب النشطاء النقابيون والسياسيون في تلك المنطقة – وكانوا راديكاليين بارزين منذ ما قبل عام 1914 – تكوّنهم الفكري[7]. وما يعنيه ذلك هو أن العمال المنظَّمين في تلك الحركات قبلوا، ورحبوا وتشرّبوا شكلاً من أشكال النظرية الماركسية («علم بروليتاري») كجزء من وعيهم السياسي، وأن الأكثرية العظمى من المفكرين الماركسيين، أو المفكرين المرتبطين بالحركة اعتبروا أنفسهم بصورة جوهرية، أنهم يخدمون الطبقة العمالية، وبشكل أعم حركة هدفها تحرير الإنسانية عبر ثورة البروليتاريا وانتصارها الذي لا مهرب منه من الوجهة التاريخية.

بدءاً من أوائل خمسينات القرن العشرين وما بعدها، صار واضحاً، في معظم أجزاء العالم حيث تأسست الأحزاب العمالية الاشتراكية على أساس واسع، أن تلك الأحزاب توقفت عن التقدّم، ومالت إلى خسران موقعها، سواء أكانت بصورة ديمقراطية اجتماعية أم بصورة شيوعية[8]. زدْ على ذلك، أن طبقة العمال اليدويين، في الأقطار الصناعية، التي كانت تشكل قلب الحركات العمالية، راحت تخسر موقعها نسبياً، وأحياناً كلياً للقطاعات الأخرى من الشعب المحتلّ. وبالإضافة إلى ذلك، ضَعُف تماسكها الداخلي وقوتها. وإن كلاً من التحسّن اللافت في مستوى عيش الطبقة العاملة، والتركيز الكبير للإعلان التجاري والصحافة على الرغبات (الحقيقية أو المستحثَّة) للمستهلك كفرد أو كأسرة، والخصخصة التي تبعت حياة الطبقة العاملة، أضعف بلا شك تماسك مجتمعات الطبقة العاملة التي كانت تؤلف عنصراً كبيراً في قوة الأحزاب والحركات البروليتارية الواسعة. وفي ذات الوقت، جرف نموّ التوظيف غير اليدوي وتوسّع التعليم الثانوي والعالي نسبة مئوية أعلى مما كانت من قبل من أبناء وبنات الطبقة العاملة ذات المهارات والأجور الأفضل ومن الكوادر البروليتارية الممكنة، والممكن صيرورتهم قادة للحركات العمالية، وكذلك العمال المحتمل أن يدرسوا ويقرؤوا. وكما ذكرت الدراسة التي شملت مكتبات عمال المناجم في جنوب ويلز أنه لم يبق سوى 34 مكتبة بحلول ستينات القرن العشرين، وخلافاً لما كان في ثلاثينات القرن العشرين لم تعد القراءة إحدى ممارسات الاستجمام الرئيسية في حقل الفحم»[9]. ولا يعني ذلك بالضرورة، أن الذين تركوا توقفوا عن الاعتقاد بقضية ذويهم أو أنهم لا يريدون أن يكونوا نشطاء سياسياً. غير أنهم لم يعودوا عمالاً يدويين.

لا يمكن لمثل تلك التطورات إلاّ أن تؤثر تأثيراً عميقاً في حركات طبقة العمال والماركسية، لأن كليهما قاما جوهرياً على أساس الاعتقاد المفيد أن الرأسمالية خلقت حفاري قبرها على صورة بروليتاريا (منظوراً إليها كطبقة من العمال الصناعيين اليدويين) متنامية عددياً، وفي الوعي الذاتي والقوة ممثلة في أحزابها أو حركاتها، ومصيرها التاريخي أن تصير اشتراكية (أي ثورية، بالرغم من تباين الرأي حول ما يعني ذلك)، وتصير كوسيلة لعملية تاريخية لا مفرّ منها تؤدي إلى الانتصار. ومع ذلك، فإن تطور الرأسمالية الغربية، منذ الحرب العالمية الثانية وتطور الحركات العمالية داخلها وضعا ذلك المنظور موضع الشك المتزايد.

فمن جهة، فقد العمال اليدويون تلك الثقة بالتاريخ التي أضفتها عليهم الحركات الاشتراكي (والتي وضعوها في تلك الحركات). وهناك رجل دولة بريطاني محافظ من القياديين خاطب عضواً في البرلمان عمالياً ديناميكياً من أصول طبقية عمالية، قائلاً له في ثلاثينات القرن العشرين: «طبقتك طبقة في انحدار: طبقتي هي طبقة المستقبل»[10]. وكان يصعب تصوّر مثل هذه المبادلة في ثلاثينات القرن العشرين. ومن جهة أخرى، بالرغم من أن الأحزاب الماركسية كانت على وعي لمدة طويلة بأن التنبؤات بالنصر التاريخي الحتمي للاشتراكية هي أبعد من أن تكون الدليل الكافي لاستراتيجية سياسية، كانت مع ذلك مربكة بعدم يقينيّة ما اعتبره الكثيرون من أعضائها وقادتها البوصلة التي بها يخططون مسارهم التاريخي. وقد قوى ارتباكهم بالتطورات التي حصلت في الاتحاد السوفيتي وفي أقطار اشتراكية أخرى، وصار يصعب عدم التسليم به أو رفضه منذ عام 1956. وصارت إعادة التفكير الجوهرية جداً بكثير مما سلَّم به الماركسيون، بدءاً من التحليل الأساسي لماركس و«للكلاسيكيات» الأخرى، إلى الاستراتيجية والتكتيك السياسيين الطويلي الأمد والقصيري الأمد، أمراً لا يمكن تجنّبه.

مثل إعادة التفكير تلك تزايدت صعوبتها داخل التقليد الرئيسي لماركسية ما بعد عام 1917، ذلك الذي ارتبط بالاتحاد السوفيتي والحركة الشيوعية الدولية، إلى أن بدأت تلك الأرثوذكسية العقيدية المتجمدة بالتفكك. لذا تميَّز التقليد الماركسي بالجمود والتحجّر الفكريين، وأعيقت اصطناعياً عملية تعديل التحليل الماركسي، لأن كلمتي «تعديل» (Revision) و«تعديلية» (Revisionism) أفادتا معنى التخلّي عن الماركسية أو خيانتها عند معظم الماركسيين منذ 1900، ويقيناً لدى الجميع الذين تمَّ تشكيلهم في الحركات الشيوعية[11]. لذا، عندما حصلت حركات تعديل التحليل الماركسي، كانت مفاجئة، وكانت المجابهة بين الماركسيتين القديمة والجديدة طبقاً لذلك، مجابهةً

دراماتيكية. فأمكن ملاحظة الطابع الجديد لرأسمالية مابعد الحرب مباشرة بعد الحرب. فغير الماركسيين، مثل غالبريث (Galbraith) والماركسيون السابقون، مثل ستراتشي وسكونفيلد (Schonfield) شرعوا بالقيام بذلك باكراً في خمسينات القرن العشرين. ومع ذلك، نرى أنه في حين أقرَّ الماركسيون الملتزمون والنقّاد المتعاطفون بأن الماركسية في ثلاثينات القرن العشرين «ما زالت تقدم شرحاً متسقاً وإن كان غير وافٍ للأزمة الاقتصادية العالمية والتحدّي الفاشي» [لختايم] أو أن «الكساد الاقتصادي الكبير في ثلاثينات القرن العشرين منطبق بشكل يبعث على الإعجاب بالنظرية الماركسية» [باران (Baran) وسويزي][12]، فقد أقرَّ كلاهما «بأنها لم تكن أنجح من الليبرالية في تشكيل نظرية لمجتمع مابعد - رأسمالي» (لتشتايم) أو «أسهمت بشكل مهم في فهم بعض الخصائص الرئيسية «لمجتمع الوفرة» (باران وسويزي)». واعتبر أفضل قسم من جيل كامل أن الماركسية أخفقت أو تردَّدت في مواجهة وقائع العالم الذي أرادوا تحويله.

وإن فجائية ظاهرة التجديد داخل الماركسية تعزَّزت بالراديكالية الواسعة لمفكرين من الشبّان والشابات في مجرى تعليمهم بشكل رئيسي، وكما كنا رأينا لقد غير ذلك بمقدار كبير القاعدة الاجتماعية المؤيدة للنظريات الماركسية. فالأحزاب والمنظمات الماركسية - الصغيرة بشكل رئيسي - كان أعضاؤها وقادتها أناساً حملوا شهادات جامعية[13]. وذلك كما يبيّن نشوء وتطور النقابات، ومع تناقض وزن العمال اليدويين المنظمين في الصناعة، فإن أعدادهم ووزنهم تزايد في أوساط الموظَّفين غير اليدويين، خاصة في القطاع الشعبي المتنامي في المهن والوظائف المنظمة في الشركات، وفي الصحافة، وفي ما يمكن تسميته وظائف ذات اهتمام مباشر بالمسؤولية الاجتماعية، كالتعليم، والصحة، والضمان الاجتماعي، وماشابه ذلك.

وفي مثل هذه الوظائف تزايد الاستخدام من عمال غير يدويين من رجال ونساء حصلوا على شكل من أشكال التعليم العالي. وعلاوةً على ذلك، لم يجلب تحوّل المفكرين من الشبّان والشابات إلى ثوريين راديكاليين نمواً واسعاً في رغبة الشعب في الأدب الماركسي، وبالحضور الماركسي الفكري فحسب، بل وفر أيضاً آلية لإعادة إنتاجهما.

لقد تخلَّلت العناصر الماركسية لغة الخطاب العام عند الطلاب، وعندما أصبح الرجال والنساء الظاهرون من الراديكالية الطلابية - التي كانت مستوطنة أحياناً كما في أميركا اللاتينية، وأحياناً شائعة كما في أقطار أوروبية عديدة في أواخر ستينات القرن العشرين - معلمين وموظفي اتصالات، اكتسبت الماركسية استقراراً ثابتاً في المؤسسات

المعنية بالتعليم والاتصالات. وذلك جعل نفوذها مستقراً. وباشر شبّان وشابات ستينات القرن العشرين بحياة عملية بدت طويلة للعديد منهم، كمدرسين وكتّاب (باستثناء ما حصل من تطهير سياسي منظم). ومع أن الكثير منهم كان يمكنه أن يعدِّل معتقدات شبابه أو يتخلّى عنها، فإنهم لم يتعرضوا للتقلّبات العنفية في الراديكالية الطلابية.

لم يكن ذلك التطور غير متوقَّع. فقبل أن يصبح مرئياً بشكل دراماتيكي، ذكر أحد أقدر الملاحظين المهتمين بالماركسية أنه في الأقطار «المتطورة» بدا أنه «تحول إلى نقد للمجتمع الحديث» وذلك «بقصد دعم رفض أهل الفكر للعالم الذي خلقته الصناعة الحديثة والتكنولوجيا العلمية، والخلفية الرئيسية لذلك النقاش وفرته الجامعات»[14]. أما الجديد فكان المقدار غير المتوقَّع من ارتداد المفكرين إلى الماركسية، وقد حصل بسبب التوسع الدراماتيكي في عدد مؤسسات التعليم العالي وطلابها في طول العالم وعرضه في ستينات القرن العشرين، وهو التوسع الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ.

كان لتثوير المفكرين (وهم في الغالب شبان وشابات) عددٌ من الخصائص انعكست وظهرت في الفكر الماركسي الذي أُنتج في ذلك الوسط وله. ففي المقام الأول، لم يكن منذ البداية تابعاً لسخط اقتصادي وأزمة. والواقع، أنه ظهر في أكثر الصور إلفاتاً في أواخر ستينات القرن العشرين، نعني في أوج حقبة «العجائب الاقتصادية»، التوسع والازدهار الرأسماليين، وفي زمن عندما كان فيه التعليم ومطامح الحياة العملية للطلاب ممتازة في معظم الأقطار. لذلك، لم تكن وجهته الرئيسية هي الاقتصاد، بل كانت اجتماعية أو ثقافية. وإذا كان هناك نظام معرفي أكاديمي مثَّل ذلك البحث عن نقدٍ للمجتمع ككل، فهو السوسيولوجيا، لذا فإن هذا الموضوع اجتذب الطلاب الراديكاليين بأعداد متفاوتة. وغالباً ما صار يطابق مع راديكالية «اليسار الجديد».

وفي المقام الثاني أقول، إنه بالرغم من الرابطة التقليدية بين الماركسية والطبقة العمالية (الفلاحية، في نسخها في «العالم الثالث»)، كان المفكرون الراديكاليون من الشبان والشابات منفصلين عن العمال والفلاحين، مهما ربطوا أنفسهم بهم نظرياً، وذلك بداعي نماذج حياتهم أو أصولهم الاجتماعية. ولو كانوا أولاداً للبورجوازية القائمة لكانوا سعوا في أفضل الأحوال إلى الذهاب إلى الشعب، مثل النارودنيكيين الأخيرين، أو ابتهجوا بالقليل من البروليتاريين، والفلاحين أو ذوي البشرة السوداء الذين التحقوا بمجموعاتهم. ولو كانوا أنفسهم قد جاؤوا من خلفية بروليتارية

فلاّحية، أو من خلفية طبقية وسطى دنيا، في أكثر الأحيان، فإن وضعهم وحياتهم العملية المستقبلية سيبعدانهم بصورة أوتوماتيكية عن بيئتهم الاجتماعية الأصلية. فهم لم يعودوا عمالاً أو فلاحين، أو لم يعد ينظر إليهم كذلك، من قبل ذويهم وجيرانهم. زدْ على ذلك، مَيلُ وجهات نظرهم السياسية لتكون راديكالية أكثر من وجهات نظر معظم العمال، حتى عندما كان ينخرط كلاهما، وفي ذات الوقت في عمل قتالي (كما حدث في فرنسا، في أيار/ مايو 1968). لذا، مال «اليسار الجديد» الفكري أحياناً إلى استبعاد العمال كطبقة بوصفها لم تعد ثورية، لأنها اندمجت في الرأسمالية - وقد تكون صارت «رجعية» - والشاهد الكلاسيكي على هذا التحليل كان كتاب هيربرت ماركوز: **الإنسان ذو البعد الواحد** (*One Dimensional Man*) (لندن، 1964). أو مالوا، وهذا على الأقل، إلى استبعاد الحركات والأحزاب العمالية الجمهورية الموجودة، سواء أكانت ديمقراطية اجتماعية أم شيوعية، بوصفهم خونة بروتستانتيين[*] (Reformed) للمطامح الاشتراكية. ومقابل ذلك، نجد أنه في جميع أقطار الرأسمالية المتطورة، وحتى خارجها بمقدار ما، لم يكن الطلاب المتحركون محبوبين عند الجماهير، وذلك على الأقل لأنهم كانوا يعتبرون أولاداً ذوي امتيازات للطبقات المتوسطة، أو كطبقة حاكمة ذات امتيازات ممكنة. لذا، فإن النظرية الماركسية في وسط «اليسار الجديد» نشأت في عزلة ما، وروابطها بالممارسة الماركسية كانت تؤلف إشكالية غير اعتيادية.

وفي المقام الثالث، مال ذلك الوسط إلى إنتاج تفكير ماركسي هو أكاديمي بمعنيين هما: أنه كان موجَّهاً بصورة رئيسية إلى جمهور طلابي ماضٍ وحاضر ومستقبلي، ومعبَّراً عنه بلغة مقصورة على فئة قليلة نسبياً، ليست متاحة بسهولة لمن ليس بأكاديمي، ولأنه بحسب قول لتشثايم من جديد «ركَّز على عناصر النظام الماركسي البعيدة عن العمل السياسي»[15]. فقد أظهر تفضيلاً ملحوظاً للنظرية المجردة، خاصة لأكثر فرع من فروع الفلسفة عموميةً وتجريداً. فكانت مراجع المطبوعات الماركسية المنشورة والمتزايدة بعد عام 1960، والنقاشات القومية والدولية بين الماركسيين التي اجتذبت الانتباه الأكبر عند المفكرين الراديكاليين هي تلك التي لها علاقة بالفلاسفة: لوكاش ومدرسة فرانكفورت، وأتباع غرامشي وديلّا فولب (Della Volpe)، وسارتر، وألتوسير

(*) في رأينا، استخدم المؤلف مفردة "Reformed" كاستعارة أو تشبيه ليدل على الخيانة، وليس إلّا، كما كان خصوم البروتستانتيين من الكاثوليك يصفونهم بالخونة، قاصدين خونة المذهب الكاثوليكي الفاتيكاني. لذا، لم يقصد المؤلف الإساءة الدينية إطلاقاً (المترجم).

وأتباعهم المختلفون، والنقّاد والمعارضون. ولم يكن ذلك بمفاجئ في أقطار لا مهرب فيها لمن ينهي دراسته الثانوية من الحصول على بعض التكوين الفلسفي، مثلاً في ألمانيا، وفرنسا أو إيطاليا، لكن تذوق مثل تلك النقاشات الفلسفية صار ملحوظاً جداً حيث لم تكن الفلسفة جزءاً من التعليم العالي الإنساني العام، كما في الأقطار الأنجلوساكسونية.

لقد مالت الفلسفة إلى انتهاك الأنظمة المعرفية الأخرى، كما حصل عندما اعتبر أتباع ألتوسير كتاب ماركس: **رأس المال** كأنه كتاب في الإبستيمولوجيا(*) (Epistemology). وكما استبدلت كلمة ممارسة بشكلها المختصر (وفي نفس الدوائر) بما وصف بأنه «ممارسة نظرية». وتراجع بحث وتحليل العالم الواقعي وراء البحث العام عن بناه وآليّاته، ووراء البحث العام عن كيفية فهمه. فمال المنظِّرون إلى الانزلاق من النظر في المسائل الواقعية ومطامح المجتمعات الواقعية إلى جدل حول الترابط العام لأنماط الإنتاج[16] (Mode of Production) وقد دافع نيقوس بولانتزاس (Nicos Poulantzas) في كتاباته الأخيرة عن نفسه ضد النقد الذي وجه إليه والمفيد أنه لم يقم بتحليلات مادية واقعية، ولم يشرْ كثيراً إلى «وقائع مادية حسية وتاريخية» بقوله، إن مثل ذلك النقد هو علامة من علامات المذهب التجريبي الحسي والمذهب الوضعي المتجدد، مع أنه سلَّم بأن كتابته عانت من «مذهب تنظيري معين»[17]. ولا شك في أن ظواهر التطرّف الخاصة بمثل ذلك التجريد النظرية ارتبطت بنفوذ الفيلسوف الفرنسي القدير جداً لويس ألتوسير، حيث كان التجريد النظري في ذروته. وكان مقدار ذلك الزيّ الدولي الرائج هو الذي ميّز حقبة 1965 – 1975 – غير أن الجاذبية العامة للتنظير المحض كان ملحوظاً. وقد حيَّر عدداً من الماركسيين القدامي وأربكهم، ولم يقتصر الأمر على الموجودين منهم في أقطار المذهب التجريبي الحسي فقط[18].

مثل أولئك الماركسيين لم يستبعدوا التركيز على النظرية التجريدية، خاصة عندما تتعارك مع ما كان ماركس نفسه قد كرَّس لها طاقاته كما في نظرية الاقتصادية. وبمعزلٍ عن اهتمام تلك الكتابات الفكرية في حد ذاتها، والمزايا الفكرية عند أولئك الذين بحثوا في تلك الأمور، كانت إعادة التفكير بأسس النظرية الماركسية عنصراً جوهرياً في البحث النقدي الضروري في كتابات ماركس نفسه، وفي الماركسية بوصفها جملةً من الفكر المتَّسق والمتماسك منطقياً. ومع ذلك، فإن المسافة بين مثل ذلك التنظير ومعظم كتابات ماركس نفسه بدت في معظم الأحيان شبيهة بالعلاقة بين فلاسفة العلوم

(*) تعني نظرية المعرفة، وهي فرع من فروع الفلسفة (المترجم).

والعلماء العاملين. وغالباً ما أعجب هؤلاء العلماء بأولئك الفلاسفة الذين لم يكونوا عوناً لهم في معظم الأحيان في أبحاثهم الفعلية، خاصة عندما تبرهن فلسفة العلم أنهم لم يبرهنوا بصورة مقنعة على ما صرفوا حياتهم محاولين البرهان عليه.

على كل حال، كانت نتائج التثوير في أوساط المفكرين أكثر من مجرد نظرية، لأنهم لم يعودوا يُعتبرون أو لم يعودوا يعتبرون أنفسهم أفراداً تجاوزوا الخطوط الطبقية للالتحاق بالعمال، ولأن الفجوة كما سبق أن رأينا بين المفكرين والعمال اتسعت مع اتساع الطبقية الاجتماعية. وفي الحالات المتطرفة القصوى (كما حصل في الولايات المتحدة الأميركية)، وفّر فريق النشاطات المضادة للحرب خلال حرب فيتنام، بينما وفر الفريق الآخر المتظاهرين المؤيدين للحرب. وحتى عندما وقف كلاهما في اليسار كانت مصالحهما السياسية متباينة. وهكذا، كان من السهل إثارة اهتمام عاطفي بالمسائل البيئيّة والإيكولوجية(*) (Ecological) في اليسار الفكري وليس في المنظمات البروليتارية. والجمع بين الفريقين كان قوياً من الوجهة السياسية - حيث لا يزال يحصل: برعاية الجناح اليساري في البرازيل، ورعاية المضادّين للشيوعية في بولندا، وحصل كلاهما في ثمانينات القرن العشرين. فالفجوة بينهما أو الافتقار للتنسيق بينهما، سواء أكان ثابتاً أم لم يكن، كان يؤثر في المطامح العملية الرامية إلى تحويل المجتمع عبر فعل الحركات الماركسية. وفي ذات الوقت نقول، إن التجربة أفادت أن الحركات السياسية القائمة على المفكرين بشكل رئيسي، لا تنتج أحزاب جماهير واسعة، مثل الأحزاب الاشتراكية أو الشيوعية التقليدية المؤلفة من العمال، التي كانت تجمعها روابط صلبة من الوعي الطبقي والولاء الطبقي، أو نقول، أيَّ أحزاب جمهورية. وكان من المحتمل أن يؤثر ذلك في الإمكانيات السياسية ومطامح الجماعات القائمة على مثل ذلك الأساس، وعلى مطامح النظريات الماركسية التي بسطوها.

ومن جهة أخرى، إن البروز المتنامي للمفكرين ظهر على المشهد الماركسي، خاصة عندما سهل الشبان والشابات أو الأكاديميون أو كلاهما الاتصالات السريعة جداً فيما بينهم، وعبر الحدود القومية أيضاً. فأعضاء هذه الطبقة كانوا ذوي حركة استثنائية، وكانوا استثنائياً قد ألفوا الاتصالات السريعة. زدْ على ذلك، أن روابطهم وشبكاتهم ذات مناعة غير مألوفة ضد الانقطاع والتمزق، إلاّ عبر عمل منظم وقاسٍ تقوم به الدولة. وسرعة انتشار الحركات الطلابية وانتقالها من جامعة إلى جامعة تشرح ذلك.

(*) إيكولوجيا (Ecology) هو فرع من علم الأحياء يدرس العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها (المترجم).

لذا، فإن الطور الجديد يسَّر عملياً ونظرياً قومية فعّالة وغير رسمية، في الوقت الذي توقفت عن الوجود الفعلي الدولية المنظمة للحركات الماركسية لأول مرة منذ عام 1889. والواقع هو أن الذي ظهر كان عبارة عن ثقافة ماركسية عالمية متنازعة. ولا ريب في أن النماذج القومية والإقليمية بقيت، وهناك مؤلفون ماركسيون غير معروفين خارج منطقتهم المحلية. ومن ناحية أخرى هناك أقطار قليلة فيها مفكرون ماركسيون، وبينهم أسماء معينة ليست بمألوفة عند جميع المهتمين بمثل هذه الأمور، سواء كتبوا باللغة الإنجليزية أم الفرنسية أو بأي لغة أخرى من لغات العالم المفهومة أو المترجمة. وكانت العقبات الرئيسية للالتحاق بالعالم الدولي، عالم الخطاب الماركسي، لغوية (مثلاً بالنسبة لكتابات مكتوبة باللغة اليابانية) أو اقتصادية (بالنسبة للطبقة الفقيرة من المفكرين الهنود، والعاجزين عن دفع أثمان كتب من دون معونة مالية – أو لافتقار للعملة الاجنبية – لها علاقة باستيراد ما يزيد عن مجرد نسخ قليلة من المنشورات الأجنبية). ومع ذلك نقول، إن مقارنة ذلك بأي حقبة سابقة، في تاريخ الماركسية، فإن هذا العالم هو من الوجهة الجغرافية أوسع، كما أن عدد «المنظرين» أو الكتاب الماركسيين الآخرين الذين تناقشوا فيه أكبر – أكثر تغايراً – مما كان قبله.

وأخيراً نسأل: كيف لنا أن نلخِّص الاتجاهات والتطورات داخل الماركسية، كما وجدت في مئوية وفاة ماركس في عام 1993؟

في المقام الأول نقول، إن الماركسية فقدت الإسمنت الذي كان السائد أو الرابط للأرثوذكسية الدولية مثل ذلك الذي مارسه فعلياً الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني قبل عام 1914، والشيوعية السوفيتية في فترة هيمنتها على الماركسية العالمية. فصار يصعب اعتبار التأويلات المتغايرة غير ماركسية، ومقابل ذلك نجد أن الأحزاب والحركات المستهدفة إحداث تغيير عنفي ومتطرف راحت تميل الآن لتثبيت شارة ماركس على ستراتها الأيديولوجية. والآن، يوجد أرثوذكسيات ماركسية متنافسة ومتضاربة، مثل الموجودة في الكتلة السوفيتية والصين. وقد بلغ الجدل بين التأويلات الماركسية، داخل الأحزاب الماركسية حداً لم يعد عنده في بعض الأحزاب الشيوعية ويمكن القول إن تأويلاً واحداً للماركسية هو السائد. وقد أنتج ذلك أيضاً اتجاهات أو طوائف متنافسة داخل تلك الأحزاب، وتعدديّة في المجموعات والمنظمات إلى يسار الأحزاب الشيوعية القديمة، بشكل رئيسي، كل واحدة منها تقاتل تلك ويقاتل بعضها البعض الآخر باسم الماركسية، وحيثما كانت منقسمة كانت قابلةً لتوليد انشقاقات أيديولوجية إضافية مسوغة.

وصارت الماركسية الآن ممتزجةً مع أيديولوجيات أخرى - كاثوليكية أو إسلامية، وغالباً ما تكون قومية - في حين ظل الآخرون قانعين باللجوء إلى ماركس أو إلى ماركسي آخر (مثلاً ماو)، وذلك باسم أي أيديولوجيا اعتنقوها. وإن تركيب السكان الماركسيين الاجتماعي المتغيّر عزَّز الميل نحو التعددية، لكنه أيضاً (وعبر زبائن الماركسية الفكريين) مال إلى توسيع الماركسية لتتعدى الميدان السياسي الصارم إلى المنطقة العامة الأكاديمية والثقافية.

لا بدّ من تمييز التعددية الجديدة عن التساهل في الاختلاف في الفترة السابقة لعام 1914. فتعديليّة بيرنشتاين أجيزت داخل الحزب الألماني الاشتراكي، لكنها في نفس الوقت رفضت كنظرية من قبل الحزب ومن مجموع الماركسيين، بوصفها غير مرغوبة وليست أرثوذكسية. وفي حين وجدت بعض النظريات التي وضعها ماركسيون وأثارت شك الآخرين وعداءهم، لا يوجد الآن إجماع معترف به قومياً أو دولياً حول ما يؤلف تأويلاً مشروعاً، وحول ما توقف عن أن يكون «ماركسياً». وهذه الظاهرة ملحوظة بشكل كبير في ميادين الفلسفة والتاريخ والاقتصاد.

كانت إحدى نتائج تلك التعددية الماركسية السيئة التعريف، وغياب تأويل مرجعي، العودة إلى ظهور «المنظر» داخل الماركسية[19]. على كل حال، لم يعد «المنظِّر» (Theorist) كما كان في الحقبة السابقة لعالم ذي علاقة وثيقة بمنظمة سياسية محددة أو بسياسة، فضلاً عن أنه لم يكن يشغل وظيفة سياسية مهمة، حتى لو كانت أحياناً غير رسمية، مثلما فعل كوتسكي في زمانه. لقد ولّى زمان المطابقة الأوتوماتيكية بين قادة الحزب والمنظرين مع الستالينية خارج بعض الدول الاشتراكية، حيث ولدت بعض الانحرافات الغريبة (مثلاً كوريا الشمالية)، بالرغم من أننا نجد في الحركات الصغيرة التي قادها مفكرون بقاء القادة منظرين أحياناً. وحتى عندما كانت للأسماء شهرة ونفوذ في النقاش الماركسي الدولي، وحولها تحلّقت «مدارس»، وكان أصحابها معروفين كأعضاء في حزب [مثلًا لويس ألتوسير كعضو في الحزب الشيوعي الفرنسي]، فهم لم يكونوا يعتبرون «ممثلين» للحزب. وباختصار نقول، كانوا مؤثرين كأشخاص خاصين وغير مرتبطين كتبوا مقالات وكتباً. مثل ذلك كان وضع الشخصيات، في أوقات مختلفة، ولفترات وأغراض مختلفة، منذ خمسينات القرن العشرين، مثل شخصية ألتوسير، وماركوز، وسارتر، وسويزي وبارون، وكوليتي (Colletti)، وهابرماس، وأ. غندر فرانك - على سبيل ذكر عدد قليل ممن دار حولهم الجدل الماركسي. وما يميز تعددية تلك الحقبة أنها لم تقتصر على طبيعة ماركسياتهم، وإنما كون علاقتهم الفعلية

بالماركسية كانت غير واضحة أحياناً. وبما أن الطباعة ظلّت حيّة ونشطة، فلم يعد يهمّ أن يكون المؤلفون أحياء، إلا من حيث إنهم لم يعودوا قادرين على التعليق على تأويلات أعمالهم.

وقد أحيا تفكك الأرثوذكسية عدداً كبيراً من الشخصيات الماركسية البارزة في الماضي وأعاد ذكرها في المنطقة العامة للنقاش الماركسي، وصارت حاضرة من جديد لإعجاب الأتباع ووحيهم، مثل: لوكاش وبنجامين، وكورش وأوتو بوير، وغرامشي وماريا يتجوي، وبوخارين ولوكسمبورغ.

وفي المقام الثاني نقول، كما قلنا سابقاً، إن الخط الفاصل بين ما هو ماركسي وما ليس بماركسي تزايدت ضبابيته. وهذا متوقَّع لأن الكثير مما قُبل إلى الآن على أنه جوهري لفكر ماركس وللماركسية اللاحقة، استدعى إعادة نظر جدية. وكان أيضاً ناتجاً إضافياً للنمو السريع لجمهور من المفكرين بالماركسية ولتغلغل الماركسية في المجرى الرئيسي للتعليم والنقاش الأكاديميين اللذين حدثا بصورة جوهرية بعد عام 1956. وقد ذكر بحث عام (غير ماركسي) شمل التاريخ الأوروبي في عام 1978، أنه «في العقود الحديثة، نجح المؤرخون الماركسيون في الدخول إلى النقابة المهنية» – حتى إن فهرس ذلك البحث احتوى على مداخل لماركس أكثر مما هو لأي اسم آخر باستثناء ليوبولد فون رانكه (Leopold von Ranke) وماكس فيبر[20]، وكان أكثر كتاب مدرسي اقتصادي مؤثر حصل إقراره في سبعينات القرن العشرين، قد اشتمل على قسم خاص عن الاقتصاد الماركسي[21]. وفي فرنسا، وعلى فكر شمل آخرين – دو سوسّور (de Saussure)، وليفي ستراوس، ولاكان (Lacan)، وميرلو – بونتي (Merleau-Ponty)، أو كل من كان مؤثراً في الصفوف العليا في المدارس (Lycées) الفرنسية أو نوقش في محيط (Arrondissements) باريس الخامس والسادس. وقد يرغب مفكرون ماركسيون ترعرعوا في مثل تلك الثقافة واكتسبوا ماركسيتهم منها في أن يترجموا الماركسية إلى كل لغة نظرية سائدة، وذلك لجعلها مفهومة من القراء غير المعتادين على المفردات الماركسية، وللبرهان للنقّاد أن الماركسية لديها ماتقول حتى بمفردات نظرياتهم ذاتها ومن النوع الصائب. والناتج النموذجي لمثل تلك الحقبة تمثل في إعادة صياغة ج. إ. كوهن (G. A. Cohen) للمفهوم المادي للتاريخ بمفردات وبتطبيق «معايير الوضوح والدقّة تلك التي تميّز فلسفة القرن العشرين التحليلية»[22]. أو يمكنهم ببساطة، أن ينتجوا تآليف من الماركسية والنظريات المؤثرة الأخرى كالبنيوية، والوجودية والتحليل النفسي، أو ما شابه.

غالباً ما كان الماركسيون الجدد ينجذبون إلى ماركس في وقتٍ سبق لهم فيه أن اكتسبوا معرفةً أو أوضاع نظرية من نوع آخر في المدرسة أو الجامعة، مما لوَّن ماركسيتهم اللاحقة. وهكذا نقول، إنه ليس بالأمر المخزي لألتوسير الذي صار شيوعياً كشاب راشد بعد الحرب (1948)، أن يعلن أن خلفيته الفكرية كانت أبعد ما يكون عن الماركسية، وأنه كان على معرفة بكتابات سبينوزا (Spinoza) أفضل من معرفته بكتابات ماركس عندما بدأ يكتب عن ماركس. ولو كان الماركسيون الجدد شباناً وشابات لجلسوا الآن عند أقدام معلمين كانوا أنفسهم قد جمعوا ما بين عناصر من الماركسية قد يكونون قد اكتسبوها في طور شبابهم عندما كانوا ثوريين وتأثيرات وتطورات فكرية أخرى. ولم يكن ذلك جديداً من الوجهة المبدئية. فقد حاول الماركسيون من ذوي التعليم العالي في الماضي أن يردموا الفجوات التي أكدت الأرثوذكسية عليها عمداً بين الماركسية والثقافة الجامعية. تلك كانت الحالة بوضوح في أوساط الماركسيين النمساويين وفي مدرسة فرانكفورت. أما الجديد فكان في التثوير الواسع للمفكرين ذوي التعليم الأكاديمي في زمن أزمة وارتياب لدى المعاقل الماركسية المؤسسة والانفصالية.

وفي ذات الوقت، اضطر الماركسيون بشكل متزايد إلى النظر خارج الماركسية، وذلك لأن الانعزال الذاتي والتقييد الذاتي للفكر الماركسي الذي مثَّل تلك الصفة المميزة واللافتة في مرحلة التطور الشيوعي (في وسط الأرثوذكسيين ووسط هراطقة مثل التروتسكيين) خلقاً لمساحات واسعة حول أيّ من الماركسيين كان تفكيره قليلاً جداً، وغير الماركسيين كان تفكيره واسعاً. والاقتصاد الماركسي مثلٌ مفيد في ذلك. فحالما صارت الحكومات الماركسية التي أدارت الاقتصاد المخطَّط مركزياً واعية بنواقص وعيوب تخطيطها وإدارتها، صار يستحيل استبعاد الاقتصاد البورجوازي الأكاديمي بسذاجة، بوصفه مجرد شكل من أشكال التسويغات الدفاعية، ومقابل ذلك لم يعد بمقدور الاقتصاد الماركسي أن يحصر نفسه في تكرار بيانات معدّلة لأرثوذكسيات «الاقتصاد السياسي» المصمَّم رئيسياً للبرهان على أن الرأسمالية عاجزة عن حلّ مشاكلها، ولم تغيّر طابعها «جوهرياً» وحصرها ملاحظاتها في الاقتصاد الاشتراكي في تعميمات لا معنى لها[23]. ومهما كانت الأرثوذكسية النظرية فعلى الاقتصاديين في الممارسة، وفي المجتمعات الاشتراكية (حتى لو لم يكونوا اقتصاديين رسمياً) أن ينظروا في العمليات، والبحث، ووضع البرامج، وبعملهم هذا يلتقون مع كتابات الاقتصاديين في المجتمعات الرأسمالية ويستفيدون منها، بما في ذلك الكتابات عن اقتصاد الاشتراكية[24]. فليس يهمّ أن يمكن تتبّع بعض التطورات المهمة في الاقتصاد

وإرجاعها إلى ماركسية أوروبية شرقية أو سواها في محاولة لحلّ المسائل الجديدة في الاقتصاد السوفيتي في عشرينات القرن العشرين، وبالتالي يمكن أن نضفي عليها أصلاً ماركسياً، حتى لو كانت مستبعدة، ولمدة طويلة من الشريعة الماركسية الرسمية.

وهكذا فإن الماركسيين الذين لم يتعاملوا مع نظريتهم وكأنها ببساطة مجرد أيديولوجيا تشرعن زعمهم الحصري باشتمالهم على الصواب وخطأ جميع الآخرين («المعادين للماركسية»)، لم يعودوا يطيقون أن لا يعرفوا ما يفعل غير الماركسيين في ميادينهم. والواقع هو أن الجيل الجديد من المفكرين الماركسيين ذوي التكوين الأكاديمي لا يستطيعون أن يتجنبوا معرفتهم. ومقابل ذلك نقول إن لغط الراديكاليين من الطلاب أدّى أيضاً إلى إدخال مواد خاصة في الماركسية في الجامعات، مثل اقتصاد ماركس، حيث الجهل بهذه الأمور كان عميقاً في معظم الأحيان. فصارت عامة في العالم الناطق باللغة الإنجليزية في سبعينات القرن العشرين. ومهما يكن من أمر فإنه حتى من دون مثل ذلك الضغط فإن تغلغل النفوذ الماركسي في المؤسسات الأكاديمية وفروع المعرفة الأكاديمية تزايد بشكل بارز وجدير بالذكر، وحدث ذلك جزئياً لأن المفكرين الماركسيين من الجيل القديم تقدّموا في حياتهم العملية، بينما الشبّان والشابات في ستينات القرن العشرين أدخلوها غير أن السبب الأكبر تمثَّل في أن إسهامات الماركسية في ميادين كثيرة توحدت حتى من قبل الذين لم يكونوا يتعاطفون معها، وتلك كانت الحالة بشكل بارز في علم التاريخ وفي العلوم الاجتماعية. فلا مدارس الأنالز (Annal-es) الخاصة بالمؤرخين في فرنسا، ولا رئيسها فيرناند برودلْ (Fernand Braudel) أظهر أي تأثير ماركسي مهم في أيامهم الأولى. ومع ذلك، يوجد إشارات إلى ماركس في كتاب برودِل الأخير والمهم: **الرأسمالية والحياة المادية** (*Capitalism and Material Life*) أكثر من أي كاتب آخر، سواء أكان فرنسياً أم أجنبياً. فهذا المؤرخ لم يكن ماركسياً، لكن كِتاباً رئيسياً حول هذا الموضوع لا يمكن إلاّ أن يشير إلى ماركس. فاستناداً إلى ذلك التلاقي، وجدت ميادين بحث واسعة حرث فيها ماركسيون وغير ماركسيين بالطريقة ذاتها، فصار يصعب البتّ فيما إذا كان كِتابٌ ماركسياً أو ليس بماركسي، إلاّ إذا أعلن ذلك المؤلف أو نفاه، ودافع عن الماركسية أو هاجمها. وقد صعَّب الاستعداد المتنامي لدى الماركسيين للتخلّي عن التأويلات القديمة الملتزمة بالشريعة، وأحياناً جعل نسبة كل الأعمال بصراحة إلى معسكر واحد أو آخر مسألة عديمة الجدوى.

لقد شكَّل ذلك الاستعداد عند الماركسيين لإعادة النظر، لا في التقاليد الماركسية وحدها، فحسب، بل في نظرية ماركس نفسه، الصفة المميزة الثالثة للتطور منذ خمسينات

القرن العشرين. وطبعاً ليس ذلك بجديد في حد ذاته. فقد كان النقاش الجدلي في وسط الاقتصاديين الماركسيين، الذي عاد وانتعش بشكل لافت منذ عام 1960[25]، نشطاً على الدوام عندما لا يكون مخنوقاً من عقيدة جامدة مفروضة من سلطات عليا. فقد كانت محاولات تعديل جزء من تحليل ماركس استناداً إلى أسسٍ مختلفة مألوفة في تسعينات القرن العشرين، ولم تقتصر على «تعديلية» بيرنشتاين. وفعلياً نقول، إن ممارسة تقييم الماركسية بشكل رئيسي بوصفها «منهجاً» لا كتلةً عقيدية، التي بدأت مع الماركسيين النمساويين الأوائل، كانت جزءاً من شكل مهذب من التعبير عن عدم الموافقة على ما كتب ماركس فعلياً.

وهكذا وجد بشكل متزايد في ستينات وسبعينات القرن العشرين، ماركسيون حذفوا نظرية القيمة في العمل أو المعدّل المنحدر للفائدة من الماركسية، ورفضوا النظرية المفيدة أنه «ليس وعي البشر هو الذي يحدِّد وجودهم الاجتماعي، بل على العكس هو وجودهم الاجتماعي الذي يحدِّد وعيهم» (أي، نظرات ماركس المتعلقة «بالنسبة التحتية» و«البنية الفوقية» (Superstructure))، وهم الذين وجدوا جميع كتابات ماركس قبل عام 1882 غير كافية ولا وافية ماركسياً، والذين يمكن وصفهم (بمفردات ماركسية تقليدية) بأنهم مثاليون فلسفيون وليسوا بماديين، أو الذين رفضوا الفرق بين الوضعين والذين رفضوا إنجلز جملةً، أو الذين رأوا أن «دراسة التاريخ ليست عديمة الجدوي علمياً فحسب، بل وسياسياً هي عديمة القيمة»[26]. وأنا لا أعتقد أنه حدث في أي حقبة سابقة في تاريخ الماركسية أن كانت تلك الأقوال وشبيهتها المتعارضة مع ما قبِلَهُ معظم الماركسيين، قد قُدمت وقُبلت من أناسٍ اعتبرو أنفسهم ماركسيين.

ليست وظيفة المؤرخ أن يقيِّم صحة تلك التعديلات، التي غالباً ما كانت بالجملة، لما كان يعتبر جوهرياً لنظريتهم من قبل معظم المدارس والاتجاهات الماركسية، مع أنه يستطيع بثقة أن يؤكد على أن الكثير مما قالوا كان سيغضب ماركس نفسه المشهور بمزاج معين.

وما يمكن قوله من موقع حيادي هو أن مثل تلك التحديات لكتابات ماركس عبَّرت عن وجهات نظر (فضلاً عن ذكر كتابات إنجلز و«الكلاسيكيات» اللاحقة) مثلت أعمق انقطاع سجل في استمرارية التقليد الماركسي الفكري. وفي نفس الوقت، وسواء أكانت مضلِّلةً أم لم تكن، فقد مثلت مجهوداً استثنائياً لتقوية الماركسية عبر

تجديدها وتحسينها، ولزيادة تطوير التفكير الماركسي، ومن هذا الوجه كانت دليلاً على قوة ماركس وجاذبيته الرائعتين. وذلك، لأنها دلَّت على شيئين، وهما: الإقرار بالحاجة (Aggiornamento) للماركسية، التي لم تتوقف عن تقصّي الأخطاء الممكنة والتناقضات في تفكير المؤسس، وفي نفس الوقت، الاعتقاد في أن فكر ماركس نفسه ككلّ، أعطى دليلاً جوهرياً لفهم العالم وتغييره.

لا ريب في أن الزمن سوف ينظِّف بعضاً من تلك الغابة من النباتات النظرية غير الناضجة، وسيكون ذلك بصورة جزئية عائداً إلى أن بعض المصلحين النظريين سوف يتبعون منطق حججه مستنبطين إياها من الماركسية، في حين سيختفي الآخرون عن الأنظار، أو ينتظرون طالباً يعدّ لدرجة الدكتوراه في بحث عن موضوع أطروحة، أو مجلّدات تاريخ الماركسية. ومن الممكن أيضاً أن يظهر من جديد إجماع معين حول تطورات النظرية التي يمكن اشتقاقها بمشروعية، أو جعلها متَّسقة مع فكر ماركس ذاته – مسألة نزاعية – وحول أي أجزاء من نظرية ماركس يمكن التخلّي عنها من دون تجريد تحليله ككل من اتساقه المنطقي. وفي تلك الحالة، يمكن إعادة بناء استمرارية التقليد الماركسي، وإن لم يكن على شكل ماركسية «صحيحة» وحيدة، بل على شكل إعادة إنشاء حدود المنطقة التي ضمنها يمكن الادعاء، ادعاءً معقولاً، بأن النقاش والخلاف لهما نسبٌ فكري لماركس. غير أنه، حتى لو تأسست مثل تلك الاستمرارية الفكرية، فإن ما يمكن وصفه بأنه ماركسيات المجرى الرئيسي ستستمر بالتواجد مع ما يمكن تسميته ماركسيات ثانوية خاصة بأولئك الذين ادعوا لسبب من الأسباب، أبوة ماركسية لأفكارهم مع أن فحوص DNA لم تثبت صحة ادعائهم. فما داموا يزعمون أنهم ماركسيون، فإنهم جزء من تاريخ الماركسية، ولا يفهمون خارجها، مثلهم مثل الأديان الثانوية أو التوفيقية والطوائف التي تدّعي أنها مسيحية، وهي جزء من تاريخ ذلك الدين، مهما كانت عقائدهم بعيدة عن عقيدة المسيحية العامة[27]. وأخيراً، لأن الماركسية الرئيسية والماركسيات الثانوية ستتواجدان معاً، كما لم يكونا، وذلك مع المنطقة المتنامية (الأكاديمية على الأغلب لكن ليس حصرياً) التي لا يوجد فيها تمييز حادّ بين ما هو ماركسي وما ليس بماركسي.

هناك شيء واحد واضح، وهو أنه حتى إذا ظهر إجماع جديد حول ما يؤلف المجرى الرئيسي الماركسي (أو الجداول)، فالمحتمل أن يكون على مسافةٍ من النصوص الأصلية «للكلاسيكيات» أكبر مما كان في الماضي. وليس يحتمل أن يرجع إليها غالباً من جديد، كما كان يحصل في معظم الحالات بوصفها تؤلف مجموعة متَّسقة لنظرية غير متناقضة داخلياً،

وبوصفها وصفاً تحليلياً مفيداً، وعلى نحوٍ مباشر لاقتصادياتٍ ومجتمعاتٍ موجودةٍ، أو بوصفها دليلاً مباشراً لعملٍ جارٍ يقوم به الماركسيون. وإن الانقطاع في استمرارية التقليد الماركسي لا يُصلح بشكل كامل.

فالنصوص «الكلاسيكية» لا يمكن استعمالها بسهولةٍ ككتيّبات مفيدة في العمل السياسي، وذلك لأن الحركات الماركسية اليوم، وفي المستقبل، تجد نفسها في أوضاع لا شيء مشترك بينها وبين تلك الأوضاع التي فيها صاغ ماركس وإنجلز والحركات الاشتراكية والشيوعية استراتيجياتهم وتكتيكاتهم في النصف الأول من هذا القرن (باستثناء أن يكون ذلك حصل بواسطة حادث تاريخي عرضي ومؤقت). وإنه لأمر له مغزى أن ظلَّ، بعد نصف قرن من وفاة لينين، ومعظم الأحزاب الشيوعية القديمة منخرطاً في الصراع للحلول محلّ الرأسمالية في أقطاره، وبحث عن استراتيجيات جديدة، ولذلك تخلّى عن المعادل الماركسي لأصولية الكتاب المقدَّس (بالرغم من الحنين للأفكار اليقينية القديمة عند العديد من أعضائها القدامى). ومقابل ذلك، نجد أنه حيث مازال العطش لليقين القديم سائداً والماركسية كانت تعلِّم «دروساً» كان لا بدَّ من صياغتها صياغة «صحيحة» وتطبيقها تطبيقاً «صحيحاً» – بالرغم من أن «صواب» مجموعة قابله «خطأ» مجموعة أخرى – فإن ذلك النمط من الماركسية ضمير، نظرياً، توقف عن النمو، وجنح لأن يختزل إلى عناصر بسيطة قليلة، وإلى شعارات، نعني: أهمية الصراع الطبقي الأساسية، واستغلال العمال، والفلاحين والعالم الثالث، ورفض الرأسمالية أو الإمبريالية، وضرورة الثورة والصراع الثوري (المسلح مثلاً)، وإدانة «الإصلاحية» و«التعديلية»، ولزوم «الطليعة»، وما قارن. فمثل تلك التبسيطات يسَّرت تحرير الماركسية من أي صلة بتعقيدات العالم الواقعي، لأن التحليل كان مصمَّماً، للبرهان على الحقائق المعلنة سلفاً بشكلها الصافي. لذا، يمكن ربطها باستراتيجيات التطوعية أو أي شيء آخر فضله المقاتلون. وبصورة جوهرية نقول، إن هذا الشكل المتبقّي من الماركسية الجوهرية وُظِّف كدليل لعمل مؤلف من عناصر بسيطة مستمدّة من اللينينيّة الكلاسيكية ما لم تكن هذه (كما هو الحال في وسط الفوضويين-An-archism الجدد) أيضاً منحلَّةً إلى مجرد لغة طنّانة رنّانة. والواضح هو وجود الكثير مما يمكن تعلّمه من تجارب الصراعات الماضية، من ممارس بارع للسياسة الثورية مثل لينين، لكن من غير الرجوع الحرفي إلى الماضي ونصوصه.

ومن جديدٍ نقول، إنه في حين يجب أن تبقى النظرية الاقتصادية العامة وتحليل التطور الرأسمالي يؤلفان نقطة البداية للماركسيين اللاحقين، فإن الكتب «الكلاسيكية» في فترة زمنية لا يمكن استعمالها كأوصاف لمراحل ماركسية لاحقة. وقد أدرك ذلك

لينين بواقعيته المعهودة فكتابه: **الإمبريالية** بخلاف كتابات ماركسية أخرى، لم يشتمل في محاولته تحليل الطور الجديد للرأسمالية بعد عام 1990[28] على إشارة مهما كانت إلى نصوص ماركس وإنجلز، باستثناء مقطعين من المراسلات (Correspondence) تناولا أثر الإمبراطورية البريطانية على الطبقة العمالية البريطانية. على كل حال، أخفق مقدار كبير من الكتابات الماركسية حول تطورات الرأسمالية في الانتباه والاهتمام بتلك السابقة، وكرّس وقتاً كثيراً وجهداً كبيراً للبرهان على أن كتاب لينين (أو ماركسيين آخرين، وهذا نادر) مازال يؤلف التحليل الصحيح الجوهري لمرحلة من التطور الرأسمالي يمكن وصفها، ومن دون حذر، بأنها «الأخيرة»، أو لوضع تعليقات نقدية على الكتاب، أو-عندما صار واضحاً أنه لم يعد صالحاً لغير زمانه - للتوسع في إحدى عباراته العرضية، في عام 1917 وتحويلها إلى نظرية في «رأسمالية احتكارية الدولة» للحقبة الزمنية، التي ابتدأت بالحرب العالمية الثانية[29]. ولم يعد معظم الماركسيين يشعرون خارج المجموعة المتلاشية من الأرثوذكسيات العقيدية الجامدة القديمة، بواجب التعبير عن تحليلهم للمرحلة الماركسية الجارية بمفردات النصوص التي وصفت مراحل تعود الآن إلى الماضي بشكل رئيسي.

وأخيراً حصل إدراك واسع الآن أن نظرية ماركس الخاصة كما صاغها بأسلوب منظَّم، افتقرت إلى التجانس في ناحية مهمة واحدة على الأقل. لذا، يمكن القول، إنها تألفت من تحليل للرأسمالية وميولها، ومن رجاء تاريخي في ذات الوقت، وتمَّ التعبير عنه بعاطفة نبويّة كبيرة، وبمفردات فلسفة مستمدة من هيغل، ومن رغبة إنسانية دائمة في مجتمع كامل ستحققه البروليتاريا. وفي سياق تطور ماركس الفكري، كان الأمر الثاني سابقاً الأول، فلا يمكن اشتقاقه منه فكرياً. وبكلمات أخرى، هناك فرق نوعي بين القول، مثلاً، إن الرأسمالية بطبيعتها تخلق تناقضات لا يمكن التغلب عليها، لذا لا بدَّ من أن تنتج شروط ما يحلّ محلها حالما «يبلغ تمركز وسائل الإنتاج واشتراكية العمال نقطةً يصيران عندها متعارضين مع التطور الرأسمالي»، والقول إن المجتمع المابعد الرأسمالي سيؤدي إلى نهاية الاغتراب الإنساني والتطوير الكامل لجميع قدرات البشر. فهما ينتميان إلى شكلين مختلفين من أشكال الخطاب، بالرغم من إمكان البرهان على صدق كليهما[30].

علاوة على ذلك، لم يحصل نفي أبداً لحقيقة أن ماركس لم يترك وراءه نظرية منظَّمة تامة [سوى مجلَّد واحد من كتاب: **رأس المال** الذي كان مكتملاً]، ويصعب إنكار أنه لم ينجح دائماً في ترجمة «عظمة رؤيته»[31] إلى تحليل نظري مقنع. لذا، وُجد في الاقتصاد

الماركسي «مسائل نظرية ظلّت لوقتٍ طويل خاضعة لجدل» بين الماركسيين، كما أن «تأويلات النظريات الماركسية تباينت بشكل واسع»[32] فيما بينهم. ولا شك في أن هذه الحال أدّت بالمنظِّرين إلى دراسة مجموعة نصوص ماركس عن كثب وبدقة، لكن تلك المحاولات لوضعها في كلٍّ متناسق، ومتّسق، وواقعي لا علاقة لها باستعمال مثل تلك النصوص كبيانات مرجعية تصف «ما تعلّمه الماركسية». فهناك نفرٌ قليل، إن وجد، من الاقتصاديين الماركسيين المدرَّبين، حسب الشروح الميسَّرة للاقتصاد السياسي الماركسي، تدريباً وافياً [مثل الجزء الثاني من كتاب إنجلز: **ضد - دوهرنغ** أو كتاب لينين: **تعاليم كارل ماركس** (*Teachings of Karl Marx*)]. وقد أدت مثل تلك الشروح، أو نصوص ماركس الأساسية (مثل، القيمة (Value)، السعر والربح (Price and Profit) دوراً بارزاً في الفترة الزمنية التي كان فيها التعليم الماركسي للمقاتلين والتعليم الماركسي لأعضاء الأحزاب العمالية الاشتراكية الواسعة الوظيفة الرئسية لتلك الأحزاب العمالية الاشتراكية. وقد تناقص دورها مع تحوّل تلك الأحزاب أحياناً مع ضعفها، وزوال أرثوذكسيات ماركسية «صحيحة» واحدة. وفي كل الأحوال، جنحت الماركسية الموجَّهة واقعياً بشكل واسع إلى المفكرين، سواء أكانوا مقاتلين أكاديميين أم من الفريقين كليهما نحو التعاطي مع النصوص الكلاسيكية بطريقة نقدية[33].

هناك ميزة رابعة للفكر الماركسي منذ خمسينات القرن العشرين يمكن ذكرها في نهاية المطاف. لقد ركَّز الماركسيون جهودهم بشكل غالب على ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية أيضاً، وبشكل طبيعي على مسائل تتعلق مباشرة بالنشاط السياسي. أما ميدان العلوم الطبيعية والتكنولوجيا الواسع فكان الميدان الذي لم يجازف بالدخول فيه سوى نفر قليل من الماركسيين، بوصفهم ماركسيين بعد عام 1947، فصار رائجاً في بعض الأوساط إنكار وجود أي علاقة للماركسية بذلك الميدان، أو أنها لم تهتم «بالطبيعة» بشكل رئيسي، إلاّ بوصفها «طبيعة إنسانية»[34]. وهذا لا يتضارب مع ماركس وإنجلز فحسب، وكان كلاهما مهتمين بشكل واضح بالعلوم الطبيعية، وفكرا أن لديهما ما يقولانه عنها (بالرغم من أن إنجلز وجّه انتباهاً أكثر من ماركس إلى ذلك الميدان) في تلك الفترات الزمنية كما في ثلاثينات القرن العشرين، عندما انجذب عدد من العلماء الطبيعيين في بريطانيا وفرنسا إلى الماركسية، وكانوا توّاقين لتطبيقها على موضوعاتهم. فالعلم والشؤون الاجتماعية والسياسية مترابطان ترابطاً وثيقاً اليوم أكثر من قبل، ولا ريب في أن الكثير من العلماء يعون دوره الاجتماعي ومسؤوليته في المجتمع. فهناك علماء راديكاليون وثوريون أيضاً وعلماء ماركسيون، بالرغم من ملاحظة عداوة معينة

للعلم والتكنولوجيا (وغالباً ما تكون بقناع رفض «المذهب الوضعي» في الفلسفة، عند «اليسار الجديد» الشاب الراديكالي، منذ ستينات القرن العشرين). وقد قلَّل ذلك من جاذبية اليسار الراديكالي لمن مارسوا مثل تلك المهن، باستثناء فروع علوم الحياة إذ كان يستحيل التخلّي عن حجج تتعلق بطبيعة الإنسان والمجتمع (مثلاً، في علم الوراثة وحوله). ومهما يكن من أمر، فإن ماركسية العلماء الراديكاليين لا علاقة لها بنظريتهم وممارستهم المهنيين.

يمكن للمرء أن يجازف فيخمِّن أن معظم العلماء والتكنولوجيين الطبعيين الناشطين في الدول الاشتراكية سيتبنون أيضاً النظرة المفيدة أن الماركسية لا علاقة لها بالنشاطات المهنية، بالرغم من أنهم قد لا يكونون راغبين في التعبير عنها علانيةً، وبالرغم من أنهم مثل جميع العلماء الجدّيين حائزون بالضرورة على آراء حول العلاقة بين العلوم الطبيعية وحاضر المجتمع ومستقبله.

وقد مثَّلت حالة الأمور تلك تضييقاً بارزاً لمدى الماركسية، حيث كانت تمثِّل أحد أقوى لجوء لها إلى الأجيال السابقة، وبالضبط في أنها بدت مؤلفةً نظرة إلى العالم شاملة، كلية ومتنوِّرة، ولم يكن المجتمع الإنساني وتطوره يشكلان جزءاً واحداً منها. فهل يمكن أن يستمر ذلك؟ من المستحيل الجواب على ذلك. يمكن للمرء أن يلاحظ بعض علامات ردّ الفعل ضد الإقصاء الكامل للعالم اللاإنساني عن الماركية[35]. كما يمكن للمرء أن يلاحظ أن الأزياء الفلسفية النافية للعلم الموضوعي أو الوصول إلى العالم على الأسس المفيدة أن كل «الوقائع» لا توجد إلاّ بفضل الإنشاء القبلي لمفاهيم في العقل البشري فقدت بعضاً من رواجها (وفعلياً يصعب الجمع في العمل (praxis) بين العلماء أو الذين يرغبون في تغيير العالم عبر العمل السياسي).

في ضوء كل ما تمَّ إجماله في الصفحات السابقة ليس بالأمر المفاجئ أن يكون مراقبو الحقبة الزمنية منذ خمسينات القرن العشرين، قادرين من جديد على الكلام عن أزمة الماركسية. فأشكال اليقين السابقة – أو النسخ المتنافسة منها – الخاصة بمستقبل الرأسمالية، والمتعلقة بالقوى الاجتماعية والسياسية المتوقع منها أن تحقق الانتقال إلى نظام جديد للمجتمع، والمتعلقة بطبيعة الاشتراكية التي ستحقق، والمتعلقة بطبيعة ومطامح المجتمعات التي زعمت أنها حققت ذلك التحوّل: كل ذلك صار موضوع شك. والحق يُقال إنها لم تعد موجودة أبداً. فقد خضعت النظرية الأساسية للماركسية، بما في ذلك ماركس نفسه، لتمحيص نقدي عميق، ولعددٍ من صياغات جديدة بعيدة

المدى ومتنافسة. وإن مقداراً كبيراً مما قد تكون أكثرية الماركسيين قد قبلته في الماضي صار موضع ارتياب خطر. وإذا استثنينا الأيديولوجيات الرسمية للدول الاشتراكية ولبعض الطوائف الأساسية الصغيرة، فإن كل جهود الماركسيين الفكرية افترضت أن النظرية والعقائد التقليدية للماركسية تطلَّبت إعادة تفكير جوهري، وتعديل ومراجعة. ومن ناحية أخرى، وبعد وفاة ماركس بمئة عام، لم تستطع مراجعة واحدة من مراجعات إعادة التفكير فرض نفسها ولم تنجح الماركسية المعدَّلة أن تكون هي السائدة.

ويمكن وصف كل ذلك بمعقولية أنه مثَّل أزمة أو أزمات داخل الماركسية. وذلك، وكما كنا رأينا، لأن الارتياب بالماركسية التقليدية مضى يداً بيد مع نموّ عالمي ملحوظ في الجاذبية الفكرية للماركسية ونفوذها. ولم يكن ذلك عائداً للجاذبية التي مارستها الأحزاب الماركسية السياسية النشطة ونموّها. فالأحزاب السياسية الماركسية (كما في تسعينات القرن التاسع عشر) لم تكن موحيةً في تلك الحقبة، ونقول ذلك عن معظم تلك الأحزاب. كما لم يكن عائداً إلى جاذبية الأقطار التي ادّعت أنها مثلت بطرق مختلفة «اشتراكية موجودة فعلياً». فعلى العكس، ففي حين كانت المطابقة مع الاتحاد السوفيتي - الذي كان يعتبر بحق أو بغير حق، دولة العمال الأولى، وابن الثورة العمالية الأولى والباني للمجتمع الاشتراكي الأول - بمنزلة الوحي الحقيقي للمقاتلين في الحركة الشيوعية العالمية، ولم يكن ذلك مقتصراً عليهم وحدهم قبل عام 1945، فإنها غرَّبت المفكرين والجمهور الواسع. والواقع هو أن الاتجاه السائد للماركسية المضادّة، منذ خمسينات القرن العشرين مال إلى السلوك في خط بسيط من النقاش السياسي، رافضاً «الماركسية - المتجدِّدة» الواسعة التي تعدَّدت مراجعاتها خاصة على الأساس المفيد، أنه إذا لم تتخلَّ عن ماركس تحديداً، فلا بدَّ من أن تؤدي إلى الستالينية أو ما يعادلها. غير أن المجادلات التقليدية للبرهان على أن نظريات ماركس غير صائبة فكرياً، ولا يحصل تخلٍّ عنها في ذات الوقت، لم تعد سائدة، كما أن محاولات استبعاد ماركس والماركسيين بوصفهما صارا قابلين للإهمال لم تعد الآن ممكناً مصادفتها.

تعود زيادة النفوذ الماركسي إلى عوامل أخرى. ولا ريب في أن يكون قد ساعده تحرير وتنظيف الأرض الأيديولوجية في خمسينات القرن العشرين. وواقعياً قضى القضاء على الفاشية على راديكالية الجناح اليميني، بوصفها لغة خطاب شبه ثوري لزمن، ولارتباطاتها مع الهتلرية، والتنازل عن النقد الاجتماعي الليبرالي، الذي طالما صار في خمسينات القرن العشرين، أيديولوجية كاملة تحتفل بقدرة المجتمع الغربي القائم على حلّ جميع مشكلاته، كل ذلك أخلى الميدان لماركس. والواقع هو أن الذي

حوّل الرجال والنساء إلى ماركسيين تمثَّل في الشعور بالحاجة لنقد أساسي للمجتمع البورجوازي والأشكال الواضحة من عدم المساواة وعدم العدالة فيه (مثلاً، في العالم الثالث)، وكذلك وجود أنظمة غير مقبولة بشكل واضح. وكان يمكن أن يرى أن الماركسيين المنظمين هم خصوم مثل تلك الأنظمة، والفعّالون، وكان ذلك مهماً أيضاً، لذا نرى تغلغل الماركسية في الحياة الفكرية الإسبانية خلال ستينات وسبعينات القرن العشرين، عندما كان دور الحزب الشيوعي الإسباني في المعارضة المنظَّمة لفرنسا مركزياً بشكل واضح.

وباختصار نقول، إنه كما قيل عن الاقتصاد الماركسي، ظلَّت الماركسية، ككلّ، حيّةً ومزدهرة وهذا عائد إلى العلاقة السياسية المستمرة للتحليل الماركسي. فهي أداة لتحليل الرأسمالية، وبوصفها كذلك، تستحق الدرس[36]. وفي حال درسها، فإن فائدتها الفكرية الرائعة لها جاذبيتها. وما ظلت الرأسمالية تستدعي نقداً، قد تتحول الماركسية لكن من غير المحتمل أن تتلاشى.

الفصل الخامس عشر

الماركسية في تراجع

1983 – 2000

صار واضحاً بعد قرن من وفاة ماركس، أن الماركسية في حالة تراجعٍ سريع، سياسي وفكري، واستمر الوضع كذلك في السنوات الخمس والعشرين التي أعقبت أو ما يقارب هذه المدة، بالرغم من وجود علامات انتعاش كامنة في نهاية القرن ذاته الذي كان بمنزلة دليل واضح عند مراقبي عالم الأعمال مثل جون كاسيدي (John Cassidy) في مجلة **النيو يوركر** (*New Yorker*)، الذي استذكر نبوءاته عن عولمة للاقتصاد الرأسمالي المتزايدة التي لا ضابط لها. ومع ذلك، فمما لا شك فيه هو أن ماركس، ولربعٍ قرن من الزمان، لم يعد يعتبر مفكراً ذا صلة بالأزمنة، واختزلت الماركسية في قسم واسع من العالم إلى مجرد مجموعة أفكارٍ تخص مجموعات متآكلة من الباقين من متوسطي الأعمار والمعمّرين في السن. وقطع الصمت الترجمة الإنجليزية الأخيرة لخمسين مجلَّد من الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز، التي لم تنقطع منذ سبعينات القرن العشرين، عندما نشر للمرة الأخيرة، في سبعينات القرن العشرين. وقد استمر وتسارع أيضاً التقدّم الجليل لمشروع آخر، وهو مشروع سبعينات القرن العشرين، نعني، المئة والاثنين وعشرين مجلّداً من الميغا الجديدة، أي الطبعة الكاملة لكل كلمة كتبها ماركس وإنجلز. غير أنه لم يجذب الانتباه، إلا بوصفه مثلاً دراسياً عن الاستمرارية الفكرية مصدره مشروع مخطَّط ومموَّل من قبل أنظمة شيوعية لعمل أكاديمي متعدد القوميات، تركت نتائجه السياسية والأيديولوجية المتضمنّة طيَّ النسيان.

يبدو للوهلة الأولى أن أسباب ذلك التراجع الدراماتيكي لماركس وللماركسية

واضحة. فالأنظمة السياسية المتطابقة مع كليهما رسمياً كانت بشكل واضح في أزمة في ثمانينات القرن العشرين في أوروبا، وغيّرت مسيرتها دراماتيكياً في الصين. وأدّى بشكل لا مهرب منه انهيار الاتحاد السوفيتي والدول الأوروبية الدائرة حوله كالأقمار الصناعية إلى إزاحة «الماركسية - اللينينية»، التي صارت ديناً لتلك الدولة ونشرت تعاليمها الجامدة بواسطة سلطة سياسية ادعت المرجعية في النظرية والحقيقة.

ولم يكن يلزم أن يؤثر ذلك في حدّ ذاته في التفكير الماركسي خارج المنطقة الموصوفة ذاتياً، بأنها «الاشتراكية الموجودة، حقيقة»، لأن الأيام انقضت منذ زمن طويل عندما كان يقبل كتاب ستالين: **مادة دراسية مختصرة** كخلاصة وافية معيارية «للمادية الديالكتيكية والتاريخية»، إن لم يكن كتاريخ الحزب البلاشفيكي. وفي كل الأحوال، إن الأرثوذكسية السوفيتية العقيدية الجامدة حالت دون أي تحليل ماركسي حقيقي لما حصل ولما كان يحصل في المجتمع السوفيتي. وكما بيّنت الفصول السابقة، لقد انتقد معظم التفكير الماركسي في الأحزاب الشيوعية غير الحاكمة منذ عام 1956، تلك الأرثوذكسية علناً أو ضمناً (داخل الأحزاب الشيوعية السائدة في خط موسكو)، وجرى تعريف الاتجاهات السياسية الرائدة في أوساط ماركسيي مابعد عام 1956، التروتسكيين والماويين، عبر عداوتهم للأيديولوجيا السوفيتية، والنظام السوفيتي أيضاً.

ومع ذلك، كان انهيار الاتحاد السوفيتي ومعه النموذج السوفيتي خضّةً مؤذيةً لم تصب الشيوعيين وحدهم بل والاشتراكيين في كل مكان لسبب مثّل، رغم جميع عيوبه الواضحة، المحاولة الوحيدة التي حصلت لإقامة مجتمع اشتراكي. كما أنه خلق قوة كبرى عملت لما يقارب نصف قرن كقوة عالمية مقابلة وموازنة لرأسمالية الأقطار الرأسمالية القديمة. وكان فشله من هاتين الناحيتين، ومن غير أن نذكر أن ضعفه الواضح أمام الرأسمالية الليبرالية الغربية من أكثر النواحي، فشلاً بصورة لا لبس فيها، حتى عند الذين لم يشاركوا أيديولوجيي واشنطن في نصرهم.

فالرأسمالية فقدت الاعتقاد بكل من عليها فان (momento mori). ورأى الاشتراكيون أن نهاية الاتحاد السوفيتي أغلق الباب في وجه أيّ أمل بظهور اشتراكية مختلفة وأفضل [«ولها وجه إنساني»، كما وصفها ربيع براغ] من إرث ثورة أكتوبر. فبعد ثمانين سنة من الممارسة، عاد من جديد إلى التفكّر والتنظير أولئك الذين ما زالوا متمسكين بالأمل الاشتراكي الأصلي في مجتمع مشاد على التعاون عوضاً عن التنافس.

ولم يستطع الماركسيون بينهم أن يتملصوا من الفشل الواضح لنبوءات نظريتهم حول المستقبل التاريخي.

كل ذلك ترك الاشتراكيين غير المرتبطين بدولة في حالة من الحرمان والإعاقة. كما أنه أزاح داخل الدول «ذات الاشتراكية الموجودة فعلياً» كل الماركسية - اللينينة غير المسوكة بأحزاب الحكم الآسيوية، فما عاد لها وجود. وقد صممت الشيوعية في تلك الأقطار («الحزب الطليعي») كعقيدة لأقلية نخبوية من القادة والنشطاء، وليس كعقيدة للتحول الشامل، مثل الكثلكة الرومانية والإسلام. وذلك حوَّل الموجودين خارج المنطقة التي يجب أن توجد فيها الأيديولوجيا إلى لاسياسيين. فما ربط مجموع السكان معاً حيث حصل كانت الروابط التقليدية التي ربطت الشعوب بالدول - الاستمرارية التاريخية، والوطنية، والشعور بالهويّة الإثنية أو بهويّة جمعية أخرى، وحتى عادة الطاعة الرسمية للسلطة القائمة - وليس الاعتقاد بالماركسية اللينينية، إلاّ بوصفها راسباً باقياً من التربية الأخلاقية/ السياسية التي مرَّ بها، وبالضرورة، جميع الصغار. فعندما تهاوى النظام خلَّف وراءه استمراريات، وذكريات ورموزاً، ولم يخلِّف ولاءً لدين مدني.

وبحلول ثمانينات القرن العشرين، لم يكن لدى أكثرية متنامية من المفكرين وقت للنظام، وإذا كان لديها وقت، وصار أفرادها داعمين متحمسين لأنظمتهم الجديدة في زمن التحرير - كما فعل كثيرون - فإنهم صاروا صامتين أو منشقين علنيين، مثل شيوعيي الجامعات الذي مثَّلوا الرعاية العقلية لحركة التضامن في بولندا. وإذا كانوا لا يزالون ملتزمين بالاشتراكية، فإنهم على الأقل، صاروا ناقدين لعيوب ونواقص النسخة «الموجودة فعلياً»، ورغبوا في إصلاحها. وهذا انطبق بتزايد على الكوادر القائدة في النظام نفسه أيضاً. ولاحظت عام 1980 طالبة باحثة في بولندا الرفض الكلي من قبل موظفي الحزب البولندي أن يصفوا أنفسهم «شيوعيين». وعندما صادف أن كانت قادرة على سؤال عضو مهم في اللجنة المركزية ما إذا كان شيوعياً، أجاب، بعد تردّد طويل: «أنا براغماتي (Pragmatist)»[1].

كذلك، لا يوجد للماركسية جذور عميقة عند أعضاء الحزب (وذلك بوصفها متميّزة عن العقائد المعلنة من السلطة العليا). وذلك لأن الشيء المهم عند معظم الأعضاء أو عند الطامحين لأن يصيروا أعضاء، والمتعلق بأيديولوجيتهم ليس صدقها، أو كيفية تطبيقها، بل في كونها رباطاً. «ماذا يكون إذا تغير الزمن، كما حصل مع ستالين؟»

سأل طالب بريطاني في مدرسة الحزب العليا في موسكو طالباً سوفيتياً من زملائه. «نظر إليّ كما لو أنني أمّيٌّ سياسياً». «عندئذٍ ستصير تلك هي الحقيقة المتداولة»[2]. فلا شك في أنه، عندما يسقط النظام، فسيكون لدى نخبته الكثير لتأسف عليه، بما في ذلك خسارة أيديولوجيا شاملة للدولة كلها، إلاّ أن نفراً قليلاً سيصعب عليه التخلّي عن النسخة الماركسية – اللينينية، إلاّ إذا انتموا لمجموعة ثانوية معينة تهمها العقيدة، مثل ثيولوجيي الفاتيكان. وفي كل الأحوال لقد تكيّفوا بقليل من الصعوبة مع مركب من رعاية الدولة، ورأسمالية مختلطة وسلطة مافيا بعد روسيا السوفيتية.

ومع ذلك، لا يمكن نسب التراجع عن الماركسية ببساطة إلى انهيار الأنظمة الماركسية – اللينينية والماويّة أو إلى تحوّلها، لأنه بدأ قبل ذلك بشكل واضح. وكان أحد العناصر المهمة التفكك التدريجي والتغيّر في طابع الأحزاب الشيوعية غير الحاكمة في أوروبا، وفي فرنسا وإيطاليا حيث سادت تلك الأحزاب اليسار، وكذلك خسرانها الهيمنة على أجيال المفكرين بعد عام 1945. ولا يجوز أن نقلِّل من قيمة الخروج التدريجي من المشهد العام، السياسي والثقافي لمجموعة معمّرة مشكلتها عداوتها للفاشية، والحرب العالمية والمقاومة. فأزمة الأحزاب الشيوعية غير الحاكمة والأحزاب والحكومات الاشتراكية كانت واضحة بمقدار كبير في بداية ثمانينات القرن العشرين.

والنتيجة كانت واضحة لبعض الوقت، وهي أن لينين كان خارج برامج الأقطار الغربية المتقدِّمة، بالرغم من أنه كان على الحركات الطلابية الراديكالية أن تكتشف ذلك بعد عام 1968. ولم يكن واضحاً تماماً أن ذلك صحَّ على بيرنشتاين، رائد الإصلاح الفابي (Fabian) التدريجي عبر علم الدولة، وذلك في حقبة ما بعد عام 1973، وهي حقبة الانتعاش العالمي لسياسات دعه – يعمل (Laissez-faire) في اقتصاد دولي معولمٍ بسرعة كبيرة. وتجلّى ذلك في عهد الرئيس ريغان (Reagan) ومارغريت تاتشر (Margaret Thatcher)، وبشكل دراماتيكي بعد فشل برنامج الرئيس فرانسوا ميتران (Francois Mitterrand) في عام 1981. على كل حال، كان الذي حصل في سبعينات القرن العشرين، وبالرغم من بداية العصر الجديد، فإن الوجود الماركسي في المكتبات وفي غرف الأبحاث بلغ ذروته، وسجّلت النقابة السياسية والقتالية العمالية بعضاً من النجاحات الدراماتيكية الكبرى.

ومع ذلك، حتى لو تركنا السياسة جانباً فإن الماركسية كانت في حالة تراجع في وسط المفكرين، بالرغم من أن ذلك لم يتّضح إلاّ في ثمانينات القرن العشرين. ولم يقتصر

الأمر على الماركسية، بل شمل كل تيّار الأفكار الخاصة بالمجتمع الإنساني، الذي ساد الفكر الغربي منذ الحرب العالمية الثانية، وكانت الماركسية أحد المكونات. وخضعت العلوم الطبيعية ذاتها للهجوم، ولم يكن ذلك لضررها الفعلي والممكن المتسبب من التكنولوجيا فحسب، وإنما بوصفها أنماط من فهم العالم.

وأقل ما لوحظ ذلك في الاقتصاد، حيث كان الماركسيون على أطرافه دائماً، بالرغم من أن العشرة الأوائل من الفائزين بجائزة نوبل (Nobel) في ذلك الميدان كان من بينهم ثلاثة أسماء تشكلت - أو جزئياً تشكلت - في سنوات الاتحاد السوفيتي الأولى أو ما زالت ناشطة هناك [فاسيلي ليونتيف (Vassili Leontief)، سيمون كوزنتس (Simon Kuznets)، ليونيد كانتوروفتس (Leonid Kantorovitch)]. إلا أنه منذ عام 1974، وعندما نالها فريدريك فون هايك في موازنة مع مضادّه الأيديولوجي السويدي غنار ميردال (Gunnar Myrdal)، وفي عام 1976 عندما منحت لملتون فريدمان (Milton Friedman)، صارت الجائزة بشكل بارز متطابقة مع تحوّل قوي عن نظريات كينيس ونظريات التدخل الأخرى وعادت إلى اقتصاد دعه - يعمل، بشكل ثابت. ولم تظهر تصدّعات في ذلك الإجماع الذي ساد إلى أواخر تسعينات القرن العشرين.

هناك توجّه منهجي عام واضح لا سياسي ولا أيديولوجي عند الماركسيين وغير الماركسيين، توجهٌ ظهر منذ زمن طويل في العلوم الاجتماعية والإنسانية، خارج الولايات المتحدة على الأقل، وفي علمي السوسيولوجيا والتاريخ بشكل لافت. فمنذ أواخر القرن التاسع عشر وما بعده، تداخل علم السوسيولوجيا، نعني محاولة فهم عمليات المجتمع مع الماركسية، ومع الهدف العام المتمثِّل في تغيير العالم لا مجرد تأويله. وقد حلّ دوركهايم وماركس وماكس فيبر محلّ أوغست كونت وهيربرت سبِنسِر كآباء مؤسسين له في النطاق الأكاديمي، بالرغم من أنه لا يوجد مسوغ للاعتقاد بأن ماركس نفسه اعتبره ميدان بحث متميّز ومنفصل. وقد أضفى عليه التوسع الاستثنائي في التعليم العالي، منذ ستينات القرن العشرين بروزاً استثنائياً - ففي الوقت الحاضر يوجد في 45 مؤسسة جامعية في المملكة المتحدة وأقسام للسوسيولوجيا أو تحتوي على السوسيولوجيا - كما أن التثوير الراديكالي السياسي صيّر السوسيولوجيا مادة اختيارية للعديد من الطلاّب. ومن الوجهة الفكرية تناقص بروز هذا العلم كثيراً مع تلاشي المزاج الراديكالي الثوري في الجامعات.

وعلم التاريخ ارتبط أيضاً بالراديكالية الطلابية، لكن نشوءه كميدان بحث كان

أكثر تنويراً. فهنا كان الماركسيون جزءاً من التيّار التحديثي الذي رمى إلى إخصاب علم التاريخ التقليدي القاحل المعادي للتعميمات من أي نوع، والمحصور بمقدار كبير بسردٍ سياسي عسكري، ومؤسَّس عن تتابع الأحداث تتابعاً زمنياً بمفردات تصف أعمال أفراد بارزين بشكل رئيسي عبر تحريك رؤى ومناهج العلوم الاجتماعية واستعمالها، التي كانت حينئذٍ في حالة تطوّر سريع. وبتلاقيهم - وقد وفدوا من فروع معرفية وأيديولوجيات متباينة جداً - صار للإصلاحيين وجود معترف به بحلول نهاية القرن التاسع عشر، لكنهم لم يتقدَّموا كثيراً ولم ينجحوا في حصارهم قلعة التاريخ الأكاديمي باستثناء تأسيسهم مخفراً أمامياً حامياً «لتاريخ اقتصادي واجتماعي» وفي ضواحيه. فحققوا بعض التقدم بين الحربين خاصة في ثلاثينات القرن العشرين، لكنهم لم يصيروا قوة رئيسية إلاّ بعد الحرب العالمية الثانية.

حينئذٍ، تمكنوا من إنعاش ميدان التاريخ بالوحي ومن تحويله بشكل رئيسي عبر مجلاّت رغبت في زواج التاريخ والعلوم الاجتماعية، خاصة مجلة مارك بلوخ ولوسيان فيفر (Lucien Febvre) الشهيرة: (*Annales d'histoire économique et sociale*)، وهي معادية ومناضلة ضد التاريخ التقليدي في فرنسا منذ عام 1929، وصارت بعد تجديد اسمها، المجلة التاريخية الأكثر نفوذاً في العالم بإدارة فيرناند برودِلْ (Fernand Braudel)، الذى أسس أيضاً مدرسة الدراسات المتقدِّمة في العلوم الاجتماعية (Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales) في المبنى الجديد وهو (Maison des Sciences de l'Homme) كمؤسسة منافسة، واقعياً للجامعة القديمة. ولم تكن مدرسة الأنالز ماركسية من حيث أصولها الفكرية أو ميولها العاطفية، لكنها ساعدت على إحياء مجلة: الحاضر والماضي (Past & Present) التي أسَّسها مؤرخون ماركسيون بريطانيون. وفي غياب وسيلة رسمية معارضة للأكاديمية ذات الأسلوب القديم، أصبحت تلك المجلة هي الناطقة باللغة الإنجليزية. وقد أثَّر كلاهما على إصلاح علم التاريخ الألماني بعد عام 1960، تحت العنوان البرنامجي «علم الاجتماع التاريخي»، الذي تعزز مؤسسياً بتأسيس جامعات جديدة وموجهة بشكل ملائم، وأبرزها جامعة بيلفلد (Bielefeld). والحق، أن ماكس فيبر، وليس ماركس، هو الذي أوحى للمصلحين الألمان. وفي ذات الوقت تأسست مجلة لفروع العلم المترابطة اسمها: **دراسات مقارنة في المجتمع والتاريخ** (*Comparative Studies in Society and History*) في الولايات المتحدة، وتوسعت، لاحقاً، إلى **رابطة تاريخ العلم الاجتماعي** (*Social Science History Association*) والتي ما تزال ناشطة.

لا ريب في أن رجال الإصلاح، وبحلول عام 1970، هم الذين قاموا بالاستهلال، تاركين المؤرخين التقليديين في موقف الدفاع. فالازدياد الكبير في عدد طلاب الجامعات الراديكاليين عزَّز نفوذهم وحوَّل «التاريخ الاجتماعي» والسوسيولوجيا النظرية أيضاً إلى سلاح فكري اختياري بيد صغار السن الفكريين. ويصعب تقييم دور ماركس والماركسية في تلك التطورات، لكنهما كانا متقدمين تقدماً واسعاً على أي مؤرخ آخر أو مدرسة تاريخية أخرى في فهرس بحوث الميدان في عام [3]1971، وإن كتابة ماركس هي التي كانت بالنسبة للمؤرخ في التاريخ البريطاني ما بين 1907–2007 «التي رأت أخيراً، حتى من على رفوف المكتبات النائية بعضاً من تلك الكتب المدرسية المؤرخة وكانت عن عصر سابق»[4]. غير أن الأقلية الماركسية (باستثناء أقطار تحت الحكم الشيوعي، حيث لا خيار للمؤرخين) كانت تشكل دائماً أحد مكوِّنات الحركة العظمى الرامية إلى التحديث التاريخي، التي يبدو أنها فازت الآن.

ليس بالأمر المستغرب أن تتعرَّض للنقد «الثقة بالنفس» والتبسيطات المعرّضة للأخذ والردّ (كما في فرنسا) التي أجراها العلماء الحديثون التاريخيون ذوو العقلية التقدمية. لنأخذ مثلاً واضحاً، إن إهمال ما شجبه الفرنسيون معتبرينه مجرد «تاريخ أحداث» وما أبعده الماركسيون بوصفه «دور الأفراد في التاريخ»، عنى أن التاريخ الكافي والوافي لألمانيا الهتلرية أو الاتحاد السوفيتي في زمن ستالين، لم يمكن كتابته بعد[5]. ومع ذلك، فإننا نجد أكثر من ذلك، منذ وقت ما في أوائل منتصف سبعينات القرن العشرين. فقد صار واضحاً وجود شك جديد بمحاولة فهم بنية التجمعات البشرية وتغيّرها بواسطة العلوم الاجتماعية. وقامت السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية بانعطافة شبيهة مضادّة للموضوعية ومضادة للبنيويّة في نفس الوقت كانت ممتزجة مع نسخ مما دعي «بالنظرية النقدية» بغية إنتاج أشكال متطرفة من النسبية المابعد الحديثية. فالاقتصاد الكلاسيكي المتحدِّد اختزل المجتمع إلى أكوام من الأفراد يسعون عقلانياً وراء مصالحهم، وهدفه تحقيق توازن لا تاريخي في السوق. فوفرَّ المؤرخون الجدد من المناهج العزيزة على قلب العلوم الاجتماعية وعن «المسائل الكبرى» المشتركة ما بين الفروع العلمية والخاصة بالتحوّل الاجتماعي، عائدين إلى السرد القصصي (خاصة السرد القصصي السياسي)، لا التحليل البنيوي. فاتجهوا نحو الثقافة والأفكار من ناحية، والتعاطف مع الخبرات التاريخية الفردية من ناحية أخرى. ولم يقتصر أحد الخطوط المهمة على رفض التعميم التاريخي والاجتماعي وبنبوءاتهما، بل شمل رفضه مفهوم دراسة الواقع الموضوعي ذاته. ولم يكن لذلك التحول النقدي عن «الحديثيين»

المسيطرين الآن، توجّه سياسي أو أيديولوجي خاص. وكان برودل ومجلته **أنالز** (*An-nals*) ضحاياه مثل ماركس. وبالرغم من أن بعضاً من مظاهر التعديلية الجديدة لأم المحافظين التقليديين، مثل جماعة عدم التعيّن التاريخي (الذي أنتج عدداً من التمارين في تاريخ مضادّ للواقع أو في تاريخ «ماذا لو؟»)، وخرج مقدار كبير منها من وسط راديكالية ما بعد عام 1968. وبقي بعضٌ ممن يدعون «مابعد الحديثيين» والتاريخيون في اليسار الثوري.

لذا، كان التراجع عن الماركسية في العالم اللاشيوعي جزءاً من تحوّل هام وعام في العلوم الإنسانية، في سبيعينات القرن العشرين. ولم يكن له علاقة واضحة بأيديولوجيا الحرب الباردة، بالعداوة مع الاتحاد السوفيتي وبشجب المنشقين من هذا الحزب الشيوعي القومي أو ذاك. وكان قوياً في خمسينات وستينات القرن العشرين، وكما كنا رأينا، اتفق وجوده مع الثوران اللافت للراديكالية السياسية بما فيها الماركسية الفكرية. وأقل من ذلك كان يتوقع انهيار الأنظمة الشيوعية الأوروبية الذي لم يكن متوقعاً على نحوٍ جدّي، حتى من قبل أولئك الذين شجبوا فكرة «الله الذي أخفق» كانوا قد انفصلوا عن أحزابهم الشيوعية قبل عام 1970.

وإن المحاولة المنظمة لمقاتلي الحرب الباردة الغربيين لمجابهة «معركة الأفكار» التي خاضها السوفيتيون عبر مجالس الكونغرس الخاصة بالحرية الثقافية لم تتغلّب على تحويل المخابرات الأميركية (CIA) في عام 1967.

وإذا كان ثمّة سبب، فإن التراجع عن الماركسية تولّد داخل اليسار الراديكالي القديم نفسه، وليس أقله عبر الصدام الباطني الكامن في النسخ للماركسية، بين التطور التاريخي الأوتوماتيكي ودور الفعل الثوري. فإذا كان التطور التاريخي لا بدَّ من أن يؤدي إلى نهاية الرأسمالية، ومنه افترضت حتمية انتصار الاشتراكية، حالتئذٍ لا يكون هناك دور حاسم للعلم الاختياري الإرادي، إلاّ عندما تكون التفاحة ناضجة نضجاً كافياً لسقوطها من شجرة التاريخ. وعندئذٍ هل يقدر الفعل الثوري أن ينجز أكثر من التقاطها؟ وفي الممارسة لم تخلق هذه المسألة إلاّ مشاكل للثوريين المتخندقين، حيث لا يوجد مطامح لثورة اجتماعية. وفي الأعوام التي سبقت عام 1914، رفض اليسار الراديكالي الجائع للفعل، ماركسية متطابقة مع التوقعات التطورية للديمقراطية الاجتماعية الألمانية. ومضى غرامشي إلى حدّ القول «بثورة ضد كتاب: **رأس المال**. ولم تتمكن إلاّ الحرب العالمية الأولى وثورة أكتوبر الروسية من أن تعيدا هؤلاء إلى ماركس عبر لينين.

والحركات اليسارية الراديكالية الجديدة في ستينات القرن العشرين، والمنصرفة إلى النشاط مهما كانت الأثمان، التي ظهرت في ذروة النجاح الرأسمالي الغربي، ثمَّ إسكاتها عبر المداخيل العالية، والرعاية الاجتماعية، والتكافل في مشاريع رجال الأعمال ونقابات العمال. ولا شك في أنها لم تتخلَّ عن ماركس الذي صار وجهه ذو اللحية أيقونة ثورية، وإن يكن استبدل بصورة مناسبة لثورة إرادية نعني صورة تشي غيفارا (Che Guevara).

على كل حال، لم يكن ما مقتته في الماركسية متمثلاً في «تقدم العمال إلى الأمام»، الحتمي الذي قرأه الديمقراطيون الاجتماعيون في ماركس، وإنما التنظيم القاسي والمتمركز للحزب الذي فرضه لينين عليه. وبمفردات التاريخ الثوري، مثّلت تلك الحركات اليسارية ارتداداً عن ماركس إلى باكونين. فكل شيء مقتته في الشيوعية السوفيتية استمد من مركزية تلك الشيوعية الصارمة النظام، من الحقائق والأفعال الملزمة المفروضة من علٍ على ضحايا مجازر ستالين. فالعفوية، ومبادرات القواعد، فضلاً عن ذكر التعبير الذاتي الحرّ («أن تفعل ما تريد») كانت تمثّل جذور العمل، وكانت القيادة موضع ارتياب، والقرارات كانت تصدر من الأصوات المتعددة في اجتماعات القواعد. وفي المقابل نجد أن الذين استمروا في ملاحقة الغاية التقليدية للثوريين الماركسيين، أي انتقال السلطة السياسية، لم يعودوا يعتمدون على التاريخ ليولد «أوضاعاً ثورية» لينينية في مجتمع القمع الطبقي. لذلك علّقوا آمالهم بشكل متزايد على عصيان مسلّح مخطَّط أو أعمال إرهابية تنفذها مجموعات صغيرة خارجة عن القانون، كالتي كان الماركسيون قد رفضوها تقليدياً. يمكن تسويغ مثل تلك الأعمال في أقطار فقيرة ومتخلفة استناداً إلى الافتراض المفيد أن مثل تلك المناطق هي على حافة حريق كامل وأنها تتفجر لهباً حالما «تركز عليها» مبادرة حروب عصابات خارجية، مثل تشي غيفارا. وفي الممارسة، أخفقت تلك النظرية الكوبية أيّاً إخفاق في ستينات وسبعينات القرن العشرين، وفي قارتها المختارة، رغم صياغتها الأنيقة من قبل ريجيس ديبري[6] (Régis Debray).

أما في الاقتصاديات الغنيّة، فقد عادت لتعتمد على الشعار الفوضوي القديم، شعار «الدعاية عبر الفعل» (Propaganda by the deed) تقوم به حركة إرهابية صغيرة رمت إلى خلق وقع كبير وغير متوقع على مجتمع الصحافة والإعلام المتعطش للأخبار الكبيرة والصور الدراماتيكية.

لذلك نشأ عددٌ من الاهتياجات ما بعد عام 1956 الخاصة باليسار (الماركسي) القديم والراديكالية الثقافية الجديدة لستينات القرن العشرين التي ابتعدت عن التحليل الماركسي التقليدي، بينما استمرت في أغلب الأحيان، وإن لم يكن دائماً في اتخاذ موقف اليسار: خاصة حركة المشغل التاريخي (History Workshop)، ومجلة **تاريخ كل يوم** (*Everyday History*) في بريطانيا، و(*Alltagsdeschichte*) في ألمانيا، و«مدرسة ثانوية تابعة» في الهند، وأشكال مختلفة من «النظرية النقدية»، ومحصول جديد من تواريخ الحركات النسوية والهويّة المدّعية أنها كانت تمثل «الحركات الاجتماعية» الجديدة التي سوف تردم الفجوة التي خلفتها أزمة الحركات العمالية التقليدية، بحسب رجائهم.

وفي ذات الوقت، ناقض الاكتشاف (الذي جعله نادي روما دراماتيكياً منذ أوائل سبعينات القرن العشرين) المفيد أن الزيادة غير المضبوطة في قدرة الإنسان على الإنتاج، والتي وضعت أساساً لكارثة بيئيةٍ مستقبلية، توصل الماركسية لنظرية في التطور لتتطلع لمستقبل أفضل.

«فأزمة التقدّم» التي اعتبرها الماركسيون، في ثلاثينات القرن العشرين علامة مميزة لمجتمع بورجوازي مستنفد، تحوّلت الآن ضدّهم. فالمظالم وظواهر القمع اللتان ولَّدتهما طبيعة التقدم الرأسمالي كانتا دائماً موضع شجب، لكن الآن خضع ذلك التقدم ذاته للهجوم. وازدادت حملات اليسار المستهدفة الحماية والمحافظة ضد ظواهر التقدّم في سيطرة الإنسان على الطبيعة، الأمر الذي كان أسلافهم من الماركسيين يرحبون بها أو على الأقل (مثل العولمة) يعتبرونها حتمية. فالماركسية كانت بشكل خاص، معرَّضة لذلك الانعكاس في النظرة «الحتمية التاريخية»، أن تكون إيجابية إلى أن تصير سلبيةً.

قد يكون التحوّل إلى اليسار السياسي، خاصة في أوساط الطبقات النامية والمهمة سياسياً والمتمتعة بتعليم جامعي، قد أنعش حظوظ ماركس، ذلكم، لأن الاهتمام بنظرياته ارتبط تاريخياً، وفي أغلب الأحيان، بالتثوير الراديكالي السياسي للأفراد أو الجماعات أو بنشوء أقطار وخروجها من أزمنة سلطوية. لا شيء من ذلك القبيل حدث في الغرب، بالرغم من توافّر بعض الأدلة المفيدة بأن النشاط السياسي أدّى إلى صعود الاهتمام بالأدب ذي الروابط الماركسية في بعض الأقطار غير الأوروبية، مثل البرازيل، وتايوان، وجنوب كوريا وتركيا[7] في أوقات مختلفة منذ عام 1970. وعلى العكس من ذلك، فإن أزمة المخزون الرئيسي لليسار الغربي، أي الحركات الديمقراطية الاجتماعية ذات الأساس العمالي، قضت على أي مطمحٍ للاشتراكية في وسطها. وإلى ذلك الزمان

بمقدار ما أعي ذلك، لم يوجد أي زعيم حزب في اليسار الأوروبي في السنوات الخمس والعشرين الماضية أعلن أن الرأسمالية غير مقبولة كنظام. والشخصية العامة الوحيدة التي قامت بذلك، ومن دون تردّد كانت البابا جون بول (Pope John Paul). علاوة على ذلك، لم يكن هناك أسهل من إدماج الجيل الثوري في عام 1968 – ويتألف هذه المرة من أتباع مذهب المواقف (Situationists) – في نظام رأسمالي مزدهر أجاز أكثر من أي نظام سبقه، لتنوعات في المذاق الشخصي والحياة الشخصية، وعمل وقدم نفسه بتزايد أنه يمثل ذلك الاقتصاد والمجتمع المعلن عنه في المشهد الإعلامي. وازداد النجاح الأكاديمي في جلب المال. وكانت تسعينات القرن العشرين وسنوات العقد الأول من القرن الحادي والعشرين العهد الأول لأصحاب البلايين من حاملي درجات بحثية. وقد لاحظ واحد من أصحاب النكتة والمزاح قائلاً، إن أزمة البنك العالمي في عام 2008 عائدة إلى الحقيقة المفيدة أنه ولأول مرة، دخل خريجو الجامعات الأذكياء في سوق المال، فاختلفوا عما كان يفعل القدامى، وبدخولهم ذلك ابتدعوا نوعاً من الحساب معقداً يصعب على الرأسماليين فهمه[8]. فسير الحياة العملية لا التغير الاجتماعي كانت في الأفق تنتظر الطلاب الأكثر نشاطاً وحيوية فكرية.

وبالإضافة إلى ذلك، علينا أن لا ننسى ظاهرةً أكثر عمومية، وهي: أن التراجع العام لما يمكن أن يدعوه المرء أيديولوجيات التغير الاجتماعي في عصر التنوير (En-lightenment) في القرن الثامن عشر، ونشوء أو انتعاش موحيات للنشاط الاجتماعي، كل ذلك أدخل تحديثاً ضمنياً مهماً في نسخ الأديان التقليدي. ففي حين لم تتمكن تلك الأديان من إحداث اجتذاب كبير في أوروبا، فإنها حققت أول نجاح عظيم لها في الثورة الإيرانية في عام 1979، التي كانت آخر الثورات الاجتماعية الكبرى في القرن العشرين. حتى لو لم يكن الأمر كذلك، فإن التطورات التاريخية والفكرية في النصف الثاني من القرن العشرين دمّرت بشكل ملحوظ التحليلات السياسية، والبرامج والنبوءات المستمدة تقليدياً من ماركس. وقد احتفظ التحليل الأساسي لماركس لتطور الرأسمالية وطريقة عملها (modus operandi) بقوّته. وفي كل الأحوال، إن أي إحياء مستقبلي للاهتمام بالماركسية سوف يحتاج بلا ريب أن يشاد على إعادة تقييم جوهرية للنظرات التقليدية الخاصة بأفكاره.

ولولا انهيار معظم الأنظمة الشيوعية والتخلّي المتعمَّد عن مناهجها وأهدافها التقليدية من قبل البعض، والأزمات المتزامنة للديمقراطية الاجتماعية ذات الأساس العمالي، فإن ذلك لن يكون كافياً لوصف وشرح عشرين عاماً من التهميش الكامل

للماركسية في الخطاب الفكري. ولأن الأنظمة والحركات الماركسية التي استمدت وحيها من ماركس، قد أخفقت في الاحتفاظ بأهدافها التقليدية أو ابتعدت عنها، لم يعد مهماً من الوجهة السياسية وليس ضرورياً من الوجهة الفكرية، صرف وقت كثير على نظريات كذَّبها التاريخ. على أي حال، انتهت الحرب الباردة، فكانت المفارقة أن الشجب المحلي الوطني استمر حتى مع اختفاء أهدافه، الأمر الذي يشبه كثيراً معاداة السامية في بولندا التي ظلّت بعد اختفاء اليهود من البلاد.

استمر خطاب معاداة الشيوعية الذي كان في الحرب الباردة، لا ضد عدوٍّ مخيف، بل لصالح التفوق العالمي للرأسمالية الغربية الديمقراطية الليبرالية، وسموّها. وبتزايد ثقتها بالنفس، اعتبرت نفسها صانعة النظام في عالم مضطرب، وذلك عبر التدخّل المسلَّح والدبلوماسية المتحججة بأيديولوجيا تقول بحقوق الإنسان العالمية. وما تمَّ شجبه - ولاختصار النقاش لم يكن نظريات ماركس وتحليلاته، وإنما هدفه من الثورة، الذي قيل، إنه ضلَّل الصغار المثاليين، والمذهب الكلّي الذي ظنَّ أنه هو قد عناه أو أعلنه، بالإضافة إلى أي تحدٍ آخر للمذهب الليبرالي، فضلاً عن ذكر العقبات التي طرحتها المطامح الاشتراكية في وجه عقلانية مجتمع السوق ذي التنظيم الذاتي. وبكلمة أقول، كان ماركس الممثّل الموحي بالرعب وبمعسكرات الاعتقال، والشيوعيون كانوا بصورة جوهرية المدافعين عن الإرهاب والبوليس السرّي في الاتحاد السوفيتي، إن لم يكونوا مساهمين فيه. ليس واضحاً مقدار إقناع ذلك الخطاب أولئك الذين لم يتحوَّلوا، وبعضهم كان من جماعة «الله الذي أخفق»، في أيام الحرب الباردة. ويصعب أن نرى تلك الممارسات ملعونةً وقد ظلَّت طويلاً في قرنٍ لم يبق فيه إلى اليوم سوى الذين أعمارهم بين الثلاثين والأربعين ممن يحوزون على أي ذكريات عن السنوات الفعلية للحرب الباردة.

وفي ذات الوقت شقَّ طريق العودة من جديد إلى عالم تتذكر فيه الرأسمالية أن مستقبلها موضع شك، ليس بتهديد من ثورة اجتماعية، وإنما من طبيعة عملياتها العالمية غير المعاقة، الأمر الذي أثبته ماركس دليلاً متَّسماً بالتبصّر أكثر من المعتقدين بالخيارات العقلانية للسوق الحرّ وآلياته التصحيحية الذاتية.

الفصل السادس عشر

ماركس والعمّال: القرن الطويل

يبدو من الملائم أن تختتم مجموعة من الأبحاث في تاريخ الماركسية بمقالة عن الحركة المنظمة لطبقة العمال. فقد بدت البروليتاريا، لماركس بمنزلة «حفار قبور» الرأسمالية، والعامل الأساسي في التحوّل الاجتماعي. وفي القرن العشرين ارتبطت معظم الحركات والأحزاب العمالية بحلم ماركس بمجتمع جديد («اشتراكية»)، واعتبر جميع الماركسيين، بدورهم من دون استثناء، والأحزاب والحركات العمالية ميدانهم السياسي المختار. ومع ذلك، لا الماركسية ولا الحركات العمالية يمكن فهمها إلاّ كقوى تاريخية مستقلة، موجودة في علاقات معقّدة ومتغيّرة فيما بينها. وكذلك، لا يفهم وقع أيّ منها على تاريخ القرن العشرين بغير ذلك.

وبالرغم من أن أي قارئ للبيان الشيوعي يعرف أن تاريخ الحركات العمالية يرجع إلى ما قبل ذلك بكثير، فإن هناك بعض التسويغ لبداية هذه النظرة العامة الشاملة لحركات العمال وأيديولوجياتهم في نهاية القرن التاسع عشر ذاتها. فتاريخ العمال البريطاني بدأ في تسعينات القرن العشرين، وبشكل بارز بدراسات جماعة الوِبس للنقابات. وأول فحص شامل عالمي مقارن كان في عام 1900، وهو: كتاب و. كولمان (W. Kulemann): **الحركات النقابيّة**، الذي عرض للتنظيم النقابي للعمال وأرباب العمل في كل البلدان.

Gewerkschaftsbewegung. Darstellung der gewerkschaftlichen Organisation der Arbeiter und Arbeitgeber aller Länder.

وأول تواريخ كتبت من داخل الأحزاب الاشتراكية الجديدة بدأ في الظهور قريباً من الوقت ذاته، مثلاً، النسخة الأولى لتاريخ ميهرنغ الخاص بالحزب الاجتماعي الديمقراطي الألماني.

علاوة على ذلك، كانت تسعينات القرن التاسع عشر العقد الزمني الذي بدأت فيه الحكومات الأوروبية بإدراك الوجود السياسي للحركات العمالية المنظّمة تنظيماً حازماً. ونشرت الحكومة البريطانية أول خلاصة إحصاءات عمالية ما بين 1894-1893، وبدأت الحكومة البلجيكية بنشر مجلّة **الشغل** (*Revue du Travail*) في عام 1896. ولأول مرة، شعر اللورد روزبري بضرورة التحرك للتدخل الشخصي لفض نزاع بين موظفين وعمال. وبعد خمس سنوات حذا رئيس الوزراء الفرنسي حذوه وكان والدِكْ – روسّو (Waldeck-Rousseau)، والذي دعاه للقيام بذلك كان إضراب عمال معامل شنايدر – كروسوت (Schneider-Creusot). وفي السنة ذاتها اتخذت الحكومة خطوةً هزَّت أحزاب العمال السياسية، أو الاشتراكية منها على الأقل في الصميم. فقد عيَّنت اشتراكياً وهو ألكسندر ميليران (Alexandre Millerand)، وزيراً لوزارة التجارة. وإلى ذلك الزمن، ولسنوات عديدة، سلَّم الاشتراكيون بأنهم لن يشكلوا حكومة ولن يشاركوا في حكومة إلاّ عندما تهبط ثورة أو إضراب عام بالرأسمالية، أو على الأقل عندما يفوز الحزب الاجتماعي الديمقراطي فوزاً عنيداً في الانتخابات، ووحده. ومن الوجهة الأيديولوجية، تلك كانت الأزمة التي ابتدأت بالتاريخ السياسي للعمال في القرن العشرين.

لماذا توصلت الحكومات الأوروبية إلى الاستنتاج بأن عليها أن تنظر إلى العمال بنظرة الجدّ؟ لم يكن ذلك لقوتها الاقتصادية، بالرغم من وجود الكثير من الموظفين الذي زعموا أن النقابات على وشك أن تخنق الصناعة. كانت المنظمات النقابية ذات وجود ضعيف وبسيط – لنقلْ 20-15٪ في بريطانيا وفرنسا، وأقل من ذلك في ألمانيا. كما لم يكن للعمال وجود سياسي كبير، باستثناء ما كان في ألمانيا، حيث كان الحزب الاجتماعي الديمقراطي يمثِّل القوة الانتخابية الأقوى بحيازته على 30٪ من الناخبين (الذكور). على كل حال، إذا أدخلت الديمقراطية الانتخابية كما هو محتمل، فإن المتوقَّع هو أن تصبح الأحزاب العمالية قوى انتخابية رئيسية، كما فعلت واقعياً في اسكاندينافيا، وفي أمكنة أخرى في السنوات التي تقدَّمت عام 1914. ومع ذلك، لم يكن الذي أثار أعصاب الحكومات الحسابات الانتخابية، وإنما الوعي الطبقي الواضح لدى العمال الذي عُبر عنه في أحزاب طبقية جديدة و«حمراء» بشكل غالب. وكما وصف الوضع ونستون تشرشل، رئيس مجلس التجارة في الإدارة الليبرالية الإصلاحية الجديدة في عام

1906، عندما قال: إذا انهار نظام الحزبين القديم المؤلف من المحافظين والليبراليين، فإن السياسة البريطانية ستصير سياسة طبقية مفتوحة وغير مقيّدة، أي سياسة يسيطر عليها نزاع المصالح الطبقية. وفي بريطانيا التي كان معظم سكانها من «العمال» أو اعتبر نفسه من «العمال» بدا ذلك أمراً ملحّاً يتطلب حلاً سريعاً، لكن تجنّب سياسة الصراع الطبقي كان مشكلة عامة.

ألزمت أزمة ميليران الأحزاب العمالية الجديدة للمرة الأولى لا الأخيرة، أن تنظر في علاقتها بالنظام الذي فيه تعمل وكان الزمن ملائماً، وبوضوح لطرح ذلك السؤال، إذ في ذات الوقت تقريباً (في خريف عام 1899) نشر إدوارد بيرنشتاين، وكان أحد أقطاب الماركسية الألمانية الأوائل، بيانه عن إصلاح فرضيات الاشتراكية وواجبات الاشتراكية الديمقراطية (Die Voraussetzungen des Sozialismus und die Aufgaben der Sozialdemokratie) الذي أدّى إلى جدلٍ مرّ في الحركة الدولية. وليس بالأمر عديم العلاقة أن كانت تلك المرحلة أيضاً، هي التي حصل فيها لأول مرة نشر كتب تحمل عناوين مثل: **أزمة الماركسية** (*The Crisis of Marxism*) [لمؤلفه ماسارك، رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا فيما بعد].

أما السؤال المركزي الذي بدا خلف أزمة ميليران والجدل حول تعديلية بيرنشتاين، فكان: الإصلاح أو الثورة؟ وفي ضوء الافتراض المفيد أنه في نهاية تسعينات القرن التاسع عشر، لم يكن متوقَّعاً الانهيار السريع للرأسمالية على الأقل في الاقتصاديات المتطورة، وما هي الوظيفة التاريخية التي ستكون للحركات العمالية؟ وبكلمات أخرى، هل يوجد طريقة غير ثورية تؤدي إلى الاشتراكية؟ فقد كانت حالتا ميليران وبيرنشتاين مفضوحتين، إذ لم يكن هناك سبيل للهرب من الوضع الحاسم الذي طرحا فيه ذلك السؤال. وقد رفض بيرنشتاين، لأنه أغضب جميع فرقاء الأممية باقتراحه تعديلاً صريحاً للماركسية، لذا شُجب من الجميع. وأحاطت الحركة مسألة ميليران بشكل محدد أكثر، لأنها اختصت بنظرية مفردة واشتراكية لم تكن موضع البحث. فاقترح حلٌّ تسووي مكَّن عملياً من مساهمة الأفراد، لا الأحزاب في «الحكومات البورجوازية». أما بالنسبة إلى بيرنشتاين، فقد وافقت الديمقراطية الاجتماعية على الأطروحة المفيدة أن تحسين أحوال العمال يشكل المهمة الرئيسية، وفي نفس الوقت شجبت بشكل مطلق وصريح تسويغه النظري، أي: الإصلاحية. والواقع كان بعد عام 1900 متمثلاً في أن حركات العمال الماركسية، حتى هذه في أقطار الرأسمالية الرئيسية عاشت في حالة تعايش وتكامل غير معترف به مع الرأسمالية، وليس في حالة حرب.

مع أن العمال والاشتراكية بديا غير منفصلين، فإن الحركتين لم تكونا متطابقتين. فقد كان ميليران وبيرنشتاين يشكلان أزمة للاشتراكية، وليس للحركات العمالية. وقد ناقش مؤتمر دولي ضمَّ مؤرخين عماليين موضوع «الحركة العمالية كمشروع حداثة فاشل»، وكان النقاش خاطئاً وفي غير محلّه. فالحركات العمالية والوعي الطبقي ليسا «مشروعين»، لكنهما في مرحلة معينة من الإنتاج الاجتماعي، ضروريان منطقياً، وهما من الوجهة السياسية من المميزات اللازمة لطبقات الرجال والنساء المستخدمين مقابل أجور. فالمصطلح «مشروع» ينطبق على الاشتراكية، نعني القصد منه استبدال الرأسمالية بنظام اقتصادي جديد ومجتمع جديد. فالحركات العمالية التي تنشأ في جميع المجتمعات تحتوي على طبقة عمالية، إلاّ حيث تكون محظورة بالقمع والإرهاب. وقد أدت حركات العمال دوراً مهماً في تاريخ الولايات المتحدة الأميركية. وماتزال تقوم بذلك الدور داخل الحزب الديمقراطي. وفي ذات الوقت، سبق أن طرح السؤال: «لماذا لا توجد اشتراكية في الولايات المتحدة الأميركية؟» - خاصة من قبل فيرنر سومبارت في عام 1906، الذي كان ماركسياً في وقت من الأوقات - مسلمًا بغياب الاشتراكية أو عدم أهميتها هناك، سواء كأيديولوجيا أم كحركة سياسية. ففي بريطانيا بحثت حركة نقابة لب - لاب(*) (Lib-Lab) عن دعم سياسي للحزب الليبرالي الذي لم تقطع روابطها به بشكل كامل، حتى إلى ما بعد الحرب العظمى. وقد صعب على الاشتراكيين والشيوعيين في الأرجنتين أن يفهموا كيف أمكن حركة عمالية راديكالية مستقلة سياسياً أن تنشأ وتتطور في تلك البلاد في أربعينات القرن العشرين، وهي التي تألفت أيديولوجيتها بشكل رئيسي من ولاء لجنرال قادر على إثارة الجماهير.

علاوة على ذلك، كانت هناك حركات عمالية أصلية وصادقة وناشطة ضد الاشتراكية، مثل حركة التضامن البولندية، وحركات عمالية مرتبطة بقوميات أو بأديان معينة، ومن دون روابط بأيديولوجيات أخرى. وهكذا، نجد أن محاولة الحكومة البريطانية، في سبعينات القرن العشرين، إدخال الكاثوليك في حكومة إيرلندا الشمالية، عطّلها إضراب عام للطبقة العمالية البروتستانتية. ومقابل ذلك، سجَّل لنا التاريخ حركات اشتراكية وشيوعية لم تكن لها أساس طبقي ولا بحثت عن أساس طبقي، وكانت من المسيحيين الأرثوذكس أو الهراطقة، ومن مختلف «الاشتراكيين الطوباويين» المتنوعين الهادفين إلى بناء المجتمع، وذلك كله في القرن التاسع عشر، وكان كله شائعاً في الولايات المتحدة الأميركية أكثر من أي مكان آخر.

(*) اختصار لـ ليبرالي وعمالي (Labour) أي للحزب الليبرالي وحزب العمال في بريطانيا (المترجم).

وطبعاً، لا يمكن الإنكار أنه منذ زمن البيان الشيوعي إلى سبعينات القرن العشرين كانت الحركات العمالية العديمة العلاقة بالاشتراكية، تدوران معاً. ذلك التكافل بين حركة العمال والاشتراكية لم يكن عرضياً. فالطرفان استفادا منه، ما عدا أنظمة «الاشتراكية القائمة فعلياً» التي ألغت الحركات العمالية لأنها كما ادعت أحزاب قالت إنها تمثِّل الطبقة العاملة وباسم الاشتراكية.

ومع ذلك، إن الحركات العمالية والاشتراكية ليستا متطابقتين بالضرورة. والحق يُقال إن المنظِّرين الماركسيين، بدءاً من كوتسكي إلى لينين، رأوا أن حركات العمال لا تولِّد اشتراكية عفوياً، فعليها أن تستوردها إلى داخلها من الخارج. قد يكون في ذلك القول مبالغة. فيمكن القول، إن عصر الثورات الصناعية الأميركية والفرنسية ساعدا على إنهاء النظام القائم واستبداله بمجتمع مختلف وأفضل، هو جزء من المشهد الفكري العام في الغرب على الأقل.

لذا فإن نضال العمال للحصول على شروط حياة أفضل، وجمعية بصورة جوهرية، عنى إمكانية الوصول إلى مجتمع أفضل، أي أعدل اجتماعياً، ومجتمع مشاد على التنظيم المتشترك والتعاون، وليس على التنافس. والمحتمل أن توافق حركات الفقراء على ذلك المطمح وتفضله. أما ما يجب إيراده إلى العمال من خارجهم، فهو شيء آخر: اسم ومحتوى المجتمع الجديد، واستراتيجية انتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، وقبل أي شيء، مفهوم حزب طبقي مستقل سياسياً، وناشط على الصعيد القومي. ويمكن أن تنشأ، بشكل عفوي منظمات مثل نقابات العمال، والتعاون المتبادل والمجتمعات المتعاونة، من تجارب العمال الحياتية، لكن لا يمكن أن تنشأ أحزاب سياسية.

كان الإسهام الأساسي لماركس وإنجلز، منذ **البيان الشيوعي** وما تبعه، يفيد أن التنظيم الطبقي للعمال يجب أن يجد تعبيراً منطقياً عنه، في حزب سياسي يكون ناشطاً في أرض الدولة، أو خارجها أيضاً. (وهذا غير ممكن إلّا في الدول الدستورية، الليبرالية أو البورجوازية - الديمقراطية). وهذا قول له أهمية تاريخية هائلة، ليست محصورة فحسب، في الحركة العمالية، التي لا تقدر أن تمضي بعيداً في أهدافها من دون تحريك دعم من الدولة ضد المستخدَمين، بل لبنية السياسة الحديثة عموماً. كما أنه واقعي لأن العديد من مثل تلك الأحزاب، وبعضها ما زال على انتسابه الطبقي الأصلي - الحزب الاشتراكي الإسباني للعمل (Partido Socialista obrero español)، الحزب السويدي للديمقراطية والاشتراكيّة (Sveriges socialdemokrtiska Arbetarepar-

tiet) وحزب العمال في الشمال (Det Norske Arbeiderparti) - الذي نشأ بعد وفاة ماركس، كان مصيرها الحكم والبقاء في الحكم أو كانت أحزاب معارضة رئيسية، في الكثير من أوروبا اللاشيوعية. وفي ذلك رقم قياسي لاستمرارية وأهمية لا مثيل لهما في قارتنا. وهذا يبطل الاعتقاد بأن الحركات العمالية يجب أن تصير أو تبقى ثورية، لأنه لا سبيل لها سوى ذلك في ظل الرأسمالية. وبالنسبة إلى الافتراض الذي زعم أن البروليتاريا بالضرورة التاريخية كانت أو ستكون «طبقة ثورية حقيقة»، فقد اتضح الآن أنه بلا أساس. علاوة على ذلك، فقد علّمنا التاريخ أيضاً، أن الثورات عبارة عن مجموعات معقدَّة من الأحداث، فلا يمكن اعتبارها بسذاجة نسخاً عن البنية الطبقية. كان يمكن للمنظرين والمؤرخين اليساريين المختصين بالعمال مثل الماركسيين، أن يشرحوا سبب الرفض العنيد من قِبَل أحزاب الطبقة العمالية، أن تقوم بالدور الثوري المنسوب إليها، وأن توفّر لأنفسها وقتاً كثيراً وجهداً وفطنة.

وباختصار أقول، إن الأقطار (ذات الدساتير)، والأقطار الرأسمالية المتطورة، التي لم تكن فيها الثورات في جدول أعمال أحد ولأسباب أخرى جحد فيها ثوريون داخل الحركات العمالية أو خارجها، لكن معظم العمال المنظَّمين بمن فيهم ذوي الوعي الطبقي لم يكن ثورياً حتى عندما كانت أحزابه ملتزمة بالاشتراكية.

الوضع كان مختلفاً في أقطار مثل أقطار الإمبراطوريتين الروسية والعثمانية، حيث إن تغيّراً سياسياً نحو الأفضل لا يمكن توقعه آتياً بالثورة.

لذا لا شيء في الدول المحورية للرأسمالية المتطورة بدا أنه حجر عثرة في طريق التكافل بين العمال ونظام اقتصادي مزدهر، في بداية القرن العشرين. فلا انهيار الرأسمالية ولا زوال المؤسسات الليبرالية والمتزايدة الديمقراطية المميّزة لتلك المنطقة هما في الأفق. فالنموذج الرأسمالي للتطور لا يبدو أنه قيد الهلاك أكثر مما كانت البنية الإمبريالية للعالم، وذلك لأن حالة العالم «المتقدم» والمتفوّق عسكرياً كانت واضحة في العالم «المتخلِّف». وكان واضحاً للماركسيين أن التطور الرأسمالي - البورجوازي هو السبيل الوحيد للتقدم في الأقطار «المتخلّفة» حيث تؤلف الثورة المطمح الحقيقي وليست مجرد وسيلة من الكلام البليغ. لذا حوّل الذين أطلق عليهم وصف «الماركسيين القانونيين» الماركسية إلى أيديولوجيا التصنيع الرأسمالي، لكن - إلى عام 1917 - نجد أنه حتى البلاشفة اقتنعوا أن الهدف المباشر للثورة الآتية هو مجتمع بورجوازي - ليبرالي، لأن هذا وحده يمكنه أن يخلق الشروط التاريخية لتقدم أوسع نحو الثورة البروليتارية، وبعدها الاشتراكية.

الحرب العالمية الأولى أيدت جميع تلك التوقّعات. «فعصر الكارثة» منذ عام 1914 إلى أواخر أربعينات القرن العشرين ظلَّ حيّاً في ظل الحرب والانهيار الاجتماعي والسياسي والثورة – وقبل كل شيء، ثورة أكتوبر الروسية. فلم يصحّ شيء في العالم القديم. فانتهت الحروب بثورات الحروب وبثورات واضطرابات في المستعمرات. وسمحت الدول الدستورية البورجوازية – الليبرالية والديمقراطية، وبحكم القانون لأنظمة سياسية لم يمكن تصوّرها قبل عام 1914، مثل ألمانيا الهتلرية أو الاتحاد السوفيتي الستاليني. واقتصاد السوق الخاص بالمذهب االليبرالي الاقتصادي، حتى هذا، تداعى في أزمة أوائل ثلاثينات القرن العشرين. فهل يمكن للرأسمالية أن تبقى على قيد الحياة، إلّا على شكل يلغي الديمقراطية والحركة العمالية كليهما؟ لا يستطيع أن يشرح ذلك سوى عمق الاضطرابات في الرأسمالية العالمية، وحتى خارج الاتحاد السوفيتي يمكن اعتبار الاقتصاد الصناعي البدائي للاتحاد السوفيتي الستاليني بجدّية أنه نظام أكثر ديناميّةً من اقتصاد الغرب، وأنه بديل عالمي ممكن للرأسمالية. وفيما بعد في أوائل ستينات القرن العشرين، ظلَّ هناك سياسيون بورجوازيون، مثل رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان (Harold Macmillan) شاركوا معتقد خروتشيف المفيد أن الاقتصاديات الاشتراكية قد تفوق في إنتاجها الاقتصاديات الغربية. والذين شكوا بالإنجاز الاقتصادي للاتحاد السوفيتي وطاقته الكامنة لم يقدروا أن ينكروا وزنه السياسي وقوته العسكرية العالميين. فاذا كانت الحرب العالمية الأولى قد قضت على القيصرية، فإن الثانية حوَّلت روسيا إلى قوة كبرى. وبالنسبة لأجزاء واسعة من المستعمرات المحرَّرة الآن، ولأجزاء أخرى من «العالم الثالث» صار الاتحاد السوفيتي والاشتراكية يؤلفان النموذج الاقتصادي لكيفية القضاء على التخلّف.

لذلك، فإن البرنامج السياسي للاشتراكيين وللحركات العمالية في عصر الكارثة تحوَّل من التعايش مع الرأسمالية إلى إنهائها. فالثورة وما يتبعها من بناءٍ للمجتمع الجديد بدأا يؤلفان مطمحاً أفضل من التقدّم البطيء عبر الإصلاحات هنا، والآن بغية الوصول إلى اشتراكية بعيدة ولا يسعى إليها بجدّية. فسيدني وبياتريس وِبْ المفكران الموحيان للحركة الفابيّة البريطانية ورسولا الإصلاح التدريجي الذي أوحى لبيرنشتاين بمذهبه التعديلي في تسعينات القرن العشرين، شجبا الإصلاح في ثلاثينات القرن العشرين، وأكّدا على اعتقادها بالاشتراكية السوفيتية.

ومع ذلك، وبالرغم من أن الأمور بدت مختلفةً كثيراً بعد عام 1917، فإن الماركسية في حصونها الرئيسية، لم تكن مهدَّدة بانهيار نهائي ولا بثورة اجتماعية محصورة بأقطار

تقع في أطراف النظام. فلم تنتقل الثورة السوفيتية أبداً، من بيتروغراد (Petrograd) إلى برلين، ونحن نرى الآن أن توقع حدوث ذلك أمر غير واقعي. لذا، فان أسس التعايش الإصلاحي ظلّت متينة. والواقع هو أن التعايش صار أكثر جذباً للسياسيين والمقاولين (Entrepreneurs) بوصفه وقاية من الثورة الاجتماعية وشبح حركة شيوعية عالمية، وكل ذلك عندما كان هناك، تمييز حادّ بين أحزاب ديمقراطية اجتماعية إصلاحية وأحزاب شيوعية ثورية هي في حالة عداء متبادل معها. فكل ما كان مفقوداً بين الحربين كان غالباً الازدهار الذي يوفّر الوسائل التي تؤدي إلى التنازلات الضرورية للحركات العمالية. وفي كل الأحوال، وحتى في أسوأ أيام الأزمة رفضت الأكثرية في الحركات العمالية في تلك الأقطار أن تتحوَّل من أحزابٍ إصلاحية إلى أحزاب ثورية. وبين الحربين لم يكن هناك سوى ثلاث دول كانت فيها الأحزاب الشيوعية شرعية، وتمتعت بتأييد واسع، وحتى هناك، ظلَّت أضعف من الديمقراطية الاجتماعية، نعني في: ألمانيا وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا. ولو شرعن الحزب الشيوعي في فنلندا لأمكن وجود أربعة أحزاب. وفي أمكنة أخرى، سجَّلت الأحزاب الشيوعية، بين الحربين رقماً كان أعلاه 6٪ من الأصوات (نذكر بلجيكا، والنرويج، والسويد) وحتى ذلك الرقم كان لمدة قصيرة.

بعد الحرب العالمية الثانية طبق التعايش بانتظام كجزء من سياسة إصلاح بنيوي للرأسمالية الغربية عبر السياسة المتعمَّدة، وسياسة الاستخدام الكامل، وما صدر دعي دولة الرعاية، وعلى أساس ظواهر التقدّم الواسع في الاقتصاديات الرأسمالية في العقود اللاحقة بعام 1945 (1947 – 1973). فهل كان يمكن لتلك المحاولة الواعية الرامية إلى توحيد العمال أن تنشأ من دون اختبارات الخضّة المؤلمة للكساد الاقتصادي الكبير في داخل الحرب، وصعود ألمانيا الهتلرية؟ وما مقدار ما يعود إلى الخوف من الشيوعية، التي ازدادت قواها بصورة دراماتيكية خلال سنوات المقاومة المضادة للفاشية؟ فمن وقف خلفها ودعمها زمانئذٍ كان قوى كبرى. هل كان ممكناً لبيرنشتاين («الحركة هي كل شيء الهدف الأخير لا شيء») أن يربح من دون ستالين وهتلر؟ أجيب، إنه ما كان ممكناً.

لذا، نرى أن النموذج التعديلي للحركة العمالية في الأقطار المحورية للرأسمالية شاع في العصر الذهبي الجديد للرأسمالية الغربية. وكان رمز فوزه هجران الماركسية الرسمي في برنامج الديمقراطي الألماني. وبدا أن شيئاً لم يفقد بدفنه، ما عدا ذكريات عاطفية، إذ عندما قارب العصر الذهبي (1947 1973) من نهايته كانت أهداف الإصلاح قد تحققت عملياً، وكان العمال في وضع لا مثيل له، أفضل مما استطاع أن

يتصوره أكثر ممثّلي الإصلاح قبل عام 1914. ومع ذلك، ظلّت أحزاب التعديل متجذّرة في الطبقة العاملة، بالرغم من تخلّيها عن «الهدف الأخير» للاشتراكية، وبالرغم من محاولات اقتناصها من قِبَل أجنحة اليسار التقليدية، داخلها. فلم تتوقف طبقة العمال اليدويين وقاعدتهم الانتخابية الرئيسية عن التصويت لها. ولم تشرع في ترك أحزابها الطبقية لاحقاً.

والواقع هو أنه حتى نهاية سبعينات القرن العشرين، ظلَّ التوسّع اللافت في الإنتاج يتطلّب جمهوراً واسعاً من العمال الصناعيين الذين بقوا لذلك السبب، وصاروا جزءاً رئيسياً من جمهور الناخبين. وفي سبعينات القرن العشرين، كان هناك بروليتاريون على نحو مطلق ونسبي في أوروبا الرأسمالية، أكثر مما كان في نهاية القرن التاسع عشر، عندما أنتج الوعي الطبقي الجديد للعمال، وبصورة مفاجئة أحزاباً بروليتارية واسعة. على كل حال، الواضح أيضاً الآن هو أن تلك الأحزاب الطبقية العمالية، وحتى المؤلفة من إصلاحيين وثوريين معاً، لم تتمكن أن تسيطر على أكثر من نصف أصوات الناخبين، وهذا الرقم ذاته لم يكن إلاّ بعد الحرب العالمية الثانية.

وبمعزلٍ عن فترة ما بين الحربين، يمكن تلخيص تطوّر الحركات العمالية في الأقطار الرأسمالية المحورية إلى زمن الأزمة بعد سبعينات القرن العشرين، بالآتي:

بدأت سياسات الطبقات الحاكمة حتى قبل الحرب العالمية الأولى في مواجهة التحوّل الديمقراطي السياسي المتنامي (والمتسارع بضغط من الأحزاب العمالية الجديدة) بالتحوّل نحو الإصلاح الاجتماعي. وكانت تلك العملية قد تسارعت بين الحربين في الأقطار اللافاشيّة، إلاّ أنها لم تصبح منظَّمة إلا بعد الحرب العالمية الثانية، تحت شعار «الاستخدام الكامل» و«دولة الرعاية». وقبل عام 1914 شجع التحول إلى الديمقراطية والنمو الاقتصادي إقراراً واسعاً بقيمة الحركات العمالية المعتدلة، بالرغم من أن ألمانيا الإمبريالية ظلَّت استثناءً رئيسياً. وكان الحاصل تطابق الحركات والأحزاب العمالية في الممارسة مع دولها القومية. ولم يتجلَّ ذلك إلاّ عند انفجار الحرب في عام 1914.

شهدت نهاية تلك الحرب ارتفاعاً لافتاً في أعداد الطبقة العاملة المنظَّمة وفي قوتها. ومع أن ذلك الوضع لم يبقَ بين الحربين، فإنه كأعداد وكقوة استمر خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها. وباستثناء أقطار ضعيفة تقليدياً، أو غير مستقرة صناعياً، مثل فرنسا وإسبانيا، فان ذلك الوضع بلغ ذروة قوته في سبعينات القرن العشرين. فالأحزاب

العمالية صارت دولاً وقوى تحافظ على النظام. فخلال الحرب الأولى وبعدها شارك ممثلوها في الحكومات وسريعاً بعد ذلك شكلوا حكومات بأنفسهم، وبالرغم من أنهم لم يتمكنوا من ذلك إلّا بعد عام 1945، ومن دون دعم من الأحزاب غير الاشتراكية. وقد بلغ ذلك التطوّر أوجه في سبعينات القرن العشرين، وفي وقت أو آخر حكمت حكومات ديمقراطية اجتماعية في النمسا وبلجيكا والدانمارك وفنلندا والنرويج والبرتغال وإسبانيا ما بعد فرانكو، والسويد، والمملكة المتحدة وألمانيا الفيدرالية، ولحقتها فرنسا واليونان في عام 1891. بعدئذٍ وقعت الكارثة.

فما الدور الذي أداه الثوريون في الحركات العمالية في الأقطار المحورية للرأسمالية الغربية؟ نجيب إنه مهما كانت نظريتهم، فإنهم لم يستطيعوا في الممارسة أن يكونوا ثوريين، فلا انهيار الرأسمالية ولا إنجاز الاشتراكية يمكن توقعه. ومن ناحية أخرى بقيت الحاجة إليهما إذ إن الحركات العمالية للااشتراكية، حتى هذه، اعتمدت على الجمع بين الصراع الطبقي في مكان العمل والضغط السياسي على الحكومات القومية، فضلاً عن الأفكار التي تعبِّر عن مطامحها. وحيث كانت النقابات العمالية قويّة، تمكَّن الثوريون أن يقوموا بدور مهم، بحيث تمكنت الأقليات الضعيفة من الشيوعيين من أن تكون ذات أثر، وإن غير متناسب في أقطار مثل بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية، حيث أحزاب الشيوعيين مهملة من الناحية السياسية. وإن ذروة نفوذ الحزب الشيوعي في الحركة النقابية البريطانية تمَّ الوصول إليها في سبعينات القرن العشرين، عندما كان الحزب الشيوعي على عتبة الموت.

ظلَّ الشيوعيون اللا قانونيون، في الدكتاتوريات التي بقيت من زمن الكارثة – مثل إسبانيا والبرتغال – يمثِّلون القوة الرئيسية في المقاومة، وأدوا دوراً مهماً في عملية الانتقال إلى الديمقراطية في سبعينات القرن العشرين، لكن سرعان ما هُمِّشوا. وفي إيطاليا استبعد أكبر حزب شيوعي وله جماهير في أوروبا عن الحكم بضغط من الولايات المتحدة، فنأى بنفسه عن الاتحاد السوفيتي، وتحرك نحو النموذج الاجتماعي – الديمقَراطي. وفي فرنسا تبع سياسة إصلاحي لبضعة سنين في سبعينات القرن العشرين، كجزء من الجبهة الشعبية الجديدة التي أنشأها ميتران، الذي كان قد أعاد تأسيس الحزب الاشتراكي. دخل في الحكومة في زمن رئيس الجمهورية الاشتراكي، بين عامي 1981 – 1984، وكانت المرة الأولى، منذ عام 1947، التي سمح فيها لحزب شيوعي بذلك – لكن سرعان ما ارتدَّ إلى الخط التقليدي المتشدِّد. وبعد خسرانه في الانتخابات وتفوّق التشاركيين المتجدِّدين عليه في المناورات، ومنذ عام 1974، إنهار دعم الجمهور له في ثمانينات القرن العشرين.

كان الوضع مختلفاً جداً خارج الأقطار المحورية للرأسمالية، بما في ذلك الدول التي هي الآن خاضعة للثورات اللينينية المظفَّرة في عام 1917 وفي الأعوام 1945 – 1949. لقد صعد البلاشفة إلى الحكم باسم البروليتاريا، وخلقت خططهم خطط السنوات الخمس طبقة عمالية صناعية كبيرة، لكنهم ألغوا حركة العمال كما نعرفها. وإلى النهاية لم يسمح الاتحاد السوفيتي لأي تنظيم عمالي لا يكون تحت إشراف الحزب والدولة، وهو النموذج الذي أُتّبع في الدول الشيوعية التي خَلفَت بعد عام 1945، ما دامت تملك القوة على فعل ذلك. فيمكن كتابة تاريخ الطبقة العاملة في العالم الشيوعي أيضاً، وتاريخ النزاعات العمالية في العالم الشيوعي، لا تاريخ الحركات العمالية، باستثناء رئيسي ألا وهو حركة التضامن في بولندا، في ثمانينات عام 1980.

وفي أمكنة أخرى في العالم الثالث، بدأت الحركات الاشتراكية أو أن الحركات العمالية الأخرى، مع الثورة الروسية (أعطِ كمثلٍ أو إتثنِ أوستريليسيا -Austral asia). فلم توجد الأممية الثانية في تلك المناطق، ولم يكن هناك أساس للسياسات الاجتماعية – الديمقراطية، فضلاً عن سياسات بيرنشتاين. ومن ناحية أخرى، وجد أنه في بعض الأقطار الأميركية بشكل رئيسي ظاهرة لم تكن، ولأسباب تاريخية، في العالم القديم، نعني استعداد رؤساء الدول الديماغوجيين لتفضيل الحركات العمالية، كجزء من صراعهم ضد النخبوية الإقطاعية الأقدم. تلك كانت الحالة في الأرجنتين وفي البرازيل، وفي المكسيك أدى الحزب العمال الجمهوري (...) (PRI) الدور ذاته، وكان حزب الدولة المؤسَّس الذي نشأ بعد الثورة المكسيكية. والواقع أنه إلى بدايات التصنيع الواقعي في سبعينات القرن العشرين وبعدها، كان من الصعوبة بمكان وجود طبقة عمالية منظمَّة، في تلك المناطق غير العاملين في المناجم، والطاقة، والمواصلات وعمال المرافئ والنسيج. ومنذئذٍ نشأت حركتان شبيهتان بما حدث في أوروبا قبل قرن. وهما نشوء حركة نقابية واسعة في كوريا وحزب العمال في البرازيل، وكلاهما في ثمانينات القرن العشرين. وكان تأثير اللينينية (الأرثوذكسية أو المنشقة) مهماً في الحركات، لكنه لم يكن حاسمًا إلّا في أقطار قليلة. ومهما كانت الأيديولوجيا وراء تلك الحركات، لجهة وجودها أو عدمه، فإنها عملياً حدثت في أقطار كان فيها الانقلاب العسكري، والثورة، وحرب الشوارع وإطلاق النار ظواهر مألوفة أكثر من السياسات الديمقراطية السلمية. ففي الصين وفيتنام، كما في الاتحاد السوفيتي لم يؤدِّ التصنيع الواسع إلى نشوء تنظيم عمالي مستقل.

بعد ذلك، ومنذ سبعينات القرن العشرين، تغيّر كل شيء: فقد لينين وبيرنشتاين

آمالها. وكل إنسان عرف أن الاتحاد السوفيتي انهار، واضمحلَّت الأحزاب الشيوعية غير الحاكمة. والمعلوم بصورة أقل هو أن ديمقراطية بيرنشتاين الاجتماعية أزيحت. وصارت عمارة الإصلاح تشاد على أسس ثلاثة. **أولها** مقدار الطبقة العمالية ونموّها، والوعي الذي ربط بقوة مجموعة متغايرة من العمال مع الفقراء في طبقة واحدة، واستعداد الحكومات البورجوازية الديمقراطية حتى قبل عام 1914، للقيام بتنازلات لتلك المجموعات المهمة الناخبة، شرط أن لا يكون سلوكها متطرفاً في الراديكالية. غير أن الذي حصل منذ سبعينات القرن العشرين هو أن طبقات العمال اليدويين في الأقطار الرأسمالية المحورية («العالم الأول») تقلّصت بصورة مطلقة، وفقدت مقداراً كبيراً من وعيها الطبقي الموحَّد. وتمادى ذلك الوضع إلى درجة جعلت بعض المجموعات داخلها، تعود بصورة مطلقة إلى الحركة التي كانت في الماضي، وتنتقل إلى أحزاب الليبرالية الاقتصادية، كما حدث في بريطانيا في زمن تاتشر، وفي الولايات المتحدة في عهد ريغان. وفي ثمانينات القرن العشرين لاحظنا أيضاً نشوء أحزاب من اليمين القومي الراديكالي، وقد كان لها جاذبية للناخبين من الطبقة العمالية بشكل ملحوظ في فرنسا [لو بِنْ (Le Pen)] وفي النمسا [حيدر (Haidar)]. وبالإضافة إلى ذلك كان للزيادة الواسعة في ثروة المجتمعات الاستهلاكية ذات الوفرة، التي أفادت الطبقات العاملة قوة تدمير للاعتقاد البدهي المفيد أن التحسن الحقيقي في حالة الفرد في الطبقة العاملة لا يتحقَّق إلاّ عبر التضامن والعمل الجمعي. أمّا الجواب على السؤال عن المقدار الذي سبَّبه انحدار الأيديولوجيا اليسارية بما فيها التشاركية المتجذرة في عصر التنوير في القرن الثامن عشر، فيخضع للتخمين، وللتخمين فقط. وقد لا يكون ذلك بذي أهمية في أوروبا، لكن الحالة مختلفة في أجزاء من آسيا وأفريقيا خاصة في المناطق الإسلامية. فالثورة الإيرانية في عام 1979، كانت أول ثورة كبرى منذ زمن كرومِلْ (Cromwell) التي لم تستمد وحيها من أيديولوجيا علمانية، بل توجهت إلى الجماهير بلغة الدين. وراح يظهر إسلام (سني) أصولي مُسيَّس في مناطق مختلفة ما بين باكستان ومراكش قويَ بعد الثورة الإيرانية. وفي ذات الوقت حصل كما كنا رأينا انحدار عميق في الماركسية وفي اليسار الاجتماعي - الديمقراطي وظواهر عدم تسيّس في أوساط العمال والطلاب.

وقد وفرت الثورة الروسية لمذهب الإصلاح أساساً **ثانياً**، نعني: الخوف من الشيوعية والاتحاد السوفيتي. فتقدم هذين خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها اقتضى في أوروبا على الأقل من الحكومات ومن المستخدِمين خطةً سياسية مضادّة

تشمل الاستخدام الكامل والضمان الاجتماعي المنظَّم. غير أن الاتحاد السوفيتي لم يعد موجوداً، وصار يمكن للرأسمالية مع سقوط جدار برلين أن تنسى مسألة الخوف، ولذلك فقدت الاهتمام بالشعب الذي لا يملك أسهماً. وفي كل الأحوال نقول، إن سلطان العطالة عن العمل في ثمانينات وتسعينات القرن العشرين فقد قوته القديمة القادرة على تثوير ضحاياه.

ومهما يكن من أمر ثبت بعد عام 1945 أن المذهب الإصلاحي خاصة الاستخدام الكامل لأزمان الاقتصاد وكذلك سياسات كالتي تنبأ بها كينيس والاقتصاديون والسويديون أتباع الديمقراطية الاجتماعية الاسكاندينافية. وشكل ذلك الأساس الثالث للإصلاح، وصار سياسة لجميع الحكومات تقريباً (ومن دون استثناء الولايات المتحدة الأميركية)، وليس سياسة الحكومات الديمقراطية - الاجتماعية فقط. وقد جلب ذلك للأقطار الغربية الاستقرار السياسي ونجاحاً اقتصادياً غير مسبوق. وظلَّ الحال على حاله إلى أن كان العصر الجديد بعد عام 1970، عندما لم يعد الاقتصاد ولا سياسة الإصلاح التي اتُّبعت بعد الحرب يثمران تلك الثمار الإيجابية حنيئذٍ اقتنعت الحكومات بجدوى الأيديولوجيات الفردية الخاصة بالمذهب الليبرالي الاقتصادي الراديكالي الذي غزا الهيئة التعليمية في مدينة شيكاغو. فبدا لهم أن الحركات العمالية، وأحزاب العمال وأنظمة الرعاية الاجتماعية العامة ليست إلاّ عقبات للسوق الحرّ الذي يؤمِّن نمواً عالياً في الأرباح والاقتصاد وبالتالي في الرعاية الاجتماعية العامة أيضاً - بحسب ما تقول الأيديولوجيات. ونظرياً كان يجب التخلّي عنها، لكن كان مستحيلاً عملياً. «فالاستخدام الكامل» استبدل الآن بمرونة سوق العمل وبعقيدة «المعدل الطبيعي للعطالة».

ومثَّل ذلك أيضاً الفترة التي كانت تتراجع فيها الدول القومية أمام تقدّم الاقتصاد العالمي العابر للقوميات. وبالرغم من الأممية النظرية للحركات العمالية، فإنها لم تكن فعّالة إلاّ داخل دولها، ومقيَّدة بما يشبه الأغلال بدولها القومية خاصة في الاقتصاديات المختلطة والموجَّهة من الدولة وفي دول الرعاية الاجتماعية في النصف الثاني من القرن العشرين. وعندما تراجعت الدولة القومية، فقدت الحركات العمالية والأحزاب الديمقراطية الاجتماعية، سلاحها الأقوى. فلم تعد بعدئذٍ ناجحة جداً في العمل على الصعيد العابر للقوميات.

وهكذا نجد أنه عندما تدخل الرأسمالية حقبة جديدة لأزمة، نكون في نهاية مرحلة

فريدة في تاريخ الحركات العمالية. فهي لا تزال موجودة في الأقطار الغنية للرأسمالية القديمة، بالرغم من استمدادها قوتها بمقدار كبير من الخدمات العامة التي لم تظهر علامة على تقلّصها، بالرغم من حملات الليبرالية - الجديدة. فلا إمكانية لحصول هبوط في العمل الصناعي في «الاقتصاديات الناشئة» المتسارعة التصنيع في الخارج. لقد بقيت الحركات الغربية على قيد الحياة، لأن الأكثرية العظمى من الشعب الناشط اقتصادياً كما تنبّأ ماركس اعتمدت على أدورها ورواتبها(*)، لذا، عرفت الفرق بين مصالح مقدِّمي الأجور والذين يتلقّونها. وعندما ينشأ نزاع بين الطرفين، فإنه يعني عملاً جمعياً يقوم به متلقّي الأجور، في كل الأحوال. لذا، فإن الصراع الطبقي يستمر، أكان موعوداً بأيديولوجيات سياسية أم لم يكن.

علاوة على ذلك، استمرت الفجوة بين الأغنياء والفقراء والانقسامات بين المجموعات الاجتماعية ذات المصالح المتضاربة، سواء أدعوّنا تلك المجموعات «طبقات» أم لم نصفها كذلك. ومهما كانت الترتيبات الاجتماعية المختلفة منذ مئة عام أو مئتي عام، فقد استمرت السياسة، ولو أنها لم تكن سياسة طبقية إلاّ بالمعنى الجزئي.

وأخيراً نقول، إن الحركات العمالية استمرت لأن الدولة القومية ليست في طريق الانقراض. وظلَّت الدولة وسلطات عامة أخرى المؤسسات الوحيدة القادرة على توزيع الناتج الاجتماعي على الشعب بمفردات إنسانية، وتلبية الحاجات الإنسانية التي لا يستطيع السوق تحقيقها. لذلك، ظلَّت السياسة وتظل البعدّ الضروريَّ للصراع للتحسين الاجتماعي. والحق يُقال، إن الأزمة الاقتصادية الكبرى التي ابتدأت في عام 2008 كنوع من معادلٍ يميني لسقوط جدار برلين، ولّدت إدراكاً مباشراً مفيداً أن الدولة جوهرية للاقتصاد الذي يكون في حالة اضطراب، كما كانت جوهرية في فوز الليبرالية - الجديدة عندما وضعت الحكومات أسسها عبر الخصخصة المنظَّمة واللا تنظيم بالقانون.

تمثَّل أثر حقبة 1973 - 2008 في الديمقراطية في التخلّي عن بيرنشتاين. وشعر القادة في بريطانيا أن لا خيار لهم سوى الاعتماد على مثل تلك المنافع التي ولَّدها النمو الاقتصادي للسوق الحرّ العالمي بطريقة أوتوماتيكية، بالإضافة إلى السلامة الاجتماعية الجوهرية المؤمَّنة من علٍ. «فالعمال الجدد» تطابقوا مع مجتمع السوق، وظلّوا كذلك

(*) الأجر (Wage) هو مايقبضه العامل أسبوعياً، أما الراتب (Salary) فهو مايقبضه شهرياً (المترجم).

حتى تحطمه في عام 2008، قاطعاً رباط العضوي بالحركة العمالية. كانت الحالة متطرفة، لكن وضع الديمقراطية الاجتماعية الإصلاحية في معاقل أخرى (بما في ذلك الحزب الشيوعي الواسع المتبقي، نعني الإيطالي) تدهور تدهوراً قوياً، باستثناء ألمانيا الاتحادية وإسبانيا. وانشق الشيوعيون إلى «شيوعيين أوروبيين» معتدلين وتقليديين متشدِّدين، وبلغ الانهيار حدّاً لم تعد عنده الشيوعية القوة السياسية الخطرة، في الغرب.

على كل حال، كان الذي حصل هو أن هذا العصر هو في نهايته أيضاً بعد أن دخل العالم فجأة في أخطر أزمة للرأسمالية منذ زمن الكارثة في عام 2008. وكان وضع العمال، مثل البداية، وضع عدم تطابق. فأحزابهم كانت لا تزال في الحكم في عددٍ من الأقطار الأوروبية، وحدها أو بالاشتراك في «تحالف كبير» (في إسبانيا، والبرتغال، والمملكة المتحدة، والنرويج، وألمانيا، والنمسا وسويسرا). فحصل أن ردّ الانهيار المالي المفاجئ الاعتبارَ للدولة بوصفها ممثلاً اقتصادياً، وبوصفها الجهة التي لجأ إليها المستخدِمون والعمال لإنقاذ ما بقي من الصناعات القومية. علاوة على ذلك، كانت هناك علامات واضحة تدل على وجود عقلية عمالية قتالية وسخط عام، وبالرغم من أن التقليد العمالي القديم الذي يقول «نازلون إلى الشارع» (descendre dans la rue، كما كان يقول الفرنسيون) قد ضعف، مع أنه ما زال حيّاً وله أهمية سياسية في بعض الأقطار الأوروبية، وفي أمكنة أخرى، كما الحال في الأرجنتين. وما تزال الحركات النقابية المهمة موجودة، وما يزال يقودها رجالٌ ونساءٌ نشؤوا في التقليد الاشتراكي، الاجتماعي - الديمقراطي أو الشيوعي.

يمكن القول إنه في مثل هذا الزمن، تكون إعادة الحركات العمالية ذات العلاقة باليسار الأيديولوجي ممكنة، لكن ذلك على الورق. أما في الممارسة فإننا نقول إن مطامحها القصيرة المدى غير مشجِّعة، حتى بالنسبة إلى الذين لا يتذكرون أن النتيجة السياسية المباشرة للكساد الاقتصادي الكبير في 1929 - 1933 كانت بمنزلة تحوّل دراماتيكي بعيداً عن الحركات العمالية واليسار في أوروبا جميعها تقريباً. فالاشتراكيون، وهم هيئة الخبراء عند العمال لا يعرفون أكثر من سواهم كيفية التغلّب على الأزمة القائمة. وخلافاً لما كان يحصل في ثلاثينات القرن العشرين، فهم عاجزون عن الإشارة إلى أمثلة عن أنظمة شيوعية أو اجتماعية - ديمقراطية منيعة على الأزمات، كما أنهم لا يحوزون على مقترحات واقعية تفيد في التغيير الاشتراكي. وقد سبق في الأقطار الرأسمالية القديمة في الغرب أن تمكن عدم التصنيع من التقليص، وهو سوف يستمر في تقليص القاعدة الرئيسية الصناعية والانتخابية للطبقة العاملة الصناعية. أما في الأقطار الناشئة

حديثاً حيث لم يكن ذلك قد حدث، فإن الحركات العمالية قد تتوسَّع، لكن لا وجود لأساس حقيقي لتحالفها مع الأيديولوجيات التقليدية الخاصة بالتحرير الاجتماعي، إمّا لأن هذه ارتبطت بأنظمة شيوعية حالية أو سابقة، أو لأن الحركات ذات الرباط «الأحمر» في الأزمنة السابقة قد هزلت في الوقت الحاضر (ولنستثنِ الحالة غير العادية الخاصة بأميركا اللاتينية).

لا ريب في أن بعضاً من ذوي التفكير الراديكالي أو اليساري نشأ خلال تصدّع وانهيار الأيديولوجيات القديمة لليسار، لكن ذلك حدث على أساس الطبقة المتوسطة. فقد كانت مشاغله ذات صلة مباشرة بنشاطات الحركات العمالية – مثلاً، البيئة، أو العداوة القوية لحروب تلك الحقبة الزمنية. وكان يمكّن ذلك البعض أن يخاصم الأعضاء. وحيثما تصوّر تحوّلاً اجتماعياً، كان يمثِّل الاحتجاج وليس الفكر الموحي. ولم يكن بالأمر العسير معرفة ما يضادّ – فقد كان أفراده «ضد الرأسمالية»، وإن من غير فكرة واضحة عن الرأسمالية – ولكن كان من المستحيل تحديد ما رأوه بديلاً عنها. ويمكن لهذه الحالة أن توضح عودة إلى ما يبدو شبيهاً بفوضوية باكونين التي مثَّلت فرعاً من النظريات الاشتراكية في القرن التاسع عشر مع أفكار قليلة تتعلق بما سوف يحدث عندما يتم إسقاط المجتمع القديم، ولذلك، تكيّفت بسهولة مع وضع قوامه السخط الاجتماعي المتطرف العديم الهدف. وفي حين كان ذلك ذا أثرٍ بوصفه مولِّداً لدعاية عبر القيمة الإعلامية للمظاهرات، والمواجهات مع رجال الأمن، وبعض النشاطات الإرهابية، فهو لم يكن له أي أثر على مستقبل الحركات العمالية اليوم. فلدينا الآن ما يعادل «الدعاية عبر الفعل» في القرن التاسع عشر، لكن من دون نقابية ثورية – فوضوية.

ليس واضحاً مقدار ما يمكن المجتمعات المتخيَّلة، والإثنية، والدينية، والجنسية، وأسلوب الحياة وهويّات جمعية أخرى أن تملأ الفراغ الذي خلّفه تلاشي الأيديولوجيات القديمة لليسار الاشتراكي. ومن الوجهة السياسية، يبدو أن للقومية الإثنية الحظ الأفضل، لأنها تنطبق على أساس مخاوف الطبقة العاملة ومطالبها السياسية الخاصة بالحماية، وهي التي صارت تتردّد أكثر من ذي قبل، في عصر جمع ما بين العولمة والعطالة عن العمل، الواسعة. «فصناعتنا» للأمة، لا للأجانب والفقراء المهاجرين من الأجانب،... إلخ. أما من الوجهة النظرية، فقد فرضت الأديان العالمية الشاملة، مثل الكاثوليكية الرومانية والإسلام حدودها الخاصة على الخوف من الغرباء، إلاّ أن الإثنية والدين كليهما كان لهما جاذبية بوصفهما حواجز ممكنة لقصم رقبة العولمة الرأسمالية

التي حطمت جميع أساليب الحياة والعلاقات الإنسانية من دون أن تقدِّم أي بديل. وإن خطر تحوّل متطرف في السياسة إلى يمين رايدكالي ديماغوجي قومي أو طائفي ديني هو كبير في الأقطار الأوروبية الشيوعية سابقاً، وآسيا الجنوبية والغربية، والأقل في أميركا اللاتينية. وقد تجلب الأزمة الاقتصادية معها انتقالاً نسبياً إلى اليسار شبيهاً بما حدث في زمن فرانكلِن ديلانو روزفلت (Franklin Delano Roosevelt) خلال الكساد الاقتصادي الكبير في الولايات المتحدة الأميركية، لكن مثل ذلك غير محتمل وقوعه في أمكنة أخرى.

مع ذلك هناك شيء قد تغيَّر للأفضل. فقد عدنا إلى الاكتشاف بأن الرأسمالية ليست الجواب (أو ليست الجواب الوحيد)، وإنما هي السؤال. فقد تمَّ التسليم لنصف قرن بنجاحها، حتى إن اسمها ذاته بادل روابطه السلبية التقليدية بروابط إيجابية. وصار بإمكان رجال الأعمال والسياسيين أن يفاخروا بأنهم رأسماليون، وبصراحة ليس فقط بحرية «المشروع الحرّ»[1]. فمنذ سبعينات القرن العشرين، نقول، إذا نسينا المخاوف التي أدّت إلى إصلاح النظام نفسه بعد الحرب العالمية والمنافع الاقتصادية لذلك الإصلاح في «العصر الذهبي» للاقتصاد الغربي، إنه ارتدّ إلى نسخة متطرفة، ويمكن القول نسخة مَرضية، لسياسة دعه – يعمل (laissez-faire) انفجرت من الداخل في 2007 – 2008 («الحكومة لم تكن حلاً بل مشكلة»). ولعشرين عاماً بعد نهاية النظام السوفيتي ظلَّ أيديولوجيّوه يعتقدون أنهم حقَّقوا نهاية التاريخ، وفي هذا نوع من انتصار غير خجول لليبرالية الاقتصادية والسياسية» [فوكوياما (Fukiyama)]، أي نموّ في نظام رأسمالي اجتماعي وسياسي محدَّد وباقٍ وذي استقرار ذاتي لم يتحدّاه شيء ولا يمكن أن يتحدّاه شيء، نظرياً وعملياً.

لا شيء من كل ذلك يمكن الدفاع عنه أو الاحتفاظ به بعد الآن. فمحاولات القرن العشرين النظر إلى التاريخ العالمي كأنه لعبة ربح وخسارة متساويين، بمعنى مجموع أرباح الواحد يساوي تماماً مجموع خسائر الآخر، بين ما هو خاص وما هو عام، بين ما هو مذهب فردي ومذهب جمعي، نقول، إن جميع تلك المحاولات لم تبقَ بعد الإفلاس الجلي للاقتصاد السوفيتي واقتصاد «المذهب الأساسي للسوق»، وذلك ما بين عام 1980 وعام 2008. كذلك، لن تكون العودة إلى أحدهما ممكنة أكثر من العودة إلى الآخر. فمنذ ثمانينات القرن العشرين اتَّضح أن ذلك ترك الاشتراكيين والماركسيين أو سواهم بلا بديلهم التقليدي للرأسمالية، إلى – أو إلاّ – أن يعيدوا التفكير بما كانوا يعنون «بالاشتراكية» وتخلّوا عن الافتراض المفيد أن طبقة العمال اليدويين سوف تكون

بالضرورة القوة الرئيسية في التحوّل الاجتماعي. غير أن ذلك، أيضاً، حوَّل المؤمنين في فترة 1973 – 2008 بمجتمع السوق إلى عاجزين، لا حول لهم ولا قوة، وبطريقة البرهان بالخُلْف أو نقض الغرض المنطقية (Reductio ad absurdum). فقد لا يبدو وجود نظام بديل في الأفق، إلاّ أن إمكانية انهيار النظام القائم لم يعد ممكناً استبعاده بعد الآن. ولا يعرف أي طرف من الأطراف يمكن أن يحدث في تلك الحالة.

المفارقة تَمْثُلُ في أن الطرفين لهما مصلحة في العودة إلى المفكر الرئيسي الذي تمثل جوهره في نقده الرأسمالية والاقتصاديين الذين أخفقوا في معرفة إلى أين تؤدي العولمة الرأسمالية كما تنبأ بها في عام 1949. ومن جديد، اتَّضح أن العلميات الاقتصادية للنظام يجب تحليلها تاريخياً، بوصفها مرحلة من مراحل التاريخ، وليست نهاية له، وواقعياً أي بمفردات آلية داخلية تولِّد أزمات دورية بإمكانها أن تغيِّر النظام، وليس بمفردات توازن مثالي للسوق. وما هو موجود الآن قد يكون واحداً منها. ومن جديد نقول، إنه صار واضحاً أنه بين الأزمات الرئيسية أيضاً، «لا يملك 'السوق' جواباً يحلّ المسألة الرئيسية التي تواجه القرن الحادي والعشرين، ألا وهي: النمو الاقتصادي اللامحدود والمتزايد التقنية العالية، الذي ينتج في سعيه وراء الربح غير الثابت ثورة عالمية، لكنه ينتجها على حساب الاستغناء المتزايد عن عامل الإنتاج، أي العمل الإنساني، ويمكن إضافة عامل آخر هو مصادر العالم الطبيعية. فالليبرالية الاقتصادية والسياسية، بمفردها أو مع غيرها، لا تستطيع أن توافِر حلاً لمسائل القرن الحادي والعشرين. لذا: آن الأوان من جديد للنظر إلى ماركس نظرة جدّية.

الهوامش

الفصل الثاني: ماركس، إنجلز واشتراكية ما قبل الماركسية:

1. انظر: Karl Marx and Friedrich Engels, *Collected Works* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), vol. 4, note 242, p. 719.

2. إنجلز، وصف المساكن الشيوعية التي أقيمت في الأزمنة الجديدة ولا تزال قائمة، انظر: Karl Marx and Friedrich Engels, *Werke 2* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), pp. 521, 522.

3. المصدر نفسه، 3، ص 508 وما بعدها.

4. ومع أن ماركس اعتبر الصورة الأصلية للملكية قبلية، لا يوجد ما يوحي بأن هذا يمثّل مرحلةً من مراحل «الشيوعية البدائية» في كتاباته الأولى. أما الهامش المعروف المتعلق بها والموجود في **البيان الشيوعي** فقد أضيف في ثمانينات عام 1880.

5. يبدأ كتاب: **ضد - دوهرنغ** (المسودة الأولى): Marx and Engels, *Werke* 20, p. 16 (Foot-note) بالجملة الآتية: «مهما يكن الكثير من الاشتراكية الحديثة صدر، أصلاً (*der Sache nach*) من التفكير في التناقضات الطبقية الموجودة في المجتمع القائم، بين من يملكون الملكية ومن لا يملكون، بين العمال والمستغلّين، فإنها تبدو في صورتها النظرية، وللوهلة الأولى، وكأنها استمرار منطقي وتطوير للمبادئ التي أعلنها الناطقون الفرنسيون الكبار في عصر التنوير في القرن الثامن عشر. وكان ممثّلاه الأولان موريلّي مابلي ينتميان لتلك المجموعة».

6. Marx and Engels, *Werke* 20, p. 17.

7. V. Advielle, *Histoire de Gracchus Babeuf* (Paris: Chez l'auteur, 1884), vol. 2, p. 34.

8. Marx and Engels, *Collected Works*, vol. 4: *The Holy Family*, p. 131, and Friedrich Engels, *Condition of the Working Class* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), p. 258.

9. Marx and Engels, *Collected Works* IV, p. 666; Engels to Marx 17.3.45, and Marx and Engels, *Werke* 27, p. 25,

وعلى كل حال، سرعان ما صار موقف ماركس من هذا المفكر أقل قبولاً، بالرغم من أن الرأي في كتاب: **الأيديولوجيا الألمانية** ظلَّ إيجابياً.

10. J. P. Brissot de Warville, *Recherches philosophiques sur le droit de propriété et le vol* ([s. l.]: [s. n.], 1780), and J. Schumpeter, *History of Economic Analysis* (New York: Oxford, 1954), pp.139-140.

11. Advielle, *Histoire de Gracchus Babeuf*, vol. 2, pp. 45, 47.

12. "Anti-Dühring", Engl. ed., p.116.

13. للاطلاع على وجهة نظر إنجلز، انظر: Marx and Engels, *Werke*, vol. 1: *Progress of Social Reform on the Continent*, pp. 484-485, Written for the Owenite *New Moral World*, 1843; for Marx's View (1843), Marx and Engels, *Werke*, vol. 1, p. 344.

14. انظر إنجلز 1888 مقدمة لـ: *Communist Manifesto* (Marx and Engels, *Werke* 21, pp. 354ff).

15. أقيمت المأدبة الشيوعية الأولى في عام 1840؛ انظر: Cabet's Comment se suis communiste and Mon crédo communiste date from 18~1 By 1842 Lorenz von Stein, in: *Der Socialismus und Communismus des heutigen Frankreichs*,

كثيراً ما يقرأ بالألمانية - حاول أولاً أن تميز بوضوح بين الظاهرتين.

16. انظر: **الأيديولوجيا الألمانية** (Engels, *Werke* 3, p. 488) للإطلاع على عرضٍ متعالٍ - نفترض أن يكون من قبل إنجلز لمعرفته «بالشيوعيين الإنجليز» مقابل جهالة «الاشتراكيين الحقيقيين» الألمان. وتتألف القائمة من: مور، The Levellers (حركة سياسية انجليزية خلال الحرب الأهلية الانجليزية أكدت على شعبية السيادة وبرزت هذه الحركة عام 1647)، أوين، ثمبسون (Thompson)، هوليك (Holyoake)، واطس (Watts)، هيرني (Harney)، مورغن (Morgan)، سواثويل (Southwell)، بارمبي (J.G. Barmby)، غريفز (Greaves)، إدموندز (Edmonds)، هومبسون (Hobson)، سبانس (Spence)، من المثير للاهتمام ليس ما هو تحتوي عليه فحسب، ولكن السؤال المطروح هو لماذا. فهو يضع أي إشارة منسوبة إلى العديد من «اقتصاديات العمال» المألوفة لدى الناضجين ماركسياً الذين منهم:

ج. براي (J. F. Bray) وتوماس هودجسكن (Thomas Hodgskin) والعكس بالعكس، تشمل أيضاً شخصيات منسية الآن لكنها مألوفة من أولئك الذين يحبون إنجلز الذين يعودون إلى اليسار الراديكالي لأربعينات القرن التاسع عشر الميلادي، مثل: جون غودوين بارمبي (John Goodwyn Barmby) (1881-1820) الذي يُنسب إليه تشريع كلمة «الشيوعية»، جيمس بيريبون غريفز (James Pierrepont Greaves) (1842-1777)، «الاشتراكي المقدس» شارلز ساوزويل (Charles Southwell) (1860-1814)، «التبشرية الاجتماعية» لـ أونيت (Owenite)، مثل جون واتز (John

والشخصيات المهمة (1817-1906) (G. J. Holyoake) وج. ج. هوليواك (1818-1887) Watts)
الأقل غموضاً، وجوشوا هوبسون (1810-1876)، والأوينيون الفاعلين والناشرين لـ New Moral
World وNorthern Star: أوين ، ويليام ثمبسون، جون مينتر مورغان، ت. ر. إدموندز وتوماس
سبنس، ويمكن الوقوع على هذه الأسماء في أي تاريخ للفكر الاشتراكي في بريطانيا.

17. Franco Venturi, "Le mot "socialista"" (Second International Conference of Econ. Hist., Aix, 1962); (The Hague: Mouton, 1965), II, pp. 825-827.

18. G. Lichtheim, *The Origins of Socialism* (New York: [n. pb.], 1969), p. 219.

19. The First Article on the Subject, by the Saint-Simonian Pierre Leroux, Bracketed the Two Terms: "De l'individualisme et du socialisme" (1835).

20. Marx and Engels, *Werke*, vol. 20: *Anti-Dühring*, p. 246.

21. المصدر نفسه، ص 272-273.

22. للاطلاع على نقاش عام لليوتوبيا، انظر: "Communist Manifesto," in: Marx and Engels, *Werke* 4, p. 491,

حيث يتم سرد المقترحات الإيجابية عن المجتمع في المستقبل.

23. Marx and Engels, *Werke*, vol. 1: *Progress of Social Reform on the Continent*, p. 482;

دافعت كابيه لفترة طويلة عن طروحات غرون غير الصائبة في كتاب: **الأيديولوجيا الألمانية**.

24. مشروع المكتبة الذي يظهر بالفعل معها.

25. Marx and Engels, *Werke*, vol. 2: *Condition of the Working Class*, pp. 451-452.

26. Karl Marx, "*Peuchet on Suicide* (1846)," in: Marx and Engels, *Collected Works*, vol. IV, p. 597.

27. Marx and Engels, *Werke*, vol. 20: *Anti-Dühring*, p. 242.

28. Engels to F. Toennies, 24.1.95 (Marx and Engels, *Werke* 39, pp. 394-395), and Marx and Engels, *Werke*, vol. 20: *Anti-Dühring*, p.23.

29. ذكر إنجلز الشاب أن فورييه لم يكتب كثيراً عن العمال وأحوالهم إلاّ مؤخراً (A Fragment of Fourier's on Trade in: Marx and Engels, *Werke 2*, p.608).

30. Marx and Engels, *Werke*, vol. 1: *Progress of Social Reform on the Continent* (1843), p. 483.

31. Marx and Engels, *Werke*, vol. 3: *German Ideology*, p. 33.

32. Karl Marx, *Grundrisse* (Berlin: [n. pb.], 1953), pp. 505, 599.

33. Marx and Engels, *Werke* 1, p. 482.

.34 Marx and Engels, *Werke*, vol. 2: *Condition of the Working Class*, pp. 452-453.

.35 Karl Marx, "On P.-J. Proudhon (1865)," in: Marx and Engels, *Werke* 16, p. 25.

.36 Marx and Engels, *Werke* 1, pp. 499-524.

.37 *Communism and the Augsburger Allgemeine Zeitung* (Rheinische Zeitung, 1842), *Werke* 1, p.108 Rh.Ztg 4 Jan. 1843 (New MEGA I, 1, p. 417).

.38 "*Kritische Randglossen zu dem Artikel eines Preussen*," in: Marx and Engels, *Werke* 1, pp. 404-405.

.39 Marx, "On P.-J. Proudhon (1865)," in: Marx and Engels, *Werke* 16, pp. 25ff.

.40 "*Kritische Randglossen zu dem Artikel eines Preussen*," in: Marx and Engels, *Werke* 1, p. 405.

.41 E. Roll, *A History of Economic Thought* (London: [n. pb.], 1948), p. 249.

.42 "*Theorien uber den Mehrwert* III," in: Marx and Engels, *Werke* 26, iii, pp. 261-316, and the References to Hodgskin in: *Capital* I, Where Bray, Gray and Thompson are Also Cited.

.43 "Umrisse einer Kritik," in: Marx and Engels, *Werke* 1, p. 514. Marx also Read this Author; Together with Bray and Thompson, in Manchester in 1845 (Marx, *Grundrisse*, pp. 1069, 1070).

.44 «البورجوازيون التافهون» تبدو خطأ.

.45 ويلهلم عاش في باريس للفترة 1835 -1836 و 1841-1837 حيث قرأ بيلو (Pillot) وصحف شيوعية مختلفة.

.46 Schumpeter, *History of Economic Analysis*, p. 506

.47 The Section on "Feudal Socialism" in the *Communist Manifesto*, which Discusses Comparable Tendencies, Makes on Reference whatever to Germany but Only to French Legitimists and Disraeli's "Young England"

.48 Rh.Ztg 15.10.42 (*Werke* .1, p.???), and S. Avineri, *The Social and Political Thought of Karl Marx* (Cambridge: Cambridge University Press, 1968), p. 54.

.49 Quoted in: Avineri, Ibid., p. 55,

في الاقتباس نفسه انظر: J. Kuczynski, *Geschichte der Lage der Lage der Arbeiter under dem Kapitalismus* (Berlin: [n. pb.], 1960), vol. 9 and C. Jandtke and D. Hilger, eds. *Die Eigentumslosen* (Munich: [n. pb.], 1965).

.50 وترك آثاراً في حركة العمال الماركسية اللاحقة، مثلاً، عبر يوجين بوتييه (Eugéne Pottier) التابع

المخلص لفورييه، مؤلف كلمات الأممية، وأيضاً، عبر أوغست بيبِل الذي نشر كتاباً عن شارل فورييه عنوانه: **حياته ونظرياته** (*His Life and Theories*) من 1890.

51. مذكور في: W. Hofmann, *Ideengeschichte des sozialen Bewegung des 19. u.20. Jahrhunderts* (Berlin: [n. pb.], 1968), p. 90.

الفصل الثالث: ماركس، إنجلز والسياسة:

1. صحيح القول، إن الخطة الأصلية لكتاب: **رأس المال** تصوّرت ثلاثة «كتب» نهائية تتناول الدولة، التجارة الخارجية والسوق العالمي (Rosdolsky, 1968, I, cap. 2)، لكن الكتاب المتعلق بالدولة أن المقصود منه لم يكن، إلاّ النظر في علاقة أشكال من الدولة مختلفة ببنى المجتمع الاقتصادية المختلفة ("Marx to kugelmann," in: Karl Marx and Friedrich Engels, *Werke 30* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), p. 639).

2. لاحظ غياب استشهادات معينة في: Evgeny Pashukanis, *Marxism and the General Theory of Law* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), (French edn., EDI Paris, 1970), الذي حاول إنشاء نظرية ماركسية في القانون لدولة اشتراكية.

3. L. Colletti, *From Rousseau to Lenin* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), pp. 187-188, اقتفاء أكثر الانتماء لـروسو (Rousseau) – ماركس بأن له أول محاولة جدية من قبل ج. فولبيه، انظر: Galvano Della Volpe, *Rousseau e Marx* (Rome: Editore Riuniti, 1957).

4. المصدر نفسه، انظر: Marx and Engels, *Werke* I, p. 321.

5. المصدر نفسه، ص 323، وانظر: Colletti, Ibid., pp. 185-186.

6. Marx and Engels, *Werke*, vol. 20: *Anti-Dühring*.

7. ورد في كتاب: **المسوَّدة الأولى للحرب الأهلية في فرنسا** (*First Draft of Civil War in France*) (Marx and Engels, *Werke* 17, p. 544) ما يأتي: «القضاء على الوهم الذي يقول إن الإدارة والقيادة السياسية من الأسرار، وهما وظيفتان تتجاوزان (العاديين) ولا توضعان إلاّ في أيدي طبقة مدرَّبة [aus-gebildeten]... هذه الخديعة كلها قضى عليها الكوميون (Commune) الذي تألف، وبشكل غالب، من عمال بسطاء نظموا الدفاع عن باريس، وشنوا حرباً ضد قضاة وجنود بونابارت، وضمنوا تموينات هذه المدينة العملاقة، واحتلّوا جميع الوظائف التي كانت تشغلها الحكومة، رجال الأمن والولاة».

8. Vladimir Lenin, *The State and Revolution* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), III, 4.

9. In: Kreuznach and Paris, 1843-1844.

10. انظر: Marx and Engels, *Werke*, vol. 2: *The Holy Family*, pp. 127-131.

11. Marx and Engels, *Werke*, vol. 4: *Die moralisierende Kritik*, pp. 338-339.

والأساس لهذه الفكرة: H. Förder, *Marx und Eheels am Vorabend der Revolution* (Berlin: [n. pb.], 1960), and W. Markov, *Jacques Roux und Karl Marx* (Sitzungsberichte der

deutschen Akad. d.Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Philos., Geschichte, Staats-, Reches-u. Wirtschaftswissenschaften, Jg 1965, Berlin 1965).

.12 المراجع الأساسية هي: Marx to Weydemeyer 5.3.52 (Marx and Engels, *Werke* 28, pp. 507-508), and Karl Marx, "Gotha Programme," in: Marx and Engels, *Werke* 19, p. 28.

.13 انظر: Wilhelm Mautner, *Zur Geschichte des Begriffes 'Diktatur des Proletariats'* (Grünberg's Archiv, 280-283).

.14 Marx to Nieuwenhuis 22.2.81 (Marx and Engels, *Werke* 35, p. 161).

.15 *Critique of the Erfurt Programme*, 1891, (Marx and Engels, *Werke* 22, p. 235).

.16 Marx, Speech on the 7th Anniversary of the IWMA, 1871, in: Marx and Engels, *Werke* 17, p. 433.

.17 Friedrich Engels, "Preface to Marx, *Civil War 1891*," in: Marx and Engels, *Werke* 22, pp.197-198.

.18 Karl Marx, "*Civil War*," Draft II, in: Marx and Engels, *Werke* 17, p. 597.

.19 Karl Marx, "Gotha Programme," in: Marx and Engels, *Werke* 19, p. 19:

«والنفقات العامة للإدارة لا تتعلق مباشرة بالإنتاج. فهذا القسم [من الناتج الاجتماعي] سيتناقض، منذ البداية، بشكل لافت بالمقارنة مع المجتمع، اليوم، وسوف يزول متناسباً مع تطور المجتمع الجديد».

.20 Marx,"Gotha Programme," in: Marx and Engels, *Werke* 19, p. 21.

.21 "Marx to Nieuwenhuis 22.2.81," in: Marx and Engels, *Werke* 35, pp. 160-161.

.22 Marx, "*Civil War*," Draft I, in: Marx and Engels, *Werke* 17, p. 546.

.23 Inaugural Address of the IWMA (Marx and Engels, *Werke* 16, p. 11).

.24 Cf. E. J. Hobsbawn, *Introduction to Engels, Condition of the Working Class in England in 1844* (London: [n. pb.], 1969), and karl Marx, "*Value, Price and Profit*" in: Marx and Engels, *Werke* 16, pp.147-149.

.25 قرارات مؤتمر المندوبين في لندن الخاص بـ IWMA، عام 1871 (Marx and Engels, *Werke* 17, pp. 421-422); Notes for: Engels' Speech, Ibid., pp. 416-417.

.26 "Marx to Bolte 25.11.71," in: Marx and Engels, *Werke* 33, p. 332.

.27 "Marx to Freiligrath, 1860," in: Marx and Engels, *Werke* 30, pp. 490, 495.

.28 Marx and Engels, *Werke* 17, p. 416.

.29 "To Sorge 29.11.86, to Nieuwenhuis 11.1.87," in: Marx and Engels, *Werke* 36, pp. 579, 593.

.30 "To P. and L. Lafargue," in: Marx and Engels, *Werke* 32, p. 671.

.31 Karl Marx, "Der politische Indifferentismus," in: Marx and Engels, *Werke* 18, p. 300.

.32 Marx, "*Civil War*," Draft I, in: Marx and Engels, *Werke* 17, pp. 544-546.

.33 Marx, "*Civil War*," Test and Draft I in: Marx and Engels, *Werke* 17, pp. 341, 549-554.

34. تم التعبير عن هذه الفكرة، وبطريقة شفّافة في كتاب جورج لختهايم (G. Lichtheim): الماركسية (طبعة عام 1964)، ص 56 – 57، بالرغم من أن التمييز الأساسي الذي أنشأه بين ماركسية قبلية وماركسية بعدية لا يمكن قبوله.

.35 Friedrich Engels, "Introduction to Class Struggles in France, 1891," in: Marx and Engels, *Werke 22*, pp. 513-514.

.36 L. Perini, ed., *Karl Marx, Rivoluzione e Reazione in Francia 1848-1850* (Torino: G. Einaudi, 1976), Introduzione LIV,

التحليل الموضوعي لمراجع التاريخ المختلفة في صراع الطبقات في فرنسا وفي برومير، القرن الثامن عشر الميلادي.

.37 "Address of the Central Council," in: Marx and Engels, *Werke* 7, pp. 244-254.

38. قارن موقفه من الحالة الفلاّحية الروسية (مسودات ورسالة إلى زاسوليتش (Zasulich)، في: Marx and Engels, *Werke 19*, pp. 242-243, 384-406,

مع إنجلز، انظر: "Nachwort zu "Soziales aus Russland,"" in: Marx and Engels, *Werke 22*, pp. 421-435,

واهتمامه الكبير للإبقاء على دعم الفلاحين والطبقات الوسطى، بعد الثورة، انظر: Marx, "*Civil War*," Draft I, in: Marx and Engels, *Werke* 17, pp. 549-554,

مع رفض إنجلز لخطر الرجعيين الديماغوجيين المتمثّل في سيطرتهم على الفلاحين وصغار الحرفيين ("*Die Bauernffage in Frankreich und Deutschland, 1894*," in: Marx and Engels, *Werke 22*, pp. 485-505) ويصعب تصوّر مؤلف: **الثامن عشر من برومير** الذي كتب عن الفلاحين الصغار والحرفيين المستقلين لا يكون مستعداً لقبول نبوءة تلاشيهم: «فهؤلاء البشر من المعادين للسامية. فليذهبوا إلى الذين وعدوهم بالحفاظ على متساريعهم الصغيرة»، المصدر المذكور، ص 499.

.39 "Bebel to Engels 24.11.84," in: *August Bebel's Briefwechsel mit Friedrich Engels*, ed. W Blumenberg (Hague: [n. pb.], 1965), pp. 188-189. See also L. Longinotti, "Friedrich Engels e La "rivoluzione di maggioranza"," *Studi Storici*, vol. XV, no. 4 (1974), p. 821.

40. وهنا كان تحليل إنجلز عميقاً. فعبارته العرضية في عام 1858 عن أن «البروليتاريا البورجوازية التي خلقها الاحتكار البريطاني العالمي» (To Marx, 7. 10. 58, in: Marx and Engels, *Werke* 29, p. 358) توقّعت بعضاً من الخطوط الرئيسية لتحليله في ثمانينات عام 1880 وتسعيناته انظر: "England in 1845 and 1886," in: Marx and Engels, *Werke* 21, pp. 191-197, and "Introduction to Socialism, Utopian and Scientific," in: Marx and Engels, *Werke* 22, pp. 309-310.

.41 "Introduction to Class Struggles," in: Marx and Engels, *Werke* 22, p. 519.

.42 المصدر نفسه، ص 521.

.43 "To R. Fischer 8.3.95," in: Marx and Engels, *Werke* 39, pp. 424-426; "Introduction to Class Struggles," in: Marx and Engels, *Werke* 22, pp. 521-522, and "To Laura Lafargue," in: Marx and Engels, *Werke* 38, p. 545.

.44 حديث حول مجلس هيغ (Hague Congress) في: (Marx and Engels, *Werke* 18, p. 160). وهو المفضل عند إنجلز على طبعة رأس المال الإنجليزية.

.45 Karl Marx, "Konspekt der Debatten über das Sozialistengesetz, 1878," in: *Briefe and Bebel, Liebknecht, Kautsky und Andre* (Moscow-Leningrad: [n. pb.], 1933), vol. I, p. 516, and "interview with *New York Tribune,* 1878," in: Marx and Engels, *Werke* 34, p. 515.

.46 "*Critique of the Erfurt Programme,* draft 1891," in: Marx and Engels, *Werke* 22, pp. 227-240, esp. pp. 234-235.

.47 "To Bebel, 1891," in: Marx and Engels, *Werke* 38, p. 94, Apropos of Party Objections to his Publication of the *Critique of the Gotha Programme.*

.48 انظر: "The Future Italian Revolution, 1894," in: Marx and Engels, *Werke* 22, pp. 440, 441: «وليست مهمتنا أن نعدّ، مباشرةً، لحركة لا تكون، وبالضبط، حركة الطبقة التي نمثّلها».

.49 انظر، بصورة خاصة: "The Future Italian Revolution," in: Marx and Engels, *Werke* 22, pp. 439-442, and "The Peasant Question in France and Germany," in: Marx and Engels, *Werke* 22, pp. 483-505.

.50 "*Critique of Erfurt,*" draft in: Marx and Engels, *Werke* 22, p. 234.

.51 للاطلاع على موقف ماركس من البوناپارتيّة المصاغ، رئيسياً، في كتاب: **الثامن عشر من برومير** والمستمرة مناقشة في كتاب: **الحرب الأهلية** (*The Civil War*)، انظر: M. Rubel, *Karl Marx devant le Bonapartisme* (The Hague: Mouton, 1960).

.52 "*18th Brumaire* VII," in: Marx and Engels, *Werke* 8, pp. 196-197.

.53 "*18th Brumaire* VII," in: Marx and Engels, *Werke* 8, pp. 198-199.

.54 "*18th Brumaire* VII," in: Marx and Engels, *Werke* 8, pp. 196-197, and "Civil War, Draft II," in: Marx and Engels, *Werke* 17, pp. 336-338; Ibid.

.55 "*18th Brumaire* VII," in: Marx and Engels, *Werke* 8, pp. 178-185, and "To Lafargue 12.11.66," in: Marx and Engels, *Werke* 31, p. 536; for a more elaborate version, see Engels, "The Real Causes of the relative Inactivity of the French Proletarians Last December (1852)," in: Marx and Engels, *Werke* 8, pp. 224-227.

"To Marx 13.4.66," in: Marx and Engels, *Werke* 31, p. 208. .56

57.«يبدو أنه قانون من قوانين التطور التاريخي أن لا تكون البورجوازية قادرة، في أي قطر أوروبي – وفي كل الأحوال، لمدة طويلة – على الإمساك بالسلطة السياسية بالطريقة ذاتها التي احتفظت بها الارستقراطية الإقطاعية في القرون الوسطى»، *"Introduction to Socialism, Utopian and Scientific,"* in: Marx and Engels, *Werke* 22, p. 307.

"Engels to Kautsky 7.2.82," in: Marx and Engels, *Werke* 35, p. 269. .58

"Engels to Marx 15.8.70, Marx to Engels 17.8.70," in: Marx and Engels, *Werke* 33, pp. 39-44. .59

Nachwort zu "Soziales aus Russland" in: Marx and Engels, *Werke* 22, p. 433. .60

"To Bebel 13-14.9.86," in: Marx and Engels, *Werke* 36, p. 526, .61

للسؤال انظر: E. Wangermann, *Introduction to The Role of Force in History* (London: [n. pb.], 1968).

"Engels to Bernstein 27.8.83, 24.3.84," in: Marx and Engels, *Werke* 36, pp. 54-55, 128. .62

بالتأكيد أن إنجلز يعتبرها مجرد مرحلة وجيزة من مستقبل الثورة ذاتها،

انظر: "To Bebel 11-12.12.84," in: Marx and Engels, *Werke* 36, pp. 252-253.

.63 انظر: S. F. Bloom, *The World of Nations* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), pp. 17ff.

Engels in: *Neue Rh.Z.* 31.8.48; See Also "Engels to Bernstein 24.3.1884," in: Marx and Engels, *Werke* 35, p. 128. .64

Roman Rosdolsky, *Friedrich Engels und das Problem der "Geschichtslosen Völker*" (Sonderdruck aus Archiv f. Sozialgeschichte 4/ 1964, Hannover). .65

"Was-hat die Arbeiterfrage mit Polen zu tun?" 1866, Marx and Engels, *Werke* 16, p. 157. .66

Marx, "*Civil War in France*," in: Marx and Engels, *Werke* 17, p. 341. .67

"Engels to Bernstein on the Bulgarians, 27.8.82," in: Marx and Engels, *Werke* 35, pp. 280-282. .68

"Neue Rheinische Zeitung 1.1.1849," in: Marx and Engels, *Werke* 36, pp. 149-150. .69

"Marx to Paul and Laura Lafargue 5.3.1870," in: Marx and Engels, *Werke* 32, p. 659. .70

"Engels to Bernstein 26.6.82," in: Marx and Engels, *Werke* 35, pp. 337-339. .71

"Preface to the Russian Edition of *Communist Manifesto*," in: Marx and Engels, *Werke* 19, p. 296. .72

E. H. Carr: "The Marxist Attitude to War," in: *History of the Bolshevik Revolution* III (London: [n. pb.], 1953), pp. 549-566. .73

"E. to M. 9.9.79, Marx to Danielson 12.9.80," in: Marx and Engels, *Werke* 34, pp. 105, 464; "Engels to Bebel 16.12.79," in: Marx and Engels, *Werke* 34, p. 431, and "Engels to Bebel 22.12.82," in: Marx and Engels, *Werke* 35, p. 416. .74

"Engels to Bebel 13.9.86," in: Marx and Engels, *Werke* 36, p. 525. .75

"To Bebel 17.11.85," in: Marx and Engels, *Werke* 36, p. 391. .76

Cited in: Gustav Mayer, *Friedrich Engels* (Hague: [n. pb.], 1934), II, p. 47. .77

"Marx," in: *N.Rh.Zeitung,* 1.1.49. .78

.79 بالنسبة لتوقعاتهم بحدوث ثورة وشيكة: "Marx to Engels 26.9.56, Engels to Marx "not, before,.27.9.56",15.11.57, Marx to Engels 8.12.5 7," in: Marx and Engels, *Werke* 29, pp. 76, 78, 212, 225.

"*On the Brussels Congress and the Situation in Europe*," in: Marx and Engels, *Werke* 22, p. 243. .80

.81 اختصر النقاش الجدلي في:

Mayer, *Friedrich Engels,* pp. 81-93.

"Engels to Lafargue 24.3.89," in: Marx and Engels, *Werke* 37, p. 171. .82

"Marx to Paul and Laura Lafargue," in: Marx and Engels, *Werke* 32, p. 659. .83

Preface to English Edition (1892) of: "*Socialism, Utopian and Scientific*," in: Marx and Engels, *Werke* 22, pp. 310-311. .84

"Marx to Meyer and Vogt, 9.4.70," in: Marx and Engels, *Werke* 32, pp. 667-669. .85

"Marx to Kugelmann 29.11.69," in: Marx and Engels, *Werke* 32, p. 638. More fully: "General Council to Federal Council of Suisse Romande 1.1.1870," in: Marx and Engels, *Werke* 16, pp. 386-389. .86

"Marx to P. and L. Lafargue 5.3.70," in: Marx and Engels, *Werke* 32, p. 659. .87

"E.g. to Adler 11.10.93," in: Marx and Engels, *Werke* 39, pp. 134ff. .88

"To Bernstein 9.8.82, apropos Egypt; to Kautsky 12.9.82," in: Marx and Engels, *Werke* 35, pp. 349, 357-358. .89

"To Bernstein 22/25.2.82," in: Marx and Engels, *Werke* 35, pp. 279-280. .90

"To Kautsky 7.8.82," in: Marx and Engels, *Werke* 35, pp. 269-270. .91

.92 فيما يتصل بألزاس (Alsace) ومناطق متنازع عليها بين روسيا وبولندا، انظر: "Zasulich

3.4.90," in: Marx and Engels, *Werke* 37, p. 374.

.93 G. Haupt, M. Lowy and C. Weill, *Les marxistes et la question nationale* (Paris: [s.n.], 1974), p. 21.

.94 "Engels to Kautsky 7.2.82," in: Marx and Engels, *Werke* 35, p. 270.

.95 "To Adler, 17.7.94," in: Marx and Engels, *Werke* 39, pp. 271 ff,

بالنسبة إلى الاتصالات المتكررة مع فرنسا، باستثناء لافارغ انظر إلى تسجيلات المراسلات في:

Manfred Kliem, *Marx-Engels, Verzeichnis* I ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), pp. 581-684.

.96 "To Adler 11.10.93," in: Marx and Engels, *Werke* 39, p. 136.

.97 "To Kautsky 7.2.82," in: Marx and Engels, *Werke* 35, p. 270.

.98 "To Bebel 29 Sep/1 Oct 91," in: Marx and Engels, *Werke* 38, pp. 159-163, and "*Der Sozialismus in Deutschland*," in: Marx and Engels, *Werke* 22, p. 247.

.99 *Capital I*, cap 32.

100. وهذا، بنوع خاص، تمَّ توضيحة بأمثلة في كتاب إنجلز: **ضد - دوهرنغ**، خاصة في الأجزاء التي نشرت على نحوٍ منفصل على شكل: *Socialism, Utopian and Scientific*.

101. مذكور في: E. Weissel, *Die Ohnmacht des Sieges* (Vienna: [n. pb.], 1976), p. 117.

الفصل الرابع: حول إنجلز، حالة الطبقة العاملة في إنجلترا:

1. وهو مسوَّدة كتاب مؤقتة لتحليل اقتصادي ماركسي، ومواد عن إنجلترا لمقاولات قاريّة متنوعة وعن التطور القاري لكتاب أوين: **العالم الأخلاقي الجديد** (*New Moral World*).

.2 *Die Lage der* arbeitenden *Klasse in England.* Nach eigener Anschauung und authentischen Quellen von Friedrich Engels (Leipzig: Druck und Verlag von Otto Wigand, 1845). A Second German Edition was Published in 1892.

هذه الطبعة المعيارية هي **الأعمال الكاملة** ماركس وإنجلز (القسم I، المجلّد 4، ص 285-286)، برلين، 1932 حيث صُحح عددٌ عن الهفوات والأخطاء المطبعية. أما النص الانجليزي الأساسي المستعمل، هنا، فهو لـ هِندرسون وتشالونر (W. H. Chaloner) (أكسفورد، 1958) حيث تمَّ التدقيق بمراجع إنجلز، جميعها، وصححت عند الضرورة، وأضيفت معلومات تكميلية، كما أعيدت ترجمة النص. ولسوء الحظ، لم تكن الترجمة مما يمكن الاعتماد عليه، دائماً، كما تعرَّض الكتاب لقساوة المحررين ولرغبتهم الفاشلة في تشويه الكتاب وإضعاف الثقة به.

3. وبشكل لافت من بوريه. وقد نوقشت التهمة ورفضت في كتاب: Gustav Mayer, *Friedrich Engels* (Hague: [n. pb.], 1934), vol. 1, p. 195,

وكان ذلك، جزئياً على أساس أن آراء بوريه ليس فيها شيء مشترك مع أفكار إنجلز، وجزئياً، على

أساس لا يمكن الطعن به، وهو أنه لا يوجد دليل يفيد معرفة إنجلز بكتاب بوريه قبل عودته من إنجلترا.

4. وكانت الأعمال الأخرى في الفترة السابقة لكتاب **البيان الشيوعي** التي رأى إنجلز أنها تستحق إعادة النشر على صورة كتب، في حياته هي: **الأطروحات حول فيورباخ، وفقر الفلسفة** (1847). والشك حول أولوية كتابات إنجلز نشأ، لأننا لا نعرف متى وضع ماركس، في ربيع عام 1845 مسوَّدة **أطروحاته** (*Theses*) العظيمة. وقد يكون فعل ذلك قبل 15 آذار/ مارس، عندما وقَّع إنجلز مقدِّمة كتابه.

.5 From the article "Frederick Engels", written in 1895. *MarxEngels-Marxism* (London: [n. pb.], 1935), p. 37.

6. وقد يكون مديناً بشيء لـ سيسموندي هنا والأكثر لجون ويد في كتابه: **تاريخ الطبقات الوسطى والعاملة** (1833)، وهو عمل استخدام في الإعداد لهذا الكتاب. ورأى ويد أن تتألف الدورة من خمس إلى سبع سنوات، وقد تبنّى إنجلز هذه الفكرة، لكنه تخلّى عنها مفضلاً دورة العشر سنوات.

.7 Victor Aimé Huber, *Janus* 1845 II, p. 387; Bruno Hildebrand, *Nationaloekonomie d. Gegenwart u. Zukunft* (Frankfurt: [n. pb.], 1848); W. O. Henderson and W. H. Chaloner, *Engels' Condition of the Working Class* (Oxford: [n. pb.], 1958) XXXI.

بالنسبة إلى الردود الألمانية المعاصرة لكتاب إنجلز انظر: J. Kuczynski, *Die Geschichte der Lage der Arbeiter unter dem Kapltalismus* (Berlin: Akademie-Verlag, 1960), vol. 8,

الذي تم طبع عدة مراجعات عنه.

8. للاطلاع على بعض النقاش حول هذه الاتهامات، انظر: E. J. Hobsbawm, *Labouring Men* (London: [n. pb.], 1962), chapter 6.

الفصل الخامس: حول البيان الشيوعي:

1. لم يكتشف سوى بندين من تلك المادة – خطة للقسم III وصفحة مسوَّدة واحدة، انظر: Karl Marx and Friedrich Engels, *Collected Works* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), vol 6, pp. 576-577.

2. وكانت، في حياة المؤسسين: **(1)** المقدمة للطبعة الألمانية الثانية، 1872، **(2)** المقدمة للطبعة الروسية الثانية 1882، الترجمة الروسية الأولى قام بها باكونين قد ظهرت عام 1869، المفهوم منها أنه لم يباركها كل من إنجلز وماركس، **(3)** مقدمة الطبعة الثالثة الألمانية 1883، **(4)** مقدمة الطبعة الإنجليزية 1888 **(5)** مقدمة الطبعة الألمانية الرابعة 1890، **(6)** مقدمة الطبعة البولندية 1892 **(7)** مقدمة الطبعة للقراء الإيطاليين 1893.

.3 Paolo Favilli, *Storia del marxismo italiano: Dalle origini alla grande guerra* (Milan: F. Angeli, 1996), pp. 252-254.

4. أنا أعتمد على هذه الشخصيات التي لا تقدر بثمن، انظر: Bert Andréas, *Le manifeste communiste de Marx et Engels: Histoire et bibliographie 1848-1918* (Milano: [n. pb.], 1963).

5. المعطيات من التقارير السنوية لـ(Parteitage) للحزب SPD. وعلى كل حال، لا توجد معطيات عددية عن منشورات نظرية لعام 1899 وعام 1900.

6. Robert R. LaMonte, "The New Intellectuals," in: *New Review* II, 1914, cited in: Paul Buhle, *Marxism in the USA: From 1870 to the Present Day* (London: Verso, 1987), p. 56.

7. Hal Draper, *The Annotated Communist Manifesto* (Berkeley: Center for Socialist History, 1984), p. 64.

8. تبدأ النسخة الألمانية الأصلية في هذا القسم من خلال مناقشة "das Verhältniss der Kommunisten zu den bereits konstituierten Arbeiterparteien" وأيضاً den Chartisten... إلخ. النسخة الإنجليزية الرسمية المترجمة كانت عام 1887 وراجع محتوياتها إنجلز.

9. «لم يؤلف الشيوعيون حزباً منفصلاً ومضاداً لأحزاب طبقية عمالية أخرى... ولم يضعوا مبادئ طائفية خاصة بهم، بغية تشكيل الحركة البروليتارية وصياغتها» (الجزء II).

10. وأفضل المعروف من هذه، والتي أكدَّ عليها لينين، كانت الملاحظة، في مقدِّمة عام 1872 المفيدة أن كميون باريس قد بيَّن «أن الطبقة العاملة لا تستطيع، هكذا وببساطة، أن تقبض على آلة الدولة الجاهزة، وتستعملها لأغراضها الخاصة».

وبعد وفاة ماركس، أضاف إنجلز الهامش الذي عدَّل الجملة الأولى من القسم I لكي يستبعد المجتمعات الماقبل التاريخية من الهدف العالمي للصراع الطبقي. وعلى كل حال، لا ماركس ولا إنجلز علَّق على المقاطع الاقتصادية للوثيقة أو عدَّلها.

ومسألة ما إذا كان ماركس وإنجلز قد فكرا بـــ(Umarbeitung oder Ergänzung) **للبيان** (*Manifesto*)(مقدَّمة للطبعة الألمانية لعام 1883) فيمكن الشك بها، لا القول، إن وفاة ماركس حالت دون إعادة الكتابة.

11. قارن المقطع في القسم II من كتاب: **البيان** (*Manifesto*) (هُل يتطلب حدساً عميقاً فهم فكرة أن كل أفكار الناس، نظراتهم، ومفاهيمهم، وبكلمة واحدة، وعيهم، يتغيَّر مع تغيرات شروط حياتهم المادية، علاقاتهم الاجتماعية ووجودهم الاجتماعي) مع المقطع المقابل في المقدمة لكتاب: **نقد الاقتصاد السياسي** («ليس وعي الناس هو الذي يحدِّد وجودهم، بل العكس، هو وجودهم الذي يحدِّد وعيهم»).

12. بالرغم من أن هذه هي الترجمة التي وافق عليها إنجلز، فإنها ليست الترجمة الدقيقة للنص الأصلي: "Mögen die herrschenden Klassen vor einer kommunistischen Revolution zittern. Die Proletarier haben nichts *in ihr* ["in it", i.e. "in the Revolution"; my emphasis] zu verlieren als ihre Ketten"

13. للاطلاع على أسلوب بارع، انظر: S. S. Prawer, *Karl Marx and World Literature* (Oxford; New York; Melbourne: [n. pb.], 1978), pp. 148-149,

وعندي أن ترجمات البيان الذي أعرف تفتقر للقوة الأدبية للنصّ الألماني الأصلي.

14. In: *Die Lage Englands: Das 18. Jahrhundert* (Karl Marx and Friedrich Engels, *Werke 1* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), pp. 566-568).

15. انظر، مثلاً، البحث الموجود في «الرأسمال الثابت وتطوّر مصاد إنتاج المجتمع» في: Karl Marx and Friedrich Engels, *Collected Works* (London: [n. pb.], 1987), vol. 29, pp. 80-99.

16. العبارة الألمانية "Sich zur nationalen Klasse erheben" لها معاني هيغلية، وقد عُدلت في الترجمة الإنجليزية التي أجازها إنجلز، لأنه افتكر أنها لن تكون مفهومة من قبل القراء، في ثمانينات عام 1880.

17. كلمة بؤس يجب ان لا تقرأ بمعنى يرادف معنى «فقر». فالكلمتان الألمانيتان المستعارتان من الاستعمال الإنجليزي هما «بائس» («شخص بائس ومعوز... مدعوم من أعمال الإحسان أو من تموين عام ما»، **قاموس تشامبرز للقرن العشرين** (*Chamber's Twentieth Century Dictionary*) وكلمة -"Pauperismus" (البؤس: «حالة البائس»، المصدر المذكور).

18. المفارقة تمثل في أن ما يشبه الحجة الماركسية في عام 1848، يوظفها اليوم، وعلى نطاق واسع، رأسماليون وحكومات السوق الحر بغية البرهان على أن اقتصاديات الدول التي ناتجها العام الصافي يستمر في التضاعف في كل عقود قليلة، سوف تنتهي بالإفلاس إذا لم تتخلّ عن أنظمة تحويل الدخل (دول الرعاية... إلخ). الذي يحصل في أزمنة الإملاق، من قبل الذين يكسبون للحفاظ على العاجزين عن الكسب.

19. Leszek Kolakowski, *Main Currents of Marxism* (Oxford: Clarendon Press, 1978), vol. 1: *The Founders*, p. 130.

20. George Lichtheim, *Marxism* (London: [n. pb.], 1964), p. 45.

21. Published as *Outlines of a Critique of Political Economy* in 1844, (Marx and Engels, *Collected Works*, vol. 3, pp. 418-443).

22. "*On the-History of the Communist League*," in: Marx and Engels, *Collected Works* (London: [n. pb.], 1990), p. 318.

23. "Outlines of a Critique," in: Marx and Engels, *Collected Works*, vol. 3, pp. 433ff.,

يبدو أن هذا قد استشهد من كتاب بريطانيين راديكاليين، على وجه الخصوص:

John Wade, *History of the Middle and Working Classes* (London: Eflingham Wilson, 1835),

حيث أشار إلى هذا الصدد إنجلز.

24. وهذا أوضح في صياغات إنجلز في مسودتين أوليتين للبيان (*Manifesto*): "Draft of a Communist Confession of Faith," in: Marx and Engels, *Collected Works*, vol. 6, p. 102, and "Principles of Communism," in: Ibid. p. 350.

25. من «الاتجاه التاريخي للتراكم الرأسمالي» في: "*Capital*," vol. I, in: Marx and Engels, *Collected Works*, vol. 35, p. 750.

.26 "George Lichtheim," in: Marx and Engels, *Collected Works*, pp. 58-60.

الفصل السابع: ماركس حول تشكيلات ما قبل الرأسمالية:

1. للوقوع على شرح إنجلز لنشوء الإنسان وتطوره من القرود، وبالتالي، الفرق بين الإنسان والكائنات اللبونة الأخرى، انظر مسوَّدته في عام 1876: «دور العمل في تحويل القرد إلى إنسان» في كتاب: "*Dialectics of Nature*," in: Karl Marx and Friedrich Engels, *Werke 20* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), pp. 444-455.

2. ماركس – خلافاً لهيغل – لم تستوعبه إمكانية – وفي مراحل معينة من تفكيره، ضرورة – عرض مجرد وقبلي لنظريته. انظر القسم – البارع العميق، والمثير مثل كل ما كتب في تلك الحقبة الحاسمة من تفكيره – عن منهج الاقتصاد السياسي في المقدمة (غير المنشورة) لكتاب: **نقد الاقتصاد السياسي** (Marx and Engels, *Werke* 13, pp. 631 – 639) حيث بحث في قيمة ذلك الإجراء.

3. كان ماركس واعياً وعياً كاملاً بإمكانية مثل تلك التبسيطات، بالرغم من أنه لم يعتبرها مهمة لجهة استعمالها. لذا، كان رأيه بأن دراسة النمو التاريخي للإنتاجية قد تكون سبيلاً لإضفاء بعض الأهمية العلمية على خلاصات آدم سميث الخاصة بالاقتصاد (**نقد الاقتصاد السياسي**)،

(Marx and Engels, *Werke* 1, p. 618).

4. وهذا ما أقرَّ به نقّاد الماركسية الأكفاء. وهكذا، نجد أن جورج لبختهايم مصيب في إبرازه فكرة أن النظريات السوسيولوجية لماكس فيبر – عن الدين والرأسمالية أو المجتمع الشرقي – لم تكن بديلاً عن ماركس. فإما أنها كانت متوقعة منه، أو يمكن إدخالها، مباشرة، في إطاره. **الماركسية** (1961)، ص 385، «ماركس ونمط الإنتاج الآسيوي» (*St. Antony's Papers*, 14, 1963), p. 106.

.5 To Joseph Bloch, 21. 9.1890.

6. من الواضح وجود حدود معينة: فمن غير المحتمل أن يكون تشكيل اجتماعي – اقتصادي مشاد، لنقلْ على مستوى من التكنولوجيا يتطلب ماكنات بخارية أن يوجد قبل تشكيل لا يحوز عليها.

.7 *Marx and Engelss zur Deutschen Geschichte* (Berlin: [n. pb.], 1953), I, pp. 88, 616, 49.

.8 Engels to Marx, 18 May 1853, on the Origin of Babylonia; Engels to Marx, 6 June 1853.

.9 Karl Marx, *Chronik Seines Lebens*, pp. 96, 103, 107, 110, 139.

.10 Engels to Marx, 6 June 1853.

11. المراسلات في 18 أيار/ مايو – 14 حزيران/ يونيو. وفي عداد المصادر المشرقية الأخرى المشار إليها في كتابات ماركس بين شهر آذار/ مارس وشهر كانون الأول/ ديسمبر، عام 1853، نذكر:

G. Campbell, *Modern India* (1852), J. Child's, *Treatise on the East India Trade*

(1681), J. von Hammer, *Geschichte des osmanischen Reiches* (1835), James Mill's, *History of India* (1826), Thomas Mun's, *A Discourse on Trade from England into the East Indies* (1621), J. Pollexfen's, *England and East India* (1697), and Saltykow, *Lettress sur L'Inde* (1848),

أيضاً يجب قراءة مقتطفات متنوعة من أعمال أخرى وتقارير برلمانية.

12. G. Hassen, *Die Aufhebung der Leibeigenschaf und die Umgestaltung der gutsher-rlich-bauerlichen Verhaltnisse uberhaupt in den Herzogthumern Schleswig und Hol-stein* (St Petersburg, 1861); August Meitzen, *Der Boden und die landwirtschaftlichen Verhältnisse des preussischen Staates* (Berlin, 1866); G. von Maurer, *Einleitung zur Geschichte der Mark, Hof, Dorf, und Stadtver fassung und der öffentnlichen Gewalt* (Munich, 1854); *Geschichte der Fronhöfe,* 4 vols. (Erlangen: [n. pb.], 1862-1863).

13. Marx to Engels, 14 March 1868; Engels to Marx, 25 March 1868; Marx to Vera Zasulich, 8 March 1881; Engels to Bebel, 23 September 1882.

14. Engels to Marx, 15 December 1882; Marx to Engels, 16 December 1882.

15. وامتدح ثورولد روجرز بوصفه كتب عن «أول تاريخ صحيح للأسعار» في فترة **الرأسمال I** (Torr edn., p. 692 n.). K. D. Huellmann, *Städtewesen des Mittelalters* (Bonn: [n. pb.], 1826-1829) وقد استشهد به كثيراً في كتاب: *Capital III*.

16. Such as Huellmann, Vincard, *Histoire du Travail en France* (1845) or Kin-dlinger, *Geschichte der deutschen Hörigkeit* (1818).

17. Engels to Marx, 25 March 1868.

18. A. Soetbeer, *Edelmetall-Produktion und Wertverhältnis zwischen Golld u. Silber seit der Entdeckung Amerikas* (Gotha: [n. pb.], 1879), known to Engels.

19. Karl Marx and Friedrich Engels, *Werke* 13 (Berlin: [n. pb.], 1961), pp. 135-139; والتي بالمناسبة، تتوقع الانتقادات الحديثة الصادرة من التفسير النقدي حول ارتفاع الأسعار.

20. Marx and Engels, *Werke* 3, p. 22.

21. المصدر نفسه، ص 22-23.

22. لا وجود لترجمة إنجليزية وافية للنعت ständisch لأن الكلمة القرون الوسطية «طبقة اجتماعية (State)» في خطر الاختلاط.

23. Marx and Engels, *Werke* 3, p. 24,

الحجة الكاملة، ص 24-25.

24. المصدر نفسه، ص 50-61.

25. المصدر نفسه، ص 53-54.

26. المصدر نفسه، ص 56-57.

27. المصدر نفسه، ص 59.

28. Chiefly Marx to Engels, 2.6.53; Engels to Marx, 6.6.53; Marx to Engels, 14.6.53 and *Werke*.

29. وقد يكون عدم ظهور هذا الاسم عائداً إلى الحقيقة المفيدة أن الدراسات اللاحقة للأدب الاختصاصي أدت بماركس إلى الشك فيما إذا كانت صورته السابقة عن المجتمع الألماني صحيحة.

30. Cf G. C. Homans, "The Rural Sociology of Medieval England," *Past and Present*, vol. 4, (1953),

لاتجاهات مختلفة من تنمية المستوطنات الطائفية والأسرة المنفردة.

31. As, e.g., in pp.87, 89, 99. The usage in *Capital* III is also in General of this Sort, e.g. (Berlin, 1956 edn) pp. 357, 665, 684, 873, 885, 886, 937.

32. *Capital*, III, p. 841.

33. وفي كتاب: *Capital*, III حيث بحث موضوع الثقافة الإقطاعية بأكمل ما يكون، نراه ينكر القصد بتحليل ملكية الأرض بأشكالها التاريخية المختلفة. انظر: cap. 37, p. 662, and again p. 842.

34. *Capital* III, pp. 843-845 (chapter 47, section II).

35. لا ينكر الماركسيون هذا على نطاق واسع، فلا يجب خلطه مع القول بأن أنظمة إنتاج القيم الاستعمالية هي، أيضاً، وأحياناً أنظمة اقتصاد طبيعي.

36. وتستخدم على الدوام كلمات من قبيل würdiges Zunftwesen («كرامة نظام النقابات الصناعية والتجارية في القرون الوسطى»)، «العمل نصفه فني ونصفه ينجز لذاته»، و-staditscher Gewerbe-fleiss («نشاط مهني مديني»). وجميعها يحمل نبرات عالية من الموافقة العامة.

37. هنا، يقلّل ماركس من قيمة صيرورة أصحاب المهن المدينية موظفين فعليين وعمال أجور.

38. سجّل إنجلز املها بثورة روسية في أواخر سبعينات عام 1870، وفي عام 1894 توقّع إمكانية «الثورة الروسية تعطي الإشارة لثورة العمال في الغرب، بحيث تتكاملان» (Marx and Engels, *Werke* 18, p. 668).

For other References: Marx to Sorge, 27.9.1877; Engels to Bernstein, 22.2.1882.

39. في رسالة إلى فيرا زاسولتش (Vera Zasulich)، 1881. بقيت أربع مسوّدات من تلك الرسالة - ثلاث منها طبعت في: Marx and Engels, *Werke* 18, pp. 384-406.

40. *Nachwort* (1894) *zu "Soziales aus Russland"* (Marx and Engels, *Werke* 18, pp. 663-664).

41. *Capital* III, pp. 365-366.

42. مثلاً، مسودات إلى زاسولتش (Zasulich)، المصدر نفسه، ص 387، 388، 402، 404.

43. جورج لختهايم (المصدر نفسه، ص 98) كان محقاً الإلفات إلى تلك العداوة المتنامية للرأسمالية والغرام بالمجتمعات البدائية الباقية، لكنه أخطأ في رأيه المفيد أن ماركس عام 1858 قد رآها في ضوء سلبي كلياً. ففكرة أن الشيوعية ستكون إعادة خلق، على مستوى أعلى، للفضائل الاجتماعية التي كانت للشيوعية البدائية، هي فكرة تنتمي إلى إرث الاشتراكية الأول. قال فورييه: «على العبقري أن يكتشف دروب تلك السعادة البدائية ويكيِّفها وفقاً لشروط الصناعة الحديثة» استشهد به في كتاب: J. Talmon, *Political Messianism* (London: [n. pb.], 1960), p. 127,

وللاطلاع على وجهات نظر ماركس الأولى، انظر: *Das philosophische Manifest der historischen Rechtsschule*) لعام 1842 (Marx and Engels, *Werke* 1, p. 78): «وهناك خرافة متداولة في القرن الثامن عشر اعتبرت حالة الطبيعة الحالة الحقيقية للطبيعة الإنسانية. فقد رغب البشر أن يروا فكرة الإنسان بعيونهم ذاتها، لذلك، خلقوا «البشر الطبيعيين»، فباباغينوس (Papagenos) بجلده ذي الريش عبَّر عن سذاجتهم.

في العقد الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي، حيث يشتبه في أن الشعب البدائي يتمتع بالحكمة الأصلية، وصائدو الطيور الذين يمكن سماعهم أين ما حلوا وهم يغنون أغاني الأريكيوس الهندية. بالمختصر ووفق هذه المعاني فإن الطيور ذاتها قد تمسك. وكل الغرابة في هذه الطيور التي تقع ضمن هذه الفكرة، التي تمثل الظروف الأم الأساسية للوضع العام، وكما وكأنها ضمن خط السياق الهولندي الاقتصادي، للظروف الصحيحة.

44. هذا كتاب كان ماركس يودّ أن يكتبه، ولتحقيق ذلك أعد ملاحظات واسعة، اعتمد عليها إنجلز بقدر ما أمكنه. انظر: Preface to First Edition, 1884 (Marx and Engels, *Werke* 21, p. 27).

45. Drafts to Vera Zasulich, Ibid.

46. «كانت العبودية أول (أوكد على أول) شكل من أشكال الاستغلال وينتمي إلى الأزمنة القديمة، وتبعه الاقطاع في القرون الوسطى، وبعد ذلك العمل المأجور في الأزمنة الحديثة. تلكم كانت أشكال العبودية الثلاثة الكبرى المميزة لحقب ثلاث كبرى للمدنية» ("Origin," in: Marx and Engels, *Werke* 21, p. 170). يتضح من هذا النص أن لا محاولة، هنا، توجد لإدخال ما دعاه ماركس «النمط الآسيوي» في أيٍّ من العناوين الثلاثة المذكورة. فقد حذف لانتمائه إلى المدنية الماقبل - التاريخية.

47. Marx and Engels, *Werke* 3, pp. 29-30.

48. *Anti-Dühring*، *Origin of the Family* والمقالة القصيرة عن Tee Mark وحرب الفلاحين الألمان هي الكتب الرئيسية التي تمَّ نشرها، لكن هناك مسوَّدات وملاحظات (ومعظمها غير كامل) عن التاريخ الألماني والإيرلندي في القرون الوسطى. انظر: Marx and Engels, *Werke* 16, pp. 459-500; 19, pp. 425-521; 21, pp. 392-401.

49. "Origin of the Family," in: Marx and Engels, *Werke* 21, p. 144.

50. "*Anti-Dühring*," in: Marx and Engels, *Werke* 20, pp. 164, 220, 618.

.51 "Origin of the Family," Ibid., pp. 148-149.

.52 المصدر نفسه، ص 146–148.

.53 المصدر نفسه، ص 146، 164، "*The Mark*," in: Marx and Engels, *Werke* 19, pp. 324-325.

.54 المصدر نفسه، ص 326–327. وحول الحاجة إلى أسلحة من صنع المدينة، انظر مسوّدة إنجلز: *Über den Verfall des Feudalismus und das Aufkommen der Bourgeoisie* (Marx and Engels, *Werke* 21, p. 392).

.55 "*The Mark*," Ibid., pp. 326-327.

.56 Engels to Marx, 15.12.1882, 16.12.1882.

.57 **العلامة** – الذي هدفه، الذي نذكره بسرعة، كان البحث في حركات الزراعة الإقطاعية – قصد منه أن يكون ملحقاً من 8–10 صفحات لكتاب: **ضد دوهرنغ** والكتاب غير المنشور *Über den Verfall* كملاحظة تمهيدية لطبعة جديدة لكتاب: **حرب الفلاحين**.

.58 *Zur Urgeschichte der Deutschen* (Marx and Engels, *Werke* 19, esp. pp. 450-460).

.59 "*Anti-Dühring*: Preparatory Notes," in: (Marx and Engels, *Werke* 20, pp. 587- 588).

.60 المصدر نفسه، ص 588.

.61 Quoted in: L. S. Gamayunov and R. A. Ulyanovsky, "The Work of the Russian Sociologist M. M. Kovalevsky ... and K. Marx's Criticism of the work," *XXV International Congress of Orientalists,* Moscow (1960), p. 8.

.62 "*Anti-Dühring*," in: Marx and Engels, *Werke* 20, p. 164.

.63 المصدر نفسه، ص 252.

.64 «جميع الشعوب تسير على الدرب ذاته... وتطور المجتمع يكون، وفقاً لقوانين محدَّدة، عبر حلول تشكيل اجتماعي – اقتصادي».

.65 إن الخوف من تشجيع «الاستثنائية الآسيوية» وإضعاف المعارضة الحازمة الكافية للنفوذ الإمبريالي (الغربي) كان قوياً، وربما كان العنصر الحاسم في التخلّي عن «النمط الآسيوي» الذي قال به ماركس، من قِبَل الحركة الشيوعية الأممية، بعد عام 1930. انظر مناقشات لينغراد في عام 1931، كما سجّلت (بانحياز كبير) في: Karl August Wittfogel, *Asiatic Despotism* ([n. p.]: [n. pb.], 1957), pp. 402 – 404. وقد تبع الحزب الشيوعي الصيني، وبصورة مستقلة، الطريق نفسه قبل ذلك ببعض السنوات. وللاطلاع على وجهات نظره، التي تبدو معيارية وثابتة، انظر: Mao Tse – tung, *Sel. Works*, III ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), pp. 74 – 77.

.66 للاطلاع على النقاشات السوفيتية في أوائل خمسينات عام 1950، انظر: Voprosi Istorit, 6, 1953; 2, 1954; 2, 4 and 5, 1955,

وللاطلاع على النقاش الغربي حول الانتقال من الإقطاع والذي يمس، جزئياً، موضوعات شبيهة،

انظر: P. M. Sweezy [et al.], *The Transition from Feudalism to Capitalism* (London: [n. pb.], [n. d.]),

انظر أيضاً: G. Lefebvre, *La pensée* ([n. p.]: [n. pb.], 1865), p. 65, and G. Procacci, *Società*, 1, ([n. p.]: [n. pb.], 1955).

67. انظر: R. Guenther and G. Schrot, "Problèmes théoriques de la société esclavagiste," dans: *Recherches Internationales à la lumière de marxisme*, Paris, 2 (May – June 1957).

68. E. M. S. Namboodiripad, *The National Question in Kerala* (Bombay: [n. pb.], 1952).

69. D. D. Kosambi, *An Introduction to the Study of Indian History* (Bombay: [n. pb.], 1956), pp. 11 – 12.

70. انظر: Guenther and Schrot, "Problèmes théoriques de la société esclavagiste," ans: *Recherches internationales à la lumière de marxisme*.

71. E. Zhukov, "The Periodization of World History," *International Historical Congress, Stockholm* (1960), *Rapports* I, pp. 74 – 88, esp. 77.

72. انظر: "State and Revolution in Tudor and Stuart England," *Communist Review* (July 1948).

هذه المراجعة، على أية حال، كانت دائماً تتعرض إلى الانتقاد خصوصاً من: J. J. Kuczynski, *Geschichte d. Lage d. Arbeiter unter dem Kapitalismus* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), vol. 22, cap. 1-2.

73. انظر: Alexander Bogdanov, *Short Course of Economic Science*, 1879, Revised 1919 (London: [n. pb.], 1927);

في صيغة أكثر تطوراً: Karl August Wittfogel, *Geschichte der bürgerlichen Gesellschaft* (Vienna: [n. pb.], 1924).

74. Owen Lattimore, "Feudalism in History," *Past and Present*, vol. 2 (1957).

75. Zhukov, "The Periodization of World History," *International Historical Congress*, *Stockholm*, p. 78.

76. Sweezy [et al.], *The Transition from Feudalism to Capitalism.*

77. انظر: *Zur Periodisierung des Feudalismus und Kapitalismus in der Geschichtlichen Entwicklung der U.S.S.R.* (Berlin, 1952).

78. *Asiaticus, Il modo di produzione Asiatico* (*Rinascita*, Rome, 5 October 1963), p. 14.

79. *Recherches Internationales*, vol. 37 (May – June 1963),

الذي يبحث في الإقطاع يحتوي على بعض الإسهامات النقدية الجدلية ذات الصلة. للاطلاع على المجتمع القديم، انظر المجادلات بين: Welskopf (*Die produktionsverhältnisse im Alten Orient und in her griechischrömischen Antike*, Berlin, 1975), and Guenther and Schort (*Ztschr, f. Gschichtswissenschaft*, 1957 and *Wissensch. Ztschr. d. Karl – Marx – Univ.*, Leipzig, 1963); for Oriental Society, F. Tökei, *Sur la mode de production asiatique* (Paris: Centre d'Etudes et de recherches Marxistes, 1964), Cyclostyled.

الفصل الثامن: حظوظ كتابات ماركس وإنجلز:

1. *Neudrucke marxistischer Seltenheiten* (Verlag Rudolf Liebing, Leipzig).

2. وفي أواخر ستينات عام 1960، فان GDR التي نشرت **الأعمال** (*Werke*)، نشرتها منفصلة عن السلسلة الرئيسية وليس كمجلّدات مرقّمة من الأعمال، نقول ذلك لأنها لم تمتنع عن نشرها.

3. أعمال ماركس وإنجلز الآتية مذكورة نصّياً في ذلك الكتاب المؤثّر تأثيراً لا ريب فيه: *Anti – Dühring, Capital, The communist Manifesto, The Critique of Political Economy* (Preface), *Dialectics of Nature, Feuerbach, Zur Kritik der Hegelschen Rechts philosophie, Poverty of Philosophy, Socialism, Utopian and Scientitic, Wage Labour and Capital*, and One or Two Letters and Prefaces by Engels.

القسم الثاني

الفصل التاسع: الدكتور ماركس والأزمة الفيكتورية

1. *Problems of Communication* V, 1956.
2. *Utopias from Sir Thomas More to Karl Max*, 1879, p. 241.
3. *Nineteenth Century*, Apl. 1884, p. 639.
4. William Graham, *The Social Problem* ([n. p.]: [n. pb.], 1886), p. 423.
5. *Socialism*, 1874, p. 165.
6. انظر: Kaufmann's Chapter in Subjects of the Day: *Socialism, Labour and Capital*, 1890 –1891, p. 44.
7. James Bonar, *Philosophy and Political Economy* ([n. p.]: [n. pb.],1893), p. 354.
8. *National Review* (1931), p. 477.
9. *Report of the Industrial Remuneration Conference* (1885), p. 344.
10. *Contemporary Socialism*, 1884, Reprinting Earlier Articles.
11. *German Socialism and Ferdinand Lassalle*, 1888, pp. 96 – 97.
12. William Graham, *Socialism: New And Old* ([n. p.]: [n. pb.], 1891) p. 139.

13. *Politics and Economics*, 1885, p. 102.

14. William G. Cunningham, "The Progress of Socialism in England," *Contemporary Review*, vol. 34. (January 1879), p. 247.

15. Joseph Shield Nicholson, *Principles of Political Economy* 1 ([n. p.], [n. pb.], 1893), p. 105

16. المصدر نفسه، ص 1.

17. H. S. Foxwell, "The Economic Movement in England," *Q. Jnl. Econ.* (1888), pp. 89-1000.

18. Nicholson, Ibid., p. 370.

19. Kirkup, Ibid.,
p. 159.

20. W. Burgess, *The Philosophical Theory of the State*, by Bernard Bosanquet (London; New York: Macmillan & Co. 1899), p. 28.

21. المصدر نفسه.

22. ص 358.

23. ص 367.

24. خالف توينبي (Toynbee) وجهة نظر ماركس المفيدة أن yeomanry تلاشى قبل عام 1760 (1908 edn, p. 38). غير أن وجهات النظر الحديثة تؤيد ماركس لا توينبي. وأنا واثق من الكشف عن هذه الحقيقة لن يدفع بعض المؤرخين إلى مراجعة أرائهم.

25. *Studies in Economic History*, xxxiii,
Ixvi.

26. Robert Flint, *Socialism* ([n. p.]: [n. pb.], 1895), p. 138.

27. Hubert Llewellyn Smith, *Economic Aspects of State Socialism* ([n. p.]: [n. pb.], 1887), p. 77.

28. المصدر نفسه، ص 370.

29. J. R. Tanner and F. S. Carey, *Comments on the Use of the Blue Books Made by Karl Marx in Chapter XV of Le Capital* (Cambridge: Economic Club, May Term, 1885).

30. *Two Lectures on the Books of Political Economy* (London: Birmingham and Leicester, 1888), p. 146.

31. ص 4، 12.

32. ص 12.

33. *Two Lectures on the Books of Political Economy*, p. 99.

34. Flint, *Socialism*, p. 136.

35. *Econ. Jnl.* V, p. 343.

الفصل العاشر: تأثير الماركسية 1914 - 1880:

1. للاطلاع على استشهادات مفيدة، انظر E. J. Hobsbawm, *Labouring Men: Studies in the History of Labour* (London: [n. pb.], 1962), pp. 241-242;

لوجهة النظر الألمانية الموثوقة انظر: Rudolf Stammler, "*Materialistische Geschichtsauffassung*," in: *Handwörterbuch der Staatswissenschaften,* 2nd edn ([n. p.]: [n. pb.], 1900).

2. انظر: Hobsbawm, Ibid., pp. 242-243.

3. للاطلاع على نظرة شاملة للأدب المتاح، انظر: K. Diehl's bibliography, "Marx," in: *Handwörterbuch der Staatswissenschaften*).

4. للاطلاع على الماركسية اليابانية، انظر: H. Mizuta in: Paolo Favilli, *Storia del marxismo italiano: Dalle origini alla grande guerra* (Milan: Franco Angeli, 1996), vol. III.

5. يمكن التذكّر أن العبارة الأصلية لماسارك التي صاغها في عام 1898 كانت «الأزمة في الماركسية»، لكن سرعان ما تغيّرت في مجرى النقاش التعديلي لتصير «الأزمة الخاصة بالماركسية»، كما لاحظ ذلك لابريولا وبسرعة. انظر: E. Santarelli, "La revisione del marxismo in Italia nel tempo dell Seconda Internazionale," *Riv. Stor. Del Socialismo*, vol. 4 (1958), p. 383n..

6. حُذفت الاتحادات التابعة للولايات المتحدة الأميركية لعدم توافر أية معلومات عنها منذ عام 1909. المصدر: Wladimir Woytinsky, *Die Welt in Zahlen II* (Berlin: Rudolf Mosse, 1926), p. 102.

7. E. J. Hobsbawm, "La diffusions die mastismo," *Studi Storici*, vol. xv (1972/ 2), pp. 263-264.

8. انشق القادة في المجتمع الغابي عن النظرية الماركسية التي كان لها، في البداية، بعض التأثير في الحلقات الصغيرة لليسار البريطاني المتطرِّف، في أواخر ثمانينات عام 1880. وعلى كل حال، ما تزال **المقالات الفابية** التي شرحت وجهات نظر الجماعة (1889) تظهر تأثيراً ماركسياً مميّزاً، في بعض الأجزاء، خاصة الفصل الذي وضعه وليام كلارك (William Clarke).

9. وعلى نطاق أصغر ساعدت هجرة (السياسية على نحو رئيسي) أعداد قليلة من مفكّري أوروبا الشرقية، الذكور منهم والإناث، على التأثير الماركسي في أقطار ليست استقبالية من دون ذلك - انظر: شارل رابوبورت (Charles Rappoport) في فرنسا، وتيدور روتستان في إنجلترا (Theodore Rothstein).

وانظر أيضاً: G. Haupt, "Le rôle de l'xvil dans la diffusion de l'image de l'intelligentsia

révolutionnaire," *Cahiers du Monde Russe et Soviétique*, vol. xix/ 3 (1987), pp. 235-250.

.10 David L. Sills, *International Encyclopaedia of the Social Sciences* (New York: Macmillan, 1968), art Richard T. Ely.

.11 انظر: Hobsbawm, *Studi Storici*, 1974, pp. 251-251,

وأن دور فرسان العمال في بلجيكا، والماركسي دانييل دو ليون (Daniel de Leon) في بريطانيا، ومؤخراً عمال العالم الصناعيون (النقابيون)، في أجزاء مختلفة من العالم معروف.

12. وعلى كل حال، تجدر الملاحظة أن مدرسة الاقتصاديين البريطانيين التي بيّنت عن اهتمام كبير بماركس في ثمانينات عام 1880 وتسعيناته كانت الأقلية المهزومة في الجانب الخاطئ لجماعة المنشغلين في أبحاث المناهج ونظرية المعرفة (Methodenstreit) الذين أقصوا من ميدان الاقتصاد الأكاديمي، وتحوّلوا الى مؤرخين اقتصاديين، مصلحين اجتماعيين أو موظفين حكوميين. وكانت كامبردج الطرف الرابح.

13. أجرى مثل هذا التقييم مايكز في كتابه: *Soziologie des Parteiwesens* الذي ذكر العداوة النسبية لدى الأطباء تجاه الاشتراكية في أوروبا الغربية (باستثناء فرنسة وإيطاليا) (Stuttgart, 1970, pp. 249-250).

.14 Hobsbawm, *Labouring Men*: *Studies in the History of Labour*, cap. 14.

.15 Robert Michels, *Zur Soziologie des Parteiwesens in der modernen Demokratie: Untersuchungen über die oligarchischen Tendenzen des Gruppenlebens* (Stuttgart: A. Kröner, 1970), pp. 99-100.

16. من بين التلاميذ القدماء في مدرسة الأساتذة العليا (Normaliens) العديدين الذين صاروا اشتراكيين خلال تلك الفترة، كان العضو البارز والوحيد في الحزب الاشتراكي في فرنسا (Guesdiste) Bracke-Desrousseaux وهو الباحث الكلاسيكي المميّز ومترجم ماركس. انظر: Hubert Bourgin, *De Jaurès à Léon Blum*: *L'école normale et la politique* (Paris: Fayard, 1938).

17. عقيدة السياسي الماركسي الفرنسي القديمة ألكسندر كاسيديت (Alexandre Zévaès):

Alexandre Zévaès, *De l'introduction du marxisme en France* (Paris: M. Rivière, 1947),

لاحظ ترجمة 1872-1875 التي تُظهر أن الكتاب **رأس المال I** مرّ مرور الكرام في حينه.

بمعزلٍ عن النشر في مجلة **الحزب الاشتراكي الفرنسي** (*Guesdiste*)، وفي كتاب يحتوي على تحقيق صحفي بورجوازي حول الاشتراكية (1886,1882)، بدا أن **البيان الشيوعي** لم ينشر منفصلاً إلاّ في عام 1895 (وأعيدت طباعته في عام 1897) الى أن كانت الطبعة الأكاديمية المتقنة للأستاذ الجامعي

أندلر (Andler) في عام 1901. إن أول منشور قائم بذاته عن الحرب الأهلية الفرنسية قد كان عام 1900. في حين قد تم طباعة عدد من الترجمات في النصف الأخير من تسعينات القرن التاسع عشر الميلادي: *Poverty of Philosophy* (1896), *Critique of Political Economy* (1899), *Value, Price and Profit* (1899), *Revolution and Counter – revolution in Germany* (1901).

من الجدير بالقول أن كتابي **رأس المال** الأول والثاني (المنشورين ما بين عام 1902–1900) قد تم ترجمتها في بلجيكا وليس في فرنسا (Zévaès, *De l'introduction du marxisme en France*, cap. X). وهناك القليل الذي تم ترجمته ما بين عامي 1902م و1914م.

18. Michels, *Zur Soziologie des Parteiwesens in der modernen Demokratie: Untersuchungen über die oliga chischen Tendenzen des Gruppenlebens*, p. 225.

19. Hobsbawm, *Studi Storici*, p. 245.

20. Robert Michels, "Die deutsche Sozialdemokratie. Parteimitgliedschaft und soziale Zusammensetzung," *Archiv f. Sozialwissenschaft u. Sozialpolitik*, vol. 23 (1906), pp. 471-559.

21. واقعياً، لم تكن هناك مراسلات بين إنجلز وأي قائد اشتراكي بلجيكي في تلك الحقبة الزمنية. والرسالة الوحيدة الى فاندرفلد (1894) كانت ذات نبرة رسمية.

22. G. D. H. Cole, *History of Socialist Thought, The Second International*, II, p. 650.

23. أهمل الاشتراكيون المسألة القومية، بمن فيهم الماركسيون، في أوروبا الغربية، بالرغم من وجودها الواضح. وهكذا، لم يعر حزب العمال البلجيكي انتباهاً للمسألة الفيلمية (Flemish)، لأن غِنْتْ (Ghent) كانت، ولا شك، حصنها الأقوى. وقائمة المراجع المؤلفة من 48 صفحة التي في كتاب فاندرفلد ودِستري: **الاشتراكية في بلجيكا** (*Le Socialisme en Belgique*) (باريس 1903) لا يحتوي على قسم ولا على عنوان عن الموضوع. فلم تكن تعتبر الحركات القومية/ الإقليمية بورجوازية، بشكل رئيسي أو بورجوازية صغيرة فقط، بل ثانوية، من الوجهة السياسية.

24. في هنغاريا (1901)، تلقّى 22٪ من الذكور اليهود أو ثلاثة أضعاف النسبة في أي دين آخر، وأربع سنوات من التعليم الثانوي، 10٪ أو ضعف النسبة في أي دين آخر أكملوا ثماني سنوات من التعليم الثانوي. V. Karady and I. Kemény, "Les juifs dans la structure des classes en Hongrie," *Actes de la recherche en sciences sociales*, vol. 22 (1987), p. 35.

25. وفي فيينّا، كان الحزب الاجتماعي – المسيحي الديماغوجي، الذي أمسك بالبلدية في تسعينات عام 1890، معادياً للسامية، قوياً، بالرغم من أن زعيمه ليوجر (Lueger) كان دقيقاً في اختياره أهدافه، مثل: «أنا الذي يقرر من هو اليهودي».

26. Robert Hunter, *Socialists at Work* (New York: Macmillan, 1908).

27. Michels, *Zur Soziologie des Parteiwesens in der modernen Demokratie: Untersuchungen über die oligarchischen Tendenzen des Gruppenlebens*, p. 259.

28. Max Adler, *Der Sozialismus und die Intellektuellen* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]).

29. A. V. Peehonov, "Materialy dlya istorii russkoy intelligentsii" cited in: M. Aucouturier, "L'intelligentsia vue par les publicisters marxistes," *Cahiers du Monde Russe et Soviétique*, vol. XIX, no. 3 (1987), pp. 251-252.

30. Intelligentsia I sotsializm (1912), cited in: Aucouturier, "L'intelligentsia vue par les publicisters marxistes," p. 256.

31. Aucouturier, "L'intelligentsia vue par les publicisters marxistes," p. 253ff.

32. بالرغم من أن المنظِّر الأصلي والزعيم الاشتراكي دوبرجينو-غيريا (Dobrogeanu-Gherea) (1855–1920) كان مهاجراً روسياً ماركسياً - نارودنيكياً.

33. انظر المقاتلين عن «الاشتراكية والداروينية» اللتين أعيدت طباعتها في *Neue Zeit* 16/1, 1897-1898, p. 809n.

وانظر أيضاً مقال لبيرسون في:

Dictionary of Scientific Biography, vol, X (New York 1974).

34. انظر: *NZ* 9/1, 1891, pp. 171 ff, "Ein Schüler Darwins als Verteidiger des Sozialismus"

35. انظر ج. فون (G. Von) أدناه: «رفض المؤرخون، باستثناءات قليلة، الخطط التطوري الهيغلي مثلما رفضوا أي مخطط عقيدي جامد آخر وبما يشبه ذلك لم يُبدو تعاطفاً مع المخطط التطوري المادي».
"Die neuere historische Methode," *Hist. Ztschr*, vol. 81 (1898), p. 241.

36. وساعدوا أيضاً، في إقناع قادة المجتمع الغابي بحقيقة الأرثوذكسية الاقتصادية، وكان ذلك سبب صيرورة مدرسة لندن الاقتصادية (London School of Economics) الجديدة ومؤسسة فابية في تسعينات عام 1890، حصناً للاقتصاد الأرثوذكسي رافضاً للهرطقة اللاماركسية، أيضاً.

37. كلاهما انخرط في مثل تلك النقاشات منذ عام 1870. والغريب الطريف أن كتاب تشافل: **جوهر الاشتراكية** (الذي كان نشره الأول، في عام 1874)، اعتبر، وبشكل واسع، عرضاً حيادياً للاشتراكية، واستعمل كمقدِّمة للاشتراكية خارج ألمانيا.

38. انظر إي. غوتين في: Hobsbawm, "Gesellschaft und Gesell schaftswissdenschaft,"*Handwörterbuch der Staatswissenschaften* (2nd edn, 1900), p. 207, and Howard Becker and Harry Elmer Barnes, *Social Thought From Lore to Science*, 3rd edn. (New York: Dover Publications, 1961) III, 1009:

يبدو أن هناك عدد كبير من الأكاديميين الإيطاليين قد أقدموا على تعريف علم الاجتماع ضمن المذاهب المادية التاريخية.

39. "Socialism in the Light of Social Science," *American Journal of Sociology*, vol. xvii (May 1912), pp. 809-810.

40. انظر: Becker and Barnes, *Social Thought From Lore to Science*, p. 889,
وانظر أيضاً: F. Tönniers, *Gemeinschaft und Gesekllschaft*, 6-7 ed. ([n. p.]: [n. pb.], 1926), pp. 55, pp. 80-81, p. 163, p. 249.

41. “Uber individuelle und kollektivistische Geschichtsauffassung,” *Hist. Ztschr.* 78/ 1897, p. 60.

42. *Hist. Ztschr.* 64/ 1890, p. 258.

43. انظر الملاحظة على الوضعي: Breysig in: *HZ* 78/ 1897, p. 522, and G. von in: *HZ* 65/ 1891, p. 294.

44. *HZ* 81/ 1898, “Die neue historische Methode”, pp. 265-266,
لامبريخت «رفض، وبوقار، تهمة المادية. والحق أنه لم يكن ماركسياً. ولا أحد اتهمه بذلك. مع ذلك، فإن مفهومه للتاريخ كان مادّياً. والحق أنه لم يفسّر كل شيء بدوافع اقتصادية. والماركسيون، أيضاً، لم يعتبروا الدوافع الاقتصادية ذات تأثير مباشر في كل مكان، وغالباً ما اعتبروا الدوافع المباشرة سياسية أو دينية».

45. انظر أعلاه ص 262. للاطلاع على التأثيرات الماركسية على لامبريخت انظر أيضاً: L. Leclère, “La théorie historique de M. Karl Lamprecht,” *Revue de L’université de Bruxelles*, vol. IV (1899), pp. 575-599.

46. انظر وجهة نظر كارل كوتسكي في: *HZ* 79/ 1897, p. 305,
لا يمكن استبعاد كتابات جديّة سطرَّها ماركسيون، بخفّة. وقد انتقى رجل القانون ف. جيلنك (F. Jellinek) الفحص الرائد الذي أجراه بيرنشتاين عن المساواتيين (Levellers) والحفّارين البسطاء (Diggers) بغية امتداحه (*HZ* 81/ 1989, p. 117 f)، في حين أن بولمان (Pöhlmann) المعادي القوي للاشتراكية الحديثة والشيوعية لم يستطع إلاّ أن يتعامل مع كتاب: E. Ciccotti, *Tramonto della Schiavitù* ([n. p.]: [n. pb.], 1899),
إلاّ باحترام، حتى أنه سلَّم بأن مثل ذلك النمط من الكتابة تقدَّم بدراسة الأزمنة القديمة (*HZ* 82/ 1899, p. 110) وكان بولمان قد كتب بغزارة عن الاشتراكية والشيوعية القديمتين. وبدا أنه لم يكن عارفاً بالماركسية في عام 1893، لكنه عرف الكثير عنها بحلول عام 1897.

47. Bryce Lyon, *Henri Pirenne: A Biographical and Intellectual Study* (Ghent: E. Story-Scientia, 1974), p. 128 ff.

48. “Une polémique historique en Allemagne” (*RH* LXIV/2, 1897), pp. 50-57.

49. *Studies in Economic History*: *The Collected Papers of George Unwin*, ed. R. H. Tawney (London: R. H. Tawney, 1927), p. xxiii, p. Ixvi

50. E. J. Hobsbawm, “Karl Marx’s Contribution to Historiography,” *Diogenes*, vol. 64 (1978).

51. E. Klebs, *HZ* 82/ 1899, pp. 106-109, and A. Vierkandt *HZ* 84/ 1900, pp. 467-458.

52. كان النساجون هوبتمان وفلوريان غير (Florian Geyer) ملتزمين بالصراحة الاجتماعية - السياسية للأعمال الدرامية والكثير أعجبوا بذلك.

53. *Gesammelte Schriften und Aufsätze*, ed. E. Fuchs Literaturgeschichte II (Berlin: [n. pb.], 1930).

54. انظر: "Was Wollen die Modernen, von einem Modernen", 1893-1894, p. 132ff, p. 168ff.

55. Mehring, p. 298 (1898-1899).

56. ولنفس السبب لم يتطور أبداً مريدو الأوبرا، رغم أن الملحن الأوبرالي الأوحد على الأقل، الثوري غوستاف شاربنتييه (Gustave Charpentier) قد حاول مد يده في الرائعة الشجاعة إلى الطبقة العاملة (Louise, 1900) حيث إن عنصر الواقعية في الفنون verismo قد دخلت الأوبرا في تلك الفترة الزمنية (Cavalleria Rusticana).

57. E. P. Thompson and William Norris, *Romantic to Revolutionary* (London: [n. pb.], 1977), and Paul Meier, *La penseé utopique de William Morris* (Paris: Editions Sociales, 1972).

58. Stuart Merrill, cited, in E. W. Herbert, p. 100n.

59. كان في عداد المشتركين بمجلة الفوضويين *La Révolte*، في عام 1894 كل من دوديه (Daudet)، أناتول فرانس (Anatole France)، هوسمانز (Huysmans)، لوكنت دو ليست (Leconte de Lisle)، مالارميه (Mallarmé)، لوتي (Loti).

والمعاصرين المسرحيين مثل ليغني بويه (Lugné – Poe) وأنطوان (Antoine) وفي ذلك الوقت، لم يكن ممكناً لمجلة اشتراكية أن تجتذب مثل تلك الكوكبة من الأشخاص اللامعين البارزين. غير أنه وجد، وفي وقت مبكر فوضوي مثل الشاعر غوستاف كان (Gustav Kahn) احترم ماركس، وفضّل وحدة اليساريين: Herbert, p. 21, pp. 110- 111.

60. Max Ermers, *Victor Adler* (Vienna: Epstein, 1932), pp. 236–237.

61. H-J. Steinberg, *Sozialismus und deutsche Sozialdemokratie* (Hannover: [n. pb.], 1967), pp. 132-135.

62. Caroline Kohn, *Karl Kraus* (Stuttgart, 1966), pp. 65, 66.

63. انظر: G. Botz, G. Brandstetter and M. Pollak, *Im Schatten der Arbeiterbewegung* (Vienna: [n. pb.], 1977), pp. 83-85, on Austro German anarchism.

64. Rosa Luxemburg, *J'étais, je suis, je serai. Corréspondance 1914-1919*, textes réunis, traduits et annotés sous la direction de Georges Haupt, par Gilbert Badia, Irène Petit et Claudie Weill (Paris: F. Maspero, 1977), pp. 306-307.

.65 المصدر نفسه.

.66 L. Trotskij, *Letteratura e Rivoluzione*, ed. by V. Strada (Torino: [n. pb.], 1973), p. 467

.67 G. Plekhanov, *Kunst und Literatur* (Berlin: Dietz, 1954), pp. 284-285.

.68 J. C. Holl, *La jeune peinture contemporaine* (Paris: Edition de La Renaissance Contemporaine, 1912), pp. 14-15.

.69 Plekhanov, Ibid., p. 292, p. 295.

.70 William Morris, *On Art and Socialism*, ed. by Holbrook Jackson ([n. p.]: [n. pb.], 1946), p. 76.

.71 كان ظهوره الأول في اجتماع اشتراكي (للبحث في إنشاء منازل للشعب) في عام 1883.

.72 « بالنظر لعلاقة العالم الحديث بالفن، فإن عملنا، الآن ولمدة طويلة، لن يكون متمثّلاً في محاولة إنتاج فن محدَّد بل تمهيد الطريق ليكون للفن فرصته» (The Socialist Ideal)، المصدر نفسه، ص 323.

الفصل الحادي عشر: في العصر المضادّ للفاشيّة 1929 – 1945:

.1 95٪ من أعضاء KPD غير حائز إلاّ على تعليم ابتدائي، و1٪ على تعليم جامعي: H. Weber, *Die Wandlung des deutschen Kommunismus* (Frankfurt: am Main, 1969), II, p. 29,

للاطلاع على وضع المفكرين في حزب بروليتاري (غير قانوني)، انظر: G. Amendola, *Un'Isola* (Milona: Rizzoli, 1980).

.2 *For Peace and Plenty: Report of the Fifteenth Congress of the CPGB* (London: [n. pb.], 1938), p. 135,

هناك بعض الدليل على أن تأليف المجالس (Congresses) لم يكن مختلفاً عن تأليف الحزب، ككل. انظر: K. Newton, *The Sociology of British Communism* (London: Penguin, 1969), pp. 6-7.

.3 مقابلة في: *New Statesman*، 28 كانون الثاني/ يناير 1942.

.4 انظر: Georges Haupt, "Emigration et diffusion des idées socialistes: L'exemple d'Anna Kuliscioff," *Pluriel*, no. 14 (1987), pp. 2-12.

.5 كان على موريس دوب أن يكتب كتابه الرئيسي الأول حول الاقتصاد السوفيتي، وهو: Maurice Dobb, *Russian Economic Development Since the Revolution* (London: G. Routledge & sons, 1928),

بمساعدة مترجم.

.6 تلك كانت الحالة مع شخصيات مثل: كارل كورش (Karl Korsch)، والتر بنيامين (Walter Benjamin)، كارل بولني (Karl Polanyi)، نوربر الياس (Norbert Elias)، وآخرين ماركسيين وغير ماركسيين.

7. Paul M. Sweezy, *Theory of Capitalist Development* (NewYork: Oxford University Press, 1942).

8. *Unter dem Banner des Marxismus* (*Pod znameniem marksisma*) والتي كانت أقرب إلى مجلة دولية للبحث النظري، تلاشت عن الأنظار في منتصف ثلاثينات عام 1930، وفي كل الأحوال، كانت تابعة للأرثوذكسية السوفيتية، وبشكل متزايد، وعلاوة على ذلك، لمتكن متاحةً إلاّ باللغتين الألمانية والروسية.

9. انظر فتوى رادك (Radek) المميّزة: «هل يلزم أن نتعلم من الفنانين العظام، مثل بروست، القدرة على التخطيط، وعلى وصف أدق حركات الانسان؟ ليس هذا هو الموضوع. الموضوع هو ما إذا كان لنا طريقنا أو مال إذا كان هذا الطريق قد دلّت عليه التجاري في الخارج».

Problems of Soviet Literature (Moscow: [s. n.], 1935), p. 151.

10. ولمعلومات أكثر سعة عن تلك الأدبيات انظر: John Lehmann, *New Writing in Europe* (London: [n. pb.], 1940).

11. ولمساحة جيدة أوسع حول هذا الفضاء السياسي الثقافي انظر: J. M. Richards, *Autobiography of an Unjust Fell* (London: [n. pb.], 1980), pp. 119 – 20,

المؤلف هو محرر النظرة المعمارية المحدقة في بريطانيا.

12. وهكذا، نظّمت رابطة الفنانين الأممية في بريطانيا (المنظّمة شيوعياً) (1933–1939) معارض – كانت تحت عناوين مثل «الفنانون ضد الفاشية والحرب»، وكانت الرابطة مؤلفة من فنانين أكاديميين، فنانين بنائيين، تكعيبيين، سورياليين، واقعيين اجتماعيين، وشعراء انطباعيين تابعين لفن القرن العشرين الألماني، ومن فنانين فرنسيين غرومار (Gromaire) ليجير(Leger) لوت (Lhote) زادكين (Zadkine)... إلخ. بينما كان المقاتلون فيها من الواقعيين، وبمقدار كبير، لكنهم كانوا متأثرين بالفن المكسيكي ريفيرا (Rivera) أوروزكو (Orozco) والفن الأميركي (Groppor, Ben Shahn)، وليس بالنماذج السوفيتية. انظر: Tony Rickaby, "The Artists" International," *History Workshop*, vol. 6, (Autumn 1978), pp. 154-168.

13. Beatrice Webb, *Our Partnership*, ed. by Barbara Drake and Margaret I. Cole. (New York: Longmans Green, 1948), pp. 489–491.

14. لم يكن من الضروري أن يكون غير معقول من وجهة نظر مصالح دولة الاتحاد السوفيتي (USSR)، وإنما بسبب الافتراض بأن مصالح الشيوعية العالمية، أو مصالح الاتحاد السوفيتي نفسه، تحقق أفضل تحقيق عبر فرض السياسة الجديد بالتساوي على الأحزاب الشيوعية، في كل مكان.

15. بمعزل عن ظواهر التعاطف النازي لقطاع مؤثّر لرأي بوير (Boer) في جنوب أفريقيا.

16. كانت مناطق جنوب وجنوب شرق آسيا، كما حصل، هي المناطق الوحيدة التي أحرزت فيها الشيوعية الهرطقية بعض التأييد الواسع، خاصة في سيلون (Ceylon).

17. جورج لانسبوري (George Lansbury)، زعيم حزب العمال البريطاني ما بين عام 1935–1931 سلمياً بعاطفةٍ قوية.

18. انظر: Pascal Ory, *Les collaborateurs 1940-1945* (Paris: Seuil, 1967), pp. 135-136.

19. انظر: Gary Werskey, *The Visible College* (London: [n. pb.], 1972); S. Zuckerman, *From Apes to Warlords* (New York: Harper and Row, 1978), and M. Goldsmith, *Sage: A Life of J. D. Bernal* (London: Hutchinson, 1980).

20. غير أن ما حصل تحت الاحتلال الألماني تمثّل في أن الأدب قاوم متلّقات المحتلين أكثر من الفنون البصرية، وفنون الأداء قبل أي شيء. انظر: Henri Michel, *The Shadow War: Resistance in Europe 1939 – 1945* (London: Deutsch,1972), p. 141.

21. للاطلاع على سياسة مجلته *Scrutiny*، انظر: Francis Mulhern, *The Moment of 'Scrutiny'* (London: New Left Books, 1979), part II, chapter 2.

22. مثلاً: Aldo Garosci, *Gli intellettuali e la Guerra de Spagne* (Torino: Einaudi, 1959).

23. انظر شهادة رجال الأمن الفاشيين في: G. Amendola, *L'isola* (Milano: [n. pb.] 1980), pp. 96-97, and P. Spriano, *Storia del PCI* (Torino: [n. pb.], 1970), III, pp. 194-201.

24. انظر: Andrew Boyle, *The Climate of Treason* (London: Coronet, 1980), cap. 1-4. For the "publie school rebellion"

وانظر: Esmond and Giles Romilly, *Out of Bounds* (London: Hamish Hamilton, 1935), and Philip Toynbee, *Friends Apart: A Memoir of Esmond Romilly & Jasper Ridley in the thirties* (London: MacGibbon & Kee, 1954).

25. Stephen Spender, *Forward From Liberalism* (London: Random House, 1937).

26. للاستشهاد بالبعض فقط، حيث ما يزيد على طفل لمثل هؤلاء الأهل سلك ذلك الطريق، نذكر: إدوارد تومبسون (النصير المشهور للحرية الهندية) وو. ف. كاريت (E. F. Carritt) (فيلسوف الأخلاق في أكسفورد) وستراتشي (محرر مجلة المُشاهد (*The Spectator*) ذات النفوذ).

27. يستذكر المؤلف الشيوعيين الطلاب من الجنسين الذين كانوا من أقرباء سياسيين وقضاة محافظين بارزين.

28. ويمكن للمرء أن يذكر في عداد المؤهّلين الذين كوّوا أنفسهم ج. كوجنيو (G. CognioT) وأ. بارو (A. Parreaux)، الأول كان مديراً والثاني سكرتيراً لمجلة *La Pensée* وأ. سوبول (A. Soboul) مؤرخ الثورة الفرنسية.

29. Stuart Samuels, "The Left Book Club," *Journal of Contemporary History*, and John Lewis, *The Left Book Club: An Historical Record* (London: Gollancz, 1970).

30. انظر: Francis Newton, *The Jazz Scene* (Harmondsworth: Penguin, 1961), caps 13, 14, app. 1.

31. انظر: J. Starobin, *American Communism in Crisis 1943–1957* (Boston: [n. pb.], 1972), p. 31.

32. البيان الازدرائي صدر عن: Arthur M. Schlesinger Jr (Harvard, Cambridge and the court of J. F. Kennedy), *The Age of Roosevelt: The Politics of Upheaval* (Boston: Houghton Mifflin Company, 1960), p. 165

33. J. Fauvet, *Histoire du Parti Communiste Français I* (Paris: [s. n.], 1964), pp. 267-268.

34. Annie Krieger, *The French Communists* (Chicago & London: [n. pb.], 1972), pp. 175-176.

35. NEW 280.

36. مقدّمة للطبعة الروسية لكتاب **البيان الشيوعي** MEW 19 296.

37. هذا الحساب مشاد على مراجع حمتها مجموعة مؤرخي الحزب الشيوعي البريطاني في عام 1955، وتحتوي على كتابة وترجمات أميركية.

38. انظر: Stuart Macintyre, *A proletarian science Marxism in Britain, 1917-1933* (Cambridge: Cambridge University Press, 1980), and R. Samuel "British Marxist Historians I," *New Left Review*, vol. 120 (1980), pp. 21-96.

39. وبشكل بارز التقليل المتعمّد من قيمة العناصر الهيغلية في كتابات ماركس وحذف «نمط الانتاج الآسيوي» من تحليله. أما مسألة ما إذا كانت تلك المراجعات يمكن الدفاع عنها أو لا فتقع خارج حدود الفصل الحالي.

40. انظر: Karl August Wittfogel, *Oriental Despotism: A Comparative Study of Total Power* (New Haven: Yale University Press, 1957), p. 401 ff

41. M. Shirokov and J. Lewis, eds., *A Textbook of Marxist Philosophy* (London: [n. pb.], 1947), p. 183, and I. Luppol, *Diderot*: *Ses idées philosophiques* (Paris: [n. pb.], 1936).

42. P. Anderson, *Considerations on Western Marxism* (London: [n,. pb.], 1976).

43. C. Haden Guest, ed., *David Guest: A Scientist Fights for Freedom. A Memoir* (London: [n. pb.], 1939), p. 256.

44. H. Lefebvre, *Le nationalism contre les nations* (Paris: Editions Sociales Internationales, 1937), p. 128,

والمسلّم به أن المؤلف، لاحقاً، يهاجم بوير بطريقة أرثوذكسية، لكن بعبارات ذكرت تحديداً وكأنها ذات «وحي مباشر» مستمد من كتاب ستالين: «الماركسية والمسألة القومية» (المرجع المذكور، ص 225).

45. H. Lefebvre, *Le matérialisme dialectique* (Paris, 1939), pp. 62-64.

46. نشر في الحالتين بعد وفاة المؤلف، في باريس (1946) وفي لندن (1939).

47. للفلسفة الماركسية شهرة فريدة من نوعها أيضاً. فعندما كتب إنجلز حول مكافحة دوهرينغ (An-ti-Duhring)، بحث بعناية في العلوم الطبيعية والفيزياء والكيمياء وعن كل شيء يمكن ان يكتشف في عالم الطبيعة حيث التحدث عن جدلية ماركس وتطبيقها على التاريخ والتطور الاجتماعي. أما الآن فالعلماء لا بل كبار العلماء يعاملون الطبيعة بالمثل وذلك من خلال اكتشافهم فلسفة علومهم الخاصة.

A. Rossi, *Physiologie du Parti Communiste Français* (Paris: [s. n.], 1948), p. 335,

كتب هذا الكتاب عام 1942.

.48 E. H. S. Burhop in M. Goldsmith and A. Mackay (eds), *The Science of Science* (London: Souvenir Press, 1964), pp. 33,

انظر أيضاً: Maurice Goldsmith, *Sage: A. Life of J. D. Bernal* (London: Hutchinson, 1980).

.49 C. P. Snow in: John Raymond, ed., *The Baldwin Age* (London: Eyre & Spottis-woode, 1960), p. 248.

50. ج. ب. س هالدين عالم بيولوجي شيوعي عبقري أقرَّ بأن وجهة نظر لينين المتعلقة بالمكان والزمان لم تكن متَّسقةً مع النظرية النسبية، لكنه أرضى نفسه بمعلومة مفادها أن لينين وافق على النسبية لكنه رفض التأويلات المثالية، وذلك في مقالة، في عام 1922، «لم أتمكن من الحصول على ترجمة لها». John Burdon Sanderson Haldane, *The Marxist Philosophy and the Sciences* (London: G. Allen & Unwin, 1938), p. 60,

وشبَّه ذلك بقبول لينين بالخطة الاقتصادية الجديدة.

51. يبدو أن الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني لم يتَّخذ لنشر MS بناءً على نصيحة (مباشرة، بعد وفاة إنجلز) قدَّمها أحد علماء الطبيعة النادرين الذي كان له علاقة بالحزب، حنيئذٍ، لكنه كان أحد «الملتزمين، وبقوة، بالمذهب التجريبي الحسّي، وكان معادياً للديالكتيك (ريازانوف). وكان دفاع ريازانوف عن إنجلز ضد تهمة، عفى عليه الزمان، محترساً، وكان MS، أصلاً، قد نشر في **أرشيف ماركس - إنجلز** (*Marx-Engels Archiv*)، وليس في ميغا، واحتفظ به للـ (parerge) وليس لأعمال المؤسسين الفعلية.

.52 Personal information.

.53 Haldane, *The Marxist Philosophy and the Sciences*, and *A la lumiére du marxisme* (Paris: [s. n.], 1936).

.54 Christopher Caudwell, *The Crisis in Physics* (London: John Lane, 1939), p. 60.

.55 J. B. S Haldane, "A Dialectical Account of Evolution," *Science and Society*, vol. 1/ 4 (1937), pp. 473-486.

56. جوزيف نيدهام في مقالته «حول العلم والتغيّر الاجتماعي» في كتابه **العلم والمجتمع** (*Sci-ence and Society*)، **X**، 3، 1946، ص 225–252، الذي كتب في الصين في عام 1944. ونيدهام، كريستشان (Needham, Christian) وهو ماركسي، عالم أجنّة ومؤرخ (عن طبّ الأجنّة، الثورة

الإنجليزية والعلم والمدنيّة في الصين)، وكان ساعياً، دائماً، وراء نظرة للعالم تكون علمية ومختلفة عن نظر غاليليو، وهو مثل لافت عن عدم الرضا الذي كان بنماذج القرن التاسع عشر.

.57 Caudwell, *The Crisis in Physics*, p. 21, 3.

.58 *In Science at the Crossroads* (London: [n. pb.], 1931).

.59 S. Zuckerman, *From Apes to Warlords: The Autobiography* (London: Hamish Hamilton, 1978), p. 394.

الملحق رقم 1 أعطى تفاصيل حول توتس (Tots) وكوتس.

.60 D. Caute.

.61 B. Crick, *George Orwell: A Life* (London: 1980), pp. 310-319,

حول صعوبات أورول الخاصة **بالمزرعة الحيوانية** (Animal Farm). انظر كنجزلي مارتن (Kingsley Martin)، محرِّر كتاب: **رجل الدولة الجديد والأمة** (*New Statesman & Nation*) حول رفضه نشر مقالات أورول لصالح POUM، قائلاً: «أنا يهمني خسارة الحرب في إسبانيا أكثر من أي شيء آخر قد يحدث في حياتي ... لقد تصرَّف الطرفان بوحشية شنيعة، لكن عليّ أن أقرِّر استناداً الى أسس عامة حتى النهاية التي هي: أحد الطرفين قد يفوز وليس الطرف الآخر». واستشهد بهذا القول ب. جونسون (P. Johnson) في كتاب: **رجل الدولة الجديد** (*New Statesman*)، 5 أيلول/ سبتمبر، 1980، ص 16.

.62 أرلوند زويج كان واحداً من المنددين الأوائل بعرض مسارات عام 1930 (D. Caute p. 279).

.63 حصل الاستشهاد بذلك في: J. Rühle, *Literatur und Revolution* (Munich; Zürich: Droemer, 1963), p. 136.

.64 لا يبدو أن الألوية الأممية شملت الكثير من المفكرين (باستثناء هؤلاء الذين شاركوا كجزء من واجبهم كثوريين محترفين) بالرغم من أن حضورهم كان لافتاً وبشكل غير مألوف في وسط الأميركيين والمجموعة التشكيلية الصغيرة. Andreu Castells, *Las Brigadas Internacionales de la guerra de Espana* (Barcelona: Ariel, 1974), pp. 68-69.

.65 ومن بينها يمكن أن نذكر مجلات، مثل *Commune*، (مجلة أدبية فرنسية مختصة للدفاع عن الثقافة)، *Europe*، *La Pensée* وعلى صعيد قاعدة جبهة شعبية أوسع، نذكر المجلة الأسبوعية *Vendredi* وفي بريطانيا *Modern Quarterly* (1938-1939 و1946-1945) وخلال الحرب وبعدها *Our Time*، في الولايات المتحدة الأميركية *New Masses*، *Science and Society* (1936-؟؟؟) ولبعض الوقت *Partisan Review*.

.66 ديمتروف: «أما الخلاص الأخير، فليس بمقدور هذه الحكومة (حكومة الجبهة الموحَّدة المضادّة للفاشية) أن تحققه لذا، من الضروري الإعداد للثورة الاشتراكية: القوة السوفيتية ووحدها القوة السوفيتية تقدر أن تحقق مثل ذلك الخلاص» (المصدر نفسه).

.67 لنستشهد بباحث كلاسيكي بارز مضى على كونه أحد المشاركين في الألوية الأممية وقت طويل، قال: «ربما كانت الثورة الاجتماعية (عند بعض الناس) بمنزلة الفردوس، لكنه فردوس حمقى، فمن

دون جيش فعّال أيامه معدودة. والذين تخيلوه برهنوا أنهم غير قادرين على شن حرب كالتي كان فرانكو يشنّها عليهم». برنارد نوكس (Bernard Knox)، تذكّر مدريد (Remembering Madrid) (*New York Review of Books*, 6 Nov. 1980, p. 34).

68. لا يعنينا، هنا، النقد الممكن للأنظمة الاشتراكية الجديدة.

69. مقالة جاك دكلوز (Jacques Duclos) المنشورة في (Cahiers du Communisme) (نيسان/ أبريل) (1945) المنتقدة إنحلال الحزب الشيوعي (CP) الأميركي في عام 1944 اعتبرت ممثّلة للسلطة، وتأسس من جديد حزب الولايات المتحدة الشيوعي (CPUSA) بعد ذلك بقليل.

70. Wolfgang Leonhard, *Child of the Revolution*, trans. C. M. Woodhouse (London: Ink Links, 1979), p. 208.

71. E. Lustmann, *Weg und Ziel: die Pollitik der österreichischen Kommunisten* (London: [n. pb.], 1943), p. 36. Dimitrov in 1946, cited in F. Fejtö, *Histoire de démocraties populaires* (Paris: Seuil, 1969) I, p. 126.

72. Fernando Claudin, *La crise du mouvement communiste du komintern au Kominform*, Traduit de l'espagnol par Carlos Semprun I (Paris: François Maspero, 1972), p. 533, and Eugenio Reale, *Avec Jacques Duclos au banc des accusés à la réunion constitutive du Kominform à Szklarska Poreba: 22-27 septembre 1947* (Paris: Plon, 1958), pp. 75-76.

73. «فهي تحتفظ لكل أمة بالحق الأخير في تقرير شكل الحكم والتنظيم الاجتماعي، وفق ما ترغب، من ضمن هذا الإطار». Earl Browder, *Teheran and America: Perspective and Tasks* (New York: [n. pb.], 1944), p. 14.

74. المصدر نفسه، ص 14-13.

الفصل الثالث عشر: قبول غرامشي: غرامشي في أوروبا وأميركا:

1. P. Spriano, *Gramsci in carcere e il partito* (Roma: L'Unità, 1988).

2. A. Bullock and O. Strallybrass, eds, *The Fontana Dictionary of Modern Thought* (London: Fontana, 1977).

3. «المئة والخمسون من أكثر المؤلفين الذين يستشهد بهم في فهرس الاستشهادات في الفنون والعلوم الانسانية، 1876 - 1983»، Eugene Garfield, "Institute for Scientific Information," *Current Comments*, vol. 48 (December 1986).

4. Gwyn A. Williams, *The Welsh in their History* (London: Croom Helm, 1982), p. 200.

5. Georg G. Iggers, *New Geschichtswissenschaft* (Munich: [n. pb.], 1987), p. 51.

6. Abelove, Blackmore, Dimock and Schneer, eds., *Visions of History* (New York: [n. pb.], 1983), p. 38.

7. "Revolution in Popular Culture," in: R. Porter and M. Teich, eds., *Revolution in History* (Cambridge: Cambridge University Press, 1986), p. 211.

الفصل الرابع عشر: تأثير الماركسيّة 1945 – 1983:

1. الأقطار الوحيدة ذات التطوّر الصناعي الخاضعة لمثل تلك الأنظمة لم تكتسبها، بعد الحرب الثانية من دون السيطرة الروسية.

2. John Rae, *Contemporary Socialism* (London: W. Isbister, limited, 1884).

3. مثلاً المقالة: Daniel Bell, "Socialism," *International Encyclopaedia of the Social Sciences* (NY, 1968).

4. *The Transition from Feudalism to Capotalism*, introduction by Rodney Hilton (London: [n. pb.], 1976).

5. Immanuel Wallerstein, *The Modern World-System* (New York: Academic Press Inc, 1974),

وللاطلاع على نقد مبكر لأطروحة فرانك (Frank)، انظر: Ernesto Laclau, "Feudalism and Capitalism in Latin America," *New Left Review*, vol. 67 (1971).

6. ومن بين الكتّاب المؤثرين يمكن ذكر: إريك وولف (Eric Wolf) وتيودور شانن (Teodor Shanin) وحمزة علاوة (Hamza Alavi)

وإعادة اكتشاف تشايانوف تمّ من خلال دراستهم أفكار الماركسي دانيال ثورنر (Daniel Thorner).

7. للاطلاع على قائمة لبعض تلك المكتبات، محتوياتها و«خريجيها»، انظر: Hywel Francis, "'Survey of Miners' Institutes and Welfare Libraries," *Llafur*, vol. 1, no. 1 (October 1972 - February 1973), pp. 55-64.

8. يجب ألاّ يضلّلنا النهوض الظاهري لبعض الأحزاب الاشتراكية الضعيفة والمحتضرة، منذ أوائل سبعينات عام 1970، كما في فرنسا، إسبانيا أو اليونان. فلم تعد تعمل كأحزاب جماهير ذات قاعدة بروليتارية، ووفقاً لخطوط تقليدية، وإنما بوصفها كتل تحرِّك جمهور ناخبين متغايري الخواص موحَّدين، بشكل رئيسي، بسخط على الأنظمة المحافظة القائمة والرغبة في مجموعة متنوعة من الإصلاحات في الدولة، الاقتصاد والمجتمع.

9. Francis, Ibid., p. 59.

10. الحكاية استشهد بها في: R. A. (lord) Butler.

11. وكما سبق أن رأينا، تألف قطاع واسع «لليسار الجديد» والذي معظم أعضائه ممن اهتم بالنظرية الماركسية، من شيوعيين سابقين (أرثوذكسيين أو منشقّين) ممن تركوا أو طردوا من الأحزاب أو المجموعات التي تشكّلت وفقاً للتقليد البلشفي، أو كانوا مرتبطين به.

12. George Lichtheim, *Marxism: An Historical and Critical Study* (London: Routledge & Kegan Paul, 1961), p. 393, and P. Baran and Paul Sweezy, *Monopoly Capital*

(New York: Monthly Review Press, 1966), p. 3.

13. لا يصدق هذا، فقط، على عددٍ من الطوائف والمجموعات الثورية، بل وعلى الأحزاب الشيوعية الصغيرة المحوَّلة مثل الذي في السويد.

14. Lichtheim, Ibid., pp. 393-394.

15. المصدر نفسه، ص 394.

16. للاطلاع على بحث مفيد في تطور كلمة «ربط» (Articulation) في النظرية الماركسية منذ ألتوسير، انظر: A. Foster-Carter, "'The Mode of Production Debate'," *New Left Review*, vol. 107 (1978), pp. 47-78.

17. Nicos Poulantzas: "'The Capitalist State: A Reply to Miliband and Lacrau'," *New Left Review*, vol. 95 (1976), pp. 65-66; *Poulantzas' Main Works were Political Power and Social Classes* (London: [n. pb.], 1973); *Fascism and Dictatorship* (London: New Left Books, 1974), and *Classes in Contemporary Capitalism* (London: New Left Books, 1975).

18. انظر النقد المهذب، لكن القاسي، لألتوسير من وجهة نظر ماركسي مؤرخ ومحارب قديم:
Pierre Vilar, "Histoire marxiste, histoire en construction: Essai de dialogue avec L. Althusser'," *Annales*, vol. 281 (1973), pp. 165-198.

19. انظر: المصدر نفسه، العدد 3، ص 41 وما يليها.

20. Georg G. Iggers, *Neue Geschichtswissenschaft* (Munich: [n. pb.], 1978), p. 157.

21. Paul A. Samuelson, *Economics*, 10 ed. ([n. p.]: [n. pb.], 1976), cap. 42.

22. G. A. Cohen, *Karl Marx' Theory of History: A. Defence* (Oxford: [n. pb.], 1978), p. ix.

23. للوقوع على مثل مفيد، انظر: O. Juusinen, ed., Fundamentals of Marxism-Leninism (Moscow: [n. p.], 1960), part III and caps 22, 23.

24. للاطلاع على مثل سابق، انظر: Oskar Lange, *Political Economy I: General Principles* (Warsaw: [n. pb.], 1963),

الذي احتوى فصله الذي كان حول «مبدأ العقلانية الاقتصادية» على ملحق حول «الأسس الرياضياتية للبرمجة» أشار إلى كتابات: فريش (Frisch)، ساموبلسون (Samuelson)، سولو (Solow)، بالإضافة الى آخرين. وكان لانج (Lange) أكاديمياً اشتراكياً بارزاً رجع إلى بولندا، بعد الحرب.

25. وكان ذلك، وبمقدار كبير، بدافع من كتاب بييرو سترافا (Piero Straffa): **إنتاج السلع بواسطة السلع** (*The Production of Commodities by Means of Commodities*)، في تلك السنة، مما أدّى إلى جدلٍ كبير بين الماركسيين «الريكارديين» و«غير الريكارديين».

26. هذه العبارة مصدرها كتاب يبدأ بالكلمات: «هذا الكتاب هو كتاب في النظرية الماركسية».
Barry Hindess and Paul Q. Hirst, *Pre–capitalist Mode of Production* (London, [n. pb.], 1975).

27. لا يعني ذلك أن العقائد في الاتجاه السائد للماركسية هي أصبح من تلك الموجودة في الأطراف، وإنما يعني، وفقط يعني، أنها كانت الأصح عند ماركس.

28. على سبيل المثال: كتاب هلفردنغ: **الرأسمال المالي** (*Finance Capital*) وكتاب روزا لوكسمبورغ **تراكم الرأسمال** (*Accumulation of Capital*) اللذان يشيران، دائماً، إلى ماركس.

29. وتقع العبارة في كتاب: **الدولة والثورة** (*The State and Revolution*). وكانت إحدى نتائج إضفاء مرجعية نصِّية ضعيفة على تحليل سبعينات عام 1970 وثمانيناته، هي أن اللينيين المخلصين شعروا أنهم مضطرون للاعتقاد بأن الرأسمالية الاحتكارية الخاصة بالدولة كانت مزدهرة خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها. انظر:

art. 'stattsmonopolistischer Kapitalismus' in Wörterbuch dermarxistisch-Leninistischen Soxiologie, (Berlin E., 1977), p. 624 ff.

30. من هذه الناحية نقول، إن النقاشات حول الفصل بين ماركس الشاب والمتكمل النضج، والمعروف على شكل «الفصل المعرفي» – (rupture épistemologique) الذي توقعه عدم رغبة الماركسية السوفيتية الأرثوذكسية بـ **الأعمال المبكرة** بأنه ينتمي انتماء صحيحاً لمجموعة الكتب الماركسية – كانت مهمة، وبمعنى حقيقي. فالمسألة ليست مسألة ما إذا كان ماركس قد تخلّى عن الإرث الهيغلي أو حجج مخطوطات باريس لعام 1843. فالمؤكد أنه لم يفعل ذلك. فالمسألة تتمثل في نتيجة الجمع بين طريقتين مختلفتين كلياً، في تصوّر المستقبل.

31. J. A. Schumpeter, *History of Economic Analysis* ([n. p.]: [n. pb.], [n. d.]), p. 573

32. P. M. Sweezy, *The Theory of Capitalist Development* (London: [n. pb.], 1964), p. vii.

33. انظر: M. Desai, *Marxian Economic Theory* (London: Gray-Mills , 1974),

الذي هو مثل مفيد عن الأدب الذي صُمم للطلاب من قِبَل اقتصادي ماركسي: «هذا الكتاب يتناول الاقتصاد الماركسي بوصفه برنامج بحث مستمر تظل فيه مسائل كثيرة لم تحسم وتتطلب أجوبة» (ص 6).

34. انظر: George Lichtheim, "'On the Interpretation of Marx's Thought'," in: *From Marx to Hegel* (New York: [n. pb.], 1971), p. 69:

«من الواضح أنه بالنسبة الى ماركس تكون الطبيعة وحدها داخلة في اعتبارات ما يملكه الإنسان، مضافٍ إليها ما يحيط به من بيئةٍ تحوله من خلال تطبيقاته الفعالة. فالعالم الخارجي كما هو موجود في ولادات الإنسان هو عالم غير صلة».

.35 Sebastiano Timpanaro, *On Materialism* (London: NLB, 1975)

.36 انظر: Desai, *Marxian Economic Theory*, p. 2.

الفصل الخامس عشر: الماركسية في تراجع 1983 – 2000:

1. هذه الحادثة نقلها نورمان دافيس (Norman Davis) لمؤتمر أكاديمي بريطاني حول سقوط الشيوعية في أوروبا 16-15 تشرين الأول/ أكتوبر 2009.

.2 Jim Riordan, "The Last British Comrade Trained in Moscow: The Higher Party School, 1961-1963," (Socialist History Society, SHS Occasional Paper 23, 2007).

.3 Felix Gilbert and Stephen R. Graubard, eds., *Historical Studies Today* (New York: W. W. Norton & Company, 1971, 1972).

.4 Robert Evans, "'The Creighton Century: British Historians and Europe 1907 - 2007'," in: David Bates, Jennifer Wallis and Jane Winters eds., *The Greighton Century 1907-2007* (London: Institute of Historical Research, 2009), p. 15.

5. أنتج توسيع الحداثيين لمنظورهم الاجتماعي تحفةً تاريخية، لكن، ليس قبل 2000–1998 مجلداً *Hitler* للمؤلف إيان كيرشاو (Ian Kershaw). ونحن ما نزال ننتظر كتاباً شبيهاً عن ستالين الاتحاد السوفيتي.

.6 Régis Debray, *Révolution dans la révolution, et autres essais* (Paris: Maspero, 1967).

7. استعملت معدَّل الترجمة والتداول الخاص بعناويني بوصفها مؤشراً.

.8 انظر: Calvin Trillin, "'Wall Street Smarts'," *International Herald Tribune*, 15/10 2009, p. 6.

الفصل السادس عشر: ماركس والعمّال: القرن الطويل:

كانت رائدة الزيّ الجديد المجلة الأميركية *US* فوربس (Forbes) التي سبق أن وصفت نفسها، وبافتخار أنها «أداة الرأسمالية» في ستينات عام 1960.

الثبت التعريفي

آليا (Aliya): تعني هجرة اليهود إلى إسرائيل. وتعني حرفياً، الصعود.

آينشتاين (Einstein): ساد الاعتقاد في مدرسة التفكير النيوتوني أن الحركة مطلقة. وهذا معناه أن الزمان والمكان مطلقان. لكن العالم الفيزيائي ألبرت آينشتاين غير هذه النظرة من أساسها. ففي بحثه المختصّ بموضوع «الحركة الكهربائية للأجسام المتحركة» وضع نظرية جديدة عرفت باسم «النظرية النسبية الخاصة». تجدر الملاحظة أن آينشتاين اعتمد في بناء نظريته على ما وصلت إليه أبحاث العالم الفيزيائي هندريك لورنتز. أما جوهر النظرية الجديدة، فكان رفضاً لمبدأ الحركة المطلقة والقانون الناجم عنه الذي عرف باسم قانون «القصور الذاتي الذي يفيد أن الأجسام عاطلةٌ عن الحركة أو السكون». فالجسم الساكن يظل ساكناً والمتحرك يظل متحركاً حركة مستقيمة منتظمة ما لم تؤثر فيه قوة خارجية تبدِّل من وضعه. إذن الكلام عن «حركة مطلقة» لا معنى له. والبديل عند آينشتاين هو أن حركة الأجسام هي نسبية للمراقب. فلا يوجد في الكون موضع يمكن اعتباره مرجعاً لحركة مطلقة. ومن النتائج النظرية المهمة للنسبية اعتبار الكتلة معادلة للطاقة أو أن نقول إن الكتلة، كتلة الجسم المتحرك، تتحول إلى طاقة، والعكس بالعكس، إذا كانت سرعة الجسم مقاربةً لسرعة الضوء التي تبلغ 300,000 كم/ ثا أو 80,000 ميل/ ثا. وقد عبّر آينشتاين عن ذلك بالقانون التالي: الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء mc2=E. بالإضافة إلى «النظرية النسبية الخاصة» وضع آينشتاين «النظرية النسبية العامة» في ما بعد. وقد نال على اكتشافاته المشار إليها وغيرها جائزة نوبل.

الأخوّة الفنيانيّة (Fenianism): منظمة إيرلندية سرّية تأسست في الولايات المتحدة حوالي عام 1858 لهدف القضاء على الحكم البريطاني في إيرلندا.

استغلال (Exploitation): يوجد الاستغلال عندما تَستغل طبقة اجتماعية طبقةً اجتماعيّة أخرى. فعلى سبيل المثال تستعمل الطبقة الرأسمالية في النظام الرأسمالي طبقة العمّال استعمالاً ظالماً وذلك بإلزامهم بالعمل ساعاتٍ إضافيّة في المعمل، وهو ما نسميه بالعمل الفائض. وهذا العمل الفائض له قيمة فائضة تذهب إلى جيوب الرأسماليين. وتقاس نسبة (درجة) الاستغلال بالصيغة الآتية: ن غ = عمل فائض / عمل ضروري × 100. فمثلاً، إذا افترضنا أن العمل الفائض كان 4 ساعات والعمل الضروري 4 ساعات، فإن نسبة الاستغلال ن غ = 4/ 4 × 100 = 1 × 100 = 100 في المئة!

ألتوسير (Althusser): لويس ألتوسير فيلسوف فرنسي معروف، وهو ماركسي وله كتابات ماركسية اشتهرت بما ورد فيها من قراءة جديدة للماركسية تنتمي إلى ما صار يعرف «بالشيوعية الأوروبية» (Euro-communism). ومن أعماله المهمة نذكر الكتب الآتية: *Reading Capital* ،*For Marx* ،*Lenin and Philosophy* (وكتاب آخر بالاشتراك مع زميله إتيان باليبار(Étienne Balibar) تحت عنوان: *Essays of Self-Criticism*).

أنثروبولوجيا (Anthropology): علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته.

أيقنة (Iconography): صنع الأيقونات أو التمثيل عن طريق الرسم أو النحت أو غير ذلك من الفنون.

براديغم (Paradigm): عنى البراديغم عند كون «مجموعة القوانين، والتقنيات، والأدوات المرتبطة بنظرية علمية والمسترشدة بها، التي بها يمارس الباحثون عملهم ويديرون نشاطاتهم. وحالما تتأسس تتخذ اسم العلم العادي». وبفضل هذا المصطلح، تمكن كون من شرح وجهة نظره في تاريخ العلم، فرآه عبارة عن تاريخ براديغمات متعاقبة تختلف واحدها عن الآخر اختلافاً نوعياً إلى الحدّ الذي لا يمكن مقارنتها، كما قال. وليس العلم كما خاله آخرون من مؤرخي العلوم وفلسفاتها عملية تراكمية ممتدة لا يعتريها انقطاع. والبراديغم الذي وصفه بأنه نظرية علمية جديدة، عنى به، وبكلام آخر، نظرة جديدة إلى الكون والطبيعة تقضي على نظرة سابقة، تماماً كما يحصل في الثورات السياسية. والحق أن كُون أنشأ ما يسميه بالموازاة ما بين الثورات العلمية والثورات السياسية، عانياً التشابه الثوي بينهما. ومن أوجه التشابه يذكر الآتي: في كليهما تنشأ أزمات تسبّبها حالات عدم انتظام (Anomalies) يستعصي على النظام القائم حلّها. وفي كليهما، من يقوم بالثورة هو جزء

من المجتمع وليس كله. وفي كليهما، من يقوم بالثورة هو جزء من المجتمع وليس كله. وفي كليهما ينتهي الأمر بنشوء مؤسسات جديدة وتقاليد حياة سياسية أو علمية جديدة. وهكذا يستمر الحال إلى أن تقع أزمات جديدة تفجر ثورات جديدة. وهكذا يستمر الحال إلى أن تقع أزمات جديدة تفجر ثورات جديدة. وفكر البراديغم تتعارض مع التصور الواقعي الذي يعتبر الطبيعة هي المرجعية (Reference)، وأن المعرفة العلمية يجب أن تكون متطابقة مع ما يوجد هناك في الطبيعة أو الكون. المرجعية عند كُون، وفقاً لبراديغمه، هي المتَّحد العلمي (Scientific Community)، فهو الذي يرى الأزمات، وهو الذي يضع النظرات الجديدة كلّها. أما الكلام عن عالم بمفرده، مكتشف لهذا القانون العلمي أو ذاك، فهو كلام فاسد. فالعلم يتطور متحدّياً اجتماعياً، بواسطة براديغمات.

براغماتية (Pragmatism): مذهب فلسفي أميركي أشهر من مثَّله الفلاسفة بيرس (Pierce)، وليام جيمس (W. James) وجون ديوي. وقد عرَّف هؤلاء الفلاسفة الصدق بالنجاح، أو بنتائجه العملية المفيدة.

براودر (Browder): كان براودر (Earl Browder) كأمين عام الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة الأميركية ما بين 1934 – 1945. وكان قبل ذلك مناهضاً للحرب العالمية الأولى. وقد ألقي القبض عليه بعد اتهامه بالتجسس وحكم عليه بالسجن العامين، ونُفذ الحكم من عام 1917 إلى عام 1918. وتوفي عام 1973.

برنكيّون (Blanquists): أتباع لويس أوغست بلانكي (Louis August Blanqui) (1805 – 1881) الاشتراكي الفرنسي والناشط السياسي لنظريته الثورية التي عرفت بالبلانكيّة. وقد درس القانون والطب لكنه انغمر في النشاط السياسي. فشارك في ثورة تموز/ يوليو في عام 1830. وسجن عدة مرات لعقيدته الجمهورية في زمن حكم لويس فيليب (Louis Philippe) (1830 – 1848). وفي شهر أيار/ مايو، عام 1839 اندلعت ثورة بإيحاء من جماعته في باريس أسهمت فيها عصبة العادلين الذين سبقوا وكانوا بمنزلة البشير لقيام العصبة الشيوعية لماركس.

برهان بنقيض الفرض (Prove by Contradiction): إثبات صدق قضية عبر بيان كذب نقيضها. وأكثر ما يوظّف هذا البرهان في علم الرياضيات، فإذا، قال أحد مثلاً في الرياضيات، إن الخط المستقيم قد يوازي الخط المستقيم، ولم يقتنع زميله، حالتئذٍ، يذكر ما يأتي: لنفترض ما يخالف رأيي (الفرض الأصلي) ولنقل أن من لا يوازي قد، فماذا تكون النتائج؟ عندما يبرهن صاحب الزعم أن النتائج تكون غير منطقية فغير مقبولة، عندئذٍ،

يقول: يجب التخلّي عن الافتراض الذي أدّى إلى تلك النتائج. فماذا يبقى؟ يبقى التسليم بأن من يوازي قد!

بروتستانتي (Anabaptist): عضو في طائفة بروتستانتية نشأت في أوروبا بعد عام 1520، وتميّزت بالشروط القاسية التي وضعتها لعضوية الكنيسة، ومنها إصرارها على إعادة تعميد البالغين، ورفض عماد الأطفال.

بلوم (Blum): ليو بلوم (Leon Blum) (1872-1950) كان سياسياً فرنسياً وكان يعدّ من اليسار المعتدل. وعمل رئيسياً لوزراء فرنسا ثلاث مرات.

بوشوفكز (Bosheviks): هم أعضاء حزب سياسي راديكالي في روسيا تسلّموا الحكم في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، عام 1917، وتحولوا إلى حزب شيوعي في شهر آذار/ مارس، عام 1918.

بوهيمي (Bohemian): كاتب أو رسام... إلخ. يحيا حياة لا تقيم وزناً للأعراف والقواعد الاجتماعية. وتطلق هذا الصفة، أحياناً، على المتشرد المترحل، مثل الغجري.

بيزنطة (Byzantium): بيزنطة، مدينة يونانية قديمة تقع على مضيق البوسفور، وقد بنى الإمبراطور قسطنطين في موقعها في عام 330 بعد الميلاد مدينة القسطنطينية. وعرفت، في العهد العثماني بالآستانة، وتعرف، اليوم، بإستانبول.

تجدر الملاحظة أن أفراد هذه الحلقة تأثروا بالفيلسوف فتجنشتاين (Wittgen-stein) الذي عرّف الفلسفة بأنها نشاط وليست نظرية، وأن مهمة الفيلسوف هي توضيع الأفكار. وبتأثيره صارت الفلسفة عبارة عن تحليل لغوي. الفيلسوف إ.ج. آير (A. J. Ayer) الذي حضر حلقة ڤيينا تأثر باتجاهها وعندما عاد إلى بلده بريطانيا ألّف في عام 1936 كتابه: *Language, Truth and Logic* **(أي اللغة والصدق والمنطق)** وفيه صاغ نظريته في معنى القضية (الجملة) على النحو الآتي: كل قضية تتحقق بملاحظة الحقائق هي ذات معنى والعكس بالعكس ينتج عن تلك النظرية أن جميع القضايا (الجمل) والأفكار الميتافيزيقية والدينية والأخلاقية لا معنى لها (أي لا يمكن وصفها بالصدق أو عدم الصدق).

تحليل الحاصل (Tautology): هو القضية المنطقية (الجملة) التي تكون صادقة دائماً، مثل قولنا، البحر هو البحر أو البحر هو الماء.

تركز (Concentration): تعتبر صناعة ما، قد وصلت إلى التركز، عندما يكون عدد قليل من المؤسسات الضخمة ينتج الجزء الأكبر من الإنتاج ويوظف الجزء الأكبر

من عدد المشتغلين... إلخ. وتعتبر درجة التركز صفة مميزة لتوزيع المؤسسات التي تعمل في صناعة ما تبعاً لحجمها مقاساً بعدد المشتغلين حيث يدلنا هذا التوزيع على مدى ما وصلت إليه هذه الصناعة من تركز. والاهتمام الاقتصادي بدرج التركز ينبع من أن مدى تركز الصناعة يؤدي دوراً هاماً في السلوك الذي تتعبه المؤسسات في هذه الصناعة نحو الأسعار والأرباح والإنتاج. فإذا أخذنا في اعتبارنا النماذج التي تدرس بالنسبة إلى نظرية الأسعار لاحظنا أن المنافسة الكاملة تتميز بوجود عدد كبير من المؤسسات الصغيرة التي يكون إنتاج كل منها ومن ثم عدد المشتغلين في هذا الإنتاج جزءاً يسيراً من المجموع، ولذلك تكون الصناعة في هذه الحالة ذات درجة منخفضة جداً من التركز، وتبعاً لذلك لا تستطيع أي من المؤسسات أن تؤثر في السعر السائد في السوق، ولذا تعمل كل مؤسسة على أن تحدد إنتاجها بحيث تتساوى التكلفة الحدية لهذا الإنتاج مع السعر السائد في السوق.

توتس وكوتس (Tots and Quots): هو نادٍ أسسه عالم الحيوان (Zoologist) صولي زكرمان (Solly Zuckerman). وكان معظم أعضائه من اليساريين السياسيين مدفوعين للعمل خوفاً من الهتلرية وإعادة التسلح الألماني.

ثيوصوفي (Theosophist): المؤمن بالثيوصوفية، وهي معرفة الله من طريق الكشف الصوفي أو التأمل الفلسفي، أو كليهما. كما تعني الثيوصوفية معتقدات حركة نشأت في الولايات المتحدة الأميركية في عام 1875، وبنيت على أساس من التعاليم البوذية والبراهمية.

جامعات ثمان (Ivy League): مجموعة من ثمان جامعات قديمة ومتميزة في القسم الشمالي الشرقي من الولايات المتحدة وهي: براون (Brown)، كولومبيا (Columbia)، هارفارد (Harvard)، بنسلفانيا (Pennsylvania)، برنستون (Princeton) وييل (Yale).

جماعة راب التوافقية (Rappites): جماعة دينية أسسها جورج راب (George Rapp) (1757 – 1847) في ألمانيا، وجلبها إلى ولاية بنسلفانيا (Pannsylvania) في عام 1804. وتدعى أيضاً جماعة التوافقيين (Harmonists) كأنغام الموسيقى.

الحجة الدائرية (Circular Argument): حجة قائمة على الدور، أي استنتاج يفترض صدق ما قام ليبرهن على صدقه.

حركة توحيدية (Risorgimento): حركة سياسية رمت إلى توحيد إيطاليا في عام 1815.

حركة وثيقية (Chartism): المبادئ التي نادى بها بعض المصلحين السياسيين

الإنجليز في القرن التاسع عشر، واستهدفت تحسين أوضاع الطبقة العاملة، من الناحيتين الاجتماعية والصناعية.

الحقبة الألمانية الولهيمية (Wilhelmine): تعبير يصف مرحلة من التاريخ الألماني تعرف بمرحلة الإمبراطورية الألمانية، وتبدأ من الإعلان عن ويلهلم الأول كقيصر في الفرساي في عام 1871 إلى تنازل حفيده ويلهلم الثاني عن العرش في عام 1918.

دول المحور (Axis): وتعني هنا، دول المحور التي تألفت من ألمانيا وإيطاليا واليابان، بشكل رئيسي، في الحرب العالمية الثانية، مقابل دول الحلفاء التي شملت أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا، بشكل رئيسي.

ريكاردو (Ricardo): يُعَدّ ديفيد ريكاردو (David Ricardo) أحد أكبر ممثلي الاقتصاد السياسي التقليدي (الليبرالي). وأشهر مؤلفاته كان: **مبادئ الاقتصاد السياسي والضريبة** (*Principles of Political Economy and Taxation*)، الذي صدر في عام 1817 وأثار جدلاً ونزاعاً فكرياً. وقد بدا الاقتصاد السياسي لريكاردو عبارة عن قوانين محدَّدة لتقسيم الناتج بين طبقات الإنتاج المركزية، ومن إسهاماته إدخاله المنهج التحليلي في هذا العلم، وموقفه المدمَّر للمبادئ والتقاليد السائدة. واستغراقه في تطبيق المنهج التحليلي لاستنباط تعميمات، جعله يهمل الوقائع إلى حدٍّ صار فيه عمله يوصف بـ: الرذيلة الريكارديّ (Ricardian Vice). ومن الأمثلة التي تُضرب عن تلك الرذيلة، رأيه بأن علاقة الأجرة والثمن هي علاقة تناسب عكسي، أي، إذا زاد أحدهما نقص الآخر، والعكس بالعكس.

سفسطة (Philistinism): صفة أو وجهات نظر الإنسان غير المثقف، العادي.

الشاهد الموثوق (Locus Classicus): الشاهد الكلاسيكي الذي يعني جملة أو عبارة مأثورة تورد للتمثيل على معنى كلمة أو لشرح موضوع.

عصر التنوير (Enlightenment): عصر اشتهر بإبراز مفكرين وفلاسفة أهمية العقل، بل وأولية العقل في المعرفة بأنواعها. وظهر في فلاسفة كبار مثل إيمانيويل كَنْت (Emanuel Kant) الذي ألّف كتابين عن العقل هما: **نقد العقل المحض ونقد العقل العملي**، كما ازدهرت فيه حركة العلوم. وقد نشأت الحركة في فرنسا خلال القرن الثامن عشر، وكان أهم ما أكّدت عليه الحرية الفكرية.

عطيل (Othello): رواية وضعها شكسبير في عام 1622. وكانت الشخصية

الرئيسية فيها مغربيّ شجاع وغيور قتل زوجته لظنّه بعدم إخلاصها له، لكنه قتل نفسه عندما تبيّن له أنها كانت بريئة.

غويسد (Guesde): هو جول باسيل غويسد المولود في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر، عام 1845، في باريس وكان صحافياً وسياسياً اشتراكياً. وقد اتّهمه ماركس [هو وبول لافارج (Paul Lafargue)] «بالاتجار بعبارات ثورية» وإنكار قيمة النضال الإصلاحي. وكان التراشق بينه وبين ماركس مصدراً لملاحظة ماركس التي ذكرها إنجلز، وهي: [«المؤكد هو أنه (إذا كانا ماركسيين)، فأنا لست ماركسياً»]. وتجدر الإشارة إلى أن لافارج تزوّج ابنة ماركس.

فابي (Fabin): عضو في الجمعية الفابية، وهي جمعية إنجليزية أنشئت في عام 1884، ورمى أعضاؤها إلى نشر المبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية.

فوضوية (Anarchism): المشترك بين فلاسفة المذهب الفوضوي هو رفضهم للدولة. كل دولة غير شرعية، وقوانينها غير شرعية فيجب أن لا تُطاع. نذكر من آباء الفوضوية أشهرهم، نعني: بيار – جوزيف برودون الاشتراكي الفرنسي ومايكل باكونين الاشتراكي الروسي الذي انشق عن ماركس (1870) خلال النزاع المرّ داخل المؤتمر الشيوعي الأول. الأول اشتهر بأفكاره الفوضوية والثاني بتطبيقها على الصعيد الميداني. إنّ مفكّري الفوضوية يرفضون أيّ نوع من الإمرة السياسية والاجتماعية أيضاً. وفي مجتمعهم الذي يتصوّرونه لا يجوز القبول بأيّ تعاون يمكن أن يخرق مبدأ الفرد الحرّ المستقلّ.

كازاخستانيون (Kazakh): شعب تركي يقيم في أواسط آسيا.

كلوزوتز (Clausewitz): هو كارل فون كلوزوتز (Karl von Clausewitz) الذي كان ضابطاً بروسياً وكاتباً في العلم العسكري. فمن نظرياته قوله، إن الحرب لم تعد امتداداً مقبولاً لنشاط السياسة الدولية.

كوميون (Commune): أصغر وحدات التقسيم الإداري في فرنسا، إيطاليا وسويسرا.

كوميونالية (Communalism): مذهب يقول، إن الدولة عبارة عن اتحاد بين كوميونات مستقلة.

كيوبتز (Kibbutz): مستعمرة إسرائيلية اشتراكية، وبصورة خاصة تعاونية زراعية. ومثلها مطبق الآن، في أرض فلسطين المحتلة.

لادينو (Ladino): تعني حرفياً لاتينية (Latin) وهي، الآن، تعني اللغة الإسبانية القديمة.

لعبة منزلية (Parlou Game): لعبة تمارس داخل البيوت وليس خارجها من قِبَل الأفراد من المجتمع المهذب.

ليبرالية اقتصادية (Economic Liberalism): هذا الاسم يُردُّ عادة إلى الشعار المشهور للاقتصاديين الليبراليين، ألا وهو: «دعه يعمل، دعه يمر» (laisser faire, laisser passer). أما مبادئ هذا المذهب، فهي الآتي:

1- مبدأ أن المجتمعات الإنسانية محكومة بقوانين طبيعية، لا نقدر على تغييرها.

2- مبدأ أن هذه القوانين ليست مضادّة للحرية الإنسانية، بل بالعكس تماماً، هي تعبير عن العلاقات التي تنشأ وبعفوية، بين الناس في المجتمع، وذلك عندما يترك أفراد المجتمع ليعملوا بحرية، وفقاً لمنافعهم الخاصة.

3- أما دور المشرِّع فهو محدود ومحصور في تطوير المبادرة الفردّية إلى أقصى مدى، ومنع المنازعات. ومعنى ذلك، هو أن تدخّل الحكومة يجب أن يكون في أدنى حدّ.

مذهب تكعيبي (Cubism): هو مذهب فني، وتحديداً، في الرسم التشكيكي. واهتم أتباعه برسم الأشياء والمشاهد بطريقة تظهرها بأبعاد ثلاثة وليس ببعدين (طول وعرض فقط) كما في فن النحت. وأشهر التكعيبيين كان الفنان بيكاسو.

مذهب الفوضى (Anarchism): مذهب يقول دعاته بعدم الدولة، أي هم يرفضون الدولة جملة وتفصيلاً لأنها ظالمة بكل معنى وسالبة لحرية الإنسان. وكان خير ممثِّل لهذا المذهب روبرت بول وولف (Robert Paul Wolff). ومن أشهر آباء الفوضوية نذكر بيار – جوزيف برودون (Joseph-Pierre Proudhon)، ومايكل باكونين (Michael Bakunin) الاشتراكي الروسي.

مذهب المنفعة (Utilitarianism): هذا المذهب عبارة عن نظرية أخلاقية تفيد بأن صحة السلوك وخطأ السلوك يتوقّفان على نتائجه. وقد عرّف مؤسس النظرية الفيلسوف الإنجليزي جيريمي بنتام (Jeremy Bentham) هذا المذهب بقوله: هو السعادة العظمى للعدد الأكبر، وذلك في كتابه: **مبادئ الأخلاق والتشريع** (*The principles of Morals and Legislation*)، واضح أن مبدأ النظرية مبدأ كمّي إذ يختص بما يسميه بنتام حساب اللذة (Hedonistic Calculus) الذي يعتمد على معايير الشدّة (Intensity)، والمدّة (Du-

(Propin- والقرب أو البعد ،(Certainty or Uncertainty) والقرب أو البعد (ration، واليقين أو عدمه
.quity or Remoteness)

مركنتليّة (Mercantilism): نظام اقتصادي نشأ في أوروبا خلال تقسم الإقطاعية لتعزيز ثروة الدولة من طريق التنظيم الحكومي الصارم لكامل الاقتصاد الوطني، وانتهاج سياسات تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة، وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية.

معسكر اعتقال (Gulag): معسكر اعتقال للأسرى السياسيين في دولة شمولية. وهو معسكر أشغال شاقة.

معضلة 22 (Catch): حالة يقصد منها الخديعة عبر طبيعتها الخبيئة المعقّدة أو المنحرفة خاصة، بالرغم من محاولات للتغلّب على هذه الحالة.

مناشفة (Mensheviks): أعضاء الجناح الأقل راديكالية في الحزب الديمقراطي الاجتماعي الروسي. وكانوا معارضين للبلاشفة (Bolsheviks) منذ عام 1903 إلى عام 1917. وكان لينين قد أطلق عليهم هذا الاسم في مؤتمر للحزب في عام 1903.

منطقة مسلوخة (Irredenta): منطقة متصلة تاريخياً أو عرقياً بوحدة سياسية، ولكنها خاضعة حالياً لوحدة أخرى.

مهتزّون (Quakers): أعضاء في كنيسة مسيحية تدعى مجتمع الأصدقاء يؤمنون بالبساطة في الأخلاق والثياب والخدمات الدينية، وهم يعارضون الحروب. وقد أسسها جورج فوكس (George Fox) في أوساط ستينات عام 1600.

مؤهَّل (agrégé): رتبة أكاديمية يحصل عليها في مباراة امتحان وتمكن حاملها من التدريس في مدرسة أو جامعة.

نابغون (Meritocracy): طبقة من الأشخاص متميّزة بالذكاء والموهبة العاليين.

نارودنك (Narodnik): هو روسي كان في ثمانينات عام 1800 منتمياً للحركة الطلابية في الطبقة الوسطى ولمفكريها الذين ذهبوا للعمل والعيش في أوساط الفلاحين بغية تحسين أحوالهم. وأصل المعنى، في اللغة الروسية هو الشعب أو الأمة.

نظرية مالثوس (Malthus Theory): توماس روبرت مالثوس (Thomas Robert Malthus) (1766 – 1834): درس الرياضيات والفلسفة. انضم إلى الكنيسة الإنجليزية، ثم عين أستاذاً للتاريخ والاقتصاد السياسي في إحدى الجامعات. في عام 1789 نشر مقالاً بعنوان "The Principle of Population as it Affects the Future Im-

provement of Society" ثم نشر المقال نفسه بعد مراجعة عام 1803. كذلك نشر عدة مؤلفات أخرى، إلا أن مالثوس يذكر دائماً مقترناً بما كتبه عن السكان، حيث يرى أن قدرة الإنسان على إنتاج الطعام تقل عن قدرته على التكاثر. ويعبر عن ذلك بقوله إن السكان في أي مجتمع يزيدون وفقاً لمتوالية هندسية بينما تزيد الطبيعية الضرورية لمعيشة الإنسان وفقاً لمتوالية حسابية. لذلك تعمل الطبيعية على تحقيق التوازن بين حجم السكان وحجم الموارد عن طريق الأوبئة والحروب والكوارث الطبيعية (ويسميها مالتوس الموانع الموجبة). إلا أن مالتوس كان أقل تشاؤماً في الصيغة الثانية من بحثه حيث أخذ يدعو إلى الموانع الواقية لتحديد عدد أطفال الأسرة وذلك بتأخير سن الزواج والتعفف الأدبي.

نقابيّة (Syndicalism): النقابية مذهب يسيطر العمال بموجبه على الاقتصاد والحكم من طريق الإضراب العام.

هزّازين (Shakers): طائفة دينية اشتراكية أميركية تعرف بطائفة الهزّازين لأنها تعتبر حركات الجسد جزءاً من العيادة.

وضعية (Positivism): الفلسفة الوضعية التي أسسها الفيلسوف ومؤسس علم الاجتماع أوغست كونت (**Auguste Comte**) وعبرها طلب التخلّي عن التفكير التأملي والتركيز على النظر إلى الأحداث والظواهر نظرة موضوعية، أي كما هي.

وضعية منطقية (Logical Positivism): نشأت الوضعية المنطقية في حلقة ڤيينا التي تألفت من فلاسفة في الرياضيات والعلوم من بينهم شليك (Schlick Moritz). المشاركون في هذه الحلقة رفضوا الميتافيزيقا وأكدوا الاتجاه العلمي، وقالوا إن معنى القضية (الجملة) هو في طريقة تحققها (Verification) بالملاحظة والتجربة.

يديش (Yiddish): لغة نشأت من لغة محلية ألمانية. واللغة اليديشية تحتوي على كلمات عبرية وسلافية (Slavic)، وتكتب بحروف عبرية، ويتكلمها، بشكل رئيسي اليهود المقيمون في أوروبا الشرقية.

يعقوبية (Jacobinism): مذهب جماعة سياسية متطرفة عرفت بنشاطها الإرهابي خلال الثورة الفرنسية.

يوكر(Ugr): شعب يقيم في غرب الصرب في أوروبا الشرقية.

ثبت المصطلحات

ابتداع/ هرطقة	Heterodoxy
إبطال/ نسخ	Supersession
أثر أدبي أو فكري ممتاز من الطراز الأول	Classic
أثر لم ينجز	Torso
إجماع	Unanimity
أحد أبناء البلاد الأصليين	Autochthon
أرض وبيت	Demesne
أساس/ طبقة سفلية	Substrarum
استيلاء	Appropriation
اشتراكي/ شيوعي	Communal
أصله علم الأنساب	Genealogy
أصلي/ بلدي	Autochthonous
اضطراب عنيف (زلزال) في الطبيعة أو في المجتمع.	Convulsion
أعمال كاملة/ مجموع آثار الكاتب	Oeuvre
اقتراع في الانتخابات	Suffrage

Rescission	إلغاء/ نسخ
Pauperism	إملاق/ فقر شديد
International First	أممية أولى
Plagiarism	انتحال آراء الآخرين
Eclectic	انتقائي
Relapse	انتكاس/ ارتداد
Dissolution	انحلال/ فناء
Élan	اندفاع/ حماسة
Intelligentsia	أهل الفكر
Eschatology	إيمان بالأخرويات (كالبعث والحساب)
Virtuosity	براعة فنية/ ولوع بالتحف الفنية
Precursor	بشير/ نذير
Tract	بقعة/ قطعة أرض
Relic	بقيّة
pot-Melting	بوتقة
Retainer	تابع/ خادم
Mercantile	تجاري
Espionage	تجسّس
Levy	تجنيد
Ossification	تحجّر (عاطفي أو فكري)
Mobilization	تحريك/ تعبئة
Inquest	تحقيق/ بحث
Version	ترجمة/ نسخة
Dissection	تشريح/ دراسة نقدية مفصَّلة

Praxis	تطبيق عملي
Encroachment	تعدٍ/ انتهاك
Scholia	تعليقات/ حواشي
Incantation	تعويذة/ رقية
Recrudescence	تفجير من جديد/ تفشي
Dichotomy	تفرع ثنائي/ ثنائية
Bifurcation	تفريع/ تشعيب
Exegesis	تفسير/ تأويل
Periodization	تقسيم إلى فترات تاريخية دولية متساوية ومتتابعة
Abstinece	تقشّف
Symbiosis	تكافل/ تعايش
Prognosis	تكهّن بما يحتمل أن يكون
Disruption	تمزيق
Fatalism	جبرية/ القول بالقضاء والقدر
Monolith	جحر ضخم على شكل عمود
Fringe	جماعة ذات آراء متطرفة
Quintessence	جوهر/ خلاصة
Laureate	حاصل على تقدير أو تشريف خاص لعمله
Satrap	حاكم ثانوي مستبد
Conjuncture	حالة/ أزمة
Laureate	حائز على تقدير لنبوغة في أدب أو فن أو علم
Tillage	حراثة/ فلاحة
Craft	حرفة تتطلب براعة يدوية أو فنية

Verbatim	حرفياً
Bulwark	حصن/ متراس
Catalyst	حفّاز
Tsarism	حكم قيصري
Aegis	حماية/ رعاية
Animation	حياة/ إحياء
Fauna	حيوانات منطقة أو حقبة ما
Compendia	خلاصات وافية
Compendium	خلاصة وافية
Quack	دجّال/ مشعوذ
Acme	ذروة/ أوج
Progency	ذرّية/ نتيجة
Anniversary	ذكرى سنوية/ عيد سنوي
Centenary	ذكرى مئوية
Excursus	ذيل (لشرح نقطة في كتاب)
Radicalism	راديكالية/ ثورّية
Imprimatur	رخصة بالطبع أو النشر
Apostle	رسول/ رائد إصلاح أخلاقي
Auspices	رعاية/ دعم
Pasture	رعي الماشية
Don	رئيس كلية إنجليزية أو مدرس فيها
Ascetic	زهدي/ نسكي
Sorcerer	ساحر/ مشعوذ
Archives	سجلاّت/ محفوظات

Exasperation	سخط/ غضب
Felicity	سعادة عظيمة
Slump	سقوط في الأسعار
Hagiography	سيرة تتسّم بتقديس الكاتب
Generic	شامل/ عام
Spectre	شبح
Diaspora	شَّتات
Eccentricity	شذوذ/ غرابة الأطوار
Patrician	شريف روماني/ نبيل
Chieftain	شيخ قبيلة
Diabolical	شيطاني/ شرّير
Aberration	ضلال/ انحراف
Atrophy	ضمور/ توقف عن النمو
Lithograph	طباعة على حجر
Antonym	طباق/ حكمة معناها مضاد لمعنى كلمة أخرى
Gentry	طبقة أرستقراطية
Operandi Modus	طريقة العمل
Insurgent	عاصي/ متمرّد
Ecumenical	عالمي/ مسكوني
Plebs	عامة الشعب
Plebs	عامة في روما القديمة/ دهماء
Journeyman	عامل مياوم/ بارع
Roturier	عامي/ شخص الذي له نسب نبيل

عِزْبة كبيرة	Latifundium
عزوبة	Celibacy
عصيان مسلَّح	Insurrection
عقد/ براءة (بحقوق وامتيازات)	Charter
علاوة صغيرة	Pittance
علم أصول التدريس	Pedagogy
علم تحسين النسل	Eugenics
علم دلالات الألفاظ وتطورها	Semantics
علم الوراثة	Genetics
عيش/ مورد رزق	Subsistence
عرّافة	Sibyl
غزوة/ غارة	Incursion
غلوّ في قومية أو وطنية	Chauvinism
فائدة/ ربا فاحش	Usury
فترة القوة والازدهار	Heyday
فذ/ فريد	Sui generis
فلاّح	Yeoman
فلاّح نصف حرّ	Villein
فلاّح نصف حرّ في النظام الإقطاعي	Villein
في المكان الذي تم الاستشهاد به	Loc.cit.
قانون	Jurisprudence
قانون خطر	Prohibition
قسم من البروليتاريا ينقصه الوعي الطبقي	proletariat Lumpen
قنانة/ عبودية الأرض	Serfdom

Melancholy	كآبة/ نزوع للحزن
Excavations	كشف عن الآثار عبر الحفريات
Vernacular	لغة عامية/ لغة وطنية
Enigma	لغز/ أحجية
Clause	مادة في قانون
Obtrusive	متطفِّل
travel Fellow	متعاطف مع حزب
Literate	مثقَّف
Aphorism	مثل/ قول مأثور
Review	مجلّة نقدية
Putsch	محاولة انقلاب/ عصيان مسلح
Laudation	مدح/ تمجيد
Voluntarism	مذهب الإرادة
Solipsism	مذهب الأنانية المطلقة
Guro	مرشد/ معلم روحي
Manor	مزرعة/ عزبة
Tenant	مستأجر أرضاً (أو بيتاً)
Homestead	مسكن وما حوله من أرض
Fire – Eater	مشعوذ يأكل النار
Tenet	معتقد
Tenor	مغزى/ فحوى
Anachronism	مفارقة تاريخية/ أي شي يوضع في غير زمانه الصحيح
Barter	مقايضة/ مبادلة

مقتطفات أدبية مختارة	Anthology
مقصور على فئة قليلة	Esoteric
ملاحظات هامشية	Marginalia
ملحق	Pendant
ملحق/ مساعد	Adjunct
ملكية مشتركة	Community
مندوب/ ممثل	Delegate
منفي/ مغترب	Expatriate
مواطن (خاصة في مدينة متمتعة بحكم ذاتي)	Burgher
مؤتمر/ اجتماع	Congress
نجم/ شخص بارز	Luminary
نسخ/ نقل	Transcription
نطاق/ مدى	Ambit
نظام أساسي	Statute
نفي/ إنكار	Denigration
نقابة التجار والصناع في القرون الوسطى	Guild ,Glid
نقد ساخر عنيف	Diatribe
نهّاب	Marauder
نهب/ سلب	Pillage
هاوي	Dilettante
هجوم نقدي عنيف/ جدل	Polemic
هجين	Mongrel
هرطقة/ ابتداع	Heterodoxy
هرطقي/ ابتداعي	Heterodox

هفوة/ زلّة	Slip
هيمنة	Hegemony
وابل/ كثر من القذائف	Salvo
وافر/ غني	Affluent
وحشي/ قاسٍ جداً	Draconian
ورق البَرْدي (المتَّخذ في الكتابة)	Papyrus
وضع راهن	quo Status
وفرة	Affluence
وفرة/ زيادة	Plethora

الفهرس

-ب-

-ت-

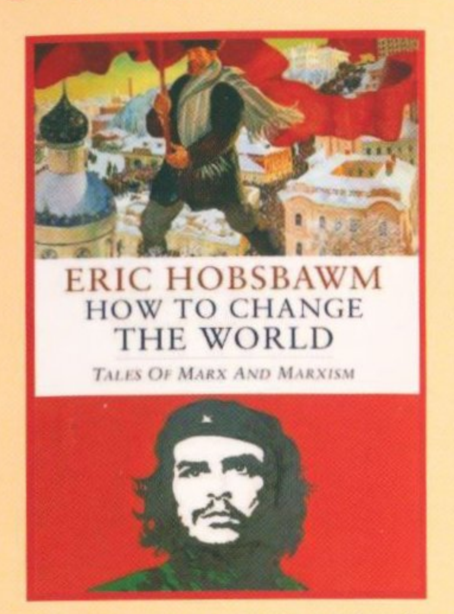
-ث-

-ح-

-د-

كيفية تغيير العالم

حكايات عن ماركس والماركسية



- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم

«نحن بحاجة إلى أن نحسب حساب ماركس، اليوم»، وفق ما بحثه إريكْ هوبْزْباوْم في هذا الكتاب المقنع الذي يستحق القراءة، بمقدار كبير. وفيه يناقش المؤلف أفكار عدو الرأسمالية الأقوى والأفصح كانت ولا تزال مصدر تنوير في كل حقبة زمنية، ووضعنا التاريخي الحالي المتّصف بتطرفات السوق الحرّ يوحي بأن قراءة ماركس قد تكون مهمة الآن أكثر من ذي قبل.

يبدأ هوبْزْباوْم ببحث الكيفية التي علينا بها أن نفكّر بالماركسية في عصر ما بعد الشيوعية، ملاحظاً أن السمات التي نربطها بالنظام السوفيتي والأنظمة ذات الصلة به- مثل اقتصاديات الأوارم البيروقراطية المتداخلة والحالة الاقتصادية والسياسية للحرب الدائمة- ليست سمات مستمدة من أفكار ماركس كما أنها ليست فريدة في الدول الاشتراكية. أما الفصول الإضافية فتبحث في الاشتراكيين السابقين للماركسية، والانفصال الراديكالي (الجذري) عنهم الذي قام به ماركس، وفي وسط ماركس السياسي وأثر كتاباته في العقود الزمنية المضادّة للفاشية، والحرب الباردة، وفترة ما بعد الحرب الباردة. فكتاب **كيفية تغيير العالم** الشامل، المثير والمدخر بالرؤى المتألقة يحرّضنا على إعادة النظر بماركس وإعادة تقييم أهميته في تاريخ الأفكار.

- **إريكْ هوبْزْباوْم**: أستاذ فخري في قسم تاريخ الكلاسيكيات، علم الآثار القديمة ورئيس جامعة بيربك (Birbeck) في لندن.

- **حيدر حاج اسماعيل**: أستاذ الفلسفة سابقاً في جامعة أوهايو في الولايات المتحدة الأميركية وفي جامعة بيروت العربية، وحالياً أستاذ الترجمة في الجامعة الأميركية للعلوم والتكنولوجيا.



المنظمة العربية للترجمة

الثمن: 26 دولاراً
أو ما يعادلها

ISBN 978-614-434-063-9
9 786144 340639